الأعمال الكاملة

فتحى غانم



الرجل الذى فقد ظله



الجزء الأول

مبروكة . سامية

فتحي غانم

الرجل الذى فقد ظله

القسم الأول ترويه :

مبروكة

القسم الثانى ترويه

سامية

يناير ١٩٨٨

المدير الفني : عدلي فهيم
رسوم الغلاف : الفنان جمال كامل
الرسوم الداخلية : للفنانين جمال كامل ● مأمون
التنفيذ : ماري ميخائيل ● مشيرة صبري

الإهداء

... إلى صلاح جاهين



القسم الأول ترويه :

مبروكة



الفصـــل الأول

أنا مبروكة ..

مبروكة عبد التواب .. أرملة عبد الحميد أفندي السويفي الذي كان مدرساً في المدرسة الابتدائية ، مازلت شابة ، وحلوة ، قوامي ممشوق ، ردفاي ممتلئان قليلا ، وهذا يعجبني ، أما صدري فصغير ، وهذا يضايقني ، الرجال ينظرون إليّ بعيون مفتوحة ، فأشعر بسعادة وحيوية ورغبة دائمة في الحركة ، لا اهدأ أبداً حتى في الأيام التي استريح فيها في البيت ، أطبخ واغسل واكنس ، واخرج إلى الشارع ساعة الغروب ابحث عن ولدي إبراهيم ، فأجده يلعب الكرة الشراب فأجذبه من جلبابه وأجره أمامي إلى البيت ليذاكر دروسه . بينما استحم وامشط شعري ، ثم أجد بعد ذلك وقتاً طويلاً أتوه فيه مع الحقد الذي يشتعل في صدري .

قلبي لا يعرف سوى عاطفة واحدة هي الحقد ، أحقد بكل شبابي ، أحقد بعمري .

أحقد على رجل أتمنى موته ، موتاً بطيئاً يتعذب فيه ، أتمنى لو فتحت بطنه بسكين ، ومددت يدي في جرحه ، وانتزعت كبده ونهشتها بأسناني ، أتمنى لو دفعت أظافري في عينيه وفقأتهما ، لو شربت من دمه .

اسمه يوسف ، يوسف عبد الحميد ابن المرحوم من زوجته الأولى .

أحياناً أسأل نفسي كيف وصلت إلى هذا الحقد، وما هي آخرته. إنه يكتم أنفاسي ويلاحقني ليل نهار، حتى وأنا أنظر إلى وجه إبراهيم، تختفي صورته، وأرى وجه يوسف، وأود لو قمت وحطمت ضلوعه، لولا صوت خافت يهمس في أذني «كوني عاقلة يا مبروكة، هذا ابنك إبراهيم، لا تعبسي، ابتسمي في وجهه، إنه ليس يوسف».

واترك إبراهيم وأذهب إلى سريري، أرقد عليه، وأحدق في سقف الحجرة، وصدري يلهث. وصورة يوسف تؤرقني، وتحرمني من النوم.

أول مرة رأيت فيها يوسف، كانت منذ زمن بعيد، وأنا صبية صغيرة. لا أدري عن الدنيا شيئاً، كان عمري في ذلك الوقت لا يزيد على عشر سنوات وكنت أعمل خادمة في بيت كبير بالجيزة، لم أكن أعلم أيامها طبيعة عملي، ولا معنى أن أكون خادمة، كل ما كنت أعلمه أن أمي حملتني ذات يوم من قريتنا، وركبنا القطار مع الشيخ دسوقي الذي لم يكف عن الحديث مع أمي طوال الطريق، وأنا لاهية عنهما بالأشياء العجيبة التي تحدث لي.. القطار الذي أركبه لأول مرة في حياتي والدنيا الواسعة التي تجري أمام القطار، والمحطات التي يقف عندها فيصعد ناس ويهبط ناس، ثم ذلك الرجل الغليظ الذي ما كاد يظهر بملابسه الزرقاء.. حتى جذبتني أمي وجعلتني أنكمش جوارها، وجاء الرجل وحدجني بنظرات قاسية أفزعتني، وسأل الشيخ دسوقي عن عمري وهو يفحص تذاكرنا، ثم مضى لحاله وهو مازال يصوب إلي نظراته الحادة التي لم أفهم لها سبباً.

في تلك اللحظة شعرت بالخوف. ولازمني هذا الشعور وأنا أهبط من القطار إلى المدينة الكبيرة، خفت من الطريق الواسع الذي تتزاحم فيه السيارات، خفت من المباني العالية كأنها بيوت المردة والشياطين، خفت من الناس، كانوا يذكرونني برجل القطار، وكأنهم سيمسكون بي في أية لحظة، ويسألون عن عمري. لسبب مجهول لا أعلمه.

وركبنا الترام، وأنا أظن أنه قطار آخر، وعيناي زائغتان لا تريان شيئاً

مما يدور حولي، فجلست القرفصاء عند قدمي أمي، وأمسكت بذيل ثوبها الأسود، لا أرفع رأسي مهما حدث من شيء. وقاومت رغبة البكاء، خفت أن أبكي فيسمعني أحد، وينتبه الناس إلى وجودي.

وهبطنا من الترام، وسرنا في طريق واسع تحف به بيوت لها حدائق، فشعرت ببعض الراحة وأنا أرى الخضرة من جديد. وأمي مازالت تتحدث مع الشيخ دسوقي، لا توجه إلي كلمة واحدة، وقد أسرع الاثنان الخطى، فأجري خلفها، وأتشبث بثوب أمي، خشية أن تنساني فأضيع منها...

ووصلنا إلى بيت له حديقة.. ويجلس عند بابه رجل أسود يضع على رأسه عمامة كبيرة، سأله الشيخ دسوقي:

- راتب بيه موجود يا عم عثمان؟

فأجابه وهو ينقل عينيه بيني وبين أمي:

- البيه خرج ولسه ما جاش..

وعاد الشيخ دسوقي يسأله:

- والست الكبيرة؟

- موجودة

- طيب أدخل أسلم عليها..

وتركنا الشيخ دسوقي، ودخل الحديقة، ولم يصعد السلم الأبيض المفضي إلى الباب كما كنت أتوقع وأنا أرقبه، دار حول البيت واختفى وراءه بينما جلست أنا وأمي القرفصاء إلى جانب الدكة التي يجلس عليها عم عثمان.

ولاحظت أن عم عثمان يطيل النظر إلينا، ثم قال فجأة:

- ما تقعدوش قدام الباب.. خشوا جوه..

قالت له أمي:

- نجعد جوه فين؟

فأشار إلى الناحية التي ذهب إليها الشيخ دسوقي وراء البيت وقال:

- هناك..

ونظرت إليه امي في حيرة ، فقام متكاسلا قائلاً :

ـتعالوا معايا ..

ومشى أمامنا حتى منتصف الحديقة واشار إلى ممر بجانب البيت ، وطلب منا أن نسير إلى نهايته ، ونجلس في آخره ، فنفذنا طلبه ، ووجدنا خلف البيت فناء صغيراً فيه عشة للفراخ جلسنا إلى جوارها .. وكان أمامنا باب ضيق مفتوح .. ونافذة يبدو من داخلها رجل يلبس فوق رأسه طرطوراً أبيض يقف أمام أوان فوق النار تتصاعد منها ابخرة طعام حرك أحشائي وأسال اللعاب في فمي ..

مضى بعض الوقت ، وأنا أرقب الفراخ ، وأتشمم رائحة الطعام ، وأعجب لمنظر الطرطور فوق رأس الرجل ، وكان ينظر إلينا بين وقت وآخر دون أن يخاطبنا بكلمة واحدة، ثم ظهر الشيخ دسوقي خارجاً من الباب الضيق ، وما كاد يرانا حتى أقبل على أمي متهلل الوجه وقال لها :

ـ الست الكبيرة رضيت يانفيسة .. لو عجبتها ح تدفع ثمانين جرش وهالني الرقم .ثمانين قرشاً ، إنها ثروة كبيرة ، ولكن لن هذه الثروة لن تدفعها الست الكبيرة .

وقامت أمي وجذبتني من يدي ودخلنا الباب وراء الشيخ دسوقي ، وعاودني الشعور بالخوف ، لم افهم ما اراه كأني ادخل عالماً مسحوراً ، وصعدنا سلماً طويلاً ، حتى وصلنا إلى باب مفتوح ، تنحنح أمامه الشيخ دسوقي ، وطرقه ثم التفت إلينا وطلب منا الدخول .

رأيت سيدة عجوزاً وجهها مضيء كأنه البدر ، تلف رأسها بطرحة بيضاء وتجلس على أريكة عريضة ، وغطت أمي يدها بطرحتها السوداء وصافحت السيدة وانحنت على يدها تقبلها وهي تدعو لها بطول العمر ودوام العز .. ثم التفتت إليّ ولكزتني في كتفي قائلة :

ـ ما تحبي على ايد ستك يابت ..

وقبلت يدها التي سحبتها بسرعة قبل أن تلمسها شفتاي ، وسألتني بصوت ضعيف .

ـ اسمك إيه يا شاطرة ؟

ـ واسرعت امي تلكزني في كتفي :

ـ جولي للست اسمك يا بت

فأطرقت برأسي وقلت :

ـ اسمي مبروكة .

ولكزتني أمي من جديد وكأني ارتكبت جرماً كبيراً وقالت :

ـ خدامتك مبروكة .. وكلنا خدامينك يا ست ، وطول عمرنا عايشين بنفسك ونفس البيه الكبير .

وانطلقت أمي في دعواتها للسيدة العجوز التي التفتت إلى الشيخ دسوقي وقالت له بصوتها الضعيف :

ـ خلاص اتفقنا يا شيخ دسوقي .

ومدت السيدة يدها إلى شيء بجانبها لم أعرف ما هو ، نظرت فيه ثم قالت :

ـ لسه الضهر ما جاش ..

وكما صعدنا السلم هبطنا منه ، وعدنا إلى مكاننا بجوار عشة الفراخ بينما تركنا الشيخ دسوقي وذهب ليجلس مع عم عثمان في انتظار حضور راتب بيه ..

وطال غياب الشيخ دسوقي ، ورائحة الطعام تنفذ إلى أنفي فينهش الجوع أمعائي . ولكني لا أستطيع أن أسأل أمي متى سنأكل ، لو سألتها ستلطمني على وجهي ، فهذه هي عادتها معي ومع أخوتي ، يجب ألاّ نسألها أبداً متى سنأكل ، أو نشكولها الجوع ، تعودنا أن ننتظر حتى تأتينا بالطعام ، فإذا لم تأت به ، بتنا ليلتنا جائعين صابرين

ورأيت رجلاً آخر ينضم إلى الرجل الذي يلبس الطرطور ، والاثنان يتحركان في نشاط ، ثم وضع الرجل الآخر حزاماً أحمر حول خصره . وبدأ يرفع أطباقاً عليها كميات ضخمة من الطعام .. كلها لحم وطبيخ وأرز يخرج بها ثم يعود ليحمل غيرها .

رأيته وأنا مبهورة ، لا أدع منظره يفلت من عيني حتى يغيب وراء الباب

والجوع يقرصني فأكاد أمسك بحفنة من الطين وأقضمها بأسناني ..

ولكن عذابي لم يطل ، إذ خرج الرجل ثم رأيته يعبر الباب إلينا وهو يحمل بين يديه صينية عليها أطباق مليئة بالطعام وأرغفة ، وضعها أمامنا وانصرف دون أن ينبس بكلمة .

أذهلني منظر الطعام ، زاغت عيناي وأنا أرى قطع اللحم والملوخية والأرز واختطفت أمي رغيفاً مزقته بأسنانها ، وقالت لي بفم يملأه الطعام :

- كلي يا بت ..

وأكلت وأكلت ، حتى لم يبق أمامي غير الصحون خاوية نظيفة ، وبطني تؤلمني من التخمة ، ولكن سعادتي كانت عظيمة ، وقلت لنفسي متى سآكل مثل هذه الأطعمة مرة ثانية ..

وقالت لي أمي :

- بت يا مبروكة .. انتِ ح تجعدي هنا ..

ولم أفهم ماذا تريد من كلامها . فسكت بينما مضت هي تقول :

- ح تجعدي مع الست الكبيرة وتخدميها .. سامعة يابت ..

قلت في اضطراب :

- وح تجعدي معايا ياامه ..

قالت على الفور :

- ح أجعد أعمل إيه .. أنا مروحة لاخواتك ..

- ح تسيبيني يا امه ..

قلتها وأنا على وشك البكاء .. فحدجتني بنظرة قاسية وقالت :

- يابت تاكلي زفر كل يوم .. وتلبسي هدوم نضيفة

وأيقنت أنها ستضربني لو تماديت في الكلام .. وكنت خائفة منها ، ولكن خوفي من هذا البيت كان أكبر ، ونسيت فرحتي بالطعام الذي أكلته إنه لا يعوضني عن أمي وأخوتي وقريتي ، ولا يمنع عني الخوف .

قلت وأنا أرتجف :

- أنا خايفة ياامه ..

فشتمتني ، وقالت لي : إنها تحسدني ولولا أخوتي لهجرتنا وتركتنا وحدنا في القرية للفقر والجوع ، وجاءت هي إلى هذا البيت حيث الطعام والنعيم وجاء الشيخ دسوقي ، تبدو على أسارير وجهه علامات الانشراح ، وقال لأمي : إن موعد الرحيل قد آن فدمعت عيناي ، وتشبثت بها ، طوقتها بذراعي واحتضنتها بقوة .. فدفعتني بقسوة ، وصفعتني ، ثم هجمت علىّ واحتضنتني وقبلتني .. ورأيتها تتلفت حولها في حيرة ، ثم نادت على الرجل الذي أتى لنا بالطعام وكان يراقبنا من النافذة ، وأوصته بي وهي تستحلفه باسم الله والنبي وسيدي إبراهيم الدسوقي ..

فأقبل الرجل علينا ، وأمسك بيدي وجذبني إلى داخل البيت ، بينما انصرفت أمي مع الشيخ دسوقي .. وهي تتمتم بدعوات لي .

●●

ومرت أيام وأيام ، ومرت شهور وشهور ، والدنيا من حولي تتغير .. وما كنت أدري أني أيضا أتغير .. البيت الذي كنت أظنه عالماً مسحوراً تحول شيئاً فشيئاً إلى ثلاثة طوابق . وحجرات للنوم والجلوس والأكل ، والرجل الذي يلبس الطرطور عرفت أنه الطاهي . والرجل الذي يضع الحزام الأحمر حول خصره عرفت أنه خادم مثلي ، وعم عثمان عرفت أنه البواب ، والشيء الذي تضعه السيدة العجوز إلى جانبها وتنظر فيه بين وقت وآخر اسمه « المنبة » وهي تحمله معها ولا تفارقه أبداً حتى لا تفوتها مواعيد الصلاة ، وعرفت أن السيدة العجوز ليست المرأة الوحيدة في البيت ، إنها أم راتب بك ، وأناديها « ستي الكبيرة » وهناك « ستي الصغيرة » زوجة راتب بك ، وستي سعاد ابنة راتب بك ، وكانت تكبرني قليلا ، ثم هناك سيدي الصغير مدحت وهو في مثل سني ، يذهب كل صباح هو وسعاد إلى المدرسة ويعودان ساعة العصر ، فيملآن البيت ضجيجاً .. ويصعدان إلى جدتهما في الطابق الأعلى ،

يجلسان معها ، ويأخذ كل واحد منهما قرش صاغ ، ثم يخرجان إلى السطوح وهو جزء من الطابق الأعلى ويلعبان بكرة بيضاء صغيرة فوق منضدة خضراء ، مضت شهور طويلة قبل أن أعرف اسمها « بنج بنج » .

وساعة الغروب يكفان عن اللعب ، ويأتي المدرس ، رجل سمين أحمر الوجه له شارب أصفر ، كان يدخل مع مدحت حجرة في السطوح ويذاكر له ..

وأحياناً كان يأتي مع المدرس ابنه وهو في مثل سن مدحت ، ليذاكر الاثنان معاً ، وفي بعض الأوقات يأتي ابن المدرس مبكراً ، ويلعب البنج بنج مع مدحت في انتظار والده .

وكنت أقف أرقبهما ، وإذا سقطت الكرة من فوق السطوح ، طلب مني مدحت أن أحضرها ، فأسرع إلى الست الكبيرة وأستأذنها ، ثم أجرى إلى الحديقة وأحضر الكرة .

أهو حلم أم علم ، أم قدر مكتوب أن يكون هذا المدرس هو عبد الحميد أفندي السويفي . زوجي الذي مات وترك لي ابنه مني ، ولدي إبراهيم ؟!

حلم أم علم ...

أن يكون يوسف عبد الحميد السويفي هو الرجل الذي أحقد عليه اليوم وأتمنى موته بعد أن أشرب من دمه .

مرت سنوات ، ومرت سنوات ، وأنا أخدم الست الكبيرة ، أحمل لها المنبه أينما سارت ، وأدلك لها قدميها بعد أن تصلي العشاء ، وأغسل لها ملابسها ، وأكنس وأنظف الطابق الأعلى والسطوح ، كنت لا أستريح أبداً ، ولا أعرف ما هي الراحة ، فإذا بقي لي بعض الوقت ، ذهبت إلى الست الصغيرة أرقبها وهي تحيك بيجامات مدحت وقمصان نوم سعاد ، وكانت تشجعني فتعلمت منها الحياكة وشغل الإبرة .

كبرت .. وأدركت مع كل هذه السنوات مركزي الحقيقي في البيت خادمة نسيت ماضيها ، تذكر أمها وأخواتها وقريتها، كأنها حلم قديم حياتها كلها ، أفراحها وأحزانها ، مرتبطة بما يدور في البيت ، كنت أفرح يوم أحصل على

فستان قديم لسعاد ، وأحزن يوم تمرض ستي الكبيرة ، وأفكر كما لو كان هذا البيت هو الدنيا كلها ، أما خارج البيت فعالم آخر لا صلة لي به ....

ومع مرور السنين ، لم يعد مدحت في حاجة إلى دروس عبد الحميد أفندي ولكنه كان لا يزال يتردد على البيت في فترات متباعدة ، وعلمت أنه قريب لراتب بك ، وكان يوسف يتردد هو الآخر ، ولكنه يصعد إلى السطوح ويقف مع سعاد يطلان على الشارع ويتهامسان أو يغرقان في صمت طويل فإذا أحسا بوجودي التفتا إليَّ في قلق وتأمرني سعاد بأن أذهب لأحضر لها كوب ماء أو أشترى لها قرطاس لب وكنت أحياناً أراقبهما خفية فأتستر وراء باب السطوح ، وأجلس في ظلام الغروب أختلس النظر إليهما ، وذات مرة رأيت يوسف يقترب بوجهه من سعاد حتى التصق خده بخدها وقبلها قبلة سريعة فوق جبينها ، فلم تتحرك سعاد ، وابتعد هو عنها ، وظلا واقفين صامتين حتى سمعت صوت أقدام مدحت وهو يصعد السلم ، وكان في الخارج ، فلما عاد إلى البيت رأى عبد الحميد أفندي في زيارة والده وعلم أن يوسف قد جاء معه ، فأسرع إليه .. وعندئذ خرجت من مكمني وفاجأت سعاد ويوسف قائلة لهما في لهفة غير عادية :

- سيدي مدحت طالع على السلم فظهر عليهما الارتباك ، وارتبكت أنا أيضاً ، فوقفت مكاني حتى جاء مدحت ووقف معهما ، ثم التفتت سعاد إليَّ ونهرتني في حدة :

- واقفه بتعملي ايه يابت .. يالله امشي من هنا ..

فأطرقت برأسي ومشيت ..

كنت أعرف أن ما بين سعاد ويوسف هو الحب ، وكنت أشعر بالغيرة نحو سعاد وأقارن بينها وبيني ، إنها ستتزوج يوسف وسيصبح لها بيت مثل هذا البيت ، وخدم يلبون طلباتها ويتولون رعايتها ، أما أنا فمن يحبني ومن يتزوجني ، كان هذا السؤال يطوف برأسي كلما رأيت سعاد ، فأحاول أن أتخلص منه فلا أستطيع وظل السؤال يلاحقني ويطرق طرقات عنيفة في

رأسي ، وفجأة خطر لي خاطر مجنون تشبثت به واسترحت له ، رغم أني واثقة أنه جنون في جنون .

عاد مدحت إلى البيت ذات يوم ودخل حجرته ، ثم سمعته يصرخ منادياً على إسماعيل الخادم ، كان ينادي في الحاح كأنه يستغيث ، فذهبت وطرقت بابه ، ودخلت عليه فوجدته قد خلع بدلته وامسك بها بين يديه ، ووقف وسط الحجرة بملابسه الداخلية ، وما كاد يراني حتى بدا عليه الارتباك ، وخفض بصره وقال لي في خجل :

- هو إسماعيل فين ؟

قلت له :

- موش عارفه ..

فشتم إسماعيل ، ثم أعطاني البدلة وطلب أن اسرع بها إلى الكواء لينظفها من بقع حبر تناثرت عليها .

نظرت إلى البدلة وصحت دون وعي :

- وايه اللي عمل كده ياسي مدحت .. دي البدلة باظت .

ونظرت إليه كأني الومه فرأيته ينظر إلى الأرض ، وشعرت اني تجرأت بسؤالي ، واني اطيل الوقوف داخل حجرته وهو شبه عار ، فدق قلبي وخرجت بسرعة لا أرى شيئاً أمامي من الخجل ..

وفي تلك اللحظة ، خطر لي ذلك الخاطر المجنون ، خطر لي أن مدحت شاب وأنا فتاة ، وأنه قد يحبني ويرغب في الزواج مني ، كما أحب يوسف سعاد ، وسيتحدى مدحت أهله ويصمم على زواجه مني ، وسأترك معه هذا البيت إلى بيت آخر مثله ويكون لنا خدم وخادمات ، لماذا لا يحدث هذا أهو كثير على الله أن يحققه ..

ومنذ ذلك اليوم وأنا أحاول التقرب من مدحت ، واهتممت بمظهري واعتنيت بملابسي ، كنت دائماً نظيفة اختلس الصابون ذا الرائحة المعطرة من الحمام واستحم به ، وتعلمت كيف اقف أمام المرآة لامشط شعري ، وازداد ثقة في جمالي ، وكنت أسرع إلى تلبية أي نداء لمدحت وأتعمد الوقوف في طريقه

وأخاطبه بصوت ناعم رقيق ، ولكنه لم ينتبه إليّ وإذا ذهبت إليه قال لي :

- روحي شوفي المصيبة إسماعيل ..

وافقت من أحلامي ذات يوم على صوت عوض الكواء وهو يغازلني ، كنت قد تعودت التردد على دكان الكواء ، وهناك رآني عوض ، شاب أسمر نحيف أكرت الشعر ، صوته جميل ، يردد مع مذياع الدكان أغاني عبد الوهاب ، وفريد الأطرش ، وليلى مراد ، وأسمهان ، وكان من عادة عوض أن يستقبل كل خادمة بأغنية ، واحدة يغني لها « يادنيا ياغرامي .. يادمعي يابتسامي » وواحدة يغني لها « الحب حد يعرف ايه معنى الحب » أما أنا فكان يغني لي أغنية فريد الأطرش « بأحب من غير أمل وقلبي راضي وسعيد » .. كنت اتجاهل عوض وأرفض أن أتعامل معه واخاطب زميله حسنين وهو اكبر منه وأعقل منه ومتزوج وله اربعة عيال ، ولكن لم ييأس أبداً ، بل زاده تجاهلي جرأة ووقاحة ..

في تلك الأيام كنت اسمعهم يتحدثون عن الحرب ، فلا افهم عن أي شيء يتكلمون ، وأعجب للقلق البادي على الوجوه ، فلما ساد الظلام شارعنا ، وظهر فيه شبان يلبسون المعاطف الصفراء ويصيحون أمام البيوت « اطفي النور .. اطفي النور » خيل لي أن الحرب فيها عفاريت وجنيات وأنها شيء يحدث في الظلام ، ولاحظت أن ستي الصغيرة تهتم بتخزين السكر والجاز ، وأنها تكثر من دخول المطبخ والشجار مع الطاهي ، وحرمنا من أكل اللحم في بعض الأيام وأصبحت العشة ما تكاد تمتلىء بالفراخ حتى تفرغ منها .

كنت أشعر أن حياتنا تتغير ، لم تعد هي نفس حياتنا السابقة ، وبين وقت وآخر نسمع صراخ مدحت وهو يردد نبأ سمعه في المذياع ، فيصعد السلالم ويهبطها قائلاً لكل من يقابله الألمان كسروا الفرنساويين .. الألمان دخلوا مصر .. فيسود الوجوه وجوم ثقيل ، وتتخذ الأصوات حدة لم أتعود سماعها ، وتكثر ستي الكبيرة من رفع يديها إلى السماء .

وكانت الحرب سبباً في قلة زيارات عبد الحميد أفندي ، أما يوسف فكان يتردد علينا بين وقت وآخر عند عودته من الجامعة مع مدحت ، كان يوسف في

كلية الحقوق ، وكان مدحت فى كلية الهندسة ، أما سعاد فلم تدخل الجامعة ، وبقيت فى البيت بعد أن رسبت فى الشهادة مرتين ..

وكنت ألاحظ قلق يوسف ، وهو يبحث بعينيه عن سعاد ، وينتظر دخولها عليه وهو جالس مع مدحت ، وكانت سعاد قلقة هى الأخرى .. لا تستقر فى مكان بمجرد أن تعلم بوجود يوسف فى البيت ، تدور حول أمها وجدتها ، وتخرج من حجرة لتدخل حجرة ، وتنادى بأعلى صوتها ، ثم تذهب إلى الحجرة التى يجلس فيها يوسف ، وتدخلها وتحييه ثم تسرع إلى غرفتها وتغلق الباب ، لتفتحه من جديد وتدور كالنحلة فى البيت .

أحياناً كانت تمسك بكتاب وتدخل على يوسف وتحدثه عن شىء قرأته ، وأحياناً كان يوسف يحضر لها كتاباً من عنده ، وكنت أسأل نفسى ، لماذا لا يتقدم يوسف للزواج منها ، ما الذى يمنعه ، ما الذى يعطله .

إلى أن جاء يوم صعد فيه راتب إلى ستى الكبيرة ، وهو نادراً ما يصعد إليها ، وقال لها :

- مبروك يا أمى .. سعاد انخطبت لدكتور من عيلة ثروت .. جراح عنده مستقبل بيشتغل فى القصر العينى وعنده عيادة كمان ..

قالت له الست الكبيرة :

- ألف مبروك يا ابنى .. دول ناس طيبين .. جيرانا وأرضهم جنب أرضنا .. عقبال ما نفرح بمدحت ..

وتنهدت وقالت من قلبها :

- نفسى أشوفه يتجوز قبل ما أموت

غمرنى فرح طائش وأنا أسمع بزواج سعاد ، لم أفرح لها ، فرحت لمصيبتها ، لأنها لن تتزوج يوسف وستتزوج رجلاً لا تحبه .

لم تعترض سعاد على الزواج ، ولكنها كانت واجمة شاردة ، ينسكب الحزن من عينيها ، وكنت وحدى فى البيت كله ، أعرف سرها .

وجاء يوسف صباح يوم فى موعد لم نتعود استقباله فيه ، رأيته يدخل الحديقة ، وأنا أطل على الشارع من السطوح بعد أن فرغت من نشر الغسيل

فجريت إلى السلم ، وهبطت درجاته قفزاً ولحقت به وهو يدخل من الباب .

قلت له :

- سيدى مدحت لسه ماجاش ..

فقال لى فى وجوم :

- أنا عايز ستك سعاد .. روحى اندهى لها ..

وجريت إلى سعاد وقلت لها إن يوسف فى البيت ، فلم تصدقنى ، وارتبكت وجعلت تسألنى أكثر من مرة :

- هو فين .. هنا فى البيت .. قال لك إنه عايزنى .

ثم تركتنى وذهبت إلى يوسف ، وكان واقفاً فى البهو ، وتبعتها .. ما كاد يراها حتى قال لها بصوت حزين :

- أنا متأسف .. بس المكتبة عايزه منى الكتاب ..

وذكر لها اسم الكتاب .

قالت له :

- طيب ما تتفضل تقعد ..

فقال بسرعة :

- معلهش أنا مستعجل ..

وشعرت بخيبة أمل ..

ولكنى سمعته يقول وهو يحاول أن يضحك :

- مبروك يا سعاد ..

قالت له بصوت خفيض :

- الله يبارك فيك ..

وصمتا برهة ، ثم سمعته وهو يضحك ضحكة غريبة ، ضحكة مشروخة :

- خلاص ح تتجوزى ..

فقالت له :

- أيوه ..

- مبسوطة ..

- على إيه ؟
- طيب ح تتجوزى ليه ؟

قالت بعد صمت :

- أعمل إيه يعنى ؟

وسكتنا ..

ثم قالت سعاد بلهجة كأنها غاضبة :

- أنا رايحه أجيب لك الكتاب .
- إذا كنت مخلصتهش بلاش ..

فقالت بحدة :

- لا .. أنا موش عايزاه .

وصعدت سعاد إلى غرفتها ، وأنا منزوية خلف باب حجرة الطعام ..

وارتجفت وأنا أسمعها تنادى علىّ :

- مبروكة .. مبروكة ..

صعدت لها ، فلما رأتنى صرخت :

- بتعملى إيه تحت ؟

قلت لها بسرعة :

- كنت عند الأسطى علشان اللبن الزبادى بتاع ستى الكبيرة .

فنظرت إلىّ نظرة طويلة ، وهى تمد يدها إلى بالكتاب ، ثم عادت وسحبت يدها وقالت لى فى لهجة آمرة :

- طيب انجرى على فوق ..

وهبطت هى السلم ومعها الكتاب ولم تغب ، عادت مسرعة إلى غرفتها وأغلقت الباب ..

كانت ستى الصغيرة فى الخارج فلما عادت سألت عنها ، وذهبت إليها فى غرفتها . ولم تترك سعاد الغرفة ساعة الغداء وظلت محبوسة داخلها حتى أخرجتها القنابل .

فى تلك الليلة أطلقت صفارات الإنذار وكنا قد تعودنا عليها ، ثم سمعنا لأول مرة دوى القنابل فوق رءوسنا ، وهبطت مع ستى الكبيرة وأنا أحمل لها المنبه وسجادة الصلاة واجتمعنا كلنا فى البدرون ، وكانت ستى تردد آية الكرسى بلا انقطاع ومدحت يحاول أن يضحك فينهره راتب بك فى عصبية وهو يدخن سيجارة وراء سيجارة ، ويطلب من إسماعيل أن يخرج إلى الحديقة ليتأكد أن ضوء السيجارة لا يرى من الخارج . ويطلب منى فى كل دقيقة أن أحكم إسدال الستائر على النوافذ ، وكان يجلس تحت عامود اختاره حتى لا تنهار عليه الأنقاض لو سقط البيت .

كنا جميعاً خائفين ما عدا سعاد .. جلست ساهمة ، وقد وضعت يدها على خدها ، كأنه لا يعنيها أن تحيا أو تموت ..

ولما أطلقت صفارات الأمان ، صعدوا جميعاً إلى الطابق الأول وقد طار النوم من عيونهم ، وجلسوا معاً . أما سعاد فصعدت وحدها إلى غرفتها وهى تقول كأنها تحدث نفسها :

- لو حصلت غارة ثانية أنا موش نازلة ..

فقالت لها أمها ساخرة :

- أيوه علشان تموتى ويبجى عريسك يتخانق معانا .. لا لازم تنزلى .

ونظرت ستى الكبيرة إلى المنبه وقالت :

- يوه يا أولاد .. دا الفجر قرب وكانت جالسة على أريكة ، ومدت قدميها ، وطلبت منى أن أدلكهما ، وانطلقت تحدثهم عن هوجة عرابى والإنجليز وأيام كانت تخرج إلى الشارع وهى طفلة صغيرة وتهتف .. يا عزيز يا عزيز كبة تاخد الإنجليز .

كنت أستمع إليها بشغف وأنا فرحانة لأن مدحت يجلس قريباً منى وينصت معى إلى أحاديث جدته ..

وتجرأت وسألت ستى :

- الهوجة دى تبقى إيه يا ستى ..

فضحكوا ، حتى راتب بك ضحك كأنهم يبحثون عن أى شىء يضحكهم ، وقال لى مدحت :

- يعنى ثورة ..

فشعرت بزهو كبير لأنه رضى أن يجيب على سؤالى ، وقلت لنفسى إن هذه الغارة رغم بشاعتها جعلتنى أجلس وأتحدث فى حجرة واحدة مع راتب بك ومدحت وكأنى واحدة منهم ..

فلما حكت ستى الكبيرة عن أبيها الضابط الذى اشترك مع عرابى . وكيف كان يغيب عن البيت سنوات فإذا عاد لم تعرفه . ووقفت من بعيد تختلس النظر إليه وهو جالس مع رجال العائلة ، وتسأل نفسها : أهذا هو أبوها ، وتجرى إلى أمها وتسألها أهذا حقاً هو أبى ، عندما سمعتها تروى هذه الحكاية ، نسيت أبى الذى مات وتركنا ، وتخيلت أبى هو هذا الضابط الذى تحكى عنه ستى الكبيرة .

كنت أخاف الغارات ، ولكنى أنتظرها ، واختلط خوفى منها بفرحى باجتماع العائلة وأنا بينهم ، إلى أن وقعت غارة مفاجئة وأنا فى دكان الكواء أنتظر قمصان مدحت لأنه سيسافر فى الفجر فى رحلة .

كانت الساعة التاسعة مساء عندما انطلقت صفارات الإنذار ، ففزعت وتذكرت ستى الكبيرة ، وأردت أن أجرى فى الشارع لألحق بهم فى البدرون ولكن صوت المدفع انطلق قبل أن تنتهى الصفارات ، وجذبنى عوض من يدى وأغلق الدكان علينا .

الفصـــل الثـــانى

فزعت من صوت الباب وهو ينزلق إلى الأرض . أكثر من فزعى من صوت المدافع ، أصبحت وحدى فى الدكان مع عوض ، يستطيع أن يفعل بى ما يشاء ، ولو استغثت فلن ينقذنى أحد ..

كنت أرتجف من الخوف ، وقد التصقت بالباب ، أريد أن أنفذ منه وهو مغلق ، وظن عوض أنى خائفة من الغارة ، فأخذ يواسينى من بعيد فلا أفهم ما يقول ، وعيناى تلاحقان إشارات يديه ، وقلبى يدق مع كل حركة تبدر منه ، أتوقع أن يقترب منى فى أية لحظة ، ويمد يده إلىّ .

ولكن عوض لم يقترب منى ، وشيئاً فشيئاً بدأت أفهم كلامه ، كان صوته جاداً حزيناً وفيه نبرة سخرية ، كان يتهمنى بأنى أتكبر عليه رغم أن معه نقوداً كثيرة ، وغرضه شريف ، فهو يحبنى ويريد أن يتزوجنى .

ودارت رأسى ، لم أعد أدرى هل الدوى الذى أسمعه هو صوت أفكارى أو صوت القنابل فى الخارج ، ولاحظ عوض صمتى ، فتشجع واقترب منى قائلاً :

- آه لو تسمعى كلامى يامبروكة .. وأنا أشيلك فى عنيه الاتنين دول .

صحت فى ذعر :

- ابعد عنى .. أوعى تقرب لى .

فجمد مكانه ونظر إلىّ ساخرا وقال :

— يابت مالك خايفة كده .. هو انا ح اكل منك حته .

وانقذتنى صفارات الامان التى انطلقت تزغرد قبل ان تتحول سخريته إلى غضب كان الله وحده يعرف نتائجه .

ورفع عوض الباب ، وودعنى فى أدب ، وكان قد فرغ من قمصان مدحت . فاختطفتها منه وجريت فى الشارع هاربة ..

ولكن عرض الزواج ظل يدور فى راسى ، ومع الأيام أيقنت أن عوض صادق فى كلامه ، فقد رأيته لا يقابل الخادمات بأغنياته المعتادة ، ولم يعد يغنى لى . كان يهتم بأن يبدو امامى وقوراً عاقلاً مثل زميله حسنين . واشفقت عليه ..

ثم ازدحمت الخواطر فى رأسى ، كنت أسأل نفسى ، لماذا أرفض الزواج منه ، وهل أجد زوجاً أحسن منه ، أم انتظر وانتظر حتى اصبح عانساً ، وأتزوج واحداً من شبان قريتنا فاعود إلى عيشة الفقر والنكد مثل أمى .

انتزعتنى هذه الخواطر من احلامى العبيطة عن مدحت ، وكنت مازلت اقارن بينى وبين سعاد ، فقلت لنفسى إنها تحب يوسف ، ولكنها ستتزوج الطبيب ، وأنا احلم بالزواج من مدحت ولكنى سأتزوج عوض .

ورضيت بهذه المقارنة ، واسترحت لها ..

وكانت سعاد قد بدأت تستعد للفرح ، وتخرج هى وأمها كل يوم لشراء أشياء كثيرة ، وعادت سعاد فى أحد الأيام ومعها أقمشة كثيرة وكانت فى قمة سعادتها وهى تفتح اللفافات وتفحص الاقمشة وتلفها حول جسدها وتتأمل نفسها فى المرآة .

أكلتنى الغيرة وانا أراقبها ، وفى تلك اللحظة قررت أن أتزوج عوض .. وشعرت برغبة جارفة أن يعلم جميع من فى البيت أنى سأتزوج ، فصعدت إلى ستى الكبيرة وجلست عند قدميها ادلكهما ، وحكيت لها عن عوض .

اهتمت ستى اهتماماً كبيراً ولم تقاطعنى حتى سمعت الحكاية كلها ، كان اهتمامها وهى تنصت إلىّ أشد من اهتمامها وهى تسمع من راتب بك خبر خطوبة سعاد .

سألتنى فى لهفة .

— هو سنه قد إيه يامبروكة ؟

فأجبتها :

— بيجى عشرين ..

فعادت تسألنى :

— بس يقدر يصرف على بيت ..

هو عنده فلوس ؟

قلت لها :

— بيقول كده .

فقالت لى فجأة :

— خليه بيجى هنا علشان أشوفه .

واطرقت براسى ، احسست برهبة كيف يجىء عوض إلى البيت ويصعد إلى فوق امام سيدى راتب ومدحت والجميع لو رآه راتب بك فسيطرده وأنا لا أريد ان يراه مدحت فيسخر منه وتراه سعاد فتقارن بينه وبين عريسها الطبيب الغنى ، أريد أن يظل عوض صورة غامضة فى أذهانهم ، مجرد عريس يسمعون عنه ، ولا يرونه على حقيقته بجلبابه الرخيص .

وتبينت انى تورطت ، وأنى يجب ان اذهب إلى عوض واقول له إنى رضيت الزواج منه ، وقطعت ستى الكبيرة افكارى بأن قالت لى محذرة ، إنها تريد أن اتصرف بعقل مع عوض فلا اتركه يقابلنى وحدى ، وعجبت وهى تحدثنى بصراحة عن أشياء لم أكن أتصور أنها تعرفها .

قالت لى :

— أوعى تسيبيه يمد ايده عليكى .. والا ياخدك فى حتة لوحدكم ويقول لِك ماهو انتِ مراتى ياكل عقلك ويعمل فيكى لاقدر الله حاجة .

قلت لها فى عصبية :

— انا موش ح شوفه خالص ..

موش عايزه أخرج من البيت .

فابتسمت فى رضاء ، كأنها ترحب بما أقول .

ولكنى رغم ذلك خرجت ، ولم تعترض هى على خروجى ، وكأنها نسيت ما وعدتها به ، وكانت تسألنى كل يوم عن عوض ومتى سأحضره إلى البيت لتراه .

وعرف عوض أنى رضيت الزواج منه ، بعد أن لاحظ كثرة ترددى عليه وخجلى وأنا أكلمه ، وطريقتى فى الإجابة على أسئلته ، كنت أنصت إليه وهو يحدثنى عن مشاريعه ، وعن الحجرة التى سيستأجرها لنا ، وكيف أنه لن يرضى لى أن أعيش مع أمه ، ثم يلتفت إلى حسنين ويسأله :

— مش كده برضه الاصول ياحسنين .

وقبل أن يجيبه حسنين أكون قد صححت فيه :

— أمال يعنى عايزنى أعيش مع أمك فيضحك عوض من قلبه ، ويفهم أنى رضيت به ..

وتجرأت ذات يوم وقلت لعوض إن الست الكبيرة تريد أن تراه فوافق لدهشتى فى الحال ، وفرح وقال مهللاً :

— لازم ح تديكى حاجة نتجوز بيها .

وتعمدت أن يجىء عوض إلى البيت فى الصباح أثناء غياب أهل البيت ، وصعدت به إلى ستى الكبيرة دون أن يلحظنا أحد .

وكان متماسكا لنفسه . يلف برأسه فى أرجاء البيت ، ويتعجب للثراء الذى نعيش فيه ، ويقول لى فى حسرة :

— وأنا حاوديكى فين بعد الجنة اللى أنتِ عايشه فيها .. دى سرايا يامبروكة .

وقابلته ستى الكبيرة ، وكأنها تعرفه من سنوات ، قالت له :

— أنت عايز تتجوز مبروكة ياابنى فاقسم لها عوض بحرارة ، إنه سيحافظ علىّ كما لو كنت عينيه ، وأنه لا يريد إلا رضاها عليه ، وأنه سيدفع لى أى مهر تشترطه عليه .

وصمتت ستى الكبيرة وكان صمتها يثير قلقى ، لم تعلن أنها موافقة أو غير

موافقة ، تركت عوض يتكلم ، ثم قالت فى هدوء :

— طيب روح أنت ياابنى .. وربنا يعمل اللى فيه الخير .

وظهر التردد على عوض ثم سألها :

— يعنى راضية عنى ياست ..

فأطرقت برأسها وتمتمت من جديد .

— ربنا يعمل اللى فيه الخير .

ونظر إلىّ عوض فى حيرة ، كأنه يسألنى ماذا فهمت من كلامها ثم غادر الحجرة وتبعته إلى الباب دون أن ينبس بكلمة ، ولكنه همس قبل أن يخرج إلى الحديقة :

— أنا مفهمتش منها حاجة .

كان يتكلم بغيظ ، ويخزنى بأصبعه فى كتفى قائلاً :

— كلميها .. قولى لها تديكى قرشين ينفعوكى ..

وعدت إلى ستى الكبيرة ، فوجدتها تصلى ، فلما فرغت من الصلاة مسحت على وجهها ثم التفتت إلىّ وقالت بصوت حنون :

— ح تتجوزى يامبروكة وتسيبينى .

فأجبتها على الفور .

— بلاش اتجوز ياستى .

فابتسمت قائلة :

— ربنا يعمل اللى فيه الخير يابنتى

وانتظرت منها أن تقول شيئا عن عوض ، ولكنها غرقت فى صمت عميق ، حتى شعرت مثل عوض بالغيظ نحوها .

لماذا لا تحدثنى عن عوض ؟ !

لقد رأته ، وسمعته ، ألم ترض عنه ، أم هى تريد أن أظل فى خدمتها وأضحى بنفسى ولا أتزوج ، وعجبت لحماسها الأول وهى تسمع حكايتى مع عوض ، ثم هذا التحول والغموض المفاجىء الذى تحتمى به الآن ، أكانت

تستدرجني لتعرف سري ، وبدأت أشعر أنها ليست بريئة تماما كالملاك وأن فيها شيئاً من مكر العجائز .

وذهبت إلى عوض ، وقلت له لا فائدة من ستي الكبيرة ، وأنها لم تظهر لي أي استعداد لمعاونتي في الزواج ، فغضب عوض ، وجعل يسب ويشتم الأغنياء ، وأخذ يستعيد صور الثراء التي شاهدها في البيت ، وقال لي فجأة كأنه ينصحني :

— أنا لو منك .. أعامل الناس دول بشكل تاني ..

قلت له :

— أعمل ايه ؟

فنظر إليّ نظرة غريبة وقال :

— خدي حقك بايدك .

— إزاي ياعوض ..

فلكزني قائلاً :

— شوفي اي حاجة .. أسورة .. ساعة ذهب .

وقبل أن يكمل كلامه ، كان وجهي أصفر في لون الليمون ، وقلت له في دهشة :

— ياندامتي .. عايزني أسرق .

فضحك ضحكة جريئة وقال مؤنباً :

— ماتبقيش مغفلة .. انا عايز أخلصك من الناس دول بعد ما تاخدي حقك .

فسرت ما قاله لي عوض ، بأنه كان في حالة غضب ، ولكني بدأت أفكر في حقوقي .. كنت قد ادخرت أربعة وثلاثين جنيها عند ستي الكبيرة خلال هذه السنوات . فطلبت منها أن تعطيني عشرة جنيهات لأشتري بعض الأشياء لبيتي الجديد .

فسألتني في دهشة كأنها لا تعلم عن زواجي شيئاً .

— ح تعملي إيه بالفلوس يابنتي ؟

قلت لها :

— ح أشتري حاجات علشان عوض مستعجل على الجواز .

فأعطتني النقود وعلامات الضيق تبدو على وجهها ، وخرجت لأشتري فوجدت الأسعار غالية ، والنقود لا تكفي لشراء بعض ما كنت أرغب في شرائه ، وعدت إلى البيت حزينة أفكر في فقري ، وأفكر في كل الأشياء التي اشترتها سعاد .

وفوجئت عند عودتي باستقبال غير عادي من زوجة راتب بك وسعاد .. كانت ستي الكبيرة قد قالت لهما إني سأتزوج ، وأني أخذت عشرة جنيهات لأشتري بعض الملابس ، فالتفا حولي يسألاني عن عوض ، ويفتحان اللفافات القليلة التي حملتها معي ويفحصان القماش ، ويسألان عن سعره .. وسعاد تردد في حسد :

— والله عرفتي تشتري يامبروكة ، جبتي الحاجات دي منين .

ثم تضحك وتقول لأمها :

— شوفي قمصان النوم ياماما .. وتلتفت إليّ وتقول ساخرة :

— ح تلبسي كمان قمصان نوم .. والله اتمدنتي ..

كنت ابتسم لهما لأخفي الغيظ الذي يملأني ، وتركتهما يسخران مني ، ثم جمعت القماش ، وصعدت به إلى السطوح ، وجلست جواره أتحسسه وأتمنى اليوم الذي أذهب فيه مع عوض إلى غرفتي وأنجو من هذا البيت .

ورأيت وأنا جالسة ، ملاءتين منشورتين ، نظرت إليهما في بلاهة ولم أحول عيني عنهما ، وفي يدي رغبة تدفعني إلى أن أنهض وأتحسسهما كما أتحسس القماش .

وتخيلت السرير الذي سأنام فيه والمرتبة فوقه .. والملاءة .

وهتف في داخلي صوت .. لماذا لا تكون ملاءة سريري إحدى هاتين الملاءتين ، ماأكثر الملاءات في هذا البيت ، ولو أخذت واحدة فلن يحس بها أحد ، وسأوفر ثمنها ، وظل رأسي يدور ، وعيناي لا تتحولان عن الملاءتين

حتى قمت فجأة ونزعت إحداها ، وطويتها وأخفيتها في الحجرة التي كان يذاكر فيها مدحت ، والتي أصبحت الآن مخزناً مهجوراً .

لم أتصور أن تقوم كل هذه الضجة في البيت بسبب اختفاء الملاءة .. أقامت ستي الصغيرة الدنيا وأقعدتها وسألت إسماعيل وســألتني ، ولم ترض بالتفسير الذى قدمه لها الجميع وهو أن الريح أطارت الملاءة فسقطت في الشارع الخلفي ، وذهبت بنفسي إلى الحديقة وإلى الشارع أفتش عن الملاءة ، وأسأل عنها في بيت الجيران .

ولما تعبت ستي الصغيرة من الصراخ والزعيق ، وتأكدت أنها لا تتهمني بسرقة الملاءة ، ذهبت إلى المخزن وأخرجتها منه ، وطويتها تحت جلبابي فوق بطني وجريت إلى عوض .

سألني عوض وهو ينظر إليّ نظرة ماكرة :

— جبتي الملاية دي منين يابت ؟

قلت له :

— اشتريتها ..

فضحك وقال في خبث :

— ما تشوفي حاجة عليها الطلا .. ملقيتيش غير ملاية .. أنا أجيب لك ألف واحدة زيها .

وأدركت أنه فهم كل شيء ، فخفضت عيني في ارتباك ..

كنت أستمع إليه ، وقلبي يدق بشدة وعيناي مشدودتان إلى الأرض ورأسي ثقيل ، وصوته الهامس يدوى في أذني ، كأن الدنيا كلها تسمعه .

وظل صوته يلاحقني وأنا في البيت فكأن ثورة هائلة تصدر إليّ أمراً لا يمكنني مقاومته ، فتدور عيناي رغما عني تفتشان عن شيء آخذه .

فكرت أن آخذ فساتين سعاد ، ومصاغها ، وتسللت إلى حجرتها في إحدى المرات وفتحت الدولاب ، ووقفت أنظر إلى الفساتين ، ولكن يدي جمدتا ، وامتلأ قلبي بالخوف ، فخرجت مسرعة ، والعرق يغسل ظهري ، والغيظ

يصرخ في أعماقي ، لأني مغفلة ، لأني جبنت ولم أمد يدي ..

لست أدري ماذا كان سيحدث لو أن يدي امتدت إلى الفساتين في تلك اللحظة ، كانت حياتي كلها تغيرت ، لقد مضت سنوات طويلة على ذلك اليوم ، ولكني مازلت أذكره ، فيرتجف جسدي ، وتسرى قشعريرة في ظهري .

خرجت من حجرة سعاد ، وصعدت إلى ستي الكبيرة ، فوجدتها نائمة في جلستها ، ويدها قابضة على المنبه ، خيل إليّ من خوف ، أنها تخشى أن أمد يدي إليه .

وجلست أحدق فيها ، وقد أخذتني الرهبة ، كان وجهها المضيء يشع بنور يبهرني ، ويملأ قلبي رعبا ، كأنه يفضح أفكاري ، ويعريني .. ومضى وقت طويل وأنا جالسة مكاني وقد لفنا الظلام ، فقمت لأغادر الحجرة وما كدت أصل إلى الباب ، حتى طعنني صوتها :

— رايحة فين يامبروكة .

قلت لها وشيء في صدري يتمزق :

— انتِ صحيتي ياستي .

فقالت لي فجأة :

— اسمعي يا مبروكة .. الواد عوض ده انا موش مستريحة له .. أنا خايفة عليكي يا بنتي .

وهبط قلبي إلى قدمي ، إنها تعلم ، كيف عرفت .. وأيقنت أنها على صلة عظيمة بالله .

وتحول يقيني إلى إيمان .

بعد أربع ليال من حديثها .. صعد إلينا مدحت وهو يصرخ :

— يا مبروكة .. يا مبروكة .. البوليس قبض على عوض .

استمعت إليه في غباء ، وقد تصلبت عروقي ، ولم أعد أدري هل أنا واقفة أم طائرة في الهواء ، لم أحس بالأرض من تحتي ، حتى أمسكت بي ستي الكبيرة ، واحتضنتني ، وطلبت لي كوب ماء ، أحضره مدحت ، جعلتني أرشف منه ، ثم رشت الماء على وجهي .

ذهب عوض إلى السجن ، بعد أن هاجم البوليس بيته ، فوجد مسروقات كثيرة ..

ولم أذهب من يومها إلى الدكان .

عشت في يأس حبيسة البيت ، وقد اختلط كل شيء في عقلي ، أفكر أحياناً في أن أستمر في السرقة .. وأندم أحياناً على الملاءة التي امتدت يدي إليها وأصبحت أعامل ستي الكبيرة ، وكأنها قوة خارقة تحقق المعجزات ، كأنها السيدة زينب .

واحتميت بستي الكبيرة ، لا أفارقها أبدا ، لعل هذا يغفر لي ذنبي عند الله وزادني قرباً منها ، أنها بدأت تشكو آلاماً قاسية في بطنها ، وجاء أكثر من طبيب يكشف عليها ، ويضحك معها ، ثم يخرج ويتهامس مع راتب بك ، ولاحظت وجوماً غير عادي في البيت ، وأدهشني أن راتب بك أصبح يتردد على ستي صباح ومساء كل يوم ، ويطيل الجلوس معها ، كذلك كانت تصعد ستي الصغيرة وسعاد ومدحت ، وإذا وقعت غارة رفضوا أن يهبطوا إلى البدرون ، وصعدوا إليها لأنهم لا يريدون منها أن تتحرك وتتألم .

ووسط هذا الجو المقبض ، كنت أشعر بأن نهاية ستي الكبيرة قد اقتربت ، فاختلي بنفسي وأبكي في صمت ، وأتساءل ماذا يكون مصيري بعد وفاتها .

ورأى راتب بك أن يسرع بزواج سعاد قبل وفاة أمه ، وكانت آلامها قد اشتدت ، ولم تعد تنام الليل ، وتصلي وهي مستلقية بظهرها على السرير ، كان راتب بك يخشى أن تموت فيؤجل زواج سعاد لفترة طويلة ، وكان يريد أن يقيم الفرح في حياتها .

وازدحم البيت ليلة الفرح بمدعوين كثيرين ، كان بينهم عبد الحميد افندي السويفي وابنه يوسف الذي جلس محتقن الوجه لا يتحدث مع أحد ، وعندما تكاثر المدعوون انسحب إلى البهو ووقف متردداً ، يخطو بضع خطوات نحو الباب المفضي إلى الحديقة ، ويقف يحدق في الظلام ، ثم يشعر بالبرد فيعود إلى البهو يتلفت حوله في حركات عصبية ..

رأيت إسماعيل يقدم له كوب الشربات ، فأخذه منه ، ولم يشرب منه ، ووقف والكوب في يده برهة ، ثم ذهب إلى منضدة منزوية وتلفت حوله ، ثم وضع الكوب ملآنا ..

ولم أشهد ما فعله يوسف بعد ذلك ، إذ كان علي أن أصعد وأجلس مع ستي الكبيرة وحدنا ، وكانت سعاد وعريسها قد صعدا إليها ساعة المغرب بعد أن تم كتب الكتاب ، فأخذت تنظر إليهما بوجه يفيض بالبشر والدموع ، وطلبت منهما أن يقتربا منها ، ومسحت بيدها على رأسيهما وتلت بعض الدعوات . وبعد ذلك تركها الجميع وانشغلوا بالمدعوين .

كنت أجلس عند باب حجرة ستي ، عندما سمعت صوت أقدام مدحت وهو يصعد إلينا ، ولما رآني سألني في صوت خفيض .

— ستك نايمة ولا صاحية يا مبروكة .

قلت له :

— لما أشـــوف ...

وفتحت الباب ، فوجدتها نائمة وشعرت بأنفاس مدحت في رقبتي ، كان يقف خلفي يطل على جدته .. وهمس في أذني ..

أقفل الباب أحسن تصحى . وأغلقت الباب والتفت إليه ، فإذا به ينظر إل[illegible] ويبتسم وقال لي :

— مادام نايمة .. ما تنزلي شوية ..

قلت له :

— خليني جنبها يمكن تصحى فقال لي مشجعاً :

— انزلي شويه صغيرة .. ح يبقى الفرح تحت وأنت لوحدك هنا .. وجذبني من يدي على غير عادته ، وكانت مفاجئة لي ، كدت أرتمي في أحضانه ، وأمسك بذراعي بكلتا يديه ، وظل برهة يحدق في وجهي وأنا أنظر في عينيه ، ثم خفضت بصري وصدري يلهث . وشعرت بساعديه يطوقاني فاستسلمت له ، كأن ما يفعله شيئاً طبيعياً ، وتمرغت شفتاه على خدي ، فلما وصلت إلى شفتي همست في خوف .

— لا .. يا سيدى .. والنبي ياسيدي .

فلم يكترث باحتجاجي كأن همسى دعوة له ، وعبثت يده بصدرى كان يؤلمني وهو يعتصرني بيديه ، فتراجعت حتى أسند ظهرى إلى الحائط ، وأنا عاجزة عن دفعه ، كأن يدىّ مشلولتان .

وهمست من جديد

— يوه ياسي مدحت .. والنبي بلاش .. اعمل معروف .. فهمس في انفعال وهو يضغط جسمي في الحائط ..

— أنا باحبك يا مبروكة .. صدقيني أنا باحبك ..

فهمست ، ولعلي صحت بصوت عال ... أنا لا أفهم ماذا يقول .

— بعدين ستي تصحى

وكانت لكلماتي أثرها المفاجىء عليه ، فتراجع وأدار لي ظهره وهبط السلم مسرعاً ، وقد تركني ألهث وأرتعد وقلبي يتفجر بنشوة فيها أسى ومرارة .

وبعد دقائق ، أحسست برغبة جارفة في أن أرى مدحت ، كأني لا أصدق ما حدث ، كنت أريد أن أنظر إلى وجهه من جديد ، وأجعله يراني ، وشعرت بحنين إليه ، وإلى صوته وهو يهمس « أنا بحبك يا مبروكة » .

وهبطت السلم وقد نسيت ستي الكبيرة ، ووقفت في نهاية الدرجات أبحث بعيني عن مدحت ، حتى خرج إلى البهو فرآني فتجهم وجهه ، وأدار لي ظهره ، ولكنه عاد والتفت إليّ . ثم تلفت حوله ، فرأى كوب الشربات الذى تركه يوسف ، وناداني .

ـ خدي يا مبروكة كباية الشربات دي ..

فجريت نحوه وأخذت الكوب ، وسرت في اتجاه المطبخ .. فصاح في انفعال ..

ما توديهاش المطبخ .. دي علشانك اشربيها ..

قلت في صوت مفعم بالفرح :

— حاضر يا سيدى .

منذ تلك الليلة ، ومدحت يتعقبني ، وأنا أسهل له مهمته ، فيصعد إليّ ويقبلني ويحتضنني ، وأنا أقاومه ولا أريد أن أقاومه ..

وعاد إليّ حلمي القديم ، أن يتزوجني مدحت ، ويحملني إلى بيت كبير مثل هذا البيت ، وأصبحت كالمجنونة ، ساعة فرحانة وساعة حزينة ، وفي كلتا الحالتين قلقة غير مستقرة .كنت في حرب مع نفسي ومع مدحت ، أقاوم الحاحه الشديد بأن استسلم له ، ولا يمنعني عن الاستسلام سوى حلمي بالزواج منه .

وقررت أن أصارحه ، قررت أن أسأله وهو يمد يده ويعبث بجسدي ، ماذا يريد مني ، وأن أقول له إن ما يريده هو من حق زوجي وحده .

وصعد إليّ مدحت عصر يوم بعد أن نام جميع أهل البيت ، وبدأت أقاومه كعادتي حتى حاصرني بجسده والحائط ، واعتصر خصري بساعديه ، وكاد يلقيني على الأرض ، وركعنا نحن الاثنين ، وأنا أتوسل إليه وعقلي يدور بسرعة باحثا عن الكلمات التى أعددتها ، وإذا بباب حجرة ستي الكبيرة يُفتح ، وأسمع ستي الصغيرة وهي خارجة من الحجرة تصرخ :

ــ مدحت .. ايه اللي بتعملوه ده ؟ !!

انتفضت واقفة على صراخ ستي الصغيرة ، والذعر يأكلني ، وابتعد عني مدحت .. وظل واقفاً مكانه وقد فقد قدرته على الحراك .

وصرخت فيه أمــه :

ــ امشي على أودتك ..

فنكس رأسه وهبط السلم ، بينما تقدمت هي مني وصفعتني على وجهي وجذبتني من شعرى ، فوقعت على الأرض عند قدميها . وأنا أشعر بخصلات شعرى تتمزق في يدها ، وركلتني بقدمها في جنون ، كانت تضرب صدرى وفخذى وراسى بلا وعى فازداد خوفاً وانكمش في رقدتي .. أصدر أنينا خافتا .

وامتدت يدها إلى شعرى من جديد وجذبتني قائلة :

ــ قومي يا بت .. قومي ..

ورفعتني عن الأرض ، ودفعتني أمامها على السلم فتدحرجت عليه ، وظلت تدفعني وتركلني حتى ادخلتني حجرتها ، وأغلقت الباب .

ايقنت أنها ستقتلني ، فتوسلت إليها باكية :

— أنا في عرضك يا ستي .. والنبي يا ستي .. سي مدحت هو اللي مسكني غصب عني ..

فقاطعتني بصفعة قوية ، وصاحت في شراسة :

— اخرســـــي يا مجرمـة ..

وانفجرت أبكي بصوت مرتفع ، والطم خدى واولول :

— يا مصيبتي .. يا مصيبتي .. يا مصيبتي ...

فصاحت في صوت مرتعش :

— وطي صوتك يابت .. أنتِ عايزة تفضحينا ..

فرفعت صوتي اكثر .. وقد ادركت أنها خائفة من صراخي ..

وخفضت هيَ من صوتها ، وقالت في حدة :

— اسكتي يا بت .. اســـكتي .

وسـألتني :

— هو عمـلك إيه ؟ ..

قلت لها وأنا أبكـي :

— أنا عارفة يا ستي .. ما أنتِ شفتي بعينك اللي حصل ..

فسألتني وهي تكتم غضبها :

— ومن امتى ده بيحصل بينكم ؟

أجبتها في تحـد :

— أســاليه هوه ..

قالت في قلق :

— أنا عايزة أعرف منك .. عملك إيه ؟ ..

وفهمت سر قلقها ، إنها خائفة أن يكون مدحت قد تورط معي ، وربما ظنت أنه حصل على جسدي .



قلت لها والغضب يختلط بخوفي :

ـــ كل ما يشوفني لوحدى .. يمسكني .. وأنا أقول له عيب يا سي مدحت .. حرام عليك ..

فقاطعتني في خوف :

ـــ وحصل حاجة بينكم ؟

أجبتها في كبرياء :

ـــ لا يا ستي ..

ولكن مخاوفها كانت قد اشتدت فلم تصدقني ، حتى تأكدت بنفسها أني مازلت كما أنا لم يمسسني أحد ..

كنت أعلم أنها ليست خائفة عليّ ، وإنما هي خائفة على ابنها ، فلما اطمأنت ، تنهدت في ارتياح ، وملأت صدرها بالهواء ، وكأن روحها عادت إليها ، وتغيرت فجأة ، فانطلقت تسبني وتشتمني وقالت لي :

ـــ يا سفلة .. يا مجرمة .. انتِ مالكيش عيش في البيت ده .. أنا ح ابعت لأمك تيجي تاخدك .

وأمرتني أن أهبط إلى البدرون . وأحبس نفسي فيه ، فتركتها وهبطت إلى البدرون ، وانزويت في أحد الأركان والدموع تنهمر من عيني . وجاءني الطباخ وإسماعيل يسألان في دهشة عن سر بكائي ، فلا أقول لهما شيئاً ..

ولم أتحرك من مكاني ، ولم أذق طعاماً ، حتى فقدت قواي ، وتأخر الليل فغلبني الإعياء ، ونمت ..

فتحت عيني في الصباح فوجدت جسدي كله يشكو من الألم ، وتذكرت ماحدث بالأمس ، فظللت راقدة أهذي بصور مختلفة تموج في رأسي عن أمي التي ستأتي وتأخذني معها ، وستي الكبيرة المريضة ، ومدحت .. ترى ماذا فعل ..

وخطر لي أن أقوم وأخرج من البيت وأهرب منه ..

أهرب إلى أين ؟ ..

تذكرت عوض وأغانيه ، لو لم يدخل السجن لذهبت إليه ، إلى من ألجأ الآن ، وتذكرت يوسف وأباه عبد الحميد أفندي السويفي ، وقلت لنفسي أذهب إليهما ، وأطلب منهما أن يأوياني ، وسأخدمهما حتى لو لم يعطياني نقوداً ، سأعمل جارية عندهما ولا أعود مع أمي إلى القرية .

ولكني لا أعلم أين يسكنان .. سأسأل إسماعيل عن عنوان بيتهما وأقصد إليهما الآن .

ومضت ساعة وساعة ، وإسماعيل يروح ويجيء أمامي ، والسؤال عن عنوان عبد الحميد أفندي السويفي على طرف لساني ، لا أقوى على النطق به حتى جاءني إسماعيل ، وكان هابطاً من فوق ، وقال لي :

ـــ اطلعي يامبروكة .. البيه عايزك ..

قلت له فجأة وفي عناد :

ـــ لا موش طالعة ..

فنظر إليّ دهشة ، قال لي في لهجة آمرة :

ـــ اطلعي يابت .. البيه لابس وعايز يخرج ..

أجبته في حدة :

ـــ أنا موش ح اشتغل عندهم ..

أنا ماشيه ..

قال لي في غير تصديق :

ـــ ماشيه على فين ؟

قلت له :

ـــ ماشيه وخلاص ..

فتردد برهة ثم قال :

ـــ يعني أطلع أقول للبيه كده . فأطرقت برأسي ولم أجبه ، وشعرت به يبتعد عني ، فانتابني الفزع ، وقلت له بصوت متبرم :

ـــ استنى .. أنا طالعة ..

وصعدت متهالكة إلى فوق ، وكان راتب بك واقفاً في البهو وإلى جانبه ستي

الصغيرة . فلما رآني نظر إليّ نظرة طويلة وهو صامت ، ثم قال في صوت هادىء :

— اسمعي يابنت .. لو حصل منك أي حاجة بعد اللي حصل امبارح أنا ح أموتك .. ح أسلخ جلدك .. فاهمة ..

قلت له والبكاء محتبس في حلقي :

— أنا عايزه أرجع لأمي .

فقال في حدة :

— أمك لو عرفت ح تموتك وتبقي فضيحة .. أنتِ تطلعي لستك فوق وتقعدي معاها .. وإياك أشوف خلقتك دي تحت .. فاهمة .

قلت له بلا وعي :

— حاضر ياسيدي ..

فقال في صوت خفيض :

— وموش عايزك تقولي حاجة لستك هي سألت عنك امبارح والنهارده الصبح .. وقلنا لها إنك عيانه ..

ونظر اليّ في غضب وسألني :

— فاهمة تقول لها إيه .

أجبته :

— حاضر ياسيدي .

فأردف يقول كأنه يخاطب نفسه :

— دي واحدة عيانه .. بتموت .. ولولا كده كنت عرفت ازاي أوريكي .

قلت له والعناد يعاودني :

— موش ذنبي ياسيدي ..

فصاح في هياج :

— اخرسي .. انتِ تعملي ياكلبه اللي باقول لك عليه .. واحنا كلنا مفتحين عينينا .. لو شفتك بتكلمي حد غير ستك ح يبقى بموتك .

لماذا يرفض أن ينطق باسم مدحت .. لماذ لا يقول لي « لو شفتك بتكلمي مدحت » أيتجاهل اسم ابنه لأنه خجل من أن يقترن اسمه بي ، خجل مما كان بيننا مدحت هو السيد ابن السيد ، وأنا الخادمة ، أنا التي تلوث مدحت ، حتى لو فقدت كل شيء ، وضحيت بكل شيء .

شعرت بالحقد نحو راتب بك ، وشعرت بالحقد نحو ستي الصغيرة ، التي كانت تقف صامتة تنظر إليّ بازدراء ، وتكاد عيناها تقتلاني بما تشعان من احتقار .

ولكني لم استطع أن اشعر بالحقد على مدحت ، ماكدت اطمئن إلى أني باقية في هذا البيت حتى احسست بالحنين إليه ، وخطر لي أني ساقابله رغم كل شيء ، انهم مهما راقبونني فلن يستطيعوا ابدا أن يمنعوا لقاءنا خلسة سأتحداهم وأتزوجه ، وأرتفع من مكاني الحقير كخادمة إلى مكاني المحترم كزوجة ابنهم .

تصارعت هذه الخواطر في قلبي وأنا واقفة أمام راتب بك وستي الصغيرة ، فلما أمرني بالصعود ذهبت إلى السلم في نشاط وقد ضاع الألم من جسمي .. كان حقدي أقوى من الألم ..

ودخلت على ستي الكبيرة ، فوجدتها كما هي راقدة على ظهرها ، تلهث وتزفر أنفاسها بصعوبة ، فلما أحست باقترابي منها ، حولت عينيها إليّ وهمست :

— مالك يامبروكة ..

قلت لها : ولا حاجة ياستي ...

قالت بصوت ضعيف :

— بيقولوا إنك عيانه يابنتي ..

قلت لها .

خلاص خفيت ياستي

فمدت يدها إلى رأسى ، فأحنيته لها ، وتحسست جبهتى ثم قالت فى اطمئنان :

— معندكيش حرارة .

ولم أغادر حجرتها طوال النهار ، وجلست أرقب الموت وهو ينهشها فى غير رحمة ، وكلما شهقت فى ألم ، أيقنت أن أيامى فى هذا البيت تقصر وأن مستقبلى فى يد هذا الجسد الضعيف الذى لم يعد قادراً على المقاومة .

ماذا يكون مصيرى بعد موتها .. إنى واثقة أنهم سيطردوننى فى الحال .

سيشيعون جسدها إلى المقابر ..

وسيشيعون جسدى إلى الشارع .

وتملكنى الخوف .

أصبحت قلقة على نقودى التى أدخرها معها ، فما يدرينى أنهم سيعطوننى هذه النقود بعد وفاتها . والقماش الذى اشتريته لاتزوج عوض ، هل يسمحون لى أن أخرج به ، أم يتهموننى بسرقته ..

سيطر الشك علىّ ، فقررت أن أعمل بسرعة ، وأدبر أمرى قبل أن تموت .

وطلبت من ستى الكبيرة صباح يوم أن تعطينى النقود .

فسألتنى فى دهشة عن سبب طلبى ، فكذبت عليها وقلت لها إن رجلا جاء من القرية قال لى إن أمى مريضة وفى حاجة إلى هذه النقود .

فقالت لى فى عجب :

— ح تبعتى لأمك كل الفلوس يامبروكة .

قلت لها وأنا أتنهد فى أسى :

— ح أعمل إيه ياستى .. أمرى لله .

وأخذت منها النقود .

أما القماش ، فقد أخفيته فى البدرون فى انتظار أية فرصة لأخرجه من البيت .

وكان مدحت طوال هذا الوقت ، وكأنه قد اختفى من البيت ، كنت لا أراه ولا أسمع صوته ، وكنت أقف أحيانا عند رأس السلم فى مواعيد حضوره من

الكلية لعلى أسمعه وهو يدخل البيت ، فلا أظفر بشىء ينبئنى عن وجوده .

ولكن قلبى كان يحدثنى أنى سأراه قريبا ، سأراه يصعد السلم فجأة ، ويقابلنى ، ويستأنف معى ماكنا قد بدأناه ، كان مدحت هو الأمل الوحيد لى بعد وفاة ستى الكبيرة ، هو الذى سيحمينى ، لأنه يحبنى .

وحدث أن جاء راتب بك ليزور ستى الكبيرة فسألته عن مدحت .. وقالت له إنها غاضبة منه لأنه لا يصعد ليراها .

فأجابها راتب بك ضاحكا :

— أصله مشغول فى المذاكرة ..

فقالت له محتجة :

— يعنى مايطلعش يشوفنى .

فقال لها فى بساطة :

— حاضر .. أنا ح أخليه يطلع لك .

وبعد قليل صعد مدحت ومعه أمه وماكدت أراهما حتى هرب الدم من عروقى ..

وغادرت الحجرة هاربة إلى السطوح ولمت نفسى لأنى لم أنظر إليه جيدا حتى أتبين حاله ، كنت أتمنى لو التقت عيناى بعينيه ، ولكنى أفسدت كل شىء بخوفى وانسحابى السريع .

ونفد صبرى ، فانتهزت فرصة سنحت فى عصر يوم ، إذ خرج راتب بك وستى الصغيرة ليزورا ابنتهما سعاد فى بيتها ، كان كل شىء هادئا صامتاً فى البيت ، وستى الكبيرة ممددة فى سريرها لاتكاد تحس بما حولها ، وكان القلق قد عصف بى ، ولم أعد أعرف معنى الراحة ، أنظر حولى فيكاد يخنقنى الهدوء ، وظننت أنى لو رأيت مدحت فسأستريح ، وسيقوى الأمل الذى يخبو فى صدرى ، فقمت وهبطت السلم ، وأنا أتعمد أن أخبط بكل ثقلى على الدرجات ، حتى أحدث صوتا ينبه مدحت ، ولما بلغت الطابق الذى فيه حجرته وقفت مكانى أبحث عنه ، وأنتظر خروجه إلىّ .

ولكنه لم يخرج ، فلم أطق الانتظار كنت يائسة ، فصرخت صرخة مسموعة وجلست على الأرض .

وفتح مدحت باب حجرته ووقف ينظر إلىّ ، وأنا ادلك ساقى ، وأظهر علامات الألم على وجهى ، فاقترب منى وسألنى بصوت منفعل :

— مالك ..

قلت له .

— رجلى اتلوت وأنا نازلة على السلم ..

وحاولت النهوض ، وأنا أتصنع الألم الحاد . ثم سقطت ثانية على الأرض مدعية أن ساقى لا تقوى على حملى ..

ونظر إلىّ مدحت فى حيرة ، ثم انحنى محاولاً مساعدتى على النهوض فوضعت يدى على كتفه وأمسك هو بخصرى وحاول رفعى .

وفجأة سيطر علىّ شعور مفاجىء بالحقد عليه ، صرخت فيه .

— أوعى تقرب منى .. واالله أقول لستى .. كفاية اللى حصل منك .

ففزع وتراجع بسرعة ، وانتصبت قائمة ، وتركته وهبطت إلى البدرون وأنا مازلت أتصنع الألم ، وإن كنت أتحرك بسرعة .

لماذا فعلت كل هذا ، لماذا صرخت فى وجهه ، لماذا حقدت عليه ، هل أنا مجنونة أم هناك شىء قاهر يحركنى رغم إرادتى ..!

لقد مضت سنوات عديدة قبل أن استطيع تفسير تحولى المفاجىء عن مدحت ، إنى أعلم الآن أنى صرخت فيه بعد إن كدت استسلم له ، لأنى كنت أعلم عن يقين أنه لن يتزوجنى كان مدحت مجرد حلم ، قد أحلم به كما شاء ، أحلم به كزوج غنى يعيش معى فى قصر كبير . ولكن لمسة من يده كانت كفيلة بأن تطرد الحلم من رأسى ، وتواجهنى بالحقيقة .. إنه لن يتزوجنى .. مستحيل .. كل مايستطيع أن يفعله .. هو أن يلهو معى بعض الوقت .

ولاحظت على نفسى منذ صرخت فى مدحت ، إنى لم أعد أحلم به ، ولكنى بدأت أحلم بشىء آخر وهو أن أكون سيدة محترمة ، مثل سعاد ، ومثل ستى

الصغيرة ، وكنت أقول لنفسى . لامعنى للحياة إذا لم أحقق هذا الحلم ولكن كيف .. كيف أحقق ما أريد ..

وعلمنى يأسى إدمان البكاء ، تعودت أن أقضى نهارى إلى جانب سرير ستى الكبيرة ، أبكى فى صمت ، وظن أهل البيت أنى أبكى حزناً عليها ، أما أنا فلم أكن أعرف سبباً محدداً لبكائى ، قد تكون بعض دموعى حزناً عليها . ولكنى واثقة أن دموعاً غزيرة انهمرت من عينى حزناً على نفسى .

ونهرنى راتب بك ذات مساء .. كان قد صعد مع الطبيب إلى ستى الكبيرة ، فرآنى أبكى ، فلم يلتفت إلىّ ، ولما فرغ الطبيب من إعطاء حقنة لستى ، خاطب راتب بك بلغة لم أفهمها ، فأنصت إليه فى وجوم ، ثم انفجر صارخا فىّ :

— اسكتى يابنت إنتِ .. أنا موش عايز أسمع حسك .

وسكت فى الحال ، كان فى صوته قسوة أزعجتنى ، وغادر الحجرة مع الطبيب ، ثم عاد ووقف يرقب ستى الكبيرة ، وفى عينيه ألم ، وجلس إلى جوارها وهى غائبة عن الوعى .. وبكى .

وماتت ستى الكبيرة فى الصباح وما كاد الطبيب يسبل جفونها ويغطى وجهها ، حتى صرخت كالمجنونة .. ولطمت وجهى ، ومزقت شعرى .. ولم أعد أدرى بما يحدث لى ، حتى اكتشفت أنهم دفعونى إلى البدرون ، فصممت على الصعود إلى ستى .. كنت أريد أن أجلس معها كما تعودت كنت أخشى اللحظات القادمة ، وأتوقع أن يهملونى فى البدرون تمهيداً لطردى وحاولت أن أصعد ، فامتدت أيدٍ تمنعنى ، فأصرخ وأهجم على السلم ، فيشدوننى إلى الوراء ، وسمعت صوت راتب بك وهو يشخط فى إسماعيل حتى لا يدعنى أفلت منه ، ورغم ذلك قهرتهم جميعاً ، وصعدت إليها .. وتركونى يائسين ..

جلست أحدق فى جثمانها وقد تجمدت دموعى ، وخواطر غريبة تدور برأسى ، إنها لم تمت .. وستستيقظ فى أية لحظة ، إنها ماتت ولكن جسدها سيطير فى الهواء ..

عزرائيل مازال فى الحجرة وسيقبض روحى ، إنها مصممة على أن تأخذنى معها ..

ثم اترك هذه الخواطر .. وافكر فى الهرب من البيت ، بما معى من نقود واقمشة ، وافكر فى العودة إلى أمى ، وأتمنى لو أسمع أخبارها فى هذه اللحظة ، واخشى أن تكون قد ماتت ، وافكر فى عوض ، ترى ما الذى يفعله فى السجن الآن عقلى يدور ويدور بلا توقف حتى يكاد رأسى ينفجر ، فأصرخ واولول فى حرقة وغل ..

ولما حملوا ستى الكبيرة فى النعش طار عقلى وخرجت وراءها إلى الشارع فرأيت زحاما وسرادقا كبيرا .. واختطفتنى الأيدى إلى الداخل والقوا بى مرة أخرى فى البدروم .

ولم أجرؤ هذه المرة على الصعود .

ومرت أيام دون أن يلتفت إلى أحد ولا عمل لى سوى البكاء ، والتفرج على السيدات المعزيات لستى الصغيرة ، ومرت أيام أخرى فهدأ كل شىء فى البيت ، وكأن أحداً لا يسكن فيه .

ونادتنى ستى الصغيرة وسألتنى بصوت خافت حزين :

ناويه تعملى إيه يامبروكة ؟

فدق قلبى وشعرت بسخونة فى رأسى .. وقلت لها وانا خائفة .

— يعنى ح أعمل إيه ياستى ؟

قالت بصوت يقطر أسى :

— أحنا صعبان علينا تسيبنا .. لكن الست الكبيرة ..

وسكتت فجأة ..

ثم عادت تقول وقد رفعت صوتها :

— شوفى يابنتى .. لو معندكيش حاجة .. شغله تانيه يعنى .. فاحنا عندنا ناس قرايب البيه محتاجين لك .

كنت أحس بالضياع لقد روضت نفسى طوال الفترة الأخيرة على أن مصيرى هو الخروج من البيت ، ورغم ذلك لم أصدق ما أسمعه .. كيف أترك هذا البيت ، بأى حق يطردوننى منه ، وتذكرت عوض عندما أحضرته لتراه ستى الكبيرة وتذكرته وهو يتلفت حوله ويهمس فى ذهول وحسرة .

« وأنا حاوديكى فين بعد الجنة اللى أنتِ عايشة فيهـا .. دى سرايا يامبروكة » .

ماتت ستى الكبيرة لتدخل هى الجنة ، ولأخرج أنا من الجنة ..

وفكرت أن أتوسل إليها ، لتبقينى فى البيت ، فكرت أن أرتمى عند قدميها ، واقبلهما علها تقبلنى .. ولكنى لم أجرؤ ، كان عنادى أقوى من إحساسى بالضياع ، فلزمت الصمت .

واستطردت ستى الصغيرة تقول :

— انتِ عرفاهم .. عبد الحميد افندى السويفى .. راجل عجوز ومعندوش حد فى البيت .. الست بتاعته ماتت .

وأطرقت برأسها ، ثم رفعتها .. وصوبت إلىّ عينين فاحصتين وقالت :

— ماعندوش غير يوسف ابنه .. وانتِ برضه عارفاه .. وده ولد عاقل ..

كنت أستمع إليها بغير اهتمام .. إذ لازال يشغلنى صراع عنيف فى داخلى ، بين رغبتى فى التوسل إليها لتبقينى ، وعنادى المتزايد الذى يهتف بى ألا أنهار أمامها والزم الصمت .

— و انتِ برضه لازم تبقى عاقلة يامبروكة .. انتِ رايحة فى بيت مفيهوش ستات ، ولولا أن عبد الحميد أفندى راجل على المعاش ومحتاج لواحدة زيك تخدمه كان بقى مرواحك عيب ..

لم يكن يعنينى ماتقول ، كأنها تتحدث إلى شخص آخر غيرى ، وكأنى لا أصدق أنى سأخرج من هنا إلى بيت آخر ..

وسمعتها تسألنى بصوت مرتفع :

— هيه .. موافقة ؟!

فلم اقو على الكلام .. وتوسلت إليها بعينى .. وشعرت بعنادى يضعف .

وقالت هى فى هدوء :

— عبد الحميد أفندى جاى ياخدك العصر .

كنت احس بدوخة خفيفة ، وفى رأسى سؤال غريب أحاول الإجابة عليه ..

لماذا تقول عبد الحميد أفندى ولا تقول عبد الحميد بك ؟

وعشت الساعات الباقية والدوخة تلازمني ورأسي ثقيل كأني أحمل فوقه البيت كله ، وكانت نظراتي تدور حولي فتسقط على قطع الأثاث والجدران ودرجات السلم ، فأكاد أشعر بهذه الأشياء تنهش عيني .. وتخطف النظر منهما .

إن هذا البيت يعرفني أكثر من أي مخلوق آخر يسكن فيه ، إنه يعرف أيضاً أني أشدهم حاجة إليه ، وأكثرهم إحساساً به ، كماوي وكلمان ، ومع ذلك فأنا مضطرة إلى مغادرته ، إني أحب هذا البيت .. إني أحبه .. أحبه .. أحبه .

إني أكرهه ..

وجاء عبد الحميد أفندي في العصر وكان وجهه محتقنا يبدو عليه الإرهاق ولم يقابله راتب بك إذ كان نائما ، وجاءت ستي الصغيرة ، فجلست معه برهة قصيرة ثم نادتني ، وما كادت تراني حتى صاحت في غضب .

— انتِ لسه مالبستيش .. يالله ألبسي بسرعة وهاتي حاجتك .. متعطليش عبد الحميد أفندي .

فقال لها في طيبة شديدة :

— معلهش .. خليها على مهلها .

فضحكت ساخرة .. وقالت :

— لا ياعبد الحميد أفندي .. ماتبوظهاش .. أحسن تتعب معاها .. لو سبتها على كيفها ، والله ماهي عاملة حاجة في سنتها .

ثم التفتت إليّ ، وكنت أنظر إليها ، وأنا أود لو أطبق على رقبتها وأخنقها .. كان حقدي القديم قد عاد إليّ .. وصرخت فيّ .

— انتِ مستنيه إيه .. إن كان على فلوسك بتاعة الشهر ده ح اديهالك دلوقتي و انتِ خارجة .. يالله روحي .

فجريت إلى البدروم ، وأسرعت بارتداء فستان أزرق أعطته لي سعاد من ملابسها القديمة قبل الزواج .. ووضعت في قدمي حذاء قديما كنت قد اشتريته منذ سنتين ، وأحصيت نقودي وصررتها في منديل ، وربطته بحمالة

القميص الذي ألبسه ودفسته في صدري ، ثم جمعت أقمشتي وحاجاتي في صرة كبيرة ، وتلفت حولي أبحث عن الطباخ وإسماعيل ، فلم أجدهما ، فصعدت إلى فوق .

ونهض عبد الحميد أفندي عندما رآني ، واستأذن من ستي الصغيرة ، ثم التفت إلي وقال :

— يالله بينا يامبروكة ..

فقالت لي ستي في حنان مفاجيء :

— استني لما أديلك فلوسك .. ومدت لي يدها بالنقود وهي تقول :

— ابقي زورينا يامبروكة .. أوعي تنسي ..

ثم أردفت قائلة :

- أنا مدياكي خمسين قرش زيادة ..

كنت أتمتم بكلام لا أعيه ، وأنا أعجب بيني وبين نفسي .. كيف أترك البيت ، دون أن أودع سيدي راتب بك ، وسيدي مدحت ، والطباخ وإسماعيل .. أين هم .. أين ذهبوا ، لماذا لم تبق إلا ستي الصغيرة ؟

ورفعت عيني إلى فوق .. في اتجاه حجرتها .. حجرة ستي الكبيرة .. وأرسلت لها في صمت شكواي من هذا الوداع ..

وخرجت إلى الحديقة .. وصافحت عم عثمان الذي لم يفهم لماذا أصافحه ، وحاولت أن أقول له إني تاركة البيت إلى غير عودة ، فرفض أن يفهم ما أقول ..

وسرت وراء عبد الحميد أفندي إلى محطة الأتوبيس .



الفصـــل الثـــالث

بنى ادم مخلوق غريب ..

بعد دقائق ، ربما بعد لحظات من خروجي من بيت راتب بك كنت قد نسيت حقدى عليهم ، ما كاد الأتوبيس يبتعد بنا ، أنـا وعبد الحميـد أفندى السويفى ، حتى شعرت بحنين جارف إليهم، تذكرتهم جميعاً فى حب ومن خلال دموع مترددة فى عينى ، تذكرت ستى الكبيرة وكأنها مازالت حية ، تجلس هناك فى حجرتها بالطابق الأعلى ، وأنا جالسة عند قدميها ، تذكرت ليالينا فى البدرون فى انتظار انتهاء الغارة وراتب بك يجلس بيننا كأنه واحد منا ، وأنا أجلس بينهم كأنى واحدة منهم .

لم تعد ستى الصغيرة هى المسئولة عن خروجي من البيت ، تحول غضبى عليها إلى عبد الحميد أفندى ، هو السبب فى خروجي من البيت ، هو الذى اختطفنى من هناك ، هو الذى انتزعنى من بيتى ، من حياتى ..

شعرت نحوه بتعال وكبرياء ، كأنى من طبقة أرفع منه ، كأنى راتب بك ورفضت أن أصدق أنى ذاهبة معه لأعمل خادمة فى بيته ، اقنعت نفسى أنى ذاهبة فى زيارة له ، زيارة ربما طالت لبعض الوقت ، ولكنها لن تدوم .

هبطنا من الأتوبيس فى ميدان مزدحم يكاد يختنق بعربات الترام والحنطور والسيارات التى تخوض بحراً من الناس ، كانت الضجة عالية ..ولكن صوت عبد الحميد أفندى ارتفع فوقها ..

وقف على الرصيف وصاح كأنه يخاطب عشرات معى :

— اسمعى يابنتى .. خدى بالك كويس .. الميدان اللى احنا فيه اسمه إيه ؟

وتعلقت عيناه بشفتى ينتظر منى الجواب ، فلما لاحظ ترددى .. صاح :

— اه .. تبقى متعرفيش .. انا أقول لكِ ده اسمه ميدان الأزهار ، ميدان إيه .. الأزهار .. فهمتى بقى اسمه إيه ؟

واطرق براسه مقربا اذنه منى ينتظر الإجابة ..

كان منظره يثير سخريتى ، وعجبت للفارق الكبير بينه وبين راتب بك واجبته على سؤاله مرددة وراءه .

— ميدان الأزهار ..

فتهلل وجهه بفرح صبيانى ، ثم تجهم وجهه فجأة ، كأنه قد تذكر شيئاً محيراً .. ونظر إلىّ فى قلق ، ثم قال :

— وكمان اسمه ميدان باب اللوق .. ميدان باب اللوق ..

وسألنى وهو يرقبنى فى حذر .

— اسمه إيه تانى ؟

أجبته :

— باب اللوق ..

فهتف وقد انتفخ وجهه الأحمر ولمعت عيناه :

— عظيم ..

وتنهد فى ارتياح كبير ، ونظر حوله فى زهو ، ورفع صوته قائلاً :

— انا يابنتى بافهمك كل حاجة .. خايف تتوهى ..

ولم أسمع بقية كلامه ..

اختفى صوته من أذنى ، وذابت ضجة الميدان ، وسرحت بخيالى إلى مدحت أيام كان يجلس مع عبد الحميد افندى فى حجرة السطوح . كنت اسمع فى ذلك الوقت نفس الصوت المرتفع ، صوت عبد الحميد افندى ، وهو يشرح الدروس ، ويعيد الشرح مرة ومرتين ثم يقطع شرحه صائحاً فى مدحت .

— انا يابنى بافهمك كل حاجة علشان تنجح ولا تكسفنيش قدام البيه الوالد ..

قلت لنفسى ، إنه يعاملنى كأنى تلميذة وهو مدرس ، واسترحت لهذا الخاطر، طمأننى ، وجعلنى أحس أنى فهمت سره .

وعدت انصت إليه وأنا اتفرج عليه انطلق يشرح لى فى حماس مشيراً إلى سوق الخضار فى الميدان ، وحذرنى من الشراء منه لأن أسعاره غالية .

سوق لا يشترى منه إلا « الخواجات » كل شيء فيه يزيد ثمنه قرشا أو قرشين ..

وتقدمنى فى نشاط إلى شارع يخرج من الميدان قائلاً :

— تعالى .. انا ح اوريكى تشترى كل حاجة منين .. وسرنا فى الشارع ..

كانت عربات اليد تزحمه على الجانبين وفوقها كل شيء ، من الخيار والطماطم والفاصوليا والكوسة والمخلل إلى أوانى الطهو وشبابك الغسيل ، وعلى الرصيف اقفاص الليمون الحلو وأكوام البرتقال واليوسفى ، وكان يردد مع كل خطوة أن كل شيء اشتريه من هنا ارخص من السوق ولو بمليم .

وأشار إلى دكان جزار فى الرصيف الآخر ، وكان الدكان مغلقاً ، ولكنه اقتحم الشارع ، ووقف أمام الدكان يشرح لى كيف أعامل المعلم الحاج أمين وكيف أقول له إنى قادمة من عند عبد الحميد أفندى ، وأنه يرسل إليه تحياته ويطلب منه أن يتوصى به وإلا أعاد له اللحم ..

كان يتكلم فى انفعال ، ويكرر كل كلمة ينطق بها ، ويطلب منى أن أرددها بعده ، حتى يتأكد أنى حفظت ما يقول ، فيتنهد ويملأ صدره بالهواء ويتلفت حوله ويشب على قدميه كأنه يبحث عن اثر كلماته فى المارة أيضاً ..

وعاد بى إلى الميدان وهو يلوح بيديه مشيرا إلى الشارع الذى خرج منه وإلى الميدان الذى ندخله ليتأكد أنى لن أتوه إذا جئت وحدى ، حتى وصلنا إلى سوق الخضار الذى بدأنا منه جولتنا ، فاتجه إلى شارع بجانب السوق ، ووقف معلناً بصوت خطير .

— أهم شيء .. هو اسم الشارع ده .. اللى احنا واقفين فيه .. ده اسمه

شارع الفلكى .. الـ ف لـ كـ ى .. ده هو الشارع اللى احنا ساكنين فيه ..

وانصت إلىّ وأنا أردد الاسم .. وأنفاسه لاهثة ، وعيناه قلقتان ، خشية أن أخطىء النطق به ، فلما اطمأن سرنا قليلاً وعبرنا شارعاً أشار فيه إلى بناء قال عنه إنه محطة السكة الحديد التى تذهب إلى حلوان ثم سرنا حتى وصلنا إلى عمارة لونها بنى ، وقف أمامها وقال :

ــ هنا البيت .. خلاص وصلنا .. احنا فى أول دور .. يعنى موش ح تتعبى من الطلوع والنزول . كلهم اربعتاشر سلمة .

وهتف

ــ ياإبراهيم .. ياإبراهيم ..

فخرج من مدخل العمارة المعتم البواب ، فصاح فيه :

ــ دى مبروكة ياإبراهيم . جايه تشتغل عندنا ..

ثم هتف :

ــ آه .. أنا نسيت المكوجى .

وجذبنى من يدى إلى وسط الشارع وأشار إلى دكان تحت الأرض على بعد خطوات من البيت وقال :

ــ أهو .. ده المكوجى .

والتفت إلى إبراهيم : وقال له :

ــ اعمل معروف ياإبراهيم . ابقى قول لها على السكة أحسن تتوه .

وحمدت الله أنه لم يذهب بى إلى دكان الكواء .. منذ قبض البوليس على عوض . وأنا أرتجف كلما اقتربت من دكان كواء ..

وصعدنا إلى الشقة

فتح عبد الحميد أفندى الباب بمفتاح صغير فى سلسلة بها مفاتيح كثيرة فقابلتنى صالة ضيقة معتمة .

وعند باب مفتوح على يسار الصالة وقف يوسف كأنه شبح ، مرتديا البيجامة وشعره منكوش ، وفى يده كتاب :

التقت عيناى بعينيه . فحولهما بسرعة ، وأطرق برأسه .

شعرت أنه خجل منى ، فزاد كبريائى ، ونظرت حولى فى ترفع ، كان البيت مقبضاً ساكناً لا حياة فيه وأحسست أنى أكبر من هذا البيت ، أقوى منه ، غرفة واحدة فى بيت راتب بك أكبر من هذه الشقة كلها .. البدرون هناك أحسن من هذا الجحر الذى يسكنان فيه ..

وقال لى عبد الحميد أفندى فى لهجة اعتذار :

ــ البيت مكركب زى ما أنت شايفة .. موش زى البيت اللى كنت فيه . احنا ناس على قد حالنا يابنتى .. إنما أهو البركة فيك .

ولزمت الصمت ، تقبلت اعتذاره فى صمت ، وكأنه شىء طبيعى ، ونظرت إلى يوسف فجأة فضبطه يحدق فى ، ولما التقت عيناى بعينيه تغير وجهه ، كأنه يتألم ، وحرك رأسه فى عصبية كأنه يطرد شيئاً يحوم حولها ..

ودخلت الحجرات الثلاث التى تتكون منها الشقة وراء عبد الحميد أفندى .

حجرة نوم فيها سرير نحاسى بأربعة أعمدة ، ودولاب عتيق ، ومقعد برزت الأسلاك من ظهره ، ومنضدة فوقها تماثيل صغيرة بيضاء وسوداء فوق رقعة فيها مربعات من نفس اللونين ..

وأشار عبد الحميد أفندى إلى التماثيل ، وقال فى اهتمام كبير :

شوفى يابنتى .. تعملى أى حاجة فى الأوده .. إنما الشطرنج ده أوعى تلمسيه .. ده أهم حاجة عندى فى البيت ..

ولم أدهش لكلامه ، كنت بعد جولتى معه فى السوق . أتوقع منه أن يهتم بأى شىء ، وأن يقول كلاماً ساذجاً كالأطفال .

ورأيت فى حجرة يوسف سريراً أبيض كالذى ينام عليه إسماعيل فى البدرون ، ومنضدة عليها مرآة وكتب وفرشاة ومشط ، وصحن فيه بقايا حلاوة طحينية وفتافيت خبز ، وملابسه معلقة فى مسامير مثبتة فى الحائط .

صرخ صوت فى داخلى لم يسمعه أحد : ياخيبتى عليك ، وكنت عايز تتجوز سعاد بنت راتب بك .

وشعرت بالرثاء له ، عرفت لماذا هو خجل منى ، إنه يرى فى وجودى أهل

بيت راتب بك ، كأنهم جاءوا إلى هنا ليشهدوا فقره ، وليسألوه كيف يجرؤ على التفكير فى الزواج من سعاد وهو ينام فى هذا السرير الحقير .

خيل إلىّ أنى اقتحم عنوة غرفة يوسف وأنه كان يتمنى الموت .. ولا يرانى يوماً أدخل عليه وأفضحه فى بيته .

وتذكرت فجأة أنى ارتدى فستان سعاد ، لابد أنه يذكر هذا الفستان المسكين .. أيكون هذا هو سبب الألم الذى يرتسم على وجهه .

كان يوسف مازال واقفاً عند باب الحجرة الثالثة ، فلما عدنا إليها تنحى إلى الداخل ، ودخلت وراء عبد الحميد افندى ، كان بالحجرة مائدة للطعام عليها مفرش من المشمع وحولها خمسة مقاعد تمزق جلدها ، وإلى الحائط بجوار النافذة بوفيه قديم عليه رخام مشروخ وفوقه راديو وكتب وإلى جانبه على الأرض كنبة أخرى يعلوها التراب وصناديق بداخلها ملابس قديمة وخرق وأوراق وكراكيب .

وذهبنا إلى المطبخ ، فتحول كبريائى إلى نفور وقرف ، الأوانى على الأرض والصحون المتسخة فى حوض بالوعته مسدودة فارتفع الماء القذر حتى غطى الصحون ، ووابور جاز أسود أعرج ورائحة نتنة تنبعث من صفيحة زبالة ودارت رأسى ..

هل هذا هو البيت الذى سأعيش فيه ، الموت أهون من الحياة هنا .. هذه عشة دجاج زريبة .. ماذا يتوقعان منى ؟ أن أمد يدى إلى هذه القذارة ؟ إنى لا أجد مكاناً أستطيع أن أضع فيه حاجاتى وملابسى النظيفة . كل شيء قذر ، قذر ، مستحيل أن أبقى فى هذا البيت .

كدت أصرخ فيهما قائلة أنى لا أستطيع أن أشاركهما هذه التعاسة ، فاض بى اليأس فلم يعد يعنينى أن أبقى هنا أو يأوينى الشارع . وتجمعت الكلمات على طرف لسانى لأقذف بها فى وجه عبد الحميد افندى ، لولا خاطر مفاجيء حيرنى .

اكتشفت أن ثورتى . وكبريائى الذى أشعر به الآن شيء جديد على لم أكن أعرفه وأنا فى بيت راتب بك هناك ما كنت أحلم بأن أصرخ فى أحد ، هناك

ما كنت أجسر على النظر فى عيونهم كما أفعل الآن مع يوسف إنى أشعر لأول مرة بشيء يتمرد فى داخلى ، شيء ينطلق ، شيء حقيقى لا مجرد وهم ..

إنه شعور لذيذ مريح ، شعور بأنى مسيطرة على نفسى ، مسيطرة على ما حولى ، لا تخيفنى قوة هائلة تضغط على كيانى ، مثلما كنت أحس وأنا أقف أمام راتب بك .

وماتت الكلمات الثائرة على طرف لسانى ..

وقال لى عبد الحميد أفندى ..

— تحبى تنامى فين يابنتى ؟

وتحركت عيناه ناحية المطبخ ففضحت الإجابة التى يريدها منى أنه خائف لا يستطيع أن يأمرنى بما يريد .

قلت له وأنا أشير إلى حجرة الطعام :

— ح أنام فى الأودة دى ..

فبدا الوجوم على وجهه ، ونظر إلى يوسف ، ثم قال فى ارتباك :

— بس يوسف بيذاكر فيها .

فانطلق يوسف يتكلم فى انفعال .. كانت هذه أول مرة أسمع فيها صوته منذ دخلت البيت :

— معلهش يابابا .. أنا ح أذاكر فى أودتى ..

ثم قال بصوت ضعيف كأنه لا يريدنى أن أسمع :

— أصل ما فيش حته تانية تنام فيها .

وتحركت عينا عبد الحميد افندى ناحية المطبخ من جديد . ثم احتقن وجهه وقال بصعوبة :

— والراديو ..

وقطع كلامه .. ثم قال ليوسف فى استسلام :

— على رأيك برضه تنام فى الأودة أحسن .. يعنى مين بيسمع الراديو . أنت بتذاكر ، وأنا بأنام بدرى ..

ثم التفت إلىّ قائلاً فى ارتباك :

— احنا نسيبك بقى علشان تغيرى الفستان ده .. وتلبسى حاجة للبيت .

وتبادل النظرات مع يوسف .

وذهب كل واحد منهما إلى غرفته واغلق بابها .

وقفت فى الصالة وحدى لا أريد الحراك ، كنت مترددة فى خلع فستانى كانى لو خلعته سافقد جزءاً من هيبتى عندهما ، كانى اريد تأجيل اعترافى بانى استسلمت لمصيرى فى هذا البيت .

وفكرت فى الجلوس على أحد المقاعد واضع ساقاً فوق ساق مثلما كانت تفعل سعاد ، وفكرت فى أن اذهب إلى حجرة الطعام وافتح الراديو وافتح النافذة .

لماذا يعيشان فى هذا الجو القاتم ، الكئيب ..

وذهبت إلى حجرة الطعام .. واختلست النظر من بين فتحات الضلفة الخشبية للنافذة . فوجدت أنها تطل على بيت آخر بيننا وبينه ثلاثة او اربعة امتار ، ونوافذ البيت الآخر مغلقة ايضا ، لو فتح السكان نافذة فسيجرحه الجيران .

وابتعدت عن النافذة ، ووقفت وسط الحجرة لا ادرى ماذا افعل ، ثم ذهبت إلى مفتاح النور واضأت الحجرة كانت العتمة تزداد بسرعة ، والظلام يطبق على كل شيء بقبضته السوداء يطبق على صدرى وعقلى .

لا فائدة .. إنى لا استطيع أن اقاوم ، لابد ان اخلع الفستان .

خلعته والقيت به على المائدة فوق كتب يوسف ، واخرجت من صرتى جلابية ارتديتها ، وخلعت حذائى ، ووضعت الشبشب فى قدمى .

وعدت إلى النافذة ، كان زجاجها مغطى من أحد جانبيه بورق ازرق حتى لا ينفذ الضوء إلى الخارج ، فنظرت فى الجانب الآخر إلى وجهى ، اريد ان أعرف كيف يبدو وانا ابدأ حياتى فى هذا البيت .

ورأيت وجها جميلاً حزيناً .. وابتسمت .

●●

لست ادرى ماذا حدث لى فى الأيام التالية .. كان عفريتاً ركبنى ..

اصبحت كل حركة ونشاطا ، ولم اعد افكر فى حالى ، ولا فى عبد الحميد افندى ويوسف ، كانهما غير موجودين فى البيت ، كأن البيت بيتى .. انا صاحبته وليس لاحد كلمة على .

كلما مر يوم وجدتنى ابذل جهداً اكبر فى الكنس والمسح وتلميع الحوض ونفض الغبار عن سجادة الصالة ، كنت أعمل كالمحمومة .. كانى أريد أن احقق معجزة ، فأحول الجحر إلى بيت كبير انيق مثل بيت راتب بك .

وكان عبد الحميد افندى يبدى إعجابه بعملى ، ويقضى معى أحيانا الصباح يساعدنى فى حمل السجادة إلى النافذة . او نقل منضدة او مقعد او تصليح البالوعة ، وكان يرفض أن يتركنى أخرج لاشترى اللحم والخضار فيذهب إلى السوق بنفسه ويعود مسرعاً ليقف معى فى المطبخ يقشر البطاطس او يخرط البصل ، وكان يقول لى احيانا :

— انا اكلت يامبروكة مرة طبق محشى معتبر فى بيت راتب بك .. عمرى ما اكلت فى حياتى محشى زيه ثم ينظر إلىَّ متوسلاً :

— تعرفى تعمليه يامبروكة ..

— اعرف .

فيفرح فرحاً شديداً ويساعدنى فى إعداد المحشى ، ويقف يرقبنى فى فضول شديد ، وفى عينيه نهم وجوع كانه لم ياكل منذ أعوام .

توطدت الصداقة بينى وبين عبد الحميد افندى . فلم تكن بيننا كلفة ، لا اقول له ياسيدى ولا اشعر بنحوه بخجل ، ادخل عليه فى غرفته فى أى وقت ، لاثبت له زرار قميص او ارتق له ثقبا فى جورب او انظف له بقعة فى بدلته ..

وكان يناديني « يابنتى » ومع ذلك لم احس ابدا انه فى سن ابى ، إلا لمنظره فهو عجوز ، ولكن عقله عقل طفل ، يتحدث معى بالساعات فى اى شئ ، يثرثر بكلام مريح افهمه ، وكان حديثه المفضل ان يسالنى باهتمام عن اخبار بيت راتب بك ، كيف يعيشون . وماذا ياكلون فى الافطار وفى الغداء وفى العشاء .. وما هو الطبق المفضل عند راتب بك والطبق المفضل عند ستى الصغيرة .

وكان يروى لى عن بعض اسرارهم التى لا اعرفها ، فقال لى إن راتب بك ورث

من امه ستي الكبيرة اربعة وخمسين فداناً وبيتاً في العباسية ، وحكى لي عن ستي الكبيرة ايام شبابها .. استمعت إليه في دهشة وهو يتحدث عن جمالها ، والخطاب الذين كانوا يتنافسون على طلب يدها ، ورفضت أن أصدقه عندما قال إنها كانت تضرب زوجها ابو راتب بك بالشبشب لأنه كان سكيراً لا يفيق من الخمر .

قلت له

- ياشيخ حرام عليك .. والنبي دي ست طيبة وح تروح الجنة حدف .

فضحك قائلاً :

- انا قلت حاجة .. ما الكلام ده كان قبل ماتحج وتعمل شيخة .
- وسألته فجاة :
- وأنت ما تبصليش ليه ؟

فارتبك واحمر وجهه وقال :

- والله أنا نفسي أصلي يامبروكة . لكن اعمل ايه في المدعوق ده اللي اسمه الشطرنج .. واخد عقلي ووقتي وصحتي وديني وفلوسي .. أخد كل حاجة ..

قلت له :

- ما تبطله ..

فقال في استسلام .

- مقدرش .. اتعودت عليه .. بحبه .

ثم لمعت عيناه وقال في زهو :

- أصل الشطرنج دا لعبة عايزه مخ .. ما يلعبوش الا الاذكيا .

قلت له ساخرة :

- وايه يعني .. تفتكر مقدرش أتعلمه أنا كمان .

فنظر إليّ في استخفاف وقال :

- أدي اللي ناقص ..

ثم اردف قائلا وكأنه يهمس بسر

- تعرف انا فاتح مدرسة .. موش بتشوفيني انزل ومعايا كتب .. كلها كتب شطرنج . اروح على القهوة وأجمع اللعيبة حواليه وأدرس لهم .

قلت له :

- والنبي تعلمني ..

قال بصوت جاد :

- بلاش .. أحسن يتلف مخك .

كنت أجد عبد الحميد افندي شخصاً مسلياً ، أثرثر معه في غير حرج .. واحس نحوه بمشاعر مختلطة من الشفقة والحنان والأمومة والدلع .

وكنت أتبادل الحديث معه في الصباح ويوسف في الجامعة ، وكنت اتعمد الوقوف وارفض أن اجلس أمامه على الأرض كما كنت افعل مع ستي الكبيرة وحدث مرة أن طال حديثنا فتململت في وقفتي .. وشعر هو بأني متعبة فقال لي :

- ما تقعدي .

فجلست .

جلست على المقعد ، ولم يبد عليه أي شيء اعتبر جلوسي على المقعد وكأنه شيء طبيعي ، اما انا فكان قلبي يقفز بين ضلوعي من الانفعال والفرح .. ورغم ذلك كنت خائفة من يوسف فلم اجلس أمامه ابدا على مقعد .. ومنذ اللحظة التي يعود فيها من الجامعة ابتعد عن عبد الحميد افندي وانشاغل بأي شيء . وكان عبد الحميد يساعدني في التخلص من الحرج ، فيخرج كل عصر ومعه كتبه إلى المقهى ، وعندما يعود في المساء احضر له العشاء ، ثم احضر له رقعة الشطرنج فيضعها على المائدة ويحرك القطع وهو ينظر في كتاب . وبين حين وآخر يمسك بقلم احمر يدون به ملاحظات في هامش الكتاب ، وأجلس انا بالقرب منه انصت إلى الراديو بأذن . وانصت إلى باب حجرة يوسف بالأذن الثانية .. حتى إذا فتح يوسف الباب ، قمت من مقعدي متظاهرة بأي عمل فلا يراني وانا جالسة مع أبيه .

وكانت ساعات العصر التي أكون فيها وحدي مع يوسف في الشقة ،ساعات غريبة ، كنت اشعر بوجوده في كل لحظة ، أرقب خطواته في قلق وأعجب

للكلمات القليلة التي نتبادلها وأفكر في مدحت وأقول لنفسي ماذا كان يحدث لو أن مدحت هو الذي يعيش معي في الشقة بدلا من يوسف .

لم يحاول يوسف أن يغازلني أبدا ولكني كنت واثقة أنه يشعر بأنوثتي فهو دائما يخفض بصره أو يحوله عن وجهي أو صدري وإذا حدث أن تلامست يدانا ، سحب يده برجفة غير عادية كأنه مذعور ، وإذا خاطبني ، فصوته حاد ، وكلماته مقتضبة على غير عادته عندما يتحدث مع والده .

وكان وجهه متجهما دائما لا يضحك أبدا ، حتى لو حاولت أن أشجعه وابتسمت في وجهه .

وأدركت أن خجله ليس بسبب قدومي من بيت راتب بك ، بيت العز الذي يذكره بفقره ، وإنما هو يخجل أيضا من أنوثتي .

ولم يعجبني خجله ، أشعرني بأنه ضعيف وغلبان ، وظل مدحت في خيالي الشاب الذي أحلم به ..

استفزني ضعف يوسف ، وشجعني على أن أتحداه ..

ذات يوم وكنا ساعة العصر ، خرج عبد الحميد أفندي إلى المقهى كعادته ، وتركنا وحدنا .

ورأيت يوسف يذهب إلى حجرة الطعام ، ويعبث بمفاتيح الراديو حتى انطلقت منه موسيقى أفرنجية تصحبها خشخشة وصفير وأزيز ، وجلس ينصت إليها وقد أطرق برأسه وكأنه يسمع أم كلثوم .

لم تعجبني هذه الضجة التي يسمعها ، فدخلت عليه ووقفت بالقرب منه ولكنه تجاهلني ..

قلت له فجأة :

- والنبي ايه اللي عاجبك في دوشة الدماغ دي ..

فرفع إليَّ عينيه في دهشة ، وقال في حدة :

- وأنتِ مالك .

قلت له في عناد :

- ما تشوف محطة مصر ..

فصرخ في غيظ ..

- بقول لِك ملكيش دعوة .. روحي شوفي شغلك ..

نظرت إليه في تحدٍ قائلة :

- طيب ما تشخطش كده .. اعمل اللي أنت عايزه .

وهززت كتفي في سخرية ، فارتفع الدم إلى وجهه ، وجحظت عيناه .. وقال في هياج :

- أنت ازاي تكلميني بالشكل ده .. فاكره نفسك مين .. أنت خدامة .

قلت له في هدوء :

- الله يسامحك .. أنا موش ح أرد عليك ..

فصرخ :

- أنت قليلة الأدب ..

فلم أقل شيئا ، وغادرت الحجرة وأنا في عجب من نفسي ، كنت أشعر براحة كبيرة لأني أثرته وجعلته يصرخ كالمجنون ، ولم أكترث بقوله إني خادمة . لم تجرحني الكلمة رغم رفضي لها ..

ودخلت الحمام ، وشرعت في الاستحمام ثم ارتديت ملابسي ، وفتحت الباب ، ووقفت أمام مرآة الحوض أمشط شعري وأغني .

كان قد أقفل الراديو وسمعت صوت أقدامه وهو يتنقل في الشقة ثم اقترب صوت خطواته ، ورأيته واقفا عند باب الحمام ينظر إليَّ في غضب وصاح :

- بلاش غنا .. أنا عاوز أذاكر .

قلت له ويدي تحرك المشط في شعري المرسل المبتل :

- ليه .. موش عاجبك صوتي .

- وابتسمت عيناي ..

فارتبك وخفض عينيه ، ثم عاد ورفعهما إليَّ وقال بصوت مرتعش يفضح خجله .

- أنا موش عارف أذاكر :

- فقاطعته بصوت مرح :

- أعمل لك شاي ..

وتقدمت منه . ومددت يدى إليه لأزيحه عن الباب فى طريقى إلى المطبخ فانتفض متراجعاً وقال فى صوت متحشرج :

- موش ضرورى ..

قلت له ضاحكة :

- لا .. والنبى لانا عاملاه على طول .. علشان تعرف تذاكر .

وذهبت إلى المطبخ أصنع الشاى ، وأنا فرحانة كأنى ألهو فى لعبة مسلية ، كانت بى رغبة ملحة فى أن استدرجه حتى يغازلنى ، أريد أن اتحداه بأنوثتى ، حتى يستسلم لها فيمد يده إلى جسمى ، وعندئذ أصده واشعره بأنى أقوى منه .

وحملت كوب الشاى إليه فى حجرته ووضعته أمامه على المنضدة ، وقلت له ويدى تعبث بشعرى المبلول ..

- لسه زعلان منى ..

فانكمش فى جلسته ونكس رأسه ولم يقو على الكلام .

قلت له بلهجة عتاب :

- يعنى هو عيب لما أبقى خدامة ، الكلمة دى عمرى ماسمعتها من ستى الكبيرة ولا ستى الصغيرة ، ولا سى مدحت ، ولا حتى من راتب بك .. عمر ما حد منهم قالها لى .

فاهتزت رأسه ، يريد أن ينظر إلىّ ولا يستطيع . وقال بصوت خفيض مضطرب :

- أنا موش قصدى .. لكن ما يصحش تكلمينى بالطريقة اللى كنتِ بتتكلمى بيها ..

نظرت إليه فى غيظ ، لماذا لا يرفع عينيه إلى وجهى ، لماذا لا يريد أن يرى شعرى وابتسامة عريضة على شفتى ولا يتبسط معى فى الحديث رغم تشجيعى له ..

قلت له فى وجوم :

- حقك عليه .. أنا غلطانة .. وتركت الحجرة وأنا أشعر بهزيمتى ..

هزمنى ضعفه لا قوته ..

وفى صباح اليوم التالى انتظرت حتى خرج يوسف ، وبقيت وحدى مع عبد الحميد أفندى ، وكان فى الحمام ، فخرج منه ليجدنى جالسة فى الصالة أبكى ..

صاح فى ذعر :

- الله .. إيه اللى جرى .. حصل إيه .. بتعيطى ليه .

فاشتد بكائى ، واقترب منى يربت على كتفى ويحاول أن يهدئنى بلا فائدة .. كنت أبكى بحرقة والدموع تنهمر من عينى بغزارة ، وهو فزع يريد أن يفهم ما حدث . فجلس إلى جوارى وطوق كتفى بذراعه ، وأخذ يتوسل لى أن أفسر له سر بكائى .

قلت له أخيرا بصوت يمزقه البكاء :

- يوسف شتمنى ..

صاح فى انفعال :

- يوسف ابنى ..

قلت له فى ألم :

- أيوه ..

هتف :

- لازم ما يقصدش .. هو يعرف يشتم .. قال لكِ إيه ..

وارتفع بكائى من جديد .. ثم قلت له :

- قال لى .. ياخدامة ..

فصاح فى استنكار :

- لا .. هو غلطان .. حقك عليه وعدت إلى البكاء ، وهو حائر لا يدرى ماذا يفعل . ثم قال فجأة :

- خلاص باه .. علشان خاطرى .

وارتفعت يده إلى رأسى ، وجذبه إليه وقبلنى فى شعرى . فشعرت براحة

كبيرة وأنا بين ذراعيه ، ومضت لحظات قبل أن أشعر بشفتيه تلتصقان بخدى ، فتركته يقبلنى ، ثم انتفضت واقفة ، وذهبت إلى المطبخ وأنا أمسح دموعى ..

الفصل الرابع

حيرتنى قبلات عبد الحميد افندى .. حدثتنى غريزتى كامرأة بأن هذه القبلات تعنى أكثر من الرغبة فى مصالحتى وإظهار العطف علىّ ، كنت واثقة أن شيئاً ما قد طرأ عليه وهو يحتضننى ويقبلنى . ما هو هذا الشىء ..

أهى رغبة مفاجئة انتابته ، أهى عاطفة يشعر بها نحوى منذ زمن .. كان يكتمها ثم انطلقت وفضحت نفسها .

كنت حائرة ، ولكنى لم أشغل نفسى بالتفكير ، قلت لنفسى إن الأيام وحدها هى التى ستكشف لى سر هذه القبلات .

كان ما يشغلنى ويسيطر على عقلى هو موقف يوسف منى ، عندما بكيت أدركت أنى لم أغفر له وصفه لى بأنى خادمة . لقد حاولت أن أدافع عن نفسى ، فشجعته ليغازلنى ، ليعاملنى كامرأة ، ليعاملنى وكأنى سعاد .. ولكنى فشلت ، تجاهلنى فحكم علىّ بأنى ما زلت خادمة ، حكم علىّ بأنى لست سعاد .

ما الذى أعجبه فى سعاد ، ولم يعجبه فىّ ، أهى أجمل منى ، أبداً ، أنا أجمل منها ألف مرة ، وأصغر منها ، عجوز تكبر يوسف بسنتين ولو تزوجته لتحولت إلى شمطاء وهو ما زال فى شبابه ، كل ما كان يجذبه إلى سعاد هو غناها ، وكل ما أبعده عنى هو فقرى ، هو أنى خادمة .

قبلات عبد الحميد افندى ، ومصالحته لى ، وعواطفه المكبوتة نحوى ، أن تمحو حكم يوسف علىّ بأنى أقل منه .. بأنى شيء حقير .. بأنى خادمة .

هل أستمر فى محاولاتى مع يوسف .. أشجعه أكثر وأكثر . حتى يغازلنى .. لا .. ما يدرينى كم من الإهانات سأتعرض لها قبل أن أنتصر عليه .. ولو انتصرت فسيكون انتصاراً رخيصاً ، لن أشعر أبداً أنه هو الذى سعى إلىّ ، وإنما أنا التى أذللت نفسى وسعيت إليه .

هناك مخرج آخر . اكتشفته بالصدفة ..

ماذا لو سيطرت على عبد الحميد افندى ، أبو يوسف ، ماذا لو جعلته طوع إرادتى .. هذا هو الطريق السهل الميسور ، هذا هو باب الأمل الكبير فى أن أتحول من خادمة فى نظر يوسف إلى سيدة بيته ، سيدته هو .. هكذا سيضطر يوسف إلى أن يعترف بى ويحترمنى كزوجة أبيه .

وأعجبتنى الفكرة ، ملأت عقلى ، وهزت كيانى ، فانطلقت أتخيل تفاصيل حياتى بعد الزواج . وكأنه تم فعلاً ..

سأنام على سرير عبد الحميد افندى وسيرانى يوسف وأنا أدخل حجرة أبيه ، وأخرج من حجرة أبيه ، وأنا فى سرير أبيه ، وسأجلس معه على مائدة الطعام ، وستأتى خادمة لتخدمنى و..

وفجأة ، خطر لى أنى أستطيع أن أذهب مع عبد الحميد افندى إلى بيت راتب بك ، أذهب معه كزوجة ، وأجلس إلى جانبه فى الصالون ، تستقبلنا ستى الصغيرة وتجلس معنا ويقدم لى إسماعيل عصير البرتقال و..

أنى لا أستطيع أن أجرى مع خيالى .. هل هذا معقول ، أممكن أن يحدث هذا ، أنى أطلب المستحيل ، أنى أهذى ، أكذب على نفسى ، كيف ترضى ستى الصغيرة بالجلوس معى فى الصالون لن ترضى ، ستصفعنى على وجهى ، ستطردنى من البيت ، إنى خائفة ، أنا نفسى لا أستطيع أن أجلس أمامها ، سأرتبك .. سأخاف . شعرت أنى مقبلة على معركة كبيرة معركة ضد راتب بك وستى الصغيرة ومدحت ويوسف وسعاد ..

سيحاربوننى جميعاً ، سيقفون فى وجهى ، ولكن أليست هذه الحرب أفضل من الاستسلام لهم ، وتحمل نظراتهم لى كخادمة .

سوف أخوض المعركة ، وسوف أنتصر .. هنا على الأقل ، فى هذا البيت ، سوف أنتصر على يوسف بالذات ..

ومضت أيام وأنا أرقب عبد الحميد افندى ، وأنتظر خطوته التالية ، ولكنه كان يتقرب إلى ببطء وحذر شديدين ، لم يغب عنى أنه متردد وخائف ، لاحظت شدة انفعاله وهو يجلس معى كل صباح يثرثر كعادته وعلى فمه ابتسامة عصبية بلهاء ، وفى عينيه بريق الرغبة ، ولكن لسانه عاجز أن ينطق ، ويده المرتعشة خائفة أن تمتد .

كان يقول لى كلاماً ساذجاً ..

ويسألنى أسئلة مضحكة ، ويلف ويدور كالتائه ، فأتركه على سجيته ولا أحاول مساعدته ، لأتمتع بمحاولاته اليائسة ، وأتفرج على المعركة القاسية بينه وبين نفسه ، كنت مطمئنة إلى مصيرى معه ، واثقة أنه فى يدى .. فلا داعى للعجلة ، صبرت عليه حتى يقهر الخوف الذى يشعر به ، ويعترف لى بأنه عبدى ، وأنا سيدته .

سألنى فجأة ذات صباح :

- إيه رأيك فى شنبى ..

ونظر إلىّ فى اهتمام ، كأن وجهى مرآة ..

قلت له وأنا أكتم ضحكة :

- ماله ..

قال فى انفعال :

- لا . قول لى صحيح .. أنا بافكر أحلقه .

قلت له وأنا أهز كتفى فى غير اكتراث .

- والله أحسن .. يعنى فايدته إيه .

فقال فى أسى :

- ماحدش بيهتم بالشنب دلوقت .. شبان الأيام دى ما يعرفوش قيمة

الشنب ..

وهتف :

- أنا ح أوريكى صورتى زمان .. وأنا بالشنب .. شنب تمام .. كنت أبرمه وأدهنه بالكوزماتيك .. يقف عليه الصقر ..

ونهض ليذهب إلى حجرته ويأتى بالصور ..

قلت له :

- خليك أنتِ .. وأروح أنا أجيبهم ..

فقال فى حماس :

- لا .. أجيبهم أنا ..

وذهب إلى حجرته .. فتبعته . وفتح الدولاب . وأخرج من داخله صندوق أحذية فيه أوراق وصور كثيرة .. رأيت بينها صورة امرأة سمينة .. متورمة الخدين . لها عينا بقرة .. وأدركت أنها صورة أم يوسف . ورغم ذلك سألته :

- صورة مين دى ؟

قال فى وجوم :

- دى المرحومة .

وحاول أن يخفى الصورة بين الأوراق فمددت يدى وأخذتها منه . وتفرست فيها . وهو ينظر إلىّ فى قلق . ثم سألته :

- أنت بتحب التخان ..

فصاح فى انفعال :

- أبداً .. مين قال لك كده .

قلت له وأنا أضع الصورة أمام عينيه :

- أهى .. شوف كانت تخينه قد إيه ..

فقال بصوت مرتفع :

- كانت دقة قديمة .. متعرفش حاجات زى دى ..

فسألته :

- زى إيه ؟

فقال متردداً :

- يعنى زى الحب بتاع الأيام دى ثم ابتسم وقال فى سذاجة :

- إنما أنا ....

وقطع كلامه . ولكنى كدت أسمع الكلمات التى حبسها على طرف لسانه .. كان يريد أن يقول « إنما أنا بأفهم فى الحب .. أنا بأحبك أنتِ »

وتحركت أصابعه فى عصبية بين الأوراق . حتى عثر على صورة له . وهو فى شبابه . طربوش طويل فوق رأسه . وشارب ضخم مبروم يشطر وجهه الوسيم إلى شطرين .. وقد وضع يده اليمنى فى خصره ..

وهتف فى انتصار :

- أدى الشباب .. موش شباب الأيام دى .. شوف العظمة .. شوف الأبهة . موش المفاعيص الهايفين عيال أمبارح ..

كان يعرض علىّ مفاتنه من خلال صورته القديمة . وهو يظن أنه يضحك على عقلى .. وأنى سأرى الصورة .. وأنسى شكله العجوز .

ومضى يقول وقد التهب حماسه .

- كنت أيامها عفريت .. ما بطلش شقاوة .. هو شبان الأيام دى عملوا حاجة .. ولا يعرفوا يعنى إيه الشقاوة .. خيبانين .. والله خيبانين .

ونظر إلىّ فى لهفة . رأيت فى عينيه ما يريد . كان خياله قد جمح . والرغبة تأكله . وهو عاجز أن يتصرف وأنا فرحانة به . سعيدة بمراقبته يتعذب ويتقلى على النار ..

وتغير نظام حياته ..

أصبح يعود مسرعاً من المقهى قبل أن تغيب الشمس . ثم انقطع عن المقهى ولزم البيت لا يخرج منه حتى يكون قريباً منى . وكان قعوده فى البيت سبباً فى توتر العلاقة بينه وبين يوسف فكلما رآه يخرج من حجرته بدا عليه الضيق والتبرم وصاح فيه :

- يا ابنى ما تذاكر .. أنت فى الليسانس . ده موش لعبة ..

فيقول له يوسف فى دهشة :

- ما أنا يابابا ..

وعندئذ يرتفع صوته فى هياج :

- بتذاكر إزاى وانت كل خمس دقائق سايب أودتك ..

فيتمتم يوسف بكلمات غير مسموعة ويذهب إلى الحمام ، أو إلى المطبخ ليشرب ، ويعود إلى حجرته مطاطىء الرأس ، بينما تلاحقه نظرات غاضبة يصوبها إليه عبد الحميد افندى وهو يصيح :

- أما عجايب صحيح :

وقال له يوسف فى إحدى المرات .

- ياباباموش تخرج تمشى شويه .. القعاد كده موش كويس على صحتك ..

فثار وارتعش وصرخ فيه :

- انت مالك يا ولد .. أنا صحتى زى البمب .. انت عايز تطلعنى من البيت ..

ولم يفهم يوسف سر غضب أبيه ، أما أنا فكنت أعرف السر ، إنه يثور على ابنه لأنه يحمله ذنب خوفه وتردده فى مغازلتى ، كأن وجود يوسف بيننا هو الذى يمنعه من مغازلتى .

وخطر لى أن عبد الحميد افندى حاقد على شباب ابنه ، وأنه يغار منه وربما كان سبب قعوده فى البيت ، خوفه من بقائى وحدى مع يوسف وهو بعيد عنا فى المقهى .

وأخيراً اكتشف عبد الحميد افندى حيلة للوصول إلىّ .

ادعى المرض ، فدخل حجرته عصر يوم ورقد فى السرير ، وقال إنه متعب ، وطلب منى أن الازمه فى الحجرة وكان فى كل دقيقة يطلب أن اعدل له وضع الوسادة ، أو أجس جبينه بيدى لأتأكد أن حرارته ليست مرتفعة أو أدلك يديه وساقيه ، وكان يتأوه ويتنهد ويزفر الهواء بحرقة ، وإذا تحركت ناحية الباب لأى سبب صرخ قائلاً :

- رايحة فين .. ما تسبنيش يا مبروكة .

ودخل علينا يوسف ليطمئن على صحته ، فغضب وقال له فى حدة :

- انت جاى تعمل إيه .. ما تروح تشوف شغلك ..

قال يوسف :

- بس انت عيان ياببا .. اروح اجيب لك دكتور .

- دكتورليه .. هو انا ح اموت .. ح تقلب الدنيا علشان شوية برد عندى .. روح ذاكر .

وتركنا يوسف متجهما .

وطلب منى عبد الحميد افندى أن احضر له رقعة الشطرنج إلى جانبه فى السرير ، فأحضرتها له وقلت :

- اجيب لك الكتاب .

فقال ضاحكاً :

- لا .. انا ح اعلمك علشان تلعبى معايا .

وشرع يرص القطع فوق الرقعة ، وهو يمسك واحدة واحدة ، يرفعها أمام عينى ويشرح لى :

- ده ياستى الحصان .. وده اسمه الفيل .. وده الملك .. وده الوزير ودى الطابية .. وده البيدق ، يعنى العسكرى .

ثم قال فجأة :

- ح تلعبى إزاى كده ، اطلعى اقعدى جنبى .

قلت له :

- ما أنا واقفة أهو ..

فهتف :

- موش ممكن .. لازم تاخدى راحتك و انت بتلعبى .. دى لعبة ملوك .

ترددت فى الصعود إلى جانبه على السرير ، كنت أعرف حيلته وأسخر منها ، ولكن .. أليس هذا هو ما اسعى اليه ..

ترددت لانى لا أعرف إلى أى مدى يجب أن أتورط معه ، قبل أن أصل إلى غرضى . وأسمعه يقول لى إنه يريد أن يتزوجنى .. أيكتفى بالقبلات ، أم سيطلب أكثر منها .

ولو طلب الكثير ، فهل أوافقه أم ارفض ..

لقد نسيت أن أفكر في كل هذه الأشياء ، شغلت نفسي بالتفرج عليه وأنا مطمئنة إلى النتيجة ، فلم أستعد لهذه اللحظة ، اللحظة التي سيتغلب فيها على مخاوفه ، اللحظة التي توشك أن تجيء ..

وصعد إلى السرير فتهلل وجهه فرحاً ، وانطلق يشرح لي كيف أحرك القطع فوق الرقعة ، وأنا لا افهم من كلامه شيئاً ، كنت مضطربة .. مشاعري متضاربة ، سعيدة لأني جالسة على السرير اللين ، الذي يمثل لي الراحة والأمان ، قلقة لأني لا اعرف ماذا سيحدث في أية لحظة ايمسك بيدي ، ايقبلني ، أيهجم علي كالمسعور وكنت خائفة أتوقع ان يدخل يوسف علينا في أية لحظة ، وكنت أشعر بالخجل .

وسمعته يقول لي :

- ألعبي بأه .. لما اشوف فهمتي كلامي وإلا لأ ..

فقلت له :

العب أنت الأول .

فقال :

- لأ .انتِ معاكي الأبيض .. وأنا معايا الأسود .. الأبيض يلعب الأول .

ونظرت إلى القطع في حيرة ..

وأمسكت بالحصان .. ثم صحت :

- موش عارفة .

فقال في أسى :

- تبقي مفهمتيش .

قلت له وقد نفد صبري :

- دي لعبة صعبة قوي .

وهبطت من السرير قائلة :

- أنا رايحة أعمل لك حاجة سخنة

فقال في ارتباك :

- خلاص موش عايزه تتعلمي .

قلت له :

- لأ .. أنا موش فاهمة حاجة .

وصوب إليّ نظرة حزينة . وسكت وخرجت من الحجرة . وذهبت إلى المطبخ لأعد له قدحا من الينسون . وتذكرت يوسف فأشفقت عليه .. المسكين ، انه لا يدري شيئا عن المفاجأة التي أعدها له ، وصنعت له قدحا آخر . كنت أريد أن أراه ، لأتمتع بمنظره المتجهم في لحظة انتصاري ، وحملت القدح إلى حجرته فلم أجده ، بحثت عنه في حجرة الطعام ، وفي الحمام ، فلم أجده ، وأسرعت إلى عبد الحميد أفندي وقلت له في جزع :

- يوسف خرج ..

فقال في صوت جامد وكأن الأمر لا يعنيه :

- طيب ..

ثم سألني وعيناه مثبتتان على صدري :

- رح فين ..

قلت له :

- ما أعرفش ..

فقال وكأنه يحدث نفسه :

- الولد ده باظ .

قلت له وأنا أقدم له قدح الينسون .

- دا أنا كنت عاملة له ينسون هوه كمان ..

فقال في هدوء ، وقد ارتفعت عيناه إلى عيني :

- خسارة فيه .. اشربيه أنتِ .

ذهبت إلى المطبخ وأحضرت قدح الينسون . وعدت إليه . فقال لي وهو يشير إلى جانبه على السرير :

- ما تيجي تقعدي .

صعدت إلى السرير ، وشربنا الينسون في صمت ، وناولني قدحه الفارغ قائلا :

– حطيه على الكرسي جنبك .. متنزليش من السرير .

كان في صوته رنة آمرة ، وسألني بصوت خفيض :

– هوه خرج .

فقلت له :

– أيوه ..

فنظر إليّ نظرة طويلة ، في عيني وابتسم ، فابتسمت ، ومد يده إلى ذقني وأمسك بها ، وقال في انفعال :

– انتِ حلوه .. زي السكرة أطرقت برأسي ، ولم أقل شيئا ، مرت بي لحظة خاطفة فكرت فيها أن أدفعه بيدي وأخرج من الحجرة .. ولكني لم أفعل ، كان السرير لينا مريحا ، كنت أريد أن أستريح فوق هذا السرير ، وربما لهذا السبب تركته في تلك اللحظة يحتضنني ويعبث بي .

●●

وعرفت من عبد الحميد أفندي معنى التعب ..

صباح مساء ، وعيناه زائغتان ، ويداه لا تكفان عن العبث بي في حماقة وقسوة ويأس ، والعرق يتصبب منه فيغسلنا ، وأنفاسه تلهث ، وجسده المترهل يكتم أنفاسي ..

كان ما بيننا يرهقني ، أكثر من إرهاق الكنس والمسح والغسيل .. وإعداد الطعام .

لم يكن حبا ، إنما هو عمل مضن شاق ، أتلف أعصابي ، أتلف جسدي وحسرني على شبابي ، وعلى بهجة الحب التي افتقدتها ، كنت أصارع جسدا محطما ، جسدا لا خير فيه . فأذكر عوض وفرحه وضحكاته وعينيه الماكرتين وحركاته القوية ، وأذكر مدحت وقدرته وشبابه ، فأندب حظي حرمت نفسي

من الشباب ، وحرمت الشباب مني ، وبددت كل شيء .. ضيعت جمالي ، وبعثرت عواطفي ..

ماقيمة هذا الذي أنا فيه ، ما قيمة سيدة بلا سيد ، امرأة بلا رجل .. صاحبة بيت ، وصاحب البيت عاجز يعلن كل يوم هزيمته وعجزه .

كان يوسف قد اعتاد المبيت في الخارج بحجة أنه يذاكر مع صديق له ، فلم يعد هناك ما أخشاه ، كنت أحصل على راحتي الوحيدة وأنا مطمئنة ، حين يهدأ عبد الحميد ، فينام ويرتفع شخيره ، عندئذ أضع رأسي على الوسادة وأحاول أن أستريح ولا أنام إلا بصعوبة ، لم أعد أعرف طعم النوم ، عرفت طعم الموت من التعب .

وعندما أفتح عيني في الصباح أفزع من منظر عبد الحميد ، جثة ميتة ، ستقوم من مرقدها بعد قليل لتفرض عليّ الموت الذي ينهشها .. ولتحاول يائسة أن تمتص الحياة والشباب الذي يمزقني .

كنت أسرع بمغادرة الحجرة ، وأذهب إلى حجرة يوسف لأطمئن إلى أنه لم يعد في الليل .

وفوجئت بيوسف يرقد في سريره صباح يوم ..

كنت أنتظر مثل هذا اليوم ، حين يعود في الليل ، ولا يراني راقدة في حجرة الطعام ليعرف أني أنام في حجرة أبيه .. ليدرك العلاقة التي بيننا وتوقعت أن يثور على أبيه ، وأن يثور أبوه عليه ، ثم يستسلم يوسف ، وأنتصر أنا ..

وحاولت أن أضبط أعصابي فذهبت إلى المطبخ ، وشرعت في إعداد طعام الإفطار ، وأستيقظ عبد الحميد فجاء يطاردني في المطبخ ، قلت له وأنا أدفعه عني :

– يوسف جوه ..

فهمس في قلق :

– جه امتى ..

قلت له :

– ما أعرفش .. أنا صحيت لقيته نايم في السرير .

وتبادلنا النظرات .

سألتني عيناه .. ما رأيك .. هل عرف .

وأجابته عيناى . طبعا .. لابد أنه عرف .

وتركنى فجأة ، وذهب إلى حجرته وأغلق بابها عليه ، وظل محتبساً حتى استيقظ يوسف ، فوضعت الافطار على المائدة ، وقلت ليوسف وكان خارجاً من الحمام :

ـ صباح الخير .. الفطور جاهز .

فأطرق برأسه وقال فى صوت مضطرب :

ـ سعيد صباحك ..

ومشى خطوتين ، ثم وقف واستدار ناحيتى ، وسألنى فى ارتباك :

ـ هو بابا لسة نايم ..

قلت له :

ـ لا .. صاحى فى أودته .

فقال ووجهه حزين ، وصوته يرتعش :

ـ أقدر ادخل له ..

واتسعت عيناه فجأة ، كأنه أحس بسخافة سؤاله ، وأسرع دون أن ينتظر إجابتى إلى حجرة أبيه .

أيقنت أنه يعرف .

فضحه سؤاله ، ما الذى يجعله يتردد فى الدخول على أبيه ، ليست هذه عادته ، ما الذى جعله يستأذننى أنا فى الدخول ، إنه يعلم ، يعلم أنى شريكة أبيه فى حجرته ، فى سريره .

وقفت برهة لا أدرى ماذا أفعل ، ثم تقدمت ناحية الحجرة ، وكان بابها مفتوحاً ، ووقفت استرق السمع .

كان عبد الحميد أفندى يقوم بدور المريض ، يشكو من الروماتزم ، ومن صداع فى رأسه ، وادعى أنه كاد يموت فى الليل ، وقال فى صوت مرتفع :

ـ البت مبروكة مانمتش طول الليل .. فضلت قاعدة على الأرض هنا لحد الصبح .

وكدت أجن ..

طار عقلى ، أوشكت أن اقتحم الحجرة وأصيح فيه انه كذاب ، أبعد كل هذا يجبن أمام ابنه ويحدثه عنى كما لو كنت خادمة ، يقول له :

ـ « البت مبروكة » يقول عنى أنا « البت .. البت مبروكة » ، أنا التى يتوسل إليها ، أنا التى يبكى هزيمته على صدرها ، أنا التى يقبل أصابع قدمها ، أنا التى أضربه على قفاه ، وادفعه واصرخ فيه : « ابعد عنى خلاص انا زهقت منك » ، أنا التى يسلمها معاشه أول كل شهر ، ثمانية عشر جنيها وسبعة وثمانين قرشاً ومليمين ، ويطلب منى أن اصرف كما أشاء ، ألبس كما أشاء ، ويقول لى : « أنا معنديش غيرك .. لا عندى ولد ولا أهل ولا حد فى الدنيا غيرك ياحبيبتى » .

بعد هذا كله يتحدث عنى كخادمة يقول عنى « البت مبروكة .. كنت قاعدة على الأرض » .

أضاع أملى ، لن يتزوجنى ، أيظن أنه يضحك علىّ .

التهبت رأسى وكدت أطلق صوتى عاليا ، لأجمع الجيران والناس فى الشارع ، ولأمسك بعبد الحميد أفندى أشده من رقبته وألطمه أمامهم .. ليشهدوا كذبه وخديعته لى .

وجريت إلى المطبخ قبل أن أصرخ ، وقفت وسطه كالمجنونة ، أريد أن أحطم أى شيء ، ثم ذهبت إلى الباب وفتحته وخرجت إلى الشارع .

سرت على غير هدى ، أبحث عن مكان ليس فيه أحد ، لأبكى ، كانت راحتى فى البكاء ، ولكنى لا أريد أن يرى دموعى عبد الحميد أفندى أو يوسف ، أو الناس ، لا أريد أحدا يرانى فى لحظة تعاستى ، لقد مضت شهور وأنا أعامل نفسى كسيدة ، ولن يرونى إلا سيدة ، وسأظل سيدة رغم أنفهم جميعا .

وصلت إلى الميدان ، ووقفت عند محطة الأتوبيس التى هبطت منها مع عبد الحميد أفندى لأول مرة ، من هنا بدأت تعاستى ، من هنا بدأت أخوض

المعركة ، وفكرت فى أن أعود .. أعود إلى بيت راتب لأعيش خادمة أعود إلى قريتى لأعيش مع أمى أعود إلى أيام الماضى ، أعود إلى ستى الكبيرة ، أعود إلى طفولتى التى نسيتها ، أعود إلى بطن أمى .

ومسحت الدموع من عينى ، إنى لا أستطيع العودة ، كل ما تعرفه قدماى هو الطريق إلى البيت ، الطريق إلى حجرة عبد الحميد أفندى .

وتحركت قدماى ، وعدت إلى البيت فلم أجد أحدا فيه ، لا يوسف ولا عبد الحميد أفندى ، ففزعت ، ظننت أنهما هجرا البيت ولن يعودا إليه ، خيل إلىّ أن عبد الحميد أفندى قد هرب منى قبل أن أفضحه أمام الناس وسيطر الخوف على قلبى ، وضاق البيت بى ، حاصرتنى جدرانه ، طاردتنى حجراته ، فانكمشت على نفسى ، وانزويت فى ركن بالمطبخ ، عاجزة عن التفكير ، لا أرى ولا أسمع والغباء يطن فى رأسى .

لست أدرى كم مضى من الوقت ، وأنا على هذه الحال ، حتى انتفضت على صوت عبد الحميد أفندى يصيح

– مبروكة .. يامبروكة .

وقابلته عند باب المطبخ ، صاح

– أنتِ خرجتى فين الصبح ؟

لم أفهم سؤاله ، كنت قد نسيت كل ما حدث فى الصباح .

فقلت له فى وجوم :

– ولا حاجة ..

فنظر إلىّ فى دهشة وقال :

– مالك .. وشك متغير كده ليه

رددت فى غير فهم :

– ولا حاجة .

فأمسك بيدى واحتضننى .. وقبلنى فى نهم ، واستسلمت له كالنائمة ، ثم قلت فجأة وقد تذكرت :

– خرجت علشان أزور ستى الصغيرة .

فسألنى متعجبا :

– ليه وزرتيهم ..

قلت وأنا أحاول أن أتذكر المزيد :

– لا .. رجعت تانى .

قال ضاحكا :

– لازم معرفتيش السكة .

وأخرج من جيبه ثلاثة جنيهات ، مد يده بها فأخذتها منه فى صمت

قال وهو يقبلنى :

– دول بتوع الدروس الخصوصية .. الامتحانات قربت ، ورح ابتدى اشتغل .. اتفقت مع عيلة عندهم أربعة أولاد .. خدتهم مقاولة .. الحصة بتلاتين قرش .

فلزمت الصمت ، كنت أفكر كيف أواجهه بغضبى ، لقد ضاعت فرصة الثورة ، كل ما أشعر به الآن هو حزن طاغ ، حزن أسود .

ولم أفاتحه أبدا فيما حدث منه ، كلما مضى الوقت ، شعرت بصعوبة كبيرة فى أن أسأله لماذا تحدث عنى كخادمة أمام يوسف ، كنت أشعر أن مجرد سؤاله فيه إهانة وذلة لى :

ولاحظ حزنى ، فكان يسألنى لماذا لا أضحك ، وما هى الهموم التى تشغلنى ، ولا ينتظر منى الإجابة ، كأنه لا يصدق أنى حزينة أو مهمومة .. أو كأنه لا يعنيه هذا ، فيتهمنى بأنى مثل بقية شباب هذه الأيام ، قلبى عجوز لا يعرف الضحك ، ويدق على صدره ، ويعلن فى زهو أن قلبه هو الذى يعرف الشباب والمرح ..

وشغلته الدروس الخصوصية ، فكان يخرج عصر كل يوم ولا يعود حتى التاسعة أو العاشرة مساء ، يدخل البيت وهو يلهث ، ويجلس على أقرب مقعد من الباب حتى يسترد أنفاسه ، ثم يتباهى بالمسافات الطويلة التى قطعها مشياً على قدميه ، ليحرك عضلاته ، وليثبت لنفسه أو ليثبت لى أنه مازال شاباً قوياً .

واسترحت لخروجه ، فلم يعد يطاردنى كل ساعة وكل دقيقة ، وكنت أخلو لنفسى وهو غائب عن البيت افكر فيما ستأتى به الايام فلا اصل إلى نتيجة ، وأحاول أن ادبر أمرى فأحتار فيما يجب أن اقدم عليه حتى يتزوجنى .

إنى واثقة من حبه لى ، إنه عبد لى .. ولو طلبت منه أى شيء فسيحققه لى فورا ، فهل اقول له صراحة أن يتزوجنى .. هذا هو الطلب الوحيد الذى اخشى ان انطق به ..

وحدث أن دخل عبد الحميد افندى البيت مبكراً على غير عادته بعد غروب الشمس بقليل ، وسألنى عن يوسف فقلت له إنه كعادته يذاكر مع أصحابه فدخل حجرته وأخذ كتاب شطرنج ثم اتجه إلى باب الخروج .

سألته فى غضب :

- أنت رايح فين ؟

فقال :

- على القهوة ..

صحت فيه :

- وح تسيبنى لوحدى ؟ ..

فانهار فى الحال ، واحمر وجهه وقال معتذراً وفى صوته خوف :

- أبدا ياحبيبتى .. انا بس بقالى مده مرحتش لهم ..

قلت له فى لوم :

- ما أنت بقى معاك فلوس .. عايز تفنجر بيها لوحدك .

فأسرع إلى ووقف أمامى متوسلا :

- أنا موش باديلك كل مليم يوصلنى .. الجنيه اللى فى جيبى واخده منك .. كده وإلا لا .

ولم أتراجع ، لم ارحم توسلاته ، صحت فى حدة :

- واخده علشان تتفسح لوحدك .

فنظر إلىّ فى دهشة وقال :

- طيب ما تزعليش .. اقعد فى البيت .. بلاش اخرج .

قلت :

- وليه ما تفسحنيش أنا كمان ؟

فارتبك ، وارتبكت أنا أيضا ، فعلى الرغم من أحلامى الكثيرة عن الزواج به ، وأن اكون سيدة هذا البيت ، لم يخطر ببالى مرة واحدة أن أحلم بالخروج معه للفسحة .. لقد عشت طوال هذه السنوات لا أعرف ما هى الفسحة ، كان الخروج من بيت راتب بك عملية خطرة ، فعربات الجيش الانجليزى لا تنقطع عن المرور فى الشوارع ، والغارات كانت تفاجئنا بين ليلة وأخرى ، وكان مدحت يتحدث عن السينما والأفلام ، ولكنى لم أذهب إليها أبداً ، ولم أطلب من أحد أن يأخذنى إليها ، لأنى كنت فى قرارة نفسى خائفة منها ، كانت مرتبطة فى خيالى بالظلام والأشباح والعفاريت والخروج فى الليل الحالك الذى تولول فيه صفارات الإنذار ، ثم العساكر الانجليز السكارى الذين يملأون الشوارع ويعتدون على البنات .. فلم أذهب أبداً إلى السينما .

وكانت الغارات قد انقطعت قبل أن أترك بيت راتب بك ، وإن ظلت الشوارع مظلمة ، والراديو مازال يذيع أخبار الحرب ، والعساكر الانجليز مازالوا يطوفون بالشوارع فى الليل ، وكنت أسمعهم بعد منتصف الليل وهم يغنون ويتصايحون فى شارع الفلكى فأرتعد خوفا ، وأدعو الله أن ينجينى منهم .. والغيت من أحلامى الخروج للفسحة .

قال عبد الحميد أفندى مستسلما :

- تعالى ياستى افسحك .. تحبى تروحى فين ؟

قلت له :

- أنا عارفه ..

ثم قلت فجاة ، وكأنى اتحداه واتحدى نفسى :

- ودينى السينما ..

فابتسم وقال :

- حاضر .. غالى والطلب رخيص ستراند فتحت جنينا من يومين .

قلت له فى غير فهم :

- ستراند دى ايه كمان ؟

فقال :

- سيما صيفى .. ح تشوفى فيها فيلمين ..

وسألته محاولة ستر خوفى :

- ودى بيغشها عساكر انجليز ؟ فضحك قائلا وقد نفخ صدره :

- ماتخافيش .. معايا ..

قلت له وأنا أريد أن أذله وأسخر منه :

- ح تقدر تعمل إيه قدام العسكرى الانجليزى ..

فلوح بقبضة يده ، وقد احتقن وجهه ، وهتف :

- أنا أضرب عشرة زيه .. أنتِ معاكى سبع ..

فأطلقت ضحكة عالية وهتفت ساخرة :

- لا .. ياشيخ ..

وذهبنا إلى السينما ، لم أفهم منها شيئاً ، ولازمنى الخوف أغلب الوقت ، وكانت عيناى تدوران فى قلق وراء كل عسكرى إنجليزى يتحرك داخل السينما ، وحاول عبد الحميد افندى أن يشرح لى الفيلم فيدخل كلامه فى أذنى اليمين ليخرج من أذنى الشمال ، ومع ذلك كنت مسرورة ، ولا أريد أن أخرج من السينما ..

وقلت لعبد الحميد أفندى ونحن عائدان إلى البيت :

- أنا عايزه أشوف ليلى مراد .

فقال لى :

- حاضر ..

ثم أردف قائلا :

- المرة الجاية أوديكى فيلم عربى ..

وأحسست أنه مسرور أيضا ، لأنه ذهب إلى السينما معى .. فنظرت إليه فى حنان كبير .

الفصل الخامس

ذات مساء .. دخل يوسف البيت وأنا جالسة مع عبد الحميد أفندى على مائدة الطعام نتناول عشاءنا ، فلم يلتفت إلينا ، ومضى مسرعاً إلى حجرته وفتح بابها بعنف ..

وسألنى عبد الحميد فى قلق :

- الولد ماله ؟!

أدركت أن يوسف غاضب من جلوسى على المائدة مع أبيه ، فرفض أن يحيينا ، وتجاهلنا معبراً عن احتجاجه .. ولكنى لم أكترث لغضبه ، وصممت على أن أواجهه ، وليكن ما يكون .. لن أتنازل عن حقوقى التى اكتسبتها ، ولن أرضى أن يعاملنى وكأنى ما زالت خادمة .. بعد كل ما صار بينى وبين أبيه ..

ونهض عبد الحميد أفندى قائلاً فى انفعال :

- أنا رايح أشوفه .. ازاى يدخل كده من غير ما يسلم على ..

وخرج من حجرة الطعام ، ورأيته يلتفت إلى ناحية الباب الخارجى ويسرع إليه ، ثم سمعت صوتاً عالياً يسأل فى قلق :

- إيه .. فيه حاجة .. عايز مين ؟

وأجابه صوت أجش :

- أنا جاى مع الأفندى ..

سمعت الصوت فى دهشة ، وقمت على صياح عبد الحميد أفندى :

- ليه .. هو عمل إيه ؟

وأجاب الصوت :

- حضرة المأمور باعتنى معاه ..

ووصلت إلى الباب ، لأرى شرطياً يقف خارجه ، وعبد الحميد أفندى يسأل :

- عايزه ليه ؟

فأجاب الشرطى :

- والله ما أعرفش ..

صحت فى ذعر :

- إيه اللى حصل ؟

ولكن عبد الحميد أفندى لم يسمعنى ، ودفعنى بيده ، وأسرع إلى حجرة يوسف .. فتبعته ..

كان يوسف يقلب أوراقه وكتبه ، وقد بعثرها على السرير .. فسأله عبد الحميد أفندى فى خوف :

- إيه يا ابنى اللى حصل ؟
- ولا حاجة يابابا .. عايزين بطاقة الجامعة ..

فهتف :

- انت عملت إيه ؟

فصاح يوسف فى عصبية :

- بأقول لك ما عملتش حاجة .. المأمور عايز يشوف البطاقة وخلاص ..

فصاح عبد الحميد أفندى :

- وعايز يشوفها ليه ؟
- مزاجهم كده ..

قال عبد الحميد أفندى فى غضب :

- انت مخبى حاجة .. أنا جاى معاك ..

وأسرع إلى حجرته .. فتبعته .. وساعدته على ارتداء ملابسه ، وهو يتمتم فى ذهول :

- مصيبة .. مصيبة يا مبروكة ..

وخرج الاثنان مع الشرطى ، وتركانى وحدى أفكر فى هذه المصيبة المفاجئة ..

توقعت انهم سيلقون بيوسف فى السجن ، وحاولت أن أجد سبباً للقبض عليه .. فاحترت .. هل سرق ، هل قتل .. مستحيل أن يفعل يوسف هذا .. إذن لماذا قبضوا عليه ؟

ورفعت صوتى فى البيت الخالى :

- ربنا ينجيه .. ربنا ينصره على من يعاديه ..

وسألت نفسى فجأة : هل كنت أشى بيوسف وأتهمه ظلماً أو اعترض على زواجى من أبيه ، هل كنت ألفق له تهمة لتقبض عليه الشرطة ، ويلقوا به فى السجن .. فأتخلص منه ؟

وضايقنى أن هذا السؤال طاف بخاطرى ..

قلت : مستحيل .. هذا حرام .. لا يمكن أن أظلم أحداً .. لا يمكننى أن أظلم يوسف ..

وهمس فى داخلى صوت خبيث : أنت فرحة يا مبروكة لأنهم قبضوا عليه ، لأنهم خلصوك منه .. الآن سيخلو لك الجو ، ستنفردين بعبد الحميد أفندى ، ولن تكون هناك عقبة تعترض زواجك به .. ستأخذين مكان يوسف ، ستصبحين زوجته وابنته وكل شيء فى حياته ..

ودخلت حجرة يوسف ، وجلست على سريره ، أنظر إلى الأوراق والكتب المبعثرة عليه .. وقلت لنفسى : سأنام على هذا السرير ، وستكون هذه الحجرة لى .. وفكرت كم من الوقت يجب أن أنتظر حتى أستطيع أن أجمع ملابس يوسف وكتبه ، وأعد الحجرة لى ، دون أن أثير غضب عبد الحميد أفندى وأحزانه ..

كنت افكر كما لو كان يوسف قد مات ، وبدأت اعد نفسي لاستقبال عبد الحميد افندى عند عودته ، واختار الكلمات التى ساقولها لأواسيه ، وكنت اشعر بثقة كبيرة فى قدرتى على تخليصه من احزانه ، وألا اتركه يندفع وراءها ويستسلم لها .. كنت لن أسمح لأحزانه بأن تفسد مشاريعى فى الزواج ، أو تؤجلها .

وفتح الباب ..

وإذا بعبد الحميد افندى يدخل ووراءه يوسف .. نظرت إليه وكأنه شبح ، ولكنى فرحت .. فرحت من قلبى لعودته ، وفرحت لأن أفكارى الخبيثة لم تمنعنى من الفرح عند رؤيته ..

وجريت نحو يوسف ، وكدت أعانقه وأقبله ، وشعرت نحوه بحنين جارف وكأنه أخى ، أو ابنى ، وقلت له وأنا ارسل له القبلات من عينى :

- حمد الله على سلامتك .. والله انا اتخضيت .. وكنت قاعدة موش على بعضى ..

قال لى فى ارتباك :

- ما أنا قلت مافيش حاجة .. كانوا عايزين يشوفوا البطاقة .. وأهم شافوها وخلاص ..

وكان عبد الحميد افندى محتقن الوجه ، يكتم ثورة تحتدم فى صدره ..

نظر عبد الحميد افندى ناحية حجرة يوسف ، ثم تقدم إليها مندفعاً كأنه يهاجمها ، وتبعته انا ويوسف .. وامسك عبد الحميد افندى بالأوراق والكتب التى فى الحجرة ، وجعل يقرأ فيها .. ثم صاح صيحة مدوية ، جعلت قلبى يقفز فيرتطم بضلوعى :

- إيه اللى كاتبه ده ..

نظرت إلى الأوراق التى فى يد عبد الحميد افندى فى خوف كأنه يمسك بثعبان سام ، ظهر فجأة من مخبئه .. لم اكن اتوقع ان اجد جريمة بين هذه الأوراق ، التى كنت أجلس إلى جوارها منذ لحظات ..

واقترب يوسف من ابيه ، ونظر إلى الورق ، ثم همس :

- دى قصة ..

وقرأ عبد الحميد افندى :

- الحب الأول ..

والتفت إلى يوسف ، ويده ترتعش ، وشفتاه ترتعشان ، وجسمه ينتفض .. وصرخ :

- حضرتك بتكتب قصص حب .. يعنى ما ذاكرتش .. يعنى كنت بتلعب طول السنة ..

ولم اتابع كلامه .. تذكرت سعاد ويوسف يقف معها فى السطوح .. تذكرت ساعة المغرب وهو يقبلها فى خجل ، ثم يفرقان فى صمت طويل .. تذكرت يوم جاء فى الصباح بعد أن خطبها الدكتور ، كان يومها يريد ان يقول شيئاً .. كان يريد ان يقول لها تزوجينى انا .. انتظرينى حتى أحصل على الشهادة ، ولكنه سكت ولم يقل شيئاً ..

ايقنت أنه ما زال يحب سعاد ، واشفقت عليه .. قلت لنفسى : إنه عبيط .. وتمنيت لو قرأ عبد الحميد افندى ما كتبه يوسف بصوت عال ، حتى أعرف ماذا يقول عن سعاد ، وكيف يفكر فيها ..

ولكنه القى بالأوراق على الأرض .. واستمر يفحص الأوراق الأخرى ، وهو يصيح بين لحظة وأخرى :

- أدى قصة كمان .. والله عال ..

واشتد هياج عبد الحميد افندى .. فوقف وسط الحجرة ، وقد أصبح وجهه فى لون الدم ، وعيناه جاحظتان .. ورفع صوته قائلاً وهو يدق بقدمه على الأرض :

- والله العظيم ثلاثة .. لو سقطت فى الامتحان ، لأنا طاردك من البيت ! لا انت ابنى .. ولا انا أعرفك ..

وذهب إلى حجرته .. فساعدته على خلع ملابسه .. ورقد على السرير وهو ينتفض ، وأنا احاول ان أسرى عنه .. وقد شعرت بأن من واجبى أن أعطيه حنانى ساعة تعاسته ..

منذ تلك الليلة ، لزم يوسف البيت ، وحبس نفسه داخل حجرته .. وكان إذا غادرها ، يراني مع أبيه ، أجلس إلى جانبه وأضحك معه ، وأتصرف كأني زوجته .. ولابد أنه فهم كل شيء ، إذا لم يكن قد فهم من قبل ..

ونجح يوسف في الامتحان ، فكنت أشدهم فرحاً .. أما يوسف فلم يبد عليه أي اهتمام بالشهادة التي حصل عليها .. وكذلك عبد الحميد أفندي ، كان يتنهد في أسى ويقول لي شارحاً :

- نجح مقبول .. يعني موش ح يتوظف في النيابة ..

قلت له :

- وليه ما يوظفوهش .. هم عايزين إيه أكتر من الشهادة ..

فقال في ضيق :

- لازم يكون ممتاز .. موش ينجح على الحركرك .. ده نجاح زي قلته ..

قلت له في غير فهم :

- أنت ح تعقدها ليه .. أهو نجح وخلاص .. ممتاز إيه ونيلة إيه ..

وجاء يوسف يطلب من أبيه جنيهاً ، فرفض أن يعطيه مليماً واحداً .. وقال له غاضباً :

- أنا عملت اللي عليّ .. لازم تشوف لك إية شغلة .. أنا ما اقدرش اصرف عليك .. عايز تقعد معايا تاكل وتشرب وتنام .. أهلاً وسهلاً ، إنما اديلك فلوس تتفسح بيها .. ما عنديش ..

ولكن عبد الحميد أفندي كان يحاول جاهداً أن يبحث عن وظيفة ليوسف ، فكان يخرج كل صباح ويذهب إلى راتب بك في بيته ، ليحدثه عن مستقبل ابنه ويطلب منه وساطته ..

وانتهزت فرصة خروج عبد الحميد افندي ، وذهبت إلى يوسف في حجرته وأعطيته الجنيه الذي كان يطلبه ..

فنظر إليّ في دهشة ، ورفض أن يأخذ الجنيه ..

فقلت له :

- إيه .. مكسوف .. دي فلوس أبوك ..

ووضعت الجنيه على المنضدة .. ثم ضحكت وقلت له :

- والنبي تقرا لي الحكاية اللي كتبتها .

فاضطرب ، وتلعثم ، وهو يقول :

- عايزاني اقراها ليه ..

قلت له :

أصل اسمها عاجبني .. الحب الأول ..

فقال في خجل :

- دي كلام فارغ ..

ورغم إلحاحي الشديد ، لم أستطع أن أقنعه بقراءة القصة .. فتركته وأنا أتحسر على جهلي بالقراءة والكتابة .

كنا في الصيف .. والدنيا حر .. فأحسست بالخمول يسري في جسدي .. لم أعد نشيطة كما كنت ، أنظف نصف البيت وأكسل عن تنظيف الباقي .. ولا أجد رغبة في دخول المطبخ ، أو عمل أي شيء .. فكنت أجلس على مقعد وأغفو ، ثم أفيق وأنشط قليلاً .. فيصيبني وخم مفاجيء ، وأضطر إلى دخول الحجرة والنوم على السرير ..

وظننت أن سبب ضعفي وكسلي هو الجوع ، فأكثرت من الأكل .. وكنت بين ساعة وأخرى ، أدخل المطبخ وألتهم أي شيء ، قطعة جبن أو حلاوة طحينية وزيتون ، وأتوقع أن أصحو وأنشط ، ولكن الوخم يعاودني .

واستيقظت صباح يوم ، فإذا بغثيان شديد يدهمني .. فذهبت إلى الحمام وأفرغت ما في جوفي ، وعدت إلى السرير ونمت .. وطوال اليوم والغثيان يعاودني ، وأنا لا أدري ماذا حل بي .. وعرض عليّ عبد الحميد أن يصحبني إلى طبيب ليكشف عليّ ، ولكني رفضت وقلت له :

- شوية برد .. بكره حيروحوا ..

ولكن المرض لازمني .. وفكرت أن أذهب إلى الطبيب .. لولا خاطر خفي كان يدور في رأسي ويفزعني ..

قررت أن أنتظر حتى نهاية الشهر ، لأتأكد أن ما خطر لي غير صحيح ..

ومرت الأيام وأنا أنتظر وأنتظر ..ثم أيقنت أن ما توهمته كان صحيحاً وأن فزعي حقيقي .. فأنا لست مريضة .. أنا حامل ..

لزمت الفراش ..وأنا أتمنى لو أموت عليه ،حتى أتخلص من فضيحتي .. كنت خائفة من نفسي .. خائفة من أمي .. خائفة من عبد الحميد افندى .. خائفة من هذا الذى في بطني ، حكم عليّ الزمن بأن أحمل في الحرام ..

وكان خوفي الأكبر من الله .. أنه ينظر إليّ ، أينما تلفت لا أرى سوى رهبته وغضبه .. فأنكمش في فراشي وأغمض عيني ، وأتمنى لو أغمضتهما إلى الأبد ، وأنسى كل شيء ..

وانتظرت حتى جاء الليل ،ورقد عبد الحميد افندى إلى جانبي ،وقد أطفأ النور ، ومد يده يريدني .. فهمست :

— أنا عايزة أقول لك حاجة ..

قال وهو يطوقني :

— إيه .. ياروحي ..

— أنا باين على حامل يا عبد الحميد ..

فسحب يده كأني شككتها بدبوس ..

— إيه .. إزاي ..

وظل يستجوبني ، ويتشكك فيما أقوله .. ثم نهض من على السرير ، وأضاء نور الغرفة .. ووقف محملقاً والغباء يطل من عينيه ..

وبكيت ..

وانهمرت الدموع من عيني ،تغسل وجهي ،وأنا أستدر منها المزيد علها تغسل فضيحتي .. وحاول أن يهدئني :

ما تخافيش يا مبروكة .. أنا ح أشوف بكره دكتور يخلصك منه ..

— أعمل معروف .. أستر فضيحتي .. إن شاالله أموت .. بس بلاش أنفضح ..

وفي الصباح خرج ،فتوقعت أنه سيعود ليأخذني إلى الطبيب ، ودهمتني الأفكار السوداء ،وفكرت أن أذهب إلى يوسف وأخبره ..كنت أشعر أنه أعقل

من أبيه ،وأنه قد يساعدني في مصيبتي ...ولكني ترددت ،وخشيت أن أبوح له بسري ..

وعاد عبد الحميد افندى ساعة الظهر ، وقال لي وهو يخلع ملابسه :

— هيه .. عملتي إيه ؟

قلت له :

— أنت اللي عملت إيه ؟

فسكت برهة ، ثم قال في حيرة :

— ماعملتش حاجة .. رحت القهوة .. فيه هناك الدكتور بييجي بعض ساعات ..

وسكت ..

— وكلمته ؟

— لا ...ماجاش النهاردة ..

وكدت أقول له :

— بلاش تكلمه .. تتجوز أحسن ..

كنت في موقف يسمح لي بأن أطلب منه الزواج ،ولكني خفت أن يرفض .. ولم أكن أستطيع أن أتحمل الرفض .. ومنذ تلك اللحظة غيرت أفكاري ..

لم أعد أريد التخلص من حملي ..كنت أول الأمر أنظر إليه كشيء حرام ، فاندفعت وراء فكرة الخلاص منه ... أما الآن ، فأنا أريد أن أعرف كيف سيتصرف عبد الحميد افندى ..أريد أن أعرف لماذا لم يعرض عليّ الزواج ..

ومرت الأيام ،وعبد الحميد يذهب إلى المقهى ،ويعود إليّ ليقول إنه لم يجد الطبيب الذي يعرفه ..وكنت أستريح لكلامه ،وأطمئن لأنه لم يفكر في الذهاب إلى طبيب آخر .. إنه متردد ، لابد أنه يفكر في الزواج ..

وزاد اطمئناني عندما عاد من المقهى وقال لي :

— يا مبروكة .. الدكتور جه النهارده ، وكنت عايز أكلمه .. ولكن ما قدرتش ..

قلت له وأنا أكتم فرحي :

- ماقدرتش ليه ؟

فزفر الهواء من رئتيه وقال :

- ح أقول له إيه .. فكرت أقول له إن الحكاية دى بتاعة واحد صاحبى ، لكنى برضه ما قدرتش .. انكسفت ..

فسألته فى لهفة :

- يعنى ح أعمل إيه .. ح تسيبنى كده ..

فأطرق فى وجوم ..

وكانت فرصتى التى أنتظرها :

- أحسن حاجة .. تتجوزنى ..

ظل مطرقاً برأسه .. فصحت فيه :

- إيه .. موش عايز تتجوزنى ؟

فرفع رأسه ، فرأيت حيرته ..

وانطلقت أقول فى حدة :

- أنا موش رايحه لدكتور .. ماسيبوش يموتنى .. اللى فى بطنى منك .. ولازم تشوف خلاصك فيه ..

ورفعت صوتى :

- والله إن ما اتجوزتنيش ، لانا رايحه لراتب بك وقايلاله .. ح افضحك فى العالم ده كله .. أنا مايهمنيش ويحصل اللى يحصل ..

قال وكأنه يحدث نفسه :

- يا مبروكة .. اعملى معروف .. كفايه اللى احنا فيه ..

أحسست أنه يراوغنى .. ويتظاهر بأنه مهموم ، حتى أكف عنه ..

فزعقت :

- ح تتجوزنى واللا لا ..

قال فى استسلام اليائس :

- طيب .. طيب .. بس ادينى فرصة ..

قلت فى غل :

- وفرصة دى تبقى إيه .. ياسى عبد الحميد ..

كنت أشعر بقوة هائلة ، تجعلنى قادرة على افتراسه ، على أكله بأسنانى ، على مضغ لحمه العجوز ..

أنذرته بأنى سأخرج من البيت فى الحال ، لأفضحه فى هذه الساعة ، سأذهب إلى قسم الشرطة وأحكى لهم ما فعله فى ، إذا لم يرض بالزواج منى فوراً .

وهممت ناحية الباب ، فجرى خلفى ، ولون وجهه أزرق كزهرة الغسيل ، وقال لى فى ارتياع :

- خلاص .. ح اتجوزك .. أنا ماقلتش حاجة ..

قلت فى لهجة آمرة :

- روح هات المأذون ..

فقال فى وجل :

- حاضر .. حاضر .. بس روقى شويه ..

وفى هذه اللحظة ، دار مفتاح الباب ، ودخل يوسف .. وقف برهة ينظر إلينا بعينين متسائلتين ، أحس أن هناك شيئاً ما ، فقد قابلناه فى وجوم ، وقد ران علينا صمت مريب ..

وذهب يوسف إلى حجرته ، تتبعه نظرات عبد الحميد أفندى ثم نظر إلىّ مستنجداً :

- إيه .. خايف من إيه ..

قال متوسلاً بصوت خفيض :

- يا مبروكة .. بلاش الكلام ده دلوقت .. ما خلاص ..

قاطعته :

- إن كنت خايف منه ..

قال هامساً :

- بس روقى .. ربنا يهديكى ..

ثم قال فى صوت يكاد لا يسمع :

- موش لازم أكلمه ..؟
- ما تكلمه ..
- فجعل يهز رأسه في حركة عصبية ، ويكرر كالمذهول :
- حاضر .. حاضر .. حاضر ..

ومشى مترنحاً إلى مقعد وجلس عليه وقد شحب وجهه وقال وهو يلهث :

- انا ح اموت ..

ورفع إلى عينين فيهما استعطاف .. وقال :

- سيبيني استريح .. أنا موش قادر أخد نفسي ..

وانزعجت عليه ، شعرت أنه صادق في استعطافه .. وانتابني حنان مفاجيء وخوف على حياته ..

- أجيب لك كباية ميه ..

فقال وهو يلهث :

- لأ .. انا عايز استريح ..

ثم نهض واتجه مترنحاً نحو غرفته ، فامسكت به خشية أن يقع حتى أرقدته على السرير ..

وبقيت إلى جواره بقية النهار ، أحنو عليه ، حتى هدأ واستراح . ولما جاء الليل جلست إلى جواره في السرير ، فضحك وثرثر دون أن نطرق موضوع الزواج ..

وفي الصباح قلت له :

- يوسف بيلبس وخارج .. موش ح تقوله ..

فسكت برهة ثم قال في بطء :

- طيب .. اندهي له ..

وذهبت إلى الباب فاستوقفني قائلاً :

- اسمعي .. معاكي خمسة جنيه ؟
- عايزها ليه ..

قال وهو شارد :

- اديها له ..

قلت مرحبة :

- من عيني ..

وأعطيته النقود ، فوضعها إلى جانبه تحت الوسادة .. ودخلت مع يوسف على أبيه ، وأنا متحفزة للهجوم على الأب لو تراجع .. وعلى الابن لو اعترض .. ولكن عبد الحميد افندي فاجأني قائلاً :

- سيبينا لوحدنا يا مبروكة ..

فنظرت إليه نظرة طويلة ، فهمها .. قلت له بعيني إني لن اسكت لو تخاذل ..

ووقفت خارج الباب ، فإذا بيوسف يغلقه .. ومضت دقائق طويلة وأنا لا أسمع شيئاً .. ثم ارتفع صوت يوسف ثائراً .. وطرقت اذني كلمات هادرة .. مستحيل يابابا ، انت بتخرف .. أنا اموتها .. وتروح في ستين داهية ..

وأوشكت أن اقتحم الغرفة ، لأكيل له الشتائم .. وقبل أن تمتد يدي إلى الباب .. انفتح ، ورأيت يوسف يندفع منه يكاد يرتطم بي ..

صحت فيه بأعلى صوتي :

- بتقول إيه ياسي يوسف .. عايز تموتني .. أنا اللي ح أوديك انت وأبوك في ستين داهية ..

ولطمت على وجهي ، ومزقت شعري بيدي ، وأنا أصرخ بأعلى صوتي في جنون ..

- يا دهوتي .. يا مصيبتي .. تعالوا شوفوا اللي جرالي ..

وقف يوسف متسمراً ينظر إليّ في فزع ، ثم جرى إلى باب الشقة وخرج منه ، بعد أن صفقه وراءه صفقة مدوية .



الفصـــل الســـادس

خرج يوسف غاضباً فى الصباح وجاء المأذون فى العصر ليعقد الزواج جلسنا إلى مائـدة الطعام ، وقـد وضـع المـأذون دفتره أمـامه ، وجلس عبد الحميد أفندى عن يمينه ، وأنا عن شماله ، ووقف إلى جانبنا إبراهيم البواب ، وقريب له ، ناداهما عبد الحميد أفندى ليكونا شاهدى العقد .

كان الجو كئيباً ، يختلف تماما عن جو الفرح يوم زواج سعاد بنت راتب بك ، لا مدعوين ، ولا أكوب شربات ولا ضجة ، ولا فرحة ، وإنما وجوم وتوتر ، وإبراهيم البواب وقريبه ينظران إلينا فى جمود يعلم الله وحده ماذا يخفيان وراءه ، وماذا يقولان عنى أو ماذا يقولان عن عبد الحميد أفندى .

وكان المأذون رجلاً عجوزاً ضعيف السمع ، يسأل فى فظاظة وإلحاح عن كل شىء ، كانت أسئلته تقتحمنا فى غير رحمة فيجيبه عبد الحميد أفندى بهمس مرتبكا ، كأنه يهمس إلى نفسه محاولا ألا يسمعه أحد ، ولكن المأذون كان يلح عليه ، ويكرر السؤال ، ويطلب منه أن يرفع صوته ، ويتشكك فى الإجابة ، ثم يزعق بصوت يخرق آذاننا مردداً ما كان عبد الحميد أفندى يتمنى ألا يسمعه أحد .

زعق المأذون معلنا أن عمر عبد الحميد واحد وستون عاما ، وأنه أرمل وأنه على المعاش ، وكان عبد الحميد ينتفض لسماع هذه الحقائق ، وتضطرب

نظراته ، وترتعش شفتاه ، كأنه يتلقى صفعات قاسية لا يستطيع ان يتفاداها .

وسألني المأذون عدة أسئلة جعلت قلبي يدق ورأسي يدور ، كانت أسئلته كالاتهام ، كالسباب ، كالاهانة .

وأجبته وأنا أكذب إني مازلت بكراً ثم نظرت إلى إبراهيم البواب وإلى قريبه ، فصدمتني عيونهما الجامدة كالحائط السميك ، وصاح المأذون فى غلظة يسألني عن عمري .. فتلعثمت وعجزت عن الكلام ، فقال له عبد الحميد إن عمري تسعة عشر عاما .. فنظر إلى المأذون فى شك ، وتفرس ، بعيون وقحة فى صدري وجسدي ليتأكد اني بلغت سن الزواج .

كانت لحظات قاسية مرت بي كالكابوس ، فلما تم كل شيء وانصرف الجميع . شعرت بإرهاق شديد ، ولم أشعر برغبة فى الكلام ، أو حتى فى رؤية عبد الحميد . وكان هو الآخر بعيدا عني ، شارداً صامتا ، كنا وكأننا ارتكبنا ذنبا لا يغتفر ، وكأننا نخشى أن يكون المأذون مازال مختبئا فى البيت يتجسس علينا . وينتظر منا كلمة نقولها ، ليعلنها مدوية .. ويسجلها فى دفتره .

وقام عبد الحميد وذهب متثاقلا إلى حجرته ، وتركني وحدي ، حاولت أن أنهض وألحق به ، ولكني شعرت بخجل مفاجيء نحوه ، تحول إلى رجل غريب عني ، تحول إلى إنسان آخر لا أعرفه وأحسست أني قد تحولت أيضاً وأصبحت غريبة عن نفسي ، لم أعد مبروكة ، ولم يعد هو عبد الحميد .

مبروكة التي كنت أعرفها . كان فى صدرها ، صوت يتحدث ويهمس بلا انقطاع ، وكان هذا الصوت يحركني ويدفعني إلى ما أريد ، كان ينصحني ويشجعني ، وهو الذي ساعدني على أن أصل إلى ما وصلت إليه بالزواج من عبد الحميد أفندي .

والآن .. انفقد هذا الصوت ، إنه لا يحدثني بشيء ، تخلى عني ، ليس فى صدري سوى صمت وفراغ وكآبة . ليس فى صدري سر ، ليس فى صدري رغبة ما ، أنا الآن فى موقف جديد لا أدري عنه شيئا ، أنا الآن بلا ماض ذهبت مبروكة الخادمة ، اختفت . بأمانيها وأحلامها وطموحها ، لم يبق سوى هذا

الجسد المرهق ، الحائر الذي لا يعرف كيف يواجه اللحظات القادمة ..

وعبد الحميد .. أليس هو الآخر فى موقف جديد ؟ لقد فقد هو الآخر ذلك الحديث الخفي بينه وبين نفسه ، عندما كان يظن أن علاقته بي هي عودة شبابه وحيويته ، هي عودة مغامراته أيام كان له شارب مفتول يقف عليه الصقر ، أيام كان يستولى على المرأة برجولته ويفوز بها بلا وثيقة أو وعد .. لاشك ان هذا الحديث الذي كان يتعلق به نفسه قد اختفى الآن ووجد أنه فى موقف جديد لا يدري عنه شيئا .

أولعله عاد بذاكرته إلى زواجه الأول من أم يوسف ، ولكنه يعلم جيداً أني لست مثلها ، وأنه لا يتوقع أن أموت وأتركه مثلما فعلت هي ، بل لعله يفكر فى أنه هو الذي سيموت ويتركني أنا .. مسكين .. لقد كان هذا الزواج هو خاتمة مغامراته ، هو نهاية أوهامه عن عودة الشباب .

فكرت أن أذهب إليه وأسأله إذا كان يريد شيئا ، قدح ينسون أو قهوة ولكني احترت ، حتى هذا السؤال البسيط يربكني فى موقفي الجديد .. كنت أسأله من قبل كخادمة ، فكيف أسأله الآن كزوجة .

قلت لنفسي إني لم أعامله كخادمة أبداً .. ومع ذلك لم اقتنع بهذا الكلام .. نعم كنت أعامله بكل حريتي ، أصرخ فيه ، وأضحك معه ، وأسخر منه ، وأتحداه وأعانده ، وأنام فى سريره ، إلا أني أشعر الآن بعد أن عقد المأذون زواجنا ، إن ما فات غير ما أنا فيه الآن ، كنت خادمة ثائرة حتى لحظات قليلة . ثم أصبحت زوجة .. وأنا لا أعرف كيف تتكلم الزوجة كيف تضحك معه . وكيف تثور عليه وكيف تسأله ، إذا كان يريد فنجان قهوة .. لا أعرف .. لا أعرف .

وعدلت عن الذهاب إلى عبد الحميد وانتظرت حتى يبدأني هو الكلام ، فأعرف منه كيف يتحدث الزوج إلى زوجته ، وكيف تتحدث الزوجة إلى زوجها . وأردت أن أتحرك فى البيت . وحتى هذا عجزت عنه ، لو ذهبت إلى المطبخ فأنا خادمة . ولو ذهبت إلى حجرته فكأني أدعوه إلى ما لا أشعر به ، وحجرة

يوسف مغلقة أخشى الاقتراب منها ، وحجرة الطعام مليئة بأشباح المأذون وإبراهيم البواب وقريبه ..

وجلست فى الصالة أصارع هذا الخليط المتضارب من المشاعر والأفكار التى تدور فى رأسى ..حتى سمعت صوت عبد الحميد ينادينى ،فذهبت إليه .

كان واقفا وسط الحجرة ، وقد خلع الجاكتة ومازال يرتدى القميص والبنطلون .

وسألنى :

— انتِ فين ؟

قلت له وأنا اتنهد :

— قاعدة فى الصالة .

قال فى غير لهفة وكأنه لا يعنيه ما أقول :

— قاعدة لوحدك .. ما تجيش تقعدى معايا ليه ؟

سكت ، إذ بحثت عن شىء أقوله فلم أجد .. وقال وكأنه يحدث نفسه .

— عايزة تخرجى .. نتفسح ؟

فلم أقل شيئا ،كان كلامه بلا معنى ولا طعم ولا حماس ،ولم أكن أرغب فى شىء ، كنت متعبة ، أريد أن استريح واهدأ ،لعلى أفيق من الدوامة التى أنا فيها ، لعلى أجد صوتا فى داخلى يحدثنى ويحركنى وينصحنى بما أقول أو أفعل .. كنت أريد أن أجد عقلى . أريد أن أعثر على عقل جديد .. غير عقل مبروكة الخادمة الذى هجرنى منذ تم الزواج .. وقلت له :

— أنا تعبانة .

فقال بسرعة :

— وأنا كمان ..

ثم عاد يقول ببطء :

— يوسف لسه مرجعش ؟

فلزمت الصمت ، كان سؤاله أصعب من أن أجيب عليه .. وسكت هو الآخر وكف عن السؤال .

فى تلك الليلة . ليلة فرحى ، تعشينا جبنا أبيض ، ونمنا كأننا مريضان ضمهما سرير واحد .

وفى الصباح وجدنا غرفة يوسف كما هى ،فعلمنا أنه بات ليلته فى الخارج ، فدب القلق فى نفس عبد الحميد ، وبعد ساعة كان قد ارتدى ملابسه وخرج يبحث عنه .

وعاد ليقول لى إنه وجده ، فسألته لماذا لم يأت معه ، فقال فى حزن .

— عايز يعيش لوحده .

لو كنت سمعت إجابته هذه قبل الزواج ،كنت ثرت وشتمت ، أو على الأقل كنت كتمت غضبى ،ولكنى استمعت إليه فى حزن وقلت له والندم يفترسنى :

— يعنى موش عايزنى ؟..

فلوح بيده وقال :

— بكرة يعقل ..

فسألته فى قلق ..

— لكن ح يعيش إزاى لوحده ؟.

قال :

بيبات عند واحد صاحبه .

ثم قال بصوت يفضح ألمه :

— النهاردة جالى القهوة ..قلبى كان حاسس أنه ح يفوت علىّ هناك وصمت قليلا محاولا أن يستجمع قواه ثم قال وهو يلهث :

— قعد معايا .. وعرف إن إحنا اتجوزنا خلاص .. كان هادى .. ماقلش حاجة ..

ثم سكت ، وأصابه شرود

فسألته :

وبعدين ؟!

فقال بصعوبة :

— قبل ما يقوم . قال لى وهو متأذى .. الخمسة جنيه لسه معاك يابابا ..

قلت له ايوه يا ابني .. واديتهاله .. خدها ومشى ..
ثم عاد يقول وقد رفع صوته بحرقة :
— سألته .. أشوفك إزاى يا ابني ؟ قال لى .. ابقي اجيلك القهوة .

كانت كلماته تحز في كسكين حاد ينغرس في لحمي ، لم اتوقع أن يكون هذا إحساسي بعد انتصاري على يوسف إني أشعر وكأني مهزومة مثله .. وحاولت أن اقنع نفسي بأن ما حدث ليس لى يد فيه ، وأن شيئا أكبر مني ومنه ، هو الذي دفعني إلى الزواج من أبيه . وهو الذي طرده من بيته ..

وراودتني رغبة غامضة في ان أسعى إلى مقابلة يوسف ، أخرج من البيت وافتش عنه في كل مكان حتى اعثر عليه ، وعندما اجده أبكي أمامه ، واقول له أني لم أتعمد الإساءة إليه ، وإني اريد أن أعيش معه ، وكل ما فعلته كان من أجل أن اتقرب منه ، وأن احطم هذا الحاجز الذي كان بيننا ، حاجز الخادم والسيد ، اريد أن يعرف أن كل ما أتمناه هو أن أتحدث معه ، وأبادله افكاري وعواطفي ، واستمع إليه ، واقول له ، ونضحك معا ، ونخرج معا ..

تخيلته وهو يستمع إليَّ ، وأنا أتكلم وأتكلم ، أقول أشياء كثيرة لا أعرفها بوضوح ، وأنطق بكلمات لا أستطيع تحديدها ، فهي غامضة في نفسي ، الشيء الواضح الوحيد ، هو أني أجلس معه وأتكلم ، وهو يستمع ثم يفهم ما أقوله ويغفر لى ، ويضحك ولو في خجل . ثم يعود معي إلى البيت ، ونعيش معا .

وظلت هذه الرغبة في لقاء يوسف تراودني ، والحديث بيني وبينه يشغل خيالى ، حتى مرت الأيام ، فنسيت كل شيء ، وانصرفت عن التفكير في يوسف ، إذ زاد اهتمامي بهذا الشيء الذي بدأ يتحرك في بطني .. أصبح هو الشيء الحقيقي الوحيد في حياتي الجديدة ، شيء لا أتخيله ، وإنما أشعر برفساته في أعماقي ، فأنتظر في شوق لحظة خروجه إلى الدنيا لأراه بعيني ، وأسمع صراخه بأذني وأعيش معه وله ، فيربطني بالحياة ، ويخرجني من هذا الفتور الذي اعانيه في علاقتي مع عبد الحميد أفندي .

لم أعد أفكر في عبد الحميد أكثر مما أفكر في غسل وجهي كل صباح ..

اصبحت حياتنا معا بلا انفعال ، نتبادل كل يوم بضع كلمات لا معنى لها ، ثم يخرج هو إلى المقهى ، فلا يعنيني أنه خرج من البيت ، أو دخل ، مضت الأيام وليس في حياتي شيء مثير ، سوى هذه اللهفة التي انتظر بها ابني . حتى ارتكبت خطأ ندمت عليه .

فكرت في وحدتي . أني أريد أمي وكنت لم أرها منذ سنوات ، عندما زارتني في بيت راتب بك ، وأمضت معي النهار ، فتركتها أغلب الوقت جالسة القرفصاء بجوار عشة الدجاج .. وكلما طلبت مني أن أجلس معها لنتحدث ، تعمدت أن أبدو أمامها مشغولة وكأن حياة البيت ستتوقف لو تركت عملى لحظة واحدة ، كنت أجد حرجا في الجلوس معها ، ولا أريد أن يراني مدحت معها ، وكنت أجد لذة خفية في أن أعاملها وكأني واحدة من أهل البيت ، أقدم لها الطعام ، وأعطيها بعض النقود ، ثم أسأل نفسي ماذا تريد بعد كل هذا ، أليس الأفضل لها ولى أن تعود إلى قريتها وتتركني في حالى ..

ولكني الآن أشعر بوحشة شديدة إليها ، أريد أن أراها بعد أن أصبحت زوجة ، أريد أن أرى في عينيها الشيء العظيم الذي حققته . أريد أن أرى في وجهها الفرحة بهذا الزواج الفرحة التي افتقدها ، أريد أن أرى النظرة وأسمع الكلمة التي تؤكد لى أني قد ارتفعت وأصبحت سيدة .

وطلبت من عبد الحميد أفندي أن يكتب خطابا للبلد ، ولكني لم أصارحه بغرضي ، قلت له إني أريد خادمة تساعدني في عمل البيت . فنظر إلى بطني التي بدأت تتضخم ووافق في الحال .

وكتبت خطابا إلى الشيخ دسوقي أخبره فيها بزواجنا ، وبحاجتنا إلى خادمة ، وجعلت أتخيل وقع الخطاب على أمي ، وفرحتها الشديدة ، وشعورها بأهميتها بين أهل القرية وأيقنت أنها ستأتي إلى في الحال . فكنت أنظر إلى الباب ، أتخيلها تدخل منه ، وأنا أهجم عليها وأعانقها وأقبلها ، وأجلس عند قدميها ، أكفر عن ابتعادي عنها طوال السنوات الماضية ، وأقول لها إن كل ما فعلته يا أمي هو من أجلك وأني أريد رضاها عني ، وأطلب منها أن تترك البلد ، وتعيش معي هنا .

ولم يخب ظنى ، فبعد أيام سمعت ضجة عند الباب ، ولم أخطىء صوت الشيخ دسوقى ، فجريت وفتحت الباب ، فوجدت أمى واقفة وعلى رأسها قفة والشيخ دسوقى وفى يده صرة ، ومعهما بنت صغيرة قبيحة قذرة .. وكدت أتراجع أمام منظرهم ، لولا أنى انتظرت هذه اللحظة طويلا فمضيت فى تنفيذ ماكنت أتخيله .. وعانقت أمى وقبلتها ، وفوجئت بها تجلس على الأرض ، فصممت على أن تجلس على المقعد رغم احتجاجها ، وجلست إلى جوارها ، أعانقها وأقبلها من جديد ، وأتفرس فى وجهها الخشن الأسمر ، وعينيها الكليلتين ، وجسدها النحيل .

وابتسمت أمى ، ولمعت عيناها بومضة فرح ، ولكنها سرعان ما بدأت تبثنى همومها وأحزانها وارتفع صوت شكواها وقد انضم إليها الشيخ دسوقى الذى رأى فى زواجى من عبد الحميد أفندى فرصة لأن أعطى أمى نقوداً أكثر .

وبعد دقائق كانت الصور التى داعبت خيالى وأنا أنتظر أمى ، قد تبخرت ، ووجدتنى أواجه مخلوقة لا صلة لى بها ، حديثها يرهقنى .. لا أعرف كيف أجلس معها أو آكل معها ، وزادت متاعبى عندما جاء عبد الحميد أفندى فعاملها بنفور ، فغضبت منه ، وخجلت من أمى ، وندمت على أنها جاءت ، وتمنيت لو سافرت إلى قريتها فى نفس الليلة ..

ووجهت همى إلى نفيسة الخادمة ، أعلنت يأسى من قذارتها وقبحها وجهلها ، وقلت لأمى إنها لا تصلح لخدمتى ، فأظهرت دهشتها وقالت لى فى عجب :

— ما هو أنت كنت زيها يابنتى يوم ما جبتك مصر .

فصعقت ، وأنكرت ما تقول بينى وبين نفسى ، وقررت أن أرسل نفيسة معها إلى البلد وأطلب من عبد الحميد أن يأتى بخادمة أخرى من القاهرة .

كنت أدرك أنى قد فشلت فى إعادة أية صلة لى بأمى والقرية وأهلها ، إن مجرد مواجهتى لهم ، تثيرنى وتستفزنى ففضلت أن ابتعد عنهم ، واكتفى بذكراهم ، وحنينى إليهم فى الخيال ، وحبى لأمى كما أتصوره أنا ، لا كما

أواجهه وهى معى ، أراها وأسمعها وأشم رائحة الطين وروث البهائم والعرق فى ملابسها .

وسافرت أمى بعد أيام ، وقد أعطيتها ثلاثة جنيهات ، أخذتها وهى غير راضية ، كانت تريد المزيد من النقود ، وكأنها تظن أن زواجى من عبد الحميد قد فتح لى أبواب ليلة القدر ، وأن معى من كنوز الذهب مالا يحصى ولا يعد ، ولم تصدقنى عندما قلت لها إن هذه الجنيهات الثلاثة هى كل ما أستطيع أن أدفعه لها ، وأن عليها الا تتوقع منى نقوداً كثيرة فى الشهور المقبلة ، لأنى أنتظر ولادة ابنى ، وستحملنى نفقات كثيرة .. قالت لى وكأنها تلومنى على كذبى .

— البركة فى جوزك ... ما هو ربنا عاطيه ..

فسكت ، خجلت أن أقول لها إنه رجل فقير ، فهى لن تفهم ، ولن تصدق وستظل على ظنها فى أنى أكذب لأحرمها مما أعطانى الله .

وقال لى عبد الحميد أفندى ، إنه يريد بقاء نفيسة حتى يجد خادمة أخرى ، فوافقته على مضض ...

وهكذا سافرت أمى وبقيت نفيسة وكنت أحاول أن أنظفها وأعلمها ، ولكنى ظللت أنفر منها ، ولا أسمح لها بالجلوس أمامى ، وقد خشيت أن يؤثر شكلها القبيح فى خلقة ابنى .

وعندما اقترب موعد ولادتى ، عاملنى عبد الحميد أفندى بحنان مفاجىء ، فكان يخرج معى ساعة المغرب ، فنمشى حتى كوبرى قصر النيل ، وكان يحكى لى عن المقهى وتلاميذه الذين يتعلمون منه الشطرنج ، وأحيانا يقول لى إن يوسف قد مر عليه ثم يتمتم فى أسى :

— الولد تعبان أوى يامبروكة ..

فألومه قائلة :

— بقى موش عارف تخليه يهدى وييجى معانا ياعبد الحميد .

فيتنهد قائلاً :

— مافيش فايدة .. عملت المستحيل فأسأله :

— طيب ومالقيتش شغله يشتغل فيها .. ؟
وعندئذ ينفجر عبد الحميد صارخاً فى عصبية .
— أنا ما خلتش .. كلهم بيقولوا حاضر .. حاضر .. ولا فيش فايدة .
وأسأله :
— وراتب بك ما عملش حاجة ؟
فيصيح .
— ولا سأل فيه .

فيزداد خوفى على ابنى وانظر إلى المستقبل فى فزع . ثم أدعو الله بصوت مرتفع أن يفتح الأبواب أمام يوسف ، وألتفت إلى عبد الحميد قائلة :

— أنا بادعى له من قلبى .. علشان ربنا ما يورنيش ضيقه فى ابنى .. والله يوسف صعبان على .

وكان التفكير فى مستقبل يوسف يرهقنا ويزعجنا ، فنحاول أن ننساه بسرعة ، ونبحث عن شىء آخر نتحدث فيه ، ولم أبح لعبد الحميد افندى أبداً بالرغبة التى كانت تعاودنى ، فى أن أرى يوسف وأتحدث معه ، لعلى استطيع أنا أن اقنعه فيما فشل فيه أبوه .

وعدت إلى البيت ذات ليلة ، فشعرت بآلام المخاض ، وأسرع عبد الحميد أفندى يستدعى أم اسماعيل الداية . فجاءت وقضت معى الليل كله ، ومع شروق الشمس ، سمعت صراخ ابنى إبراهيم ..

كانت فرحتى لا توصف ، فرحة كالجنون ، لم تعد الدنيا تسعنى ، كنت أحس أنى أكبر من كل شىء ، وأقوى من كل شىء ، وتحولت غرفتى إلى قصر جميل ، أجمل من كل مارأته عينى ، أجمل من بيت راتب بك ، وكنت أنظر إلى عبد الحميد وهو فرحان فأسخر منه ، إنه لا يعرف كيف يفرح إنه لا يحس بما احس به أنا كنت أشعر أن فرحه من بقايا فرحى ، تعطفت به عليه ، كان كل الفرح الذى فى الدنيا من فضلى أنا ، ومن إغداقى أنا ..

وعرفت حبا كالهوس ، كنت أقضى الساعات ، الليل والنهار ، الأيام تلو الأيام ، وأنا أنظر إلى ابنى ، خادمة له طوع صرخة منه ، رهن حركة برجله أو

إشارة بيديه ، وكنت خائفة عليه أحميه بين ذراعى ، أو أرقد إلى جانبه لا أترك الغرفة ، وقد أغلقت نافذتها وأغلقت الباب ، أتحمل الحر الشديد خشية أن يصيبه برد .

ويذهب عبد الحميد افندى لينام فى حجرة يوسف ..
ودخل على مرة وقال لى والفرح يتألق فى وجهه :
— يوسف لقى شغلة .
قلت له وأنا أحتضن ابنى :
— شفت وش إبراهيم على أخوه الكبير .
قال وهو ينظر إليه فى حنان .
— أنا برضه بأقول كده .
وسألته :
— ح يدوله فلوس كثيرة ؟
فقال فى تردد :
— والله ما أنا عارف .. إنما هوه كان فرحان .. اشتغل فى جرنال الأيام .
قلت له :
— راتب بك كان بيقرا الجرنال ده .. أنا فاكرة اسمه .
فقال باسماً .
— اعملى حسابك بقى .. نشتريه كل يوم ..
فقلت له محتجة :
— وأدفع تلاتين قرش فى الشهر .
وليه يوسف مايبعتش لنا الجرنال مادام بيشتغل فيه ..
فضحك عبد الحميد وقال :

— حاضر ياستى .. حابقى أقول له ولكنه اشترى الأيام فى صبيحة اليوم التالى . وواظب على شرائها وتحملت مصروفا جديداً من أجل يوسف .. وكنت أسأل عبد الحميد .

— يوسف كاتب إيه فى الجرنال النهاردة ؟

فيقول لى فى اهتمام :

— أهو .. بيكتب الاخبار اللى فيه ثم ينصرف عنى إلى قراءة كل كلمة فى الجريدة .. وكأن صفحاتها رسائل شخصية يكتبها يوسف إليه .

وكنت أتمنى لو استطيع قراءة هذه الرسائل لأكون قريبة من يوسف .

فكنت أمسك بالجريدة أتصفحها وكأنى أقرأها . فأرى سطوراً سوداء .. كالطلاسم . أنظر إليها عاجزة . وأندب حظى لأنى لا أستطيع فك الخط ، ولا أجد غير الصور اتاملها فى اهتمام ، وأنا أحاول أن أحتفظ بالجريدة فى يدى أكبر وقت ممكن ، لأقنع نفسى بأن هناك صلة ما ، اية صلة ، بينى وبين صفحاتها .

وكنت أحتفظ بأعداد الجريدة . ولا أفرط فيها . وكأنها أوراق مقدسة ، واثور على عبد الحميد إذا خرج والجريدة معه فى الصباح ونسيها فى المقهى . أو إذا أمسك بها فى غير عناية ، أو إذا دخل بها الحمام وبللها ، أو مزق إحدى صفحاتها .

وكان يقول فى دهشة :

— و أنتِ مالك ومال الجرنال .. لا انتى بتقرى ولا بتكتبى .. موش آخرتها ح تمسحى بيه القزاز ..

فأقول محتجة :

— أبداً أنا أحوشهم لحد إبراهيم مايكبر ويقراهم .. واقول له شوف أخوك يوسف كان بيكتب إيه ..

فيضحك ساخراً وبمنتهى السذاجة ،ولكنه لبى رغبتى ، فعوَّد نفسه على قراءة الجرايد بعناية ، وامتنع عن أخذها معه خارج البيت .

وصاح عبد الحميد ذات مرة وهو يقرأ الجريدة .. وكانت فى صيحته رنة بهجة وانتصار :

— ابنى مكتوب اسمه فى الجرنال فتركت ما فى يدى ، وجريت إليـه .

واستمعت إلى صوته المتهدج بالفرح وهو يقـرأ اسـم يوسف .. يـوسف السويفى ..

ثم توقف لحظة عن القراءة وقال فى أسى مفاجىء :

— ليه موش كاتب اسم عبد الحميد فصحت فى دهشة :

— إزاى ما يكتبش اسم ابوه .. لازم تكلمه .

وايقنت أن يوسف قد تعمد إغفال اسم والده ، تعبيرا عن مقاطعته لنا وكدت أنبه عبد الحميد إلى هذا ، ولكنى ترددت ، وقلت لنفسى لابد أنه وصل إلى نفس استنتاجى ، فلا داعى إلى أن أذكره أنا به ، إذ كنت منذ هجرنا يوسف ، أحاول دائما أن أظهر لعبد الحميد ندمى ، ورغبتى فى عودته إلينا وكنت اتحاشى أن أثير ما يبعد بين الأب وابنه ، وكنت مخلصة فى ندمى .. مخلصة فى رغبتى فى عودته ، إذ كنت اشعر فى قرارة نفسى أنى سأظل خادمة فى عينى يوسف ، حتى يعود واسترد صوت عبد الحميد بهجته وحماسه ، وهو يقرأ ما كتبه يوسف عن رجل وجدوا جثته فى غرفة فى بولاق .. وكنت أستمع إليه وانا انظر إلى صورة الجثة ، وأحاولَ جاهدة أن أفعل المستحيل وأقرأ السطور السوداء .

ولما فرغ عبد الحميد من القراءة ، أخذت منه الجريدة ونظرت إلى الكلام فى إمعان ، ثم سألته :

— اسم يوسف فين ؟

فأشار إلى أحد السطور وقال .

— هنا ..

وقرأ من جديد .

— كتب مندوبنا الجنائى .. يوسف السويفى ..

فسألته :

— يعنى إيه مندوبنا الجنائى ؟

فشرح لى أنه مندوب الجريدة الذى يبحث عن الجرائم ويكتب عنها ، ويتصل بالشرطة والنيابة .

وعدت أتأمل الصورة والكلام . ثم قلت له فجأة :

— أنا عايزاك تعلمنى القرايه .. فقال لى وكأنه سمع شيئا مضحكا :

— حاضر يا ستى ..

وأخذ الجريدة معه ذلك الصباح وهو خارج إلى المقهى . ليطلع عليها أصحابه ..

كنت جادة فى طلبى من عبد الحميد أن يعلمنى القراءة ، وكنت أسرح بخيالى وأرى نفسى وأنا أقرأ الصحف ، وأفهم ما فيها من كلام ، فأحس بمتعة غريبة ، ولكن الأيام مرت وعبد الحميد غير مهتم بطلبى ، إلى أن حاصرته فى أحد الأيام ، فأحضر أوراقاً وقلماً وشرع يعلمنى كيف أكتب ألف .. باء . وعلمنى كيف أكتب اسمى ، ولقد فرحت يوم رأيت اسمى بخط يدى فكنت أصيح وأقفز كالطفلة الصغيرة وعاد لى يومها كثير من الحنان والحب لعبد الحميد ، بعد أن افتقدتهما منذ زواجى به ..

وكنت كلما تكاسلت عن مواصلة دروسى ، أنظر إلى ابنى إبراهيم وأقول إن البركة فيه ، فهو الذى سيذهب إلى المدرسة ، ويقرأ ويكتب وهو الذى سيعوضنى كل مافاتنى فسأمنحه كل ما أستطيع حتى يصبح رجلا له مركز محترم مثل راتب بك . ويتشرف به أمام الناس ، ويتشرف به شقيقه يوسف .

كان إبراهيم قد بدأ يحبو على يديه ورجليه ، وظهرت فى فمه ثلاث أسنان وعرف كيف يشير بيديه ويقول .. « ده .. ده » أو يقول بصعوبة « بابا » وكان عبد الحميد يتحول أمام ابنه إلى طفل مرح ، يتكلم معه بلغته ، ويلعب معه ، ويأتى أمامه بحركات مضحكة ، حتى يخيل إلىّ أنه فقد عقله .

وذات صباح خرج عبد الحميد ، وتركنى مع إبراهيم وهو يصرخ بلا انقطاع ، حتى كدت أجن ، وبعد ساعتين أو أكثر ، كنت واثقة أن إبراهيم مريض ، لأن صراخه كان غير عادى ، وقد فشلت جميع محاولاتى لإسكاته ، وانتظرت فى قلق عودة عبد الحميد ، لنذهب إلى الطبيب .. وسمعت طرقاً على الباب . طرقاً عنيفاً ، بصحبة صوت إبراهيم البواب يخاطب شخصا غريبا .. وفتحت الباب فإذا برجل قصير بدين يسألنى بصوت منفعل :

— حضرتك زوجة عبد الحميد أفندى قلت له وقلبى يخفق وصراخ إبراهيم يدوى فى أذنى :

— أيوه .. فيه إيه ..

قال الرجل بصوت فاجع .

— أنا متأسف يا هانم .. عبد الحميد بيه .. فى القهوة .

وبلع الرجل ريقه وقال وعيناه حائرتان :

— تعيشى أنت ..



الفصل السابع

مضت ايام ، وأيام قبل أن اعي تماماً ما حدث ، فمنذ جاءني ذلك الرجل البدين القصير بنبأ موت عبد الحميد افندى ، وأنا اعيش في دوامة .

عقلي في دوامة ..

وقلبي في دوامة ..

اختلط كل شيء في عيني ، اضطربت ...تاهت نفسي ، فلم أعد ادري مَنْ أنا ولا أدري أين أنا ، ولا ماذا اقول ، أو ماذا أفعل .

كل ما اذكره عن تلك الأيام صور متقطعة ممزقة تصحبها صرخات حادة كانت تندفع من صدرى .. وحزن حار كان يلهب جوفي ، ثم يندفع من فمي كالصهد ، وكأنني استنشق ناراً وأزفر ناراً .

وأذكر ابني إبراهيم .

لازمني طوال تلك الأيام ، وقد ضممته إلى صدرى ، ضممته إلى فزعى اينما ذهبت ، في الشارع ، وفي المقهى . وفي المقابر ، وحين أعود إلى البيت . اذكر الرجل البدين وهو يهرول ورائي في الشارع ، وأنا أجرى في جنون . وإبراهيم بين يدي ، والرجل يقول لي كلاماً لا اسمعه ، وأقول انا كلاماً لا أذكره . وقد اندفعت اقتحم السيارات والناس والترام ، وأنا لا اعرف أن ما امامي سيارات وناس وترام ..ثم تعثرت ووقعت على الأرض ، فجذبتني يد

الرجل ، وحاول أن ينتزع إبراهيم من بين يدى ، فظننت أنه يريد أن يخطفه . وتشبثت بابني . وواصلت الجرى .

وجذبتني يد الرجل مرة أخرى ، وأدخلني فى تاكسى ، مضى بنا إلى هناك إلى المقهى .

إنى أحاول الآن أن أذكر ما حدث فى المقهى ، فأذكر صوراً كأحلام كابوس .. أذكر صوراً أراها من خلف ضباب الدموع ، أذكر أجساداً وعيوناً وأصواتاً ..

وعبد الحميد ..

جسد عبد الحميد .. يرقد على سرير من المناضد الرخامية فى ركن المقهى ، وقد أسبل جفنيه ، ولا يتكلم ولا يضحك فى وجه إبراهيم .

ثم أيد قاسية تنتزعنى ، وتجلسنى على مقعد ، انهار فوقه ، وأصوات تسألنى ، وأنا أجيب بالصراخ ، وابنى يجيب بالصراخ ، وقد انقطعت صلتى بكل شيء .

تلك اللحظة بالذات ، أذكرها وكأنها كانت كل حياتى ، لحظة وقف عندها الزمن ، شعرت خلالها أنى بلا ماض وبلا مستقبل ، وكنت أجاهد وأنا أنظر إلى الناس ، أن أتذكر شيئاً ما .. شيئاً لا أدرى ما هو . غاب عنى ، وأشعر أنه ضرورى .. ويجب أن أتذكره لأخلص مما أنا فيه .

وحتى الآن ، وبعد كل هذه السنوات التى مرت على وفاة عبد الحميد ما زلت أحاول أن أتذكر هذا الشيء الذى جاهدت من أجل معرفته وأنا جالسة فى المقهى .. فأعجز ..

أحياناً تطوف برأسى صورة حقل فى قريتنا ، كنت أجلس عند حافته وأراقب الجاموسة وهى تشد المحراث فوقه ، وأشعر كما لو كنت أنا هذا الحقل ، وكما لو كانت الجاموسة تشد المحراث فوق جسدى ، وأشعر أن هذا هو ما كنت أريد أن أتذكره .

لماذا ؟..

لست أدرى ..

وأفزع ، ويخيل إلىّ أنى شارفت على الجنون ، فأحاول أن أطرد هذه الصورة الغريبة من رأسى . وأقول : لا .. ليس هذا هو ما كنت أريد أن أتذكره .

كان الناس ملتفين حول مقعدى فى المقهى . عندما انشقوا فجأة ، وظهر يوسف أمامى . فشعرت بلهفة إليه وكأنه سينقذنى من الفزع الذى يأكلنى . وصرخت :

ـ يوسف .. الحقنى .

وقفزت نحوه ، أريد أن أتشبث به صارخة :

ـ أبوك يايوسف ..

فاستدار وأعطانى ظهره ، ولما غاب عنى وجهه ، أظلمت عيناى . فهجمت عليه . أقول له كلاماً كثيراً . وهو غير منتبه إلىّ ، لا يريد أن ينتشلنى ، ورأيت رجالاً يحملون عبد الحميد فلم أفهم ماذا يريدون به ، وأمسكت بيد أحدهم ، أريد أن أخلص زوجى منه ، فدفعونى بعيداً ، وخرجوا بعبد الحميد إلى الشارع .. وهو مستسلم لهم . وحاولت أن أخرج وراءه ، أتبعه .. ألحق به .. فاعترضنى يوسف قائلاً فى حدة :

ـ روحى أنتِ البيت .. بتعملى إيه هنا .

قلت مولولة وأنا ألطم خدى بيدى وأحتضن إبراهيم باليد الثانية :

ـ جوزى .. رايحين بيه فين .

وحاولت يائسة أن أصل إلى عبد الحميد ، فلم أفلح ، ورأيت سيارة كبيرة تفتح بابين فى مؤخرتها . وتبتلع زوجى ، ومن بعده يوسف ، وانطلقت السيارة ، أشيعها بصراخى ، لعل عبد الحميد يسمعه .

لا أدرى كيف وصلت إلى المقابر . ولا مع من ، فقد تجمع حولى أناس كثيرون ، اختلفوا فيما بينهم . بعضهم يريد أن يحملنى إلى البيت ، وبعضهم يصيح :

ـ ياناس .. ده جوزها .. لازم تحضر الدفنة ..

وأنا أستمع إليهم فى بلاهة . وأردد مع صراخى :

- جوزى .. ودونى لجوزى .. كده برضه يا عبد الحميد يخلصك تسيبنى ..

وأخدونى إلى المقابر .

وقفت هناك عند مسجد صغير وسط المقابر ، تحيط به أكواخ وعشش تجلس أمامها قرويات متشحات بالسواد ، يلعب أمامهن أطفال يتصايحون . وبين لحظة وأخرى تمر أمامنا جماعة من النساء يولولن ويندبن متجهات إلى المقابر .

كنا فى انتظار عبد الحميد ، وكنت أتفرس فى وجوه القادمين ، أتوقع أن أراه يسير بينهم ، ثم أتلفت حولى أرقب العشش والأطفال ، وأحدق فى وجوه الناس ، فأراهم يتهامسون وينظرون إلى ساعاتهم .. فأخاف وأصرخ :

- كدة برضة تسبنى يا عبد الحميد ..

وأعود وأحدق فى وجوههم ، لعل واحداً منهم يتأثر بصرخاتى .. فيذهب ويأتى لى بزوجى . ولكنهم كانوا يشيحون بوجوههم بعيداً عنى كأنهم لا يريدون أن يروا حالى ، أو يسمعوا صرخاتى ، فلا أجد أمامى غير ابراهيم أخاطبه .. فأصرخ فيه

- فين أبوك يا إبراهيم .

وأنظر إليه فى يأس ، بل كنت أنظر إليه فى أمل ، وأنا أتوقع أن يتحول فجأة من طفل رضيع إلى رجل كبير يأخذ بيدى ، ويأتى لى بأبيه عبد الحميد .

وفجأة سمعت بوق سيارة ، جاءت ووراءها عاصفة من الغبار ، وأمامها صياح الأطفال ، ووقفت السيارة . وهبط منها راتب بك ومدحت . وأسرع الناس إليهما ، وتركونى لحظات ، وأنا ذاهلة ، ثم اندفعت وراءهم أشق طريقى بينهم إلى راتب بك وأصيح مستنجدة به :

- سيدى راتب بك .. أنا فى عرضك ياسيدى .. جوزى خدوه .

فنظر إلىّ ثم أشاح بوجهه وقال لأحد الرجال بجانبه :

- هى بتعمل إيه هنا ؟

وقبل أن أقول شيئاً آخر ، كانت الأيدى قد انتزعتنى من أمام راتب بك ودفعت بى فى طريق منحدر ، وسرت فيه والأرض تتأرجح تحت قدمى . وكل

شىء من حولى يعلو ويهبط حتى بلغنا حوش المقبرة ، فأدخلونى حجرة معتمة ، ووقف أكثر من واحد يمنعوننى من الخروج .

حبسونى فى العتمة حتى جاء النعش .. رأيته من الباب المفتوح ، فاندفعت إليه . ثم لا أذكر شيئاً بعد ذلك ، سوى الصراخ والجنون ، والحزن الحار الذى أزفره كالنار .

ثم لا شىء ..

وجدت نفسى بعد ذلك فى البيت ، وحدى ، أنا وإبراهيم .. ومن نعمة الله علىّ ، أنه ضربنى بسهم الذهول وإلا كنت قتلت نفسى فى تلك الليلة . ساعدنى ذهولى ، على أن أنصرف إلى العناية بإبراهيم ، أغير له ملابسه ، وأرضعه وأربت على ظهره ، وأدخله فى فراشه لينام ، وكأنى لا أعرف ما حدث ، لا أعرف أن عبد الحميد قد مات ، وأنه تركنى وحيدة مع ابنه ، تركنى ولن يعود ، بلا شفقة ولا رحمة ودون أن ينبهنى إلى ما يجب أن أفعله وهو غائب عنى ..

وكنت جالسة على سريرى .. سرير عبد الحميد ، وقد لفنى أنا وابنى الظلام ، عندما سمعت ولولة وصراخاً يصك أذنى ، فانتفضت من ذهولى ، وجريت إلى الباب الذى ارتفعت الصرخات وراءه .

وفتحت الباب .. فرأيت أمى تلطم خديها المصبوغين بنيلة زرقاء ، وهى تقفز قفزات متوالية ، وإلى جانبها امرأتين يفعلان مثلها . ويدبان على الأرض فتهتز من تحتهما ، والشيخ دسوقى ينظر إلىّ بوجه متجهم وإلى جانبه رجل نحيل طويل فى جلبابه الأزرق .. حدقت فيه طويلاً قبل أن أذكر أنه خالى إمبابى ..

ودخلوا البيت وهم على هذه الحال فوجدت نفسى أفعل مثلهم وأكثر ..

●●

فى تلك الأيام .. كان عقلى معطلاً . فلم يحزن سوى جسدى ، لطمت خدودى ، ومزقت شعرى ، وبح صوتى وانهكت قواى ، وكان ذلك نعيماً

بالنسبة للأيام التى مرت بى بعد ذلك ، عندما بدأت أفيق من أحزان الجسد ، وأعيش مع أحزان العقل والروح .

وكنت انتظر صباح مساء عودة يوسف إلىّ ، كان هو أملى الغامض الذى أعتمد عليه ، فكلما حاولت ان أفكر فى مستقبلى .. سرعان ما تتوزع أفكارى وتتبدد ، وأعجز عن المضى فى التفكير بغير يوسف بجانبى .

وكان الشيخ دسوقى هو عونى الوحيد ، كان يذهب إلى بيت راتب بك ثم يعود إلىّ ويجلس معى ساعات طوال يخبرنى بما سمعه هناك عن حالى ، وعرفت منه أن الحكومة ستصرف لى معاشاً أنا وابنى مبلغ ثلاثة عشر جنيهاً .

ذكر لى الشيخ دسوقى رقم المعاش بصوت مرتفع ، وكأنه لا يصدق ما يقول او كأنه يحسدنى على ما سأحصل عليه .

وكنت أستمع إليه ، وأنا أفكر فى يوسف ، هو الذى يستطيع أن ينصحنى بما أفعل ، أو ما لا أفعل .. أين يوسف ، لماذا لا يجىء إلىّ .

وسألت الشيخ دسوقى عن يوسف فقال لى إنه رآه فى بيت راتب بك ، وان راتب بك دفع له نفقات الجنازة والدفن ، فعدت أسأله لماذا لم يأت إلىّ وليس لى أحد غيره فى هذه الدنيا ، لماذا لا يأتى ليطمئن على أخيه الرضيع .. فظهرت الحيرة على الشيخ دسوقى ولم يعرف بماذا يجيب .

وكانت أمى تتنصت إلى حديثنا .. فقالت لى :

ـ ح تجعدى هنا مع مين يابنتى .. ارجعى لبلدك واهلك ..

فنظرت إليها فى شراسة .. ورفضت ان أستمع إلى ما تدعونى إليه ، أهكذا أتخلى عن كل شىء . وتضيع أيامى وأحلامى ، ويضيع مستقبل ابنى ، وأعود إلى القرية كما جئت .. الموت أهون من هذا .. لن أعود إلى القرية .. لن اترك بيتى .. أنا لست مبروكة الفلاحة الفقيرة .. لست مبروكة الخادمة .. انا مبروكة زوجة عبد الحميد افندى .. انا أم إبراهيم ..

ولكن أمى ألحت علىّ ، وشعرت أنها تفكر فى المعاش الذى سأقبضه . وأنها تطمع فى ان تنال نصيباً منه إذا عشت معها فى القرية .

وأكد لى هذا الظن . أنها رفعت صوتها مثل الشيخ دسوقى ، وقالت لى :

ـ جوزك فايت لك تلاتاشر جنيه كل شهر .. تعالى أجعدى معانا .

فقاطعتها فى حدة :

ـ لا ياأمه .. أنا موش رايحه البلد . ولا عايزه إبراهيم يشوفها .

فنظرت إلىّ فى عجب . ورفعت يديها إلى السماء تدعو الله أن يهدينى ..

وكنا نذهب كل يوم إلى قبر عبد الحميد ، وابكى ، وانتظر ان أرى يوسف وتمر الساعات وهو لا يجىء . وعلمت أنه زار القبر فى الصباح المبكر يوم أول خميس ، ومكث خمس دقائق . ثم انصرف فأيقنت أنه لا يريد أن يرانى ولم أحزن ، إذ كنت لا أستطيع أن أضيف أحزاناً جديدة فوق أحزانى ، ولكننى صممت على ان ألقاه ..

وكان لقائى بيوسف فى المحكمة ، يوم ذهبت مع الشيخ دسوقى لاستخراج الإعلان الشرعى بوفاة عبد الحميد .. كنت أجلس على دكة خشبية أمام باب حجرة القاضى ، عندما رأيته قادماً ، وماكاد يرانى حتى تجهم وجهه .. ووقف مكانه متشاغلاً عنى بالحديث مع الشيخ دسوقى ، فذهبت إليه وقلت له :

ـ كتر خيرك ياسى يوسف .. برضه عملت اللى عليك . وسألت عنى وعن أخوك .

ورفعت إبراهيم بين يدى وقلت له وأنا أهز طفلى أمام عينيه :

ـ هوه ده موش ابن عبد الحميد ، موش اخوك ، موش لحمك ودمك .

فهمس فى حدة وهو يتلفت حوله :

ـ انتِ عايزه منى إيه ..

صدمتنى كلماته ، كانت آخر شىء أتوقعه منه ، فقد عودت نفسى طوال الشهور الماضية ، وقبل وفاة عبد الحميد ، ان أفكر فى يوسف على أنه سيعود إلينا يوماً ما ، على أنه سيعترف بى ، وسيرضى عنى ، وكان هذا هو أقصى ما اتمناه فى حياتى ، فعندئذ كنت سأشعر حقاً أنى تحولت من خادمة إلى سيدة ، لم أكن أقنع بزواجى بعبد الحميد .. فقد رضخ لى تحت وطأة مؤثرات خاصة ، اما يوسف فهو يمثل لى الناس .. كل الناس .. هذه المدينة الكبيرة التى أعيش فيها ، إنه لو رفضنى ، فكل الناس ترفضنى ، من بقى لى غيره ،

حتى الود به ، ليعاملني كزوجة عبد الحميد ، إذ كان يوسف لا يقبل ان يعاملني هكذا .

وصحت فى يوسف ، أنا فى قرارة نفسى أريد أن أتوسل إليه .

- عيب تقول الكلام ده .. خلى ابوك يستريح فى نومته .

فرأيت لمعة غريبة فى عينيه وقال فى انفعال :

- مالكيش دعوة بأبويا .. كفايه اللى عملتيه .. موتيه ، عايزه إيه أكتر من كده ..

قلت له فى يأس :

- الله يسامحك ..

ونادى علينا الحاجب .. فدخلنا عند القاضى .. وأجبت على أسئلته وأنا شاردة .. ثم خرجنا وتركنا يوسف دون أن يكلف نفسه مشقة النظر إلىّ .

بكيت يومها فى مرارة وغيظ ، وكدت أوافق أمى وأسافر معها ، لولا أن إبراهيم كان يضحك على غير عادته ويردد دون أن يطلب منه أحد كلمة « بابا .. بابا » فاحتضنته وقلت لنفسى إنى أموت ، ولا أرى إبراهيم فى القرية ، وإنه لابد أن يبقى هنا ، ويدخل المدارس ، ويصبح أحسن من يوسف ألف مرة ..

وسافرت أمى ، وقالت لى فى غباء وهى تودعنى ، لماذا لا ألجأ إلى راتب بك وأعود إلى خدمته ، فقلت لها فى هياج ، إنى لن أمرغ اسم عبد الحميد افندى ، ولن أسيىء إليه وهو فى قبره فأعمل خادمة ، ويقول الناس إن زوجته أصبحت خادمة ، وإن إبراهيم أمه خادمة .

ولم تفهم أمى سر هياجى ، وتركت البيت وهى تحاول أن تخفى سخطها علىّ ..

ومرت الأيام والنقود تضيع من يدى والشيخ دسوقى لا يكف عن الحديث عن المعاش الذى لا أقبضه ، ويحاول أن يطمئننى بأن كل شيء سيتم بإذن الله ولكن النقود تأخرت .. وتأخرت ، وكل يوم يطلب منى الشيخ دسوقى نقوداً للمحكمة ، ولإدارة المعاشات ، وأحياناً كنت أخرج معه وأتوه وراءه فى حجرات

كثيرة ، وأقابل موظفين يرسلونا إلى موظفين ليرسلونا بدورهم إلى موظفين آخرين .. وبعضهم يشتمنا وبعضهم يسخر منا ، وبعضهم يضحك فى وجهى ويطمئننى .. فأذهب إليه يوماً بعد يوم بلا فائدة .

ووجدت نفسى فى طريقى إلى بيت راتب بك .. كم منيت نفسى بأن أذهب إلى هناك مع عبد الحميد ، وأجلس فى الصالون حيث تستقبلنا ستى الصغيرة ويقدم إسماعيل عصير البرتقال .. هاأنذا أعود إليهم ذليلة .. جائعة .. لم أدفع إيجار البيت ، أريد أن أشحذ منهم بعض النقود ..

قابلنى عم عثمان فلم يعرفنى .. وجعل يحدق فى بعينين مريضتين .. يريد أن يصدق أنى حقاً مبروكة .. ولا أسخر منه ، كان قد شاخ وفقد الكثير من نشاطه ، ورحب بى أخيراً ، ولكن صوته ظل متردداً ، كأن هناك بقية شك عنده فى حقيقة أمرى .. وبغير وعى منى ، درت حول البيت داخل الحديقة ، وذهبت إلى باب الخدم حيث وجدت إسماعيل ، الذى رحب بى فى حرارة ، وعزانى فى تأثر ، وأمسك بإبراهيم بين ذراعيه وأخذ يلاعبه ، والدموع تكاد تطفر من عينيه واسترحت للقاء إسماعيل ، وتقدمنى حاملاً ابنى إلى البهو وطلب منى أن أجلس على مقعد حتى ينادى ستى الصغيرة ، وشعرت أنه رغم ترحيبه بى ، يعاملنى كسيدة ، وأنه فرح بأنه يعاملنى على هذا النحو ..

نظر إلىّ فى حنان ، وأنا جالسة على المقعد ، وقال لى وابتسامة كبيرة على شفتيه :

- تشربى إيه ؟

قلت له وأنا أمر بإحدى اللحظات الخاطفة من الراحة .

- كتر خيرك يا إسماعيل .. موش عايزه إلا كباية ميه ..

فقال فى رقة :

- ودى تيجى .. ح أجيبلك لمونادة ساقعة ..

وجاء إسماعيل بعصير الليمون ، وقال لى إنه أخبر ستى الصغيرة بحضورى ، وتركنى وانصرف . وشربت الليمون ، ومضت الدقائق ، ولا أحد يسأل عنى ، وربما قضيت أكثر من ساعة ، قبل أن أسمع صوت أقدام ستى

الصغيرة ، وهى تهبط السلم ، وقبل أن أراها كنت واقفة أرتجف .

قابلتنى ستى الصغيرة بوجه عابس وقفت على مسافة منى ، وقالت فى وجوم :

- البقية فى حياتك يا مبروكة ..

ثم قالت دون أن تتحرك من مكانها :

- عايزة حاجة ..

كان صوتها جافاً ، ليس فيه أى ترحيب بمجيىء ، فتلعثمت ، وفقدت قدرتى على الكلام ، وزاد من ارتباكى أن إبراهيم بكى فجأة . فنظرت إليها فرأيتها تصوب نحو إبراهيم نظرات مشمئزة ، ورفعت صوتها قائلة :

- قول لى انتِ عايزه إيه .. أنا موش فاضية ..

وحاولت أن أشرح لها حالى بكلمات سريعة مقتضبة ، يطغى عليها بكاء إبراهيم ، وقبل أن أتم كلامى رأيتها تمد يدها إلىّ وتقول :

- خدى ..

رأيت جنيهاً فى يدها الممدودة . وقبل أن أفكر ، كنت قد أطعت أمرها وتقدمت منها وأخذت الجنيه ، وتمتمت بكلمات شكر .

فقالت لى وهى تبتعد عنى فى اتجاه السلم :

- روحى المطبخ ..خليهم يحطولك الغدا قبل ما تروحى .

عندئذ وكأن غمامة انزاحت من أمام عينى ، ورأيت بوضوح كامل الإهانة التى لحقت بى ، وحاولت أن أقذف بالجنيه الذى فى يدى ، كان يلسعنى ويحرق لحم كفى ، وحاولت أن أقذفه فى وجهها باحتجاج ثائر على معاملتها لى .. حاولت .. ولكنى لم أنفذ محاولتى ، لم أستطع ، فشعرت بسخونة فى قلبى ، وكأن جسمى يذوب فى ماء النار .

وفى طريقى إلى الخارج ، رأى إسماعيل الدموع فى عينى ، فسألنى فى انزعاج عما حدث ، فلم أقل له شيئاً ، وسرت فى الطريق أتخبط فى ضباب دموعى .

بعد أيام كنت أنا وابنى قد أكلنا الجنيه ، وليس فى بيتى شىء ، وما زلت لم

أدفع الإيجار ، والمعاش لم أقبضه وتحت وطأة الجوع والحاجة ، عدت إلى التفكير فى يوسف ، وقررت أن أذهب إليه ، وأكلمه لعل قلبه يلين ويساعدنى .

مشيت فى الشوارع وأسأل عن جريدة الأيام ، حتى وصلت إليها ، واعترضنى بواب نظر إلىّ فى ريبة وكان إبراهيم نائماً على صدرى ، وسألنى ماذا أريد .. قلت له إنى أريد مقابلة يوسف أفندى عبد الحميد السويفى ..

فصاح يطردنى :

- ممنوع الزيارات ياستى ..

قلت له فى تصميم :

- لازم أشوفه .. أنا قريبته .

وأشرت إلى إبراهيم قائلة :

- وده يبقى أخوه ..

فاحتار الرجل ، وصعد معى سلماً يفضى إلى بهو كبير ، وأشار إلى موظف يجلس عند منضدة عليها تليفون ، وقال لى : كلمى الأفندى ، استمع إلىّ الموظف وتكلم فى التليفون ثم قال لى :

- استنى شويه هنا .. هوه ح ييجى دلوقت ..

ولم يكد يفرغ من كلامه ، حتى رأيت يوسف يهبط سلماً ، ويأتى إلىّ وهو يلهث ، وقال لى دون أن يحيينى وفى عينيه بريقاً غريباً ..

- إيه اللى جابك هنا .

فبكيت ، وهمس يوسف وهو يجذبنى برفق إلى ركن فى البهو .

- بلاش العياط ده .. أنتِ عايزه الناس تقول إيه ..

كان يتكلم ، وفى صوته رنة خوف وهو يتلفت حوله فى قلق .. وحدثته عن جوعى ، وعن المعاش الذى لم أقبضه والإيجار الذى لم أدفعه .

فقال لى بسرعة :

- حاضر .. حاضر .. أنا ح أشوف حكاية المعاش .

قلت له وقد بدأ الأمل يعاودنى .

- امتى ياسى يوسف .

قال :

- بكرة ..

قلت له فى لهفة :

- أفوت عليك ..

قال بلهجته السريعة :

- لا .. أنا اللى ح أفوت عليكى .

هتفت من قلبى :

- ربنا يخليك لينا .. والنبى ياسى يوسف ماتنساش ..

قال وذراعاه متأخرتان .. ورأسه يلتفت إلى كل ناحية ..

- لا .. موش ح انسى .. روحى انتِ بأه ..

قلت متوسلة .. وأنا لاأريد أن يغيب عن عينى ..

- بس أنا مامعيش فلوس دلوقت .. أنا جيت لك ماشيه ..

فوضع يده فى جيبه .. وأخرج خمسين قرشاً أعطاها لى ، وقبل أن أغادر البهو ، كان قد جرى إلى السلم وقفز على درجاته واختفى .

وانتظرته صباح اليوم التالى .. ثم الظهر .. ثم العصر .. والمغرب والعشاء ويوسف لا يجىء .. ولم أصدق أنه نسينى ، انزعجت عليه ، وتوهمت أن حادثاً وقع له . فخرجت إلى الشارع فى الليل ، وذهبت إلى دكان سجاير فى ميدان باب اللوق ، وطلبت من صاحب الدكان أن يطلب لى يوسف فى التليفون .

وسمعت صوت رجل يسألنى عن اسمى .. قلت له إنى امرأة المرحوم عبد الحميد افندى . غاب صوت الرجل برهة ، ثم سمعته يقول لى إن يوسف غير موجود . فقلت له إنى أنتظره منذ الصباح ، وإنى منزعجة عليه ، فطلب منى الرجل أن أطمئن عليه .. وقال إنه كان موجوداً طوال النهار فى الجريدة ..

ودفعت نقود المكالمة ، وعدت إلى البيت ، وأنا فى حيرة من أمر يوسف واعتزمت أن أذهب إليه مرة ثانية فى الصباح ..

وما كاد يرانى الموظف فى بهو الجريدة حتى صاح فىّ :

- الأستاذ يوسف موش موجود ياستى ..

قلت له :

- لكن أنا عايزاه ضرورى ..

قال وهو يبتسم :

- حاضر .. لما ييجى ح اقوله .

فسألته :

- هو ح ييجى امتى ؟

قال بلهجة سريعة ذكرتنى بلهجة يوسف وهو يخاطبنى :

- والله ما اعرفش .. مالوش مواعيد .

فقلت له :

- طيب أنا ح استناه ..

فاختفت الابتسامة من وجه الرجل وقال فى حدة :

- ممنوع ياستى ..

قلت له فى ضراعة :

- ح اقف هنا فى الركن ..

فزادت حدته قائلاً :

- لاياستى .. اتفضلى استنيه فى حتة تانيه ..

ونظر إلىّ فى غضب ، فتراجعت وهبطت السلم .. وقفت على الرصيف أمام مدخل الجريدة .. فصاح فىّ البواب ..

- واقفة عندك ليه ياستى .. ممنوع الوقوف هنا .

قلت له فى عناد وقد صممت ألا أتراجع خطوة أخرى :

- أنا واقفة على الرصيف . ومستنية يوسف أفندى .

فصرخ محتداً ، وهجم علىّ يريد أن يطردنى بالقوة .. وارتفع صوتى ، وارتفع صوته . وفى هذه اللحظة رأيت شاباً نحيلاً أسمر البشرة .. يضع على عينيه نظارة ، اقترب منا وصاح فى لهجة أقرب إلى المرح سائلاً البواب :

- إيه الحكاية .. ياعم رشوان ..

فقال له البواب ملوحاً بيده نحوى وكأنه يود أن يضربنى :

- شوف ياأستاذ .. واقفه في المدخل ، قدام الرايحين والجايين .. وموش عايزه تمشي ..

فابتسم الشاب ، واقترب مني ، وسألني في رقة :

- أنتِ عايزه إيه ياستي .

قلت له :

- أنا جايه اقابل يوسف أفندي عبد الحميد السويفي .

فسألني وهو يرمقني بنظرات حادة فيهما قوة وجاذبية :

- عايزاه ليه ياستي .

فاحترت ماذا اقول له .. ثم اندفعت لأخبره بأني زوجة أبيه ، وأن الطفل الذي معي هو شقيقه . وإني جئت ليساعدني في الحصول على معاشي من الحكومة . .

وبدأ التأثر على وجه الشاب ، وارتعشت شفته السفلى رعشة خفيفة ولما عاد البواب إلى صياحه ، منعه في حدة وقال لي بصوته الرقيق :

- أنا ح أطلع أشوفه فوق .. خليكي هنا لحد ما أجيلك .. أو أبعت لك يوسف .

ووقفت تحاصرني نظرات التهديد يصوبها إليّ البواب .. وبعد قليل عاد الشاب ونظر إليّ بوجه يبدو عليه الانفعال . وكأنه متردد فيما يريد أن يقوله لي .. ثم قال أخيراً :

- شوفي يا ستي .. أنا ملقيتوش ..

وسكت برهة .. وفي عينيه تفكير عميق ، ثم قال ببطء :

- ومافيش داعي تستنيه دلوقت .

احسست اني يجب أن أصدقه . وأسمع كلامه . كانت نظراته القوية لها تأثير غريب عليّ ، فقلت له في يأس ، وأنا لا أدري شيئاً عن حياتي في اللحظة المقبلة :

- طيب ..

ثم سألته بصعوبة :

- وارجع تاني امتى ..

وفجأة صاح الشاب في انفعال .. وكأنه ثائر على شيء ما :

- ممكن تقول لي أنتِ عايشة إزاي دلوقت .

أجبته وقلبي يخفق ، وقد انتقلت إليّ عدوى انفعاله وثورته ..

- أنا ساكنة في شقة في شارع الفلكي ..

فسألني مقاطعاً :

- بتدفعي إيجار كام ؟

اجبته على الفور وأنا انتظر في لهفة بقية أسئلته ..

- بأدفع خمسة جنيه ونص إيجار .. وفات شهرين مادفعتهمش ..

قال وقد ثبت عينيه في عيني :

- ماتشوفيلك مكان أرخص .. وتقدري تأجري شقتك بخلو رجل .

ولم أستطع أن احرر عيني من عينيه ، كانت كل لحظة تمر ، تزيد من تأثيره عليّ ، وتشدني إليه ، وبدأت أحس أني أمام رجل أرسله الله لي ، ليتنشلني من مأزقي ، وليخرج بي إلى بر السلامة ، وعجزت عن الكلام .. فظن أني لم افهمه ، أو اعترض على كلامه ، فقال باسماً :

- يمكن يوصل خلو الرجل لتمانين تسعين جنيه .. يمكن مائة .

وغسلتني ابتسامته بنور أشرق في صدري ، وكأني قد قبضت المائة جنيه التي يتحدث عنها .. ولاحظ أن وجهي أشرق .. فسألني في مرح :

- هيه .. إيه رأيك ؟

قلت له :

- والنبي فكرة .

فقال بصوت حاد :

- بس المهم .. أنك تلاقي مكان تاني .. دلوقت فيه أزمة مساكن ..

نظرت إليه في غير فهم .. لم أكن أنتظر منه أن يثير أي عقبات .. إنه المنقذ الذي جاء ليساعدني ..

ولكن قبل أن يخيب ظني .. سمعته يقول في فرح :

- إنما ماتعوليش هم .. أنا عندى مكان رخيص ، تقدرى تعزلى فيه النهارده .

وعاد يثبت عينه فى عينى ويسألنى .

- هيه .. إيه رأيك ؟!

فى هذه اللحظة فقط ، اضطربت مشاعرى نحوه . وخفت أن أوافقه ، وانتابتنى ريبة مفاجئة فيه .. واستطعت أن أفر بعينى من عينيه .. وأنا أسأل نفسى .. من يكون هذا الشاب . ما الذى يجعله يهتم بأمرى ، ما سره .. إنى لا أعرف أى شىء عنه .. لا أعرف حتى اسمه ....

وفاجأنى قائلاً :

ـ أنا اسمى شوقى .. شوقى محمود ..

وابتسم ..

وكانت ابتسامة صادقة ، حارة .. من القلب ..

وأحببت ابتسامته ، ووددت لو أطيل النظر إليها ، ولكنى أطرقت بذنبى ، وأدركت أنه قرأ أفكارى ، فى خجل ، وارتبكت ، فقد شعرت أنه عرف أنى أتساءل عن اسمه .. وأتشكك فى أمره ..

ورغم أن الاسم الذى ذكره لم يكن يعنى شيئاً بالنسبة لى ، إلا أن مخاوفى زالت بعد أن سمعته .. وعاودنى إحساسى الأول بأنه سيساعدنى فى ورطتى ..

وتمنيت لو أستطيع أن أتخلص من خجلى ، وأعتذر له عن ريبتى فيه .

وقال بصوت امتزجت رقته بلهجته السريعة :

ـ أنا رسام بأشتغل هنا ...

وأشار إلى بناء جريدة الأيام ، ثم سكت ، وارتعشت شفته السفلى وهو يحدق فى من خلال نظارته ، كأنه يتفرج على ما يدور فى داخلى .

وأردت أن أقول له أى كلام ولكنى احترت ، فهو يريد أن يعرف رأيى فيما يعرضه علىّ ، وأنا عاجزة عن اتخاذ قرار سريع ، كان من الصعب علىّ أن أوافقه فى الحال على ترك بيتى ، وأذهب معه إلى مسكن جديد ..

شعرت وكأنى أعيش فى حدوته .

وأنا واقفة عند مفترق الطرق ..

وهو .. بجسمه النحيل .. ونظارته وعينيه القويتين ، وصوته الرقيق ، كأنه أمنا الغولة ، التى تعترض الناس عند مفترق الطرق ، فإذا لم يحيوها ولم يقرأوها السلام ، أكلت لحمهم قبل عظامهم ، وإذا حيوها وقرأوها السلام ، قالت لهم كلاماً حلواً ، وأرشدتهم إلى طريق السلامة ..

وها هو يتحول بسرعة من غريب أخاف منه وأخشاه ، إلى صديق ، يبتسم فى وجهى ويقول لى كلاماً حلواً ، ويرشدنى إلى طريق السلامة .

ولكنى أحس أنى قادمة على مغامرة .. مغامرة أواجه فيها المجهول .. تبعدنى عن حياتى السابقة .. عن أمى ، عن راتب بك ، عن ذكرى زوجى .. تبعدنى عن يوسف ..

لو وافقته ، فسأقذف بنفسى فى حياة جديدة ، لا أعرف كيف سأواجهها .. وإن كان قلبى يحدثنى بأنى سأجد فيها السلامة ..

هل أتخلى عن كل شىء ، وأتبعه من أجل إحساسى المبهم بأنه سيساعدنى .. ومن أجل ابتسامته ..

قلت وأنا أحاول تأجيل قرارى :

ـ وإن ماعرفتش أأجر الشقة ؟

فقال بصوت حاسم ، وكأنه يصدر أمراً وهو واثق من تنفيذه :

ـ لازم تتأجر .

وأعجبتنى ثقته بنفسه ، ولكنى أحسست أنه يدفعنى إلى ما يريد فقلت له وعقلى يقاوم مشاعر قلبى :

ـ طيب لما أفكر ..

فقال فى الحاح غريب :

- تفكرى فى إيه .. انت معندكيش وقت تضيعيه ..

ثم أردف قائلاً لدهشتى :

- أنا جى معاكى دلوقتى .. ح أتكلم مع البواب وأتفاهم معاه .. وقبل

أن نصل إلى شارع الفلكي ، اشتدت مقاومة عقلي ، وعاودني خوف مفاجيء ،

وقلت له :

ــ موش أحسن أستنى فى البيت ده ..

فقال دون أن يلتفت إليّ :

ــ لا ..

وصدمني رفضه القاطع ، فوقفت مكاني ، حتى أمنعه من أن يتقدم خطوة أخرى إلى البيت وقلت له :

ــ ويمكن أقبض المعاش بكرة .. وتفرج ..

فنظر إليّ وشفته السفلى ترتعش ، وثورة تضطرم فى عينيه ، وقال فى غضب لم أشعر أنه موجه إليّ ، وإنما هو غضب من شيء مجهول يراه هو ولا أراه أنا :

ــ أنتِ فاكرة الحكومة ح تديكي معاش صحيح ..

فسألته ، وكلماته تدق بعنف فى صدري :

ــ قصدك إيه .. المعاش ده حقي ..

فصاح وعيناه تقذفان بالغضب ، وصوته ثورة :

ــ حقك .. هي البلد دي فيها حقوق ..

فصحت وأنا أتشبث بابني :

ــ أمال أوكل ابني منين .. أسيبه يموت ..

ودهمني خاطر قوي بأنه يكذب عليّ لغرض فى نفسه ، وتبددت فجأة كل مشاعري الطيبة نحوه ، لم يعد الشاب الذي سينقذني ، لم يعد الشخص الذي أستريح إليه وأصدقه وأحب ابتسامته .. لقد اختفت ابتسامته ، وأصبح غريباً عني .. وإنه يخدعني .. إنه يقودني إلى طريق الندامة .. يريد أن يأكل لحمي قبل عظامي ..

إنـــه شـــرير ..

قلت له فى حذر :

ــ يوسف عارف كل حاجة .. وقال لى إنه ح يجيب لى معاشي ،،

فتلفت حوله فى ضيق ، كأنه يريد أن يتحرر من شيء يكتم أنفاسه ..

ثم هدأ فجأة ، وأطرق برأسه ..

وقال وهو يرفع عينيه ببطء لتلتقي بعيني :

ــ اسمعي يا ستي .. أنا موش قادر أكذب عليكي زي ما عملوا معاكي ..

فسألته فى غير فهم :

ــ مين هم اللي بيكذبوا عليّ ؟

فأجاب بصوت حاول جاهداً أن يكسبه رقة وحناناً :

ــ أنتِ لازم تعرفي الحقيقة ...علشان تعرفي تتصرفي ..

وبرقت عيناه وقال بسرعة :

ــ يوسف كان فى الجرنال وأنتِ هناك ..

فصرخـت :

ــ يوسـف ...

فاستمر يقول :

ــ بس هدي نفسك ..

قلت وغمامة حمراء تتكاثف أمام عيني ، وهاتف ينذرني بأنه صادق فى كلامه ، فأحاول يائسة أن أكذبه ..

ــ وما كانش عايز يشوفني ليه ..

فقال وعلى وجهه علامات ألم وفى صوته ألم :

ــ وما كانش عايز يشوفني ليه .. فقال وعلى وجهه علامات ألم وفى صوته ألم :

ــ أصله عارف إن مافيش فايدة فى المعاش ..

وروى لى كيف صعد إلى يوسف ، وطلب منه أن يهبط إليّ ، ولكن يوسف رفض أن يراني ، وكاد شوقي أن يتشاجر معه ، ولكن يوسف صمم فى عناد ألا يقابلني ، وقال إنه لم يوافق على زواجي من أبيه ، وإنه غير مسئول عما يحدث لى .. ثم قال إنه سأل فى إدارة المعاشات فعرف أني لا أستحق معاشا لأن عبد الحميد أفندي تزوجني وهو فوق الخامسة والخمسين .. وقانون الحكومة يمنع إعطائي المعاش فى هذه الحالة ، وإن أملي الوحيد هو فى أن

أحصل على ثلاثة او اربعة جنيهات لا براهيم ..

أما انا فلااستحق مليماً واحداً . ورفضت أن أصدقه .. لو صدقته كنت وقعت من طولى على الأرض .. وصرخت فيه ، رغم إحساس كاليقين يؤكد لى أنه قابل يوسف ، وأن كل ما يذكره صحيح .. صرخت لا كتم الحقيقة ، ليطغى صراخى فوقها .. صرخت فى يأس :

وتحملنى صابراً ، وهو يردد محاولاً تهدئتى :

— ماتخفيش .. ماتخفيش .. انا موش ح أسيبك .. الناس لبعضهم .. الدنيا بخير .. صدقينى .. الدنيا لسه بخير .

ولم أسمع كلامه .. كنت أتمنى .لو انشقت الارض وابتلعته من أمامى .. ابتلعته هو وكل ماقاله لى ..

وما كادت هذه الأمنية تطوف برأسى ، حتى فزعت .. كيف أتمنى أن يتركنى وحيدة ، ماذا اصنع لو ذهب وتركنى ضائعة .. هو الصوت الوحيد الذى أسمعه .. هو العين الوحيدة التى تنظر إلىّ ..

يارب .. لو ابتلعته الأرض .. فلتبتلعنى معه .. حتى لا اكون وحيدة فى ضياعى ..

●●

بعد أيام قليلة ، سلمنى إبراهيم البواب خمسين جنيهاً دفعها مستأجر جديد للشقة ، وكان قد خصم الإيجار المتأخر وأخذ لنفسه عشرة جنيهات ..

صررت النقود فى منديل ربطته فى قميصى ، ودفسته فى صدرى . وحملت إبراهيم على كتفى ، وذهبت مع شوقى لأرى مسكنى الجديد ..

تركنا الشوارع الواسعة وراءنا ، ودخلنا فى طريق ضيق ملتو .. يزدحم بالرجال يلبسون الجلاليب ، والنساء يلتففن بالملاءات السوداء ، والدكاكين الصغيرة على الجانبين .. والحمير تسير مطمئنة ، تجر عربات عليها أحمال ثقيلة ..

الضجة عالية ولكنها لا تزعج الأذن كأنها ضجة فى حلم ، وأحيانا تهجم على الطريق سيارة فيتحول الحلم إلى كابوس ، وتصرخ أبواق السيارة . وتسد

الطريق ، وتكاد تدوس من يسير كنا نسير فى عالم آخر ، فقير ، له رائحة ، وفيه مساجد كثيرة ، ومآذن عالية ..

مشيت وسط الزحام ، وكأن أيدى كثيرة تدفعنى وتحشرنى بين الناس تريد منى أن أتوه فى هذا المكان فلا أعرف كيف أخرج منه .. خيل إلىّ أنى لو نظرت خلفى فسأرى بين هذه الأيدى التى تدفعنى .. يد يوسف ..

ووصلنا إلى بوابة كبيرة ، قال لى شوقى : إنها بوابة المتولى .. شعرت برهبة وأنا أمر تحتها ، كأنها تفضى إلىّ بسر . ودخلنا فى طريق ضيق معتم مسقوف ، وقبل أن نصل إلى نهايته وقف شوقى عند باب كبير على يميننا ، يجلس عنده ثلاثة رجال يتثاءبون ، نظروا إلىّ بعيون نصف مغمضة ، وحياهم شوقى بصوت مرتفع ، كأنه يوقظهم ، فردوا التحية بصوت فيه استرخاء ، ولكن لا تنقصه الحرارة ..

وسأل شوقى أحدهم :

— شكرى ما جاش يا عم برعى ؟

فأجابه الرجل بصوت كالنائم :

— لسه .. ماجاش ..

واجتزنا عتبة الباب إلى فناء كبير .. يشغل مساحة منه نجار يقطع لوحاً من الخشب ، رفع عينيه ورد تحية شكرى فى حرارة ، وصاح دون أن يتوقف عن عمله :

— أنت ناسينى والا فاكرنى يا أستاذ ..

وصاح شوقى :

— ايوه فاكرك .. أمال يا اسطى طه ..

فهتف الرجل :

— أهو البركة فيك ..

وفى نهاية الفناء رأيت مصبغة جلود حمراء ، وإلى جانبها حفرة حولها حجارة ، وقد جلس فوقها صبى يقضى حاجته وينظر إلىّ فى فضول ..

وقف شوقى أمام باب مغلق بجوار المصبغة ، باب ضخم من الخشب

السميك العتيق ، رفعت بصري فوقه فرأيت طابقين ، لكل واحد منهما نافذتان كبيرتان ..

وأشار شوقي إلى الطابق الأول ، وقال لي : إن هذا هو مسكني الجديد ثم ابتسم كأنه يتوسل إليّ أن أرضى عنه .. وكان قد قال لي : إنه يسكن في الطابق الأعلى ، ومع ذلك سألته :

ــ وأنت ساكن فوق ؟

قال وقد اتسعت ابتسامته :

ــ أيوه ..

وصاح شوقي في الصبي الذي مازال يجلس القرفصاء ،

ــ أمك فين يا واد ..

فأشار الصبي إلى شمال الباب ، وقال :

ــ جوه ..

وتبينت فجأة أن عن شمالي حجرتين متلاصقتين .. تقدم شوقي من باب إحداهما ودق عليه صائحاً ..

ــ ست أم حنفي ..

فسمعت صوتاً ضعيفاً متكسراً .. صوت امرأة تتأوه قائلة :

ــ حاضر .. أنا جايه أهوه ..

وظهرت امرأة بدينة ، لا صلة لها بالصوت الذي سمعته ، تتأرجح في مشيتها ، فترمي بثقلها كل على قدمها اليمنى ، ثم ترمي به على قدمها اليسرى .. واقتربت وكأنها تتدحرج نحونا ، وكانت تلهث ..

وقال لها شوقي إني أم إبراهيم وكان قد حدثها عني من قبل فنظرت إليّ بعينين طيبتين وقالت بصوتها المتكسر :

ــ أهلاً بيكي يا أختي ..

وتقدمت نحو الباب المغلق ، وفتحته بمفتاح ضخم ، وصعدنا أربع درجات عالية من الحجر ، فقابلنا باب كبير .. دفعه شوقي بيده ، فأحدث صريراً عالياً ، وصعدنا سلماً خشبياً ضيقاً ، حتى وصلنا إلى الطابق الأول ..

دق قلبي وأنا أرى المكان الذي سأسكن فيه ، إنه مقبرة للموتى ، لا بيت للأحياء ، حجرة ضيقة تفضي إلى حجرة أوسع منها .. أرضها من الحجر ، يغطيها التراب ، ويعشش العنكبوت في سقفها الخشبي ، ولولا الضوء الذي يدخل من النافذتين ، لايقنت أن الجن والعفاريت تجتمع في هذا المكان .

كنت أخشى أن أتلفت حولي ، حتى لا أرى الوحشة والرهبة ، فأطرقت برأسي في استسلام يائس ، ووقفت عاجزة عن المقاومة أو الاحتجاج ، كالمنومة ، أفعل ما يأمرني به شوقي وعزائي الوحيد أنه إلى جانبي يحدثني ويهتم بي ..

لقد تحققت أمنيتي .. ها هي الأرض تنشق وتبتلعني معه في هذا القبر ..

ليتني كنت تمنيت شيئاً أفضل من هذا ! ..

ونظر إليّ شوقي ، وقد لاحظ صمتي ولعله شعر بما أنا فيه ، فضحك ليخفف عني ، وانطلق ليثرثر على غير عادته ، مؤكداً لي أن كل ما أراه سيتغير ، وأشار إلى النوافذ الكبيرة والسقف العالي ، وقال : إن كل هذا نعمة لم أكن أشعر بها في بيتي الأول ، وجعل يكرر أني بمجرد أن أفرغ من تنظيف المكان وأنقل أثاث بيتي إلى هنا ، سأحس بالراحة والسلام ..

وصاح في مرح :

ــ ما تعملنا شاي يا أم حنفي ..

قالها وكأنه يريد أن يحتفل بمجيئي ، فقالت المرأة في حرارة :

ــ من عيني يا أخويا ..

وذهبت لتعد الشاي ، بينما صعدت مع شوقي إلى مسكنه في الطابق الأعلى ..

قابلتني نفس الحجرتين ، ولكنهما كانتا في حالة عجيبة .. تزدحم في الحجرة الأولى أكداس من الصور بعضها فوق بعض ، وقد تراكم عليها التراب وصناديق خشبية .. وأوراق مبعثرة ، وزجاجات فارغة ، وستارة ممزقة ملقاة على الأرض .. لا لون لها ..

أما الحجرة الثانية ، فكانت نظيفة ذكرتني بصور قديمة باهتة عن حجرات

شبيهة بها في بيوت قريتنا .. الحصير على الأرض ، وكنبتان كبيرتان بلا مساند .. وكراسى من الخشب والقش ، ومنضدتان ودولاب من الخشب مطلي باللون الأحمر ..

الشيء الذى أدهشني هو الصور الغريبة المعلقة على الجدران ، تطل منها وجوه مشوهة ، مخلوقات لها عدة رءوس ، وجه واحد له أربع عيون .. كلها صور تثير الفزع ، ماعدا صورة واحدة لحمامة بيضاء ..

وكان في وسط الحجرة حامل عليه لوحة كبيرة من القماش مرسوم عليها خطوط غليظة سوداء ، كأن طفلاً عبث فوقها بقلم ضخم .

وطلب مني شوقي أن أجلس على أريكة بجوار النافذة وقال وهو يتنهد :

— أهو أنا بأرسم هنا ..

قالها وكأنه يزفر متاعب كثيرة من صدره .

ونظرت من جديد إلى الصور ، كانت مفزعة ، لا يرسمها إلا مجنون يريد أن يخيف الناس ، ولم أستطع أن أطيل النظر إليها .. وقفز إلى رأسى سؤال مفاجىء :

— أنت سايب المفتاح مع أم حنفي ليه ؟ ..

فحدق في وجهي طويلاً ، وبدت عليه إمارات تفكير عميق ، كأنى سألته سؤالاً صعباً .. ثم قال ببطء :

— علشان فيه ناس بتيجي تزورني بعض ساعات ..

وارتعشت شفته السفلى .. وسألني :

— إيه رأيك في الصور ؟

سألته :

— التصاوير دي بتاعتك .

وكنت أتمنى أن ينكر أنه صاحبها ولكنه هتف لدهشتي :

— أيوه ..

قلت له في خيبة أمل :

— شكلها يخوف ..

فضحك ، كأنه فرح بما أقوله .. وهتف ..

— أهو أنتِ فهمتيها .. شوفي الناس حياتها ملخبطة إزاى .. شوفي العذاب اللى هم فيه .. الناس بتاكل بعض .. الغني بياكل الفقير بينهش لحمه ..

وقطع كلامه ، ونظر إليّ متسائلاً :

— كده .. والا لا ..

ولم ينتظر جوابي واستمر يقول :

— أهي الناس بقي شكلها يخوف حياتهم تخوف .. أفكارهم تخوف .. أنا عايز كل واحد يشوف الصور دي .. ويخاف على نفسه .. يثور .. ما يسكتش ..

واقترب مني وهو يلوح بيديه ، كأنه يحارب شيئاً أمامه ، وقال :

— شوفي أنتِ الناس عملوا فيكي إيه .. شوفي الحكومة عملت فيكي إيه ..

وابتسم فجأة .. وسكت .. وأمال برأسه ، كأنه ينصت إلى صوت لا أسمعه . وداخلني شعور غامض بأنه ينصت إلى صدى كلماته ..

وجلس إلى جانبي ، وقال بصوت رقيق حالم :

— بكرة يامبروكة الدنيا تتغير .. موش ح يبقي فيه ظلم .. واحدة زيك موش ح تخاف على نفسها ولا على ابنها .. ح تعرف تعيش .. زى الأغنيا ما هم عايشين ..

كانت أول مرة يناديني فيها باسمي أول مرة أسمع مبروكة على لسانه . نطق باسمي فكأني أسمعه لأول مرة في حياتي .. وسمعته بقلبي ، لقد عشت وأنا أسمعهم في بيت راتب بك ينطقون باسمي في حدة .. ينادون باسمي وهم يصرخون ويزعقون وأجرى لألبى النداء ، وبعد ذلك سمعت عبد الحميد يناديني باسمي ، فكان ينطق به أحياناً في حماس وأحياناً في توسل وضراعة ، وأحياناً في ضعف أو عجز .. أما شوقي فقد نطق باسمي في رقة وعذوبة ، نطق به وكأنه يعرفني كما أريد أن أكون .. يعرفني بأحلامي ، بخبايا نفسي ..

وشعرت بمرارة ..

ليتني أستطيع أن أصدق ما يقوله لي .. إن الدنيا ستتغير .. وأن الناس يوماً سينطقون باسمي كما ينطق هو ..

نحن الاثنان في موقف غريب .. إننا في بيت متهدم ، يتراكم علينا التراب ، ومع ذلك نحلم احلاماً جميلة ..

كيف نحقق هذه الأحلام .. إنه لا يملك سوى الحديث عنها ، وأنا لا أملك سوى الإنصات إليه ، وكلما مضى يوم سأبتعد اكثر عن دنيا الأغنياء .. وكلما مر يوم سوف أحس بأن الأيدى التى تدفعنى إلى هذا المكان تسد أمامى طريق الحياة التى أتمناها .. الطريق الذى سار فيه يوسف وحده وقد رفض أن أسير فيه إلى جانبه ..

ومع ذلك فأنا راضية بهذا المكان لأننى أستطيع أن أتحدث فيه مع شوقى ، وأرى ابتسامته . وأسمعه وهو يناديني فكأنه ينادي أحلامي .

وابتسمت :

فسألني :

— بتضحكي على إيه ..

قلت له في ارتباك :

— ولا حاجة ..

فابتسم وقال في ثقة :

— باين عليكي مبسوطة ..

ولدهشتي كنت أشعر فعلاً براحة في صدري ، كأن كل الفوضى والقذارة والتراب في هذا البيت ، قد خرجت من جسمي ، كأن الخوف والفزع قد فرا من قلبي ، انتزعهما شوقي ، وعلقهما أمامي في تلك الصور على الجدران .

وهمست :

— الحمد لله ..

وسمعت صوت السلم الخشبي يئن تحت وطأة أقدام أم حنفي ، وأسرع شوقي إليها فأخذ منها صينية الشاي ودخلت هي وراءه وفي يدها مكنستان .

وكان هذا إيذاناً بأن نبدأ في تنظيف بيتي الجديد ..

لم أصدق أن أم حنفي تستطيع أن تبذل كل هذا المجهود ، رغم بدانتها ورغم أنها تلهث ، إنها كتلة من الحيوية والنشاط ، كانت تعمل كثلاث نساء

اجتمعن في جسد واحد .

واقبلت معها على العمل ، وتركت ابني إبراهيم مع شوقي يلاعبه ..

وفي اليوم التالي نقلنا الأثاث إلى الحجرتين ، ولم أنتبه إلا والليل قد اقبل ، والظلام يخيم عليّ ، وكنت متعبة ، فتكاسلت عن إضاءة اللمبة وجلست شاردة لا أفكر في شيء .. كان عقلي يستريح من الدوامة التي كان فيها ..

وأفقت على صوت شوقي يصيح في أسفل السلم ..

— اللمبة فين ياأم إبراهيم ..

فانتفضت ، وجريت نحوه ، فرأيته يصعد السلم ، وفي يده عود ثقاب مشتعل .. ومن خلفه أشباح تصعد وراءه ، فتهز السلم تحت وقع أقدامها ..

وصاح شوقي بلهجة آمرة :

— أنتِ موش مولعة اللمبة ليه ، روحي ولعيها ..

ولكني لم أتحرك من مكاني .. وقد طغت عليّ مفاجأة القادمين معه ، كانوا ثلاثة .. حيوني واحداً بعد الآخر ، وهم يتفرسون في وجهي في الظلام ، واستمروا في صعودهم وهم يتكلمون بلغة غريبة ..

وعدت إلى حجرتي ووقفت حائرة ، وقد استولى عليّ شعور أكبر من الدهشة .. شعور بأن هناك شيئاً ما لا أفهمه ..

واكتشفت أن هؤلاء الغرباء يضايقونني ، وأني كنت أتوقع أن يجيء شوقي وحده ، وأننا سنجلس وحدنا ونتحدث ..

وقفز إلى رأسي سؤال خبيث :

ما الذي جعلني أتوقع مجيئه وحده .. ما الذي جعلني أفكر في أني سأجلس معه ، وقد أقبل الليل .. وضمنا بيت مغلق علينا .

أنسيت أنه رجل .. وأني امرأة لا .. أنا لم أنس .. ولكني لم أشعر لحظة واحدة أنه يعاملني كامرأة يريدها .. لقد أشعرني دائماً أن حياتنا معاً شيء طبيعي .. كحياتي مع ابني إبراهيم ..

وعجبت .. أممكن هذا ، كيف لم أفكر في علاقتي به قبل الآن ، ربما لم يكن عندي وقت للتفكير ، ولكن هأنذا أفكر .. وأتساءل .. إنه لا يعاملني في خجل

ولا يتهرب منى مثل يوسف ، وهو لا يعاملنى بجراة مثل مدحت ، وهو ليس ضعيفاً .. أستطيع أن أسيطر عليه مثل عبد الحميد ..

إنه من نوع آخر .. من يكون هذا الشاب ؟

إنه ليس زوجى ، وليس حبيبي ، فمن يكون ؟؟

أهو ملاك هبط من السماء لينقذنى .. إننى لا أستطيع أن افكر فيه كل لحظة كملاك .. لا أستطيع أن أعامله كل لحظة كملاك .. لابد أن يأتى الوقت الذى أعامله فيه كرجل .. وأنظر إليه كرجل ..

ولقد جاء هذا الوقت ..

جاء الآن وأنا أراه يصعد السلم فى الظلام مع أصحابه ، فأشعر بالضيق نحوهم .. بل أغار منهم لأنهم يجلسون معه ، وأنا بعيدة عنه ..

يجب أن أعترف أنى أفكر فيه الآن كرجل ، وأنا لا أخجل من هذا الاعتراف ، أنا لا أخجل من شوقى ، فأنا احس أن حياتى ملكه ، من حقه أن يفعل بى ما يشاء .. أنا من غيره لا شىء .. لا شىء على الإطلاق ..

وارتجفت عندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير ، أدركت أنى على استعداد لأن أمنحه كل شىء ، دون أن اشعر بأنى أعطيته شيئاً .. امنحه نفسى بلا خجل وبلا ندم .. وبلا تردد ..

خفت من افكارى ، فأسرعت إلى اللمبة أشعلها لعل ضوءها الشاحب يطرد ما فى رأسى من خيالات .. وامسكت باللمبة وصعدت وكأن قوة تجذبنى إليه ، كنت أريد أن اراه ، واتفرس فى وجهه ، وقلبى يخفق بحنين جارف إليه .. ودهشة تملأنى من هذا الشعور الذى تفجر فى ..

وسمعت أصواتاً عالية تنبعث من حجرته الداخلية ، فوقفت مترددة فى الدخول ، وقد حجبتنى عنهم اللوحة الكبيرة التى تتوسط الحجرة .. وحاولت أن أنصت إلى ما يقولون ، كانوا قد كفوا عن الحديث باللغة الغريبة ، ولكنى عجزت عن فهم كلامهم .. كل ما فهمته أنهم ينادون بعضهم البعض بلقب زميل .. الزميل شوقى .. الزميل شكرى .. الزميل صبرى ..

وسكتوا فجأة ..

ورأيت شوقى يقفز من وراء اللوحة ومن خلفه تطل وجوه أصحابه تبحلق فى وجهي فى قلق .

وقال شوقى وهو يبتسم فى عصبية :

ـ إيه .. فيه حاجة .

قلت له :

ـ اللمبة ولعتها ..

وسمعت احد أصحابه يقول كلاماً بتلك اللغة الغريبة .. فعلمت أنه لا يريد أن أفهم ما يقول .. وخاطبه شوقى بنفس اللغة ، ثم التفت إلىّ قائلاً وهو يتصنع الهدوء :

ـ طيب حطيها على رأس السلم .. علشان فيه ناس جايين ..

قضيت تلك الليلة ساهرة فى حجرتى ، أنصت إلى أقدام تصعد ، وأقدام تهبط .. وأنا أتساءل عن سر هؤلاء الغرباء .



الفصل الثامن

ومضت شهور وشهور ، حدث خلالها ما كان لابد أن يحدث .. فاطمأن أصحاب شوقي إليّ وتعودوا أن يقفوا معي قبل صعودهم إليه .. يضحكون ، ويسألون عن إبراهيم ، ويلاعبونه أحياناً .. وكنت ألاحظ مرحهم بعض الأيام .. ووجومهم في أيام أخرى ، وكان شوقي يناديني فأصعد إليهم وهم مجتمعون في حجرته .. فيجمعون نقوداً يعطيها شوقي لي .. ويطلب مني شراء طعام ، فأخرج وأشتري لهم جبناً وحلاوة طحينية وسجائر هوليود .. ثم أعود .. وأتعشى معهم ..

وأصبحوا لا يتحرجون في الكلام أمامي ، وكانت تدور بينهم مناقشات غريبة عن مظاهرات يستعدون لها في المدارس والأزهر والجامعة .. ويختارون الهتافات التي سيرددونها في المظاهرة ، ثم يقف واحد منهم وينظر إلينا وكأننا جموع المتظاهرين ويهمس بالهتاف : « عاش كفاح الطلبة مع العمال » .. فيحتج آخر بأن هذا الهتاف ناقص لأنه لا يذكر الفلاحين .. ويقف ويهمس هاتفاً : « عاش كفاح الفلاحين والعمال والطلبة .. » ..

وتشتد المناقشة ..

كنت أنصت إليهم .. وأنا أعجب مما يدبرون ، وكانوا في نهاية الليل يحسمون المناقشة ، وغالباً ما يذعنون لكلمة شوقي ، الذي يطلب من كل واحد

منهم أن يذهب إلى مكان .. صبري يذهب إلى الأزهر ، وشكري يذهب إلى الجامعة ، ومحمود يذهب إلى المدرسة السعيدية .. ليندسوا بين المظاهرة .. ويرددوا الهتاف الذي اتفقوا عليه ..

وكنت أحمد الله أن شوقي لا يذهب أي مكان .. كان يفكر معهم ، ويدبر خطة المظاهرة طوال الليل ، ثم يذهب إلى عمله في جريدة الأيام في الصباح ، وينتظر هناك أخبار المظاهرات .. ويعود في العصر ليروي لي ما حدث ، فأشعر وكأنه هو الذي يحرك أحداث القاهرة .. هو الذي وراء الترامويات المقلوبة .. والفوانيس المحطمة .. والحجارة التي يقذف بها المتظاهرون الشرطة ..

كان يبهرني وهو يتحدث عن كل هذا ، وأكاد أشعر أني شريكته في تدبير كل شيء ، وأني قوية مثله .

وكان شوقي يقول لي في حماس :

ـ كل ده علشانك يا مبروكة .. وعلشان إللي زيك ..

فأقول له في حماس أكبر :

ـ امتى يتحقق كلامك ..

فيجيب باسماً :

كلها سنة .. والا اتنين ..

وأحياناً كنت أصيح فيه وقد نفد صبري :

ـ لسة سنه ، والا اتنين .. أنا عايزة أعيش دلوقت .. دلوقت ..

فينظر إليّ في وجوم ثم يقول :

ـ موش لازم الناس كلها تثور .

فأقول في غيظ :

ـ وأنا مالي .. ومال الناس .. بس أنا أقدر أعيش ..

وعندئذ يبدو عليه الارتباك ، ويقول لي كلاماً كثيراً لا أفهمه ، إذ كنت أستسلم لعينيه وهو يتحدث ، أدعهما تنفذان في عيني ، فلا أسمع كلامه ، وأشعر بقواي تتراخى ، وبرغبة في أن يكف عن الكلام ، ويطوقني بذراعيه ويقبلني .. ويمنحني شيئاً من قوته ..

وسمعت شوقي ذات ليلة يروي لأصحابه ما سمعه في الجريدة عن أخبار مفاوضات صدقي باشا رئيس الوزراء مع الإنجليز .. وقال لهم : إن صدقي باشا وافق على توقيع المعاهدة ، فحدث هياج شديد بينهم .. وأثناء احتدام المناقشة ، سأل واحد منهم شوقي :

ـ أنت متأكد من الكلام اللي بتقوله ؟

فأجابه شوقي :

ـ أيوه .. يوسف هو اللي قال لي .

وانتفض الاسم في قلبي ، كأنه كان نائماً فيه واستيقظ ، ونظر إليّ شوقي وكأنه يعتذر لي ، فحولت عيني بعيداً عنه ، متظاهرة بأني لا أكترث بشيء .. وتركتهم وذهبت إلى حجرتي .. وقلبي مازال ينتفض .. كنت أنا وشوقي نتحاشى ذكر اسم يوسف ، ولكني كنت أذكره وحدي بين وقت وآخر ، إذ تباغتني صورته بلا سبب .. قد أستيقظ في الصباح فأجد نفسي أفكر فيه ، وغالباً ما أذكر مقابلتي الأخيرة له في مدخل الجريدة وهو يعطيني الخمسين قرشاً ، ويعدني بأن يزورني في الغد ، ثم يقفز درجات السلم ويختفي .. وكنت أحاول أن أصعد بخيالي إلى المكان الذي يجلس فيه ثم أتساءل .. أين يسكن الآن ، وهل يفكر في الزواج ، ثم أتخيله وهو قادم إليّ ، يطرق الباب ، ويدخل ، وينظر إليّ في خجل ، ثم يعتذر لي ويتوسل إليّ أن أذهب معه إلى بيته ، لينفق عليّ وليتولى تربية إبراهيم ..

وأحتار ماذا أقول له ، هل أوافقه وأذهب معه ، وأترك شوقي ، أم أتشبث بحياتي هنا ، وأطرده في قسوة .. وأعامله كما عاملني ؟ .. وأفيق من خيالي .. فأنساه .. أحاول أن أنساه ..

ولكن أشعر الآن ، بعد أن سمعت اسمه على لسان شوقي ، بأني أريد أن ينفض الاجتماع ، لأسأله عن أخبار يوسف ..

وانتظرت حتى سمعت وقع أقدامهم وهم يهبطون ، فخرجت لهم وودعتهم .. ورآني شوقي فسألني في دهشة :

ـ إيه اللي مصحيكي لدلوقت ..

قلت له :

ـ أعملك شاي ..

فقال في استسلام :

ـ طيب ..

وصعدت إليه بالشاي ، وجعلت أثرثر وقد وجدت صعوبة في ذكر اسم يوسف .. خشيت أن أسأله فيدرك أني لم أنم لأني أفكر في يوسف ، وأنا لا أريد أن يعلم هذا .. لا أريد أن يعلم أحد في هذه الدنيا أني أكترث بيوسف ، أو أفكر فيه ، بعد كل الذي صنعه معي ..

ليتني أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في يوسف .. وأنساه إلى الأبد .. وأستريح .. ليتني ..

وحاولت في حذر أن أدعوه هو إلى ذكر يوسف .. فسألته عن صدقي باشا والإنجليز .. فإذا به ينطلق في الكلام عن الأغنياء الذين يأكلون أموال الفقراء مع الإنجليز .. ويشرح لي تلك الكلمة التي كان يرددها دائماً هو وأصحابه .. الشيوعية ..

وحاولت هذه المرة أن أفهم ما يقول فوجدته يتحدث عن شيء كالحلم .. إن الناس ستأخذ ما تريد .. الطعام الملابس .. البيت المريح ..

ولم أستطع متابعته .. إذ حلمت معه ، فتركته يواصل كلامه . وحلمت أن ابني إبراهيم يلبس البدلة .. ويذهب إلى المدرسة .. وأنا في بيت مثل بيت راتب بك ، أجلس في الصالون استقبل ضيوفي .. كلهن سيدات أنيقات .. مثلي .. يتحدثن معي .. وإسماعيل خادم عندي يقدم لنا القهوة والشربات ..

ثم نظرت إلى شوقي وهو مازال يتكلم ، وقلت لنفسي ، إنه أبو إبراهيم ، وهو يعيش معي في البيت الكبير ، وهو رجل غني ، أمواله لا تحصى ولا تعد ، يكسوني كل يوم بالحرير والذهب والماس ، ويملك عربة تقف عند باب الحديقة ..

وفجأة ، اقتحمت ستي الصغيرة الحلم رغماً عني ، فرأيتها تدخل

الصالون ، وتنظر إليّ في اشمئزاز وتطردني من البيت ، وأنا أجري وقد تركت إبراهيم ورائي يصرخ ..

ثم سمعت صوت إبراهيم يشير إلى شوقي ويقول باكياً .. ده موش بابا .. بابا مات ..

وانقبض صدري ..

وعدت أحاول أن أفهم ما يقوله شوقي عن الشيوعية ، وقد ظن أن صمتي دليل على اهتمامي بكلامه .. ولكني فكرت في أن الفجر أوشك على الطلوع ، وها نحن نجلس في غرفة واحدة ، وهو بعيد عني ، يقول كلاماً غريباً لا أفهمه .. كأني لست امرأة ، بل واحدة من أصحابه العديدين ..

وبدأت أشعر بالغضب نحوه .. وحاولت أن أحلم من جديد ، عدت إلى الصالون وجلست فيه ، ولكن وجه يوسف قفز إلى فجأة ، وملأ عيني ..

فهززت رأسي ، أطرد صورته ، وشعرت في تلك اللحظة أن شوقي مثل يوسف ، كلاهما يبعد عني لسبب لا أفهمه .. يوسف يصعد سلم الجريدة ويختفي مني .. وشوقي يضع بيني وبينه حاجزاً من الكلام الغريب ..

وكان شوقي مازال يتكلم فنظرت إليه في غيظ ، أي قدرة له على هذا الكلام المستمر .. ما فائدة كلامه الذي لا ينقلنا من هذا البيت العتيق ولا ينقذنا من الفقر ، ولا يجعلنا نطبخ اللحم هذا الصباح .. كلامه لن يكسو إبراهيم .. لن يجلسني في الصالون الذي أحلم به .

وصحت فيه فجأة .. بصوت ساخر :

ـ أهو كلام بتقوله ..

فحدجني بنظرة غاضبة .. أراحتني ، إذ شعرت أني عاقبته على كلامه الكثير ، شعرت أني انتشله من حلمه الذي لا معنى له .

شعرت أني أعاقبه .. لأنه لم يفكر في تقبيلي ..

كنت أود لو ينهض من مكانه .. ويقبلني ، ويخلصني من هذه الخواطر المشتعلة في رأسي ..

لو فعل ذلك ، لما سخرت منه . وانطلق السؤال الذي كنت أكتمه .. وجدتني

أقول له في انفعال :

ـ أنت ما بتقوليش يوسف عامل إيه ...

شعرت وأنا أذكر اسم يوسف هذه المرة ، أني أقول لشوقي إنه ليس كل شيء في حياتي .

وفاجأه السؤال ، فارتعشت شفته السفلى ، ونظر إليّ في دهشة وقال :

ـ إيه اللي خلاكي تفتكريه دلوقت ؟

قلت له ساخرة :

ـ موش قريبي .. ولازم أسأل عنه ..

ثم قلت كأني أقنعه بسبب سؤالي ..

ـ أصلي سمعتك بتجيب في سيرته مع أصحابك ..

فقال باقتضاب :

ـ يوسف بقى راجل مهم في الجرنال ...

فسألته في لهفة :

ـ صحيح . إزاي ..

فنظر إليّ متردداً ، لا يريد أن يتكلم ، وأغرقني في عينيه .. وقال :

ـ أنتِ إيه رأيك فيه .. شكله باين عليه طيب .. وبيعامل الناس بذوق وأدب .. إنما شويه شويه .. عمال يستفيد .. ومرتبه بيكبر .. واسمه بينزل في الجرنال .. الحقيقة أنا محتار فيه .. يا ترى هو طيب والا خبيث ..

قلت له مدافعة عن يوسف ، لأبدو وكأني لا أهتم به .

ـ ده طيب .. وينكسف زي البنت .

فقال في دهشة :

ـ أنتِ بتقولي عليه كده .. بعد اللي عمله فيكي ..

قلت له في إصرار :

ـ وإيه يعني .. كان بيغير مني علشان اتجوزت أبوه .. إنما هو لسه برضه أخو إبراهيم ابني ..

فقال في حيرة :

ـ ما اعرفش .. إنما أنا باشك دايماً في الناس الطيبين اللي بيستفيدوا من طيبتهم .

ولم أتركه حتى علمت منه كل شيء عن يوسف .. قال لي إن مرتبه أصبح سبعين جنيهاً .. وإنه يسكن وحده في شقة بالدقي ..

ولما سألته :

ـ ما بيعرفش بنات ..

قال لي في انفعال :

ـ ما سألتوش .. تحبي أسأله ..

فقلت له ساخرة .

ـ أصله زيك ..

فصوب إليّ نظرة طويلة ، ثم قال وهو يتثاءب :

ـ يمكن

وكدت أهجم عليه وأخنقه .

ولكني قمت ، وهبطت السلم إلى حجرتي ، وأصوات المؤذنين ترتفع توقظ النائمين للصلاة .

وجاء يوم عاد فيه شوقي إلى البيت بوجه كئيب ، ليخبرني أن البوليس قد قبض على أصحابه .. وانتبهت في تلك اللحظة .. إلى شيء غاب عني ، وهو أن ما يقوم به ليس لعبة يتسلى بها ، إنه وأصحابه لا يلعبون ولا يحلمون ، وإنما هم حمقى ، يقتحمون في طيش معركة مع الخوف والشرطة والسجن .. والموت .

وخفت على شوقي .. كان خوفي عليه أكبر من خوفي على أصحابه المقبوض عليهم .

وصحت فيه :

ـ أنا سايقة عليك النبي .. تسيبك من الهباب ده ..

فقال في حزن وكبرياء .

ـ بلاش كلام فارغ .

قلت له :

– انت موش بتقول إن اللي بتعمله ده شغلتي .. انا موش عايزه حاجة ..
فابتسم وقال في أسى .
– ما تبقيش عبيطة يا مبروكة
فقلت له غاضبة :
– اهو انت حر في نفسك .. خليهم يبهدلوك ويحبسوك .. ما انا عارفة أخرتها ..

ازعجني أنه يريد أن يمضي في حماقته ، رغم ما حدث لأصحابه وانتابني قلق شديد عليه ، وعلى ابني ، وعلى نفسي .

وكنت إذا خرج شوقي من البيت لا أطيق الجلوس وحدي ، حتى لا افكر فيما قد يحدث له ، وتشتد مخاوفي ، واتذكر عوض والقبض عليه ، واتذكر ستي الكبيرة ، فأراها وكأنها مازالت حية ، تنصحني بالابتعاد عن شوقي ، وأكاد أسألها .. أو اسأل نفسي ، ما العمل ، إلى أين اذهب ، إلى مَنْ ألجأ ، فلا اسمع جواباً ، ولا احتمل انتظار عودة شوقي ، فاهرع إلى أم حنفي واجلس معها .. واترك إبراهيم يلعب مع ابنها شحاته في الفناء ..

وكانت أم حنفي ترحب بي ، وتفرح بمجيئي ، وتروي لي حكايات لا تنتهي ، وكانت لا تستريح إلا إذا سمعتني أؤمن على ما تقول ، أو أمصمص شفتي في حسرة عندما تشكو لي همومها .

وكانت همومها كثيرة ، زوجها بسيوني يخرج في الصباح المبكر ، والنجوم مازالت في السماء ، ولا يعود إلا وقد أوغل الليل ، وكان يعمل ساعياً في شركة في العباسية ، وكان يمشي في الذهاب إلى مقر عمله وفي الإياب منه ، ويحمل معه غداءه في صرة ، حتى يوفر مصاريف المواصلات ، ورغم مشيه الكثير كان بدينا مثل أم حنفي ، له كرش ضخم ، ووجه سمين أحمر البشرة .. وجه طفل عجوز ، وكنت أراه أحياناً وهو عائد إلى البيت يلهث ، وأنا عائدة بالعشاء أو السجائر لشوقي وأصحابه ، فأسير معه إلى البيت ، وهو منفوش كالديك مزهو ببدلته الصفراء ، وكأنه يظن نفسه ضابطاً في الجيش .

وأكثر هموم أم حنفي ، من ابنها حنفي الذي تركها وهاجر إلى الاسكندرية

وتزوج هناك ، واشتغل في السكة الحديد ، وقطع صلته بها ، وتلقى أم حنفي اللوم على زوجها لانه ترك ابنه يفلت منه ، وتختطفه امرأة اسكندرانية ، الله وحده يعلم بحالها .

واحياناً كان يصلها خطاب من ابنتها التي تعمل ممرضة في مستشفى بالاسماعيلية ، فتمسك بالخطاب وتحاول أن ترى إذا كان ما بداخله إذن بريد دون أن تفتحه حتى لا يغضب زوجها ، فإذا رأت إذن البريد ، دست الخطاب في صدرها ، وجعلت تردد بين لحظة وأخرى في صوت أشبه بالندب .
– يا ترى عاملة إيه يا فاطمة . والنبي واحشاني يا بنتي ..
أما إذا لم يكن بالخطاب نقود ، تجهم وجهها ، وثارت فتنادي ابنها شحاته من الفناء وتضربه ، وتسب عذاب الخلف وسنينه .
وكنت اراقبها وانا افكر في أيامي القادمة ، فأكاد أرى نفسي مثلها ، بل في حال أسوأ من حالها ، فافزع ، وافقد عقلي ، وارى إبراهيم يلعب في الفناء ، وقد اتسخ من رأسه إلى قدميه بالتراب ، فأشخط فيه ، وأصرخ ، وهو يصرخ ويمتلىء المكان بصراخنا حتى يصيبنا التعب ، فيخيم علينا صمت ثقيل .
وأستغفر الله .. وأدعوه عله يهدي شوقي فيتوب عما هو فيه ، وينقذه من الشرطة ، ثم استعرض في أسى من عرفت في حياتي .. عوض الذي سرق وذهب إلى السجن .. مدحت الذي اراد أن يغتصبني .. وعبد الحميد الذي ودع حياته بامتصاص شبابي .. وشوقي الذي يريد أن يحرق كل شيء .. ويحرق نفسه .. ويحرقني أنا وابني معه ..
يارب لماذا كان نصيبي هكذا دائماً ..
يوسف وحده هو العاقل الرزين .. وهو وحده الذي فر مني ، لعله أدرك أني مصدر نحس ، لعل عقله هو الذي جعله يهرب مني ، حتى لا يربط حظه بحظي التعيس .
واحقد عليه ..
إنه يرتفع ويرتفع ، وأنا أهبط وأهبط ..
كانت أمنيتي في حياتي أن أهزمه .. أن اضطره إلى الاعتراف بأني سيدة

وليست خادمة .. وها هو يدوسني بقدميه ، ويصعد فوق تعاستي ..

إني أحقد عليه .. أحقد عليه ..

وأعيش مع حقدي حتى أسمع صوت أقدام شوقي وهو يصعد السلم ، فأجري إليه ، وقلبي يفيض باللهفة ، وأراه فأنسى كل شيء .. أنسى حقدي .. وأنسى خوفي .. وكأن روحي عادت إليّ ..

ورغم ذلك كنت أعامله بجفاء ، لا يقول كلمة إلا وسخرت منها . أريد أن أنغص عليه حياته .. أريد أن أحطم هذا الكبرياء الذي يحتمي به ، حتى لا يشعر بأنه قوي .. فيتحدى الشرطة .. ويعرض نفسه للخطر ..

كنت أريد أن أقول له .. كيف يتصور نفسه أنه قادر على ما يريد ، وهو لا يستطيع إسعادي .. بل لا يستطيع أن يكسب عطفي عليه ..

كنت أحرمه من عطفي .. لأني أريده إلى جانبي .. لأني أحبه .. لأني لا شيء من غيره .

وكانت وجوه جديدة قد بدأت تتردد عليه ، تأتي متلصصة في الليل ولا تطيل الجلوس معه .. يتبادلون كلمات سريعة ، ثم يختفون .. ورأيت أوراقاً كثيرة يخفيها شوقي تحت الأريكة .. فتذكرت يوم فتش عبد الحميد حجرة يوسف يوم قبض البوليس عليه ، وقد شك في وجود منشورات معه ..

وقلت لشوقي في غضب :

ـ انت جايب الورق ده هنا علشان البوليس ييجي وراه ..

فقال في دهشة :

ـ وانتِ ايش عرفك ..

قلت له :

ـ أيوه .. دي منشورات ..

فصاح :

ـ وكمان عارفة انها منشورات ..

فحكيت له ما حدث ليوسف ، فاستمع إليّ في انتباه شديد ، وقد لمعت عيناه ..

وقلت له مهددة إني سأطرد أصحابه إذا جاءوا وسأوصي أم حنفي والأسطى طه النجار بأن يقولوا لهم إذا رأوهم إنه قد ترك هذا البيت ..

فضحك .. وقال :

ـ بلاش جنان ..

قلت له في عناد :

ـ والله لأنا عاملاها ..

فانتابه شك في أني قد أنفذ تهديدي . وارتعشت شفته السفلى وقال بصوت حاسم :

ـ اسمعي .. لو عملتي حاجة زي دي .. انتِ اللي ح تسيبي البيت ..

صفعتني كلماته .. كانت قاسية كالموت .. كأن البيت قد تهدم فوقي .. وصدقته .. فرأيت نفسي أنا وإبراهيم في الشارع ..

وبكيت ..

فأدار ظهره ، كأنه لا يعنيه شيء .. وهبطت إلى حجرتي ، أبكي كالمجنونة ، ويأس قاتم يفترسني حتى سمعت صوته يناديني ، فجريت إليه في فزع ، وأنا أتوقع أن يأمرني بترك البيت في الحال .

شعرت لحظتها وأنا صاعدة إليه ، أني ألبي النداء في بيت راتب بيه ، وأني عدت خادمة وهو السيد .

ووقفت أمامه ارتجف ، وقد نكست رأسي ، وقد ظننت أنه لو رأى دموعي سيغضب ويشتمني كما كان يفعل راتب بك .

وسمعته يقول :

ـ تعالي يا مبروكة ..

وامتدت يده وأمسكت بيدي ، فرفعت عيني في توسل ، أكاد استعطفه ليرجيء قراره .. ورأيته ينظر إليّ في حنان وألم .. فكذبت ما أرى .. وتبعته والخوف يكتم أنفاسي ، حتى أجلسني على الأريكة وجلس إلى جانبي ..

وهمس :

ـ مبروكة .. أنا موش عارف أقول لك إيه .. باتمنى أقطع لساني ..

ولا كنتش اقول لك اللي انا قلته ..

واجهشت بالبكاء .. تفجر من صدري قوياً طاغياً .. يائساً .. فقال وهو يضغط على يدي .. بصوت مختنق :

ـ البيت ده بيتك .. انا غلطت معاكي يا مبروكة .. سامحيني ..

واستمر يتكلم .. حتى قلت له بصوتي الباكي :

ـ كتر خيرك .. عايزني أسيب البيت ..

فهتف بحرقة :

ـ بلاش تعذبيني يا مبروكة .. كفاية اللي حصل ..

ثم قال في حنان :

ـ هاتي راسك أبوسها ..

وقبلني في شعري ..

ولكن خوفي كان مازال جاثماً عليّ .. فلم أصدقه .. وشعرت بعجز تام امامه .. فقلت له في ضراعة ..

ـ أنا في عرضك .. ما تطردنيش من البيت .. أروح فين ..

صاح :

ـ كفاية يا مبروكة .. كفاية ..

ولكني اندفعت قائلة في يأس :

ـ أنا ح أعمل اللي أنت عاوزه .. بس خليني أعيش أنا وابني .. ابوس ايديك .. ابوس رجليك .

كان خوفي يتزايد كلما حاول ان يطمئنني ، فقدت ثقتي فيه .. إنه مثل يوسف إنه لن يكون ارحم منه ..

وكانت ليلة تعذبت فيها كما لم اتعذب من قبل ، ولم اكن اعلم اني عذبته معي ايضا ..

ومنذ تلك الليلة تغيرت معاملته لي .. كانت كل كلماته وكل حركة تبدو منه وكأنها اعتذار مستمر عما قاله لي .. وكان إذا جاء ، اصحابه ، نظر إليّ في ارتباك ، وكأنه يستعطفني أن أسمح لهم بالبقاء ، وإذا تركوه أسرع إليّ ..

وحاول ان يضحكني .

وقال لي مرة وهو يرسم في لوحته الكبيرة :

ـ تعالي اقعدي معايا لما احكيلك على يوسف ..

وروى لي انه أحب فتاة تعمل كومبارس في السينما .. اسمها سامية سامي ..

وفوجئت بالخبر ، وسألته في انزعاج :

ـ ح يتجوزها ..

قال وهو يبتسم :

ـ مين عارف ..

فزعقت غاضبة

ـ لازم تكلمه .. وتنصحه ..

فلوح بالفرشاة في وجهي قائلاً :

ـ اطمئني .. يوسف أعقل مني .. ومنك ..

فقلت :

لكن يعملها ..

فقال في ثقة :

ـ انا متأكد انه موش ح يتجوزها ح يخاف على مركزه في الجرنال

فسألته :

- يعني ايه كومبارس ؟

فقال وهو يعود إلى لوحته :

ـ يعني ممثلة صغيرة .. موش زي ليلى مراد .. ولا فاطمة رشدي ..

وشغلني هذا الخبر كثيراً ، حتى سألت نفسي في دهشة ، ما سر اهتمامي به .. وما سر انزعاجي من زواج يوسف بهذه الكومبارس ..

ويرتفع صوت حقدي .. فأقول فليتزوجها ، لعلها تشقيه .. وتفسد حياته ..

ولكني اشعر رغم ذلك اني في قرارة نفسي لا اتمنى له هذا الزواج .

وأعلم أن حنيني إلى أيام يوسف .. مازال أقوى من حقدي .

إني لا أستطيع أن أحقد على تلك الأيام التي عشتها كسيدة .. لا أستطيع أن أحقد على أملي الذي أعيش له .. وكدت أحققه يوماً ما ..

وفاجأني شوقي عصر يوم قائلاً :

- إيه رأيك تروحي السيما معايا ..

كدت أصيح فيه .. لا .. لن أذهب معك .. إذ تذكرت في لحظة خاطفة عبد الحميد وذهابي معه إلى السينما .. وتذكرت موت عبد الحميد ..

وقاومت خواطري وسألته

- ح نروح ليه ..

- علشان تشوفيها ..

قلت له في برود :

- شفتها ..

فقال وعيناه تلمعان بنظرات ماكرة :

- وعلشان تشوفي سامية ..

وقبلت في الحال ..

ارتديت أجمل فساتيني ، ووقفت أمام المرآة طويلا لأطمئن على جمالي قبل أن أذهب لرؤية سامية ، شعرت وكأني سألقاها بلحمها ودمها وسأدخل معها في معركة ، سيعلن في نهايتها من منا الأجمل والأحسن ، وكنت واثقة من نفسي ، مصممة على اكتساحها ، وإثارة غيرتها ، وكأنها ستنظر إليّ من شاشة السينما ، فتراني وتدرك أني أجمل منها ، فتموت من الحسرة .

وكنت قد رسمت لها صورة في خيالي ..

اقنعت نفسي أنها تشبه سعاد ، إذ كلما فكرت فيها قفزت صورة سعاد أمامي بوجهها الأبيض المستطيل وعينيها الوديعتين الساذجتين وجسمها الممتلىء ، وقوامها الطويل .

وعجبت مما أفكر فيه ..

هأنذا أعود إلى المقارنة بيني وبين سعاد ، ولكن في صورة أخرى .. صورة

سامية ..

وضحكت ..

هذه المرة أنا واثقة من نتيجة المقارنة ، إن سعاد الجديدة ليست أكثر من ممثلة تافهة .. واحدة من إياهن .. بلا شرف ، ولا أخلاق . وأحسست بالسخرية والشماتة في يوسف . إنه ينحدر إلى الفضيحة يلقي بنفس في عالم قذر ..

وانتابني فرح طاغ وأنا أتخيل المصائب التي ستقع على رأس يوسف من وراء علاقته بهذه الممثلة .

وفجأة .. فزعت ..

واضطربت ، وشعرت بالاختناق ، ورحت أبتهل إلى الله أن يبعد يوسف عنها ، وينجيه منها ..

وشعرت أني سأكون تعيسة لو تزوجها ..

وجلست إلى جانب شوقي في السينما ، أتململ في مقعدي .. أسأل شوقي في لهفة كلما ظهرت ممثلة ، إذا ما كانت هي سامية .. وهو يقول لي هامساً :

- لسه ..

وقد نفد صبري ، فلم أستطع متابعة حوادث الفيلم ، رغم أنني كنت أرى يوسف وهبي لأول مرة في حياتي ، وقد أعجبني شكله وخفة دمه ..

وكان يوسف وهبي يسير في حارة معتمة ، وهناك عصابة تتربص به وتريد أن تقتله عندما ظهرت فتاة ترتدي الملاءة اللف .

ولكزني شوقي هامساً في انفعال .

- أهي دي سامية سامي ..

فنظرت إليها في دهشة ..

وخاب أملي ..

كانت على غير الصورة التي رسمتها في خيالي ، إنها لا تشبه سعاد في شيء .. بنت نحيفة مسلولة قصيرة ، لها عينان ماكرتان ، عينان فيهما وقاحة ، وفمها واسع يكاد يشطر وجهها إلى شطرين ، وشفتاها ممتلئتان نهمتان .

كانت تسير في الحارة وهي تتثنى وتتلفت وراءها ، وتغمز بعينيها ليوسف وهبي ، فسار وراءها كالعبيط بضع خطوات ، ثم وقفت وقالت له بصوت خفيض مبحوح :

- أنت عايز مني إيه ..

فقال لها يوسف وهبي في ارتباك :

- أنا ياست ..

وفي نفس اللحظة ظهر من ورائه رجل من العصابة ، ضخم الجثة ، وفي يده عصا غليظة ، وهجم الرجل على يوسف وهبي وضربه ، فسقط مغشيا عليه .

وابتسمت سامية .. وأدارت ظهرها ، ومشت وهي تتثنى ، وكأن في جسمها زمبلك .

التفت إليّ شوقي وهمست في غيظ :

- جاته نيلة .. يوسف . يعني مالقاش إلا المجرمة دي ..

فضحك وقال :

- هي ذنبها إيه .. الدور عايز كده ..

قلت له :

- دي وحشه ..

فلم يرد عليّ .. فسألته غاضبة :

- أنت مسبوط منها ..

فقال في برود ، وهو ينظر إلى الشاشة :

- موش بطالة ..

وغاظتني إجابته ، فسألته ساخرة :

- عاجبك فيها إيه ..

قال وهو يهز كتفه دون أن ينظر إليّ :

- يعني ..

وتركني لغيظي ..

وانتظرت ظهور سامية مرة أخرى ، ولكنها اختفت تماماً ، فلما انتهى

الفيلم سألت شوقي في دهشة :

- هيه راحت فين ؟

فسألني في غير فهم :

- مين ..

قلت له :

- الهبابة دي .. سامية ..

فضحك قائلا :

- ما هي كومبارس .. دورها صغير ..

قلت له في شماتة :

- والله ما تنفع ببصلة .. دا أنا أحسن منها ..

قال لي وهو ينظر إليّ في عجب :

- تحبي تبقى زيها ..

فهتفت في حدة :

- فشر ..

وغضبت منه ، فظل يصالحني طوال الطريق ، ولما وصلنا إلى البيت كان يبدو عليه التعب ، والنوم في عينيه ، ولكني لم أتركه ، إذ كانت بي رغبة جامحة في الكلام .. كنت أريد أن أتحدث معه عن يوسف

واستسلم شوقي لرغبتي ، فجلس ينصت إليّ ، وأنا أروي له كل شيء عن يوسف ، حكيت له عن سعاد وزوجها ، وكان يستمع إليّ باهتمام وفضول شديدين ، رغم أنه كان يتثاءب أحياناً ..

ولست أدري ماذا حدث لي ..

شعرت وأنا أحكي له ، أني حزينة وأني قد كبرت وتقدمت في السن .. وأني أختنق بالذكريات ..

تذكرت ستي الكبيرة عندما كانت تجلس بعد انتهاء الغارات ، وتحكي لنا الحكايات ، وخيل لي أني أصبحت في سنها ، وأن حياتي قد انتهت ولا أحد يهتم بي .. حتى شوقي .. إنه لا يهتم بي ..

خيل إلىّ أن كل الرجال فى هذه الدنيا لا يهتمون إلا بسامية ..واحسست فى قرارة نفسى أنها هزمتنى ، وان شوقى لا يتثاءب لانه يريد أن ينام ، بل لإنه يريد أن يتخلص منى .. لوكانت سامية هنا .. مكانى ، لما تثاءب .

وصحت فيه .

- يعنى قاعد تسمع ولا بتتكلمش فبذل مجهوداً كبيراً ليبتسم ..

وقال :

- أصل أنا تعبان ...

قلت له وأنا أشك فى كلامه ..

- تعبان والا بتفكر فى سامية .

قال :

- ح أفكر فيها على إيه ..

قلت له وكأن قوة تملى علىّ ما اقول :

- يمكن بتحبها أنت كمان ..

قال :

- بلاش عبط .. قومى نامى ..

ورفضت أن اقوم .. وانطلقت اسب سامية وأشتمها .. وأنا اشعر أنى لن استريح إلا إذا فعلت هذا .

كنت مضطربة ، لا استطيع أن أسيطر على ما أقول ، ولا على ما افكر فيه .. والذكريات تدور فى رأسى كأنها اشباح تتسابق بلا هدف .. وبين لحظة وأخرى تقفز إلى رأسى صورة ستى الكبيرة ، وكأنها تقول لى إنى أصبحت عجوزاً مثلها .. ولم يبق لى إلا أن أودع الحياة ..

وفجأة وجدتنى أسأل شوقى :

- أنت كنت بتعمل إيه أيام الغارات ؟

قال وهو يحدق فىّ لعله يعرف سر سؤالى :

- ولا حاجة ...

ولم تعجبنى إجابته ، وكان على وشك أن يقع نائماً ، فهتفت فى عناد :

- ماهو أنا موش ح اسيبك تنام ،

فهز رأسه ليطرد النوم منها .

وقال لى بصوت خفيض حنون :

- أمرك ..

وعدت اسأله ..

- يعنى ماانتش فاكر أيام الغارات ..

فقال :

- طبعا فاكرها ..

ورفع رأسه .. ونظر إلىّ نظرة طويلة ، وقال فجأة :

- اسمعى .. أنا ح احكيلك على أهم حاجة فى حياتى .. حصلت أيام الحرب ..

وروى لى قصة غريبة ، لم افهمها تماماً عن جندى فى الجيش الإنجليزى ولكنه لم يكن إنجليزيا ، كان متطوعاً مع الإنجليز ليحارب الألمان ، وكان هو أول من علمه الشيوعية ..

كان يذهب معه إلى بيت رسام فى القلعة ، ويشربون الويسكى الذى يأتى به من الجيش ، ويحدثهم عن الشيوعية والثورة ..

وسألته :

- وإيه اللى خلاك تسمع كلامه .

قال على الفور :

- علشان اقتنعت بيه ..

قلت له ساخرة :

- ضحك عليك ..

فنظر إلىّ متوسلاً .. وقال وهو يتثاءب .

- اللى حصل .

قلت له ضاحكة فى أسى :

- باين عليك عايز تنام .

وقمت ، وقد شعرت أنني تماديت في تعذيبه ، وهبطت إلى حجرتي وأنا أتساءل عمّا بي ، وقضيت بقية الليل ساهرة مع حزني وذكرياتي وشعوري بالقلق والوحدة .

بعد يومين ، طرق شوقي بابي ، وقال لي بصوت جاد :

– مبروكة أنا عايزك في حاجة مهمة ..

وصعدت معه إلى حجرته ، فروى لي في كلمات سريعة أنه هو وزملاؤه قد قرروا شراء مطبعة يطبعون عليها منشورات ويوزعونها على الناس ..

استمعت إليه في دهشة ، حتى قال لي فجأة :

– أنا عايز منك عشرين جنيه .

ولم أفهم كلامه ، حتى كرره ، وأنا أنظر إليه في بلاهة ، لا أريد أن أصدق ما يقول :

وفكرت بسرعة ، وقررت أن أرفض طلبه ، إن كل ما معي سبعة وثلاثون جنيها تبقت لي من الخمسين جنيها التي أخذتها لإخلاء بيت الفلكي .

وهي ليست نقودي ، إنها نقود إبراهيم ، نقود ابني الذي يكبر بسرعة ، وتزداد مطالبه يوماً بعد يوم ..

وأنا في حاجة إلى كل مليم ..

وهو يعلم هذا ..

هل أقول له إنني فقيرة ولا أملك شيئاً .. إنه يعلم ..

هل أسأله كيف يأكل إبراهيم ويشرب .. ولكنه يعلم ..

ومع ذلك ، عجزت عن النطق بالرفض ..

واحترت ، وزاد من حيرتي أنني كنت أشعر ببعض الاطمئنان لأنه معي .. ولأني لو احتجت إلى شيء .. فسأجده إلى جواري يمدني بالمساعدة ولكني لم أتوقع أبداً أن يكون هو في حاجة إليّ .

وصرخ عقلي ، أرفض طلبه ، لاتعطيه مليما واحداً ، إنه يريد أن يضيع نقودك على مطبعة لن يأكل منها ابنك ولن يشرب ..

ولكني لم أستطع الرفض . مستحيل أن أرفض طلبه .. إني وكل ما أملكه له ..

وقلت في اضطراب :

– بس عشرين جنيه موش كتير .

قلتها وأنا أتمنى أن يعدل عن طلبه ، إنه قادر على قراءة أفكاري ، ولاشك أنه أحس بكل ما يهتف به عقلي ..

ولكنه قال بسرعة :

– أنا عارف .. بس أنا عايزهم

ولم أناقشه .. أحضرت له النقود وأعطيتها له بيد مرتعشة ، وأنا أقول لنفسي .. أمري إلى الله .

وأخذ النقود ودسها في جيب بنطلونه . وتمتم بكلمات شكر سريعة .. وانطلق إلى الخارج ..

ومضت أيام ، وهو مشغول عني وكان يتهرب من الكلام معي ، إلى أن سمعت مساء يوم صوت أقدام كثيرة تصعد السلم ، فخرجت لأرى من القادمون .. فوجدت شوقي وأصحابه يحملون المطبعة ويصعدون بها إلى فوق ..

واندفعت وراءهم .. وراء نقودي وإذا بهم يعرفون أني قد دفعت العشرين جنيهاً ، ويشكرون لي ما فعلت وقضيت الليلة معهم ، أتفرج عليهم وهم يطبعون المنشورات ..

وانصرفوا قبيل الفجر .. ومع كل واحد منهم كمية من المنشورات ليوزعها ، وأردت أن أهبط إلى حجرتي لأنام ، ولكن شوقي أمسك بكتفي ، ووجهه يفيض بالمرح .. وقال لي ضاحكا :

– انتِ رايحه فين .. أنا موش ح أسيبك تنامي زي ما بتعملي في .

وتعانقت عيناه بعيني .. وقال في حنان :

– أنا موش عارف أعملك إيه يامبروكة .

وضمني إلى صدره ، وقبلني في خدي وضمني بقوة أكبر ، وهو يردد في

حنان ، وشفتاه تتمرغان على خدى :

- مبروكة .. مبروكة ..

شعرت أن جسمى يتلاشى بين ذراعيه ، وبدون وعى قبلته فى خده وطوقت عنقه بيدى .

وهمست وأنا لا أدرى ماذا أقول :

- أعمل فيك إيه ..

فأسكتتني شفتاه .

ولكن شيئاً أقوى من الكلام سيطر علينا ، وضمنا فى قسوة وعنف ونشوة .

تفجرت فى جسدى رغبة طاغية فى أن أستولى عليه ، كنت أريده .. أريده بكل مافيه .. أريد أعماقه .. روحه .. حياته ، أريد قوته وكبرياءه .

وأخذت منه كل شىء .

ومنحته كل شىء ..

التهمني ، والتهمته ، وعشنا معا فى غيبة رفعتنا فوق الدنيا والأحزان والذكريات والحب .

وسمعته يهمس لقلبى بكلمات حنونه ، وقال لى وهو يكاد يبكى إنه يحبنى ويحب إبراهيم ، ويحب الأرض التى أمشى عليها ، والأشياء التى تقع عليها عينى ، ويحب أحلامى ويحب أحزانى ، ثم قال وهو يمسح بيده على شعرى برفق ..

- انت احسن منى يامبروكة .. قلت له معابثة ، وقلبى ينبض بنشوة جارفة :

- ما تقلش كده ..

وضحك فى انفعال ويده تعبث فى عصبية بخصلات شعرى ..

- انتِ ح تلخبطى مخى .. قلت له فى انزعاج :

- بعد الشر عليك ..

قال فى لهجة غريبة وهو يتنهد :

- انا خلاص يامبروكة .. ما بقتش عارف إيه الصح .. وإيه الغلط ..

ولم افهم ماذا يريد ان يقول ، وكنت اشعر بخدر لذيذ يسرى فى جسدي ، فتركته يثرثر ، حتى نام .. ونمت فى أحضانه .

فتحت عينى فى الصباح .. لأذكر أنى تركت إبراهيم وحده طوال الليل ، وهبطت السلم وأنا أرتجف من الخوف ، وقابلنى بنظرات جادة قوية ، نظرات فيها اتهام ..

احسست أنى هبطت إليه عريانة ، وأنه يعرف ما حدث ، كانت نظراته تنقب جسدى وتؤلمنى ..

هجمت عليه أضمه إلى صدرى ، فدفعنى بيديه الصغيرتين ، وبدا عليه النفور وأبعد رأسه عنى ، يريد أن يتخلص من قبضتى وكأنه يشم رائحة شوقى فى جسدى .

وأوشكت على البكاء ، وشعرت بتعاسة هائلة ..

أهو يعلم حقاً .. أم هى أوهام تدور فى رأسى .

قضيت النهار كالمجنونة ، تطاردنى نظرات إبراهيم ، حتى عاد شوقى ، فجريت إليه ، وقلت له وأنا رأسى فى صدره .

- أنا خايفة من إبراهيم ..

قال وهو يقبلنى فى شعرى :

خايفة ليه ..

قلت له فى ألم :

- زى ما يكون عارف .. موش راضى يخلينى أقرب منه ..

فابتعد عنى واستغرقه تفكير عميق ، ثم قال :

- احنا لازم ناخد بالنا .. العيال الصغيرين بيفهموا كل حاجة .. ومنذ ذلك اليوم وأنا وشوقى نحاول استرضاء إبراهيم ، كأنه حبنا وحياتنا كلها طوع أمره ..

ونجحت فى إقناع إبراهيم بأن شوقى والده ، ولم أشعر بأنى أخدعه ، إذ كنت نسيت عبد الحميد ، ولم تعد ذكراه تخطر ببالى ، وكان شوقى يعود إلى البيت ومعه حلوى يقدمها لإبراهيم ، ويقضى معه بعض الوقت يلاعبه ويثرثر

كنت أشعر في تلك اللحظات برهبة تسيطر على الحجرة ، وكان شوقي يقوم بعمل سحري ، وكانت تمضي الساعات أحيانا . وهو لا يلتفت إليّ وقد نسي كل معه ويتحاشى أن يلمسني أو يكلمني أمامه حتى ينام إبراهيم ، فأنظر إليه في عطف وخوف ، وأنسل صاعدة إلى شوقي ، فأجلس أرقبه وهو يرسم ، وعيناي لا تفارق يده وهي تمر بالفرشاة على اللوحة ، أو وهو يتأخر خطوات وينظر إلى الرسم ، وقد يبتسم وجهه ، كأنه يحدث نفسه ، وترتعش شفته السفلي ، ثم يستأنف الرسم .

شيء من حوله ، وأحس بأن الليل قد تأخر فأصيح فجأة :

- كفاية شغل باه ..

فيلتفت إليّ بعينين شاردتين .. ويبتسم ، فأذهب إليه وأساعده في تنظيف أدواته ، ونجلس معا ، نتحدث حتى يحتوينا الحب ونغيب فيه ..

كانت لهفتي عليه قوية ، وكأني أريد أن أعوض معه ما فاتني ، كأني أريد أن أمحو تماما متاعبي مع عبد الحميد ، ومحاولاته الفاشلة التي كانت ترهق جسدي .

وكنت أثور يوم يأتي أصحاب شوقي ، إذ يحرمونني منه ، وأود لو أطردهم ، وأنظر إلى شوقي في غضب ، فيدرك أني ثائرة ، وينتهز أي فرصة ليتركهم ، ويهبط إليّ في حجرتي ويقول هامساً حتى لا يوقظ إبراهيم :

- معلهش يامبروكة .. ح يمشوا دلوقت ..

فأقول غاضبة :

- كفاية عليك أصحابك ..

فيبدو عليه الارتباك ويقول في حيرة :

- ح اعمل ايه .. كلامهم كتير ..

ويحاول أن يتخلص منهم ، فإذا ذهبوا جاء إلي ، وطلب مني أن أصعد معه ، فأتظاهر بأن النعاس قد غلبني فيرجوني ويتوسل إليّ ، ويجذبني حتى أصعد معه .

وقلت له أن يطلب من أصحابه أن يبحثوا عن مكان آخر يجتمعون فيه .

فقال لي متردداً :

- بس هنا أمان .. والبوليس ما يعرفش الحته دي ..

فصحت فيه :

- يعني عايزهم ييجوا لحد البوليس ما يعرف .. ويمسكك معاهم ..

فأطرق برأسه .. ثم قال فجأة :

- اسمعي يامبروكة .. لازم تعملي حسابك إن البوليس يصح يقبض عليّ في أي وقت ..

فصرخت :

- يافرحتي لما تقول لي الكلام ده . وشعرت أني يجب أن أحارب من أجل سعادتي . وصممت ألا أهدأ حتى أنتصر على أصحابه وأبعدهم عنه ..

اقتربت منه ، ولصقت خدي بشعره وقلت له في حنان :

- لو حصل لك حاجة أنا ح أموت نفسي .

قال محتجا بصوت ضعيف :

- بس أعمل إيه .. أنتِ عايزاني أسيب كل حاجة ..

قلت له وأنا أقبله على جبينه :

- أنا موش عايزاك تسيبني . ح أعمل إيه من غيرك .

وقبلته في فمه ، لأخمد صوت احتجاجه ، فاستسلم إليّ ، ولكني كنت أدرك أنه مازال في قرارة نفسه مصمماً على التمسك بأصحابه .

وصدق ظني ، فرغم غضبي وثورتي ظل يستقبلهم ، وكان يقول لي : إن هذا هو الطلب الوحيد الذي لا يستطيع أن يلبيه ، وإنه يعتبرني شريكة له في كل ما يفعل ، وإنه لا يدري كيف يحترم نفسه أو يستطيع أن يحبني ، إذا ما تخلى عن الشيء الذي يؤمن به ..

ومضت شهور وشهور ، ومحاولاتي تتبدد أمام إصراره وعناده .. وكنت أحاول أحيانا أن أثيره، فأذكره بيوسف ، وأقول له إنه أعقل منه فهو لا يعرض نفسه للخطر ، ومركزه يرتفع ومرتبه يكبر ..

كنت أسأله ساخرة :

- أنت بتاخد كام .. وهو بياخد كام ؟
فيغضب ويقول لى :
- الناس موش بالفلوس اللى بتاخدها ..
فاقول وأنا أعرف ان كلامى يؤلمه :
- ح تفضل طول عمرك بتاخد تلاتين جنيه .. وهو ح ياخد ميه .. وح يسكن فى سراية .. ويركب أتومبيل ..
ولكنى كنت لا أستطيع المضى فى تعذيبه ، فسرعان ما اعتذر له واطوقه بذراعى .. واقول له فى لهفة :
ما تزعلش منى .. أنا عايزاك تبقى أحسن واحد فى الدنيا دى .
فيهمس :
- أنتِ موش فاهمة حاجة يامبروكة فاقول له مداعبة :
- إيه اللى موش فاهماه .. أنا عايزه يبقى معاك فلوس .. علشان تصرف علىّ . وتلبسنى .. وعندئذ ينطلق فى كلام كثير ، محاولا أن يشرح لى خطأ تفكيرى ، فأستمع إليه ، وأدرك انه مازال مصمما على تعريض نفسه للخطر مع أصحابه ..
ولاحظت أن شوقى بدأ يشعر بالغيرة من يوسف ، فقد كان يأتينى بأخباره التى تصوره فى صورة الشاب اللى فسد ..
قال لى ذات مرة : إن سامية ذهبت إلى رئيس التحرير لتشكو يوسف ، وانه كان قد وعدها بالزواج ثم تخلى عنها ..
قلت له مدافعة عن يوسف :
- يعنى كنت عايزه يتجوزها فقال فى ضيق :
- بس ماكنش يصح أنه يوعدها بالجواز ..
ولم اتابع حديث شوقى .. إذ وجدتنى أسرح بأفكارى ، وأتساءل ماذا يكون مصيرى مع شوقى ، وهل يتزوجنى ، أم نظل بلا زواج .. إنه لم يعدنى بالزواج .. أمعنى هذا انه يرفض أن يتزوجنى ..
وتضايقت لأنى دافعت عن يوسف أمامه ، لأنه لم يتزوج من سامية ،

ووجدتنى اقول وأنا أعنى ما بينى وبين شوقى :
- برضه ما يصحش .. كان لازم يتجوزها بعد اللى حصل بينهم .. فنظر إلىّ نظرة طويلة .. وخيل إلىّ أنه فهم ما أعنيه .. لأنه سكت لفترة طويلة ..
ومع ذلك لم أكن أشعر بدافع قوى للإلحاح عليه بالزواج ، كنت احس أنى يجب أن اتخلص أولاً من أصحابه والمطبعة والمنشورات وأفكاره الثائرة ، وخطر القبض عليه ، قبل أن اتزوج منه ..
وذات يوم ، اكتشفت أنى حامل .. فلم أنزعج مثلما حدث لى يوم حملت إبراهيم ، وكنت واثقة أن شوقى سيتقبل الأمر ببساطة ، وانه سيتزوجنى فى الحال ..
ولكنه لدهشتى ماكاد يسمع بالخبر ، حتى اصفر وجهه ، وارتاع كأن مصيبة وقعت ، وفقد أعصابه ، فوقف أمام الحائط ، يدق رأسه فيه كالمجنون ..
واشفقت عليه ، وحاولت أن أهدئه ، ولكنه كان يضحك ضحكات غريبة ، ويزعق فى مرارة .
- ورينى شطارتك يا عم شوقى ..
ولم افهم ما الذى يقصد .. إلى أن قال لى وكأنه يستعطفنى .
- تحبى تتجوزينى النهاردة .. وانحبس بكره ..
اطرقت برأسى .. ثم رفعت إليه عينين تقولان له .. نعم أريد أن اتزوجك .. فقال :
- وتربى عيلين بدل عيل واحد .
همست بصوت مضطرب :
- ربنا موجود .
فصرخ وجسمه يرتعش ، ووجهه أصفر .
إذا كان موجود .. ليه ما بيوكلش الشحاتين اللى مالين الشوارع .. ليه مابيخففش العيانين .. ليه ما يخلناش نرتاح ..
قلت له فى خوف :

- بلاش تكفر ياشوقي ..

فصاح ضاحكا في هياج :

- اكفر .. ما تبقيش عبيطة .. أنا جبان .. فاهمة .. أنا جبان ..

وظل يهذى ، حتى ظننت أنه قد فقد عقله ..

إلى أن جاء يوم ، فأخذني إلى طبيب أجهضني ، وعاد بي إلى البيت .. وجلس إلى جوارى وراح يبكي ..

لم أشهد بكاء في حياتي مثل بكاه ، كان جسمه يتفتت ، كأنه يريد أن يقتل نفسه بالبكاء ، ورثيت له ، وحاولت رغم آلامي أن أسرى عنه ، وكان يدق بقبضة يده على ركبته ويقول في حرقة :

- شفتي يامبروكة . أنا مجرم إزاى .. خدعتك .. ضحكت عليكي .. زى ما بضحك على الناس .. زى ما بضحك على نفسي ..

ويهتف باكياً :

- شفتي أنا عملت إيه في ابني .. باكلمك عن الإنسانية .. وعن حب الناس .. وعن الشيوعية .. وأدى اللى أنا عملته .. أنا نصاب .. نصاب ..

وخفق قلبي ..

إنه لأول مرة في حياته يثور على نفسه ، يثور على أفكاره .. أتكون قد تمت المعجزة .. أيكون الله قد عوضني عما أصابني .. فنصرني أخيراً على أصحابه ..

نظرت إليه . وهو يتفتت وينهار .. وقلت لنفسي في ثقة سأمنحه من حبي ما يعوضه عن كل ما يحس به من آلام .

الفصل التاسع

تظاهرت أمام شوقي بأني غير آسفة على ما حدث .. هيأت له الحب في كل شيء ، في نظراتي وفي كلماتي ، وفي الطعام الذي أعده له وفي حجرته التي أنظفها وأرتبها في انتظار عودته ، غمرته بالحب ليصبح لي وحدي ، كما أنا له وحده ، وقد أشعرني بكاؤه بأن اللحظة قد حانت لانتزاعه أخيراً من أصحابه ..

وكان يستسلم لي ، ويتركني أسيطر عليه بعواطفي ، فأجد نشوة كبيرة في هذا ، لولا ما كان يبدو عليه أحيانا من شرود مفاجيء ، فلا أدرى ما الذي يفكر فيه ، وما الذي يبعده عني ، فأندفع إليه وأطوقه في حنان حتى يفيق من شروده ..

واستمر أصحابه يترددون عليه ، ولاحظت إنه على غير عادته يشتد في مناقشاته معهم ، ويرفع صوته ويتشاجر ، فأفرح ، وأقول لنفسي غداً سيطردهم ، ولن يعودوا إليه ، وسنعيش معاً ، وحدنا ، بعيداً عن المخاطر ، وفي الصباح أصعد إليه لأوقظه من النوم ، فيفتح عينيه بصعوبة ، ويتوسل إلىّ أن أتركه لينام ويرفض الذهاب إلى الجريدة .

وكنت إذا سألته عن سر شجاره مع أصحابه ، لاذ بالصمت ، وتهرب من سؤالي ، فيحدثني في شيء آخر أو يضحك متصنعاً المرح ، ويقبلني في

شوق ، فأدرك أنه لا يزال مترددا فى اتخاذ قراره النهائى ، فأصبر وامنحه مزيدا من الحب ..

ثم حدث له تحول مفاجىء .. إذ بدأ يتشاجر معى لأتفه الأسباب ، أحضرت له ذات مرة كوب شاى ، فما كاد يرفعه إلى فمه ويرشف منه حتى صرخ فى وجهى لأنى نسيت أن أضع السكر فى الشاى ، وقبل أن أفهم سر صراخه ، كان قد قذف بالكوب على الأرض ، فتحطم ..

ولم يفزعنى صراخه ، بل شعرت بالخوف عليه ، وتمنيت لو أستطيع أن أضمه إلى صدرى حتى يهدأ ، ويتخلص من هذا الصراخ الذى يمزقه وانحنيت على الأرض أجمع الزجاج المتناثر ، فاشتد هياجه ، وزعق كالمجنون يطلب منى الا أمس الزجاج .. ثم صاح يأمرنى أن أتركه وحده .

فتركت له الحجرة وحبى له أكبر من غضبى منه ، وبعد قليل كان يطرق بابى ، وقف ينظر إلىّ ، وفى عينيه عذاب واعتذار ، وكان إبراهيم قد جرى إليه وطوق ساقه بذراعيه ، وهو يصيح :

— إدينى قرش .. إدينى قرش .

فرفعه فى الهواء وقبله ، وعيناه لا تفارقان عينى ، وأعطى إبراهيم القرش فأخذه وجرى إلى الشارع ، ووقفنا صامتين إلى أن قال وهو يضحك فى عصبية :

— اعمليلى شاى ..

فضحكت من قلبى قائلة :

— علشان تكسر كباية تانية ..

قال وهو يقترب منى :

— أيوه .. وعلشان أكسر دماغك أنتِ كمان ..

وجذبنى من رأسى ، واحتوانى بين ذراعيه وهمس :

— أنتِ زعلانه ..

قلت له فى مرح وكأنى أتمتم بأغنية :

— زعلانه علشان كباية .. فداك ستين كباية ...

ومددت يدى إلى صدره ، وبى رغبة فى أن ينتزع من أعماقه كل ما يعانيه من قلق وعذاب .. ولعله فهم مايجول بخاطرى . إذ ارتعشت شفته السفلى ، ثم قال فى بطء :

— تعرفى إيه اللى مضايقنى ..

ورفعت إليه عينين متسائلتين فى حنان ، فاستمر يقول :

— أنا من ساعة اللى حصل .. وأنا زى العيان .. افيش حاجة لها طعم فى بقى .. مافيش حاجة أعملها وأنا متأكد انها صح ..

همست :

— ليه ..

فقال ويداه تقبضان على كتفى بقوة :

— ح ارجع أقول لك اللى أنا قلته .. كل أفكارى ومبادئى ضد اللى أنا عملته .. ضد أنى اقتل ابنك وابنى .. اللى كان ممكن يبقى زى إبراهيم بيضحك وبيعيط وبيقول لى ادينى قرش ..وبيكبر .. وبيبقى راجل أحسن منى .. وعنده مبادىء وأفكار ..

قلت له بسرعة :

— لكن أنا موش زعلانه من اللى حصل ..

فقال فى عصبية :

— موش زعلانه علشان خاطرى .. موش كده ..

قلت فى حرارة :

— أيوه ..

فهتف .

— يعنى أنا السبب .. أنا كنت افضل إنك تكرهينى ولا تتخلصيش من ابنك .. أنا مين علشان تعمليلى كل ده .. أنا واحد صعلوك هلفوت ..

قلت له فى حيرة :

— أنا موش فاهماك .. انت معذب نفسك ليه ..

فقال فى ألم :

— لكن أصحابى يفهموا الكلام ده .. أنا شاعر إنى بأخدعهم .. تعرف أن دلوقت بأكتشف فى نفسى حاجات غريبة .. بتخانق معاهم .. عامل نفسى شيوعى متحمس .. باشتمهم .. باقولهم أنتم موش ثوريين .. بأحاول أغطى الكذبة اللى فى نفسى ..

وحوّل عينيه بعيدا عنى وقال كأنه يخاطب نفسه :

— أنا بافكر اعترف لهم بكل شىء .. وأستقيل ..

وارتجفت ..

هاهو يقترب من النهاية التى أريدها له .. ولكنى قبل أن أفكر كنت قد صحت فى ذعر :

— عايز تفضحنى ..

فقال فى بطء :

— لو كانت الحكاية فضيحة وبس كانت هانت ..

وأغاظتنى إجابته ، ولكنى قاومت غيظى ، وسألته معاتبة :

— فيه إيه أكثر من الفضيحة ؟!

ومضت برهة وهو صامت ، لا يريد أن يجيبنى ، ثم تنهد وقال :

— على رأيك ... موش كفاية اللى عملته فيكى ..

وأطرق برأسه .. وكأنه يحمل فوقه حملاً ثقيلاً .. ثم ضحك فجأة وصاح :

— ماتعمليلى شاى احسن من الكلام ده ..

فأسرعت ألبى طلبه ، وقد سمعت أخيرا شيئا أستطيع أن أفهمه ..

ومنذ ذلك اليوم وشوقى يفاجئنى بين وقت وآخر بسخرية حادة من أصحابه ، وكان يتهم بعضهم أحيانا بالغباء ، فتشجعت وسألته لماذا لايكف عن مقابلتهم ، فحدق فى وجهى طويلاً ثم قال بلهجة غريبة :

— أمال عايزانى أعمل إيه ؟ ..

قلت له :

— يعنى موش أحسن نقعد مع بعض .. بدل ماتضيع وقتك معاهم ..

قال وهو يبتسم فى غير اكتراث :

— لما نشوف ..

فصحت فيه :

— انت خايف منهم .. قول لهم مايجوش .. وبيعوا المطبعة .. انا عايزه فلوسى ..

فتغير وجهه ، وبدا عليه الغضب وقال فى حدة :

— عايزاهم يبيعوا المطبعة كمان ؟ :

قلت فى دهشة :

— أمال ح تسيبها لهم ..

فقال بصوت حاسم :

— بلاش نتكلم فى الحكاية دى .

فلزمت الصمت ، فقد خفت أن يثور لو تماديت فى الكلام ..

وعاد شوقى عصر يوم ، ووجهه شاحب ، والخوف باد عليه ، وروى لى قصة أفزعتنى ..

اعترف لى أنه فى الشهور الأخيرة قد تخلى عن حذره ، فكان يثرثر أمام زملائه فى الجريدة ، ويدخل معهم فى مناقشات عن الشيوعية ، ويدعو لها صراحة ، وكان لا يطيق أن يسمع أحداً يمدح الحكومة أمامه ، إذ يثور عليه ويشتمه ويشتم رئيس الوزارة ، وإذا استفزه أحد شتم الملك .. وكان يعلم أن ما يفعله سيعرضه للخطر ، ولكن شيئاً أقوى منه كان يسيطر عليه ، ويجعل الدم يغلى فى عروقه ، فلا يستطيع كتمان رأيه ، وكان يفكر فى أصحابه الذين سبقوه إلى السجن فيتهم نفسه بأنه جبان ، ولا يجد مبرراً لحريته . وهو يؤمن بأفكارهم ، ويدعو إلى نفس دعوتهم .. لماذا هم محبوسون وهو حر طليق ، وهم أحسن منه ، وأكثر إيمانا منه . وكان يراجع نفسه أحيانا ، وينصحها بالعودة إلى حذرهم القديم .. ولكن هذا الشىء الذى لا يستطيع أن يكبت جماحه ، كان يثور فى داخله ، ويطلق لسانه بالكلام ..

حتى كان صباح اليوم ..

دعاه يوسف إلى مكتبه ، وقابله بابتسامته الطيبة الخجولة ، التي يعلم انه تخفى خبثه ومكره ، وقدم له يوسف سيجارة وجعل يحدثه فى كلام عادى ثم سأله فجأة ..

— انا سمعت إنك شيوعى ياشوقى .. الكلام ده صحيح ؟

وفوجىء بالسؤال ، وفكر أول الأمر أن ينكر ، ولكنه شعر من طريقة يوسف فى سؤاله أنه قد غدر به ، تظاهر بأنه يتودد له ويكسب اطمئنانه ، ثم وجه إليه السؤال كالطعنة الباغتة ..

وافلت زمامه ، انفجر فى داخله ذلك الصوت الجرىء يقول له : من يكون يوسف هذا حتى تخشاه فيضطرك إلى الكذب ، إلى متى تتهرب من حقيقتك ، إلى متى تعيش كالجبان ، وصاح متحدياً يوسف :

— أيوه انا شيوعى ..

وخفض يوسف عينيه فى خجل ، كأنه سمع شيئا يجرح حياءه ، ثم قال بصوت خفيض كالمعتذر .

— أرجوك ياشوقى ماتتكلمش فى السياسة هنا ..

وفقد شوقى أعصابه ، أثاره أدب يوسف ، ولهجته الرقيقة المعتذرة ، لماذا لا يواجهه بصراحة ، ويكشف عن تهديده . لماذا يغلف كلامه بكل هذه النعومة ..

وصاح فى انفعال :

— انا حر اتكلم زي ما انا عايز .. واقول اللى انا عايز اقوله ..

فقال يوسف بصوته الخفيض :

— لا .. ماتقدرش ..

فهتف شوقى :

— مااقدرش ليه .. لا أنت تهمنى ولا اللى اكبر منك ..

واضطر يوسف أن يخرج من أدبه الذى يتحصن به وقال محتدا :

— انا بانذرك .. لو اتكلمت تانى ح اطردك فى الحال ..

ودفع شوقى باب الحجرة بقدمه وخرج ، وما كاد يخطو بضع خطوات حتى شعر بالخوف ..

ادرك أنه قد تهور فى كلامه ، وحاول ان يتمسك ويتظاهر بالهدوء .. ولكن مخاوفه كانت تتزايد وتتضخم لحظة بعد أخرى . وعندما وصل إلى مكتبه كان خوفه قد تحول إلى ذعر .

وجلس يتلفت حوله ، ويكاد يقفز من مقعده عند سماعه لأى صوت ، وينتفض كلما دخل عليه أحد ، يتوقع أن يكون القادم يحمل معه خطاب فصله من العمل . أو مخبراً جاء ليلقى القبض عليه ..

ولم يستطع البقاء فى الحجرة ، كانت جدرانها تضيق عليه ، وهواءها يتلاشى ، وضوءها يتحول إلى اصفرار يفيض فى عينيه ، فقام يريد الخروج من الجريدة ، ولكن قدميه قادته إلى مكتب يوسف ، عاد إليه كالمذهول ، وطرق الباب ودخل ، ووقف أمام يوسف وهو لا يراه ، ولسانه يتحرك بكلمات مرتجفة تحمل الاعتذار والأسف على مابدر منه ، وانكر فى عنف وحدة انه شيوعى ، واقسم بشرفه انه يكره الشيوعيين ويسخر منهم ويتهمهم بالغباء .. وكان يتحدث بحرارة الواثق من رأيه ، البرىء من تهمة الشيوعية ..

وسأل يوسف عن الذى وشى به وابلغه انه شيوعى ، فرفض يوسف أن يقول له شيئا ، وقال له بجفاء إنه يصدقه ، ثم تشاغل عنه ، فاضطر إلى الانسحاب من الحجرة .

وسكت شوقى ، وجعل يضرب ركبتيه بقبضتى يده كأنه يريد أن يحطمهما ..

كان قد روى لى القصة وكأنه يهذى ، وعيناه تدوران فى قلق ، وصوته محموم ، ووجهه متجهم ، اختلطت ملامحه وتشوهت ، كأنه أحد الوجوه الغريبة التى يرسمها فى لوحاته ..

وتمتم يائساً :

— انا حكيت لك كل حاجة .. علشان تشوف قد إيه انا حقير .

وحبست دموعي ..

أهذا هو شوقي الذي أعرفه ! .. شوقي ذو العينين القويتين الذي قابلته عند باب الجريدة منذ سنوات ، وأنا ضائعة تائهة ، أحمل إبراهيم على ذراعي ولا أدرى إلى مَنْ ألجأ ، فانتشلني من تعاستي وحماني ، وكان أبا لإبراهيم ..

أهذا هو شوقي الذي أحبه .. ما الذي جرى له ، أي نوع من الأمراض قد أصابه ، أي قوى شريرة تريد أن تحطمه وتقضى عليه في اللحظة التي ظننت فيها أني قد فزت به .. فزت به وحدي ..

قلت له في انزعاج :

— وإيه اللي خلاك تعمل كده ؟

فأجابني بصوت جاف لا حياة فيه :

— ما أعرفش .. ما أعرفش ..

ثم أردف قائلاً :

— أنا خايف من يوسف ..

وضحك في مرارة واستأنف يقول :

— أيوه أنا خايف .. وبأقولها لكِ مخصوص علشان تحتقريني .. وتعرفي إني موش راجل ..

وضايقني كلامه ، شعرت أنه لو واصل الكلام على هذا النحو فسأحتقره فعلا ..

ودارت رأسي ..

كأني أسقط في بئر بلا قرار وكلما حاولت أن أتخلص من هذا السقوط . خطر لي أني لو تماسكت نفسي فسأواجه شيئا بشعا ، سأواجه احتقاري لشوقي .. احتقاري لنفسي ، إذ على الرغم من كل هذه المشاعر القاسية ، كنت مازلت أحبه ..

إنه دمي .. وعيني ، وخلجات عقلي ..

إنه .. أنا ..

قلت ، وكأن صوتي يخرج من جوف بئر ..

— اوعى تقول كده تاني .. أنت أحسن من يوسف ألف مرة ..

كنت استغيث ، لأنقذه .. لأنقذ نفسي ، لم يكن يعنيني أنه اعترف بأنه شيوعي ثم عاد وأنكر ، فهو نفسه أصبح لا يدرى إذا كان لا يزال شيوعيا أم لا ، إن حيرته أمام يوسف هي نفس حيرته أمامي وهي نفس حيرته مع نفسه ..

ولم أكن أتوقع أن يطرده يوسف من العمل ، أو يسلمه للبوليس كنت أشعر في قرارة نفسي ، إن يوسف لن تبلغ به القسوة إلى هذا الحد ..

كل ما كان يعنيني أنه انهار أمام يوسف ، تخاذل أمامه ، وهو رجلي ، وهو قوتي التي أعيش بها ، وأعتمد عليها في الصمود أمام ذكرى يوسف وتعاليه وترفعه عليَّ ..

لابد أن يقف على قدميه من جديد لابد أن يعود شوقي القديم ، بكل حماسه وثقته بنفسه وحيويته . أريده كما كان ، يأمرني فأطيع ، لا يبكي ويشكو أمامي .. وانتابتني رغبة جامحة في أن أتركه وأجري إلى الجريدة ، وأقتحم مكتب يوسف ، وأخلع حذائي ، وأنهال به فوق رأسه حتى يسيل دمه ، وأقول له بملء فمي إن شوقي سيده ، وإنه هو الحقير الذي ليس بعده حقارة ..

ورفعت صوتي في حقد :

— يوسف ده مين كمان علشان تخاف منه .. والله أروح له الجرنال وأوريه ..

فنظر إليَّ بعينين ثقيلتين ترزحان تحت جفنين ثقيلين ، ثم أحنى رأسه .. كأنه لم يعد قادرا على النظر إليَّ ..

وفكرت أن أقترب منه ، ولكني أحسست بنفور من لمسه ، كنت لا أريد أن ألمس ضعفه ، وتمنيت لو كان في مكان آخر بعيد عني حتى لا أراه في هذا الحال ، تمنيت ألا أرى شيئا على الإطلاق ، وأن تتحلل أفكاري وتضيع ، وأن تمر الأيام بسرعة ، فأرى شوقي وقد شفى من مرضه ..

ولكن الأيام مرت ثقيلة ، وكان شوقى يكثر من الغياب خارج البيت ، كأنه يتعمد الا يرانى ، ومع ذلك كان إذا جلس معى ، حدثنى فى حنان ، وقال لى كلاماً رقيقاً يدمى قلبى برقته ..

وبدأ شوقى يحدثنى عن أصدقاء جدد تعرف عليهم . وكان يروى لى عنهم قصصاً غريبة .

عاد ذات ليلة من سهرة قضاها معهم فى القلعة ، وكانت رائحة البيرة تفوح من فمه ، وهو نادراً مايشربها ، ولا يشتريها أبدا ، وكان إذا جاء بعض أصحابه فى الليل ومعهم زجاجتان أو ثلاث ، شرب معهم ، أما إذا طلبوا منه شراءها فيرفض فى حزم ، ويقول لهم إنه يفضل ادخار نقوده لشراء السجائر ، ولما شممت رائحة البيرة تنبعث منه ، ابتعدت عنه ، ورفضت أن يقبلنى ، فقال لى ساخرا :

— موش ناقص إلا انتِ كمان !

قلت له فى دهشة :

— قصدك إيه ؟ ..

فقال وهو يبتسم فى بلاهة :

— كانت ليلة نكد فى نكد ..

قلت له معاتبة .

— علشان شربت بيرة ..

فصاح :

— أبدا .. انتِ فاكرانى سكران .. انا ماحبش السكر زى ما انتِ عارفة ..

وروى لى أن السهرة كانت حزينة .. إذ شربوا البيرة بكثرة ، حتى سكر أغلبهم ، وكانوا يظنون أن الشراب سيهيء لهم جواً من المرح ، ولكن حدث العكس ، فبدأ كل واحد يشكو همومه .. الذى يتحدث عن فشله فى الرسم ، ويقسم أنه ليس فناناً ولا أمل له فى ان يكون فناناً يوما ما ، ويبكى ، والذى يصيح بأنه يتعذب لأنه لا يجد معنى لحياته ، ويقول إن

أفضل شيء ، هو أن يعانقوا بعضهم بعضا ويبكون على حالهم ثم ينتحرون ، والذى يهذى ويقول إنه يود لو يسير ويسير فى طريق طويل لا ينتهى ابدا ، دون ان يضطر إلى الإلتفات إلى الخلف ، أو الرجوع خطوة إلى الوراء ، لأنه يريد أن يبحث عن شيء جديد فى كل لحظة ، وينسى كل شيء قديم .. ينسى ماضيه إلى الأبد ولا يعود إليه ..

واستمع شوقى إليهم ، وهو اكثرهم إتزانا ، لإنه لم يفرط فى الشراب مثلهم ، وفجأة وجد نفسه يثور عليهم ويصرخ :

— هوه انتم ماتتكلموش فى أخطر المشاكل إلا وانتم سكرانين !

وقطع شوقى كلامه ، ونظر إلىّ ليرى إذا ماكنت أفهم مايقول ، وأدرك أنى لم أفهم ، فحاول أن يشرح لى ، وقد بدا عليه الاهتمام الشديد ، والإصرار على أن أفهمه .

واستأنف شارحا ، فحدثنى عن حياتهم ، وكيف أنهم ينسون فى الصباح مشاكلهم الحقيقية ، فيذهبون إلى أعمالهم ، ويتحركون كالآلات ، لا يفكرون فى شيء ، وربما ضحكوا أو أكلوا فى نهم ، أو ذهبوا إلى السينما إذا كانت معهم نقود ، أو تسكعوا فى الشوارع وهم يتبادلون فيما بينهم نصف سيجارة إذا كانوا مفلسين ، ويهرجون ، ويلقون النكت .. ويمضى النهار دون أن يفعلوا شيئا له قيمة ، فإذا جاء الليل شربوا وسكروا وتذكروا أخطر الأشياء ، تذكروا اللوحات التى لم يرسموها ، تذكروا الخداع الذى يغرقون فيه أنفسهم فى النهار ، وناقشوا حياتهم بلسان متلعثم ، ورأس يشكو الصداع ، وعقل شبه غائب ..

قلت له وقد خيل لى أنى قد فهمت :

— دول زى المجانين ..

قال فى انفعال ..

— كلهم مجانين ..

وسألت

— يعنى مافيش ناس غيرهم تعرفهم ..

فضحك في مرارة وقال :

— يعني صحابي اللي بييجوا هنا موش عاجبينك .. وصحابي دول .. كمان موش عاجبينك .. ماهو مافيش غير الأشكال دي .. عايزاني أعمل إيه ..

وتذكرت يوسف ..

وكدت أقول له : هناك أصدقاء من نوع آخر ، أصدقاء عقلاء ، ناجحون أقوياء ، مثل يوسف ، لماذا لا تنضم إليهم ، وتكون مثلهم ..

ولكنني خنقت السؤال في حلقي ، كان مجرد ذكر يوسف سيعذبه ويعذبني .. وحتى لو لم أذكر له يوسف ، وذكرت له النجاح ، فكأنى أدعوه إلى أن يتذكر يوسف ..

ثم حدث أن قال لي شوقي وهو يتثاءب متأهباً للنوم ، بعد سهرة طويلة قضيناها وحدنا في إحدى ليالي الصيف :

— على فكرة يامبروكة .. أنا عايز أقول لك حاجة ..

وكنت على وشك مغادرة حجرته ، عندما مضى يقول :

— مبروك على قريبك ..

وعرفت في الحال أنه يعني يوسف ، وكدت أتابع سيري هاربة مما قد يقوله .. ثم عدلت ، ووقفت أنظر إليه متسائلة .. فقال وهو يتثاءب مرة أخرى ، وكأنه لا يكترث بما يقول :

— بقى رئيس تحرير قد الدنيا .

قلت له والحقد يطغى علي :

— كده .. خليه يتهنا ..

وتثاءب مرة أخرى ، بطريقة مفتعلة ، وقال بصوت يفضح سخطه :

— يعني بيقبض متين وخمسين جنيه في الشهر ..

ولم أعد أطيق سماع المزيد ، فصحت فيه غاضبة :

— أنت موش ح تنام ؟ ..

وتثاءب من جديد ، وهمس ..

— تصبحي على خير ..

انفجر هذا النبأ في رأسي ، إذ لم يعد لي أمل في أن أصل إليه ، هاهو قد بلغ قمة الثراء ، النقود تجري بين يديه بلا حساب ، ربما كان اليوم أكثر ثراء من راتب بك .

ترى أهو سعيد الآن ؟ ..

لابد أنه سعيد ..

إنه سعيد كما أنا شقية .. غني كما أنا فقيرة ..

هذه النقود التي حصل عليها قد سرقها مني .. سرقها من إبراهيم أخوه .. لقد ضحى بنا ، لينطلق خفيفاً وراء الثروة ..

وفي لحظة ، نسيت حبي لشوقي ، ونسيت حبي لابني ، ونسيت كل ما في قلبي من حنان ، ورفعت يدين راعشتين إلى السماء ودعوت عليه بالخراب ..

هذا اللص .. الذي سرقني .

كنت يائسة من الصعود إليه فدعوت عليه ليتحطم ويسقط وأسحقه بقدمي ..

وكان يحز في نفسي أن شوقي يعمل عنده ، وهو رئيسه الذي يتحكم فيه ، كنت أحس أن شوقي لم يعد أكثر من خادم عنده ، كما كنت يوماً ما خادمة في بيت أبيه ..

وفكرت في أن أطلب من شوقي أن يترك العمل في الجريدة ، ويبحث له عن عمل آخر ..

وجاءت الفرصة ، عندما عاد ذات يوم ، وقال لي إنه تشاجر مع يوسف ، لأنه أعطى علاوة لجميع زملائه ، وحرمه وحده ، ولما دخل عليه يحتج ، طرده من مكتبه ، وقال له إنه شيوعي ، وإنه يعرض نفسه والجريدة للخطر إذ يتكتم عليه ..

قلت لشوقي غاضبة :

— سيب الشغل .. ودور على غيره ..

فنظر إلىّ شاكراً ، كأنه كان يريد أن يسمع هذا الرأى منى ، وقال :

ــ أنا ح أعمل كده ..

ثم هز رأسه بعنف ، وارتعشت شفته السفلى وقال :

ــ بس أنا خايف .. ليعمل حاجة فىّ ..

هتفت :

ــ يعمل إيه أكثر من اللى عمله .

قال بصوت شارد :

ــ يمكن يبلغ عنى ..

ثم ضحك وقال فى سخرية :

ــ موش تبقى غريبة .. فى الوقت اللى انا بأفكر حقيقى فى ان اسيب الشيوعية .. انحبس بتهمة إنى شيوعى ..

وبعد أيام ، قضينا ليلة ، كان شوقى فيها مرحاً على غير عادته يضحك من قلبه ، وقد عادت إلى عينيه تلك النظرة القوية النفاذة وبادلنى الحب فى تلك الليلة فى لهفة غريبة . وكنت سعيدة ، ونحن نجرى وراء بعضنا فى حجرته كالأطفال ، ونتصايح ، ونثرثر بكلام لا معنى له ، حتى أصابنا التعب فنمنا وقد تشابكت أذرعنا ، وتلاصق جسدانا واختلطت أنفاسنا وفجأة ..

فزعنا من نومنا على صوت دقات عنيفة على الباب ..

فرقتنا الدقات .. وكان فراقاً كالموت ..

إذ كان الطارقون رجال الشرطة ، اقتحموا البيت وفتشوه ، وأخذوا المطبعة والأوراق ، وقبضوا على شوقى ..

وتركونى ، جسداً أبله ، ومازالت تختلط بأنفى أنفاس شوقى ، وخيال جسده مازال يلتصق بجسدى ..

انتهى كل شىء .. انتهى عمرى فى لحظات ، شعرت أننى أمام قوى أكبر منى ، تستطيع أن تدهم حياتي كما دهمت الحجرة ، وتنتزع روحي كما انتزعت شوقى ، وتعبث بي في قسوة وعنف كما عبثت بكل شىء في البيت ..

شعرت أن حياتي أصبحت مستباحة ، كأرض الحارة تدوسها قوى غير مفهومة ، وتسيطر عليها وتستحقها ..

وكنت أقضى الليل ساهرة أفكر في مصيري ، فلا أفكر في غير الخوف ، فإذا ما جاء الفجر ، وارتفعت أصوات المؤذنين يتنافسون في دعوة النائمين إلى الصلاة .. تساءلت في دهشة ، أهم يدعونني أيضاً للصلاة أم أنها محرمة علىّ ، وأنى لست من البشر الذين من حقهم أن يصلوا ويدعوا فيجيب لهم الله الدعاء ؟

لماذا ياربي سددت كل الطرق في وجهي ، ماذا جنيت حتى انتهى في حياتي إلى لاشيء ، هل أذنبت لأنني خرجت من قريتي ، إنني لم أخرج منها بإرادتي ، لقد أرغموني على المجيء إلى المدينة وكنت أرتعد من الخوف ، أكاد أقضم التراب من الجوع ، ليس ذنبي أنني رأيت الحياة العريضة في المدينة ، ولقد عاشرت أناساً كثيرين يتمتعون فيها بالحياة ، فأردت أن أشاركهم ، وأعيش مثلهم أهذا هو ذنبي ..

ولكن ما فائدة كل هذا الآن . لقد وقعت الفأس على الرأس وقعت على رأسي أنا ..

وانتهى كل شيء ..

هل أستطيع أن أمضي بعد النهاية ؟ هل أستطيع أن أحيا بعد أن مت ؟ هل أستطيع أن أواجه الغد بعد أن أصبحت بلا غد ؟!

شوقي .. حبيبي شوقي .. ماذا صنعت بي ، إني بلا نقود ، لقد أخذت مني كل شيء ، ولو كنت قد طلبت مني حياتي لقدمتها لك ، ولكن النقود التي أخذتها كانت أغلى من حياتي ، إنها حياة ابني إبراهيم ..

لماذا لم تفكر في كل هذا يا حبيبي . ؟

أبلغ بك الجنون أن تظن أنك قادر على إسعاد كل البشر .. انظر ماذا حدث ، إنك لست قادراً حتى على إسعادي أنا .. إن ما فعلته قد قضى على ابني ..

لا تغضب يا شوقي من أفكاري .. فأنا مجنونة مثلك ، أنا لست نادمة على ما فعلت ، ولو رجعت الأيام ، وعدت تطلب مني النقود ، لأعطيتها لك ، حتى

وانا اعلم مصيرها ومصيري .. فأنا احبك يا شوقي .. احبك بجنونك واحلامك ، وقوتك وضعفك .. أحب رعشة شفتك السفلى ..

انت وأنا .. كنا نعيش من أجل حلم ، من أجل كلمات تهمس بها رغبة خفية في صدرينا .. هيه .. كنا نحلم بحياة جميلة .. وكنت طموحة في حلمي ، فكنت افكر في الايام الحلوة التي سنعيشها معا .. وانت ، كان طموحك اكبر ، فكنت تفكر في تلك الأحلام الغريبة التي لا افهمها ، فتحدثني عن الأيام التي سيعيش فيها الناس جميعاً ..

وها هى نتيجة طموحك وطموحي ..

أيرضيك هذا ؟ .

ماذا أصنع الآن ؟

انتهى كل شيء ..

بالأمس ، ذهبت مع الأسطى طه لنسأل عنك في قسم الشرطة ، فنظروا إلينا في ريبة ، وسألوا طه عن اسمه وعنوانه ، وفي لحظة خيل إليّ انهم سيقبضون علينا ، فجرينا هاربين من القسم تطاردنا نظراتهم وأسئلتهم وشكوكهم القاتلة ..

وعدت لأجلس مع أم حنفي ، فقالت لي بصوتها الضعيف المتكسر : إن أملنا الوحيد هو في الله .. في ربنا الموجود ..

وتذكرتك يا شوقي ، يوم قلت لك نفس الكلمة .. ربنا موجود ، فارتعش جسمك ، وصرخت بوجه أصفر : إذا كان موجود ليه ما بيوكلش الشحاتين اللي ماليين الشوارع ..

لقد خفت يومها .. وقلت لك : بلاش تكفر ..

ليتك كنت استمعت لي ، ولو من أجلي .. إن الله غاضب منك .. ومني .. ولقد انتقم من كلماتك ..

اتريد مني أن اكفر بالله مثلك .. لا .. أنا اضعف من هذا ، انا في حاجة إلى رضاه لا غضبه .. هو اليوم ملاذي الوحيد ..

لو رضيت رحمته ..

كنت تظن نفسك قوياً تستطيع ان تواجه كل القوى ، فخدعت نفسك ..

ربما كنت تظن أنك أقوى من يوسف ..

ولكن يوسف وحده ، هو الذي يعلم سر القوة والنجاح في هذه الدنيا ..

أتدري يا شوقي ، ماذا اريد ان افعل .. أريد أن أذهب للقاء يوسف .. أريد ان ارى هذا الرب الصغير الذي ارتفع وارتفع .. فقلبي يحدثني انه وحده الذي يستطيع ان يعيدك إليّ ..

لا اشك في انه قادر على إعادتك إليّ ..

وذهبت إلى يوسف ..

ذهبت إليه أحمل حقدي ، وذلي ، وحاجتي ، وحنيني أقاومه ، والخجل منه ، حنين إلى رؤية وجهه ، والكلام معه ..

وصلت إلى بناء الجريدة ، إنه نفس البناء ، لم يتغير فيه شيء ، رغم كل هذه السنوات التي انقضت حتى البواب لازال كما هو ، ولما رآني لم يعرفني ، أما انا فكنت أذكره ، كأني رأيته بالأمس .. إنه سبب لقائنا ..

وصاح في :

ــ رايحة فين يا ست ؟

قلت له :

ــ انا جاية أشوف الأستاذ يوسف ..

فارتفع صوته :

ــ عايزاه ليه ؟ ..

قلت له :

ــ انا قريبته ..

فحدق فيّ طويلاً ، ثم لمعت عيناه .. لقد تذكرني .. ولكنه كان قد نسى الظروف التي رآني فيها .. نسى أنه طردني ، وبدا عليه الارتباك ، وطلب مني أن اصعد إلى الموظف الجالس على المكتب في البهو الخارجي ..

وما كاد الموظف يسمع اسم يوسف حتى بدا عليه اهتمام شديد وتكلم في التليفون مع امرأة قال لها :

— يا مدموازيل بثينة .. فيه واحدة اسمها مبروكة بتقول إن يوسف بيه يعرفها .. وح يقابلها ..

ومضت برهة والرجل يلصق سماعة التليفون بأذنه ، ووجهه متوتر كأنه ينتظر كلمة مقدسة .. ينتظر الوحي الذي سيهبط من فوق .. من عند الرب ..

وانتفض الموظف ، وضاقت عيناه ، ثم وضع السماعة ، ونظر إليّ في غيظ .. كأنه يريد أن يحاسبني على الانفعالات التى سببتها له ، وقال في حدة :

— الأستاذ يوسف ما يقدرش يقابلك ..

لم أثر ، ولم أحاول أن أقول شيئاً .. كنت أشعر بضعف شديد فخرجت بذلي ، وعدت إلى البيت .

وسألني الأسطى طه ، فرويت له ما حدث .. فقال محتجاً :

— لازم تشوفيه ..

قلت له :

— أعمل إيه ..

فصاح :

— هوه موش إبراهيم أخوه .. ابعتيه له .. وخليه يتصرف فيه .

قلت يائسة :

— موش ح يدخلوه ..

ففكر قليلاً ثم قال :

— خليه يستناه وهو خارج من الباب ..

وجاءني الأسطى طه بورقة صغيرة .. وقرأها عليّ ..

سيدي المحترم سعادة يوسف بك أدام الله عزه آمين ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

وأما بعد ... مقدمه إبراهيم عبد الحميد السويفي ابن المرحوم والدكم وشقيقكم المخلص الوفي الأمين ، الذي يسأل عنكم ويدعو الله لكم بدوام العز والبركة ، ويطلب عطفكم وكرمكم ورعايتكم ، ويبلغكم إنه فقير ومحروم ويتيم

وليس عنده طعام ، وأنتم أقرب الناس إليه ، والشرع والدين والقرآن الكريم أمروا بإعطاء ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأنا ياسيدي استحلفك الله أن تساعدني وأن تعطيني مما أعطاكم الله ، فأنتم من أهل الجود والكرم ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

أخوكم وخادمكم الأمين

إبراهيم عبد الحميد السويفي

دمعت عيناي ، وأخذت الورقة في لهفة ، ودسستها في صدري ، وقال لي الأسطى طه :

— إذا ما ساعدكوش بعد كده .. ترفعي عليه قضية نفقة .. أنا سألت الشيخ متولي اللي كتب الجواب ..

وفي الصباح ذهبت مع إبراهيم إلى الجريدة ، ووقفنا عند ناصية الشارع ننتظر ، ونرقب الداخلين والخارجين ، حتى حل بي التعب فجلست على الرصيف ، وأجلست إبراهيم بجانبي فانكمش يستمع إليّ في رهبة ، وأنا أكرر عليه ما يجب أن يفعله ..

قلت له ألا يخاف ، وأنه سيقابل أخاه ، وسيعطيه الورقة ، وكان ينصت إليّ فيزداد انكماشاً ووجوماً ، ويلتصق بي يريد أن يحتمي بي من مخاوفه .

ورأيت يوسف ..

كان يهبط السلم ، في حركة نشيطة سريعة ، ووجهه متألق ، واثنان يهبطان وراءه ، وقبضت على ذراع إبراهيم وقلت له في لهفة :

— أهه .. خد الورقة وروح له .

وتردد إبراهيم ..

فزعقت فيه ، ودفعته بيدي فجرى مذعوراً ..

وكان يوسف قد وصل إلى أسفل السلم ، والبواب يقف منتفضاً رافعاً يده بالتحية .. وأقبلت سيارة بيضاء كبيرة ، أطلقت نفيرها فجأة وقد كاد إبراهيم أن يرتطم بها ..

وتحولت الانظار إلى إبراهيم وهو يتفادى السيارة ، وقد رفع يده الممسكة بالورقة ، متجهاً نحو يوسف ..

وكنت واقفة في مكاني البعيد ، انظر في عناء إلى ما يحدث ، كأني في خيال ، كأني لا أرى ما أراه .. كل شيء حولي غير حقيقي ، وكان في قلبي صمت غريب ، ورأسي يطن بالفراغ لا معنى ولا خاطر ولا أي شيء ..

ورأيت يوسف ينظر إلى أخيه نظرة طويلة ، ورجلان يتقدمان ويلوحان بأيديهم في وجه إبراهيم يريدان طرده ..

وأردت أن أتحرك ، وأدافع عن ابني .. ولكني عجزت عن الحركة .. كنت مشلولة ..

ورأيت يوسف يمد يده ويمسك بالورقة ..

وكأن يده لمستني أنا فانتفضت ، وأفقت من الخيال ، واندفعت أعبر الطريق نحو يوسف ، ومع كل خطوة اقترب فيها منه ، يتساقط حقدي ، وتتباعد ذكرياتي الأليمة ، وأحزاني .. حتى وصلت إليه وليس في قلبي سوى الحنان واللهفة إلى أن أراه ويراني وأحدثه ويحدثني .. وابتسم له فيبتسم لي ..

وصحت وابتسامة فرح تشرق من قلبي :

— ازيك ياسي يوسف ..

فرفع عينيه عن الورقة .. ورآني ..

وابتسم ..

نفس الابتسامة الخجولة المعتذرة .. وجهه لازال طيباً حنوناً ، فيه حزن وأسى ..

وهتف في حرارة ..

— إزيك يا مبروكة ..

ووضع الورقة في جيبه ، وصافحني وفي لحظة خاطفة ، تذكرت أمي يوم نصحتني بأن أقبل يد ستي الكبيرة ، فانحنيت على يده أقبلها ، فاختطف يده من شفتي ، ومدها ليتحسس بها رأس إبراهيم ، ويعبث بأصابعه في

شعره ..

وقلت له والأمل يتفتح في قلبي .. والدنيا تتسع .. والأرض تتحول إلى سماء عريضة نقف عليها ..

— شفت كبر إزاى ..

قال والابتسامة تمرح في عينيه وتعانق ابتسامتي :

— ما شاء الله .. بأه راجل أهه ..

قلت في حرارة ..

— البركة فيك ..

قلتها ، وكأنه هو الذي رباه ورعاه وأنفق عليه طوال السنوات الماضية ..

فنظر إليّ وهو يتراجع بقدميه إلى الوراء .. واختفت الابتسامة من وجهه ، وقال بصوت خفيض :

— ان شاء الله .

قلت في لهفة .. وأنا أتقدم منه ، وعيناي تبحثان عن ابتسامته التي اختفت :

— ح تعمل فيه إيه ..

فتلفت حوله ، ثم وضع يده في جيبه وأخرج جنيهاً ..

صحت في فزع ، وكأنه خرج من جيبه ثعباناً ..

— أنا موش عايزة فلوس ..

فقال في دهشة :

— أمال عايزة إيه ..

قلت بلا وعي :

— ح تديني الجنيه وتسيبني

فتجاهل كلماتي ، وانحنى على إبراهيم ، وأعطاه الجنيه ..

نظرت حولي يائسة ، أريد أن استغيث ، فواجهتني عيون بلهاء ..

وسمعت يوسف يقول :

— أنا مستعجل دلوقت ..

فصرخـــت :

ـ رايــح فين ..

فتقدم أحد الرجال ووقف بيني وبين يوسف وقال مهدداً :

ـ ما تبقيش طماعة .. البيه اعطاكي جنيه .. احمدي ربنا ..

وكان يوسف قد دخل سيارته ، فدفعت الرجل ، وهجمت على السيارة أصرخ ..

ـ رايح فين .. ح تسيبني أعمل إيه ياسي يوسف .. أنا وليه غلبانة ..

فلم يلتفت إليّ ، وتحركت السيارة ، بينما تلقفتني أيد امتدت من الخلف ، لتمنعني من السقوط .

منذ تلك اللحظة ، فقدت كل مشاعر الحب والحنان ، سيطر الحقد عليّ ، ومرضت به ، فلوث حياتي كلها ..

فطمني الحقد من حياتي السابقة ، فطمني من ذكرياتي الحزينة ، ومن طفولتي ، وامي ، وستي الكبيرة ..

فطمني من حبي لشوقي ..

منذ تلك اللحظة ، علمت أن مبروكة قد ماتت ..

ألم أقل لكم إني مت وأنا حية . الآن فقط أدركت هذا ..

●●

وعشت حياة أخرى ..

صدقوني .. إن مبروكة التي تعيش اليوم ، مخلوقة أخرى ، ليس لها قلب ، كل ما تملكه هو الحقد .

مبروكة اليوم امرأة بلا احزان ولا افراح .. إنها عقل بارد في جسد من خشب .. عقل بلا عقل ..

نعم .. هذا هو أنا اليوم .

اتحرك وأروح وأجيء وراء لقمة ، بلا انفعال ، بلا أمل ، بلا غضب ، بلا أحلام .. كل الأحلام التي عرفتها وعشت بها قد ضاعت .. كل الأصوات التي كانت تهمس في داخلي قد خمدت ..

لم يبق لي سوى الحقد على يوسف والطعام .. الطعام .. الطعام ..

هذا هو كل ما أفكر فيه في النهار ابحث عن الطعام وآكله أنا وابني ..

وفي الليل يبحث الحقد عني .. ويأكلني ..

اين أجد الطعام ، أين أراه وأشمه ، أين أمد يدي إليه لأسد به فم إبراهيم ..

أحياناً أتذكر في برود ، أمي عندما كانت تلطمني على وجهي إذا سألتها عن الطعام ، وكنت أخشاها فأدع الجوع يقرصني ولا أشكو .

وأبات الليل بلا طعام . إني لا أريد أن يفعل إبراهيم مثلما كنت أفعل .. لا أريد أن الطمه على وجهه إذا شكا الجوع .. لا أريد أن يخشاني فيقرصه الجوع ويسكت ويبيت ليلة بلا طعام .

ومع ذلك ، تدور كل هذه الخواطر في رأسي ، وكأنها لا تعنيني ، كأنها خواطر امرأة أخرى غيري ..

ودفعني بحثي عن الطعام إلى بيت راتب بك .

دخلت عليهم ، وكأني لا أعرفهم ، كأنهم غرباء ، مجرد أناس .. أجد عندهم الطعام .

حتى البيت بحجراته وأثاثه وسلمه ، لم يثر في نفسي أي شعور ، إنه ليس اكثر من مكان يفوح منه رائحة الطعام ..

وقابلتني ستي الصغيرة متجهمة الوجه ، فلم اكترث ، وبكيت أمامها بلا دموع .. تصنعت البكاء ، وشكوت لها يوسف ..

وادهشني أنها اهتمت فجأة بكلامي ، ونادت راتب بك ، فجاء يمشي على مهل ، وقد تقوس ظهره ، وتكرمش وجهه ، ويده ترتعش رعشة متصلة ، وطلبت مني ستي الصغيرة ، أن أعيد ما رويته لها عن يوسف .. واستمع إليّ راتب بك ، وعلى شفتيه ابتسامة واهنة ، وفي عينيه لمعة فرح بما يسمع ، ولما فرغت من حكايتي ، اشترك مع ستي الصغيرة في شتم يوسف ..

ونظرت إليّ ستي الصغيرة في عطف ، وقالت لي إنها ستكلفني بالغسيل ..

وقال راتب بك بصوت جاهد في أن يرفعه :

— احنا يا بنتي مش قللات أصل زي غيرنا .

وأحسست أنهما يشاركاني حقدي على يوسف .. لكنني لم أفرح بهذه المشاركة .. إذ كان لا يعنيني من أمرهما شيء سوى أن أحصل على الطعام .

وتعودت أن أتردد على بيت راتب بك مرة كل أسبوع ، فأغسل وأكنس وأنظف ، حتى يهدني التعب ، فأجرى إلى المطبخ وآكل .. وآكل ، وأحمل معي صرة مليئة بالطعام لإبراهيم ..

وكان إسماعيل ينظر إليّ في دهشة أول الأمر ، ويحاول أن يعاملني برقة . وكانت تضايقني معاملته ، فأنفر منه ، ولكنه يئس بعد قليل ، فتجاهلني ، وأراحني ..

وبحثت عن بيوت أخرى ، فذهبت إلى بيت ستي سعاد ، وكانت حاجتها إليّ أكبر ، وقد أصبح لديها طفلتان ..

واهتمت هي أيضاً بسماع قصتي مع يوسف ، وكانت أمها قد روتها لها قبل أن أذهب إليها ، ولكنها طلبت مني أن أرويها لها من جديد ، وضحكت عندما سمعتني أروى مقابلتي الأخيرة ليوسف أمام باب الجريدة .. وقالت لي والفرحة تملأ وجهها :

— ده أنتِ فضحتيه يا مبروكة .

وقال لي عقلي إنها تشتمني ، وإنني يجب أن أقول لها إنني زوجة أبيه ، وأن إبراهيم أخوه .. ولكني لم أشعر بأية رغبة في الكلام ، واكتفيت بأن همست متظاهرة بالأسى ..

— أهه اللى حصل ياستي ..

وأظهرت لي تأثرها بحالي ، فكنت أتعمد أن أحكي لها عن همومي . أحكي لها بصوت ضعيف متحسر مقلدة أم حنفي .. وأفرح كلما بدا عليها الاشفاق ، وأتظاهر بأني على وشك البكاء ..

وكانت تسألني بين وقت وآخر :

— هيه .. ماروحتيش ليوسف تاني ؟ ..

وتضحك ..

وكنت أشعر أنها تريد مني أن أذهب إليه ، وأن أتحمل مزيداً من إهاناته ، لأعود وأرويها لها .

وقلت لها صادقة :

— لو يرضى اغسل له هدومه .. أروح له ..

فضحكت قائلة :

— طيب ما تجربي ..

قلت في حسرة :

— مايرضاش ياستي ..

فكفت عن الضحك ، وبدا عليها الضيق ، كأني أحرمها من قصة مسلية ..

نسيت تماماً .. وأنا أتردد على سعاد ، تلك المقارنات الحمقاء التي كنت أعقدها بيني وبينها ، لم تعد هي سعاد ، كما لم أعد أنا مبروكة .. إنها مجرد امرأة غريبة أستطيع أن أخدعها بكلماتي ، وأثير شفقتها ، لأحصل منها على النقود والطعام .

وأرسلتني سعاد إلى بيت مدحت وكان قد تزوج من امرأة شمطاء أكبر منه ، قابلتني مقابلة جافة سريعة ، ثم تركتني أمام أكوام الغسيل .

ومضت شهور دون أن أرى مدحت ، ولكني كنت أغسل ملابسه ، وأعجب لقذارتها الشديدة ، والثقوب التي أجدها أحياناً في ملابسه الداخلية .. إلى أن قابلته عصر يوم وأنا خارجة من باب العمارة ، وكاد يمر بي دون أن يعرفني ، ولم أحاول أن أخاطبه ، ولكنه لاحظ التفاتي نحوه ، فحدق في وجهي .. وعرفني ..

وهتف في دهشة :

— مبروكة ... أنتِ بتعملي إيه هنا ...

قلت له ، وقد كسوت وجهي بقناع التعاسة ..

.. كنت فوق عندكم يا سيدي .. ماهو أنا الغسالة بتاعتكم ..

فصاح في انفعال :

— إزاى أنا ما أعرفش ..

كان وجهه مجهداً ، وتحت عينيه حفرتان زرقاوان ، ونظراته حادة قلقة ، ولكن ابتسامته كانت حلوة ..

وقلت لنفسي ، لو أرادني الآن لما قاومته ، ولأخذت منه نقوداً أكثر مما أكسبه من الغسيل .

ورسمت على وجهي ابتسامة وغرست عيني في عينيه ..

ولكنه لم يفهمني ..

وصاح كأنه تذكر شيئاً مفاجئاً :

— وإيه أخبار يوسف ...

قلت له : وأنا لازلت ابتسم ، إذ كان لا يعنيني سؤاله ..

— ما بأشوفوش ..

فمضى يقول محتجاً :

— لكن ما يصحش يسيبك تشتغلي ..

قلت وأنا أتوسل إليه بعيني أن يفهم دعوتي..

- أهو موش سائل عني ..

فقال محتداً :

— لا .. أنا لازم أكلمه ..

وتركني ثائراً على يوسف .. وحاولت أن أراه مرة أخرى ، فلم أفلح ، إذ كان نادراً ما يعود إلى البيت ..

وأيقنت أنه نسيني ..

ومضت الأيام ، وكنت عائدة عصر يوم من بيت ستي ، وفي يدي صرة الأكل ، وإذا بي أفاجأ بالمدينة تحترق .. النار تشتعل في الدكاكين ، والدخان يملأ الشوارع ، وناس تجري نحو النار ، وناس تجرى من النار ، والزجاج يملأ الأرض تحت قدمي ، وصرخات بعيدة تقترب ، وصبية يحملون أقمشة ويطاردون بعضهم بعضاً وسط الطريق .

كان الخراب في كل مكان .. والسماء سوداء ، والريح الباردة تلهب وجهي ، خيل إليَّ أن الدنيا قد جنت ، ورأيت أمامي دكاناً كبيراً يندفع إليه

بعض الصبية ، وينقلت من بينهم رجال يحملون أقمشة من كل صنف ، فاندفعت إلى داخل الدكان كالمسعورة ، أخطف كل ما أراه .. أخطف بعيني وبيدي وبجسمي وبأنفاسي .. ارتطم بالناس .. وأتلقى ضرباتهم ولا أحس بها ، لا أدري إذا ما كنت أصرخ .. أو أشتم ، أو أهلل فرحاً ..

وحملت بين يدي كل ما أستطيع حمله ، والقيت بصرة الأكل وجريت إلى الشارع هاربة في طريق بيتي ..

كنت أسير لاهثة في شارع محمد علي ، وأنا لا أصدق ما رأيته ، لا أدري هل أنا في حلم أم في حقيقة ..

وفجأة .. سمعت صوتاً يهتف باسمي .. صوتاً جريئاً حاراً .. فيه لهفة .. لم التفت إلى مصدر الصوت ، وجريت ، ولكن الصوت طاردني ، حتى رأيت رجلاً يلحق بي ويعترض طريقي .. كان يلبس جلابية ومعطفاً وحول رقبته كوفية .. وشعره الأكرت منقوش فوق رأسه ..

كدت ألقى بحملي على الأرض .. وقد تملكني الذعر ..

ولكنه كان يبتسم .. ويردد اسمي في حرارة ولهفة ..

من يكون هذا الرجل ...

وقبل أن أدير له ظهري وأجرى سمعته يقول :

— إزيك يابت .. أنتِ فين .. والله وحشتيني ..

هذا الوجه أعرفه ..

نعم عوض ..

وهتف ضاحكاً :

— إيه .. أنتِ موش عارفاني ..

كانت المفاجأة قد ألجمت لساني ، فقلت بصعوبة :

— يوه .. إزيك يا عوض ..

وقطعت بقية كلامي ..

تذكرت أنه كان في السجن ..

وصاح عوض في مرح :

— عاملة إيه يابت .. أنتِ سيبتي بيت الجيزة ..

وتذكرت شوقي ..

شوقي دخل السجن .. وعوض خرج منه .. ما الذي يحدث في هذه الدنيا ..

وكرر عوض سؤاله :

— ما تقول لي .. أنتِ لسه في بيت الجيزة ..

قلت بلا تفكير :

— لسه بروح لهم ..

وصوب عينيه إلى ما أحمله في يدي وابتسم قائلاً في مرح :

— والله شاطرة .. عرفتي تاخدي نصيبك في الزيطة دي ..

ثم بدت عليه دهشة مفاجأة .. وسألني :

— يعني إيه بتروحي لهم .. هوه أنتِ عايشة بعيد عنهم ..

قلـت :

— آه .. أنا عايشة في بوابة المتولي مع ابني ..

فهتـف :

— واتجوزتي كمـان ..

واستمع إليّ طوال الطريق ، وأنا أروى له عن زواجي من مدرس اسمه عبد الحميد أفندى السويفي ، وكيف مات وترك لي ابني الذى أعوله ولم أذكر له يوسف ، رغم أن اسمه كان على طرف لساني ، أكاد أنطق به مع كل كلمة أقولها ..

ولم يصدقني ..

ضحك وهو يحدق فيّ بعينين ماكرتين وقال :

— شوفيلك غيرها .. الواد جبتيه منين ..

قلت له في هدوء غريب ، وكأني لا أصدق معه ما أقول :

— والله اتجوزت ..

فنظر إليّ في خبث وقال :

— مصدقك .. مصدقك .. اتجوزتي مدرس .. وبعدين اشتغلتي غسالة .. كويسة قوى .. تعجبيني ..

وصوب إلى صدري نظرة نهمة .. وقال :

— اهو أنا مزاجي أشتغل مع واحدة زيك ..

كنا قد وصلنا إلى ميدان باب الخلق فوقف ، وأشار إلى ما أحمله وقال :

— أنتِ موش محتاجة تخطفي الحاجة .. أنا عايزك تحطي مخك في راسك وتسمعيني كويس ..

وحدثني عن النقود الكثيرة التي سيمطرني بها ، والبيت الجميل المفروش الذي سأسكن فيه ، والحياة المرحة التي ساعيشها .

كان يحدثني بصوت حلو .. ذكرني به ، وهو يردد الاغاني في الدكان منذ سنوات .. واستمعت إليه في استسلام ، وعقلي يقول لى :

— أنتِ متعبة يا مبروكة .. إلى متى تجهدين نفسك في الغسيل .. إلى متى ترددين على بيوت راتب بك وسعاد ومدحت .. كل هذه البيوت قبور .. تذكرك بمبروكة التي ماتت .. اسمعي كلام عوض اتبعيه .. استريحي يا مبروكة من مبروكة ..

وهنا سكتت مبروكة عن الكلام ..

وبذلك انتهى القسم الأول من الرجل الذي فقد ظله ...



القسم الثانى ترويه :
سامية



الفصـــل الأول

أنا سامية .

سامية سامي ، الممثلة فى السينما ، أعترف أنى مازلت غير مشهورة ، لأن كل الادوار التى ظهرت فيها حتى الآن كانت صغيرة ، ولكنى طموحة ، وعندى المواهب التى تجعل منى ممثلة كبيرة مشهورة مثل فاتن حمامة وأحسن منها .

وعندى اكثر من المواهب .. عندى الجمال .

قوامى يشبه قوام اليزابث تايلور ، ممشوق وملفوف ، وطرى كأنه خال من العظام ، وعيناى أجمل من عينى اليزابث تايلور ، ناعستان عميقتـان ، سوداوان ، مليئتان بالأسرار ، كل من ينظر إليهما تدور رأسه ، أما شفتاى فقد رسمهما الله فى ساعة رضاء .. ماذا أقول .. إنى جميلة .. كل شىء فى جميل .. شعرى ، يداى ، ساقاى ، مشيتى ، صوتى ..

كل شىء فى جميل إلى حد الهوس ..

سمعت البعض يقولون عنى إنى قصيرة .. ولكن الذين يقولون هذا الكلام لا يضايقوننى ، لأنهم لا يفهمون السينما .. إنهم لا يعلمون أن السينما تضخم كل شىء على الشاشة ، ومن حسن حظى أنى قصيرة ومنمنمة ، لأنى أبدو على الشاشة فى طول مناسب ، أما لو كنت طويلة فى الطبيعة لظهرت على الشاشة فى طول الزرافة .

أنا لست مغرورة ، كما أني لست سعيدة بجمالي ، تنتابني أحيانا لحظات يأس ، فأكاد أكفر بنعمة الله ، وبالجمال الذي وهبه إياي ، وأتمنى لو كنت قبيحة دميمة .

كنت أظن لسذاجتي ، أن جمالي سيساعدني ، وسيشق لي طريقي في دنيا السينما ، فأصعد إلى سمائها وأسطع كنجمة لامعة ، ولكن جمالي كان هو العقبة التي سدت الطريق في وجهي ، إن دنيا السينما غابة مليئة بالذئاب .. كلهم ذئاب .. المنتجون والموزعون والمخرجون والممثلون والمصورون .. كلهم .. كلهم .. ذئاب ..

إنهم لا يلتفتون أبدا إلى مواهبي ، إنهم يطمعون في جمالي ، يتنافسون عليه ، يتآمرون عليه ، وأكون أنا الضحية دائما .

حتى الصحفيون الذين يحومون حولنا في الأستديوهات ، يلتقطون أخبارنا لينشروها .. هم أيضا ذئاب ..

لقد ضاعت مني فرصة العمر ، بسبب واحد من هؤلاء الصحفيين ، إنه رئيس تحرير الآن ، صحفي مهم مشهور ، كل الناس تعرفه وتتحدث عنه ، ولكنهم لا يعرفونه على حقيقته .. أنا وحدي التي تعرفه .. أنا وحدي التي تستطيع أن تقول من هو يوسف عبد الحميد ..

كم كنت غبية إذ صدقته يوما ما ، وظننت أنه سيقف إلى جانبي ، ويصعد معي سلم المجد ، درجة درجة ، نحن الاثنان معا ، حتى أصبح أنا أشهر ممثلة ، ويصبح هو أشهر كاتب صحفي .

من أجله تركت فرصة العمر ، ورفضت دور البطولة ، أما هو فما كادت تبرق أمامه الفرصة حتى رفسني بقدمه ، وتركني أتدحرج وانحدر أسفل السلم ، ومضى وهو يرتفع .. ويرتفع .. وحده .

لا أريد أن أخدع نفسي .. أقول إني أكرهه وأحقد عليه ..

أنا مازلت أحبه ..

نعم أحبه .. ولكني أكرهه أيضا وأحقد عليه ..

لو تخلصت من يوسف .. لو تخلصت من ذكراه .. لو مر بي يوم واحد

دون أن تطوف صورته بخيالي .. لو حدث هذا لاسترحت .. ولتخلصت من ضعفي ، ومضيت في طريقي أبني حياتي من جديد ولكني لا أستطيع .

شبحه يطاردني .. ذكراه تطاردني .. اسمه في كل مكان يطاردني .. مجده وشهرته ونجمه الساطع يطاردونني .. إنه هناك ، فوق ، في أعلا السلم .. وأنا هنا ، تحت ، في أسفل السلم .. إذا رفعت عيني لأرى إلى أين وصل ؟ أحسست بالدوار ، ويطول المشوار ، فسيستولي علىّ الخوف ، وأخشى أن أحاول الصعود إليه ، فيرفسني مرة أخرى ، فأسقط وأتحطم ..

كيف وصلت إلى هذا الحال ؟ ما الخطأ الذي ارتكبته ؟ ما الذنب الذي جنيته ؟ ما السر في أن رجلاً كيوسف كان يرتمي عند قدمي ، ويقول لي إنه يحبني ، وأني دنياه ، وأني حياته .. ثم يدوسني فجأة ليصعد فوقي ؟..

هذا هو ما أريد أن أعرفه .. لابد أن أعرف حتى لا أفقد عقلي وأجن ..

إني أسترجع كل لحظة قضيتها مع يوسف ، أسترجع كل كلمة قالها لي ، وكل كلمة قلتها له .. كل حركة بدرت منه ، وكل حركة بدرت مني ، وأفتش وأنقب ، في رأسي ، وفي قلبي ، وفي عواطفي ، وفي أفكاري .. لأعرف ، ولأضع أصبعي على السر ..

كان ذلك منذ سنوات بعيدة ، عندما قابلت يوسف لأول مرة ، كنت وقتها في الثامنة عشرة من عمري ، مرحة ، مجنونة ، الدنيا كلها تحت قدمي ، وكنت في ذلك اليوم قد دخلت استديو مصر لأول مرة في حياتي ، ووقفت وسط مجموعة من البنات تحت أضواء باهرة ، وكنا نرتدي فساتين السهرة ، وفي يدي مبسم في طرفه سيجارة ، كان قلبي يدق ، وعدسات التصوير مصوبة إلينا كأنها عيون عملاق رهيب ، وكنت لا أخشى هذا العملاق ، بل واثقة من أنه سيفتن بجمالي ، وحدث فعلا ما كنت أتوقعه إذ صرخ المخرج فجأة ، فتوقف التصوير ، وصدرت الأوامر ، فانصرفت البنات من حولي ، ووقفت وحدي أمام الأضواء والعدسات ، تلتقط لي صورتي ، وأنا أرفع المبسم إلى فمي ، وأنفث دخان السيجارة ..

وبعد انتهاء تصوير المشهد ، أحاطتني مئات العيون ، عيون تلتهمني ،

وعيون تحسدني ، وعيون تغار مني ، واقترب مني المخرج الاستاذ حلمي كامل وقرصني من خدي وقال لي :

- برافو يابهية .. انتِ لكي مستقبل عظيم ..

فصعد الدم إلى رأسي ، وعجزت عن الكلام ، فمد يده إلى ذقني وامسك به ، وجعل يتفرس في وجهي ثم قال :

- تستنيني لما اخلص .. واروحك معايا ..

قلت له في ارتباك :

متشكرة .. انا رايحة عند واحدة صاحبتي ..

فضحك قائلا :

بذمتك أنت رايحة عند واحدة صاحبتك .. والا حاجة تانية ..

قلت له في براءة وأنا اكذب طبعا :

- والله العظيم انا رايحة عند سناء ..

فمط شفتيه وقال متظاهرا بالغضب

- انتِ موش صادقة .. أنا ح اشتكيكي لامك ..

ثم عاد وضحك قائلا :

- روحي انبسطي .. بس ما تسهريش كتير .. وفكري في اسم جديد لكي .. ينفع في السينما ..

قلت له في دهشة :

- اسم جديد ليه ..

فقال ساخراً :

- علشان اسم بهية ما ينفعش .. ولوح بيده في الهواء ، كأنه يشير إلى اسمي مكتوباً على يافطة كبيرة .. وقال :

- اتخيلي اسمك مكتوب في الإعلانـات .. بهية عبـد الرحمن .. اسم مافيهش موسيقى .. ينفع اسم مدرسة .. والا اسم محامية .. لكن ما ينفعش اسم ممثلة ..

فسألته في لهفة

- هو اسمي ح يطلع في الإعلانات ..

فصاح

ما تستعجليش .انا بـافكر للمستقبـل .. بادور عـلى مصلحتك و انتِ بتلعبي ..

فشعرت بالندم .. لاني ارتبطت بموعد ، وفكرت في ان اتجاهل موعدي ، واتراجع ، ولكن كيف افعل هذا ، لو انه عاد والح عليّ في البقاء فسارضى في الحال ، وانتظره واعود معه إلى بيتنا حيث يقضي سهرته ، ولكنه قال لي بسرعة :

- فكري في اسمين حروفهم زي بعض .. منى منير .. سعاد سعيد .. كريمة كريم .. اي حاجة زي كده .. على العموم ح تلاقيني في البيت لما ترجعي ..

وتركني ، وانشغل بإصدار أوامره .. والأسماء تدور في رأسي وجريت إلى باب الاستديو ، حيث كان ينتظرني مدحت في عربته الستروين ..

كانت الساعة حوالي الثامنة مساء ، ومازال امامنا وقت طويل نقضيه في العربة ، قبل أن نذهب إلى مكان نرقص فيه ، وكنت مترددة ، هل اكتفي بأن اجلس مع مدحت في عربته بعض الوقت ، ثم اتظاهر بالتعب وأطلب منه أن يعود بي إلى البيت لأختار مع الأستاذ حلمي اسمي الجديد ، أم أقضي السهرة كاملة مع مدحت وليكن ما يكون ، كان فستان السهرة الذي أرتديه يعجبني ، وأريد أن أرقص به في الأوبرج أو الأريزونا ووجدت نفسي حائرة ، بين سهرة كئيبة في بيتنا ولكنها سترضي الأستاذ حلمي ، وبين سهرة مرحة أتمتع فيها بفستان السهرة ..

لم يكن مدحت يهمني كثيرا ، فأنا لا احبه ، وإن كنت لا امانع في الزواج منه ، فهو غني وعنده عربة ، إنها ليست عربة أمريكية كبيرة ، ولكنها عربة على أية حال ، وهي تثبت أنه غني ، وأنا واثقة من هذا أيضا ، فهو يسكن في فيلا بجوارنا في شارع الجيزة ، وأبوه راتب بك الذي تقول عنه أمي إنه يملك عزبة كبيرة في الشرقية ، ومدحت متخرج في كلية الهندسة ، وأنا يعجبني

المهندسين ، وأفضلهم على الدكاترة .. لماذا .. لست أدرى .. على أية حال ، لماذا أتعب نفسي بالتفكير في كل هذا ، كأني سأتزوج مدحت غدا ، من قال إني أريد الزواج منه ، أو من غيره ، إني أريد أن أكون ممثلة كبيرة ، وعندي المواهب والجمال لأكون ممثلة كبيرة ، والأستاذ حلمي أكد لى هذا ، والعيون التي كانت تحدق في منذ لحظات أكدت لى هذا .. أنا سأفعل ما أريد .. وسأترك كل شيء للظروف .. ربما عدت إلى البيت وربما ذهبت إلى الأوبرج .. لا لن أتخذ قراراً الآن ..

قلت لمدحت وعربته تخرج من طريق الاستديو إلى شارع الهرم .

– ح نروح دلوقت فين ..

فقال وهو ينظر إلىّ نظرة سريعة قلقة ..

– والله فيه حكاية بايخة لازم أعملها ..

قلت له في حدة كأني سمعت الحكاية :

– حكاية إيه بأه ..

فقال في ضيق :

– فيه واحد صاحبي .. أبوه مات من أسبوعين .. ولازم أسأل عليه .. وأخرج معاه ..

فهتفت وأنا أستعد للثورة عليه

– وأنت مالك .. ح تقعد تعيط جنبه . والا ح تعمل له داده .

قال مدحت معتذرا :

– أهو نشوفه شويه .. وبعدين نزوغ ..

واتخذت قرارى .

قلت له بلهجة حاسمة :

– روحني ..

فقال متوسلا :

– وتسيبيني لوحدى في المصيبة دي ..

قلت في عناد :

– ماليش دعوة ..

فأوقف العربة .. وجعل يستعطفني ، وشعرت بحبه لى ، وأني لو فارقته سيتألم ، وكان يضايقني أن الوقت مازال مبكرا ، وأنا لا أريد أن أعود إلى البيت في الحال ، ماذا أصنع هناك ؟ سأموت من الضجر ، وربما تشاجرت مع أمي ، كنت حائرة ، لا أريد أن أعدل عن قرارى بالعودة إلى البيت لا تهمني توسلات مدحت ، ولكني أريد أن أعطف عليه ، إني لا أحبه ولكني لا أريد أن أفقد حبه ..

ولمحت عند شجرة قريبة منا ، امرأة ترقد تحتها ، فانتابتني قشعريرة . ونسيت كل شيء ، وقلت لمدحت ..

– شوف الست الغلبانة دي .. قال لى في دهشة :

– مالها ..

قلت له وأنا أكاد أبكي ..

– إديها حاجة ..

فأخرج من جيبه قرشاً .. فصحت فيه ..

– لا .. إديها نص ريال .

فقال مستسلما وعلامات الحيرة في وجهه :

– حاضر ..

وخرج من عربته ، وذهب إلى المرأة ، راقبته وأنا أخشى أن تكون المرأة جثة ميتة ، وتنهدت في راحة ، وهي تتحرك وتمد يدها ، وتأخذ النقود من مدحت ، فلما عاد إلىّ ، كنت قد قررت أن أوافقه على رؤية صاحبه .

وسألته :

– صاحبك ده اسمه إيه ..

فقال

– يوسف – يوسف عبد الحميد ..

ثم صاح وكأنه تذكر شيئا غاب عنه :

– على فكرة ده صحفي .. نخليه يكتب عنك ..

فتظاهرت بأني غير مكترثة بما يقوله ، ولكني في قرارة نفسي شعرت بفرح غريب ، خيل إليّ أن الدنيا كلها تتفتح أمامي ..

وانطلقت أحلامي ، تملأ الطريق الواسع أمامي ، حتى وصلنا إلى مبنى جريدة الأيام ، إنه مبنى ضخم كل نوافذه مضاءة ، وكأنه يستعد لاستقبال أحلامي .. في يوم ما ، سيقفز الصحفيون من مكاتبهم في داخل هذا المبنى عندما يعلمون بوصولي ، سيتهافتون علي ، ليلتقطوا صورتي ، وليأخذوا الأحاديث مني .. ما رأيك في عبد الوهاب .. ما هي أغنية أم كلثوم المفضلة لديك .. من هو الممثل الذي تحبين الظهور أمامه .. لماذا لا تتزوجين ..

وقلت لمدحت وهو يضغط على الكلاكس :

– إحنا موش ح نطلع ..

قال لي في دهشة :

– عايزه تطلعي ..

قلت له وقد ضايقتني دهشته :

لا ..

فنظر إلى فستاني وقال :

– لو شافوكي فوق في الجرنال موش طالع بكرة ..

وغفرت له دهشته ، ولكني كنت أشعر بقلق ، وقد انتصبت في جلستي ، كأن كل الصحفيين يطلون عليّ من النوافذ ، يراقبونني ويتساءلون من أكون ..

وجاء البواب مهرولا نحو مدحت وقال وهو ينظر إليّ ، وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة ..

– حاضر ياسعادة البيه .. موش برضه أنده للأستاذ يوسف ..

قال له مدحت :

– أيوه .. بس قول له أنا مستعجل ..

ووقفت أمامنا سيارة سوداء كبيرة ، هبط منها السائق مسرعا ، وفتح بابها الخلفي ، ليهبط منه رجل طويل في فمه سيجارة ، له وجه وسيم ، حلو

التقاطيع ، كوجه روبرت تايلور ، ولكنه وجه حزين ..

صعد الرجل السلم مسرعا ، ورأسه محني .. وصحت في مدحت ..

محمد ناجي .. موش ده محمد ناجي ..

قال لي وهو يتبسم :

– أيوه .. هوه ..

وامتلأت بنشوة كبيرة ، سأعود إلى أمي وأقول لها إني رأيت محمد ناجي ، إنها تقرأ له كل حرف يكتبه ، تقرأ مقالاته السياسية ، وقصصه ، ويومياته ، وأنا أيضا أقرأ له ، وأحبه ، إنه صديق جميع الممثلات والمطربات الشهيرات ، كلهن يترددن على حفلاته التي يقيمها في بيته ويحضرها الوزراء والباشوات ، ويكتب عنها ، وعن النوادر التي تحدث فيها .. كم عشت مع محمد ناجي في حفلاته من خلال السطور التي أقرأها له ، وكنت أسرح بخيالي والجريدة ملقاة على حجري ، وأتخيل نفسي في بيته ، في إحدى هذه الحفلات ، والوزراء والباشوات حولي ، يقبلون يدي ، كما يفعلون مع أم كلثوم ، والجميع مبهورون بجمالي ، ثم أتخيل أني أقرأ في صباح اليوم التالي المقال الذي كتبه محمد ناجي عن الحفلة ، وهو يكتب إني أعظم ممثلة في العالم ، وأن الجميع وقعوا تحت سحري ، سيطرت على الحفلة بجمالي وخفة دمي وأناقتي ، حتى الوزراء كانوا يدهشون من إجاباتي وسرعة بديهتي ، ويضحكون من النكت التي أطلقها عليهم ..

ستفرح أمي عندما أقول لها إني رأيته .. إنها تقول عنه إنه لاعب بوكر مدهش ، يخسر المئات دون أن يهتز له رمش ، إنها تعرفه ، فقد لعبت معه مرة أيام الحرب عند إحدى صديقاتها ، ومن يومها وهي تذكره على لسانها في كل مناسبة .. إذ ضايقها شيء قالت على الفور :

– والله لأكلم محمد ناجي في التليفون وأقول له يكتب عن السكر اللي موش لاقيينه في السوق ..

– يكتب عن التليفونات اللي بايظة ..

– يكتب عن الراجل الحرامي اللي باع لي الجزمة دي ..

فى إحدى المرات تشاجرت معى ، فقالت :

ـ والله لأكلمه فى التليفون وأقول له يكتب عن البنات اللى ماشيين على حل شعرهم ..

فقلت لها ساخرة :

ـ ما هو راخر بيعمل اللى على كيفه .. موش بيحب دلال ..

وكان محمد ناجى أيامها ، غارقا فى حب المطربة دلال التى ماتت ..

ولكن أمى لم تتصل به أبدا ، لم تحدثه فى التليفون ، ولم ترسل له خطابا ..

إنها تعلم أنه قد نسيها ، إذ ما الذى يجعله يتذكر سيدة من بين مئات السيدات اللاتى قابلهن ، فى سهرة من بين مئات السهرات التى يقيمها أو يتردد عليها كل ليلة ..

نعم .. ستفرح أمى ، عندما أروى لها أنى رأيته ، وإنه وسيم وحلو مثل روبرت تايلور .. ولكن لابد أن أقول لها أيضا إنه حزين .

ولاتعجبنى مشيته وهو محنى الرأس .

دارت رأسى بهذه الخواطر فأحسست بلهفة إلى لقاء يوسف .. وبدأت أتململ لغيابه ، إنه سيفتح لى طريقاً عريضاً .. لعل القدر دبر لقائى به لأصل عن طريقه إلى محمد ناجى .. إن ليلتى هذه هى ليلة القدر ، كل شىء يبدو سهلا مريحا . الأضواء تغمرنى .. العدسات تصورنى .. الاسم الجديد .. مدحت يحبنى .. يوسف سيكتب عنى .. وسيقدمنى إلى محمد ناجى .. الفستان الذى أرتديه .. العربة التى أجلس فيها .. لم أكن أفكر لحظتها فى أنها عربة مدحت ، إنه مجرد سائق يأتمر بأمرى .. ويقود عربتى .

كنت سعيدة .. أكثر من سعيدة ..

ورأيت يوسف يهبط السلم نحونا ..

عرفته ، قبل أن يهمس مدحت قائلا :

ـ أهه . أعمل معروف استحمليه لحد ما نوزعه ..

وضحكت فى سرى ..

إنه لا يعلم إلى أى مدى ذهبت بى أفكارى ..

قلت بسرعة قبل أن يصل إلينا يوسف :

ـ هوه ما عندوش عربية ..

قال :

ـ لا ..

فهمست

ـ يعنى غلبان .. على قد حاله ..

وأطبقت شفتى ، فقد كان يوسف قد وصل إلينا ، وانحنى ليحدث مدحت من النافذة ، دون أن ينظر إلىّ ، حتى ظننت أنه لم يرنى .

وجهه أبيض البشرة ، مستطيل شفتاه رقيقتان ، وعيناه شاردتان وفى صوته رعشة خجل ..

قال له مدحت :

ـ اركب ..

فسأل وهو يتراجع إلى الوراء

ـ ح تروحوا فين ..

سأل مدحت بصيغة الجمع فعلمت أنه رآنى .. وغاظنى أنه لم يوجه إلىّ التحية ..

وقال مدحت :

ـ بس اركب .. ح تروح أى حته ..

وفتح يوسف الباب الخلفى للعربة ، والغيظ يتزايد فى داخلى .. لأنه لم ينبس بكلمة واحدة .. وأدار مدحت المحرك .. وسارت العربة بضعة أمتار ، قبل أن يقول فجأة موجها الحديث إلى يوسف

ـ أنت ما بتسلمش على مدموزيل بهيه ليه ؟ ..

فصاح يوسف فى ارتباك :

ـ أنا متأسف .. أصلك معرفتنيش بيها ..

والتفت إلىّ .. التفت إلى ظهرى ، فقد رفضت أن أدير رأسى له ، وسمعته يقول وهو يضحك فى عصبية :

- أنا متأسف .. مدحت اللى غلطان ..

فهتف مدحت مقاطعا :

- غلطان ليه .. هو احنا خواجات لازم أعرفكم ببعض قبل ما تسلموا .

قلت لمدحت متجاهلة يوسف :

- يمكن موش عايز يسلم عليّ .. ليه تتعصب عليه ..

وتلعثم يوسف - واختلطت الكلمات فى فمه ، حتى شعرت بأنه حقيقة غلبان ومسكين ..

وعدت أفكر فى الخطة التى كنت أعدها ، وأتساءل هل يصلح هذا الشخص ، لأن يقدمنى لمحمد ناجى .. إنه يبدو أضعف من أن يستطيع أن يفعل شيئا ..

وسألنى مدحت :

- تحبى نروح فين ..

قلت له :

- أهوه .. نمشى بالعربية شويه ..

ثم استدرت فجأة إلى يوسف .. كان يجلس على طرف المقعد ، فانتفض متراجعا بظهره ، كأنى باغته ، وسألته :

- الأستاذ يحب يروح فين ..

قال وهو يخفض بصره :

- أى حته .. زى ما انتم عايزين ..

وأيقنت ألا فائدة منه .. إنه ثقيل الظل ، غير محتمل ، لا يعرف كيف يتحدث ، وليست له شخصية على الإطلاق ..

كيف يعمل هذا المخلوق فى الصحافة ..

قلت لمدحت :

- ياللا بينا نروح شارع الهرم

فصاح :

- تانى ..

قلت له فى سخرية فهمها :

- أهه فسحة والسلام .. وبعدين نروح ..

فوافقنى ، وقد أدرك أنى أريد الخلاص من يوسف بسرعة ..

وحاولت أثناء الطريق أن أستدرج يوسف ليحدثنى عن محمد ناجى ،

قلت له فى برود :

- الأستاذ بيكتب فى الجرنال ..

قال بصوت خفيض :

- أهو ... باحاول ..

وسكت ..

قلت وأنا أتعمد السخرية به :

- موش فاكرة أنى قريت لك حاجة ..

قال فى لهجة معتذرة :

- الواحد لسه بيخبط .. ساعة أكتب عن جريمة .. ساعة أكتب أخبار فن ..

فصاح مدحت :

- أنا عايزك تكتب عن بهية .. تعرف أنها ممثلة ..

قاومت بصعوبة رغبتى فى أن أستدير ليوسف ، وأرى وقع الخبر عليه ،

وكنت أجن عندما سمعته يقول :

- كده ..

ثم عاد إلى صمته ..

أنه سخيف ، وقليل الأدب .. أهذا هو كل ما يستطيع أن يقوله بعد أن عرف أنى ممثلة ، وقررت أن أنتظر حتى نقترب من استديو مصر ، فأطلب من مدحت أن نقف عنده ، فإذا وجدت الأستاذ حلمى مازال هناك فسأتركهما ، وأبقى مع حلمى حتى يعود بى إلى البيت ..

استرحت لهذا القرار ، إذ سأتركهما بحركة مفاجئة ، وسيعلم يوسف أنى ممثلة مهمة .. أدخل الاستديو وأتركه لأن عندى عملاً هاماً مع المخرج ..

وقلت فجأة :

ـ أنا بأحب أقرا للأستاذ محمد ناجي .. بأموت فيه ..

فقال يوسف بسرعة :

ـ وأنا كمان .. ده أستاذى .. وأعجبتنى إجابته ، كان فيها تواضع لم أتوقعه منه .. وعلى الرغم منى تورطت معه فى حديث عن محمد ناجى سألته عن محمد ناجى ، فأجاب فى كلمات مقتضبة ، إن محمد ناجى يحبه ، وانه يدعوه إلى بيته وحفلاته وأنه أعظم شخصية فى عالم الصحافة ..

ومررنا باستديو مصر ، دون أن أنتبه واندفعت العربة صاعدة بنا إلى الهرم ..

ووقفنا عند الهرم الأكبر .. ففتح يوسف الباب وهبط من العربة ..

صاح فيه مدحت :

ـ رايح فين .. إحنا راجعين .

فقال يوسف وهو يمشى مبتعدا :

ـ عايز أمشى لوحدى شويه .. ومضى فى طريقه بين الصخور .. قلت لمدحت وأنا أتنهد :

ـ ياباى .. صاحبك ده فظيع .

فقال وهو يبتسم :

ـ أبدا .. عيبه إنه بينكسف .

فصحت :

ـ ولا بيتكلمش ..

فقاطعنى مدحت :

ـ الراجل قاعد يتكلم طول السكة على محمد ناجى ..

فقلت له :

ـ بيتكلم زى ما يكون غصب عنه ..

ونظرت فى الاتجاه الذى يسير فيه يوسف .. وسألت مدحت :

ـ هوه رايح فين ..

فقال يذكرنى :

ـ موش قلت لك أبوه مات ..

وعدت أسأله :

ـ وأبوه يبقى مين ..

قال مدحت :

ـ يبقى المدرس بتاعى ..

فضحكت ساخرة وقلت :

ـ اللى يشوفه ماشى لوحده فى الضلمة ، يفتكر أن أبوه كان وزيرا .. والا باشا ..

فهمس مدحت وفى عينيه بريق :

ـ تعرفى إن يوسف ده فى حياته مأساة ..

واختلس مدحت نظرة سريعة إلى الظلام ، ليتأكد من أن يوسف بعيد عنا .. وزاد البريق فى عينيه .. كأنه فرح بالقصة المسلية التى سيرويها لى .. وقال وابتسامة باهتة على شفتيه :

ـ تصورى أن أبوه .. اتجوز الخدامة اللى كانت بتشتغل فى بيتنا ، كانت القصة مسلية أكثر مما أتوقع .. فصحت فى جذل :

ـ موش معقول ..

فقال مدحت بصوت منفعل :

ـ والله العظيم .. خدامة اسمها مبروكة ..

وأطلقت ضحكة عالية .. وقلت :

ـ تلاقيك كان بينك وبين الخدامة دى حاجات ..

فتلفت مدحت حوله فى ذعر كأنه يخشى أن تصل ضحكاتى إلى يوسف تحمل معها حديثنا عنه .. ثم قال هامسا وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة :

ـ المصيبة .. أن يوسف كان يعرف اللى بينى وبين مبروكة ..

صحت فى ذعر :

ـ كان يعرف إزاى .. مين قال له ..

فقال مدحت فى ارتباك .. كأنه يدافع عن تهمة :

- أنا .. ماكنتش اعرف ان ابوه ح يتجوزها ..

فسألته فى لهفة :

- ويوسف عمل إيه ..

قال وقد ظهرت على وجهه الابتسامة الخبيثة ..

- كانت فضيحة .. وساب البيت لابوه .. لحد ما مات ..

وشعرت بألم مفاجىء فى صدرى .. وقلت هامسة ..

- مسكين ..

فقال مدحت فى وجوم ، وقد لاحظ تغير وجهى :

- صحيح مسكين .. هو متصور أن أبوه مات بسببه ..

قلت وأنا أكتم صرخة تمزقنى ..

- فاكر أنه قتل أبوه ..

فسألنى مدحت فى قلق ..

- مالك ..

فحولت راسى بعيدا عنه ..

وحدقت فى الظلام .. وقلت وأنا ألتقط أنفاسى بصعوبة ..

- أنا موش عايزه أسمع الحكاية دى ..

فقال معتذرا وهو يضحك فى عصبية ..

- إيه اللى حصل ..

قلت فى حدة :

- ولا حاجة ..

ثم صرخت ..

- موش عايزه اسمع .. موش عايزه اسمع ..

أحتار مدحت ، ولم يفهم ما حدث لى .. ولكن ماذا أقول له ..

لقد تذكرت فجاة أبى الذى مات منذ عامين .. وإنى ادفن ذكرى موته فى اعماقى .. وابذل جهداً مستميتا لنسيانه .. ونجحت فى ذلك .. حتى انى لم

أذكر أبى ، عندما أخبرنى مدحت بموت ابو يوسف ..

عندما أخبرنى ، ثرت عليه ، ورفضت مقابلة يوسف .. إنى أعلم الآن السبب الحقيقى لثورتى ، كنت لا أريد أن اقابله حتى لا أذكر موت أبى .. نعم هذا هو السبب الحقيقى .. خشيت بلا وعى ، أن يذكرنى موت أبيه ، بموت أبى ..

وامتدت يدى إلى باب العربة ، أريد فتحه لأخرج هاربة إلى الظلام ، ولكنى رأيت يوسف قادما نحونا ، وشعرت أنه يقترب منا ماشيا على قلبى .. وداخلنى شعور غريب فى تلك اللحظة ، بأن هناك يدا خفية أقوى منا ، تحرك يوسف نحوى ، وتريد أن تربطنى به .. نحن الاثنان لنا ذكرى واحدة ..

هو قتل أباه ..

وأنا قتلت أبى ..



الفصـــل الثـــانى

وصل يوسف إلى العربة وأنا فى قمة الألم ، ولم أكن أستطيع أن أتحمل أكثر من هذا ، فإما أن أفقد وعيى ، وإما أن أتخلص فجأة من كل شىء ..

وهذا هو ما فعلته .

فى لحظة واحدة ، تخلصت من كل شىء ، ونسيت أبى .. تحولت إلى إنسانة مرحة ليس فى قلبها هموم ..

لقد تعودت على هذا ، فحياتى كلها تقلبات مفاجئة فى عواطفى وأفكارى .. أتشاجر أحياناً مع أمى ، ونتبادل الكلمات القاسية والنظرات الحادة ، حتى يظن من يرانا أننا سنتقاتل ، وفجأة أبتسم لها ، وتبتسم لى ، ونتبادل الكلمات الرقيقة ونظرات الحنان ..

أنا مضطرة دائماً إلى أن أنسى ما أفكر فيه ، وأن أنسى ما أحس به ، وأن أنسى ما أراه ... وبغير هذا النسيان لا أستطيع أن أطيق حياتى .

صحت فى يوسف وكأنه صديق قديم لى :

— أنت رحت فين .. موش خايف من العفاريت ؟

فقال وهو يدخل العربة ، وعلى شفتيه ابتسامة خجولة :

— يعنى العفاريت ح تعمل إيه .

وكنت قد استدرت له ، وأعطيته وجهى ، كأنى أقول له انظر كم أنا جميلة ، والتقت عيناه بعينى ، فحول بصره عنى بسرعة ، وقلت لنفسى إنه لا يخاف

العفاريت ولكنه خائف من جمالى ، واعجبتني هذا الخاطر ، وتساءلت ، هل له علاقة بامرأة ، هل هناك فتاة يحبها ، وخيل إلىّ انه مازال بكرا لا يعرف النساء .

وانتابتنى رغبة فى معاكسته ، إنى لم اعرف هذا النوع من الشبان من قبل ، النوع الخجول الذي يخاف من ان تلتقي عيناه بعيني .

وكان مدحت قد أدار محرك العربة ، وبدأنا نهبط إلى شارع الهرم .. فهتفت :

— على فكرة يا ولاد أنا عايزاكم تختاروا لى اسم .

وابتسمت ليوسف الذى كان ينظر إلىّ فى دهشة .

وصاح مدحت :

— نختارلك اسم .. ليه .

قلت ساخرة ، وعيناى تلتقيان بعيني يوسف .

— اسم علشان بنت حلوة زى القمر .

فسأل مدحت فى حيرة :

— فيه واحدة صاحبتك ولدت بنت .

فأجبته وأنا ارقب تأثير كلامى على وجه يوسف :

— لا .. دى بنتى أنا

— موش معقــــول .

أما يوسف فكانت عيناه تتوسلان إلىّ أن افسر كلامى الغامض .

وملت بوجهى ناحية يوسف ، وسألته :

— هوه فيه حاجة لما أجيب بنت .

فهمس فى ارتباك :

— لا ......

وصاح مدحت منفعلاً :

لا .. إزاى ، أنت منتش متجوزة ...

فضحكت ...

— وماله ...

وبدا على وجه يوسف أنه يتألم لحالى ، كان ينظر إلىّ فى رثاء واشفاق وخوف .. بينما صرخ مدحت :

— أنتِ مجنونة .. أنا موش مصدقك ..

فهززت كتفي قائلة :

— موش مصدقنى .. موش مصدقنى ..

وعدت أسأل يوســـف :

— إيه رأيك .. اسميها ايه ..

فسألني فى سذاجة :

— أنتِ جبتيها خلاص ...

فهتف مدحت :

— ياجدع أنت بتصدق كلامها ..

قلت متجاهلة مدحت :

— لا أنا لسه ح أجيبها بعد سبعة أشهر .

فأطلق مدحت ضحكة عصبية عالية ، بينما سألني يوسف فى وجوم :

— يمكن ما تكونش بنت ..

— أنا متأكدة أنها بنت .. إيه رأيك أسميها منى منير ..

فصاح مدحـت :

— يعنى أبوها اسمه منير .. وده يبقى مين بأه .

قلت ضاحكـــة :

— والا أسميها مديحة مدحت ..

فصرخ فى ذعر :

— مدحت ليه أنا موش أبوها ..

قلت وأنا أضحك فى نشوة :

— والا أسميها يوسفية يوسف ..

فهتف مدحت فى ارتياح :

— انتِ بتهزرى .. والله انا كنت ح أصدقك ..

قلت له بصوت جاد :

— والله صحيح أنا بادور على اسم ..

وفجأة أشرق وجه يوسف ، ولمعت عيناه بفرح كبير ، وصاح :

— آه .. أنا فهمت .. انتِ عايزة اسم علشانك انتِ فى السينما ..

فهتفت باسـمة :

— برافو عليك ..

والتفت إلى مدحت أقول له مؤنبة :

— الأستاذ يوسف طلع أذكى منك .

وقال يوسـف :

— أنا نفسى صدقت ..

— تفتكر أنا أعمل حاجة زى كده ..

فارتبك .. وقال معتذراً :

— موش قصدى ...

— أنا ما عنديش غير أمل واحد فى حياتى .. هو أنى أبقى ممثلة .. كل المخرجين اللى شافونى قالوا إنى عندى موهبة للتمثيل .. علشان أنا ما بفكرش فى الحب والجواز والكلام الفارغ ده ..

وكنا قد وصلنا إلى طريق استوديو مصر ، فطلبت من مدحت أن ينعطف فى الطريق ، فحاول أن يعترض ، ولكنى صممت ، وقلت له إن الأستاذ حلمى كامل ينتظرنى ليختار لى اسمى السينمائى الجديد ، وادعيت أن الأستاذ حلمى يجب أن يختار الاسم الليلة ، حتى لا يتأخر ظهوره فى الإعلانات بالشوارع والصحف .

وسألنى يوسف فى ارتياب ، وكانت العربة تسير فى بطء شديد فى طريق استوديو مصر .

— الكلام ده صحيح .. والا بتضحكى النوبة دى كمان ..

— صحـيح ..

— تعرفى أنا ما صدقتش لما مدحت قال إنك ممثلة ..

— ليـه ..

فأجاب فى حيرة :

— ما أعرفـش ..

وضحك فى عصبية ثم قال :

— مش باين عليكى ...

ولم أفهم ماذا يريد أن يقول بالضبط ، أهو يهيننى ، أهو يحترمنى .. ما الذى يعنيه بالضبط ..

وسألته فى تحد وأنا على استعداد لأن أثور وأشتمه .

— قصدك إيه يا أستاذ ..

— موش قصـدى ..

والتقط أنفاسه ثم قال بعد تفكير :

— قصدى إنى ما كنتش فاكر إنك ممثلة مهمة للدرجة دى .. ما كنتش عارف إنك نجمة جديدة ..

أدركت أنه أحس بشيء مما أفكر فيه ، وهو يتراجع الآن ، ويرشونى بكلمات خائفة لا يصدقها ..

قلت فى برود :

— أهو أنت عرفت ..

— انتِ زعلتى منى ..

قلت وأنا أهز كتفى :

— ح ازعل ليه ..

ووصلنا إلى الاستوديو ، فناديت البواب وسألته عن الأستاذ حلمى كامل فقال إنه مازال بالداخل ، وأوصلنى مدحت بعربته إلى باب البلاتوه ، والتفت إلى يوسف أودعه ولكنه فاجأنى قائلاً :

— أنا جاى معاكى ..

سـألته فى دهشة :

— ليـه ...

فقال وهو يبتسم :

— اشتغل أنا كمان .. موش يمكن أكتب عنك ..

وانتظر مدحت فى العربة ، ودخلت مع يوسف البلاتوه ، وكان الأستاذ

حلمي يستعد لتصوير مشهد بين بطل الفيلم أنور سامي والبطلة هدى مراد ، ورآني الأستاذ حلمي فابتسمت له ، ولكنه لم يرد على ابتسامتي .. كان يتحدث مع أنور سامي ويلوح بيديه .. شعرت بالخجل ، وتمنيت في قرارة نفسي ألا يكون يوسف قد لاحظ ابتسامتي التي تجاهلها الأستاذ حلمي ، لو كان قد لاحظها فسيعرف أني لست ممثلة مهمة كما تظاهرت أمامه .

والتفت إلى يوسف فرأيته يتقدم في هدوء إلى الأستاذ حلمي ، وفوجئت بالحرارة التي استقبله بها الجميع .. هجم أنور سامي على يوسف يقبله في وجنتيه ، وصافحه الأستاذ حلمي وهو يصيح :

— أنت فين يا أستاذ .. أنا باصور بقى لي أسبوع ولا شفتكش ..

وابتسمت هدى مراد ليوسف ، الذي تقدم منها وصافحها ، ووقف يتحدث معها وعلى شفتيه ابتسامة عريضة ..

كنت أرقبه من بعيد في حسرة ، وقد خيل إليّ أنه تحول إلى شخص آخر .. لم أتوقع أبداً أنهم سيقابلونه بكل هذا الحماس والاهتمام . وأدهشني أن يوسف لم يذكر لي أنه يعرف الأستاذ حلمي أو يعرف أحداً من الممثلين ..

وقلت لنفسي ، إنه ليس ساذجاً كما أظن ، إنه خبيث ماكر . وتذكرت ما قاله لي منذ لحظات ، أنه لم يصدق أني ممثلة .

ما الذي كان يتصوره إذن ، ربما ظن أني واحدة من بنات الشارع .. ربما ظن مدحت التقطني من الطريق ليقضي معي ليلة .. لابد أنه تصور هذا ..

وشعرت بالغيظ ، وبرغبة في أن أصرخ بأعلى صوتي ، أنكم جميعاً مغفلون ، لأنكم لا تعلمون أني ممثلة كبيرة وعندي الموهبة وعندي الجمال .. أنا أجمل ألف مرة من هدى مراد ، لماذا تهتمون بها وتلتفون حولها ، ولا تهتمون بي وتلتفون حولي ..

ويوسف ، هذا الأحمق ، ما الذي يجعله يقف مع هدى مراد ، ويضحك معها كالعبيط ، لماذا لم يضحك معي أنا ، ألأنها ممثلة كبيرة ومعروفة ، وأنا مازلت مجهولة .. فلينتظر الأيام ليرى كيف سأقف يوماً مكانها ، وساعتها لن أرضى وأتنازل بأن يقف معي . لن أرضى بأقل من محمد ناجي يأتي إليّ ليدعوني إلى حفلاته التي يقيمها في بيته ، ويتوسل إليّ ليصحبني بعربته وأنا

أتدلل عليه ويوماً أقبل دعوته ، ويوماً أرفضها .

وصاح أنور سامي يطلب القهوة ليوسف ، وقدم له الأستاذ حلمي سيجارة مع أن التدخين ممنوع داخل البلاتوه ..

إنهم يعاملونه كما لو كان صحفياً كبيراً ، كما لو كان محمد ناجي ، ما السر في هذا ، لابد أنه يكتب عنهم وينشر صورهم .. عندما أعود إلى البيت ، سأبحث عن كل الأعداد القديمة من جريدة الأيام وأقرأ أخبارها الفنية ، لأرى ما الذي يكتبه يوسف ، ولأعرف سر كل هذا الاهتمام به ..

وفجأة التفت يوسف ناحيتي .. وصاح منادياً :

— بهية .. ما تيجي ..

وارتبكت ، إنه جريء إذ يناديني هكذا ، وهو واقف مع أنور سامي وهدى .. البطل والبطلة .. وأنا مجرد فتاة كومبارس .. نعم هذه الحقيقة ، أنا مجرد كومبارس ، ولكن سرعان ما ذهب عني الاضطراب ، وشعرت بالزهو ، وتقدمت إليه .

وهتف الأستاذ حلمي مخاطباً يوسف :

— الله .. أنت تعرف بهية ..

فأجاب يوسف باسماً :

— أمال .. كنت لسه بأدور لها على اسمها الجديد ..

فقال حلمي في عجب :

— صحيح ما فيش حاجة بتستخبى عليكم .. عرفت كمان اسمها ..

ونظر إليّ أنور سامي في فضول ، وسأل الأستاذ حلمي بينما عيناه تمرحان في جسدي :

— إيه ... المدموازيل ممثلة جديدة ..

فالتفت الأستاذ حلمي إليّ .. وأمسك بذقني .. ورفع وجهي وقال :

— إيه رأيك يا أنور .. موش حلوه ؟

فقال أنور وهو يقبل أطراف أصابعه ثم يرسل القبلة إلى وجهي في الهواء :

— جنان ... لاقيتها فين يا حلمي .

فصاح الأستاذ حلمي ضاحكاً :

ـ لا .. ابعد عنها .. دى موش قدك ..

صعد الدم إلى رأسى ، ورفعت عينى إلى أنور ، فرأيت عينيه تلمعان ببريق غريب .. إنه حلو وسيم ، شعره الأسود الناعم يعجبنى وأنا أحب تمثيله ، دمه خفيف ، سرت كلماته فى جسدى تحمل دفئاً لذيذاً .. إنه يغازلنى ، إنه يفكر فى أن تكون بيننا علاقة ، وربما أحبنى ، وربما تزوجنى وجعلنى أمثل أمامه .. هذه هى فرصتى ، عندما أعود إلى البيت سأستشير أمى وأسألها ماذا أفعل ، إنها تفهم فى هذه الأشياء أكثر منى ، أما الآن فيجب أن أتماسك حتى لا يبدر منى تصرف أندم عليه .

وسألنى أنور :

ـ أنتِ اسمك إيه يا حبيبتى ..

قلت بصوت خفيض :

ـ بهية عبد الرحمن ..

وارتفع صوت هدى مراد ، وكانت حتى هذه اللحظة تراقبنى صامتة بعينين جامدتين ووجه خال من أى تعبير :

ـ بهية .. اسم حلو ..

فصاح الأستاذ حلمى :

ـ بهية عبد الرحمن .. إزاى الاسم ده ينفع فى السينما .. مافيهش موسيقى ...

وقلت لنفسى إن هدى مراد تريد أن أحتفظ باسمى لأنها تغار منى ، ولا تريد لى اسما موسيقياً لامعاً ..

وهتف أنور محتجاً على هدى مراد :

ـ لا يا هدى .. إيه بهية عبد الرحمن .. أعوذ بالله ..

والتفت إلىّ ضاحكاً وقال :

ـ ما تزعليش ... أنا باحبك ..

فقال الأستاذ حلمى :

ـ أنا عايز اسم من كلمتين متشابهتين .. زى منى منير .. سميرة سمير .. حاجة زى كده ..

فصاح أنور :

ـ اسمعوا يا جماعة .. انا عندى فكرة .. سموها على اسمى ..

وامسك أنور بذراع يوسف ، وسأله فى حماس :

ـ إيه رأيك يا أستاذ .. نسميها سامية سامى ..

قال يوسف :

ـ كويس الاسم ده ..

فسأله الأستاذ حلمى متردداً :

ـ بذمتك كويس ..

فأجاب يوسف ضاحكاً :

ـ أنا بافكر فى الخبر اللى ح اكتبه .. إن أنور سامى تبنى ممثلة جديدة وسماها سامية سامى ..

فاعترضت هدى مراد قائلة وهى تمط شفتيها :

ـ الاسم موش عاجبنى ..

وأيقنت أن الاسم جميل ، إنها لن تعترض عليه إذا كان قبيحاً .. فهى تغار من صباى وجمالى ..

وصاح أنور فى حماس :

ـ لا .. الأسم كويس ..

والتفت إلى يوسف قائلاً :

ـ اكتب الخبر يا أستاذ بكرة فى الجرنال ..

ثم التفت إلىّ قائلاً :

ـ أنتِ أبواب السما انفتحت لك .. مجد يا بنتى .. مجد لما يقولوا إنك اتسميتى على اسمى ..

وحك الأستاذ حلمى ذقنه وقال :

ـ والله فكرة ..

ثم صاح :

ـ بلاش تضييع وقت .. كل شىء جاهز ..

همس يوسف فى أذنى إنه سينسحب ، فابتسمت له فى امتنان ، وأمسكت

بيده وضغطت عليها .. يجب أن أعامله كما تعامله هدى ، إنه صحفي مهم ، وسيكتب عني ، وطلبت منه وأنا ابتسم في اغراء ، أن ينتظر معي ولكنه اعتذر لأن مدحت وحده في الخارج فسألته :

ــ صحيح ح تكتب عني بكرة ؟

فضحك هامســـاً :

ــ بكره ما الحقش .. إنما في اليومين الجايين إن شاء الله .

وابتعد عني .. فكرت في أن استوقفه لأسأله متى سأراه ثانية ، ثم عدلت عن سؤالي ، وقد ضايقني انه لم يطلب أن يراني ، وقلت لنفسي إني أستطيع أن ادبر لقائي به عندما أشاء عن طريق مدحت ..

انتظرت الأستاذ حلمي حتى فرغ من تصوير المشهد ، وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة والنصف ، فأخذني معه في عربته إلى البيت .

سألني ونحن في الطريق ، عن صلة يوسف بي ، فكذبت عليه ، وقلت له إنه رآني وأنا ادخل الاستوديو ، فتقدم مني وعرفني بنفسه ، وقال إنه صحفي بجريدة الأيام ويريد أن ينشر صورتي ..

صدقني الأستاذ حلمي ، وقال إن من حسن حظي أن يوسف أعجب بي ، وأنه لو نشر اسمي عدة مرات في جريدة الأيام ، فسأصبح معروفة في غمضة عين ، سأشتهر قبل أن أظهر على الشاشة ، وسأكون حديث الناس قبل أن يروني ..

وضحك قائلاً :

ــ أنا لازم أعمل معاكي عقد قبل ما تشتهري ..

قلت له وأنا سارحة في خيال عريض :

ــ ح تديني كام ..

فصـــاح :

ــ أنتِ ح تعملي زي أمك .. اسمعي نصيحتي .. بلاش تتكلمي في الفلوس لحد ما تظهري في فيلمين تلاتة ..

فسكت ، إذ لم أعرف بماذا أجيبه .. وفكرت في يوسف ، لو كان صديقي لاستطعت أن أحصل منه على نصيحة في هذه المشاكل ..

وسألت الأستاذ حلمي :

ــ هو محمد ناجي يبقى رئيس يوسف ..

فأجــاب :

ــ طبعاً .. هوه رئيس التحرير ودول كلهم صبيانه ..

ــ طيب .. وإيه يعني أهمية واحد زي يوسف .. أنا عمري ما قريت له حاجة ..

فضحك قائلاً :

ــ ما هم الصغيرين اللي زي يوسف هما اللي بيجيبوا الأخبار .. محمد ناجي موش فاضي .. ولو كلمناه وقلنا له انشر الخبر ده .. يقول هاتوا فلوس .. ده إعلان .. إنما يوسف نقدر نضحك عليه .. واحد زي أنور ياخده بالحضن كل ما يشوفه ، يقوم دايما يفتكره في أخباره ..

وابتسمت ..

كنت أتساءل بيني وبين نفسي ، هل من الضروري أن أضم يوسف إلى حضني ليكتب عني واشتهر ؟ . وقلت لنفسي ، لو اضطـررت إلى هذا ، فالأفضل أن يكون الذي أضمه هو محمد ناجي .. لا صبيه .. فأنا لا أريد أن اكون مجرد ممثلة من بين عشرات الممثلات .. أنا أريد أن أكون أشهر وألمع الممثلات ..

كانت أمي كعادتها تلعب البوكر ، ولما رأتني أدخل مع الأستاذ حلمي قالت في حرارة :

ــ ازيك يا حبيبتي .. عملتي إيه ..

ولم أكن في حاجة إلى الإجابة عليها فقد نسيتني تماما في الحال ، وانشغلت بإعطاء الفيش للأستاذ حلمي ..

وسألني عمي محمود ، زوج أمي ،

ــ اتعشيتي يا بهية ..

ــ لا ....

ــ طيب انا ح أعملك ساندوتش جبنة ومرتدللا ، وأجيبهم في أودتك .

وغادرت الحجرة ، وأنا نادمة على عودتي ، لو كنت أعرف أين مدحت الآن

لذهبت إليه ، حتى لو تشاجر معى ، فهو أرحم من هذا البيت الذى اختنق فيه ..

عائلة غريبة ، أمي وزوجها ،وشقيقتى الصغرى إنصاف ، وانا ..وزبائن البوكر الذين نستقبلهم كل ليلة ، ويرتفع شجارهم عند كل فجر ..

لا أظن أن هناك فى الدنيا كلها عائلة تشبه هذه العائلة ، ولا اما تشبه أمى ، أنا أحبها ، ولكن كل واحد منا فى حاله .

كأننا مجموعة من الغرباء تلتقى فى هذا البيت .. إنه ليس بيتا .. إنه فندق ..

أحياناً أسأل نفسى أيه رابطة تجمعنا ، فأحتار ، ولا أدرى جوابا .. الذى يدهشنى أنى مع حبى لأمى ، لا أشعر نحوها بأى عطف ، ربما لأنها تزوجت هذا الرجل العبيط الذى أقول له يا عمى . إنه طيب جداً . طيب ومغفل ، يفرح بلا سبب ويثور فجأة لأى سبب . ولكن ثوراته كلها زوبعة فى فنجان ، تنتهى بكلمة حادة تصرخ بها أمى فى وجهه ، فيسكت ..

عندما يأتى الليل ، ينتعش بيتنا ويصبح الجميع فى أحسن حالاتهم . أمى تستقبل زبائنها .. إنهم ليسوا أصدقاء ، مجرد زبائن حول مائدة البوكر او الكونكان ، أما عمى فلا يلعب ، يتولى خدمة الزبائن ، يشترى لهم الويسكى والأكل ، ويهبط أحياناً فى منتصف الليل ليشترى لهم السجائر ، ويقضى السهرة يصب الويسكى فى الأكواب ويضع فيها الثلج ويملؤها بالصودا ويقدمها للاعبين .. ويدور عليهم بأطباق المزة ، ويشرب ويأكل حتى يسكر ، فتشتمه أمى إذا خسرت فى اللعب وتعامله برفق إذا ربحت ..

رأيت فى بيتنا زبائن من كل صنف ، حتى الضباط الانجليز .. مازلت أذكر أول ليلة جاءوا فيها إلى بيتنا .. جاءتنى أمى وهى خائفة وقالت لى ولأختى إنصاف :

ــ يا بنات .. اوعوا تخرجوا من أودتكم .. فيه اتنين ضباط انجليز قاعدين معانا وربنا يستر ..

ولعبت أمى البوكر مع الضابطين وزبائنها الآخرين ، وأسكرهما عمى وخسرا عشرين جنيهاً ، وغادرا البيت دون أن يحدث شىء ..

تنهدت أمى بعد أن خرجا ، وقالت لعمى إنها لن تستقبل الانجليز مرة ثانية ، فاحتج عليها وقال :

ــ دول كانوا مؤدبين يا نعمات ..

فقالت أمى :

ــ ولو .. أنا كنت قاعدة خايفة .. وكل ما يخسروا « كوه » أقول دلوقت حيقوموا علينا بالمسدسات ، وياخدوا فلوسهم وفلوسنا ..

ولكن زبائن أمى الآخرين اقنعوها بأن الضباط الانجليز أغبياء ومؤدبون وأنهم « سبور » لا تضايقهم الخسارة ، وصمموا على ألا تحرمهم أمى من نقود الانجليز .. فوافقت مضطرة ، ثم تحمست لاستقبالهم ، فكنت أسمع ضحكاتها تجلجل ، وهى ترحب بهم بالكلمات الانجليزية القليلة التى تعرفها .

تعودت أن أشهد سهرات أمى فى بدايتها ، عند خروجى ، وأشهدها فى نهايتها عند عودتى إلى البيت ، إذ أصبحت أسهر فى الخارج كما أشاء ، ولم تكن أمى تعترض على سهراتى ، فهى دائماً مشغولة عنى ، وكانت تنادينى أحياناً عندما تستيقظ الظهر ، فأجرى إليها ، وأندس تحت اللحاف بجوارها .. وتشعل هى سيجارتها وترشف فنجان القهوة السادة ، وقد بدا على وجهها الإعياء ، وتحدثنى بكلام غير مباشر ولكنه واضح أفهم منه أنها تنصحنى ..

وكانت تقول لى إنها لا تعارض فى أن تكون لى علاقة بأحد الشبان .. بشرط أن يكون غنياً ، واستطيع أن أجعله يتزوجنى ..

وكانت لا تحدثنى أبداً عن الحب بل تنظر إلىّ وكأنها تريد أن تنفذ إلى أعماق قلبى ، لتفتشه خشية أن تستقر فيه جرثومة حب ، ثم تقول لى إن الحب ضعف ومذلة ، وأنى يجب أن أكون أقوى منه ، الحب مصيبة ، حتى ولو أحببت رجلاً غنياً لأن حبى له سيجعلنى غيرقادرة على الاستفادة من ثروته .

كانت حياتي بالنسبة لها مشروعاً كبيراً أبدؤه أولاً بالبحث عن الزوج الغني المناسب الذي أورطه ليتزوجني .. فإذا حصلت عليه فلا بأس بعد ذلك أن أحب بعقل .. المهم أولاً أن أضمن المال من مغفل غني ..

وكانت أمي تردد دائماً :

ــ ده اللي ما معهوش قرش ما يسواش قرش ..

وفرحت أمي يوم قلت لها ، إني عرفت مدحت ..

الفصل الثالث

ولم يكن مدحت أول شاب عرفته .

عرفت شباناً كثيرين ، بعضهم أكبر مني قليلاً ، وبعضهم رجال يكبرونني بعشر سنوات أو أكثر .

منذ ثلاث سنوات ، وكنا مازلنا نسكن في غمرة ، أعلنت العصيان على الدروس والمذاكرة ، وتركت المدرسة ، كنت لا أفهم حرفاً واحداً من دروسي ، ولا أعرف الفرق بين الجغرافيا والكيميا ، والحساب والتاريخ ، وكانت الأصفار تزين شهادتي ، وضايقني أن شقيقتي إنصاف كانت تنجح باستمرار ، وأنا أرسب باستمرار ، حتى جمعنا فصل واحد بالسنة الثالثة ، وكان الجميع يقولون إن إنصاف ذكية وشاطرة ، وأمي تقول إنها ستدخل كلية الطب وتصبح دكتورة ، أما أنا فكنت لا أسمع إلا اللوم والتأنيب ، وأمي تتهمني بأني مدللة وغير فالحة . وكنت لا أهتم بما تقوله أمي ، ولكني كرهت إنصاف ..

وتعودت أن أزوغ مع البنات من المدرسة ونذهب إلى السينما ، وإذا لم يكن معنا نقود تحايلت واحدة من صديقاتي على شقيقها أو أصحابه ، ليقطعوا لنا تذاكر السينما .. وتعلمت الرقص وأحببته ، لأنه يشعرني بحيويتي وأنوثتي ، وكنت أرقص في حفلات أعياد ميلاد صديقاتي ، وبعد أن تركت

المدرسة كنت أقبل دعوات كثيرة إلى حفلات ورحلات إلى القناطر الخيرية والأهرام وحلوان .

وكانت أعز صديقاتي اسمها يولاندا ، ابنة السنيورا جراتسيا جارتنا في غمرة ، كانت جميلة ، ولكن ساقيها سمينتان وأردافها ثقيلة ، وأما وجهها فجميل ونظيف ، وكانت تجمع شعرها فوق رأسها فيبدو عنقها عمودياً ناصعاً ، وكانت أشبه بالولد الجميل ، إذ كانت تنقصها الأنوثة .

وعندما كنت في الرابعة عشرة من عمري أحببت ماركو شقيق يولاندا وكان قد جاوز العشرين من عمره ، وعنده موتوسيكل لامبرتا يحدث ضجيجاً عالياً يخفق له قلبي ، وكان ماركو يعمل في أحد المصانع بشبرا ، ويقول إنه ميكانيكي ، وكانت تبهرني هذه الكلمة ، وإن كنت لا أفهم معناها ، وهو متوسط الطول ، عيناه مثل عيني أمه ، عميقتان وجذابتان ، وشعره أسود فاحم يدهنه بالبريانتين ، وله صوت جميل : يقول إنه من طبقة التنور ، وهو يغني ألحان الأوبرا ، وكثيراً ما أسمعني ألحان الكونت المافيفا من حلاق أشبيليه ، والأمير من ريجلتو ، وكانت أمه السنيورا جراتسيا تنصت إليه في إعجاب وتصفق طرباً كلما انتهى من غناء مقطوعة .

ولم تكن تعجبني ألحان الأوبرات ، إذ كنت أفضل الأغاني التي أسمعها في البرنامج الأوروبي لما يطلبه المستمعون ، وفاجأني ماركو ذات ليلة . فسمعت مذيع البرنامج يقدم أغنية « باهيا » إلى بهية من ماركو .

وطفرت الدموع إلى عيني ، وزاد حبي لماركو ، ولكنه كان حباً ساذجاً ، وأظن أن ماركو لم يشعر به أبداً ، إذ كان يعاملني كشقيقته وكأني مازلت طفلة صغيرة ، وكان يدعوني مع يولاندا إلى السينما في بعض ليالي السبت ، وكنت مجنونة بالسينما ، وكم ضحكت وبكيت وأنا جالسة إلى جانب ماركو نشاهد أحد الأفلام ، ومازلت حتى اليوم أذكر دموعي وانقباض قلبي وأنا أشاهد فيلم مرتفعات وذرنج ، وليلتها ضمني ماركو إلى صدره ، ومسح دموعي بمنديله وهو لا يدري أني أبكي يائسة من حبه .

وفجأة ، اعتقل البوليس ماركو لأنه إيطالي ، وانجلترا تحارب إيطاليا ، فبكيت مع يولاندا والسنيورا جراتسيا ، واشتريت مفكرة ملأتها بأفكار سوداء عن الحب وآلامه وغدر الدنيا وظلم القدر .

ومرت الشهور فنسيت كل شيء ، لا أدري كيف نسيت ماركو وحبي له . ولكن كل شيء في كان يتغير ، كان جسمي ينمو بسرعة ، وبدأت أحس بجمالي وأنوثتي ، واشتد ضجري وضيقي بالبيت ، وكانت يولاندا تتعرف إلى شبان لهم عربات فخمة ، فأخرج معهم ونلهو ونرقص ونغني الأغاني الجديدة .. تحت شجرة التفاح .. هل تحبني .. الرمل في حذائي .. هل تعرف سوزي .. أغان كثيرة .. جعلتني أنسى أغنية باهيا ..

وخافت أمي من كثرة خروجي ، فقررت أن تزوجني ، فكان إذا جاء بيتنا شاب غني ليلعب البوكر ، نادتني ، وطلبت مني أي شيء ، حتى يراني الشاب ، فإذا أعجب بي وبهره جمالي وغازلني ، تغافلت أمي ، وتظاهرت بأنها لا تفهم ما يحدث أمامها .

عرفت عن طريق أمي محامياً شاباً له عربة ميركري فخمة ، اسمه حمادة وكان ذكياً فعامل أمي في رقة بالغة ، فأحبته وأقبلت عليه ، وكثيراً ما كان يشتري لنا الكباب وزجاجات البيرة ويأتي إلى البيت ليتناول طعام الغداء معنا ، وفي ساعات العصر يصحبني أنا وأمي إلى جروبي فأطلب الشيكولاتة باللبن وقطعتي جاتوه ، واحدة « ميلفي » والثانية « ارجنتان » وكانت أمي ترفض دعوته للعشاء ، ولكنه ألح ، فرضيت أخيراً أن نخرج معه ، وجاء معنا عمي محمود ، وذهبنا إلى الأوبرج ، وكنت أدخله لأول مرة في حياتي ، كنت سعيدة ، تضيق الدنيا بأفراحي ، ورقصت مع حمادة حتى انتهت الأوركسترا من العزف ، وعدنا إلى البيت فسألتني أمي عن كل كلمة قالها لي ونحن نرقص ، وسألتني إذا ما كان قد اعترف لي بحبه .

ولكن أمي كانت لا تطيق الخروج بالليل ، لأن هذا يعطل اللعب ، وهو مصدر رزقنا إذ تحصل أمي على نسبة من أرباح اللاعبين لذلك تكاسلت عن الخروج ، وسمحت لحمادة بأن يخرج معي وحده ، بشرط أن تصحبنا

يولاندا .

واكتفت أمي بأن تسألني في صباح اليوم التالي عما حدث بالأمس ، كانت تسألني عن كل شيء هل لصق خده بخدي ونحن نرقص هل قبلني .. وكان لا يهمها أن يقبلني حمادة ، وكانت تقول لي :

ـ الشطارة إنك تخليه دايماً على نار .. لكن اوعي تبرديه .. لو خد غرضه منك موش ح يسأل عنك أبداً .

وكنت مقتنعة بكلام أمي ، وإن لم أشعر أبداً برغبة في الزواج كان كل ما أريده هو أن أتسلى ، هو أن أخرج من البيت في فستان أنيق ، وألهو ، وأدخن السجائر ، وأشرب البيرة ، وأرقص ، وأتناول عشاء شهياً .. كنت أحب الفراخ المشوية الخالية من العظام ، والبيكاتا بالشمبنيون ، ولقد حفظت أسماء كثيرة في قائمة الطعام .. حتى أعرف كيف أنطق بها بالفرنسية أمام الميتردوتيل وحتى أبدو أمام حمادة كبنت ذوات ، لأن الشاب يحب أن تكون البنت التي تخرج معه لبقة ، و « مدردحة » وليست غشيمة .

ورغم أني كنت أحكي لأمي كل شيء إلا أني أخفيت عنها بعض ما فعلته مع حمادة ، إذ كنت استلطفته فذهبت معه إلى شقته الخاصة لا لشيء إلا لأرضي فضولي . وتعرضت طبعاً لهجمات حمادة ومحاولاته ، ولكني نجحت دائماً في المحافظة على نفسي في اللحظة الأخيرة .

ويئس حمادة مني ، فانقطع عن زيارتنا ، ثم سمعت أنه تزوج ، أما أنا فقد تعرفت على شاب ثان وثالث .

وعندما جاء الأستاذ حلمي كامل إلى بيتنا لأول مرة ، رآني فأبدى إعجابه بجمالي ، وقال لأمي إنه يريد أن يظهرني في السينما ..

وظننت أنه يقول هذا الكلام كوسيلة مكشوفة لأن يغازلني وحتى أمي ظنت هذا أيضا ، فقد حذرتني منه ، لأنه عجوز جاوز الأربعين ، ولأنه رغم ثرائه ، فنان ومن رجال السينما ومن الصعب إقناع واحد مثله بأن يتزوجني .

قالت لي أمي إنه نصاب ، ويجب ألا أصدقه ، ولكن الحاج الأستاذ حلمي جعلني أنا وأمي نشك في ظننا ، ومع ذلك عاملناه في حذر ، وقلنا ننتظر حتى

اتكشف لنا الأيام حقيقة غرضه ..

ثم انتقلنا من غمرة إلى بيتنا الجديد في الجيزة ، وقضيت يومين وأنا مشغولة في التنظيف والترتيب فلما كان اليوم الثالث ، لم أطق البقاء في البيت ، وخرجت لأقص شعري عند « رامو » الحلاق في شارع قصر النيل .

وقفت عند محطة أتوبيس الجيزة وكان بين الواقفين شاب أسمر ، يحدق في بنظرات نهمة ، لقد تعودت على هذه النظرات ، وهي لا تضايقني ، لأنها تؤكد لي جمالي ولقد كان لي معجبون كثيرون عند محطة أتوبيس غمرة ، معجبون من كل الأعمار ومن كل الأصناف ، شبان وكهول .. وعزاب ومتزوجون ، وكنت أعرفهم واحداً واحداً ، وأشعر بتأثير جمالي عليهم ، وأشعر بانفعالاتهم وحيرتهم ومحاولاتهم الساذجة التي يقومون بها لجذب انتباهي إليهم ، وكنت أعاملهم حسب مزاجي ، أحياناً أرسل لهم نظرة سريعة خاطفة ، وأحياناً أرسل لهم نظرة طويلة صاعقة ، وأحياناً أتجاهلهم تماماً ، كأني لا أراهم ولا أحس بوجودهم .

كنت أشعر بأني ملكة ، وهم عبيدي ، لم أسمح أبداً لواحد منهم أن يسترسل معي في الحديث ، إذ كنت أفاجأ بين وقت وآخر بمن يتقدم مني ويسألني عن رقم الأتوبيس الذي يقف بالمحطة ، أو يسألني عن الساعة أو أي شيء آخر ، فكنت أجيبه في كبرياء ، ثم أستدير وأعطيه ظهري ، وأقطع رغبته في مواصلة الكلام معي ، وكنت أرفض أن أرد لأي واحد منهم ابتسامته ، أو أبدي أية إشارة تشجعه على مغازلتي ..

إنهم ركاب أتوبيس ، أي فقراء لا يملكون عربات خاصة ، ولا فائدة منهم .

أرسلت إلى الشاب الأسمر نظرة طويلة فاحصة ، إنه أول المعجبين بي في محطة الجيزة ، والبقية تأتي ، ثم تجاهلته ، وفجأة رأيت عربة ستروين تقف أمامي ، يقودها شاب وسيم أبيض الوجه ، يبدو عليه أنه ابن ناس ، واندفع الشاب الأسمر إلى العربة وقبل أن يدخلها التفت إليّ وابتسم ، فحولت بصري عنه ، وراقبت العربة بطرف عيني والشابان ينظران إليّ ، ثم تحركت العربة

ببطء ، وابتعدت ، وبعد برهة فوجئت بالعربة الستروين قادمة من جديد ، والشابان ينظران إليّ ..

أرسلت لهما نظرة فهما منها إني منتبهة إليهما . وإني اعرف ماذا يريدان ، وتظاهرت بأني مشمئزة من تصرفهما ، ولكنهما ظلا ينظران إليّ ، ثم تحركت العربة وابتعدت ... وبعد برهة رأيتها تعود من جديد ..

وابتسمت في سري ولكني ارسلت لهما نظرة غاضبة فضحكا .. ودارت بينهما مناقشة لم اسمعها طبعاً ، ولكني عرفت انهما يتجادلان حول ان يهبط أحدهما ويدعوني إلى ركوب العربة .

قلت لنفسي ، لو حدث هذا فلن أكلمهما في حياتي ، فانا لا أحب الشاب العبيط الذي يكلمني أمام الناس الغرباء في الشارع ويتصور أني سأرضى بالركوب معه من أول مرة ، ثم أن العربة الستروين ليست بالشيء الفخم ، ومن أهم الشروط عندي لأركب مع شاب في عربته ، أن يكون لبقاً ومهذباً ، يعرف كيف يعاملني ، ولا يشعرني بأنه يصطادني من الطريق وكأني واحدة من إياهن .. لابد أولاً أن أعرف من هو صاحب العربة .. وما اسمه وما هي صناعته .. وهل هو من عائلة أم لا ، لقد حولت الحرب كثيراً من الصعاليك إلى أثرياء عندهم عربات وبعضهم وحوش ، إذا ركبت واحدة معهم افترسوها بلا رحمة ..

لعب الخوف في صدري ، ومضت لحظات وأنا قلقة خشية أن يهبط أحدهما من العربة ، ولكنهما لم يفعلا ، وابتعدا من جديد ، وغابا فأدركت أنهما قد خجلا من مخاطبتي وأيقنت أنهما من أولاد الناس الطيبين ، وتوقعت أن أراهما في مرات أخرى ، كعادتي مع المعجبين بي ..

وجاء الأتوبيس فركبت ، وقبل أن يتحرك رأيت العربة الستروين تتهادى ببطء عن شمالي . فابتسمت وأنا أنظر أمامي ، ولابد أنهما لاحظا ابتسامتي ، ولكني رفضت أن أنظر إليهما .

وما حدث بعد ذلك كان شيئاً مضحكاً ، فقد لازمت الستروين الأتوبيس ، أحياناً تتقدمه ، وأحياناً تتأخر عنه ، وإذا وقف الأتوبيس عند محطة ، وقفت

الستروين أيضا ..

هبطت من الأتوبيس في ميدان الأوبرا ، والتفت حولي باحثة عن الستروين ..

حتى لمحتها بطرف عيني ، ثم سرت في اتجاه شارع قصر النيل ، وكنت استطيع في هذه اللحظة أن أفر من المطاردة إذ كان على العربة أن تدور حول الميدان قبل أن تصل إليّ ، ولكني أردت أن أتسلى بهذه المطاردة ، فتلكأت في سيري ، ووقفت أتفرج على الفترينات ، حتى شعرت بهما خلفي ، وكانا يمشيان على اقدامهما .

تلفت نحوهما لفتة حادة ، وتجهم وجهي بينما رقص جسمي من الفرح ، مشيت وقد ملأتني نشوة جارفة ، ورغبة في أن اثيرهما ، والهب خيالهما فما احلى هذا الشعور الذي أحس به عندما ارى شاباً يصعقه جمالي ..

تبعاني حتى وصلت إلى دكان رامو ، فالقيت عليهما بنظرة أخيرة باسمة ، كأني أخرج لهما لساني ، وقفزت إلى الداخل .

كنت واثقة لغير ماسبب أني لن افقد صلتي بهما ، واني سأراهما مرة أخرى ، هناك وجوه تقابلني وتبتسم لي فاشعر وهي تتركني وكأنها تودعني إلى الأبد ، وهناك وجوه أخرى أراها فيحدثني قلبي بأني سأراها مرة ثانية وثالثة .. ودائماً ما يصدق شعوري ..

بعد أن فرغت من الحلاق ، كلمت يولاندا في التليفون فلم أجدها ، فتسكعت في شارع سليمان باشا حتى تعبت من المشي ، وعند عودتي إلى البيت إذا بي ارى الستروين واقفة امام باب الفيلا التي بجوار عمارتنا ، لم يداخلني شك في أنها نفس الستروين ، وقفت امام الفيلا وقد تملكتني الدهشة ، لم اتوقع أن أعرف من هو صاحب الستروين بهذه السرعة ، وثار فضولي ، فنظرت إلى النوافذ فرأيتها مغلقة والبيت يسوده الصمت ، حتى البواب كان جالساً على دكته وقد أطرق برأسه كأنه غارق في نوم عميق ، كان كل شيء هادئاً ينبىء عن وقار سكان الفيلا وثرائهم .

وصعدت إلى أمي وسألتها في لهفة عن جيراننا أصحاب الفيلا ، فانطلقت

في الكلام .. كانت خلال اليومين قد جمعت كل المعلومات عن سكان العمارة والبيوت المجاورة ، وكانت تعرف كل شيء عن أصحاب الفيلا ، وفاجأتني قائلة إن أبي كان يعرف راتب بيه صاحب الفيلا ، ويعرف أباه برهان باشا .

استمعت إليها في وجوم ، وقد ذهب فضولي ، وأخذ مكانه ألم حاد يشق قلبي ، كان آخر ما أتوقعه أن تكون لصاحب الستروين صلة بأبي ، صلة بعيدة أو قريبة .

انتزعني كلام أمي من اللعبة التي كنت أتسلى بها ، انتزعني في قسوة وعنف ، وألقى بي في هوة من التعاسة وغلبتني الأوهام ، أوهام كالجنون تقول لي إن روح أبي هي التي دبرت لقائي بصاحب الستروين ، وهي التي جعلتنا ننتقل إلى هذا البيت بجواره ، وأن أبي قد اتفق في حياته مع راتب بيه أو اتفق مع برهان باشا على أن أتزوج ابنهما .

أنصت إلى أمي وأوهامي تطن في رأسي ، وكانت تثرثر بالحكايات التي سمعتها من أبي عن جيراننا ، روت لي عن عزبة برهان باشا الرجل الكبير الذي كان مشهوراً بالبخل ، والذي كان يجمع الفلاحين ساعة الغروب في مكان أطلقوا عليه اسم « المجعرة » ، لأنه كان يجعر فيهم ويسبهم ويشتمهم ، وكان إذا قال له أحد الفلاحين مساكين ، غضب واحتج بأنهم يعيشون أحسن منه ، وقال إن خدمه يتمتعون بالحياة أكثر مما يتمتع هو ، لأنهم يأخذون النفس الأول من الجوزة ، ويلعقون السمن في قعر البرام .

ونظرت إليّ أمي نظرة مستريبة وسألتني :

ـ لكن انتِ بتسألي ليه ؟

فلم أحاول أن أخفي عنها ما حدث ، وقلت لها في غير اكتراث :

ـ أصل الواد ابنهم عاكسني ..

فسألتني في إهتمام :

ـ مدحت ..

فأجبتها :

ـ ما اعرفش اسمه ..

فقالت : هوه وحيدهم مالهمش غيره ، ثم تنهدت قائلة :

ـ ياريت تتجوزيه يا بهية ..

فلم أرد عليها ، إذ كنت لا أدري ماذا أقول ، وقد احترت .. هل أتجاهل مدحت وأنساه حتى لا يذكرني بأبي ، أم أعرفه ، لا لأتزوجه ، وإنما لأعرف هؤلاء الذين عرفوا أبي يوماً ما ..

وكعادتي ، سرعان ما نسيت كل شيء نسيت آلامي وحيرتي ، ونسيت أبي ، ونسيت مدحت ..

ومرت أسابيع وأنا لا أذكره ، وكنت أخرج كل ليلة مع صديقاتي ، يولاندا أو سناء ومعنا أصحابنا .

وحدث عصر يوم ، أن كنت جالسة مع يولاندا في جروبي ، وكانت تحدثني عن عمل وجدته في محل شيكوريل كبائعة ، وتسألني رأيي ، وفجأة رأيت مدحت جالساً مع شابين ليس بينهما الشاب الأسمر الذي رأيته معه أول مرة ، وكان ينظر إليّ ، فاختلست إليه أكثر من نظرة ، وفي كل مرة كانت عيوننا تلتقي ، كأنه لا يحول عينيه عني أبداً ، وأعجبني منه أنه لم يكن يبتسم ، أو يتهامس مع أصحابه عني ، ولم يبدر منه ما يفضح الحديث الخفي الذي تتبادله عيوننا ..

وقطعت يولاندا كلامها وقالت لي :

ـ انتِ شايفة الواد اللي قاعد هناك .. اللي لابس بدلة كحلي ..

كانت تتحدث عن مدحت ، فقلت لها وأنا أبتسم :

ـ أيوه شايفاه ..

قالت :

ـ ده بيبص ناحيتنا على طول ..

وخشيت أن تظن يولاندا أن مدحت يوجه اهتمامه إليها .. فسارعت أنبهها إلى الحقيقة ..

ـ أنا واخده بالي .. ده جارنا في بيتنا الجديد ..

وحكيت ليولاندا قصتي مع مدحت ، ففحصته بدقة ، ثم أعلنت رضاءها

عنه . وقالت لي مشجعة :

ـ تعالي نقوم يمكن يقوم ورانا .

وغادرنا جروبي .. ومشينا على مهل في شارع المناخ ، حتى وصلنا إلى فترينة دكان مجوهرات ، فوقفنا نتفرج عليها .. وعيوننا تنتقل في قلق بين الجواهر المعروضة في الفترينة والطريق من ناحية جروبي ..

وصرخت يولاندا بصوت مكتوم :

ـ أهو .. جاي ناحيتنا ..

ولم نعد ننظر ناحية مدحت ، وانشغلنا بالجواهر وأنا لا أكاد أراها حتى وصل مدحت إلينا ووقف بجانبنا أمام الفترينة :

وسمعته يقول بصوت خفيض فيه رنة مرح :

ـ إيه رأيك يا مدموازيل في الساعة الأوميجا دي .. اشتريها ..

نظرت إليه في برود ، من فوق لتحت ، ولم أرد عليه ، ولكني لم أتحرك من مكاني ، وأحسست أنه ارتبك ، ولم يعد قادراً على مواصلة الكلام ، لولا أن يولاندا قالت له بصوت ساخر ليس فيه غضب ..

ـ واحنا مالنا ..

وتلقف مدحت إجابة يولاندا فاندفع قائلاً :

ـ أنا متأسف .. بس أنا كنت عايز أسأل ناس عندهم ذوق حلو زيكم .

كان يتكلم في لهجة بريئة ، وقد وضع على وجهه قناعاً من السذاجة ..

فوجدتني أقول له في حدة :

ـ عيب .. أحسن بعدين اشتكيك ..

فسألني في دهشة :

تشتكيني لمين ..

قلت له عن عمد ..

ـ لبيتكم ..

فزادت دهشته . وسألني :

ـ أنتِ تعرفينا ..

قلت وأنا أضغط على كلماتي :

ايوه .. أنت مدحت بن راتب بيه ..

فبدا على وجهه الفرح ، وسألني في لهفة :

ـ وعرفتيني ازاي ..

قلت له :

ـ احنا جيران .. وعيب تعمل كده ..

كنت قد مهدت له كل الوسائل كي يجاذبني الحديث .. فظل يعتذر لي وأصر على ان يوصلني بعربته إلى البيت ..

وركبت أنا ويولاندا الستروين ، ذهبنا إلى غمرة حيث نزلت يولاندا ، وعاد بي مدحت إلى بيتنا في الجيزة وعرفت مدحت ..

* * *

لم تعلم أمي بأخباري عن محمد ناجي ويوسف حتى ظهر اليوم التالي ، استمعت إليّ وهي جالسة في فراشها تشكو الصداع . وسألتني فجأة وقد تذكرت شيئاً :

ـ إيه الاسم الجديد اللي بيقول عليه حلمي .

فحكيت لها ما حدث بيني وبين أنور سامي في الأستديو ، فقالت في ضيق :

حلمي قال لي ..

فسألتها :

ـ وإيه رأيك يا ماما ..

قالت في عصبية ..

ـ انتِ ح تبوظي سمعتك ..

بكرة كل الناس ح تقول بأنك ماشية مع أنور سامي ..

قلت في تحد :

ـ يقول الناس اللي عايزينه أنا مالي ..

فصاحت :

ـ يا بت ما تبقيش مجنونة ..

فرفعت صوتي ..

ـ ياماما انا باشتغل في السينما .. الناس ح تتكلم .. ح تتكلم .. إن ماكنش انور .. ح يبقى واحد تاني ..

فأمسكت رأسها بكلتا يديها .. وقد اشتد عليها الصداع .. وقالت :

ـ اتفلقي ..

شعرت أني لو تماديت معها في الكلام فسينشب بيننا شجار ، لم تكن في احسن حالاتها ، وايقنت أنها قد خسرت في البوكر ليلة أمس ، فتركتها لصداعها ..

قرأت في ذلك الصباح جريدة الأيام باهتمام ، وأنا أتخيل بناءها الضخم . ونوافذها التي تنبعث منها الأنوار ، ومحمد ناجي وهو يهبط من سيارته ، ورغم أن يوسف قال لي إنه سينشر اسمي الجديد بعد يومين ، إلا أني بحثت عن اسمي في كل صفحة وكل سطر ، وكنت انظر إلى الصور المنشورة ، وأتخيل صورتي مكانها ، مكان صورة تشرشل ومكان صورة جنجر روجرز في إعلان عن فيلم ، ومكان صورة قاتل اسمه بسيوني قبض عليه البوليس ، ومكان صورة بنت حلوة في إعلان عن معجون اسنان ..

ولما يئست من الكلام مع أمي ، ذهبت إلى عمي محمود في الحمام ، إنه يقضي النهار كله في الحمام ، وكان يحلق ذقنه ، فسألته :

ـ إيه رأيك يا عمي في اسم سامية سامي ..

قال في حماس ابله ..

ـ حلو .. حلو قوي ..

كان يريد أن يتخلص مني بموافقته السريعة ، ولو كنت قد ذكرت له أي اسم آخر لتحمس له ووافقني عليه في الحال ، فتركته هو الآخر ، وقلت لنفسي فلأنتظر عودة إنصاف من كلية الطب لأسألها ، وامسكت بالجريدة أنظر فيها ولا أقرأ في انتظار تليفون مدحت ..

كان من عادة مدحت أن يتصل بي حوالي الظهر ، بعد أن يغادر بيته ويذهب إلى وزارة الأشغال ..

وتكلم مدحت .. قال لي في مرح وقد نسي غضبه مني بالأمس ..

ـ هيه .. عملتي إيه امبارح ..

فقلت له عن اسمي الجديد ، فأبدى دهشته ، وقال إنه سيظل يناديني باسم بهية ، ولما علم أن يوسف سينشر اسمي الجديد ، سألني في حماس :

ـ وليه مانشرهوش النهارده ..

فأبديت له خوفي من أن ينساني يوسف .. فصاح :

ـ ما يقدرش .. لازم اسمك يطلع بكره في الجرنال ..

وصدق مدحت .. أيقظتني إنصاف في صباح اليوم التالي ، وهي تصرخ من الانفعال ، وفي يدها جريدة الأيام ، ورأيت وكأني أحلم صورة صغيرة لي وإلى جانبها صورة صغيرة لأنور سامي ..

لم أصدق عيني ، ومضت لحظات وأنا لا أستطيع ان أقرأ ، ولا أستطيع أن أفهم ما تقول إنصاف .. وأخيراً قرأت « أنور سامي يتبنى ممثلة جديدة » .. نفس الكلمات التي سمعتها من يوسف ونحن في الأستديو ..

ثم قرأت .. « سامية سامي هو الاسم السينمائي الذي أطلقه أنور سامي على ممثلة جديدة ستظهر معه في دور صغير في فيلم « معك إلى الأبد » يقول أنور إن سامية ستلمع بسرعة كنجمة جديدة ، وانه يتنبأ لها بمستقبل كبير ، لذلك تبناها وأطلق عليها اسمه ..

قفزت صارخة كالمجنونة ، والفرح يزغرد في قلبي .. وقد زاد من فرحي أن إنصاف كانت سعيدة ..

كنت قد سألتها قبل أن تنام عن رأيها في اسمي الجديد .. فقالت لي في وجوم :

ـ كويس ..

ثم أردفت قائلة .. في ارتباك .

ـ طبعاً .. يا بهية لازم يكون لكي اسم تاني في السينما ..

وفهمت ما يدور في راسها ..

إنها تشعر بالخجل من ظهور اسمي الحقيقي في السينما ، ولا تريد أن يعرف أحد أن شقيقتها ممثلة ..

ولم أواجهها بأفكارها .. وفضلت السكوت ..

الفصل الرابع

كان لنشر صورتي في جريدة الأيام تأثير السحر ، شعرت وكأني قد تغيرت في لحظات ، وأصبحت شخصية قوية ، لا شيء يستطيع أن يقف أمامي الآن ، أو يحول بيني وبين ما أريد .

وكان يوماً غريباً .. تجمعت فيه أحداث ألف يوم ، كل شيء يمضي في سرعة مذهلة ، وأنا أتصرف في جنون وشجاعة من ابتسم له الحظ ..

كانت إنصاف قد غادرت البيت وذهبت إلى الكلية ، وتركتني وحدي مع جريدة الأيام ، أنا وصورتي وجهاً لوجه ، وفكرت في أن أوقظ أمي ، كنت أريد أن أصيح وأتكلم وأهلل .. أريد أن يصحو البيت النائم .. ويشاركني في هذا الضجيج الذي أشعر به ، ولكني خشيت أن تشتمني أمي ، فجلست اقرأ الكلام المكتوب عني ، وأعيد قراءته ، وأنظر إلى صورتي ، إنها ليست جميلة مثلي .. أنا أجمل من الصورة ألف مرة ، من أين حصل يوسف على هذه الصورة .. لابد انه أخذها من الأستديو ..

وذهبت إلى المرآة ، لأتأمل وجهي وقوامي .. نعم أنا أجمل من الصورة بكثير ، وامسكت بالجريدة انظر إلى الصور الأخرى المنشورة ، صور زملائي المشهورين .. ستالين ، وفيشنسكي ، وأنور سامي ومحمد الجندي لاعب الكرة في النادي الأهلي ، وأم كلثوم ، وشارلي شابلن ..

انا مثل هؤلاء ، اصبحت واحدة منهم ، يرى الناس صورتي إلى جانب صورهم ، انا مشهورة ، لماذا لا تستيقظ امي الآن ، إنها لن تستيقظ حتى الظهر ، لتشكو من الصداع ، لابد أن تفهم امي وضعي الجديد ، لم أعد بهية عبد الرحمن ، انا سامية سامي ، انا في حاجة إلى فساتين جديدة ، فساتين كثيرة ، لابد أن اذهب إلى رامو مرة كل ثلاثة ايام على الاقل .. ولماذا لا اذهب إلى سقراط ، يجب أن أعتني بجمالي ، وهذا البيت ، كيف نعيش فيه ، إنه بيت حقير .. كيف ارضى أن انام مع إنصاف في حجرة واحدة ، إنها لا تفهمني ، لا احد يفهمني هنا ، كلهم غرباء عني ، كلهم أغبياء ، لا يدركون اهميتي ، يجب أن تعطيني امي نقوداً كثيرة ، لو كانت عاقلة لفعلت ذلك ، مصاريف زينتي اهم من مصاريف كلية إنصاف ، ماذا ستصبح إنصاف .. دكتورة .. هه .. كلام فارغ .. سأشتهر ، وسأغتني ، وسأصرف عليهم ، سأصرف على امي وعلى إنصاف ، وسأشتري فيلا في شارع الهرم ، وسأسمح لهما بأن يسكنا فيها ، وسأشتري عربة فخمة كاديلاك . يجب أن تعطيني امي كل ما أريده من نقود ، وإذا لم تعطني فسأترك البيت ، سأتزوج مدحت ، ولكن مدحت لم يرث بعد ، ولا أظن أن اباه سيموت قريباً .. إنه كسلان ، مازال نائماً ، ولم يقرأ جريدة الأيام ، ولم ير صورتي ، هل اتصل بيوسف واكلمه ، لابد أن افعل هذا ، ولكني لن أوبخه على صورتي ، يجب أن اجامله ، يجب أن اسيطر عليه حتى يواصل نشر أخباري ، وسأختار له صورة جديدة ، سأذهب اليوم إلى سقراط واغير تسريحة شعري ، يجب أن تعطيني امي النقود .. ترى متى يذهب يوسف إلى الجريدة ، الساعة الآن مازالت التاسعة ..

وذهبت إلى النافذة اطل منها على الشارع ، وبحثت عن باعة الجرائد ، فلم أجد احداً ، وكانت سيارات قليلة تجري .. اف .. كل الناس مازالوا نائمين .. لم يقرأوا جريدة الأيام بعد ، لم يروا صورتي ، لو ذهبت إلى سقراط ، هل سيعرفني الناس في الشارع ، لو كانت صورتي اكبر

لعرفوا .. ربما عرفوني ، نعم سيعرفونني ، وسيتهامسون ، ها هي سامية سامي ، إنها أجمل من الصورة .. لن أركب الاتوبيس ، لن اقف عند محطة الاتوبيس ، منذ اليوم سأركب عربة أو تاكسي ، يجب ان تعطيني امي النقود لاركب التاكسي ، لابد ان تفهم ظروفي الجديدة ..

راسي يدور ، لماذا لا تستيقظ امي ، سأصنع فنجان قهوة ، وادخن سيجارة ..

●●

كنت في المطبخ أصنع القهوة ، عندما دق جرس التليفون ، فجريت وانا اتوقع ان يكون يوسف هو المتكلم ، وقبل أن اصل إلى التليفون كان الجرس قد سكت ، نظرت إلى التليفون في غيظ ، ترى من الذي كان سيتكلم ، ايكون مدحت ، ربما .. فلأنتظر ..

وذهبت إلى المطبخ وأحضرت القهوة ، واشعلت سيجارة .. لماذا لا يدق جرس التليفون ..

ونفد صبري ، فرفعت السماعة وطلبت جريدة الأيام ، اريد ان أسأل عن يوسف ، وإذا لم أجده فسأسأل عن رقم تليفون بيته ..

وسمعت صوتاً يقول :

ـ جريدة الأيام ..

فقلت رغما عني :

ـ الأستاذ محمد ناجي موجود ؟

في لحظة خاطفة ، تملكتني رغبة غامضة ملحة في ان اكلم محمد ناجي بدلاً من يوسف ..

وسمعت الصوت يقول :

ـ مين عايزه ؟

قلت بسرعة :

ـ بس وصلني بيه ..

قال الصوت :

- ما اقدرش يا افندم .. لازم أعرف مين اللي عايزه ؟
قلت في حدة :
- قول له واحدة موش عايزة تقول اسمها ..
وسكت الصوت برهة ، ثم سمعته يقول :
- اتفضلي .. ناجي بك معاكي ..
ماذا أقول له .. لماذا طلبته ؟ ..
وسمعت صوتاً ناعماً رقيقاً يتكلم هامساً :
- ألو .. مين ياافندم ؟
سألته :
- حضرتك الأستاذ محمد ناجي ؟
- أيوه .. أي خدمة ..
قلت بغير تفكير :
- أنا واحدة معجبة بيك يا استاذ .
قال في أدب :
- متشكر ..
- أنا دايما بأحب أقرأ لك كل حاجة بتكتبها ..
قال في سرور :
- متشكر قوي ..
وخيل إليّ أنه لا يريد أن يمضي في الكلام ، وكنت أحس بجرأة غريبة ، وبتصميم على أن اشتبك معه في حديث طويل ، فقلت له بصوت وضعت فيه كل أنوثتي :
- أنا خايفة اكون بأعطلك عن شغلك .. وانت غالي عندي قوي يا أستاذ ..
فقال ضاحكاً :
- إذا كنتِ حلوة .. تبقى موش بتعطليني ..
فاطلقت ضحكة ممطوطة فيها إغراء .. وقلت :

- لا .. اطمئن .. انا حلوه موت ..
- إزاي أعرف ؟
- اوصف لك نفسي .. انا عندي تمنتاشر سنة ..
- موش معقول ..
- ما تحبش الصغيرين ..
- بالعكس ..
- وطولي متوسط ، وقوامي رشيق وعيني سود وحلوين وشفايفي صغيرين لكن مليانين .. وكل حاجة فيه حلوة .. إيه رأيك بأه ؟
قال فجأة :
- ومين بأه اللي مسلطك علشان تكلميني ..
- ما فيش حد ..
- بذمتك .. قول لي ومش ح أقول ..
قلت ضاحكة :
- ياترى مين دي اللي أنت خايف منها ؟
قال في ارتباك :
- انا موش خايف إلا منك ..
فضحكت ساخرة وقلت :
- ليه .. عجبتك ؟
- باين عليكي عفريتة .. أنت اسمك إيه ؟
- ماتستعجلش .. كل شيء بأوانه ..
- يعني فيه أوان ؟
- بس ما تستعجلش ..
- احنا في عصر السرعة ..
- إلا ده ..
- إيه هوه .. ده ؟
- اللي أنت بتفكر فيه ..

قال في وقاحة :

ـ أنتِ ابيحة ..

قلت ساخرة :

ـ أنت اللي ابيح ..

ـ طيب بس اديني فرصة .. لا أنا أعرف نمرة تليفونك .. ولا اعرف اسمك .. ولا اعرف أنتِ حقيقي حلوة والا وحشة ..

قاطعته :

ـ إيه رايك في صوتي ؟

ـ حلو ..

ـ صوتي أحلى والا صوت دلال ؟

ـ انتِ بتغني ؟

ـ لا ..

ـ لما أشوفك أقول لك ..

وفجأة همست متصنعة الخوف :

ـ أنا ح اكلمك بعدين .. أحسن جوزي باين عليه صحي ..

قال في دهشة :

ـ أنتِ متجوزة ؟

ـ أه ..

قال في لهفة وقلق :

ـ طيب المرة الجاية اطلبيني في نمرتي الخصوصية ..

وذكر لي رقم تليفونه الخاص ، فجعلت أردده بعد أن وضعت السماعة ، حتى وجدت قلماً وورقة فكتبت الرقم ، واحتفظت به في حقيبتي ..

قلت لنفسي ، يا مجنونة ، ما الذي تريدينه ، ماذا بك ؟

ـ وابتسمت .. إذن فهذا هو محمد ناجي إنه أسهل مما كنت اتصور ، الرجال كلهم سواء ، وكلما تقدمت بهم السن اصبحوا أشد سهولة ، إني

استطيع أن ألعب به ، وستصبح جريدة الأيام راكعة تحت قدمي ، وسأصبح أنا المسيطرة على يوسف .. المسكين .. إنه لا يدري إني استطيع أن أطرده من الجريدة ، وأستطيع أن أحصل له على ترقية .. هل اطلبه .. لا .. سأنتظر حتى يكلمني مدحت .. فأطلب منه أن نلتقي بيوسف الليلة لأشكر له نشر صورتي ، سأطلب من مدحت أن يدعونا الليلة إلى الأوبرج ..

وقبل أن أبتعد عن التليفون ، سمعت رنينه ، فرفعت السماعة وأنا واثقة أن يوسف هو المتكلم ، ولكن فوجئت بصوت غريب يسألني في مرح :

ـ أنتِ كنتِ بتتكلمي مع مين من ورايا ..

سألته في دهشة :

ـ أنت مين ؟

قال معاتباً :

ـ اخص عليكي .. موش عارفاني

قلت في لهفة :

ـ والنبي أنت مين ؟

قال : أنا أبوكي ..

لا يمكن أن يكون هذا هو يوسف .. عرفته .. إنه أنور سامي ، ولكن لم اكن واثقة .. فقلت :

ـ إذا كنت أبويا تبقى بتتكلم من الآخرة ..

فصاح : أعوذ بالله .. إن شاالله أنتِ .

ثم قال :

ـ ازيك يا حلوه ..

ـ ازيك أنت ..

ـ عرفتي أنا مين ؟

- أيوه ..
- طيب انا مين ؟
- أنت بابا أنور ..
- براڤو .. انا حبيبك يابا .. هيه .. ح تسهر فين الليلة دي ؟
قلت له في دلع :
- أنا معزومة ..
فهتف :
- سيبك من العزايم الفالصو .. انا بأحتفل النهاردة بيكي ..
فلم أستطع أن أخفي فرحي ، وصحت :
- والنبي ؟
- أمال .. انا ماعنديش غير سامية واحدة ..
قلت متظاهرة بالحزن :
- لكن صحيح انا معزومة الليلة دي ..
فصاح محتجاً :
- إزاي يا بنت تاخدي مواعيد من ورايا .. موش تستأذني بابا الأول ..
قلت ساخرة :
- اسم الله عليك ..
قال بصوت جاد :
- انا عايزك في شغل ..
وكتمت ضحكة ساخرة .. إني أعلم نوع الشغل الذي يعنيه ، ولكني تظاهرت بأني أصدقه وقلت في سذاجة :
- إذا كان شغل صحيح .. اعتذر ..
- طبعاً تعتذري .. ده شغل مهم .. انا راجل جد .. أفوت عليكي الساعة كام .. تسعة كويس
- خليها تسعة ونص ..
- أحسن ..

وسألته :
- ح نروح فين ؟
فقال :
- موش ح نروح .. الحفلة عندي في البيت ..
- ومين فيها ؟
فصاح :
- يابنت انتِ خايفة .. فيه ناس كتير ..
قلت في تحد :
- حا اخاف من إيه ؟!
فصاح في غيظ :
- ان شاالله تموتي ..
ثم همس في رقة :
- خلاص يا حبيبتي .. تسعة ونص .. ح ازمر تحت .. بس أوعي تلطعيني ..
- انت عارف البيت ..
- طبعاً ..
ووضعت السماعة ، وقد زادت دهشتي من نفسي ، لم يمض على نشر اسمي في جريدة الأيام ساعتين ، حتى أصبحت في دوامة ، اقتحمت دنيا مجهولة كنت اتحاشاها حتى الآن ، غازلت رجالاً لا يفكرون في الزواج ، عرفت رقم تليفون محمد ناجي الخاص ، وارتبطت بموعد مع أنور سامي ، رجلان مشهوران وقعا تحت سيطرتي .. سيفتحان لي طريق الشهرة والمجد ، سأغزو بهما السينما .. هل اقول لامي .. اخشى الا تفهمني .. إن تفكيرها محدود ، طموحها محدود ، كل ما تفكر فيه هو أن اتزوج من شاب غني .. هل أخطأت .. هل يجب ان اختار بين أنور ومحمد ناجي ، ام اجمع بين الاثنين!.. هل استطيع ان اجمع بين الاثنين .. ما الذي يجعلني افكر هكذا ..

لماذا لم يتكلم يوسف ..

هو وحده الذي يتجاهلني ، هو وحده الذي لا يبهره جمالي ، لم يفكر في الاتصال بي منذ تركني في الاستديو ، ولكنه نشر صورتي ، وكل ما يحدث لي الآن بسببه هو .. لابد أن أراه ، ولكني سأخرج الليلة مع أنور ، ماذا أفعل ؟

واستيقظت أمي ، رأيتها تخرج من غرفتها متجهة إلى الحمام ، وعيناها شبه مغمضتين ، نظرت إليّ في وجوم ، وتكاسلت عن تحيتي .. ولكني صحت فيها وأنا أقدم لها الجريدة :

ـ ماما .. شوفي صورتي في الجرنال ..

قالت في إعياء :

ـ نشروها خلاص ..

وأمسكت بالجريدة .. ونظرت إلى الصورة بعينين متعبتين ، ثم مضت إلى الحمام دون أن تقول شيئاً ..

ودق جرس التليفون .. لابد أنه يوسف هذه المرة .. ولكن سمعت صوت الأستاذ حلمي يهنئني بنشر صورتي ، كان يكلمني في حماس ، وقال إنه اتصل بيوسف وشكره ، ونصحني بأن أطلبه في الحال وأفعل نفس الشيء ..

وخرجت أمي من الحمام ووقفت تنصت إليّ ، حتى فهمت أني أتكلم مع الأستاذ حلمي ، فاختطفت مني السماعة ، وقالت بلهجة غاضبة :

ـ إيه يا حلمي اللي أنت عامله في البنت ..

وانفجرت أمي تتهمه بأنه سيفسدني لأن البنات لا يشتغلن في السينما بهذه الطريقة .. كانت تصيح :

ـ يا فرحتي بصورتها .. الاسم بس ممثلة .. واحنا لا شفنا منكم لا أبيض ولا أسود ..

وفجأة قالت أمي في تهديد :

ـ أنا ح أكلم محمد ناجي وأطلب منه يكذب المكتوب في الجرنال ، إلا إذا مضيتو معانا عقد ..

ضحكت في سري ، وأنا أسمع اسم محمد ناجي ، إنها لن تتصل به ترى ماذا تقول لو علمت إني كنت أتحدث معه من نفس هذا التليفون .. ولكن طريقة أمي في الكلام ، ازعجتني ، إذ جعلتني أحس أنها لا تفكر في شهرتي ولا مجدي .. لا يهمها إلا النقود التي ستحصل عليها من ورائي ، إنها تتكلم عني كما لو كنت بضاعة ستبيعها وتأخذ ثمنها .. إنها واهمة ، لن تأخذ مني مليماً واحداً بغير رضاي ، بل سأطلب منها أن تعطيني المزيد من النقود ، وسأهددها ، إذ لو رفضت فسأحرمها من كل شيء .. لقد كبرت ، ولن يضحك عليّ أحد ، حتى ولو كانت أمي ..

ورأيتها تضع السماعة ثم تلتفت إليّ باسمة ، وليس بوجهها أثر من الغضب الذي كانت تتظاهر به وهي تخاطب الأستاذ حلمي ..

وقالت :

ـ لازم نأخذ بالنا .. بتوع السينما دول كلهم نصابين .. فاكرين إنهم ح يضحكوا علينا بصورة في الجرنال ، ويشغلوكي بلاش ..

صحت :

ـ يا ماما .. دى موش طريقة .. انتِ عايزه تطفشيهم ..

فهاجت ، وشتمتني ، وقالت لي بشراسة ، إنها تعرف ما تقول ، ولا تريد مني أن أتدخل وأفسد كل شيء .. وانهارت فجأة على المقعد ، وجعلت تندب حظها الأسود ، يوم تزوجت أبي ، ويم ولدتني ، ويوم اضطرت لأن تلعب القمار لتأكل العيش ..

ومضت تعدد آلامها ، وتمن عليّ بكل قرش صرفته عليّ ، وكل لقمة قدمتها لي ، وكل خرقة اشترتها لأرتديها .. وتمن عليّ بجمالي وكأنها هي التي منحته إياي ، وتمن عليّ السرير الذي أنام عليه ، وتمن عليّ الهواء الذي استنشقه في البيت ، وتمن عليّ أنها تزوجت ، وأنها لم تحصل على المال بجسدها ..

انطلقت الكلمات من فمها ، لاذعة ، مريرة ، قاسية ، وجاء عمي محمود فزعاً محاولاً أن يهدئها ، فزادها حدة وغضباً ، وانهالت عليه هو الآخر بالشتائم ، وهو صابر عليها ، يربت على كتفها ، حتى سحبها إلى حجرتها .

ارتميت على سريري ابكي ، وقد صممت على هجر البيت ، وعقلي يبحث عن المكان الذي احتمي به .. فكرت في أن أذهب إلى يولاندا . وفكرت في انور سامي ، سأذهب معه إلى بيته هذه الليلة واستقر هناك .. وفكرت في الأستاذ حلمي لو أعطاني بعض النقود للجأت إلى بنسيون ، وطلبت من مدحت أن يساعدني ..

وكنت أفكر في نفس الوقت ، اني يجب أن أذهب إلى سقراط لأغير تسريحة شعري ..

●●

تكلم مدحت في موعده ، فقلت له متوسلة :

- اعمل معروف يا مدحت .. تعالى حالاً خدني من البيت ..

فسألني في دهشة :

- إيه اللي حصل ؟

قلت له :

- اتخانقت مع ماما علشان صورتي اللي في الجرنال ..

وظن مدحت ، أن أمي سيدة محافظة ، وانها غضبت لنشر الصورة ..

فقال وهو يتصنع الشهامة :

- أنا جاي حالاً .. بس نروح فين ؟

قلت :

- أي حتة .. بس اخرج من هنا ..

قال في حماس :

- عندي فكرة .. نروح حمام السباحة في النادي الأهلي ..

ووافقته في الحال .. وأنا أقول :

- بس أنا كنت عايزه أشوف يوسف علشان اشكره ..

فقال :

- أنا ح اقول له يحصلنا على هناك ..

بعد ساعة ، كنت ممددة على الحشيش بجوار حوض السباحة ، وقد ارتديت مايوهاً أصفر وإلى جانبي يرقد يوسف على بطنه يعرض ظهره العاري للشمس ، أما مدحت فكان يعوم قاطعاً الحوض من أوله إلى آخره ، وكلما وصل إلى ناحيتنا ، رفع يده ملوحاً ، ثم يغطس تحت الماء ، ولا يظهر حتى يقطع عشرة أمتار او اكثر .

كنت قد نسيت امي وكلامها ، نسيت كل شيء إلا صورتي في جريدة الأيام ، وعيناي تبحثان عن عيون الشباب والبنات والأطفال ومراقبي الحمام .. أحاول أن أعرف من نظراتهم لي ، إذا كانوا قد رأوا صورتي ، وعرفوا من أنا ..

التقت عيناي بكل العيون ، إلا عيني يوسف ، كان لا ينظر إليّ ، وبحثت في اتجاه نظراته عن بنت جميلة أو قبيحة ، فلم أر سوى بعض العجائز لهم كروش كبيرة ووجوه سمينة محمرة ، كان منظرهم مضحكاً .. وقد وقف امامهم مدرب في فمه صفارة ، ينفخ فيها وهو يصيح واحد اتنين .. واحد اتنين .. فينثنون بصعوبة يميناً وشمالاً .. ثم ينحنون إلى الأمام ، ثم يقفون وقفة اعتدال ، كانوا في حال إعياء شديد ، فتحول منظرهم المضحك إلى منظر يثير الشفقة ..

أهذا المنظر أهم عند يوسف مني .. شعرت بالحيرة والغيظ ، ووددت لو أستطيع أن اكسر دماغه وأفتحها لأري كيف يفكر .. لقد قابلته بترحاب شديد ، وشكرت له في حرارة مساعدته لي ، فتمتم بكلمات قليلة مرتبكة ، ثم غرق في صمته ، ولما طلب منا مدحت أن ننزل معه إلى حوض السباحة ، قال يوسف إنه يفضل الجلوس في الشمس فجلست معه لأعطيه فرصة لأن يغازلني أو بالقليل يجاذبني الحديث .. ولكنه لم يفعل ، وفضل عليّ منظر العجائز .. كيف انفذ إليه .. كيف أسيطر عليه ..

وجاء الخادم بزجاجتي كوكاكولا ، فصببت زجاجتي في الكوب ، حتى ارتفعت الرغاوي ، وفاضت على جانبه وسقطت على المايوه .. فصرخت ، وسألت يوسف أن يعطيني منديله . وأعطاه لي ، وبينما أنا أمسح الكوكا لمحت نظرة غريبة منه يصوبها إلى المايوه .. نظرة سريعة مختلسة ، ولكني فهمتها ..

إنه يقاوم جمالي ..

وانتهزت الفرصة ، فبدأت الهجوم .. سألته :

ـ عمرك ما حبيت ؟

نظر إليّ يوسف في قلق ، وقال بصوت كأنه آت من بعيد :

ـ أيوه حبيت ..

وحول بصره إلى العجائز ، وكانوا قد رقدوا على الأرض كالموتى .. شعرت أنه لا يريد أن يقول أكثر مما قال ..

فقلت ساخرة :

ـ موش باين عليك ..

فتغير وجهه وسألني وهو عابس :

ـ موش مصدقاني ؟

قلت في سخرية أكبر :

ـ يالئيم ..

فالتفت إليّ في حدة ، كان وجهه غاضباً ، وعيناه غاضبتين ، وقال بصوت غاضب :

ـ أنا مابكدبش ..

كانت لهجة حاسمة ، قاطعة ، جعلتني أحس أنه صادق ، واضطرتني لهجته إلى العدول عن سخريتي .. فسألته جادة :

ـ وما تجوزتهاش ليه ..

فالتفت ناحية حوض السباحة ، وهز رأسه في قلق ، حتى خيل إليّ أنه يفكر في أن يتركني ويقفز في الماء هرباً من سؤالي .. وتذكرت أن أباه قد تزوج من

خادمة ، هل ذكره سؤالي بزواج أبيه ، والتفت إليّ ، وفي عينيه نظرة طويلة حائرة ، وبدأ عليه التردد ، ثم قال بسرعة :

ـ اتجوزت واحد تاني ..

فسألته :

ـ ولسه بتشوفها ..

قال في دهشة :

ـ طبعاً لا ..

قلت وأنا أتنهد متصنعة السذاجة :

ـ أنا نفسي أعرف يعني إيه الحب ..

فأطرق برأسه .. ثم رفعها فجأة ، ورشق عينيه في عيني ، في جرأة لم أعهدها فيه وسألني :

ـ عايزه تعرفي صحيح ؟

شعرت أنه يريد أن يتحدث بإخلاص .. وأنه يرهق نفسه بهذا الإخلاص ..

قلت في حذر :

ـ صحيح عايزه أعرف ..

فسكت برهة ثم قال :

ـ الحب هو أن الواحد يحب ..

سألته ضاحكة :

ـ قصدك إيه ..

فأشار بيده في ضيق وقال :

ـ الإحساس بالحب ما يتفسرش ..

وظهر عليه التعب فجأة ، كأنه فكر سنة ، وتكلم عشر سنوات .. ماهذا .. لماذا يحول حديثنا عن الحب إلى شيء مرهق جاد .. لقد تعودت عندما أتكلم عن الحب أن أسمع حدوتة أو نكتة ، تعودت أن أضحك وأسخر ، تعودت أن أكون

ذكية ، أقول كلاماً براقاً ، وأشعر بأني خفيفة مرحة ... لم أتعود هـذا العبوس .. وهذا القليل الجاد والاجهاد الذي ظهر عليه .

شعرت بالا فائدة عن مواصلة الحديث معه .. إنه غامض غريب .. فسكت ، ولكنه فجأة انطلق يتكلم في حرارة :

ـ تعرفي الحب زي إيه .. زي المراية .. أنتِ لما بتبصي في المراية موش بتشوفي نفسك .. بتشوفي لون شعرك .. بتشوفي الفستان اللي لابساه .. شكله إيه .. تفصيلته إيه .. أهو الواحد لما بيحب بتبقى اللي بيحبها زي المراية اللي بيشوف فيها نفسه .. بس بيشوف حاجات تانية ..

كان يقول كلاماً غريباً ، لم أسمع مثله في حياتي ، ورغم غرابة كلامه شعرت بأنه يهزني ويؤثر في .. لسبب لا أفهمه .. همست :

ـ بيشوف حاجات زي إيه ..

قال :

ـ بيشوف حياته الحقيقية .. بيشوف اللي جواه .. المستخبي في نفسه .. بيشوف قوته .. ضعفه .. الحاجات اللي عايز يعملها .. الحاجات اللي خايف منها ، بيشوف إزاي ممكن يبقى فرحان .. فرحان بحق وحقيق .. وبيشوف إزاي يبقى زعلان .. زعلان بحق وحقيق ..

ثم قال بلهفة كأنه تذكر شيئاً هاماً :

ـ الواحد لما بيحب بيعيش .. فاهمة قصدي ..

فاحترت ماذا أقول له .. كنت أحس كلماته ، أشعر أني أفهمها ، ولكني لا أدري كيف أحسست بها ، أو كيف فهمتها ..

وكانت عيناه في عيني ، فشعرت برجفة في قلبي ، وكان شيئاً ينزاح من فوق عيني ، فيحملني إلى عالم جديد ، عالم لم أعرفه من قبل .. عالم رقيق وحنون وحزين ..

في تلك اللحظة خطر لي سؤال مفاجيء ، لا أدري كيف قفز إلى رأسي ، لا أدري كيف فكرت فيه ، سألته :

ـ الحنان عندك أهم والا الحب ..

فابتسم ، ابتسامة حلوة ، طيبة ، عاقلة ، وقال :

ـ الحنان والحب شيء واحد ..

ثم قال كأنه يخاطب نفسه :

ـ أظن كده ..

قلت بصوت غريب عني ، كأني مخلوقة أخرى تتحدث ..

ـ أنا عايزه حنان ..

فسألني في وجوم :

ـ أنتِ ما حبتيش أبداً ..

قلت وقد تذكرت ماركو :

ـ حبيت وأنا عيلة صغيرة ..

فنظر إليَّ يطلب مني أن أستمر .. ولكني ضحكت قائلة :

ـ كان حب عيال ..

وقاومت رغبة مفاجئة في البكاء ..

من بين عشرات الشبان الذين عرفتهم ، وغازلوني وغازلتهم ، لم يقل لي واحد منهم شيئاً كهذا عن الحب ، حتى أنا ، لم أكن أعرف أني أبحث عن الحنان حتى هذه اللحظة . نعم أنا محرومة من الحنان ، ولا أحد يعطيني الحنان ، ربما كان يوسف يستطيع أن يعطيني الحنان ، إن ما يقوله يثير في الشجن ، حقاً إنه شخص غريب جديد ، واحد ليس كالآخرين .

أممكن هذا أن يكون يوسف مازال يحب تلك التي تزوجت غيره ، إنها مجنونة ، إذ تترك حباً مثل هذا ، ليتني أجد من يحبني هذا الحب .

وتنهدت وأرخيت جسدي ، فقد شعرت أنا أيضا بالارهاق ، والتعب .. وسرحت مع سحابة في السماء تشبه البطة ..

ماذا يحدث لي لو أحببت حباً مثل هذا الحب الذي يتحدث عنه ..

في المساء كنت أجلس إلى جانب أنور سامي في عربته اللنكولن البيضاء ،

يفوح العطر من جسدي ، ويفوح العطر من جسده ، نضحك كالمجانين ، وهو يروي نكاتاً بذيئة متلاحقة ..

ورغم ذلك كان مازال في قلبي ذلك الشجن الذي احسست به وانا مع يوسف ..

ظل شبح يوسف يلازمني ، يجلس بيني وبين انور ، ويدفعني إلى المقارنة بين الاثنين ، حاولت أن انساه ، وأن أغرقه في ضحكاتي العالية ، فلم افلح .

وكان انور يسير بعربته في بطء .. يتلكا بها ، وهو ينظر إلى كل سيارة تمر بنا نظرة سريعة خاطفة ، ليتاكد انهم رأوه وعرفوه ، وكان ينظر إلى المارة على الرصيف ، الرجال والنساء على السواء ، كانه يقول لهم هانذا نجمكم الكبير العظيم انور سامي ، وإذا عرفوه وأشاروا إليه ، ابتسم وأسرع قليلاً حتى يبتعد عنهم ، ثم عاد وتلكأ باحثاً عن معجبين اخرين .

كان الجميع يعرفونه ، عساكر المرور ، المنادون ، حتى المتسولون كانوا يعرفونه .

وشعرت بزهو لأني معه ، ولأن الناس كلهم كانوا ينظرون إليّ في اهتمام ، والبنات تحدق في تحسدنني ، ولم يضايقني انهم كانوا يهتفون .. انور سامي .. انور سامي .. ولا يهتفون باسمي .. كنت أشعر أن يومي قريب ، يوم يعرفونني كما يعرفونه ، ويهتفون باسمي كما يهتفون باسمه .. لم أشعر نحوه بغيرة أو حسد ..

ولكني شعرت بغروره .

وكان يلف ويدور في الشوارع كالتائه ، فسألته :

ـ أنت عايز تروح فين ..

قال :

ـ اهو بنتفسح شوية قبل ما نروح البيت .

ـ والناس اللي عازمهم في البيت ..

قال ضاحكاً :

ـ ناس مين ..

قلت في غيظ :

ـ يعني ما فيش حفلة ..

قال في وقاحة :

ـ اقول لك يسر .. ما فيش حفلة .

ثم أردف :

بس ده سر بيني وبينك .. أوعي تقوليه لحد ..

فسألته وكأني لا أعرف الجواب :

ـ طيب عايزني أروح البيت ليه ؟

فنظر إليّ كمن يتهمني بالغباء ، وقال ساخراً :

ـ أنتِ باين عليكي عبيطة ..

قلت في عناد :

ـ أيوه عبيطة ..

فمصمص شفتيه في استنكار وقال :

ـ باه اسمعي .. انا ما أحبش العبط ..

قلت :

ـ قسمتي .. طلعت كده ..

قال :

ـ في البيت ح أغسل كل العبط اللي في مخك ..

قلت في حدة :

ـ انا موش جاية معاك البيت ..

نروح أي حته تانية ..

فصاح غاضباً في شراسة :

ـ اسمعي يا بت .. ما توجعيش دماغي .. انا موش بتاع لف ودوران ..

واوقف العربية فجأة وصاح :

إذا انتِ ح تستعبطي .. اتفضلي انزلي من العربية ..

أذهلتني المفاجأة ، لم أتوقع أن تبلغ وقاحته إلى هذا الحد ، إنه يعاملني كما لو كنت خادمته .. جاريته ..

أردت أن أصرخ .. ولكني فوجئت بكل قواي مشلولة ، كأن قوة هائلة قد سحقتني ، كل شيء في عاجز عن الحركة ، حتى الكلام عجزت عنه .

كنت يائسة ، مضعضعة ..

وابتسم ..

كنا في شارع قصر النيل ، الناس من حولنا ، والعربات تزاحمنا ، ومئات العيون ترقبنا ، ولم يكترث بشيء ، مد ذراعه وأحاط به كتفي ، وجذبني إليه فلم أقاومه ..

وهمس :

ـ أنتِ مجنونة .. لسه طايشة .. عايزه تعقلي ..

كان يتكلم وكأنه ينصحني ، وكان صوته رقيقاً حنوناً ، كاذباً ، أطرقت برأسي ، وفكرت في يوسف .. لم أفكر فيه .. تذكرته وهو راقد إلى جانبي في النادي .. تذكرته وكأني أفكر فيه ..

وسمعت أنور :

ـ موش عاجبك تيجي معايا البيت .. اسألي أي بنت .. اسألي أي واحدة ست في البلد دي .. شوفي تقول لك إيه .. شوفي إن ما كنتش تتمنى تيجي عندي . وأنتِ بعد كل اللى عملته موش عايزه تيجي معايا بقول لك أنتِ هبلة موش فاهمة حاجة .. أنتِ ما قريتيش اسمك في الجرنال الصبح .. ما شفتيش صورتك جنب صورتي .. موش شايفاني ماشي في الشوارع وأنتِ راكبة جانبي .. بكرة البلد كلها ح تتكلم عنك .. عايزه إيه أكتر من كدة .. أعمل لك إيه أكتر من كدة ..

سكت ولم أجب ..

فصاح حانقاً .. كأنه لا يصدق أني رفضت الذهاب معه :

ـ عايزه إيه .. قوليلي ..

همست :

ـ ولا حاجة ..

قال فجأة في رقة بالغة :

ـ أنتِ زعلتي ..

قلت :

ـ أيوه ..

فضحك قائلاً :

ـ حقك عليه .. أصل أنا مجنون .. ما تعرفيش دي ..

وضحك كالمجنون ..

وجمت ، وأصبح كل همي أن أفكر في طريقة للخلاص منه .. هل أستطيع أن أتخلص منه دون أن يؤذيني .. دون أن يفسد مستقبلي في السينما ..

ووقف بالعربة أمام عمارة الايموبيليا ، وتقدمني وهو يتمايل في مشيته ، وصعدنا إلى شقته في الطابق الرابع عشر

ما كدت أعبر إلى الداخل ، حتى أحسست أني في سجن جميل ، أريد أن أفر من المكان ، ولكن كل شيء تقع عليه عيناي يشدني إليه ، الأثاث بسيط وبديع ، مودرن ، والإضاءة موزعة ، والستائر صفراء ، وفي الحائط الكبير صورة زيتية لأنور وهو يبتسم في وقاحة ، وتبينت فجأة أنه ليس هناك حجرات ، بل أنا في مكان فسيح ، قد قسمه الأثاث الموزع إلى مكان للجلوس ، ومكان الطعام ، وبار ، وفي الركن البعيد مكتبة مليئة بالكتب .

لم أجلس ، سرت وكأني في معرض ، أتلفت حولي ، بينما انشغل أنور بإعداد كأسين ..

سألني :

ـ الويسكي بالصودا والا بالميه ،

قلت هامسة :

ـ بالصودا

كيف أفر من هنا ، هل أقتله ، هل أستسلم له ، لو كان رفيقاً معي ، لو كان

مهذباً ، إنه لا يحترمني ، لا يحترم شيئاً على الإطلاق ، لا يفكر إلا في نفسه ، إنه وقح ، مجرم ..

وقدم إليّ كأس الويسكي ورفع كاسه قائلاً :

ـ في صحة حبنا ..

شربت في صمت ، وطوق خصري وجذبني إلى كنبة ستوديو قماشها أصفر وأسود . وجلس إلى جانبي وذراعه مازالت حول خصري ..

وأفرغ كأسه بسرعة ، ونهض وعاد ومعه كأسان ..

ورفع كأسه وهو يسألني في غضب :

ـ مالك ..

فتملكني الرعب ، وابتسمت قائلة :

ـ ولا حاجة ..

قال :

ـ أمال مكشرة ليه ..

وجلس إلى جانبي ، ولف ذراعه حول رقبتي ، وعبث بأصابعه في شعري ، ثم قبلني .. قبلني بقسوة ، فتركت له شفتي ، كأنها قد انفصلت عني ، وابتعد عني فجأة .. وسألني باسماً ..

ـ إزي عنايات ..

ـ عنايات مين

فصاح :

ـ عنايات أمك .. هي موش أمك ..

قلت : أيوه ..

فصاح منتعشاً :

ـ أمك دي ست كويسة .. أمورة .. بس يا خسارة ..

ـ خسارة ليه ..

ـ حظها وحش ..

قلت وأنا أتنهد :

ـ أهي عايشة

فصاح :

ـ انتِ متعرفيهاش زي ما أنا اعرفها ..

فأشار إلى كأسي قائلاً :

ـ اشربي كاسك .. انتِ موش ماشية معايا .. طبعاً اعرفها ..

وقام متجهاً إلى البار ..

إنه يحطمني ، يفضحني ، يعريني .. كيف أتخلص منه .. ليتني قلت لأمي إني سأقابله .. كانت نصحتني ، شتمتني ، ضربتني ، قتلتني لتمنعني من مقابلته .

ذات ليلة ، قبل أن تتزوج أمي من عمي محمود ، كنت اذاكر في غرفتي بمنزلنا في غمرة ، كنت في الثالثة عشرة من عمري ، وكانت الساعة الحادية عشرة ، وإنصاف نائمة ، وعادت أمي من الخارج ، ومعها رجل ، لم اقل لها شيئاً ، ولكني خرجت وصممت على الجلوس معهما . قالت لي أمي إنه المحامي الذي يتولى قضية النفقة ضد أبي ، حاولت أن أصدقها ، ولكني تمسكت بالبقاء ، رفضت أن أعود إلى غرفتي .

كان الرجل الذي تقول أمي إنه محام ، طويلاً ، وجهه ضخم مربع ، له أنف مفلطح وشارب صغير مضحك ، وعيناه ضيقتان ، وكان يضحك بصوت عال سمج ، وسألني عن دروسي ، وحاول أن يسترضيني ، فقال لأمي إني ابدو ذكية وشاطرة ، طلبت مني أمي أن أنام ، قالت لي أن أذهب لغرفتي لتتحدث معه في القضية ، فقلت لها إني لا أريد أن أنام ، قالت لي اذهبي وذاكري ، قلت لها لا أريد أن أذاكر ، وتوقعت أن تشتمني أمي ولكنها سكتت وكف الرجل عن الضحك ، ونظر إليّ في قلق ، ونظر إلى أمي في قلق ، وتكلم معها في أشياء سخيفة ، كان كلامه مهذباً ، ولكنه قال لها إن ساقيها جميلتان ، لا أذكر المناسبة التي انتهزها ليقول هذا لأمي ، وبعد قليل نهض وقال إنه سينصرف لأن الوقت قد تأخر ، وعند الباب همس في أذن أمي بكلمات لم

أسمعها ، ولكني سمعت أمي تقول له : ما فيش فايدة ، مرة ثانية .. ثم رفعت صوتها قائلة .. ده كله غلط ..

في تلك الليلة قاومت النوم .. قاومته كأني سأموت لو نمت ، ومع ذلك شعرت بالنوم يغالبني .. ويتسلل إلى جفوني وإلى فمي وصدري وساقي ، شعرت بالنوم في راسي وفي بطني ، وقبل ان أصرخ .. لا أريد أن انام .. كنت قد نمت ، كنت قد مت ..

أنور يعرف أمي ، متى عرفها ، أيعرف ذلك المحامي ، أيعرف ما حدث تلك الليلة في غمرة ، أيعرف أشياء أخرى لا أعرفها أنا ، أكانت له علاقة بأمي .. لماذا لم تحدثني أمي عنه .

عاد أنور ومعه كأسان أخريان ، وكنت قد أفرغت كأسي .. لا فائدة الليلة ليست ليلتي ، لن أستطيع الفرار منه ، لن أستطيع الفرار من نفسي ، لماذا لا أنسى كما تعودت أن أنسى .. إني مازلت أذكر يوسف .

قال أنور وهو يقبلني في شفتي :

- إيه رأيك في البيت موش حلو
- حلو أوي
- تحبي تعيشي فيه
- جنة

تكلمت بلا وعي ، وشربت بلا وعي ، وضحكت ، وبادلته القبلات ، قبلته بنفس القسوة التي يقبلني بها ، لم أعد أحس بغير هذه القسوة كنت اقبله وكأني سأقتله بقبلاتي واستسلم له ليقتلني بقبلاته ، وضغط بصدره على صدري عيناه في رموشي ، وانفاسه تلسع جفوني ، وتهب على فمي وأنفي ، ما نوع العطر الذي يستعمله ، لم أشمه من قبل ، لا وقت للسؤال ، يداه تشدان لحمي ، انه يلهث وأنا ألهث .. ارتطمت أنفه بأنفي ، أنفه تؤلمني ، أمسكت بشعره ، جذبته ، إنه يتألم ولكن لا يصرخ ، أسنانه تقطع شفتي ، أذنه ترتطم بأذني ، يده تشد صدري ، الفستان سيتمزق ، دفعته بيدي لامسك بعنقي وضغط بأصابعه عليه يخنقني ، عيناه في فمي، أسنانه في رقبتي ،

أصابعي في عينيه ، يداه تهبط إلى ذيل الفستان يريد أن ارفعه ، قمت جالسة ، فطوقني ، حاصرني بذراعيه والصق صدري برأسه ، أنفي ترتطم بكتفه ، يداه تعبث بزراير الفستان ليفكها ..

همست :

- أنور .. موش ح أقدر ..

لم يسمعني .. أمسكت بيده أبعدها عن الزراير ..

- ما تزعلش مني ..

قال في لهفة :

- إيه يا حبيبتي ..
- موش النهاردة
- ليه
- مرة تانية
- موش ممكن ..
- موش ح اقدر .. انا متضايقة زيك كمان .. لكن اعمل إيه ..
- مستحيل ..
- والله العظيم ما اقدر .. ليلة تانية ..
- بعد ده كله
- والله .. والله ح أجيلك بنفسي ..
- وما قلتليش ليه من الأول ..
- كفاية نبوس بعض ..
- وتسيبيني كده ..
- ما تزعلش .. أنا مكسوفة منك .. ضايقتك ..
- عايزه تموتيني ..
- والله العظيم ما أقدر ..

وتركته في تلك الليلة وأنا أتساءل ما قيمة الشيء الذي أنقذته منه بعد كل ما فعله بي .

قال وأنا اترك عربته أمام بيتنا :

ـ ح أشوفك امتى ..

قلت : بعد يومين ..

ـ إن شاء الله تموتي ..

ـ ما تزعلش .. حقك عليّ .. ح أعوضها لك ..

ـ ح أكلمك ..

ـ امتى ..

قال غاضباً :

ـ لما اقضى ..

وانطلق بعربته . قبل أن أصل إلى باب العمارة ..

في الصباح طلبت جريدة الأيام .. وسألت عن يوسف ، سمعت صوته :

ـ الو ..

لم أرد عليه ..

ـ الو .. الو ..

واقفلت السكة ..

وادرت القرص ، وطلبت محمد ناجي في تليفونه الخاص ، وجاءني صوته ..

ـ الو ..

ـ أنت فاكرني ..

●●

وتعددت مكالماتي مع محمد ناجي ، واستطعت أن أسيطر عليه ، واجعله ينتظرني في شوق ، ويتلهف إلى الحديث معي لفترات طويلة ، وكأن لا عمل له سوى الحديث معي ، وكان إذا دق جرس التليفون الآخر في مكتبه ، يطلب مني أن انتظر ، ويتحدث مع وزراء في السياسة ، ويتحدث مع مليونيرات ، كان صديقه المليونير شهدي باشا يتصل به فيروي له محمد ناجي الأخبار والنكت والتشنيعات ، وكانت سيدات تتصل به وأشعر إنه يستمع إلى فضائح يروينها

له ، وكان يتصل بالمطبعة وبالمحررين الذي يبلغونه الأخبار ، الدنيا كلها كانت تتصل به ، والأخبار كلها تسرع إليه وهو جالس في مكتبه ، وأنا على الطرف الآخر من تليفونه الخاص أنصت في فضول وأسمع بعض ما يقول ويفوتني الكثير مما يهمس به فأشعر بأنه يعيش حياة باهرة مثيرة ، وأشعر بزهو كبير لانه يهتم بالحديث معي أكثر من اهتمامه بكل هؤلاء الذين يعرفونه .

سألت مرة عن عدد التليفونات التي في مكتبه فقال بسرعة :

ـ اربعة ..

ثم عاد وقال :

ـ خمسة ..

فضحكت قائلة :

ـ أنت موش عارف عدد التليفونات اللي في مكتبك ..

فقال في خجل ، وهو أحياناً يخجل بغير مناسبة :

ـ والله ما عدتهمش أبداً ..

احياناً كنت اسمعه يتحدث مع يوسف ، اسمعه يناديه ، أو يطلب منه أن ينشر خبراً عن عبد الوهاب ، او يقول له إن أم كلثوم غاضبة من كلام قرأته في الجريدة ، فتنتابني رجفة ، واقاوم رغبة مجنونة في أن اقول له إني اعرف يوسف وأسأله عنه .

كان محمد ناجي قد اقتنع بأني زوجة فاشلة في زواجها ، وكنت أخترع له كل يوم خناقة جديدة مع زوجي ، فأشكو له بخله وغباءه وحيوانيته ، وحدث بعد تلك الليلة التي قضيتها في بيت أنور سامي ، أن قرأت في جريدة الأيام أن أنور طار إلى بيروت ، وأدهشني الخبر ، ولكني تذكرت أني سألته ليلتها متى سيتصل بي فقال غاضباً « لما اقضى » .

بعد أن قرأت الخبر اتصلت بمحمد ناجي ورويت له ما حدث بيني وبين أنور على أنه وقع بيني وبين زوجي بالامس ، قلت له إنه وحش ولم اعد أطيق الطريقة التي يحبني بها ، كل ما يهمه هو جسدي ينال منه ما يريد ثم يهملني ، لا يقول لي كلمة حلوة ، الفاظه بذيئة جارحة ، وإنه عاد بالأمس فطلبت منه أن

تذهب إلى السينما أو نتناول عشاءنا في مكان ترقص فيه ، فرفض وادعى أنه متعب ثم قال لي إنه جائع فأكل ، وظننت أنه سينام ، ولكنه هجم عليّ في قسوة يريد أ يفترسني ، ثم غط في نومه ، وتركني مذعورة من بشاعته ..

استمع إليّ باهتمام ، وسألني عن كل التفاصيل ، كيف قبلني ، ما الذي أحسست به نحوه ، نوع قميص النوم الذي كنت ارتديه .. سألني عن كل شيء .. حتى كدت انسى أني اروي له ما حدث لي مع انور منذ أيام ، وإنى متزوجة فعلاً .

وسألني : ـ هو جوزك أصله إيه ، فلاح ،

قلت : ابداً

ـ باين عليه كان محروم وهوه صغير .. عنده كبت ..

قلت متظاهرة بالغضب :

ـ عمره ما كان محروم .. هوه اللي كده ..

ـ اعوذ بالله ..

فقلت ثائرة :

ـ قرفني من الرجالة ..

فضحك قائلا :

ـ لا .. أنا لازم أدافع عن سمعتنا ..

قلت لأغيظه :

ـ لو خنته موش ح يكون معاك ..

فصاح :

ـ ليه بأه ..

ـ كده ..

ـ وح تختاري مين ..

ـ شاب صغير ..

فقال منفعلاً وقد صدقني :

ـ ح يتصرف معاكي ألعن من جوزك .. كلهم محرومين ومتوحشين ..

ثم صاح في خوف :

ـ أوعى تعملي الغلطة دي .. تندمي ..

قلت ساخرة :

ـ حتى لو كان معاك ؟

ـ لا .. دي ما تبقاش خيانة ..

ـ امال يبقى اسمها إيه .

ـ تبقى علاج نفساني ..

كان ماكراً ، يحاول أن يتسلل إليّ بطريقة لبقة ، وكان يصمم على رؤيتي فاراوغه ، ولكني لا أجعله ييأس ابداً ، وكنت ارسم له بخيالي صورة زوج وهو مزيج من انور سامي وعمي محمود ، استرحت لهذه الصورة ، واسترحت لأن أوجه إليهما شتائمي وثورتي ، وكنت انظر إلى عمي محمود بعد أن افرغ من حديثي مع محمد ناجي فأشعر برغبة في الضحك .. وتمر بي لحظات سعيدة .

قال لي محمد ناجي ذات مرة :

ـ أنا لازم اشوفك النهاردة ..

ـ اشمعنى النهاردة ..

ـ عايزك ضروري .. ح اقولك فكرة قصة جديدة .. عايز أعرف رأيك فيها ..

قلت في لهفة :

ـ القصة عني .

ـ أيوه .

ـ أنت بتضحك عليّ

فصاح غاضباً :

ـ يعني ما فيش منك أي فايدة ..

قلت متراجعة :

ـ أنا خايفة ..

ـ خايفة من إيه ..

ـ لو حد شافني داخلة الجرنال وقال لجوزي .

- ومين قال إني ح أشوفك في الجرنال ..
- ح تشوفني فين ..
- في بيتي ..
- اللي في الزمالك ..
- لا .. عندي بيت تاني ما حدش بيعرفه .. في شارع ماسبيرو ..
ثم أردف قائلاً ببساطة :
- الساعة اربعة كويس ..
- بس ح أقول لجوزي إيه ..
فصاح :
- يعني موش ناقص إلا دي موش قادرة عليها .. ستاتك ما بتوجعكيش .. ما بتروحيش للكوافير .. وما بتزوريش واحدة صاحبتك ..
- ماتقول لي القصة في التليفون .
صاح في ضيق :
- ما ينفعش .. ثم ده سر .. موش عايز حد يدخل عليّ وأنا باحكيلك ويعرف إني باستشير حد في قصصي ..
- ابقي اسكت لو دخل عليك حد ..
- يا ستي ما ينفعش .. احكيلك القصة بالقطاعي .. تفقد تأثيرها .. ثم انا عايز أعرف بعض التفاصيل منك ..
كان الإغراء كبيراً ، تخيلت قصة يكتبها محمد ناجي عني ، ثم أمثلها في السينما ..
فهمست :
- طيب .. أنا ح آجي .. الساعة اربعة بالضبط ..
قال في فرح :
- أنا مستنيكي ..
ووصف لي العمارة ، ورقم الشقة .. سأركب المصعد إلى الدور الخامس ، واتجه إلى اليسار حتى نهاية الممر ، وأضغط على زر الشقة ٥٤ .

وأسرعت إلى حجرتي ، وأغلقت عليّ الباب ، وأنا أشعر ببرودة في أطرافي ، كانت تجربتي مع أنور مازالت تفزعني ، إنه أنور آخر ، أنور في أسلوب ناعم ، ولكنه أنور ، لن يتزوجني ، إنه أوشك على الخمسين من عمره ، عجوز ، حديثه عذب ولطيف ، ولكن هل أحتمل أكثر من هذا ، هل أستطيع أن أتركه يقبلني .. لو علم أني سامية سامي الممثلة .. ولست الزوجة التي تخون زوجها .. ألن يصاب بخيبة أمل ، ألن يتهمني بأني خدعته ، وربما حاربني ، وانتقم مني لهذا السبب وحده .
تزايدت مخاوفي ، فأسرعت إلى التليفون ، واعتذرت له بأن زوجي رفض خروجي .. فلم يصدقني ، فحاولت أن أداعبه فقلت له ضاحكة :
- أنت عارف .. الدكتور كتب لي في الروشتة قرص فيتامين ، وحبه مهدئة للأعصاب قبل النوم .. ومكالمتين تليفون معاك واحدة الصبح وواحدة بالليل .. وبس .
قال في ضيق :
- والدكتور العبقري ده ما وصفش لكى إنك تقابليني ..
- لا .. قالي كلميه وبس .. واستعمليه بحذر ..
- ليه ..
- قال لو استعملتك كتير ح .. أدمن عليك .
فصاح :
- وأنا دكتور الأعصاب بتاعي قالي ما تكلمش واحدة ما تعرفهاش ..
قلت في أسى :
- خسارة ..
قال بعصبية :
- أورفوار ..
وأغلق سماعة التليفون ..
بعد خمس دقائق كنت اطلبه من جديد وأعتذر له .. ووعدته بأني سأراه قريباً ، ولكني طلبت منه أن يمهلني قليلاً ، استسلم ، واعتذر لي عن غضبه المفاجيء ..

وشعرت بأنه فرح كالطفل لما كلمته .. إنه على عكس أنور تماماً مهذب ، ألفاظه ناعمة رقيقة ، ناجي يريد نفس الشيء الذي يريده أنور ، ولكن بأسلوب آخر ، أسلوب لبق لا يجرح ولا يخدش ، كان يشعرني أحياناً بأني أجرأ منه ، وإنه خجول جداً .

فوجئت صباح يوم ، وأنا أقرأ جريدة الأيام ، أن محمد ناجي قد كتب في يومياته حواراً دار بيننا ..

« اتصلت بي تشكو زوجها ، قالت :

- زوجي حيوان ..

قلت : ليه ؟

قالت :

- يريد قتل روحي .. ولا يعترف إلا بجسدي .

قلت :

كثيرات قلن لي زوجي يقتل جسدي ، لا يعترف إلا بروحي ..

قرأت الحوار بسرعة ، حتى وصلت إلى نهايته ، فوجدته ينصح الزوجة بكلام فارغ مضحك .. ينصحها بالصبر وبأن تكون عاقلة ، وألا ترتكب شيئاً تندم عليه ..

وكلمته ..

- إيه يا أستاذ اللي أنت كاتبه النهاردة في اليوميات ..

- هيه .. قريتيه

ضحكت من قلبي :

- أنا مت على روحي من الضحك .. بقيت أقول آه اللي بيقروا يعرفوا الحقيقة ..

- حقيقة إيه ..

- إنك نصحت الزوجة بأنها تيجي تتعالج عندك .. وإلا تقرا لها قصة ..

فضحك :

- بعدين كلهم ييجوا .. ما اقدرش عليهم ..

إنه مغرور مثل أنور ، ولكن غروره محتمل ..

وسمعت جرس التليفون يدق في مكتبه ، ثم سمعته يتكلم ..

- ألو .. أيوه يا يوسف .. طيب نزله المطبعة وبعدين أشوفه .. أنا مشغول دلوقت ..

ثم صرخ في حدة :

- الولد ده ما تنزلوش أخبار .. أنت شفت الخبر اللي نزله النهاردة عن شهدي باشا .. أنا ح ارفده .. ح اوديه في داهية .. ده شيوعي .. بلغ عنه المباحث .. بعدين ابقى فكرني ابعتك لشهدي باشا تعمل معاه حديث ..

قلت له بعد أن فرغ من الصياح :

- يا ساتر .. ده أنت صعب خالص .. إيه الزعيق ده ..

فقال في صوت رقيق كأنه لم يزعق في حياته أبدا :

- محررين نصابين .. حرامية .. شيوعيين .. شهدي باشا صديقي ويتشتم في جرنالي .. ده معقول ..

قلت ساخرة :

- ولو كنت أنا شيوعية تبلغ عني البوليس ..

قال ضاحكاً :

- لأ .. ابقى شيوعي ..

ثم سألني في خوف مفاجيء

- أنتِ شيوعية صحيح ..

قلت وقد خفت أنا أيضا ..

- هيه الشيوعية دي تبقى إيه ..

- ما تدوشيش دماغك بالحاجات دي ..

فسألته في براءة :

- ومين يوسف اللي كنت بتكلمه

- واحد بيشتغل هنا ..

قلت في غير اكتراث :

- وده موش حرامي كمان ..

قال : لحد دلوقتي موش باين عليه ..

قلت ضاحكة :

- بكرة يتعلم ..

وسألته فجأة :

- الحب أهم والا الحنان ..

- إيه اللي خلاكي تسألي السؤال ده .

- عايزه أعرف ..

- الحب طبعاً

- خسارة ..

- ليه

- أنا مابدورش على الحب .. عايزة حنان ..

- ليه .. انتي عيانة .. العيانين هم اللي بيفكروا في الحنان .. والا يمكن شكلك وحش ..

- ياريتني عيانة .. والا وحشة .. والاقي حنان ..

فاستدرك قائلا في حيرة :

- انتِ عايزه حنان صحيح

- أيوه .. بادور عليه موش لاقياه ..

- تعالي شوفيني .. وأنا أديكي كل الحنان اللي انتي عايزاه ..

- ح تديهولي إزاي ..

- بس تعالي ..

- لا .. موش ح الاقيه عندك ..

وكدت أبكي .. وهو لا يدري اني اكاد ابكي ..

قال في حرارة :

- اسمعي .. صحيح أنا نفسي أكتب قصة عنك .. موش ممكن اعرفك اكثر من كده ..

- أنا دلوقت موش عايزه قصة .. انا عايزة حنان ..

بعد حديثي معه ، حاولت أن أتخلص من رغبتي في البكاء ، فبحثت عن جريدة الايام لاقرا الخبر المكتوب عن شهدي باشا ، كنت اريد ان اقرا الشتيمة التي اثارته ، ولكني قرات وقرات ، وبحثت في كل صفحة وفي كل سطر ، ولم اعثر على شيء ، وكدت اجن ، واخيراً قذفت بالجريدة يائسة ..

وفكرت في الاتصال بيوسف ، ثم عدلت ، كنت قد سألت عنه مرتين ، وفي كل مرة كان عامل التليفون يسألني عن اسمي فاقول له :

- قوله واحدة عايزاه ..

فيجيبني في حدة :

- موش موجود .

وكنت اعلم أنه موجود بالجريدة ، إذ اكون قد سمعت محمد ناجي وهو يحدثه فيتملكني الغيظ واقسم ألا اتصل به ، والا اراه ، والا افكر فيه ، ثم أعود واقول لنفسي إنه معذور ، لأنه لا يعلم اني التي طلبته واكتشف اني افكر في الاتصال به من جديد ..

ولكن اعود واتردد .. اخاف لو قلت اسمي لعامل التليفون ، ثم سمعت نفس الإجابة « موش موجود » عندئذ سأتأكد من أنه لا يريد ان يحدثني ، وإنه يتهرب مني ، وهذا شيء فظيع لن احتمله .

انا لا اطيق أن يعاملني احد بجفاء ، لا اطيق أن اتصور اني غير مرغوبة ، او ان احداً لا يريدني ، افضل أن اموت ولا اواجه هذا يوماً ما .. ماذا يبقى لي لو اصبحت غير مرغوبة .. لا شيء ..

ويوسف يمثل لي هذا الخطر ، هو الوحيد الذي ينذرني بأن هناك في هذه الدنيا رجالاً سيلوون لي ظهورهم ، ويتجاهلونني ، ولن يفكروا في الاهتمام بي .. ولن يفلح جمالي في السيطرة عليهم .

قلت لمدحت ونحن نشرب البيرة في الكونتننت جاردن :

- ما شفتش صاحبك ..

- صاحبي مين ..

قلت في غيظ لأنه اضطرني إلى ذكر اسمه :

-يوسف ..

قال في غير اكتراث ..

-كل ما أسأل عنه ألاقيه مشغول ..

-بيحب ..

-يمكن ..

-لازم بيحب ..

قال هازئاً :

-كل الناس عندك لازم بتحب ..

قلت في عناد :

-هوه قالي إنه بيحب واحدة متجوزة .

- امتى قال لك .

-واحنا في النادي ..

قال في دهشة :

-غريبة .. إزاي ما قليش .

- امال صاحبك إزاي ..

قال مدحت وقد تحولت دهشته إلى حيرة :

-ودي حبها امتى ..

-من زمان .. من قبل ما تتجوز ..

ثم هتفت وقد خيل إليّ إني اكتشفت السر ..

-آه .. أنا عرفت .. لازم حب الخدامة اللي اتجوزت أبوه ..

فصاح مدحت وقد ضاقت عيناه :

-والله يمكن .. معقول ..

قلت في ثقة :

-ما فيش غيرها .. هي اسمها كان إيه ..

-مبروكة ..

وانفعل مدحت بالنبأ .. فقضينا بقية الليل ونحن نؤكد لأنفسنا أن يوسف احب

مبروكة الخادمة التي تزوجها أبوه .. واسرفنا في شرب البيرة .. فزاد انفعالنا بما نقول وصاح مدحت فجأة :

-معنى كدة إنه بيشوفها دلوقت ..

قلت مؤكدة :

- ضروري .. وأنت موش دريان .. شكلها ايه مبروكة ..

قال وقد رجع رأسه إلى الوراء محاولاً أن يتذكر :

-بنت جسمها مليان شوية إنما مثير .. حلو قوي .. ولها عنين واسعين .. سود .. وكانت حلوة .. ما فيش فيها عيب إلا ايديها ورجليها .

ومط شفتيه قائلاً :

-كانوا مقشفين ..

قلت له في غيظ :

-وحضرتك بأه كنت بتحبها .

فضحك في استخفاف وقال :

-ده كان زمان ..

ثم صاح مدافعاً عن نفسه :

-ما أنا قلت لك .. موش فاكرة يوم ما قابلنا يوسف أول مرة ..

قلت في اشمئزاز :

-وكنت بتستحمل القشف اللي في ايديها ورجليها إزاي ..

فاحتار ثم قال في بلاهة :

- الحقيقة .. مبروكة دي .. عمرها ما خلتني أحس إنها خدامة .. ولا حتى عندها قشف .. تلاقيها هيه نفسها ما كنتش حاسة بيه .. كانت دايما شايفة نفسها .. وزي ما تكون واحدة قريبتنا من بعيد ..

قلت ساخرة :

-قرايبكم بالشكل ده ..

قال بسرعة :

- لازم تشوفيها علشان تعرفي اللي انا باقوله ..

قلت في حدة :

- تفور .. وأنا أشوف حتة واحدة خدامة لا طلعت ولا نزلت ليه .

وكنت في قرارة نفسي أتمنى أن أراها ، بل كان يضايقني أني اشعر بغيرة نحوها ..

وعدت إلى التفكير في الاتصال بيوسف .. إذا لم أره مع مدحت خلال اليومين القادمين ، فلابد أن أتصل به .. أيتجاهلني هذا الأحمق ، لأنه يحب خادمة .. لو كان هذا صحيحاً فسأفضحه .. سأواجهه بكل ما أعرف .. عاشق الخادمات ..

ومضى اليومان ، ولم أر يوسف وقال لي مدحت إنه سأل أمه عن مبروكة واين ذهبت .. وعن صلتها الآن بيوسف ، فقالت له إن مبروكة قد جاءت تزورها في البيت ، وشكت لها يوسف لأنه لا يعطيها نقوداً ، فأعطتها جنيهاً وانصرفت ..

قلت له :

- وصدقت ..

قال متردداً :

- لو كان يوسف معاها ماكانتش جت تشحت ..

فصحت هازئة من تفكيره :

- دي حركات بتعملها علشان ما حدش يعرف إنها عايشة معاه ..

وخطر لي أن أكلم محمد ناجي في التليفون وأقول له كل ما أعرفه عن يوسف .. قاومت هذه الرغبة بشدة ، شعرت أني سأرتكب شراً ، وجعلت أقنع نفسي بأن كل هذا لا يعنيني .. ولا شأن لي بيوسف .. سواء أحب أميرة أو أحب خادمة .. ورغم ذلك وجدتني أقول لمحمد ناجي كل شيء ..

قلت له :

- موش عرفت حكاية غريبة عن الراجل اللي عندك ..

- راجل مين ..

- اللي موش حرامي ..

- قصدك مين ..

- يوسف ..

- آه .. ماله ..

- واحدة صاحبتي قالت لي إنه بيحب خدامة كان متجوزها أبوه .. ولما أبوه مات عاش معاها ..

فسألني في غير تصديق :

- إيه الكلام ده .. مين اللي قال لك

- واحدة صاحبتي .. والخدامة اسمها مبروكة ..

- موش معقول ..

- طيب اسأله ..

صاح في استنكار :

- وأسأله إزاي بس ..

قلت بصوت حاد :

- على العموم .. لازم تعرف الناس بتقول إيه ..

لم أشعر بحقارتي يوماً ما .. مثلما شعرت بها ذلك اليوم ، وقفت أمام المرآة في غرفتي أنظر في وجهي في غضب ، ألعن نفسي ، وألطم على وجهي في غل ، ولم أنم ليلتي .. وفي الصباح امسكت بالتليفون وسألت عن يوسف ..

سألني عامل التليفون عن اسمي .. فقلت له وأنا أضع اصبعي في فمي ليتغير صوتي .

- مبروكة ..

فصاح العامل :

- يا ستي قلت لك ميت مرة إنه موش موجود .

وأغلق السكة في وجهي ..

إذن فيوسف يقاطع مبروكة .. لماذا .. ما الذي يجعله يقاطعها ويتهرب منها .. يوسف إنسان طيب خجول ، فلماذا يرفض الحديث مع زوجة أبيه . إلا لسبب

خطير .. لأنه يخاصمها . لأنه على علاقة معها ثم تشاجرا .

وطلبت يوسف من جديد وقلت للعامل :

ـ الاستاذ يوسف موجود .. قل له من فضلك .. سامية سامي .

وفي لحظة كان يوسف يهتف في مرح غير عادي .. وحرارة لم أتوقعها ..

ـ أهلا .. أهلا .. انتِ فين .. وحشتيني يا سامية ..

الفصل الخامس

مضى اسبوع ، ربما أكثر ، وأنا اتصل بيوسف كل صباح ، واسمع تلك النبرة الحنونة في صوته وهو يهتف في مرح « ازيك ياسامية » .. احببت اسمي الجديد وهو يناديني به ، واسترحت لصوته ، كان ينسل إلى صدرى ، يهدئني .. يغسلني .. يخدرني ..

وكنت بعد أن أكلمه أشعر بألم ومرارة ، كيف خدعت هذا الصوت الحنون .. أنا التي تبحث عن أي شيء حنون . أي شر في نفسي جعلني أقول لمحمد ناجي عن علاقة يوسف بمبروكة .. آه لو يعلم .. لو يعلم إني جرحته ، وأن الدم ينزف منه وهو لا يدرى ..

يجب أن اصنع شيئا من أجل يوسف ، يجب أن أكفر عن ذنبي ، سأظل أكلمه وأكلمه حتى تجيء اللحظة التي أشعره فيها بأني لست شريرة .. لابد أن أثبت لنفسي أني لست شريرة ، لقد فقدت عقلي لأنه لم يهتم بي .. ولكن .. كيف يهتم بي .. ألم ينشر اسمي ، ألم ينشر صورتي ، أكان لابد أن يهتم بجمالي ، أن يغازلني ، أن يطلب الثمن مثل أنور سامي ، إنه ليس مثل أنور ، وليس مثل محمد ناجي إنه طيب ، ساذج ، حنون ، إنه يحترمني ، صوته المرح الحنون ، كلامه المرح الحنون ، يؤكدان لي إنه يحترمني ، إنه يعاملني كما لو كنت شقيقته أو ابنته ..

هذا شيء مضحك .. هل كنت اتصور أن هناك رجلاً واحداً فى هذه الدنيا يعاملنى كما لو كنت شقيقته أو ابنته .. ربما لانه يحب واحدة غيرى .. لانه يحب مبروكة .. حرام .. إن طيبته هى التى جعلته يقع فى حب خادمة ، سأساعده ، سأنتشله من هذا الحب الحقير ، لابد أن أخلصه من حبه لمبروكة ..

كنت أحدثه بصوت رقيق ، لم أعد أسخر منه أو اتحداه ، بل لم أعد استطيع أن اضحك وأنا أكلمه .. أصبحت أشعر بطمأنينة غريبة وأنا اسمع صوته ، طمأنينة لا يعكرها شيء ، وأتمنى الا يعكرها شيء .. وكنت أقول له بصوت خافت حالم :

- ازيك أنت .. عامل إيه .. لازم تـاخد بـالك من نفسـك .. علشان خاطرى .. كنت فين امبارح .. نمت الساعة كـام .. أنت بتشتغل كتـير يايوسف ..

كنت أعيش معه عشر دقائق كل يوم ، استسلم بعدها لوخم لذيذ ، وأسرح فى لا شيء ، وأحيانا اغمض عينى وأكاد انام .. ثم انتبه لنفسى فأنسى يوسف ، وأنسى ما كنت فيه ، فأتصل بمحمد ناجى ، وأقابل مدحت وأعود إلى أفكارى وحياتى التى تعودت عليها ..

لم أكن كاذبة فيما اقول ، ولا متصنعة ، كنت أشعر حقيقة أنه يجب أن يستريح ، وأن يحافظ على نفسه ، أقنعت نفسى بأنى مسئولة عنه ..

لم يطلب منى يوسف أن يقابلنى .. لم يطلب منى أى شيء ، وشعرت أنه يفسر اتصالى به برغبتى فى معرفة أخبار السينما ، وأخبارى أنا بالذات .. فكان يحدثنى عن الشركة الجديدة للإنتاج بين حلمى كامل وأنور سامى .. وقال لى إنه سمع من حلمى أنه سيكتب معى عقداً لثلاثة أفلام ، وأنه ينتظر عودة أنور من بيروت ليأتى إلىّ فى البيت ويوقع معى العقد ..

سألته :

- تفتكر ح يدفعولى كام ..

- ما اعرفش .. إنما لازم ح يضحكوا عليكى ..

- اخص عليك .. ح تسيبهم يضحكوا علىّ ..

قال بصوت جاد :

- معلهش .. المهم أنك تظهرى الأول ..

- يعنى أرضى بأى حاجة ..

- أيوه ..

- أنت مستشار موش نافع ..

- ماتفكريش دلوقت فى الفلوس

- وأنت مابتفكرش فى الفلوس .

- أبداً .. أنا باشتغل

فبيضطروا يزودوا مرتبى ..

- تفتكر أنا ح ابقى ممثلة كبيرة ؟

- طبعا ..

- وانت ح تبقى صحفى كبير ..

- يمكن ..

- احنا الاتنين ح نكبر مع بعض ، موش كده ..

- فضحك قائلا :

- أنت ح تسبقينى ..

قلت محتجة :

ليه .. أنت بتشتغل كتير ..

خيل إلىّ أنه غير طموح ، ربما لانه يحب خادمة ، إنها لن تفكر فى دفعه ، لن تحركه ، إنها ليست مثلى .. تفكر فى أن تكون لها فيلاً فخمة وسيارة فخمة ، لو كنت احبه لجعلته لا يهدأ حتى يصبح احسن الناس وأغنى الناس ، لجعلته أحسن من مدحت ، وعنده عربة أكبر من عربته ..

كان الأستاذ حلمى كامل قد انقطع عن البيت ، وكانت أمى كلما تذكرته تشتمه وتقول عنه أنه نصاب ، إذ هرب منا بعد أن طالبناه بكتابة العقد ، وحاولت أن اطمئن أمى بعد ما سمعته من يوسف ، ولكنها رفضت أن

تصدقني ، إلى أن اتصل بنا الأستاذ حلمى صباح يوم وقال إنه قادم ومعه العقد ..

قلت ليوسف :

ـ أنا ح أمضي العقد النهاردة .

ـ مبروك ح انشر لك الخبر بكرة ..

ـ أنا خايفة من ماما ..

ـ ليه ..

ـ تتخانق على الفلوس ..

قال ضاحكاً :

ـ خليها تتخانق .. يمكن تاخدى فلوس أكتر ..

ـ وإن مارضيش الأستاذ حلمى

ـ أمضي العقد ..

ـ ولو ماما عندت ..

ـ تفتكرى .. فهميها إن ده في مصلحتك ..

كدت أعترف له أن أمي لا يهمها شيء سوى النقود ، ثم عدلت وأخفيت عنه قلقى ..

وجاء الأستاذ حلمى ، فجلس يتحدث مع أمي دون أن يلتفتا إليّ ، قال إنه سيدفع مائة جنيه ، فصرخت أمي رافضة ، وساومته ، وأنا صامتة كأنى بضاعة .. قطعة قماش يتجاذبها الشارى والبائع ، وقال حلمى أخيراً بصوت حاسم خفق له قلبى :

ـ ما أقدرش أدفع أكتر من كده ، دى مبتدئة .. لسة خام .. ح تكلفنى كتير .. أنا باجازف معاها ..

فصاحت أمي تتحداه :

ـ يعنى احنا اللى موش بنجازف ياسى حلمى .. هيه بسيطة لما يقولوا عليها ممثلة .. مين ح يتجوز بنتي .. أنت بتجازف بفلوسك .. واحنا بنجازف بسمعتنا ياسى حلمى

فضحك ساخراً وقال :

ـ هوه فيه حد بيتجوز ياست نعمات غير الممثلات في الأيام دى .. سمعتها إيه .. كفاية الدعاية اللى ح نعملها لها .. دى عايزه دعاية بعشرة آلاف جنيه ..

وأخرج شيكاً ومد يده إلى أمي ، فاختطفته منه ، ونظرت فيه ثم صرخت :

ـ خمسين جنيه .. دا أنا أخسرهم في ليلة يا أستاذ ..

ولكنها أخذت الشيك ..

قلت لها بعد انصراف حلمى :

ـ ماما .. اديني الشيك .. فصوبت إليّ نظرة حادة وشخطت :

ـ عايزاه ليه ؟

ـ الشيك ده بتاعي ..

ـ اخرسى ..

ـ أنا عايزه فلوسى ..

ـ فلوسك ياقليلة الأدب .. امشي من قدامى ..

ـ هاتى فلوسى .. وأنا سايبالك البيت ..

ـ روحى مطرح ما تروحى ومافيش فلوس ..

وجاءت إنصاف على صوت صراخنا .. وحاولت أن تهدئني ، فقلت لها وأنا أبكي : إن أمي سرقتني .. وسمعت صوت عمي محمود يقول معاتبا :

ـ عيب تقولى لماما الكلام ده .. فانفجرت فيه :

ـ أنت مالك .. هيه دى فلوسك .. والا عايز ماما تصرفها عليك .. فأسرع بالخروج من الحجرة وهو يتمتم في ذلة :

ـ الله يسامحك .. دى آخرة تربيتي فيكى ..

فصرخت كالمجنونة :

ـ أنت ماربتنيش .. اللى ربانى بابا .. أنا عايزه أموت زيك يابابا .. أنا عايزه أموت زيك يابابا .

كنت محاصرة بعيونهم ، بجشعهم ودفنت رأسي في الوسادة أبللها

بدموعى ، وأعجب من ذلك الصوت الذى يهمس فى داخلى ، ويلح على أن اتصل بيوسف ..

بعد قليل ، نهضت من السرير وأمسكت بالتليفون وطلبت يوسف .

ـ ازيك ياسامية .. عملتى إيه ؟ ..

ـ خلاص مضيت العقد ..

ـ ألف مبروك .. مبسوطة ..

ـ فيه حاجة مهمة عايزه أقولها لك ..

ـ إيه ؟

ـ اسمع .. أنت فاضى دلوقت ؟

ـ ايوه .. قولى ..

ـ موش ح أقدر أتكلم فى التليفون ممكن أشوفك ؟ ..

ـ أ أ .. طبعا .. أنا تحت أمرك ..

أحسست بارتباكه ، ولكنى كنت مصممة على رؤيته ، شعرت أنه الوحيد الذى سأستريح معه ..

ـ اقدر أشوفك دلوقت ؟ ..

ـ تيجى لى هنا ..

ـ أشوفك بره أحسن ..

ـ فين ؟ ..

ـ قول أنت ..

قال مترددا :

ـ فى جروبى المغربى ..

ـ ح أكون هناك بعد ساعة .. فى الجنينة .. أوعى ملقكش ..

ـ ح تلاقينى .. ماتخافيش ..

ـ وجدته ينتظرنى فى ركن تحت شجرة بالحديقة ، حدقت فيه وأنا أخطو نحوه ، وكأنى أراه لأول مرة .. كان يبتسم فى خجل ، بدلته تبدو واسعة عليه ،

ورباط عنقه قبيح ، لا يعرف كيف يعقده ، وعندما وصلت إليه رأيت كتفه ملوثاً ببقعة بيضاء سقطت من عصفور يعشش فى الشجرة ..

ـ العصافير وسخت بدلتك .. قاعد ليه هنا ..

فأخرج منديله ، وقد اختلط ارتباكه بخجله ، فأخذت منه المنديل ونظفت كتفه ، كانت شفتاه ترتعشان رعشة خفيفة ، وعيناه قلقتين .. جلسنا وسط الحديقة ، بين الناس ، وطلبنا الشاى والجاتوه .. وانتظرت أن يتكلم ، أن يقول شيئا ، أن يسألنى عن سبب رغبتى فى مقابلته ، ولكنه جعل يتلفت حوله فى عصبية ، وحبات العرق تبل جبهته ، كان يتململ كأنه غير مستريح إلى مقعده ، أو غير مستريح للقائى ، وفتح فمه ، ثم أغلقه ، وفتحه من جديد ، ثم قال وقد خفض بصره :

ـ ازى مدحت ..

ـ كويس ..

وعاد إلى صمته وقلقه ، لماذا يسألنى عن مدحت . يظن إنى أخون مدحت لأنى أقابله بعده .. أهذا هو ما يفكر فيه .. لماذا أنسى دائما أنه ساذج ، وأنه طيب إلى حد البلاهة ..

ـ ما بتسألنيش ليه عايزه أشوفك ؟

همس :

ـ مستنى لما انتِ تقولى ..

سألته فى غيظ :

ـ تفتكر عايزه أشوفك ليه ؟

ـ ماأعرفش ..

ـ متهيألك إنى ببصبص لك .

نظر إلىّ فى ذعر وكنت ثائرة ، مازالت خناقة البيت تلهب رأسى .

ـ انا باقول لك عايزه أشوفك فى حاجة مهمة .. تقوم أول حاجة تسألنى عنها .. هى مدحت ..

قال فى وجوم :

- انتِ فهمتني غلط ..

- لا .. أنا فهماك .. وعارفه اللي بتفكر فيه .. انت فاكرني واحدة بتلعب .. تخرج مع أي واحد ..

كانت عيناه تتوسلان إليّ أن أكف عن الكلام ، أن أرحمه ولكني مضيت اتكلم بلا وعي ، وقد فقدت سيطرتي على نفسي :

- أنت موش فاهم إيه اللي بيني وبين مدحت .. دي موضوع صداقة .. مفيش بينا حاجة أبدا هوه قال لك حاجة غير كده ؟

همس :

- لا

- إذا كان قال لك حاجة تانية يبقى كذاب .. وموش ح شوفه بعد كده أبدا ..

هز رأسه . ثم ثبت عينيه في وجهي ، وشعرت ان تغيراً مفاجئاً قد طرأ عليه ، كان متماسكاً يشع من عينيه حنان جارف ، وسألني بصوت خفيض ولكنه ملىء بالثقة :

- أنت مالك .. فيه حاجة مزعلاكي ؟

كدت ارتمي عليه ، وابكي على صدره امام الناس ، لقد احس بي ، فهمني استطاع ان ينفذ وراء ثورتي وكلامي الغاضب ، وواجهني بالحنان الذي يشع من عينيه ..

- أنا متأسفة يايوسف .. قلت لك كلام سخيف ..

- ولا يهمك ..

- أنا متلخبطة ..

- قوليلي إيه اللي حصل ..

ماذا أقول له ، إن شجاري مع أمي لا معنى له الآن ، لم اعد أفكر في النقود ، لا أريد نقودا ، يكفيني هذا الحنان الذي يشع من عينيه ، لو كان كل الناس مثل يوسف ، لاسترحت .. أنا أشعر بالراحة الآن ، وأشعر بالخجل ..

- كنت عايزه أعرف رأيك .. اشتغل في السينما والا ماشتغلش ؟

ضحك :

- انتِ غريبة .. بتفكري بعد ما مضيتي العقد ..

ثم قال بسرعة وعلى وجهه علامات الجهد :

- لكن أنا فاهم كويس شعورك .. ده نفس اللي حصللي يوم ماتعينت في الأيام ..

وانحني بجسمه على المنضدة التي تفصل بيننا ، وشبك أصابعه ، وددت لو كانت يدي بين يديه .. وقال :

- الواحد وهوه بره بيحلم .. بيتخيل حاجات كتيرة .. لكن أول ما يدخل الشغل .. خلاص .. مفيش أحلام .. فيه شغل وبس ..

- السينما موش زي الصحافة .

- كله شغل ..

- معندكوش واحد زي أنور سامي ..

نظر إليّ في غير فهم .. كنت قد قررت أن أحكي له ما حدث بيني وبين أنور ، لن أروي له كل التفاصيل .. سأكتفي بأن أقول له إنه يطاردني ، وإني خائفة منه ، ولهذا جئت لاستشيره ، ولأعرف رأيه هل استمر في عمل أم أرفضه ..

- انا عايزه أقول لك حاجة بس أوعى تقولها لحد ..

أطرق برأسه موافقاً ..

- احلف أنك موش ح تجيب السيرة دي تاني على لسانك ..

قالت عيناه إنه يقسم ..

قال في رقة بالغة :

- متقوليش إن كنت خايفة مني ..

- لا .. انا واثقة فيك ..

وقلت له إن انور كلمني في التليفون قبل سفره إلى بيروت ، وغازلني ، وقال إن مستقبلي في السينما بيده ، لو استسلمت سيرفعني ، لو رفضت سيقضي عليّ .

- قلتيله إيه ؟

- شتمته ..

فلمعت عيناه ، وزفر هواء كان يحبسه فى صدره .

- لكن أنا خايفة .. تفتكر يعمل حاجة ؟

- ما تخافيش .

- ده شريك الأستاذ حلمى .. قطب جبينه ، وقال غاضبا :

- فيه ألف منتج وم[illegible] غيره ..

- لكن أنا مضيت معاهم عقد ..

وخيل إلىّ أن هذه المشكلة لم أخترعها ، شعرت أنها مشكلتى الحقيقية ، هى التى كان يجب على أن أفكر فيها ، وأخاف منها ، وأستشيره فى حلها .. كيف لم أفكر فى كل هذا حتى الآن .. كيف لا أدرك الخطر الذى أنا فيه ، إلا عندما أبحث عن كذبة .. اخترعت كذبة بها حقيقة ..

- اسمعى .. لو حصل منه أى حاجة قوليلى .. أنا ح أعرف اسكته .

- ح تعمل إيه ؟

- ح أعمل أى حاجة .. لكن تأكدى أنى ح اسكته ..

- هوه ح يرجع من بيروت امتى ؟

فقال فى دهشة :

- أنور .. أنور فى مصر من أول امبارح ..

شعرت بخوف مفاجىء ، كأن أنور سامعنى ، وسيأتى ليضحك فى وقاحة .. ويصيح بأعلا صوته انى أكذب .. لقد وعدت أنور أن أعود إليه ، وربما كان يتصل بى الآن فى البيت ، يطالبنى بما وعدته به .. هل أستطيع أن أقاومه ، هل يستطيع يوسف أن ينقذنى منه ، أنا خائفة من نفسى ، ماذا بى ، كأنى لست أنا ، أنا لست سامية التى قابلت أنور وذهبت معه إلى شقته .. أنا سامية ثانية ، حائرة خائفة ، ولكنى اشعر بالحنان ..

- أنا ماشية بقى ..

- بدرى ..

قالها فى أسى :

- موش ح أقدر اتأخر .. لو صمم على بقائى فسأبقى ، نتعشى معا ونذهب إلى السينما ، وامشى معه فى الشوارع .. أريد أن أمشى معه فى الشوارع .. لا أريد أن أعود إلى البيت واسمع صوت أنور فى التليفون ..

- أنا كمان ورايا شغل ..

لا فائدة .. سيتركنى .. إنه ينظر فى ساعته وينادى الجرسون .. بعد قليل سأعود سامية الأولى .. هه .. أجننت ..

- ح تسهر فين بالليل ؟

فى الجرنال ..

- بذمتك ..

- والله صحيح ..

- موش رايح هنا ولا هنا ..

- ياريت ..

- والست المتجوزة ..

- مين ؟

- اللى بتحبها ..

- انتى لسه فاكرة ..

- يعنى انت اللى نسيتها ..

- انتِ اللى بتفكرينى بيها ..

- ياشيخ .. بص فى عنيه .. ما تكذبش .. يعنى خلاص ما بتحبهاش

- دلوقت .. لا

أيعنى ما يقول .. أفهمت ما يقول .. أم فهمت ما أريد أن أفهمه .. أممكن هذا .. أيريد أن يقول لى إنى أنسيته حبه ..

- قصدك إيه ؟!

فاحمر وجهه ، وخفض بصره ، يريد أن يزوغ من الإجابة ، فالححت عليه .

- صحيح قصدك إيه .. يعنى إيه ما بتحبهاش دلوقت ؟

قال متهربا من سؤالى :

- ولا حاجة .. ما بقتش فاضى أفكر فيها ..

ضايقتنى إجابته ، ونهضنا خارجين .. سألنى وهو يودعنى :

- ح تعمل إيه دلوقت ؟

- ح اعمل إيه .. ولا حاجة .. ح أعمل سامية ..

واندفعت مبتعدة عنه ..

فى الصباح كلمته فى التليفون :

- قول لى.. الكرافتة اللى انت لابسها لونها ايه ؟

- بتسألى ليه ؟

- بس قول لى..

- لونها رمادى منقط بأبيض .

- والبدلة ؟

- مالها ..

- لونها إيه ؟

- رمادى ..

- اوعى تكون البدلة اللى كنت لابسها امبارح ..

- أيوه هيه ..

- أعوذ بالله .. ارميها .. دى واسعة عليك ومبهدله .. انت مين اللى بينقيلك كرافتتك ؟!

- مفيش حد .. أنا ..

- ذوقك موش عاجبنى .. تسمح لى أبقى أختار لك كرفتاتك .. حد يلبس كرافتة رمادى على بدله رمادى

- أنا بالبس اللى بتطلع فى ايدى

- لا .. أنا ما أحبش الراجل اللى موش شيك ..

- هو أنا ح أمثل فى السينما .

- لا .. لازم تبقى شيك .. انت شكلك حلو ..

- اشكرك ..

- والله صحيح .. ممكن تبقى أشيك من كده بكتير .. هى اللى كنت بتحبها ذوقها إيه .. ماقلتلكش ازاى تلبس ..

- ماكنش يهمها .. كانت بتشوفنى ألبس أى حاجة ..

- طبعا .. موش ..

ووقفت الكلمة فى حلقى .. كنت أقول له « موش خدامة » .. باللعصبية ، يجب أن أكون اكثر حذراً فى الكلام ..

- موش إيه ؟ ..

- بلدى ..

- أبدا .. دى من عيله ..

- كذاب ..

- والله بنت ناس اغنيا ..

- بلاش نصب .. بس بس .. انا ما احبش أسمعك بتكذب ..

انا التى تكذب .. كنت سعيدة لأنه يكذب ، لأنه يدعى أن مبروكة بنت ناس .. إنه يخجل منها .. سأعلمه كيف يخجل منها .. سأعلمه كيف يخجل منها أكثر وأكثر ..

●●

- أنتِ شفتى يوسف امتى ..

- من يومين ..

- ومقلتليش ليه ..

- لازم اقول لك كل حاجة .. كنت عايزاه فى شغل ..

شغل إيه ..

- السينما ..

كان مدحت يستجوبنى ، وقد بدا عليه الضيق ، وامتلأ صوته بالشك والريبة ، صوب إلىّ نظرات سريعة غاضبة ، ثم التفت إلى الطريق .. وتقدم

بالعربة فى بطء ، باحثا عن منطقة مظلمة فى الشارع لنقف فيها .

- كنتم بتتكلموا فى الشغل .. والا فى حاجة تانية ..

أطلقت ضحكة عالية ساخرة ..

- لا والنبى إيه .. أيوه كنا بنتكلم فى حاجة تانية ..

وقفت العربة تحت شجرة كثيفة بالقرب منها بوابة من أغصان الشجر تفضى إلى سلم حجرى ترسو فى أسفله عوامة مهجورة . كانت الرطوبة ثقيلة ، تكتم أنفاسى ، والحر جهنم ، والملل يزهق روحى ..

رحبت بالشجار الذى سينشب بينى وبين مدحت ، إنه أفضل من أن اتركه يقبلنى ويعذبنى بلفح أنفاسه .. ويلوثنى بعرقه ..

- على العموم هوه قالى

ونكس رأسه ، ونقر بأصابعه فى عصبية على عجلة القيادة .. إنه يتكلم فى ضعف وتردد على غير عادته .. ماذا قال له يوسف .. أقص عليه حكاية أنور .. مستحيل

- قالك إيه بأه ..

رفع عينيه فى بطء وحولهما بعيدا ..

- موش عيب تروحى تقوليله كلام زى ده ..

أيقنت أنه يعنى حكاية أنور .. انهار يوسف أمامى .. إنه طفل ، عيل .. كيف وثقت به .. وشعرت بحزن يجتاحنى .. لقد فقدت يوسف .. وسمعت مدحت وقد رفع صوته :

- أنت فاكره إنك ح تحرجينى .

- أحرجك ..

قال فى عصبية :

- فاكرة إنى ح اتجوزك بالطريقة دى ..

- اتجوزك .. أنت بتقول إيه .

وإذا به يقول لى إن يوسف طلب أن يقابله ، وسأله إذا كان يحبنى ونصحه بأن يتزوجنى ..

- كان بيكلمنى زى ما يكون وصى عليكى .. أبوكى .. وعرفت منه إنكم اتقابلتم فى جروبى المغربى ، فهمت فى الحال إيه اللى حصل .

صرخت مدافعة عن كرامتى :

- أنا مقلتلوش حاجة .. ما اتكلمناش إلا فى السينما والشغل

قال وعلى شفتيه ابتسامة تكذبنى وتتحدانى :

- اسمعينى كويس .. الطريق دى موش ح تنفع .. جواز بالقوة مفيش ..

كدت أبكى من الغيظ ..

- هوه .. أنا مجنونة اتجوزك ..

- يعنى هو أنا مجنون اللى اتجوزك ..

لا أدرى ماذا قلت له بعد ذلك ، ولكنى واثقة أنى لم أترك سباباً واحداً لم أصفعه به ، وطلبت منه أن يعود بى فورا إلى البيت ..

ونحن فى طريقنا إلى البيت .. لمحت دكان سجائر ، فأمرته أن يقف .. وطلبت منه أن يتصل من الدكان بيوسف .. لأواجهه أمامه .. فتردد ، ولكنى صممت ، كنت أريد أن أرى يوسف ، أريد أن أراه الآن فى الحال .. إنى فى حاجة إليه .

وهبطت مع مدحت ، وأدرت قرص التليفون بنفسى ..

- والله الأستاذ يوسف موش موجود يامودموازيل سامية ..

كان عامل التليفون قد أصبح صديقى وينادينى باسمى ..

- ما تعرفش راح فين ..

- هوه خرج مع ناجى بك .. سألت فى الحاح :

- وراحوا فين ؟

- ما أعرفش والله ..

كنت على استعداد لأن أذهب إليه فى أى مكان ، اقتحم عليه أى جلسة .. حتى ولو كان مع محمد ناجى أو رئيس الوزراء .. أو الملك .. كنت أريده .. أريده بأى ثمن .

قلت لمدحت وأنا أغادر عربته :

- الحمد لله اللي جت على كده ..
- أنا متأسف يابهية ..
- خلاص .. مفيش داعي للأسف
- ح أكلمك بكره ..
- أوعى تتكلم ..
- ما تزعليش .. أنا غلطان .. تعالى هنا .. رايحه فين ..
- أنا موش عايزه أشوفك .. ولا عايزه أشوف يوسف .. ولا عايزه أشوف حد في الدنيا دي كلها ..

وجريت إلى داخل العمارة .. لحق بي البواب عند المصعد وقدم لي ورقة .. غداً سأذهب إلى استديو مصر ومعي فستان سواريه أسود في الساعة الحادية عشرة صباحاً .

دق قلبي وأنا أسمع الأستاذ حلمي يحدثني في انفعال عن مشروعه الكبير ، سيساهم مع شركة إيطالية في إنتاج سينمائي مشترك ، فيلم بالألوان ستمثل فيه سيلفانا مانجانو مع أنور سامي ، وقال إنه يرشحني لأن أمثل دور فاطمة في الفيلم ، دور كبير سيشهرني في العالم ، وسيصورني اليوم بالألوان ويرسل الفيلم إلى روما لتحميضه ، وليرى المخرج صورتي ..

لم أصدق أذني وهو يقول :

- أنا متأكد أنه ح يوافق عليكي .

شعرت برأسي يتضخم ، ودقات قلبي تشتد ، والدنيا تتسع وتدور من حولي ، وتذكرت يولاندا والسنيورا جراتيسيا وماركو ، كأني اقنع نفسي بأني على صلة بإيطاليا ، وأن المخرج الإيطالي سيحبني ، كما أحبوني هم ..

أصبحت قلقة ، وتمنيت لو أغمض عيني وافتحهما فأجد أن كل شيء قد تم ، جاءت سيلفانا مانجانو ومثلنا الفيلم ، وأنا أحضر حفل الافتتاح في روما ، والناس تصفق لي ، وصحف إيطاليا تكتب عني ، وتنشر صورتي ..

ولكن .. كان علي أن أنتظر .. وكل دقيقة تمر تزيد من قلقي ، كان البلاتوه مشغولاً بتصوير فيلم لأنور سامي ، فكرت في أن أذهب وأتفرج عليه وهو

يمثل ، ولكني ترددت ، خفت أن يظن أني قادمة من أجله ، ولكن الوقت طال فلم أصبر ودخلت .. رأيته يقف وسط البلاتوه يضحك بصوت عال ويلوح بيديه وعيناه تشعان بذلك البريق الوقح المقتحم ، الذي يخيفني .

رآني أنور ، فوقفت متسمرة مكاني ، لا أجد في نفسي الشجاعة لأخطو نحوه ، نظرت إليه بوجه جامد وقلب يرتعد ، أما هو فقد حول عينيه بعيداً عني ، وكأنه لا يعرفني ، عجبت لتصرفه ، أيكون قد نسيني أم هو غاضب مني .. على أية حال لقد نجوت منه ..

بعد قليل نادوني إلى حجرة الماكياج حيث أسلمت وجهي للماكيير يلطخه بالمساحيق والألوان ، وأنا أحتج وأقول له إن شكلي أصبح كالعفريتة ، فيطالبني بالسكوت لأني جاهلة لا أفهم في الماكياج الخاص بالتصوير الملون .

وفتح الباب وظهر مرسي مساعد الأستاذ حلمي .. وقال لي وعلى وجهه ابتسامة أكدت لي إن شكلي كالعفريتة :

— الأستاذ أنور عايزك في أوضته .

انتفضت ، وهرب الدم من جسمي .. وقلت في وجوم :

— أنا بأعمل ماكياج ..

قال في حدة :

— ده مستحيل .. فوتي عليه دلوقت .. وبعدين تكملي .. نظرت إلى الماكيير استنجد به ، فقال في برود :

— روحي شوفي عايز إيه ..

— أروح بالشكل ده ..

فهز كتفه كأنه يقول إنه غير مسئول عن تأخيري في تلبية رغبة أنور .. فكرت في أن أخرج من الحجرة وأفر من الأستديو ، وليكن مايكون .. ولكن لماذا أنا خائفة ، سأواجهه بصراحة ، إني أعرف كيف أدافع عن نفسي .

كان أنور يرقد مستلقياً على ظهره فوق كنبه ، وفي يده مجلة نشرت صورته بالألوان في صفحة كاملة ، لم يتحرك من مكانه ، وهتف وسيجارة لم يشعلها تهتز بين شفتيه :

— إزاى مابتسلميش عليّ ..

— شفتك مشغول ..

— إيه .. ما وحشتكيش ..

اطرقت براسى ، فضحك وقال :

— أما شكلك مسخره ..

— بأعمل ماكياج علشان فيلم بالألوان ..

قال فى برود :

— تعالى اقعدى ..

واشار بيده الممسكة بالمجلة إلى الكنبة التى يرقد عليها ، ترددت ، فصاح :

— اقعدى ..

جلست ، فالتصقت بصدره ، فنظر إلى وجهى وهو يبتسم وقال فى تراخ :

— اعملى حسابك على الليلة دى .

عدت إلى التفكير فى القيام ، والخروج من الأستديو ، وسمعته يهمس ويده تعبث بخصرى :

— انتِ وحشتينى يابنت الايه ..

قلت بصعوبة ..

— الليلة دى مش فاضية ..

كنت أشعر وكأن شيئا يكتم انفاسى ، وددت لو أبتسم ، او اكلمه فى مرح ، كعادتى ، ولكنى عجزت ، صدرى متقبض ، وحزن طاغ يخيم علىّ ..

— اسمعى يابت .. أنتِ ح ترجعى للإسطوانة إياها ..

— اسطوانة إيه ..

فقذف بالمجلة على الأرض ، وبرزت عيناه من محجريهما ، وخيل إلىّ انه سيطبق علىّ ويخمد انفاسى ، نظرت إليه فى بلادة ، وكان قد جلس .. وقال وعيناه مثبتتان على عينى :

— اسمعى ياشاطرة .. خلينا كويسين مع بعض .. بلاش تعكننى مزاجى ..

قلت وكأنى فى كابوس أجاهد للخلاص منه :

— احنا مافيش بينا اى حاجة .. قال وقد اتسعت عيناه من الدهشة :

— كده ..

ثم صرخ ..

— احنا موش متفقين يابت .. عايزه تضحكى على انور سامى .. قلت فى تحد ..

— احنا متفقناش على حاجة .. فشتمنى شتيمة بذيئة ..

قلت غاضبة :

— ارجوك ماتشتمنيش ..

فصاح :

— بصراحة أن ماجيتيش الليلة دى معايا .. مافيش سينما .. مافيش تصوير بالالوان .. مافيش حاجة خالص ..

— كتر خيرك .. انا موش عايزه حاجة ..

قال فى غير تصديق :

— إيه .. انا موش عاجبك ..

فسكت ..

— والا عايزه فلوس ..

وانهمرت الدموع من عينى ، فقام مفزوعا ، ووقف وسط الحجرة ، وصاح فى دهشة :

— انتِ بتعيطى ليه ..

— انا عمرى ماسمعت كلام زى ده ..

— انا متأسف .. ماكنتش اعرف إنى لازم أكلمك بحساب .. بالاتيكيت .. ياحضرة البرنسيسة ..

قلت فى حدة والبكاء يمزقنى :

— ماتتريقش علىّ ..

صاح ساخرا :

— إن كنتِ فاكره إنى ابن ذوات تبقى غلطانه .. انا ابن كلب .. انمرغت فى

التراب .. أكلت زلط .. مشيت حافي .. لبست جزمة مقطوعة .. كنت باشحت نص ريال .. كنت بأزوغ من الكمسارى فى الترماى .. كنت بأمشى من شبرا للأوبرا .. الدنيا علمتنى ، مرحتش مدارس ، ياغالب يامغلوب . ياقاتل يامقتول .. ما أعرفش اتكلم زى اولاد الذوات .. أمثل زيهم بس .. أنا أشتم أجدع واحد .. بأشتم أمى .. فاهمه دى .. موش عايزانى اشتمك يابنت نعمات .. عايزانى اقف لما تدخلى .. وانحنى وابوس إيدك ..

كان يتكلم فى مرارة تحولت سريعا إلى هياج وثورة .. يصرخ :

انت مين .. تبقى إيه .. حتة كومبارس بتشتغلى عندى .. يعنى أعمل فيكى اللى عايز أعمله .. أنا انور سامى .. أنا معايا ميت ألف جنيه فى البنك .. ميت ألف جنيه .. يعنى اشتريكى .. انتِ وأمك .. وميه زيك وزى أمك ..

فتح الباب ، ورأيت وجوها تطل علينا ، فأخفيت وجهى بين يدى ، وسمعته يصرخ :

— عايزين إيه ..

صاح أكثر من صوت :

— ولا حاجة ياأستاذ ..

قال ضاحكا :

— بتخانق مع البنت بتاعتى .. موش راضية تسهر معايا الليلة .. عايزانى أركع قدامها وأبوس إيدها .. واكلمها بالفرنساوى .. حضرتها بنت ذوات ..

وسمعت أكثر من ضحكة .. ثم صرخ :

— غوروا من وشى ..

وسمعت صوت الباب يغلق علينا .

مرت لحظة صمت ، ثم ضحك فى عصبية :

— انتِ أصلك غشيمة .. عمرك ما ح تبقى ممثلة كويسة .. طول ما انتِ مكتفة نفسك ..

كانت أصابعى تضغط على عينى ، كأنى أريد أن أفقأهما ، لا أريد أن أراه ، أريد أن أموت .. أريد أن تبتلعنى الأرض ، وارتجفت . كانت يده تربت

على كتفى :

— انتِ بوظتى الماكياج .. قومى روحى صلحيه ..

بقيت جامدة مكانى ، كأنى لا أسمعه .. فجذب يدى يبعدها عن وجهى ، وشدنى ، فقمت منهوكة القوى .. أشعر بدوخة ، وأمسك بكتفى ، ورفع رأسى ، وقبلنى فى جبهتى قائلاً بصوت رقيق :

— خلاص ح اشوفك الليلة ..

رأيت من خلال دموعى ابتسامة بشعة تكشف عن أسنانه البيضاء ، أطرقت برأسى ولم أقل شيئاً ..

— ح افوت عليكى تسعة ونص .. زى المرة اللى فاتت ..

همست :

— أعمل معروف .. ماتفوتش

قال فى دهشة :

— لسه برضه دماغك ناشفه .. ده موش ح يفيدك فى حاجة .. أعقلى

تركته ، وعدت ذاهلة إلى حجرة الماكياج ، وبعد أن انتهى تصوير الفيلم الملون ، انتحى بى الأستاذ حلمى جانبا وسألنى فى قلق :

— انتِ عملتى إيه مع أنور ..

لم أجب ،

فهمس :

— ده زعلان منك ..

قلت والرغبة فى البكاء تعاودنى :

— هوه اللى زعلان منى .. أمال أنا اقول إيه ..

قال بصوت جاد :

— انتِ ناسية انه شريكى ..

قلت يائسة :

— انت عارف هو عايز منى ايه .

فقال فى برود :

— خديه على أد عقله .. ده مجنون وضحك ..

— ما اقدرش ..

فقال في ضيق :

— انتو ح تحيروني معاكم ..

— يعني يرضيك ..

قال مقاطعاً وكأنه يلومني :

— ما انتِ رحتي شقته قبل كده ..

همست في ذعر :

— مين اللي قالك ..

قال وابتسامة خبيثة ترتسم على وجهه ، وعيناه تلمعان ببريق ماكر :

— هوه ..

شعرت بانهيار تام ، وفقدت قدرتي على الكلام او التفكير ، لا فائدة .. لن أستطيع مقاومة أنور .. لا أحد يريد الوقوف بجانبي .. لا أحد .

عدت إلى البيت ، ورأسي يغلي ، وفكرت في يوسف ، هو الوحيد الذي يمكنني أن أطمئن إليه ، ولكني لا أستطيع أن أقول له ما حدث .. كل ما اتمناه الآن هو ألا يصله كلام أنور ، ألا يعرف ما حدث بيننا في الاستديو ، ألا يسمع ما قاله أنور لكل الناس ..

ماذا أفعل ..

كنت يائسة ، مخنوقة ، مضطهدة .. ماذا جرى لي ، ما الذي يفزعني من أنور كل هذا الفزع ، لماذا لا أسايره ، واستفيد من ورائه ، ألم يكن هذا هو ما أفكر فيه أول الأمر .

ولكني عدت إلى التفكير في يوسف .. هو الوحيد الذي أجد عنده الحنان .. ياربي .. ماذا بي .. هل أحببت يوسف ..

لم اطق أفكاري ، فكلمت محمد ناجي ..

— ازيك ياأستاذ .

وقبل أن يرد علي ، كنت ابكي .

— إيه .. مالك .. بتعيطي ليه .

اشتد نحيبي ، وهو يحاول أن يهدئني ..

— موش معقول تعملي كده . مافيش حاجة في الدنيا تستحق العياط ده كله ..

كان في صوته مزيج من التأثر والانزعاج والفضول ..

— انا كذبت عليك ..

— إزاي ..

— انا موش متجوزة ..

— هيه ..

— زعلت مني ..

— ح أزعل ليه ..

— صحيح .. اوعى تزعل مني ، انا ح اقولك كل حاجة .. ماليش في الدنيا صديق غيرك .

— اطمئني .. بس هدي نفسك انا مش مستحمل اسمعك بتعيطي ..

— انا ح اقولك انا مين .. علشان تنقذني ..

— انقذك .. ليه .. إيه اللي حصل ..

— انا خايفة تزعل ..

قال وقد ثار فضوله :

— ح ازعل ليه .. بس قولي ..

— يمكن ماتفتكرنيش .. لكن اسمي وصورتي اتنشروا عندك في الجرنال ..

— كده .. امتى ..

— اسمي ساميه سامي ..

هتف في دهشة :

— آه .. طبعا فاكرك .. دا انتِ حلوة قوي .. حتى لما شفت صورتك قلت إن ده وجه جديد مفيش عندنا زيه في السينما .. ازيك ياسامية .. وليه خبيتي عني المدة دي كلها .

وحكيت له ما حدث بيني وبين أنور ..

قال ضاحكا :

— كان لازم يحصل كده .. هو انتِ ماتعرفيش انور .. ده مجنون .

— الاستاذ حلمى قال كده برضه لكن عايزنى اسايره ..

— وانتِ رأيك إيه ..

— اموت احسن ..

قال فى بساطة كأن لا مشكلة هناك :

— يبقى ماتروحيش معاه .. ولا تسألى فيه ..

— ولو عاكسنى .. وسوأ سمعتى .. ح يبهدلنى ..

قال ضاحكا :

— خلاص .. اعتبرى المسألة منتهية ..

— إزاى ..

— مالكيش دعوه .. سيبهالى ..

— ح تعمل إيه .

— اطمئنى وبس ..

— لا .. والنبى أنا عايزه أعرف ح تعمل إيه .

— انا ليه طريقتى ..

وسألنى فجأة :

— قول لى بصراحة .. أنت بتحبنى .. مش كده ..

قلت وأنا افكر فى يوسف :

— أيوه :

قال ضاحكا :

— يابخته .. ماليش حظ ..

قلت بسرعة :

— وبأحبك أنت كمان ..

فصاح :

— اوعى تكونى بتحبيه زيى .. من بعيد لبعيد ..

— حاجة زى كده ..

قال ساخرا :

— صحيح انتِ لسه صغيرة ..

فوجئت بيوسف يتصل بى قبل ان اتصل به فى الصباح ، لم يعودنى أن يكون هو البادىء بالسؤال عنى ، وقابلته فى جروبى ، جاء متأخرا عن موعده ربع ساعة ، واعتذر بانه كان عند شهدى باشا فعطله ، كنت أتوقع ان يحدثنى عن شجارى مع مدحت ، ولكنه لم يذكر لى شيئا ، وظل يثرثر فى كلام عادى ، ثم دعانى للغداء معه فوافقته فى الحال ، فرحت لانى ساقضى بضع ساعات معه ، وتمنيت ان يكون قد تخلص أخيرا من خجله وبدأ يحس بصداقتنا .. وقلت لنفسى ربما هو يعلم بما حدث بينى وبين مدحت ، وراض عن خصامنا إذن لن يجد حرجا الآن فى الخروج معى ، واعجبنى هذا التفسير لتصرفاته .. إذ اشعرنى انه يريدنى ، وأنه دبر خطة ليقطع علاقتى بمدحت ، وأنه اذكى مما أتصور ، ويريدنى على عكس ما كنت أتوهم ..

قلت لنفسى ، لن أذكر له شيئا عن مدحت الآن ، سأنتظر حتى تتوطد علاقتنا ، ويقبلنى ، عندئذ سأسأله عما قال لمدحت.سرنا فى الشارع جنبا إلى جنب ، وقال فى خجل .. ونحن نعبر مفترق الطرق :

— انا متأسف .. معنديش عربية ..

ايقنت انه يفكر فى مدحت .. فقلت فى حرارة لأشجعه :

— اخص عليك .. أنت فاكرنى إيه .. يعنى هوه أنا اللى عندى عربية ..

ووقفت معه أمام عدة فترينات : اشير له إلى الكرافتات التى تعجبنى وأختار له قمصاناً وأقمشة لبدله ، وأقول له :

— لما يبقى عندك فلوس ابقى قولى .. وننزل نشتريهم سوا ..

ودخلنا مطعما صغيرا فى شارع شريف ، كنت سعيدة بنظرات الزبائن لنا ، إذ ظنوا أننا عاشقين ، وبعد أن فرغنا من الطعام ، أخرج يوسف سيجاراً

ضخماً وشرع فى تدخينه .

وكان واضحا أنه يدخن السيجار لأول مرة ، إذ سعل بشدة حتى أحمرت عيناه ، وضحك قائلاً :

— شهدى باشا أدهولى ، عمرى مادخنت سيجار قبل كده ..

ضحكت ، وسألته بغير تفكير .

— هوه لسه زعلان من الخبر اللى نشرتوه ..

وندمت على ماقلت ، إنى أعرف هذا من محمد ناجى ، ونظر إلىّ يوسف متفرسا فى وجهى وسألنى :

— وإيه اللى عرفك ..

قلت فى ارتباك :

— كان عندنا امبارح ضيوف بيتكلموا فى الحكاية دى ..

— قالوا إيه ..

— قالوا إزاى محمد ناجى يشتم صاحبه فى الجرنال بتاعه ..

وكانت عيناه تقولان إنه لا يصدقنى وسألنى :

— أنتِ قريتى الخبر ..

قلت بسرعة :

— أيوه ..

فابتسم ابتسامة غريبة ، وسكت ثم نادى الجرسون ودفع له الحساب وخرجنا إلى الشارع .. وسألنى :

— عايزه تروحى دلوقتى ؟

— أنت ح تعمل إيه ..

— ولا حاجة ..

ابتسمت قائلة ..

— وأنا كمان ..

— طيب نروح فين ..

— زى ما أنت عايز ..

التفت إلىّ فى حدة ، وسألنى وصوته يرتعش من الانفعال :

— إيه رأيك تيجى عندى ؟

تظاهرت بأنى أفكر ، ثم قلت فى هدوء :

— وإيه يعنى .. معنديش مانع .

كان فى قمة انفعاله ، وقد انتشرت حبات العرق على جبينه ، ودار حول نفسه زائغ البصر ..

— بتعمل إيه ..

— بادور على تاكسى ..

أحسست وكأنه فى مأزق ، كأنه كان يتمنى أن أرفض الذهاب معه إلى بيته .. وسألته :

— هوه فيه حد عندك فى البيت ؟

قال بصوته المتهدج :

— لا ..

قلت وأنا أتخذ مظهراً جاداً ..

— أنت ح تكون عاقل .. أنا واثقة فيك ..

قال فى حدة :

— طبعا ..

وعثرنا على تاكسى ، وركبناه .. وسمعته يقول للسائق ..

— شارع ماسبيرو يا أسطى ..

الفصـــل الســـادس

انها نفس العمارة ، نعم ، نفس العمارة التي وصفها لي محمد ناجي ، لم يبق إلا أن نصعد إلى الدور الخامس ونتجه إلى اليسار حتى نهاية الممر لنجد الشقة ٥٤ ، إني أتذكر بدقة كل كلمة قالها محمد ناجي .

وصعدنا إلى الدور الخامس ، وانحرفنا إلى اليسار حتى نهاية الممر .. ووقف يوسف أمام باب عليه رقمان معدنيان بارزان يؤكدان أن هذه الشقة هي ٥٤ ، شقة محمد ناجي التي أراد أن يقابلني فيها .

اخرج يوسف مفتاحاً صغيراً من جيبه وأداره في القفل . قلت لنفسي أول هدية سأشتريها له ستكون سلسلة مفاتيح ، شعرت أني قادمة على مغامرة ، ولم أكن خائفة ولا قلقة .. بل أشعر بفضول شديد ، ماذا يريد يوسف مني .. لماذا كذب عليّ وقال إنه ذاهب إلى شقته . آه لو يعرف .. لو يعرف إني أعرف .

دخلنا صالة كبيرة مفروشة بأثاث قديم . ولكنه فخم . المقاعد ضخمة وثيرة . والأباجورات من القطيفة الخضراء ، لها قوائم من الخشب المنقوش وستارة خضراء كبيرة تغطي باب شرفة تطل على النيل ، وسجادة فارسية ثمينة تغوص فيها أقدامنا وتغطي الصالة كلها . ثمنها لا يقل عن خمسمائة جنيه ، وراديو وبيك آب قطعة واحدة من الموبيليا . واسطوانات كثيرة ، كانت الجدران مطلية بالزيت في لون فستقي فيه طيف من اللون الأزرق الفاتح ..



علقت عليها لوحات زيتية لمناظر فى ريف أوروبى . المكان يوحى بالوقار والثراء والراحة .. وهناك ممر ضيق يخرج من يسار الصـالة ويفضى إلى بقيـة الحجرات ..

وقفنا فى الشرفة تطل على النيل .

فلفحتنا شمس قوية ، وهمس يوسف :

- تشربى كوكاكولا ..

كان منفعلاً ، قدماه قلقتان ، وعيناه قلقتان . وتحرك إلى الداخل فتبعته إلى المطبخ ، كان نظيفاً مرتباً . وفيه فريجيدير ، فتحها يوسف فلم يجد بها سوى زجاجات بيرة وكازوزة .. قلت ساخرة :

- أنت موش عارف عندك إيه .

فارتبك واحمر وجهه ، وفتح زجاجة الكازوزة بيد مرتعشة ، وعدنا إلى الصالة وجلسنا على مقعدين متقابلين ، بينى وبينه حوالى مترين ، نظرت إليه فوجدته يبدو واجماً مهموماً .. فانطلقت أضحك . نظر إلىّ فى قلق وريبة وسألنى :

- بتضحكى على إيه ؟
- ولا حاجة ..
- صحيح بتضحكى على إيه ..
- مبسوطة .. عايزنى اكشر .

فزاد ارتباكه ، وحاول ان يتكلم فتلعثم وقال كلاماً غير مفهوم .. كان يحدثنى فى السياسة ، وبدأت أشعر بالغيظ نحوه .. فقررت أن أهاجمه :

- تعرف أنا كنت بضحك ليه ؟
- ليه ..
- علشان أنت بتكذب علىّ ..

ابتسم فى عصبية ، ودارت عيناه فى قلق ، ثم هتف بصوت مشروخ :

- ليه بأه ..
- ماتنكرش .. الشقة دى موش بتاعتك ..

قال بسرعة فاجأتنى :

- أيوه موش بتاعتى ..

رغم المفاجأة ، شعرت بالراحة أنه لا يستطيع ان يمضى فى الكذب .

- بتاعة مين بأه ؟
- واحد صاحبى ..
- مين هوه ..
- بتسألى ليه ..
- موش أعرف أنا فى بيت مين .

فتح فمه ، ثم أغلقه ، خشى أن يعترف لى بالحقيقة ، وتوقعت أن يخترع لى اى اسم .. ولكنه رفض . وصمم الا يقول من هو صاحب الشقة ، رغم استفزازى له ، كنت أقول له من وقت لآخر « أنت باين عليك خايف منه » أو « اوعى توسخ حاجة بعدين ياخد منك المفتاح » أو « أنت خايف تقولى اسمه أحسن آجى معاه بدالك » . فكان يبدو عليه الألم ولكنه لا ينطق باسم محمد ناجى ..

مضت ساعة أو أكثر . وهو يتصرف وكأننا فى محل عام ، بل كان يعاملنى وكأننا غرباء ، فاحترت ولم افهم غرضه الحقيقى من المجىء بى إلى هنا ، وشعرت بالملل ، فقمت معلنة إنى ذاهبة ، فلم يعترض وصافحنى باليد ، وسار معى حتى الباب ، وحتى تلك اللحظة كنت ما زلت أتوقع ان يقبلنى ولكنه لم يفعل ، وخرجت وأنا أشعر بضيق وغموض ..

●●

سألنى محمد ناجى :

- إيه رأيك فى الشقة :

كان يتكلم فى مرح ، وتمنيت لو كنت أراه ، خيل إلىّ ان عينيه تشعان بالمكر ..

- شقة عواجيزى ..
- معجبتكيش ..

- بالعكس دى فخمة قوى ..

اعتبريها شقتك .. أنا قلت ليوسف ..

صرخت مقاطعة فى احتجاج :

- هوه بيقولك كل حاجة ..
- زى ماأنتِ بتقوليلى ..
- أنا موش فاهمه هوه عايز منى إيه ..
- لسه موش عارفة .. بيحبك .
- ياسم .. أعوذ بالله ..
- بلاش غلبه .. وأنتِ كمان بتحبيه ..
- أنا .. ماالقتش غير الكلب ده عشان أحبه ..
- قسمتك كده .. حبيتى واحد غشيم ..

حدثنى قلبى أن محمد ناجى يقوم بلعبة غريبة ، لعبة ماكرة ، إنه يلعب بيوسف ويلعب بى ، لقد أعطاه مفتاح شقته وشجعه على أن يأخذنى هناك ، لاشك أنه يريد أن يستدرجنى .. الشقة ، ولعله يقول لنفسه إنى إذا ذهبت مرة مع يوسف .. فسأذهب معه هو مرة أخرى ، لابد أن أحذر منه ، ولكنه قال لى شيئاً هاماً ، يوسف يحبنى ، إنى أشعر بهذا ، رغم ارتباكه ووجومه وتصرفاته الغريبة ونحن وحدنا فى الشقة ، صحيح إنه غشيم ، وأنا أجد نفسى مندفعة وراء هذا الحب الغشيم ، محمد ناجى على حق ، يوسف يحبنى ، وأنا أحبه ، أليس هذا غريباً من بين كل الناس فى هذه الدنيا ، أحببت يوسف ، أحببت شاباً لا يملك عربة ، غشيم ، يخجل من أن يقول لى إنه يحبنى ..

أصبح يوسف يكلمنى كل يوم أكثر من مرة ، وتقابلنا فى جروبى عشرات المرات ، حتى عرفنا الجرسونات ، وكانوا يذكرون لنا طلباتنا ، الشاى والجاتوه ، قبل أن نطلبها منهم ، وسألنى يوسف أن أذهب معه مرة ثانية إلى الشقة ، فرفضت ، كنت خائفة من أن يتكرر نفس ما حدث فى المرة السابقة .. فيعاملنى ببرود .. وكنت خائفة من أن يحدث شىء آخر . لقد حدث لى تطور غريب ، لم أعد أفكر فى القبلات ، أصبحت حالمة سارحة . أستريح لحديثه

عن أى شىء ، أستريح لصوته الهادىء ، أستريح لعينيه الحنونتين ، وكلماته الرقيقة ، شعرت أنى أتخلص وأنا معه من أشواك ، وإبر كانت توخز صدرى ، تعودنا أن نذهب إلى السينما ونتكلم عن الفيلم بعد أن نخرج منه . كانت آراؤه جديدة ، تدهشنى ، وكان ينبهنى إلى أخطاء فى القصة وأخطاء فى التمثيل ، وكان ينبهنى إلى أشياء جميلة لم ألحظها ، ولكنه بعد أن ينبهنى إليها أحس وكأن شيئاً أشرق فى رأسى ، وأحس أنى بدأت أفهم أكثر وأكثر ..

أحياناً كنت أحتار ، وأشك فى كل ما أحس به نحو يوسف . وأسأل نفسى أهذا هو الحب ، ولا تنتهى حيرتى إلى شىء . كل ما أصل إليه بعد تفكير طويل ، هو أنى فى حاجة إلى يوسف ، لا أريد أن يمضى يوم واحد دون أن أراه ، وأسمعه .. وأحياناً كنت أنظر إلى وجهه وهو يحدثنى فلا أفهم ما يقول ، وأجد نفسى أفكر فى أبى .. تكرر هذا كثيراً ، لدهشتى فقد تعودت أن أطرد ذكرى أبى من رأسى ، وأنساها حتى لا أتألم ، ولكنى أصبحت أذكره فى وجه يوسف بلا ألم ، أذكره بحزن وحنان .. فى أيامنا القديمة . وأنا طفلة صغيرة يوم أخذنى إلى لونابارك .. وركبت المراجيح .. وبكيت فمسح دموعى بمنديله واشترى لى جيلاتى ..

وكنت أحكى ليوسف ما أتذكره ، لم أحدثه سوى عن طفولتى وأبى ، أما أمى فقد تجاهلتها تماماً ، كأن أمى هى التى ماتت ، وأبى هو الذى ما زال حياً يعيش معى .

كنت ألعب فى فناء المدرسة مع الأطفال ، كنت أجرى لاهثة ، أطارد صديقة لى اسمها نوال ، وفجأة رأيت أبى أمامى ينظر إلىّ ضاحكاً . وقفت دفعة واحدة وقد رفعت عينىّ مبهورتين إلى قامته المديدة .. ورأسى لا يكاد يصل إلى ركبتيه ، وأخذنى من يدى وخرج بى من المدرسة والدراسة لم تنته بعد ، وذهب بى إلى مقهى وجلس معى .. واشترى لى شيكولاته ثم ذهب معى إلى الحاتى وأكلنا ، أكلت كفتة وكريم كرملة .. وعدنا إلى البيت وتشاجر مع أمى .. رويت ليوسف القصة كلها ما عدا نهايتها حتى لا أذكر شيئاً عن أمى ..

كنت أجلس معه عند الحاتي ، وكان يستمع إلى ، وأنا اثرثر واثرثر ، وبي رغبة في أن اتكلم إلى الأبد ، وعندما عدت إلى البيت استلقيت على سريري واجهشت بالبكاء ..

قالت لي إنصاف في انزعاج :

- مالك ..
- مفيش
- أمال بتعيطي ليه ..

قلت لها وأنا ابتسم وابكي :

- مبسوطة ..

فنظرت إليّ يائسة من أن تفهمني .. ثم تمتمت :

- انتِ باين عليكي اتجننتي ..

قلت وأنا أمسح دموعي بكفي :

- آه ..

قالت وهي تتنهد :

- ربنا يخليكي بعقلك ..

وأردت أن أسألها .. إذا ما كانت تذكر بابا ، ولكني عجزت عن النطق بالسؤال .

وأدركت لحظتها إني لن استطيع أن اتكلم مع أحد عن أبي سوى يوسف .

في اليوم التالي سألني يوسف مرة أخرى أن اذهب معه إلى الشقة ..

- موش معقول تكوني خايفة مني ..

قلت مترددة :

- أنا موش خايفة .. لكن ح نعمل إيه ..

قال جاداً :

- عايز أقولك حاجة مهمة ..

وذهبت معه ، فعاد إليه ارتباكه ، ووجومه ، وسألته بعد أن قضينا وقتاً طويلاً نثرثر بكلام عادي ..

- يعني مافيش حاجة مهمة عايز تقولها لي ..
- لا فيه ..
- إيه .. هيه ..
- موش عارف أقولك إزاى ..

قلت في رقة :

- قول ماتخافش .. أنا مستعدة أسمع منك أى حاجة ..
- بعدين تزعلي ..

هتفت :

- أزعل منك .. مستحيل ..

ثم قلت ببطء :

- أنت موش عارف قد ايه انت عزيز عندى ..

قال بصعوبة :

- وانتِ كمان ..

ثم غرقنا في صمت طويل مرهق .. كنت أسمع خلاله أنفاسه وأنفاسي ، وكأننا نصعد سلالم لا نهاية لها ..

- ساميه .. أنا لازم أقول لك .. أنا بأحبك ..

رغم اني كنت اتوقع الاعتراف ، إلا أني أطرقت برأسي ، وقد صعد الدم إليه ، وسمعت طنيناً في أذني ، كأني أسمع الكلمة لأول مرة . نعم إني أسمعها لأول مرة ..

وانطلق يتكلم ، وقال كلاماً غريباً .. سمعته بقلبي .. سمعته بكل ذرة في جسدى ..

- أنا موش عارف إيه اللى حصل لي .. أنا حاسس إني بأحبك من زمان .. بأحبك من قبل ما أشوفك .. زى ما أكون فهمت ليه أنا اتولدت وجيت في الدنيا دى .. بأحبك وأنا باكتب والقلم في ايدى .. باحبك وأنا راكب الأتوبيس ومستعجل .. باحبك وانا قاعد قدام شهدى باشا وباخد منه سيجار . باحبك وأنا نايم باحلم .. باحبك وانا نايم من غير ما احلم .. لما باتنفس باحبك .. لما

باشرب باحبك .. لما أعطش باحبك .. سامية .. أنا تعبان .. أنا باحبك ..

همست :

- أنا موش عايزه أتعبك ياحبيبي ..

وبكيت ..

- سامية .. ارجوكي .. أنا ح أعيط أنا كمان ..

قلت ودموعي تبلل كلماتي :

- أنا كمان بحبك .. لكن موش عايزه منك حاجة .. موش عايزه منك حب .. كفايه علىّ حنانك ..

- ماتقوليش كده يا حبيبتى ..

سألته بعينين تتوسلان إليه :

- ح تدينى الحنان اللى أنا عايزاه .. موش ح تعذبنى .. موش ح تقوللى كلام يضايقنى .. أنا خايفة .. موش ح اقدر اتعذب منك ..

- حبيبتى .. أنتِ بتعذبينى بالكلام ده ..

- بكره ينتهى الحب .. ومالقكش جنبى ..

- مستحيل .. حياتى تنتهى وأنا لسه باحبك .. باحبك وأنا عايش .. وح احبك وأنا ميت ..

- بعد الشر ..

وانتظرت أن يقوم ويقبلنى .. ويضمنى إلى صدره .. كنت أريد أن أقبله .. وأن أشعر بذراعيه تطوقانى .. وأنفاسه تدفئنى .. ولكنه لم يتحرك من مكانه .. هل أقوم وأقبله أنا .. ماذا به .. ألم يعترف لى بحبه .. ألم أعترف له بحبى .. لقد تجمد مكانه .. عيناه زائغتان .. وشفتاه ترتعشان .. وقد فقد القدرة على النطق ..

قمت .. وذهبت إلى الراديو .. وعبثت بمفاتيحه وهو صامت .. لا يفكر فى النهوض والاقتراب منى .. لابد أن أخلصه من هذا الغباء ..

- الراديو بيشتغل إزاى ..

سألته دون أن أنظر إليه ..

فأحسست به يتقدم نحوى .. وارتجف جسدى .. وأنا أتوقع يديه تلمسان خصرى فى أية لحظة .. ولكنه وقف إلى جانبى فى غباء .. وأدار الراديو وسألنى فى بلاهة :

- عايزة محطة إيه ..

قلت يائسة :

- أي محطة ..

والتفت إليه .. عيناى فى عينيه .. ليس بين وجهينا سوى شبر واحد .. كان العشق يشع .. من عينيه والخجل أيضاً .. وكان العشق يطل من عينى والحيرة أيضاً .. وعدت إلى مقعدى .. وعاد إلى مقعده .. والراديو يغنى .. سأنفونى .. سأنفونى دا أمور ..

سأغيره .. سأغير طباعه .. سأجعله الشاب الذى أريده .. سأعلمه كيف يحب .. إنه خام .. غشيم .. ولكنى أموت فى حبه ..

- فيه حد يعرف إنك بتحبنى ..

قال فى عصبية ..

- لأ ..

- فيه ناس تحب تحكى لصاحبهم ..

- ما أقدرش أحكى ..

- إذا كنت قلت لحد قوللى ..

- والله ما قلتش ..

- محمد ناجى يعرف ..

- يعرف إيه ..

- إنك بتحبنى ..

- بيشك ..

- قلت له حاجة ..

- لاحظ إنى مهتم بيكى .. يوم مانشرت الصورة ..

- أرجوك ماتقولهوش ..

أطرق برأسه موافقاً فعدت ألح عليه ..

- بذمتك .. أوعى تقوله ..

نظر إلىّ كأنه يقسم ..

- موش ح أقوله .. تأكدى .
- حتى الشقة دى بلاش .. نشوف شقة ثانية أحسن ..
- حاضر ..
- بتقول حاضر كده .. وبعدين موش ح تدور على شقة ..
- لا .. ح أدور ..
- امتى ..
- بكره ..
- ح تقولى فى التليفون ..
- أيوه ..

شعرت براحة كبيرة .. وتخيلت نفسى فى شقتنا الجديدة . لن تكون بهذه الضخامة .. ولا بهذه الفخامة ، ولكنها ستكون لنا .. لنا نحن الاثنان ..

وابتسمت له ..

- مانفسكش فى حاجة ..

قال فى ارتباك ..

- ايه ..
- موش عايز تبوسنى ..

كان منظره يثير الشفقة ، لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه . ولكنه قام متثاقلاً كأنه يحمل فوق رأسه حملاً ثقيلاً ينوء به ، وتقدم منى فمددت له يدى ، ورفعت له رأسى وأسبلت عيناى ، وانحنى علىّ وقبلنى فى جبينى ، ثم قبلنى فى شفتى قبلة سريعة ، وفتحت عينى لأراه واقفاً يلهث ، ووجهه شاحب وأنفاسه تتلاحق ، والتقت عيوننا ، وأقبل علىّ يريد أن يقبلنى ،

فدفعته بعيداً فى رفق ، خفت أن تضايقنى قبلاته ، لقد تأكدت أنه غشيم .. ربما كانت هذه هى أول مرة يقبل فيها فتاة ..

همس فى لهفة :

- عايز أبوسك ..

فضحكت هاتفة :

- روح اقعد مكانك .. خليك عاقل ..

وأطاعنى فى الحال ..

- احكيلى عن البنت اللى حبتها قبل كده ..
- عايزه تعرف ليه ..

كنت أتوقع أن يقول لى إنى أول حب له .. رغم أنى أعرف قصة مبروكة .. ورغم أنه اعترف لى أنه أحب من تزوجت غيره .. فى تلك اللحظة كنت أشك فى أنه أحب مبروكة أو أية فتاة أخرى .. وكنت فرحة بهذا . إذ خيل إلىّ أنه ملاك . أرسله الله من السماء ، ليعطينى الحنان ، وليطهرنى ، ولينقذنى ..

قلت فى غيظ :

- عايزه أعرف كانت تستحق حبك وإلا لأ ..
- الحكاية دى خلصت ..
- أنا موش ح استريح إلا لما تقولى كل حاجة عنها ..

قال فى حزم :

- خليكى عاقلة .. أنا نسيتها خلاص ..

وانتابتنى رغبة مفاجئة فى أن أتحداه ، شعرت أنى أختنق بحبه وحنانه ، إنها أكاذيب .. أوهام .. ليس صحيحاً أن هناك من يحبنى كل هذا الحب ، إنه مثل الآخرين ، مثل مدحت ، مثل محمد ناجى ، مثل أنور ، لن أجد شيئاً عنده سوى العذاب ، إنى ساذجة إذ أصدقه وأحبه ، سأمتحنه ، سأغضبه .. سأعذبه لأرى كيف يتحملنى ..

- إن ماكنتش تقولى .. موش ح أقولك أنا كمان ..

- تقوليلى ايه ..
- عن اللى حبيته قبلك ..
اصفر وجهه ، وجحظت عيناه .. وقال فى غضب :
- قصدك مدحت ..
ضحكت ضحكة عالية ، فى غير مبالاة ..
- مدحت ده إيه .. واحد تانى .
- مين هوه ..
- موش ح اقولك ..
انقلب إلى حيوان ثائر وصاح :
- إن ما قلتيش ح اضربك ..
فأصابنى فزع قاتل .. وصرخت :
- اوعى تقول الكلمة دى تانى .. أسيبك وعمرى ماأشوفك بعد كده ..
انهار يائساً ، وقال مستعطفاً :
- سامية .. أنا متأسف ..
- أنا عمرى ما سمعت كلمة زى دى فى حياتى ..

قلتها وأنا أصدق نفسى .. وظل يستعطفنى حتى هدأت ، فشعرت بالخجل ، إنى اكذب عليه ، أعطيه صورة غير صحيحة عن حياتى ، إنه لا يعلم كم سمعت وكم عانيت .. إنه لا يعلم ما صنعه بى أنور ... عذرى الوحيد انى اتمنى لو كنت تلك الفتاة التى لم تسمع طوال حياتها الكلمات القاسية ، ولن تسمعها أبداً ..

شعرت بالجريمة التى ارتكبتها . إنى أحطم كل شىء . أقتل حبى فى لحظة مولده ..
- حبيبى .. أنت صدقت ..

قالت عيناه .. انا لا أفهمك .. ماذا تقولين .. عن أى شىء تتحدثين انا متعب .. وأحبك .. وحزين ..
- كده تصدق إنى حبيت واحد غيرك ..

همس ..
- انتِ اللى بتقولى ..
ابتسمت ..
- كنت عايزه أشوفك ح تغير عليه وإلا لأ ..

صوب إلىَّ عينين غاضبتين .. عينان تنفذان إلى قلبى .. تجرفان قلبى .. ذهبت إليه وطوقت رأسه بذراعى وهمست فى حنان ..
- ماتزعلش ..

وقبلته على جبينه ، وقبلته فى شفتيه .. كان ما زال حزيناً لأنه قال لى إنه سيضربنى ، ولأنه رأى الفزع فى وجهى .
- خلاص سامحتك ..
قال والدموع تكاد تطفر من عينيه :
- سامية .. انا مقصديش أقولك غير كلمة واحدة .. باحبك .. اى كلمة تسمعيها منى .. معناها إنى باحبك .. أقولك اورفوار يعنى بأحبك .. اقولك موش عايز أشوفك يعنى بأحبك .. اى حاجة أعملها .. اية كلمة اقولها .. مالهاش غير معنى واحد .. بأحبك ..
- حبيبى .. إيه الكلام ده كله ..

عدت إلى مرحى ، أما هو فقد بذل مجهوداً كبيراً ، قبل أن يتخلص من تأنيب ضميره . وتشرق الابتسامة على وجهه .

وتركنا الشقة . خرجنا إلى الشارع ، إلى شاطىء النيل . وسرنا .. قلوبنا تدق معاً .. وأنفاسنا تعلو وتهبط معاً .. وأقدامنا تضرب الأرض معاً .. مشينا ومشينا .. دون أن ينادى تاكسى ، ولكنى صممت على ركوب الأتوبيس . جلسنا فيه وقد تعانقت أصابع يدينا .. وتعانقت عيوننا ..

●●

- إيه اللى حصل بينك وبين يوسف ..
- ولا حاجة ..
- إزاى الكلام ده ..

- هوه قال لك حاجة ..

وضحك محمد ناجي ساخراً .

- انتِ ح تخبى عليَّ ..

- والله ما حصل حاجة ..

- ده بيقول إنكم زعلتم من بعض ..

تنهدت ، إنه لا يعرف شيئاً .

خدعه يوسف وقال له إننا تخاصمنا .. قلت فى غير اكتراث :

- ولا تخاصمنا .. ولا تصالحنا ..

هوه ماله ومالى .

قال فى ثقة :

- يعنى اتخانقتم ..

قلت فى حدة :

- وح اخانقه ليه ..

- بس .. بس .. أنا لازم اصلحكم

ودعانى محمد ناجي إلى حفلة سيقيمها فى بيته بالزمالك .

- شوفى باه .. تيجى انتِ ويوسف مع بعض .. أنا عامل حفلة كبيرة ح يحضرها وزراء وكل الناس المهمين فى البلد .. ولازم تبقى موجودة ..

كان الإغراء أكبر من أن أقاومه .. لم أستطع كتمان فرحتي .. وهتفت كطفلة ساذجة ..

- والنبى ..

قال فى صوت رقيق :

- موش لازم الناس اللى فى البلد يعرفوا نجمتهم الجديدة ..

وكأن صواريخ نارية تفجرت فى رأسى .. لقد نسيت من أنا .. أنا لست مجرد فتاة عادية تحب يوسف .. أنا سامية سامى النجمة المشهورة هاهو باب المجد العريض ينفتح أمامى .. ولكنى لن أتخلى عن حبى ، سأحصل على المجد والحب .. نعم .. سأحصل على الاثنين معاً ..

وضعت السماعة .. وانطلقت باحثة عن أمى ..

- ماما .. أنا عايزه حالاً فستان جديد ...

●●

صرخت أمى

— الساعة لسه تسعة إلا ربع يا حبيبتى .. ح تروحى بدرى ما حدش ح يشوفك وانتِ داخلة وح تتبهدلى قبل المعازيم ما ييجو ..

كان كلامها مقنعاً ، ولكن يوسف كان ينتظرنى داخل التاكسى عند الباب ، فهبطت إليه ، وأمى تودعنى فى حسرة ، لقد فرحت عندما علمت أنى ذاهبة إلى حفلة فى بيت محمد ناجي ، ونصحتني بأن أبتسم فى وجه الجميع ، وأن أكون مرحة ولا أكف عن الضحك ، ولا أكف عن الكلام ، وحذرتنى من أن تسرق إحدى المدعوات الحفلة منى ، إنها فرصة العمر ، لو نجحت فى هذه الحفلة ، فسأصبح مشهورة ، وسيدعونى الباشوات والوزراء إلى حفلاتهم ، ولم تتردد أمى عندما طالبتها بالنقود لأفصل فستاناً جديداً ، انتهت منه نعيمة الخياطة فى يومين ، فستان أحمر مكشوف الظهر والساعدين ، واشتد الحماس بأمى ففتحت لى زجاجة برفان « ريان كتوا » كانت تحتفظ بها .

فى الساعة التاسعة تماما كنت أهبط أنا ويوسف من التاكسى أمام فيلاً من طابقين فى الزمالك ، وأسرع بواب نشيط بالوقوف ، فدخلنا إلى حديقة صغيرة ولكنها جميلة ، أشجارها مقصوصة ، كأنها خرجت من تحت يد كوافير ، وسمعت نباح كلب ، كانت الأنوار تنبعث من الطابق الأول بكثرة ، وخيل إلىّ أنى سمعت صوت موسيقى ، ولكن قطعه نباح الكلب الذى جرى نحونا ، وما أن رأيته حتى ذعرت ، كان كبيراً كالحصان ، وصرخت :

— إيه ده

فابتسم يوسف ابتسامة هادئة :

— بتخاف من الكلاب .. ده تونى

وهمس للكلب :

— تونى .. تونى .. تعال هنا

واشار بيده ، فاقترب الكلب منه ، وجعل يدور حولنا ، وأنا أسير نحو السلم ، وأتحاشى أن يلمسني ..

ـــ الكلب ده بيعض ..

ـــ ابداً .. ده عجوز ..

ـــ وقبل أن نصل إلى الباب ، همس يوسف :

ـــ انتي عارفة الكلب ده بتاع مين .. بتاع المرحومة دلال ..

فتح لنا الباب مخلوق غريب ، يرتدي جاكت السهرة الأبيض ، كان ينحني في أدب شديد ، وعيناه لا تفارقان الأرض ، وخمنت بصعوبة أنه خادم ، وتقدمنا إلى بهو كبير .. كبير جداً ، ليس فيه أحد ، كان المكان يسبح في النور ، ويفضي إلى صالون واسع يسبح هو الآخر في النور وليس فيه أحد ، ولم اسمع صوت الموسيقى التي خيل إليّ أني سمعتها من الخارج ، كان الهدوء يطن في أذني ، ورائحة غريبة تنفذ إلى أنفي ، رائحة قرنفل ، واختفى الخادم وراء ستار ، بينما جلست على مقعد ، كل شيء من حولي كان يتأرجح ، كأني وسط دوامة ، وقلبي يخفق ، نظرت إلى يوسف استغيث به ، كان يجلس بالقرب مني ، ساهماً ، عيناه تهائهتان لا تنظران إلى شيء ، لم يكن منتبهاً إليّ ، واهتزت الستارة ، وظهر الخادم من جديد ، ومضى إلى باب آخر ، فتحه وأغلقه وراءه ، كان الصمت يتراكم بسرعة ، عندما انتفضت على صوت رنين خافت ينبعث عن شمالي ، رأيت تليفوناً أبيض على الأرض ، رنينه لا يكاد يسمع ، ثم انقطع الرنين ، وسمعت صوت محمد ناجي من خلف الستارة ، كان يتكلم في تليفون آخر ، وضحك ، وهتف :

ـــ ده مش معقول .. ايوه .. انا مستنيه .. موش ح نتعشى لحد ما ييجى ..

ثم ضحك مرة اخرى ، وقال بصوت رقيق :

- أيوه يا حبيتي .. حاضر

واهتزت الستارة ، وظهر محمد ناجي ، مشرقاً معطراً كأنه خارج من الحمام مشي نحوي وعيناه لا تفارقان عيني ، على شفتيه ابتسامة خفيفة ساخرة حاولت أن اضحك كما نصحتني امي ، ولكني ارتبكت ، وضغط على يدي

وربت عليها بيده الأخرى ، وقال كأنه يعرفني منذ سنوات :

ـــ ازيك يا سامية ..

لم يصافح يوسف ، اكتفى بأن نظر إليه متودداً ، ثم جذبني وأجلسني على كنبة عريضة ، وجلس إلى جواري وأخذ يدي بين يديه ، كان يتصرف ببساطة ، وكأنه يعطف عليّ عطفاً أبوياً :

ـــ كويس أنكم جيتم بدري علشان أعرف اقعد معكم شويه ..

وسألني وهو يربت بكفه على ركبتي القريبة منه :

ـــ إيه رأيك في يوسف ؟

بذلت مجهوداً كبيراً كي أتخلص من ارتباكي وقلت :

ـــ انت تعرفه أحسن مني ..

فصـــــاح :

ـــ لا .. انتِ مكسوفة تتكلمي ؟

ضايقني أنه شعر بخجلي ، لو عرفت أمي لحزنت ، ولأنبتني وجذبني محمد ناجي وهو يقف قائلاً :

ـــ تعالو نروح البار ..

دخلنا الصالون ، وكان يفضي إلى حجرة أخرى أصغر منه ، في أحد أركانها بار أمريكاني أمامه كراسي عالية ، ودخل محمد ناجي البار ، وطلب منا أن نجلس على الكراسي العالية أمامه .. وقال كأنه يحدث نفسه ، وهو يفحص الزجاجات الكثيرة خلفه :

ـــ تشربي إيه .. عندي كل حاجة .. ويسكي .. جن ..

وضحك مشيراً إلى زجاجة في نهاية الصف :

ـــ والا فودكا ..

وظهر الخادم في صمت ، دون أن يناديه أحد ، وقد أحضر الثلج ، ووضعه أمامنا ثم انسحب في هدوء .

وسألني من جديد :

— أو أعملك كوكتيل ..

وأعجبته الفكرة ، فهتف :

نشرب كلنا ما رتيني ..

والتفت إلى يوسف قائلاً :

— أنت ما بتشربش إلا بيرة .. لكن الليلة دي .. ح أسكرك ..

وشرع يمزج الجن بالفرموت ويخلطه بالثلج ، داخل وعاء معدني مخروط الشكل ، وقال وهو يضع زيتونة خضراء في كأسي :

— أنا شفت دوق وندسور في نيويورك .. كنت نازل في الوالدورف أستوريا ، وكنا الساعة تسعة الصبح ، كنت داخل أفطر ، فلقيته قاعد لوحده ، وقدامه ستة مارتيني راصصهم جنب بعض .. وقعد يشرب واحد ورا التاني .. من ساعتها وأنا متأكد أنه خد مقلب في جوازة .. طبعاً .. واحد يسيب عرش انجلترا .. يسيب امبراطورية علشان حب عمره ما يدوم .. مسكين ما كانش بيفوق أبداً ..

في صحـــتك ..

رفعنا الكـئوس وشربنا ..

— إيه رأيك في طعمه .. موش حلو .. أنت ساكت ليه يا يوسف .. لسه بتفكر في دوق وندسور أظن لو كنت مكانه كنت عملت نفس الشيء .. تتنازل عن الامبراطورية في سبيل الحب .. لكن أنت معذور .. سامية حلوة .. حلوة جداً ..

كنت قد أفرغت نصف كأس ، واسترجعت شجاعتي ، فقلت محتجة :

— أنت ح تتكلموا عني من غير ما تاخدوا رايي ..

صاح محمد ناجي مقاطعاً :

— يوسف بيحبك ..

— خليه هوه اللي يقول ..

— موش ح يقول حاجة .. أنا باتكلم بالنيابة عنه ..

— يبقى ما بيحبنيش ..

وضحك يوسف في عصبية ، ورشف من كأسه .. وقال محمد ناجي وهو يعد المارتيني ليملأ كئوسنا ..

— لسه موش عايزه تقوليلي رأيك في يوسف ..

— لما أسمع رأيك أنت الأول ..

— رأيي ..

ونظر إلى يوسف وعيناه تبرقان في سخرية ..

— رأيي إنه نصاب ..

هتف يوسف :

— ليه يأه ..

— إنسان موش حقيقي .. مؤدب زيادة عن اللزوم ، صريح زيادة عن اللزوم ، عاطفي .. برضة زيادة عن اللزوم .. عاقل زيادة عن اللزوم .. بيعمل كل حاجة صح زيادة عن اللزوم .. موش ممكن واحد في الدنيا يبقى كده .. لازم يبقى نصاب ..

— أمال بتشغله عندك ليه ..

ضحك قائلاً :

— علشان نصاب ..

— الصحفيين نصابين ..

— طبعـاً ..

— حـتى ..

كدت أسأله « حتى أنت » ثم بلعت السؤال ، ولكنه فهمني فصاح ضاحكاً :

— عايزه تقولي حتى أنا .. ايوه .. أنا نصاب .. انتِ عارفة يعني ايه نصاب .. دي موهبة .. حاجة موش سهلة .. إنك تلغي مشاعرك الحقيقية .. تلغي افكارك الحقيقية .. وتظهري .. للناس بالمظهر اللي هم عايزينه .. تخليهم يعيطوا وانتِ في قلبك بتضحكي .. تخليهم يثوروا .. من غير ما يعرفوا هم ثايرين ليه .. انتِ لسه صغيرة .. بكرة لما تبقي ممثلة كبيرة

ح تعرف ..

ــ ح أعرف إزاى أبقى نصابة ..

ــ ح تبقى نصابة فعلاً ...

ــ لكن يوسف موش نصاب ..

صـــــــاح :

ــ يوسف أستاذ فى النصب .. ده نوع جديد ما ظهرش زيه فى العالم .. علشان كده له مستقبل ..

ــ أنا شايفة إنه طيب جداً .. وما بيعرفش يكذب ..

صاح فى انفعال :

ــ يوسف لما يقول الحقيقة يبقى كذاب .. لما يظهر طيبته يبقى قاسى ..

سـألته فى قلق :

ــ يعنى ما بيحبنيش ... ؟

ــ لا .. بيحبك .. إنما موش ح يتنازل عن العرش علشان حبه

همس يوسف بصوت مرتبك ..

ــ أنت رأيك فيه وحش قوى يا أستاذ ناجى ..

ــ بالعكس .. انا رأيى فيك كويس جداً ..

قلت فى حدة :

ــ أنا مش فاهمة حاجة ..

ــ بكره ح تفهمى ..

لماذا يهاجم يوسف بكل هذا العنف ، أيغار منه ، لأن يوسف شاب ، وهو عجوز ، لأنى أحب يوسف ، ولا أحبه هو ، ما الذى يريده ، إن عنده كل شىء ، وهو جرىء واثق من نفسه ، كأنه يريد أن يقول لى أمام يوسف ، اتركيه وانضمى إلىّ ، انضمى إلى حريمى .. من تلك المرأة التى كان يحدثها فى التليفون منذ قليل ويقول لها فى رقة يا حبيبتى .. دلال أخرى .. وتذكرت الكلب ..

ــ الكلب اللى بره خوفنى .. كبير زى الحصان ..

ــ تونى ما يعضش ..

ــ جبته منين ..

صوب إلىّ عينين فاحصتين ، وقال :

ــ ده كان كلب المرحومة دلال .. الوصية الوحيدة اللى قالتهالى .. لو مت يا محمد ابقى خد بالك من تونى .. كانت قاعدة هنا على البار .. مكانك .. لأ .. مكان يوسف .. وكانت شربت كتير ، يومها رفضت الصبح فيلم بخمستاشر ألف جنيه المنتج حاول يبوسها وهوه بيديها الشيك ، قطعته ورمته فى وشه ، سألتها ليه عملتى كده ، قالت علشان ريحة بقه كانت وحشة من السيجار .. مجنونة .. كان لها ردود غير متوقعة ، وتصرفات لا يمكن أن حد يتنبأ بيها .. كلمة تخليها تضحك ، وكلمة تخليها تعيط أسبوع .. كانت هربانة من همت باشا ناظر الخاصة الملكية، وكان فى عزه كلمنى رئيس الوزارة وقال اطردها وما تعملناش دوشة .. قلت له يا باشا ما أقدرش ..

قال لى أنا موش ح أقدر أحوش عنك المصايب اللى جايالك ، قلت له ولو .. ورجعت فى يوم لقيتها هربت علشان تنتحر ، شربت أنبوبة أسبرين فى بيت أمها ، وأنقذناها من الموت ، الدكتور زيدان .. ح تشوفوه دلوقت هنا .. عمل لها غسيل معدة ، بعد ما فاقت رجعت تانى عندى ، وكنا قاعدين هنا .. فاكر كنت بأقول لها .. وبعدين يا دلال .. موش تهدى شوية يا حبيبتى .. قالت لى .. يعنى إيه أهدى .. أنا ح أهدى لما أموت وح أشبع هدوء .. ح أسيب الدنيا وأنا موش نادمة على شىء .. حاجة واحدة بس اللى عايزاك تعملها لى .. تاخد بالك من تونى .. لو مت يا محمد ابقى خد بالك من تونى ، قلت لها .. وأنا مين ح ياخد باله منى .. ضحكت وقالت انت نصاب ..

وجال بعينيه يبحث عن أثر كلامه فى وجهينا ، وفى وجهى أنا بالذات وضحك قائلاً :

ــ ما بتشربيش ليه .. فين يا محمود المزه ..

كان الخادم قد ظهر وقد احضر معه مزيداً من الثلج ..

وقال محمد ناجى وهو يصوب نظرات غاضبة إلى الخادم الذى تراجع

مسرعاً ..

ـ لسه الحفلة ما بدأتش وحضرته ح يسرح ..

ثم قال بصوت خفيض ..

ـ هيه أول واحدة نبهتني إلى أن كل الفنانين والصحفيين والمشهورين نصابين .. كانت بتقول على نفسها نصابة .. موش راضية عن أغانيها وموش راضية عن صوتها .. لكن تزعل لو الناس ما اتهبلتش وصفقت لحد ما تجرح ايديها .. تزعل لو حد كتب في جرنال إنها غنت موش ولا بد .. تبقى مصيبة ثم التفت إليّ وسألني :

ـ تفتكري ممكن تبقى زي دلال

همســت :

ـ أنت خوفتني من حياتها ..

قال في هدوء :

ـ لو كنتِ خايفة .. يبقى ما فيش فايدة منك .. ح تفضل طول عمرك كومبارس ..

قلت محتجـة :

ـ يعني لازم أعيش عيشتها .. علشان أبقى حاجة ..

فمط شفتيه وقال وهو يقرب الكأس من فمه :

ـ لا موش ضروري .. بس ح يبقى ناقصك حاجة ..

وشرب بقية ما في كأسه وقال :

ـ لما أعرفك كويس .. ح أقولك أنتِ ناقصك ايه ..

وسمعنا صوت جلبة عند الباب ورجل يصيح ..

ـ انتو فين يا جماعة ..

وظهر الرجل ، قصير ، مليء ، اسمر ، رأسه مربع ، وشعره الاكرت منفوش كالمسامير المدببة .. وفي فمه سيجار ضخم ينفث منه دخاناً كثيفاً ، كان مزهوا بنفسه وبدخوله المسرحي وهتف عندما رأى محمد ناجي وراء البار ..

ـ انتو بديتم من بدري ..

وصاح محمد ناجي :

ـ أهلا دكتور ..

ثم التفت إليّ قائلاً في سخرية :

ـ أهو النكد جه ..

قال الدكتور وهو ينفث الدخان في وجهي ..

ـ الحق عليه اللي بيعالجك ..

وقدمنـي محمد ناجي للدكتور زيدان ، ثم قدم له يوسف ، وناوله كأس مارتيني ..

بعد ربع ساعة ، كان البيت قد امتلأ بالمدعوين ، أغلبهم يرتدون ملابس الصيف العادية ، الشاركسكين أبيض أو الفريسكا الكحلي أما السيدات فكن جميعاً عاريات الظهر عاريات السواعد مثلي ، يفوح منهن العطر ، والأصباغ تخفي بعض قبحهن ، كنت أصغرهن ، وهناك واحدة نصف جميلة في حوالي الخامسة والثلاثين من عمرها ، تتكلم بصوت منغم ممطوط وتلوح بيديها في حركات مضحكة ، أما الباقيات فعجائز فوق الخامسة والأربعين ، صبغن شعورهن ، أو تركن البياض يجلل رءوسهن بتيجان من الوقار ، ولكنهن يضحكن من غير وقار ، ويدخن في شراهة ، ويشربن الويسكي في شراهة .. كان الشيء المشترك بين المدعوين هو كبر سنهم ، وفيما عدا ذلك فهم الغرباء ، كالجزر المنعزلة في بحر كبير ، يتبادلون النظرات والابتسامات في تصنع ، وينفثون الدخان في وجوه الآخرين ..

لم أعد أشعر بالقلق ولا بالخوف وكان المارتيني قد لعب برأسي ، فرسمت على شفتي ابتسامة ، والقيت بنفسي في غمار الناس ، وقدمني محمد ناجي إلى كتلة مستديرة من اللحم ، وقال لي إنه قدري باشا وزير الأوقاف ، إنه بالون ضخم منفوخ ، يهدد بالانفجار في أية لحظة ، وجهه أملس ليس فيه نتوء تبينت بصعوبة الثقبين اللذين يشيران إلى أنفه ، كأنهما مرسومان في بالون صغير فوق جسمه البالون الكبير ، عيناه منحرفتان ، واحدة تتجه إلى اليمين ،

والثانية تتجه إلى اليسار ، كأنهما عينا ضفدعة .. تحركت عيناه نحوى وجمدتا مكانهما عينان لا حياة فيهما ، ثلجيتان ، وقال بصوت رفيع ، صوت طفل ..

— ازيك يا مدموازيل .. ما شاء الله .. كل اللى شافوكى بيقولوا إنك مثلتى كويس .. ولك مستقبل عظيم ..

قلت فى دهشة :

— لكن أنا لسه ما مثلتش يا باشا ..

فأدار رأسه فى حيرة ، واستنجد بشاب رياضى يقف إلى جانبه ، له وجه حيوان مفترس وعضلاته بارزة وفى عينيه نظرات تحد واستعداد للقتال ..

وسأل الباشا الرياضى :

— إيه .. هيه موش ممثلة ؟

فقال الرياضى وهو يرسل إلىّ نظرات تهديدية :

— أيوه .. مظبوط يا سعادة الباشا ..

فتمتم الباشا فى بلاهة ..

— ما شاء الله .. ما شاء الله .. وبتغنى ..

— لا .. بأمثل بس ..

فتمتم من جديد ..

— ما شاء الله .. ما شاء الله ..

وقال الحيوان ذو العضلات :

— الباشا معجب بيكى يا مدموازيل .. أنتِ حظك من السما ..

وتمتم الباشا من جديد بصوته الرفيع ..

— ما شاء الله .. ما شاء الله ..

وانتهزت أول فرصة وهربت من الباشا ، بحثت عن يوسف فوجدته يتحدث مع الدكتور زيدان وقبل أن اقترب منهما ، اعترض طريقى محمد ناجى هاتفاً ..

— تعالى هنا يا سامية .. رايحة فين ..

— ولا حاجـة ..

— موش مبسوطـة ..

— مبسـوطـة ..

— فين الكأس بتاعك ..

وجذبنى من يدى ، وأخذنى إلى البار ، وقال :

— عملتى إيه فى الفيلم الجديد اللى بالألوان ..

— لسه مستنية النتيجة ..

قال فى هدوء :

— ح أشوفك لوحدك امتى ..

— ليـه ..

— خايفـة ..

— أبدا

— أنتِ عايزه تتخلقى من أول وجديد .. أنا ح أتولى الإشراف على مستقبلك ..

وناولنى المارتينى .. قلت :

— تفتكر .. يعنى ح تعمل لى إيه ..

قال فى ثقـة ..

— ح أغير مخك ..

— ماله ..

قال وعيناه تجولان فى جسدى ..

— لازم تبقى عبيطة شوية ..

— عبيطـة ..

— أنتِ عارفة كل الممثلات اللى وصلوا كانوا إيه .. كانوا بلدى .. غُبط .. شفايف تخينة ، وعنين زى البقر ، أو شكل ساذج عبيط وعنين فيهم براءة وغباء .. البراءة ما تنفعكيش ، إنما الغبط ينفعك .. ح يخليكى جنان ..

— وإن ما كنتش عبيطة ..

ـ ما حدش ح يشـــفلك .. ح يخافوا منك .. إنما مغرورة معلهش .. كل الممثلات المشهورات فى منتهى الغباء ، وفى منتهى الغرور ..

ـ اعوذ بالله ..

ـ عيبك إنك ذكية أكتر من اللازم ..

ـ عرفت منين ..

ـ بتفكرى كتير .. انتِ عايزة إيه .. عايزه توصلى .. عايزه تبقى مشهورة .. ده موش بالبساطة اللى انتِ فاهماها ..

ـ انت بتتكلم زى أنور سامى ..

هتف وهو ينظر خلفى :

ـ جبنا سيرة القط .. جه ينط .. ازيك يا أنور ..

وتعانق الاثنان ، وصرخ أنور فى وجهى ..

ـ امشى من قدامى يا بت .. انتِ ورايا مطرح ما أروح ..

ثم إلتفت إلى محمد ناجى متظاهراً بالدهشة ..

ـ مين اللى جايبها هنا ..

قال محمد ناجى :

ـ أنـــا ..

فصاح أنور :

ـ والله وصلتى يا بـت .. خلاص ما حدش ح يقدر عليكى ..

ثم رفع يده بالتحية :

ـ السلامو عليكم .. أنا ماشى ..

سـأله محمد ناجى :

ـ رايح فـين ..

قال وهو يهز كتفيه :

ـ مالناش عيش فى البلد دى ..

ثم صاح أنور فى وجهى وهو يبتسم :

ـ أهو دلوقت أنا فهمت ليه بتتكبرى علينا .. لك حق يا بنتى ..

وانحنى فى حركة مسرحية قائلاً :

ـ احترامتنا يا افندم .. احنا خدامين السيادة ..

والتفت إلى محمد ناجى قائلاً وهو يغمز بعينه :

ـ حضرتها بتتقل علىَّ .. موش كويسة دى ..

كان يوسف يقف عند الباب ، ينظر إلينا ، وليس على وجهه اى تعبير ، ولما التقت عيوننا ، استدار واختفى ..

ودخلت امرأة عجوز تبحث عن انور قالت له وهى تتنهد :

ـ انت رحت فين يا أنور ..

فمال أنور على أذنى وهمس ..

ـ شايفة الكركوبة دى .. اوعى تسيبينى ..

ثم التفت إلى الكركوبة هاتفاً ..

ـ أنا جاى يا روحى ..

وجذبنى من يدى ، وذهب إلى شلة من العجائز وجلس وسطهن وأجلسنى إلى جواره .. قال لهم مشيراً إلىَّ :

ـ تعرفوا بنتى .. سامية سامى

وارتفع أكثر من تعليق ساخر .. فصاح :

ـ أيوه اشتموها أحسن والنبى مغلبانى ..

وجمت ، وقد فقدت قدرتى على الكلام ، وانطلق أنور يثرثر ..

ـ ما فيش حد مريحنى فى الدنيا دى .. حياتى كلها شقا فى شقا .. وأنا فقير . ما كانش حد بسأل عنى .. اى حتة واد هلفوت لابس جزمة مقطعة .. قلت بلاش يا واد تبقى فقير .. وحرقت دمى لحد ما بقى عندى فلوس .. دلوقتى بيقولوا .. شوفوا عنده إيه .. شوفوا الهلفوت الكحيان بأه معاه فلوس إزاى .. إن شاء الله يموت ..

صاحت أكثر من واحدة فى صوت تلعب به الخمر ..

ـ بعد الشر عليك ..

فنظر فى عيونهن واحدة واحدة وهو يقول :

— تعرفوا .. حتى أمي .. بتتمنى موتي .. علشان تورثني .. الست اللي بتكح .. اللي معندهاش أسنان .. آه يناري .. أما لو مت صحيح .. يبقى اكبر مقلب عمله فيه ربنا .. ح أوصي أني أندفن ومعايا فلوسي .. والا شوفهم يتمتعوا بالفلوس .. وأنا مرمي متلقح في الكفن .. دنا كنت أموت تاني .. كنت أتشنج .. وأمسك في الكفن وأرقع بالصوت ..

ومال على أذني ، فأثار فضول من حولنا ، وهمس بصوت خفيض ..

— ح تروحي معايا الليلة ..

همســـــت :

— لأ ..

فصاح بأعلى صوته ..

— إن شاء الله انتِ اللي تموتي يا سامية يابنت أنور .. وأفرح فيكي .

ثم عاد ومال على أذني وهمس بصوت فيه نبرة خوف ..

— أوعى تقولي لمحمد .. أهي دي أموتك فيها بصحيح ..

وضحكت ، وجاء الرياضي ، واقترب مني ، وقبل أن يميل برأسه ، صاح فيه أنور ..

— حاسب .. أحسن دي بتعض

وهمس الرياضي ..

— تسمحي يامدموازيل في كلمة .

نهضت وسرت معه إلى أحد الأركان ، وقال لي وهو يضع كفه الغليظ على صدره

— أنا بسيوني سكرتير معالي الوزير ..

وهرش قفاه ، ثم قال وهو ينقر بأصبعه على كتفي ..

— معالي الوزير عنده حفلة بكرة الساعة أربعة بعد الظهر .. حفلة على الضيق .. أنا ح أفوت عليكي وأخدك هناك ..

حولت رأسي في حدة ، فالتقت عيناي بيوسف ، كان مازال يتحدث مع الدكتور زيدان ، وحول عينيه بعيداً عني .. كدت أصيح وأناديه .. كنت خائفة

من الحيوان الذي يقف أمامي ..

قلت بصوت غير مسموع :

— موش ح أقدر ..

قال الحيوان بلهجة آمره ..

— ما تزعليش معالي الوزير .. احنا ما نقدرش على زعله .. ولو عرف إنك موش جاية .. ح يزعل من محمد بيه .. ويسيب الحفل دلوقت ..

قلت متوســلة :

— طيب كلمني بكرة ..

قال في هدوء وحشي :

— ح أكلمك .. أنا عندي نمرة التليفون ..

وجريت ناحية يوسف ، فلم يبد عليه أي شيء ، وتذكر الدكتور زيدان عندما رآني أن سيجاره غير مشتعل ، فأخرج علبة الثقاب ، وقال وهو يشعل سيجاره :

— أنا شايفك مبسوطة يا مدموازيل ..

وقبل أن يكمل حديثه ، كان يوسف قد ابتعد عنا .

ماذا به .. أهو غاضب مني ، أخاصمني ..

وسمعت الدكتور يسألني :

— هيه .. عاملة ايه في السينما ؟

— ولا حاجـــة ..

— أنا باسمع عنك كلام عظيم ..

— كله دعايـة ..

قال وهو ينفث الدخان في عيني :

— لو السينما ما عجبتكيش تعالي عندي في المستشفى ..

صحت في استنكار :

— ممرضـــة ..

قال محتجــاً :

— وفيها إيه .. ح تكسبي فيها زى السينما واكتر ..

ثم قال بلهجة مسرحية :

— دى مهنة شريفة ..

ثم ضحك قائلاً وهو يشير حوله إلى المدعوين :

— تعرف انا باكسب إزاى .. لأن فيه بنات حلوة زيك فى الدنيا .. الاحلام بتداعب خيال العواجيز .. عايزين يبقوا شباب .. يشوفوا واحدة زيك .. وتاني يوم يكونوا عندى فى العيادة .. أو واخدين اوضة فى المستشفى .

قلت وانا أقاوم ثورة من التحدى تجيش فى صدرى :

— كلهم نصابين ..

فنفث الدخان من جديد فى وجهى وقال :

— لا .. ما تقوليش عليهم كده .. دول كبارات البلد .. و انتِ لسه شابة صغيرة .. بكرة تفهمي .. وتقدرى ظروفهم .. دول عندهم مسئوليات .. وعايزين يتبحبحوا شوية .. عايزين يفرفشوا .. عيشتهم موش سهلة ..

وقال لى بيتا من الشعر العربى الفصيح ، لا اذكره ..

وفجأة جحظت عيناه وهتف كالملسوع :

— شهدى باشا وصل ..

وقبل أن أنتبه ، كان كل من فى الحفل قد هب واقفاً ، السيدات والرجال .. وتزاحموا على رجل أبيض سمين ، وجهه محمر ، شعره مسبسب ، وفى فمه سيجار أكبر من السيجار الذى كان يشربه الدكتور زيدان .. كانوا يحيونه فى احترام شديد ، ما عدا أنور ، صاح فيه :

— اديني قرش يا باشا .. والنبي اديني قرش ربنا يخليك ويجعل بيت المحسنين عمار .. بيقولوا فلوسك بتجيب البركة ..

وأعطاه شهدى باشا نصف ريال فأخذه وقبله ، ووضعه على رأسه ثم عاد وقبله ، وجعل يتغزل فيه .. تقدمت بغير وعى منى إلى شهدى باشا ، كأننى منومة ، ونفذت عيناه الضيقتان فى عينى ، وسمعت صوت محمد ناجى يقدمنى له :

— مدموازيل سامية سامي .. نجمة جديدة فى السينما ..

قال وهو يصافحنى بيد لينة طرية :

— بونسوار يامدموازيل ..

فى أصبعه خاتم فيه فص ماس لا يقدر بثمن .. وفى رباط عنقه ياقوتة حمراء .. كان يتحرك وكأن حوله هالة من نور ، والعيون ، كل العيون تراقبه ، ولمح يوسف مبتهج ، وصاح لأول مرة :

— ازيك يا يوسف .. بقالى مدة ماشفتكش .. فيه عامل إيه يا ابنى ..

ولف ذراعه حول كتف يوسف ، وانتحى به ركنا ، وجلسا وحدهما ، وكان محمد ناجى ينظر إليهما وعلى وجهه علامات انفعال غريب ..

وصاح انور سامى من بعيد مخاطباً شهدى باشا ..

— يا باشا .. انت قاعد بعيد عنا ليه .. احنا عايزين نلعب روليت ..

قال محمد ناجى :

— بعد البوفيه ..

وتقدم من شهدى باشا وقال :

— اتفضل يا باشا اتقدمنا ..

والتفت شهدى باشا إلى إحدى السيدات ، وقال لها :

— اتفضلى ..

وتبعهم جميع المدعوين ..

وجدتنى اتأخر .. حتى ذهب الجميع إلى البوفيه ، ما عدا يوسف

قلت وانا أقترب منه :

— موش ح تتعشى ..

— ما ليش نفـــس ..

— انا كمان .. ح اقعد معاك ..

قال وهو شــارد :

— انا عايز امشــى ..

— وانا كـمــان ..

ـــ ما تخليكى ..

ـــ تعالى .. نخرج ..

وأمسكت بذراعه .. وسرنا ناحية الباب ، وقبل أن ينتبه أحد إلينا ، كنا عبرنا الحديقة ، ووصلنا إلى الشارع .. لم ينتبه إلينا سوى تونى .. الذى نبح مرة واحدة ، وكأنه يتثاءب .. ثم سكت ..

الفصل السابع

بالرغم من كئوس المارتينى التى شربتها ، كنت متيقظة ، منتبهة الحواس ، أشعر بتحفز وحيوية دافقة ، وكان تفكيرى صافياً ، أو هكذا خيل لى ، وكان يوسف يسير إلى جوارى صامتا ، لا يشعر بوجودى ، أو يتجاهلنى ، وقبل أن أقول له شيئا .. فكرت .

هأنذا بين عالمين ، بين حياتين ، تلك الحياة التى تركتها ورائى فى بيت محمد ناجى ، المجد والشهرة والحياة الصاخبة ، والثراء ، والأنوار ، والعيون التى تتخاطفنى ، وكل الأشياء التى أحلم بها وأتمناها .. كل هذا ، أو .. أو يوسف .

إنه ليس واحداً منهم ، ولو أبقيت على حبه فسيضيع منى كل شىء آخر ، ولو قبلت العروض التى تهافتت علىَّ فى بيت محمد ناجى .. فسيضيع منى يوسف .

لابد أن أختار الآن ، فإما أن أصالحه وأتمسك به ، وإما أن أتركه هذه اللحظة ونفترق .

كانت أفكارى واضحة ، إلى حد يثير دهشتى من نفسى ، المستقبل مفتوح أمامى محدداً ومرسوماً كالطريق الذى نسير فيه ، ونظرت إلى يوسف ، وجهه شاحب صامت ، يبدو عليه الإجهاد ، ولم أتردد فى الاختيار ، كنت أحس

بقوتي وشبابي وجمالي . لقد اخترت يوسف ، هو الذي أحبه ، هو الذي أريده ، هو مثلي الأعلى .. نعم .. اخترت ذلك الشاب الذي يسير إلى جانبي ، الذي لا يحوطه مجد ولا شهرة ، الذي لا يملك عربة .. نعم اخترته .. فهو وحده الذي يملك أن يقدم لي الحنان .

وكما يصعد يوسف سلم الصحافة ، سأصعد أنا سلم التمثيل ، سأقاوم الإغراء ، سأقاوم الشهرة السهلة ، إن ما يعرضونه عليّ لن يشفيني ، ولن يخلصني من تعاستي ، أنا الآن أعقل وأذكى من أن أحطم نفسي ، سأتحدى الجميع ، وسأصبح أعظم ممثلة ، وأعظم عاشقة .

- يوسف .. أنت ساكت ليه !
- تعبان ..
- باين عليك متضايق ..
- أبداً ..
- أنا زعلتك فى حاجة ؟
- لا ..
- طيب كلمني .
- أقول إيه !
- أنت بايخ ..

قال متنهداً :

- صحيح .. أنا بايخ ..

وكنا قد وصلنا إلى مفترق طرق يقف عنده تاكسى ، فاتجه إليه يوسف .

- ح نروح فين !

قال فى حدة :

- ح أروحك ..
- أنا موش عايزه أروح .

فنظر إلىّ مستفسراً ، فهمست :

- تعال نروح الشقة .

قال فى دهشة :

- دلوقت ؟!

قلت متوسلة :

- عايزه أقعد معاك شويه ..

وذهبنا إلى الشقة .

حاول أن يجلس بعيداً عني . ولكنني جذبته إلى الكنبة ، وجلست بين ذراعيه .

- يوسف ياحبيبي .. موش معقول ماتقوليش إيه اللى مضايقك .

زفر الهواء وقال فى ضيق :

- أنا نفسي موش عارف .
- أنا عارفه ..

فسألني بعينيه عما أعرف ؟

فقلت :

- الناس اللى كانوا هناك .. حاجة غريبة .. موش كده .. زى المجانين ..

فابتسم ابتسامة حزينة ، فأسرعت أقول :

- ومحمد ناجى .. تعرف . الراجل ده موش بيحبك زى ما أنت متصور ..
- تفتكرى كده ..
- شفت كان بيهاجمك إزاى .. هو فاكرك إيه .. إلا ساعة ماجه شهدى باشا واخدك على جنب وقعدتم تتكلموا سوا .. ياساتر على عنيه .. كان بيبصلكم زى ما يكون فيه حاجة بينكم أنتم الاتنين وح يموت علشان يعرفها .

فقال فى عصبية :

- ح يكون بينا إيه .. أنت بس متهيأ لك .. مافيش حد ساعدني زى محمد ناجى ..
- الحقيقة أنا موش فاهماه ..
- راجل طيب .. بس بيحب يتكلم عن نفسه كتير ..
- ياى .. ده مغرور ..

- يستحق إنه يبقى مغرور ..

قلت له فى جدة :

- يوسف أنت موش عاجبنى .. تعرف إيه اللى مضايقك .. إنك مستسلم لهم .. سايب نفسك يعملوا فيك زى ماهم عايزين .. يقولوا عليك زى ما يقولوا .. لعبة فى أيديهم .

وأنا أقول له هذه الكلمات ، أدركت اننى أتحدث عن نفسى أنا أيضا .. فلقد كان هذا هو حالى .

وصمت ...

- دول فاكرينك أهبل .

كانت كلمة قاسية ، صدمته ، وجعلت وجهه يحمر ، وصدره ينتفض ، وكأنه يريد أن يبتعد عنى ..

- أنا ضايقتك ياحبيبى ..

قال فى ألم :

- عايزانى أعمل إيه .. أنا مافيش بينى وبينهم حاجة غير الشغل . وباعمله ..

قاطعته :

- لكن أنت .. أنت عايز إيه .. عايز تبقى إيه ؟!

نظر إلىَّ فى حيرة ، فسألته :

- عايز تبقى زى محمد ناجى ؟

قال بسرعة :

- لا ...

- أمال عايز إيه ؟

- موش عارف .. موش عايز حاجة ..

قلت وأنا أقبله فى جبينه :

- لكن أنا عايزاك تبقى أحسن منهم كلهم .. موش ده اتفاقنا .. أنت ح تبقى أحسن صحفى فى مصر .. وأنا أحسن ممثلة .. وقبلته .. وهمست فى أذنه :

- بكرة يبقى لك الجرنال بتاعك .. وأنا يبقى لى شركة أفلام ..

فابتسم فى مرارة وقال :

- أنتِ بتحلمى ..

قلت محتجة :

- بأحلم ليه .. هم الناس دول أحسن منى ومنك فى إيه .. اتولدوا من طينة تانية ..

- زى ما يكون كده ..

قلت فى عناد :

- بكره تشوف ..

ورأيت فى عينيه لمعة غريبة ، وضمنى إليه بقوة ، وقبلنى .. استسلمت لقبلاته ، كنت أشعر انه فى حاجة إلىَّ ، وأنى يجب أن أعطيه وأعطيه ، أحسست بشفتيه تمرحان فى وجهى وعنقى ، وكأنى سابحة فى الهواء ، بعيدة عن الناس ، بعيدة عن الدنيا كلها ..

وأغمضت عينى ، ولم أعد أفكر فى شىء ، حتى يوسف لم أعد أفكر فيه ، لم يبق لى إلا ذلك الشعور الغريب بأنى فى عالم مجهول ، عالم لى أنا وحدى ، دافىء ، ساحر ، ليست فيه أفكار ولا خيالات ولا عواطف ، وإنما فيه نشوة وحنان ، ولم أعد أسبح فى الهواء ، وكأنى أطفو على صفحة محيط كبير عميق هادىء .

وفتحت عينى ، وكان يوسف راقداً إلى جوارى ، وفى عينيه حب وكسل وحنان ..

وابتسمت ..

وابتسم ..

كأننا نتعارف لأول مرة ، وحكينا لبعضنا حكاية طويلة بلا كلام ..

فى تلك الليلة ، أيقنت أنى ارتبطت بيوسف طوال حياتى ، إنه حياتى ، وقررت أن أبذل كل ما أستطيع كى لا أتركه يفر منى . سأتزوجه ، سأهجر

أمي ، سأهجر التمثيل وأتزوجه .. سأهجر كل شيء ، وسأتزوج يوسف وأعيش معه .

●●

اتصل بي بسيوني في الصباح ، ذلك الحيوان الرياضي ذو العضلات ، كان يذكرني بموعدي بعد الظهر مع الوزير ، رفضت طبعا ، فحاول أن يهددني ، ولكنني شتمته ، وأنهيت المكالمة .

قلت لنفسي ، إني أتصرف كما لو كان حبي أقوى من أي شيء ، كأني تحررت من حياتي السابقة في غمضة عين ، ولكن .. هل أستطيع حقاً أن أتحرر من حياتي السابقة ، إنها مليئة بالأشباح .. مدحت ، وأنور ، ومحمد ناجي ، كلهم لن يرحموني ، كلهم يعرفون يوسف وقد يقولون له ما يحطم حبي .

لابد أن أجد مخرجاً من هذا المأزق الذي أنا فيه .

ولما جاء الليل ، ذهبت مع يوسف إلى الشقة ، والحزن يطبق على صدري ، وشربنا البيرة ، وأسرفت في الشراب ، حتى دارت رأسي ، وبكيت . لم يدرك يوسف سر بكائي ، ونظر إليّ في أسى وحيرة ..

وفجأة ، وجدتني أنطلق في الكلام .

قلت له والدموع تنهمر من عيني :

- أنا قتلت بابا يايوسف .. فاصفر وجهه ، وقال بصوت مرتعش :
- ما تقوليش كده ياحبيبتي ..
- انت ماتعرفش إيه اللي حصل .. أنا ماكنتش كده زمان يايوسف ورويت له قصتي مع أبي ..

●●

كنا نسكن في العباسية ، أبي وأمي وأنا وشقيقتي إنصاف ، وكنت سعيدة دائمة المرح ، فخورة بأبي ، لأنه يرتدي بدلة ضباط الجيش . على كتفه تاج ونجمة ، والعساكر تهب واقفة كلما رأته ، وترفع له يدها بالتحية ، كنت أظن أنه لا يوجد إنسان في الوجود أهم من أبي ، إنه أحسن من كل الناس ، حتى

الملك ، وكان يحبني أكثر من أي فرد آخر في أسرتنا ، إذا تشاجر مع أمي وخاصمها ، أخذني معه ، وسار بي في الشوارع ، وجلس معي في المقاهي بين أصحابه .. ثم عاد بي إلى البيت ، وطلب مني أن أنام في أحضانه ، وتكون أمي قد تركت حجرته ، وذهبت لتنام مع إنصاف .. لم أكن أفهم لماذا يتشاجر أبي مع أمي ، ولكنني كنت أنحاز له ، بل كنت أغار من أمي إذا صالحته ، ورأيتها تضحك معه ، وتتركني لأنام مع إنصاف ، وتذهب هي لتنام معه في حجرته ، وتغلق عليهما الباب ..

ثم كان عصر يوم ، خرجت فيه أمي في الصباح ، وتركتنا في البيت بدون طعام ، وكنت أظن أن أبي مسافر إلى أرضه بالقرب من طنطا كما قالت لنا أمي ، ومضت الساعات وأمي لا تعود ، وأبي غائب . وشعرت بالخوف ، حتى أن موعد الغداء فات دون أن أحس بالجوع ، وزاد من خوفي أن إنصاف شرعت تبكي لأنها جائعة ، هبطت السلم وصعدته مائة مرة وأكثر ، أنتظر عودة أمي عند الباب ، أو عودة أبي ، وكنت أتمنى أن يعود أبي قبل أمي لأشكوها له ، ثم أصعد وأنتظر عند النافذة ، ولا أحد يجيء ، لا أبي ولا أمي ، وإنصاف لا تكف عن الصراخ .. أنا عايزة ماما .. أنا عايزة ماما .. ولم أتمالك نفسي فبكيت أنا أيضاً ، حتى كان العصر ، فرأيت من النافذة عربة حنطور تهبط منها أمي ، قابلناها عند أول السلم ، وكان وجهها حزيناً وفيه قسوة ، وبلا وعي سألتها باكية :

- بابا فين ياماما ؟

قالت في خشونة :

- أوعى تجيبي سيرته على لسانك أنت فاهمة ..
- ليه ياماما ؟

صاحت في قسوة لن أغفرها لها :

- خلاص .. أبوكم سابكم .. موش عايز يشوفكم ..
- هوه فين ياماما .. أنا عايزه أروح له ..
- اخرسي يابنت .. إحنا اتطلقنا خلاص ..

لم أفهم ماذا تعنيه أمي بالضبط ..ولكني أدركت أن شيئاً خطيراً قد وقع ، وعندما مرت الأيام وطال غياب أبي ، بدأت أدرك أنه لن يعود ، ومنذ ذلك الوقت ، ذهب عني مرحي ، وفقدت سعادتي ..

كنت أضحك وألعب.. وبعد ذلك بسنوات كنت مازلت أضحك وألعب ، ولكني لم أكن سعيدة أبداً ، حياتي كلها أصبحت تظاهراً بالحياة ..

وعندما كبرت ، كنت أتودد لأمي ، لتحكي لي عن أبي ، وكانت تذكره بسوء ، وتسب أيامه ، وتلعن عيشتها معه ، ولكنها أحيانا كانت تضحك ، وتروي كيف تزوجها .

كانت وقتها في مصر الجديدة ، ولم تكن مدينة كبيرة كما هي الآن ، مجرد بيوت قليلة متفرقة ، وصحراء ممتدة لا أول لها ولا آخر ، وكان أبي يغازلها ، يمر أمام بيتها في أوقات محددة ، ويقف رافعاً رأسه إلى النافذة المغلقة التي تقف وراءها ويظل يروح ويجيء ، حتى تفتح النافذة خلسة للحظة خاطفة ثم تغلقها خشية أن يراها أحد ، وتقدم أبي ليتزوج منها ، ولكن أهلها رفضوا ، وزوجوها من رجل عجوز ولكنه غني .. ولم يدم الزواج أكثر من ستة شهور ، فقد ابتكرت أمي كل ما عندها من حيل ، حتى طلقها العجوز ، وتزوجت أبي ..

تقول لي أمي شيئا لا أصدقه ، ويخيل إليّ أنها اخترعته لترضي غرورها ، إنها تقول إن أبي كان يذهب في الليل ومعه أصحابه إلى بيتها الذي كانت تعيش فيه مع زوجها الأول العجوز ، وكان يغني لها على أنغام العود ، وكان العجوز يبدي دهشته من الضجة خارج البيت ، ولا يفهم سرها ، إذ يظن أنهم جماعة من السكارى ، لم أصدق هذه القصة ، ربما لأني قرأتها في رواية سيرانو دي برجراك .. وأمي كانت دائما تتباهى بجمالها ، وتحب أن تخترع القصص التي تؤكد سحر هذا الجمال .. وربما كانت القصة حقيقية ، ولكني لم أصدقها ، لأني أغار من أمي ، ولا أريد أن أصدق أن أبي كان يغني لها في الليل ، بينما هي تشتمه ، وتضطره إلى طلاقها ..

ومع مرور السنين ، اكتشفت أن خير طريقة للخلاص من عذابي هو أن

أنسى أبي ، وأصدق أمي ، وكان يحز في نفسي أن أبي لم يسأل عني ، كان هذا فوق طاقتي .

وذات يوم ، وأنا صبية في الخامسة عشرة من عمري ، نادتني أمي ، وكان في يدها خطاب ، وقالت لي وهي تمصمص شفتيها هازئة :

- عايزه تشوفي أبوكي .. بعد كل السنين دي ، باعت يسأل عنكم ، وبيقول إنه قاعد يومين في مصر في لوكاندة النيل .. لو حبيتي تروحيله أنتِ وإنصاف .. اسألوا عليه هناك .

ترددت ، ولكن سرعان ما تغلبت على ترددي ، وقررت أن أذهب إليه .. رغم امتعاض أمي ، أما إنصاف فرفضت أن تذهب معي .

كان أبي قد أحيل إلى الاستيداع ولم يعد يرتدي بدلة الضابط .. واشتعل رأسه بالبياض ، قابلني في بهو الفندق ، وجلسنا على مقعدين حقيرين ، وسط ضجة الداخلين والخارجين ، وتبادلنا بضع كلمات خجولة لا معنى لها ، كان اضطرابه أكبر من اضطرابي ، ولم يكف عن التدخين ، وكان صوته مرتجفاً حزيناً ، وسألني عن أمي وعن إنصاف ، وسألني عن عمي محمود ، وكنت أجيبه ، ولكنه بدا كأنه لا يستمع لي ، وطلب مني أن أسافر معه إلى طنطا وأقضي معه يومين ، فقلت له :

- لما أقول لماما ..

ولكنني لم أكن أرغب في السفر معه ، إذ شعرت أنه لم يعد أبي ، إنه شخص آخر ، أحس نحوه بمشاعر تحيرني ، لا أدري ما هي ولما تركته .. مشيت في الطرقات ذاهلة ، وكأن مطرقة ضخمة تهوي فوق رأسي وهشمته ..

قبل العيد الكبير ، وصلني خطاب منه ، لم يرسل الخطاب إلى أمي ، بل كتب اسمي على الخطاب ، وكان فيه كلام غريب .. إنه يائس ومتعب ويريد أن يراني ، حتى أدخل البهجة على قلبه في العيد .

قالت أمي بسخريتها المعتادة :

- ومن امتى بيفتكرك حضرته في العيد !

قلت لها في حيرة :

- أعمل إيه ياماما ؟

صاحت :

- أظن عايزه تسافرى له ..

وشجعتنى كلمات امى فتجاهلت الخطاب ولم أسافر له ، وفى الحقيقة كنت مدعوة مع يولاندا إلى عزبة صديق لها عنده عربة حمراء كبيرة شيفروليه ، وكنت افضل ان اذهب مع يولاندا على أن ألبى طلب أبى .

كانت العزبة فى العياط ، ذهبنا إليها ثانى يوم العيد ، وقضينا اليوم كله هناك ، ولما عدت إلى البيت فى المساء ، كانت هناك البرقية .

مات أبى ..

أتدرى كيف مات ، قذف بنفسه من الشباك ومات .. انتحر .

حاولت امى أن تمنعنى من السفر ولكنى هربت منها فى الصباح ، واقترضت من يولاندا النقود ، وسافرت إلى طنطا وحدى .

هناك فى شارع البورصة ، بيت صغير من ثلاثة طوابق ، أبى كان يسكن فى الطابق الثالث ، وحده .

كانوا قد دفنوه ، واستضافنى جاره ، رجل سمين طويل ، له زوجة سمينة طويلة مثله ، بيتها ملىء بالأطفال ، وأخذونى إلى المقابر وبكيت وبكوا معى ..

وقال الرجل السمين ، إنه واثق أن أبى لم ينتحر ، لأنه رجل صالح وتقى ، وقال : إنه يشك فى أن أحد أعدائه قد قتله ، لأنهم كانوا ينازعونه على أرضه .

تلقفت هذه القصة وعشت بها . ولما رويتها لأمى لم تصدقها ، فثرت عليها ، ولكننى فى قرارة نفسى كنت أعلم أن أحداً لم يقتل أبى ، وأنه قد انتحر .

انتحر لأنى لم أذهب إليه ، لو كنت ذهبت لأدخلت على قلبه البهجة ، ولنسى همومه ووحدته ، ولكننى لم أذهب إليه ، فانتحر ..

أنا قتلت أبى .. أليس كذلك .

●●

شعرت براحة كبيرة بعد أن رويت ليوسف كل شىء .. وأحسست برغبة فى

النوم ، كأنى لم أنم منذ سنين ، صدرى استراح .. ولم يعد هناك شىء يؤرقنى ، حتى مخاوفى من أنور ومحمد ناجى ، تحولت إلى تفاهات ، بعد أن قلت ليوسف قصتى مع أبى ، أستطيع أن أعترف له بكل شىء ، بلا خجل وبلا خوف .

سأستريح قليلا ، أريد أن أقضى بضع دقائق فى صمت ، قبل أن أمضى فى اعترافاتى .. نعم .. سأقول له كل شىء .. إنى أعرف أن صاحب هذه الشقة هو محمد ناجى ، وأنه دعانى للقائه هنا ، ومازال يدعونى ، سأقول له إنى ذهبت إلى شقة أنور ، وأنى كدت أستسلم له ..

سأجعله يرانى كما أنا ، لم أعد أطيق الكذب ، ولم أعد أطيق الخوف وسمعت صوت يوسف ، متهدجاً عميقاً وكأنه صادر من مكان سحيق :

- تعرفى يا سامية ..

وسكت ..

ماذا يريد أن أعرف ...

ثم قال :

أنا كمان قتلت أبويا ..

بعد ليلة الاعترافات ، لم يعد بينى وبين يوسف حجاب يستر خبايانا ، عرف كل شىء عنى ، وعرفت كل شىء عنه ، إنه شىء لا أستطيع أن أصفه ، يكفى أن أقول إنى أصبحت أنظر إلى يوسف .. فلا أرى وجهه بل أرى أيضاً حياته وذكرياته . كنت أرى روحه ، ولا أشك أنه كان يرانى أيضاً بهذه الطريقة ..

حدثنى أولاً عن أمه التى ماتت وهو صغير ، كل ما يذكره عنها أشياء تبدو تافهة ، ولكنها محفورة فى قلبه ، يذكر جسدها السمين وهو يجرى مندفعاً إليه فيسقط على الأرض قبل أن يصل إليها ، يذكر عينيها الواسعتين وهما تبتسمان له ، يذكر فستاناً فضياً بالترتر كانت ترتديه مساء يوم كثير الأنوار ، وقد بهره جمالها حتى أنه لم يحول عينيه عنها طوال الليلة حتى نام ، ما مناسبة تلك الليلة ، إنه لا يذكر .

كان يحبها ، ولم يكن يهتم كثيراً بأبيه ، ولا يشعر به ..

- تعرفى ياسامية .. أنا ما حبيتش أبويا .. لما شفته بيعيط .. تصدقى دى .. كان بيعيط كل يوم زى العيل الصغير .. كنت أبص له وأشوف دموعه نازلة على خده وعينيه لونها أحمر ، وانبسط لأنه ح يموت نفسه عليها .. و حبيته .. موش بس حبيته .. احترمته .. كان حزنه على أمى هو أول صلة حقيقية بينى وبينه ..

تعود أن يعيش مع والده بعد موتها معتزلة ، يذاكر ، ويجتر أحزانه ، ويحلم بأمه ، كانت تأتيه فى المنام وتقبله وتعانقه وينام معها فى السرير . كما كان يفعل وهو طفل صغير ، أو يرى نفسه معها فى مركب شراعى فى بحر هائج ، وهو يبكى والدموع تبلل وجهه ، وهى تضحك ، وكان يفيق من حلمه فزعاً يخشى أن يموت ، ثم يفتقدها ويفتقد حنانها ، فيبكى وهو يقظان ..

وكان يستيقظ فى الصباح .. فينظر إلى وجه أبيه ويتذكر أمه .. ويتساءل ، لماذا ماتت ، لماذا تركت البيت ، أهو عقاب نزل عليه ، وما الذى جناه حتى ينزل عليه هذا العقاب ، ويتناول افطاره صامتاً ، ثم يخرج إلى المدرسة حيث يقضى اليوم منطوياً على نفسه لا يلعب مع أحد ، ولا يهتم بالضجة التى تدور حوله ، كان المدرسون يعجبون بهدوئه وأدبه ، ولكن حتى هذا الإعجاب لم يكن يعنيه فى شىء .

كان التلامذة بيحسدونى لأنى شاطر .. كانوا متغاظين منى ، وفاكرين أنى مابالعبش معاهم علشان أنا والد صمام عايز أطلع الأول .. لكن تصدقى أنا ما كنتش عايز حاجة أبداً .. لا أطلع الأول ولا الأخير .. وكان يقعدوا فى الفسحة يحلموا .. اللى عايز يبقى ظابط ، واللى عايز يبقى طيار واللى دكتور . وأسأل نفسى فى سرى ، أنا عايز أبقى حاجة .. أهى دنيا أنا عايش فيها والسلام .. كل اللى بافكر فيه هو أيام ما كانت أمى عايشة .. باشوفها .. وأقولها ياماما .. وتنادينى ..

تعرفى .. أنا اتعودت ما أطلبش حاجة أبداً .. إيه اللى ح يجينى احسن من أمى .. وأهى راحت .. ولو اخترت أى حاجة من الدنيا دى ما هى ح تروح منى برضه .. مفيش فايدة ..

وكبر يوسف ..

وعرف أن لوالده أقارب أغنياء ، راتب بك .. وابنه مدحت .. وابنته سعاد ، كان يحسد مدحت ، لا لأنه غنى ، ولكن لأن له أماً ، وخيل إليه فى ذلك الوقت أن سر ثراء مدحت وسر فخامة بيته ، هو وجود أمه .

- كنت باقول فى سرى .. ده عنده أم ، وعنده أخت .. وأنا لوحدى ما عنديش حد .. ويمكن علشان كده حبيت سعاد .. استكترتها على مدحت .. قلت أخدها لنفسى .. لما حبتها مافكرتش انها غنية وأنا فقير .. كنت باقابلها فى سطوح بيتهم ونقزقز لب .. وأبوسها ونتكلم فى حاجات عبيطة .. لحد ما فوجئت أنها اتخطبت ، زعلت ، إنما حسيت أن ده كان لازم يحصل ، راحت زى ما راحت أمى .. لكنى فضلت أفكر فيها .. وقلت لنفسى دى غنية وأنا فقير .. واللى اتجوزها دكتور من عيلة غنية وكبيرة ، وأنا لسه طالب فى الجامعة ما أسواش مليم .. قلت ، لو كانت استنت لحد ما اتخرج واشتغل ، لكنها مافكرتش ، كانت مستعجلة على الجواز .. الناس كلها بتجرى ورا أى حاجة .. اللى عايز فلوس .. اللى عايز يتجوز .. اللى عايز يبقى حاجة مهمة ..

أنا كنت عايز سعاد وبس .. لكن علشان أوصل لسعاد ، لازم أعوز حاجات تانيه كتير .. موش قادر أوصل لها .. وفى الحقيقة موش عايزها .. تعرفى ياسامية .. أنتِ الوحيدة اللى سيبتى كل حاجة علشانى .. موش غريبة دى .. مع كل الظروف اللى أنتِ فيها .. لو كنتِ جيتى هنا مع محمد ناجى كان يبقى لكى عذر .. لو كنتِ مشيتى مع أنور سامى ماكانش حد قالك حاجة .. لو كنتِ فضلتى مع مدحت كنت اتجوزتيه .. لكن انتِ سيبتى كل شىء .. ورضيتى بيه .. شفتى قد إيه احنا زى بعض .. على العموم كل ده يهون قدام المصيبة اللى حصلت لأبويا .. تعرفى إنه اتجوز خدامة كانت بتشتغل فى بيت مدحت .. وروى لى قصة مبروكة ..

كان مدحت يحدثه عنها ، وروى له يوم ضبطته أمه معها على السلم ، وكان يستمع إلى حكايات مدحت فى فضول ، ويدهش من جراته .. فلما انتقلت

مبروكة إلى بيت يوسف ، وجد نفسه مندفعاً إلى مغازلتها .. ولم يجد صعوبة فى ذلك ، إذ شجعته هى .

فى عصر يوم كان أبوه خارج البيت ، وهو جالس يذاكر ، فسمعها تغنى فى الحمام ، ولم يستطع أن يقرأ حرفاً ، فقام وذهب إلى الحمام ، فوجد بابه مفتوحاً ، وهى واقفة أمام المرآة تمشط شعرها ، ولما رأته ابتسمت فى دلال ، ولم تكف عن الغناء ، اقترب منها ، فنظرت إليه فى جرأة ، فطلب منها أن تصنع له فنجان شاى ، وعاد إلى حجرته ، وبعد قليل دخلت عليه وفى يدها كوب الشاى ، وضعته أمامه ، ثم وقفت إلى جواره وقد ألصقت جسمها به . وسألته عن الكتاب الذى يقرأ فيه . ولم يتمالك نفسه فجذبها فسقطت على حجره . وكانت هذه بداية علاقته بها ..

وجاء يوم ، فلاحظ أن مبروكة تجلس مع والده ، لم يصدق عينيه وانتهز أول فرصة غاب فيها والده عن البيت ، وسألها عن سر جلوسها معه . فقالت له فى وقاحة : إنها ليست خادمة ، ولماذا يريد أن يعاملها أبوه معاملة الخدم ، بينما هو يعاملها كعشيقته .

ومرت شهور ، فإذا بالموقف يتطور إلى ما هو أخطر ، فيقع الأب فى براثن مبروكة ويقرر الزواج منها ..

ـ كنت عايز أقول على اللى بينى وبينها .. لكن ما اقدرتش .. خفت أقوله إنها بنت فاسدة وخبيثة ، وبعدين ما يسمعشى كلامى ويتجوزها برضه .. طفشت من البيت ، واحتقرت نفسى ، واحتقرت أبويا .. قلت ده موش أبويا اللى أعرفه .. أبويا مات .. أبويا موش ممكن ينسى أمى ولا يخونها .. بعد شويه مات أبويا . حسيت بالندم ، ماكانش لازم أسيبه لو كنت قلت له يمكن ماكانش اتجوزها .. ولا كانش مات .. سكوتى وبعدى عنه هوه اللى قتله .. بقيت موش طايق نفسى .. الدنيا دى بقت كلها كذب فى كذب .. ماكانش مريحنى إلا حاجة واحدة .. أن أبويا اتخلص من مبروكه . ورجع لأمى .. حاولت مبروكة انها تشوفنى بعد كده .. لكن رفضت ، بقيت أهرب منها .. دى واحدة معندهاش شرف ولا أخلاق .. مستعدة تعمل أى حاجة .. تصورى لو عشت معاها ،

ورجعت علاقاتنا ببعض يبقى شعورى إيه .. حاجة تقرف .. تفتكرى عملت إيه ، يوم جت الجرنال تسأل عنى ؟ شافت واحد رسام اسمه شوقى بيشتغل عندنا ، صاحبته فى دقيقة وراحت تعيش معاه .. كده ببساطة .. يبقى دى واحدة أسأل عنها ، والا أفكر أساعدها .. بتصعب علىّ بعض ساعات لما تتمسكن .. وتمثل دور الغلبانة .. لكن ده كله تمثيل فى تمثيل .. أول ما تيجى لها فرصة تهبش فيها ، ولا حدش يقدر يقف قصادها .

وسكت يوسف برهة ثم هز رأسه وقال فى بطء وعلى شفتيه ابتسامة :

ـ ياه محمد ناجى عرف حكاية مبروكة منك .. الراجل ده غريب ما قليش حاجة ..

همست :

ـ مافيش شىء ندمت عليه فى حياتى زى العملة دى ..

ضحك قائلاً :

ـ تعرفى .. مافيش حاجة تأكد لى انك بتحبينى زى اعترافك بكل شىء .. أنا مش مصدق أنى لقيت حب بالشكل ده .. انتِ ح تعوضينى عن حاجات كتير كانت ناقصانى .. أنا سعيد .. أسعد مخلوق فى الدنيا .. سامية .. أنا موش قادر أصدق نفسى .. زى ما اكون اتجننت ..

قلت والسعادة تضج فى قلبى .

ـ احنا الاثنين مجانين .

●●

عثرنا على شقة صغيرة من حجرتين فى الطابق الرابع من عمارة جديدة خلف سينما بارادى . كانت بلكونة الشقة تطل على شاشة السينما . بعد أن دفع يوسف الإيجار والتأمين أعطانى خمسة جنيهات هى كل ما تبقى معه ، فذهبت إلى دكاكين الموبيليا القديمة فى العتبة الخضراء واشتريت من هناك سريراً معدنياً ومرتبة من القش حملتهما على عربة كارو ، وقضينا ليلتنا الأولى فى الشقة على ضوء شمعة . أحضرنا سندوتشات من الأكسلسيور وبطيخا ونقلنا المرتبة إلى البلكونة وجلسنا نتفرج على فيلم بالألوان اسمه « سالى »

لريتا هيوارث وفيكتور ماتيور ، وأكلنا البطيخ بأيدينا وأسناننا ، أكلنا بنهم ، وفرحنا بنهم .. وكنا سعداء .

ولم يكن يضايقني إفلاس يوسف لم أشعر بحاجتي إلى النقود وأنا معه .. كنت ألبس أي فستان وأضع في قدمي أي حذاء . وننطلق في الشوارع ونعود إلى بيتنا . وكأننا نملك كل شيء .

وأحياناً كنت أكذب على أمي . وأقول لها : إني سأذهب إلى الاستديو وأطلب منها أجرة التاكسي . فإذا أعطتها لي دعوت يوسف إلى العشاء في الامريكين . وأكلنا جيلاتي ثم نعود إلى الشقة ونشاهد الفيلم الذي تعرضه سينما بارادي حتى ولو كنا رأيناه من قبل أربع مرات .. ولكني ذهبت إلى الاستديو مرة بعد أن اتصل بي الأستاذ حلمي وكانت الأخبار قد وصلته من روما تقول إن المخرج الإيطالي أعجب بشكلي ، وأنه وافق على أن أمثل دور فاطمة .

دخل علينا أنور سامي ، وما كاد يراني حتى صاح في مرح ..

بتعملي إيه هنا ياسامية ..

قال حلمي :

ـ خلاص وافقوا في روما عليها فبدا عليه الفرح .. وهنأني في حرارة .. وقال فجأة ..

ـ أنتِ ح تبقي ممثلة عظيمة .. أنا متأكد ياسامية ..

كان يتكلم في تأثر وحرارة ، حتى أني لم أصدق أنه هو أنور سامي الذي أعرفه ، والذي يطاردني ويسخر مني كلما رآني .

وقابلته مرة ثانية وأنا خارجة من الاستديو ، وكان يركب عربته فناداني ، وعرض عليّ أن يوصلني ..

صاح ضاحكاً :

ـ اركبي ، ماتخافيش .. أنا موش بعبع ..

وركبت . لم أستطع مقاومته ، بعد أن تحول إلى إنسان رقيق في معاملته لي ، ولكني قلقت بيني وبين نفسي ، ماذا أقول ليوسف ، وهل يصدقني ، وزاد قلقي

عندما وصلنا إلى منتصف شارع الهرم ، إذ تغيرت لهجة أنور وعاد إلى سخريته .

ـ شوفي .. أنا عارف أنك بتحبي .. حبي زي ما أنتِ عايزه .. واتجوزي زي ما أنتِ عايزه .. لكن وحياتك ح تلاقي كله كلام فاضي .. وموش حيفضل من ده كله غير التمثيل .. وأبو الأنوار ..

ونظر إليّ بطرف عينه وسألني ..

ـ موش مصدقاني ..

ضحكت في عصبية .. فقال متنهداً .

ـ بكره نشوف ..

ولكنه عاد قبل أن يصل بي إلى البيت ، إلى لهجته الأولى . الطيبة . وقال ..

ـ ما تصدقنيش ياسامية .. أنا أكبر كذاب في العالم .. لو كنتِ بتحبي بحق وحقيق . فامسكي فيه بأسنانك .. أوعي تسيبيه .. الحب موش حاجة بسيطة .. موش موجود ولا في السوق السودا ..

وصمت وبدا عليه التفكير ، ثم قال بصوت جاد .

ـ بس سيبك من السينما .. الشغل فيها ما ينفعش مع الحب والجواز .. هوه اسمه إيه ..

ـ مين ..

ـ اللي أنتِ بتحبيه ..

ـ واحد ..

ـ موش عايزه تقوليلي اسمه ..

اطرقت برأسي ، كأني أقول له وأنت مالك . فصاح مهللاً ..

ـ مافيش حاجة بتستخبى .. ابقي سلميلي على يوسف ..

احمر وجهي وارتبكت . فأسرع يقول :

ـ ما تخافيش .. موش ح اقوله حاجة على اللي حصل بينا .. ده حتى أنا اتكسف اقول إني ما اقدرتش أوصل لشيء معاكي .. تبقى فضيحة ..

وابتسمت .. وظن انى فرحت لانه سيكتم سرى ، ولم يعلم انى أبتسم لانى قلت ليوسف كل شىء ، وقبل أن اغادر عربته .. سألنى :

ـ ح تتجوزوا امتى ..

ـ كمان شويه ..

ـ اوعى تنسى تعزمينى على الفرح .. انا ح اعملك فرح ولا ألف ليلة وليلة ..

واطلق زغرودة من فمه ..

رويت ليوسف مقابلتى لانور وأنا اضحك .. ولكن وجهه تجهم وبدا عليه الضيق ، وسألته فى خوف ..

ـ أنت اتضايقت ..

ـ ايوه ..

ـ بس انا لازم ح اشوفه .. دى شغلتى ..

تنهد وقال .

ـ انا عارف ..

ـ تحب اسيب التمثيل .. أنا مستعدة ..

هتف فى حرارة .

ـ لا ياحبيبتى .. انا اللى غلطان .. لازم اعوّد نفسى أنى ما اتضايقش من الحاجات دى ..

●●

اول الشهر اعطانى يوسف ثلاثة وستين جنيهاً .. هى كل ما تبقى من مرتبه بعد ان دفع حساب البوفية فى الجريدة لم اكن أتوقع انه سيفعل هذا ، اخذت منه النقود بيد مرتجفة . وايقنت لحظتها انه سيتزوجنى ، قلت وانا اضحك فى بلاهة :

لما نتجوز ح تبقى تعمل كده وتنبهت إلى انى قلت شيئاً خطيراً بلا وعى ، هذه اول مرة أصرح له فيها برغبتى فى الزواج . واجابنى بسرعة وبساطة ..

ـ طبعاً يا حبيبتى ..

فهجمت عليه اقبله .. تعانقت شفتاى انفه .. لم اكن ارى شيئا امامى وقد غامت عيناى .

يومها ذهبت إلى خان الخليلى واشتريت اباجورتين من النحاس بثلاثة جنيهات .. واشتريت وابور جاز وسكراً وبناً ، واشتريت ليوسف سلسلة مفاتيح ليضع فيها مفتاح بيتنا . وكان فى السلسلة قرص صغير إذا دار بسرعة قرأ كلمة .. احبك ..

وذهبت إلى شارع فؤاد وشارع سليمان ، واشتريت له ثلاث كرافتات وقماش بدلة شتوى واشتريت لنفسى قماش فستان جديد .. صرفت أكثر من عشرين جنيهاً فى يوم واحد ، وكنت ما زلت لم أدفع إيجار الشقة وهو تسعة جنيهات .. ورايت النقود تتبخر من يدى ، وهناك أشياء كثيرة أريد ان اشتريها ، اريد ان اذهب إلى نجار واتفق معه على صنع اثاث للبيت ، اريد شراء سجادة وراديو ، اريد شراء ادوات المطبخ ، أريد شراء مناشف للحمام ، اريد وأريد ..

قلت ليوسف وأنا اكاد أبكى من الغيظ ..

ـ الفلوس ح تخلص ..

ضحك قائلاً :

ـ أمال انتِ واخداها ليه ..

ـ وح نعيش إزاى لآخر الشهر .

ـ ولا يهمك ..

اشعرتنى إجاباته بالثقة ، اشعرتنى بالسعادة التى انا فيها هاهى النقود معى استطيع أن اصرفها كما اشاء . إنه ليس كأمى تحاسبنى على المليم . وتعطينى القرش وكأنها تعطينى من لحمها ، قلت لنفسى إن ستين جنيهاً ليست بالشىء القليل ، وسيكسب يوسف اكثر واكثر . وساكسب انا من السينما وبعد سنتين او ثلاثة سنحقق احلامنا .

وذهبت إلى النجار واتفقت معه على صنع حجرة نوم . وكنبة أمريكانى

ومقعدين ، وساومته حتى قبل أن ادفع له مائة وخمسين جنيهاً بالتقسيط ، كل شهر عشرين جنيهاً .

●●

كنت قد اتفقت مع يوسف أن أقطع مكالماتي مع محمد ناجي ، ونفذت الاتفاق ، ومضت أسابيع وقد غاب محمد ناجي عن بالي ، نسيته تماماً ، ولكنه اتصل بي ذات صباح ، وسمعته يقول في لهفة :

- سامية .. أقدر أعتمد عليكي ؟
- في إيه ..
- أرجوكي أولاً تنسي كل اللي فات .. صحيح انا كنت بأغازلك .. لكن ده موش ذنبي .. انا راجل أعزب وأنتِ بنت حلوة .. وموش عيب اني اغازلك .. بالعكس كان عيب اني ما احاولش .. لكن دلوقت خلاص .. انتِ بتحبي يوسف ، ويوسف بيحبك .. وانا باكلمك في حاجة لمصلحته
- فيه إيه ..
- بس توعديني أنك ما تقوليلوش إني كلمتك ..
- أوعدك ..
- اسمعي ياسامية .. يوسف بيعرض نفسه لحاجات خطر عليه .. ولازم تنقذيه بسرعة قبل فوات الأوان ..

سألت في ذعر ..

- إيه اللي حصل ؟
- دي حكاية طويلة .. وما احبش أحكيها في التليفون .. ممكن تفوتي عليَّ ..

قلت بسرعة ..

- لا ..
- صدقيني ياسامية .. انا موش باهزر .. ولا باضحك عليكي .. لو تحبي تيجي الجرنال تعالي .. بس في وقت يوسف ما يكنش موجود فيه ..
- بس يوسف لو عرف ح يزعل .
- لازم يوسف ما يعرفش .. كان صوته حاسماً ، فزاد ذعري ..

انا محتارة ..

قال في حدة ..

- انتِ ما يهمكيش مستقبله .. احسست بأن كلماته تخنقني .

اسمعي .. انا رأيي تيجي الشقة أحسن .. ح استناكي الساعة خامسة بعد الظهر ..

ثم قال في لهجة تهديد :

- ما تحاوليش تخدعيني ياسامية .. لو قلتي ليوسف كلمة واحدة .. ح تفسدي كل شيء .. وموش ح نعرف نشتغل مع بعض .. انا مستنيكي الساعة خامسة .. أورفوار ..

مضت الساعات وانا أتعذب . ماذا يحدث ليوسف ، ما هذا الشيء الخطير الذي يتحدث عنه محمد ناجي ، وما دخلي انا ، وما الدور الذي يريد مني أن العبه . ولم احتمل مخاوفي فاتصلت بيوسف وقابلته . وبينما كان محمد ناجي ينتظرني في شقته . كنت مع يوسف في بيتنا اقول له كل شيء ..

لم يدهش ، بل ابتسم وقال في هدوء :

- الرجل ده اتجنن ..
- انت مخبي عني حاجة ..

صاح :

- بلاش كلام فاضي .. ده شخص مراهق .. متسأليش فيه ..
- امال ليه بيقول إن مستقبلك في خطر ..

هتف في انفعال ..

- متصدقيش .. متصدقيش .. واحد بيعاكسك وبيضحك عليكي .. مافيش اكتر من كده ..

وتجهم وجهه . وقال بصوت خفيض ..

- على العموم انا موش ح اقدر أستمر في الشغل معاه .. انا رايح اقدم له استقالتي ..

صرخت ..

- ما تخلنيش أندم اني قلت لك .. خليك عاقل يا يوسف ..

ولكنه لم يكترث بكلامي .. حتى بعد أن توسلت إليه .. وتركني وأنا يائسة .. ألعن غبائي .. لقد افسدت كل شيء .. سيستقيل يوسف ، ولن يستطيع الزواج مني ..

- في المساء عاد يوسف وعلى شفتيه طيف ابتسامة ..

- عملت إيه ...

احمر وجهه ولم يتكلم ..

صرخت في غيظ ..

- ما تقول .

- ما استقلتش ..

كان مطرقاً برأسه .. والخجل يبدو في صوته ..

قلت في ارتياح .

- الحمد لله ..

ضحك وقال بصوت غريب ..

- الدنيا دي غريبة ..

وهز رأسه .. ورفع يده إلى ذقنه وحكها في عصبية .. ثم قال :

- رحت علشان أستقيل .. فكانت النتيجة أني اترقيت .

هتفت وأنا لا أصدق ..

- موش معقول ..

لوح بيده وقال .

- ده اللي حصل .. موش قلت لك أنا عمري ما طلبت حاجة .. كل حاجة بأعملها عبارة عن توريطة .. أنا باتورط اكتر واكتر .. دي هيه قصتي في الدنيا دي .. ياناس أنا موش عايز حاجة .. سيبوني في حالي ..

- قصدك إيه :

كان كلامه غامضاً واخباره تحيرني ، وخيل إليّ للحظة أنه ليس يوسف الذي أعرفه ..

- تعرف انا مرتبي زاد الليلة دي .. من سبعين لمائة وعشرين ..

كان يتكلم بوجه حزين .. وكأنه يروي لي كارثة .

- يوسف .. أوعى تكون بتكذب عليّ ..

- ح اكذب عليكي ليه .. مرتبي زاد فعلاً .. واول الشهر ح اديكي الفلوس .. أنا بقيت نائب رئيس التحرير ..

- ازاي .. انا موش مصدقة ..

- ولا انا لكن اهو ده اللي حصل ..

- لكن إيه بس اللي حصل ..

قلت لمحمد ناجي إيه .. وقالك إيه ..

رفع صوته في حدة وقال :

- قلت لمحمد ناجي باني بأحتقره .. إني فقدت احترامي له .. قلت له إنك قلت لي إنه اتصل بيكي .. وإنه عايز يشوفك وأنه هددك بمستقبلي .. رميت الاستقالة في وشه وخرجت .. رحت مكتبي اشيل الحاجات بتاعتي مافيش خمس دقائق كان عندي في الأوضة بيعيط زي الكلب .. بيترجاني أني استنى في الجرنال .. كان ناقص يوطي يبوس جزمتي .. تصوري أنه عيط .. عيط بالدموع .. رغم كده رفضت .. عاملته بقسوة .. حنت زي المجنون .. وبعدين قالي الجرنال ح يتخرب .. ح يتقفل بكره لو أنا مشيت ..

وضحك يوسف وقال .

- اوعي تفتكري أنه ح يتقفل علشان انا مهم للدرجة دي .. الجرنال ممكن يطلع بكره وبعد بكره ولمليون سنة .. ولو خرجت منه انا وعشرة زيي .. لكن الأوامر صدرت ..

وسكت .. وبحلق امامه .. كأنه يرى أشباحاً مفزعة ..

أوامر مين ؟

- شهدي باشا .. الراجل اللي بيمول الجرنال .. محمد ناجي بعد ما قعد يترجاني مسك التليفون وطلب شهدي باشا .. وقاله ياباشا انا أترجيته وهو

موش راضي .. وبعدين التفت لي وإداني السماعة .. وقال لي خد كلم الباشا .. ما تكلمش معايا كتير .. قال لي .. يايوسف يابني .. أنا طلبت إنك تترقى .. ولازم تقبل .. لو سبت الشغل .. أنا ح اقفل الجرنال بكره .. وأعمل اللي انت عايزه .. بصيت لمحمد ناجي لقيت الدموع في عينيه .. ما اقدرتش ارفض .. قبلت .. بعد شوية كان محمد ناجي بيبتسم ولا كأن حصل حاجة .. وأنا بقيت نائب رئيس تحرير .. وماهيتي مائة وعشرين جنيهاً .

وعاد يحك ذقنه .. ويحدق بقوة في الأشباح التي تفزعه .. ثم صرخ ..

- هم عايزين مني إيه .. أنا موش فاهم حاجة ..

الفصل الثامن

حاولت أن أعرف سر ما حدث ، كنت واثقة أن يوسف يخفي عني شيئاً ، لست بلهاء حتى أصدق أن محمد ناجي ينهار ويبكي ويتوسل إليه أن يقبل الترقية ، محمد ناجي الذي أعرفه مغروراً ، له كبرياؤه ، مستحيل أن يفعل هذا ، ما الذي يخفيه يوسف عني .

شعرت بخيبة أمل ، لقد تعودنا ألا يكون بيننا أسرار ، إنني أحس وكأن يوسف يتخلى عني ، يضع حاجزاً بيني وبينه .. لابد أن أعرف السر حتى احطم هذا الحاجز ، ولكني رغم إلحاحي عليه لم أحصل منه على شيء ، اكتفى ذات مرة بأن قال إنه يشك في أن هناك شيئاً ما بين شهدي باشا ومحمد ناجي ، شيئاً يجعل شهدي يسيطر على ناجي ويذله .

سألته في إلحاح ، ما هذا الشيء ، فهز كتفه وقال في غموض :

— وإحنا مالنا ..

صمت ..

— يوسف لازم تقول لي أنت تعرفه ..

فأقسم وأنا واثقة أنه يكذب ، بأنه لا يعرف شيئاً .

وخيل إليّ أنه خائف أو مذعور من هذا السر الذي يعرفه ويكتمه عني .. وذات يوم قال يوسف إن زملاءه في الجريدة يريدون الاحتفال به بمناسبة

ترقيته ، وقال إنه ذاهب إلى الحفلة في المساء ، قلت له إني أريد أن أذهب معه ، فبدا عليه التردد ، فاعترضت قائلة :

— أنت مكسوف مني ..

فتراجع في الحال ، ووافق على أن يأخذني معه ، فرحت . كنت خائفة من أن يرفض ، فلما قبل شعرت بالاطمئنان ، إنه لا يتردد في إعلان حبنا ، وهذا معناه أنه لا يتردد في الزواج مني ..

كانت الحفلة في بيت غريب بالقلعة ، صعدنا سلالم حجرية تفضي إلى درب ضيق ، على جانبيه بيوت عتيقة كأنها قلاع تسكنها الأشباح ، دخلنا أحد هذه البيوت ، فقابلنا فناء واسع مظلم ، وصعدنا سلماً حجرياً ضيقاً ، وكانت تقابلنا ضجة عالية ، وضحكات صاخبة ، وصراخ وهتاف ، كأننا صاعدون إلى مجانين ..

كان مصدر الضجة شباناً وبنات ، محتشدين في حجرة واسعة ، سقفها عالٍ ، أرضها مفروشة بالحصير ، والكنب الاستامبولي ، والجدران كلها مزينة بعشرات اللوحات ، هجموا علينا ، وفي أيديهم زجاجات البيرة .. وفي أقل من دقيقة كنت أجلس بينهم .. وكأني أعرفهم منذ سنوات .. أعطوني زجاجة بيرة في يدي ، ووضعوا في حجري طبقاً من الكرتون فيه سندوتشات وخيار مخلل .. وجلسوا حولي يأكلون من الطبق الذي قدموه لي ..

ولاحظت أن شاباً أسمر نحيلاً يضع على عينيه نظاراته ، يطيل النظر إليّ ، فلما التقت عيوننا ابتسم ، وتقدم مني وقال كأننا أصدقاء :

— إزيك ياسامية ..

قلت في دهشة :

— ازيك انت ..

فجلس بجواري وقال :

— أنا اسمي شوقي محمود .. رسام باشتغل مع يوسف ..

أدركت في الحال أنه شوقي الذي تعيش معه مبروكة ، نظرت ناحية يوسف في ارتباك ، فرأيته يتقدم منا ، يريد أن ينضم لنا ، فصاح فيه شوقي في جراءة :

— لا .. ابعد عنا .. احنا عايزين نتكلم مع بعض ..

فابتسم يوسف ، وأدار لنا ظهره وابتعد .. وسألني شوقي :

— إيه رأيك في يوسف ؟

تذكرت محمد ناجي ، لقد سألني نفس السؤال في أول مقابلتنا .. أجبته وأنا أعلم أنه سينقل كل كلمة أقولها إلى مبروكة :

— أعظم واحد في الدنيا ..

قال بصوت جاد :

— أنا باتكلم جد ..

شعرت أنه يتحداني ، فقلت محتجة :

— ليه .. أنت موش موافق .. قال وعيناه تحدقان في عيني :

— يوسف موش عايز واحدة تدلعه ..

— أمال عايز إيه ؟ ..

— عايز واحدة تقول له الحقيقة ..

— وإيه هيه الحقيقة ..

فتلفت حوله ، ثم همس :

— تسمحي تيجي معايا بره ..

— فين ..

قال بصوت آمر وهو ينهض :

— تعالي بس ..

قمت وراءه ، وخرجنا إلى السلم وصعد بي إلى السطوح ، كانت ليلة معتمة بلا قمر ، وتعثرت بتماثيل ملقاة على الأرض كأنها جثث ، ورغم الظلام كانت المآذن واضحة في ارتفاعها الصامت إلى السماء ، وقدم لي سيجارة ، وأشعل عود ثقاب ، فبدا وجهه صارما ولمعت عيناه في قسوة ، وقال وهو يشير إلى البيوت من حولنا :

— دي أول مرة تيجي فيها هنا .

— أيوه ..

قال فجأة :

ــ اسمعي ياسامية .. احنا منعرفش بعض .. لكننا موش أغراب .. ما فيش حد ف الدنيا دى غريب عن التانى .. كلنا بشر .. لنا قلب .. ولنا عقل .. وكلنا بنحب الخير لبعض .

وسكت برهة ، وكنت قد تعودت على الظلام ، فاستطعت أن أرى وجهه المليء بالانفعال ، وخيل إلىّ أنه سكران ، أو مجنون ، وشعرت بالخوف ، فلذت بالصمت ..

وسألنى :

ــ أنتِ بتستغربى من كلامى ..

ــ أيوه ..

ــ أنتِ ممثلة .. موش كده ..

ــ أيوه ..

ــ عندك فكرة عن الفن ..

كان سؤالاً وقحا ، ورغم ذلك لم أجسر على الاحتجاج ، شعرت أنى ضعيفة أمامه ، كما داخلنى إحساس بأنه لا يريد أن يحرجنى ، وهمست :

ــ أهو .. باتعلم ..

قال فى حدة :

ــ قلت لك ماتزعليش منى .. أنا بأهاجمك علشان أعرفك أكتر ، صحيح أنا ماعرفكيش .. وماليش حق أحكم عليكى .. إنما أنا أعرف إن يوسف بيحبك .. كل اللى ف الجرنال عارفين .. شافوكم كتير مع بعض .. وأنتِ عارفة إن يوسف مركزه كبير ف الجرنال .. ومسئوليته كبيرة .. علشان كده يهمنى أعرف بيحب مين .. وإيه تأثير الحب ده عليه ..

أعجبنى كلامه ، إذ أشعرنى بأهميتى ، وتشجعت فقلت :

ــ وأنت خايف أحسن أكون نصابة ..

قال بسرعة :

ــ لا مش خايف .. إنما عايز أعرف انتِ فاهمه موقفك والا لا .. عارفة الدور

اللى بتلعبيه والا موش عارفاه ..

ــ دور إيه ؟ ..

فألقى بعقب سيجارته على الأرض وسحقه بقدمه وهو يقول :

ــ أنا عايز اسألك سؤال .. ممكن تجاوبينى عليه ؟ ..

ــ سؤال إيه ؟ ..

ــ أنتِ عارفة يوسف اترقى إزاى ؟ ..

خفق قلبى بشدة ، باغتنى سؤاله .. إنه نفس السؤال الذى يحيرنى ، قلت فى ارتباك :

ــ علشان يستحق الترقية .. ضحك ساخراً وقال :

ــ صحيح ماتعرفيش .. لزمت الصمت ، فمضى يقول :

ــ أنتِ عارفة أن يوسف بيمر بنقطة تحول خطيرة ف حياته ، كان شاب زينا ، شاب شريف ، بيشتغل وبيحاول أن يعيش .. وبعدين اصطاده واحد رأس مالى .. شهدى باشا .. طبعاً سمعتى عنه .. الجرنال بتاعنا عبارة عن بوق دعاية لشهدى باشا ، كلنا بنشتغل موظفين عنده .. حتى محمد ناجى صاحب الجرنال .. اللى بنى الدار شهدى باشا .. اللى اشترى المطابع شهدى باشا .. محمد ناجى عميل عنده .. خدام .. مجرد خدام .. شهدى باشا عايز يرفع أسهم البورصة ، نكتب أخباراً ترفع أسهم البورصة .. عايز يخسف بالبورصة الأرض .. نكتب أخباراً تخسف بالبورصة الأرض .. وزير ماوافقش على طلب لشهدى باشا ، نهاجمه ، وزير بيمشى أشغاله نرفعه للسما .. أدى شغلتنا .. شغلة حقيرة .. طبعاً أنا موش ساكت .. أنا باخد منهم فلوس علشان احاربهم .. علشان أنتصر عليهم .. شغلتى ف الأيام زى شغلتى ف أى حتة تانية ، وسيلة لأننا نقضى على الرأسمالية .. نقضى على اللى بيمصوا دمنا .. ويوسف كان ممكن يبقى واحد منا .. لكن باين عليه أنه عايز يختار السكة التانية .. عايز يختار يبقى زى محمد ناجى .. خدام عند شهدى باشا .. أشرح لكِ إزاى .. افرضى أن واحد منتج جه علشان يشغلك ف السينما ، وخلاص عايز يكتب معاكى عقد بألف جنيه ، وبعدين اكتشفتى أنه

ح يدفع الألف جنيه قصاد إنك تمشى معاه .. موش بتحصل .. نص اللى اشتغلوا فى السينما بيحصلهم كده والعن من كده .. توافقى والا تقطعى العقد وترميه فى وشه .. لازم تختارى .. إما أن تحاربى المنتج الراسمالى ، وتقضى على النظام الفاسد اللى يمكنه من السيطرة عليكى ، أو تستسلمى وتبيعى نفسك .. تعرفى أنا رأيى إيه .. يوسف باع نفسه ..

صحت وأنا أتذكر أنور سامى ومحاولاته معى ..

- يوسف مستحيل يعمل كده ..

صاح ..

- امال قبل الرشوة ليه ..

قلت محتجة :

— دى ترقية موش رشوة .. فأطلق ضحكة غريبة وقال :

— محمد ناجى على علاقة بزوجة شهدى باشا .. وشهدى باشا عارف .. إنما زى أى رجل أعمال ما يخليش عواطفه تسيطر عليه .. محتاج لقلم محمد ناجى .. محتاج لمقالاته .. الفلوس اللى ح يكسبها أهم عنده من شرف المدام .. إنما ينتقم بطريقته .. يذل محمد ناجى .. محمد ناجى يقول : أنا عايز أرفد يوسف .. شهدى باشا يقول : لا .. رقيه .. شهدى باشا بيقتل محمد ناجى على نار بطيئة .. بيسلخ جلده على مهله .. وبيحضر خليفته قدامه .. بيقول له ح أموتك وح أدفنك .. وح أخلى يوسف يقعد مكانك .. انتقام مليونير .. ويوسف بينفذ الانتقام ..

همست وراسي تدور .

— لكن يوسف ما يعرفش .

- صاح .

— مايعرفش .. والا بيتغابى وموش عايز يعرف ..

- أنا متأكدة انه ما يعرفش

قال بلهجة غريبة :

— يوسف من عادته أنه يتغابى .. ويتظاهر بانه مايعرفش حاجة .. لكن أنتِ

- ح يكون موقفك ايه ؟

هتفت أريد أن أتحداه ..

— ماتنساش إنى باحب يوسف .. وأنا ما أقدرش أصدق عنه حاجة وحشة ..

فقاطعنى ..

— لو عايزه تحتفظى بحبه .. لازم تخليه يبقى إنسان .. لو سبتيه يجرفه التيار .. ح يتحول لواحد ما فيش فى قلبه ذرة عاطفة .. واحد ما يعرفش الحب .. مايعرفش الحنان .. واحد مستعد يدوس على قلبه وعواطفه فى سبيل مصلحته ..

كان صوت التصفيق على الوحدة يرتفع إلينا من تحت ، وأغنية جماعية لم أسمعها من قبل ينشدونها ، وشعرت بضيق ، كأننى فى كابوس ، لا أعرف وسيلة للخلاص منه ، وندمت لأنى أتيت إلى هذا المكان ، إن قلبى يحدثنى بأن أشياء ستحدث ، تقضى على أحلامى فى الحب والزواج ، الظلام الذى يحتوينى يأكل صدرى ، والمآذن العالية تكاد تنهار فوقى ، الظلام بحر عميق أكاد أغرق فيه ، إن شوقى يعذبنى ، ولكنى لا أستطيع أن أتركه وأجرى إلى تحت ، لا أريد أن أرى يوسف الآن ، بعد كل ما سمعته ، إنى متعبة ، أريد أن أهدأ وأستريح ، ثم أفكر على مهل .

— بيرقصوا بلدى .. تحبى تنزلى تتفرجى ..

تجاهلت ما يقول ، وسألته ..

— انت بتكره يوسف ليه ..

— ماباكرهوش ..

— أنا عارفة فى بينكم حاجة ..

ورفع راسه وقال فى صوت جامد .

— هوه قال لك .

— أيوه ..

فهمس ..

ـ مبروكة بنت شريفة ..

قلت ساخرة .

ـ علشان عايشة معاك ..

فتجهم وجهه ، وقال فى غضب .

ـ البنت دى عمرها ما جابت سيرة يوسف بحاجة وحشة رغم كل اللى عمله معاها .. أنا نفسى ماأقدرش أقول لها رأيى بصراحة فى يوسف علشان ماتزعلش .. اللى قولتهولك ده هيه ماتعرفوش .. وموش ح تعرفه .. رغم كل شىء هيه متمسكة بأنه ابن جوزها .. اسمعى .. أنا بصراحة شيوعى .. وماخافش أنى أقولك .. يوسف نفسه عارف .. النهاردة ساكت عليه .. بكره ممكن يوشى بيه ويوديني السجن . إنما ده موش مهم .. أنا واضع ده فى حسابى .. إنما مبروكة مستحيل توشى بيه .. مبروكة اديتنى الفلوس اللى معاها علشان نطبع بيها منشورات .. من غير ما تعرف هيه بتدينى الفلوس علشان إيه .. من غير ما تقدر حتى تقرأ المنشورات اللى دافعة فلوسها .. دى واحدة بتؤمن بالناس .. عندها قلب .. وعايزه تعيش مع الناس .. ومش عايزه مجد ولا شهرة .. موش عايزه أنوار كشافة مسلطة عليها .

ـ أنت بتحبها ..

ـ أيوه باحبها ..

هزنى صوته ، تمنيت لو أسمع يوسف يعلن أنه يحبنى بنفس هذه القوة .

ـ أنا خايفة يكون حبك لمبروكة مأثر على رأيك فى يوسف ..

ـ الحب مالوش دعوة بأرائى .

وسمعنا صوت يوسف .. يهتف .

ـ أنتم يااللى فوق .. بتعملوا إيه ..

فصاح شوقى ..

ـ اطلع يايوسف ..

ـ ماتنزلوا أنتم ..

ـ لا .. اطلع أنت .. عايزينك

وصعد يوسف ، وقال وهو يقترب منا .

ـ بتعملوا إيه ..

قال شوقى فى بساطة :

ـ اتكلمنا فى كل حاجة ..

ضحك يوسف فى براءة وقال .

ـ برافو ..

والتفت إلى شوقى وسأله باسما .

ـ وشتمتنى .

ـ طبعاً ..

فالتفت يوسف إلى وسألنى فى صوت رقيق ليس فيه أثر انزعاج .

ـ قال لك ايه سامية ..

ضحكت فى عصبية واجبته :

ـ شتمك شتيمة وحشة قوى .. فقال شوقى فى هدوء :

باختصار عرفت كل حاجة .. أنى شيوعى .. وعرفت رأيى فى أنك بعت نفسك لشهدى باشا وعرفت أنك ممكن ترشى بيه وتودينى السجن .. مافيش حاجة ماتعرفهاش ..

قال يوسف جاداً ..

ـ سامية عارفة أنى كنت متضايق يوم ما ترقيت .. وعارفة أنى كنت مقدم استقالتى ..

صاح شوقى ..

ـ لكن قبلت الترقية ..

قال يوسف محتدا .

ـ علشان مايتقفلش الجرنال .

صاح شوقى ..

ـ وعلشان يتذل محمد ناجى وعلشان يفرح شهدى باشا ..

قال يوسف ..

— اسمع ياشوقي .. اللي بين محمد تاجي وشهدي باشا مالناش دعوة بيه .. احنا موش ح نردد شائعات .. أنا ما أحبش أجيب سيرة الناس وأنا موش متأكد ..

فنظر إلى شوقي في انفعال وهتف .

— شفتي .. موش قلتلك انه بيتغابى ..

أمال أنت اترقيت ليه .. إيه اللي خلي شهدي باشا يصمم على ترقيتك ..

قال يوسف في هدوء :

— اسمع . لو تقول لي أنا ماأستحقش الترقية دي .. ح أكتب استقالتي في الحال ..

قال شوقي في وجوم ..

— لا .. ماتستقلش .. بس ما تبقاش لعبة في يد شهدي باشا ..

قال يوسف مهاجماً ..

— ليه موش عايزني استقيل ..

أجاب شوقي ..

— علشان أنا كمان موش باستقيل ..

قال يوسف في انفعال ..

— أنا بأعمل اللي حاسس بيه .. ما يخالفش ضميري .. يوم ما حد يطلب مني حاجة تخالف ضميري ح أقدم استقالتي ..

وساد بيننا صمت سخيف . فطلبت منهما أن نهبط ، فقال شوقي إنه سينصرف .

همست في أذن يوسف .

— جيت ليه وأنت عارف انه ح يبقى موجود ..

قال في ضيق ..

— ح أعمل إيه .. موش ممكن ارفض ..

ثم ابتسم قائلاً ..

— على العموم أنا متعود على الشيوعيين .. إذا ما كنش الواحد يبقى شيوعي

زيهم ، يبقى خاين ومجرم وفيه كل العبر ..

ولاحظت أن يوسف كان ساهماً أثناء عودتنا ، وقال لي عند باب العمارة وأنا أودعه .

— فاكرة شوقي موش عايزني استقيل .. بالعكس هو يتمنى أني استقيل .. لكن خايف يصارحني .. خايف مني أحسن أوشي بيه وأبلغ عنه .. بينافقني ..

قلت متوسلة ..

— انساه ..

قال ح أقدم استقالتي بكرة ..

صحت ..

— ماتبقاش مجنون ..

قال وهو يتألم ..

— أعمل إيه .. ماهو صحيح الترقية دي ماكانش لها مناسبة ..

— أنت موش قلت موش ح تعمل حاجة تخالف ضميرك ..

قال والدموع تطفر من عينيه ..

— أنا خايف أنسى ضميري ..

شعرت بحنان إليه ، وتبددت كل شكوكي نحوه .. فضغطت على يده ، وأرسلت له قبلة .. همست .

— أنا باحبك .. وعايزاك تشتغل ، تجيب فلوس ونتجوز .. شوقي بيجيب فلوس لمبروكة ، علشان يعمل منشورات شيوعية .. وأنت بتجيب فلوس علشاني .

همس ..

— وعلشان إيه كمان ..

سألته في دهشة ..

— عايز الفلوس علشان حاجة تانية غيري ..

قال متأثراً ..

— شوقي شيوعي ، لكن أنا ايه .. عايز إيه ..

قلت في ثقة .

أنت عايز تبقى مخلص مع نفسك .. موش عايز تسيء لحد ، ولا تكذب على حد .. عايز تكون نضيف .. لو حاجة ضايقتك ياحبيبي قدم استقالتك ولا يهمكش .. أنا راضية بيك حتى ولو كان معكش مليم ..

قال في حرارة .

— خدي بالك مني يا سامية ..

قلت وأنا أخفض عيني ..

— بس ماتبقاش تخبي عني حاجة ..

صاح في ذعر ..

— زي إيه ..

— زي حكاية محمد ناجي مع شهدي باشا .. أنت كنت مكسوف تقوللي ..

قال في خجل ..

— أيوه كنت مكسوف .. ماقدرتش أقولك إني اترقيت علشان حكاية قذرة زي دي .. إنما ما كذبتش عليكي وقلتلك إني اترقيت علشان حاجة تانية ..

تحول خجله إلى دفاع عن نفسه .. فسارعت أقول :

— ماتتكسفش مني ياحبيبي .. أنت اترقيت فعلاً علشان كويس .. وعلشان أخلاقك كويسة .. وشهدي باشا يمكن فاكر أنه ح يعرف يستغلك .. لكن انت ح تقاوم .. زي ما باقاوم في السينما .. ح نعمل إيه .. الناس في ايدهم الشغل كلهم كده .. إنما لازم نقنعهم بأن الشغل الشريف احسن من طريقتهم ..

ضحك يوسف في عصبية وقال .

— احنا بنضحك على نفسينا ياسامية ..

قلت في أسى ..

— يمكن .. لازم نحاول قبل ما نيأس .. طول ما احنا بنحب بعض ح نشجع بعض .. وساعة ما نقولهم السلامُ عليكم .. يبقى يفرجها ربنا .. إيه رايك ؟؟

نسيب شغلنا ونمشي ببيانولا في الشارع ..

وضحكنا .. ولكن ضحكاتنا كانت مفعمة بالمرارة ..

●●

وضحكت في مرارة صباح اليوم التالي ، وأنا أسمع صوت الأستاذ حلمي في التليفزيون يصيح :

— أنا عندي لك شغل ياسامية . قبل أن أجيبه ، طاف برأسي في لحظة خاطفة كل ما حدث بالأمس . وسمعت الأستاذ حلمي يقول :

— ح تمثلي مع الأستاذ يوسف وهبي .

وقضيت ثلاثة أيام في الاستديو صباح مساء ، من أجل دور صغير أرتدي فيه الملاءة اللف ، وأسير في ديكور حارة ، في حركات مثيرة ، ثم أستدير خلفي ، وأغمز بعيني وعندئذ يدخل يوسف وهبي الكادر ويسير ورائي ، وبعد أن يتبعني ثلاث خطوات ، أقف وأستدير له وأسأله :

— أنت عايز مني إيه ..

فيقول لي :

— أنا آسف ..

وينتهي المنظر ..

ثم يصيح الأستاذ حلمي :

— ستوب ..

اعادوا التصوير ثلاث مرات ..

في المرة الأولى ، لأني سألت الأستاذ يوسف وهبي بلهجة ذواتي ، وفي المرة الثانية تكلمت من حلقي كبنت شرشوحة كما قال الأستاذ حلمي ، ولكن مهندس الصوت لم يعجبه التسجيل ، وفي المرة الثالثة أخطأ يوسف وهبي فدخل الكادر متأخراً وفرحت لأنه أخطأ مثلي ..

— إيه رأيك يايوسف بيه في تمثيلي ..

فنظر إليّ في ترفع ، وقال بصوت هادر :

— أنتِ يامدموازيل فاكرة اللي بتعمليه ده تمثيل ..

شعرت بسخونة فى راسي ، وجفون عيني ، وقلت فى لهفة :

— أنا عايزة أتعلم التمثيل ..

فابتسم ابتسامة غريبة وقال :

— وأنا معنديش موهبة ..

قال من أنفه :

— التمثيل يامدموازيل موهبة .

— لا .. روحي ياشاطرة دوريلك على عريس .

وتركني ، وابتعد عني ، كأنه ملك اعترضت طريقة متسولة حقيرة .. كدت أموت من الغيظ ، وسمع الأستاذ حلمي ما قاله يوسف وهبي ، فهمس فى أذني :

— ماتسمعيش كلامه .. يوسف بيه على عيني وراسي .. لكن ده بتـاع مسرح .. بكرة لما يشوفك فى الفيلم الطلياني ح يغير رايه ..

ولكني لم أهتم بكلام الأستاذ حلمي ، كنت أتمنى أن أسمع كل الناس تقول إني لا أصلح للتمثيل ، ولكن يوسف وهبي يعترف بموهبتي .

وفكرت فى اعتزال السينما .. وتذكرت ما قاله لى شوقي ، نعم أنا نصابة ، أليس ما أريده فعلاً ، هو الشهرة والمال ، وأن أكون ممثلة مشهورة ، هذا هو ما أحلم به ، أنا لا أحلم بالفن ، ولم يعلمني أحـد الفن ، كلهم يكتفون بجمالي ، وكلهم على استعداد لأن يجعلوا مني أعظم ممثلة ، لو .. رضيت ..

خرجت من الاستديو ، وأنا أعجب للتغيير الذى حدث لى ، أين كنت ، وكيف كنت أفكر ، وأين أنا الآن ، وكيف أفكر .. لقد أصبحت الدنيا على غير ما كنت أتوهم ، إنها ليست سهلة ، الفرحة صعبة ، والسعادة بعيدة ، ونفسي لم تعد راضية عن شيء ، لم تعد راضية حتى عن نفسي .. الدنيا كالطاحونة ، تطحن الناس ، طحنت أمي فأصبحت ما هي عليه وهي تريد أن تطحن يوسف وتطحنني .. أهذا هو مصيرنا .. جريت إلى شقيقتي إنصاف .. إنها لا تفكر فى غير دروسها .. كانت خارجة من الحمام ، وقد ربطت رأسها ، وسألتها :

— أنتِ حتشتغلي فين لما تبقي دكتورة ..

نظرت إلىّ فى دهشة ، إذا لم تتعود مني الاهتمام بحياتها ، وقالت :

— فى أي حتة ..

— مافكرتيش .

قالت وهي تتنهد :

— لما أخلص أبقى أفكر ..

قلت لها فى حرارة :

— أنتِ ح تبقي أحسن واحدة فينا ياإنصاف ..

ضحكت فى حيرة ، وكأنها لا تصدقني ، فمضيت أقول :

— علشان أنتِ اتعلمتي .. وح تبقي دكتورة .. ولو ما عجبكيش الشغل فى الحكومة ، تقدري تفتحي عيادة ..

قالت فى أسى :

— افتح عيادة .. وأجيب فلوسها منين ..

صحت ..

— اوعي تفكري فى الفلوس .. لازم نجيبهالك بأى طريقة ..

نظرت إلىّ فى ريبة وسألتني :

— أنتِ مالك النهاردة ؟ ..

— ولا حاجة .. بس باتحسر على نفسي ..

فصاحت :

— أنتِ .. هو فيه حد مبسوط قدك ..

كدت أبكي وأنا أقول :

— ماتصدقيش .. مافيش واحدة تعيسة فى الدنيا قدي ..

وحكيت لها ما قاله يوسف وهبي .. وقلت لها إني لن أمثل بعد الآن ..

فلم تهتم بكلامي ، ولعلها فرحت فى قرارة نفسها ، ولكنها أخفت فرحها ، وقالت لى ببرود :

— طول عمرك بتعملي اللي أنتِ عايزاه .. لو قلت لك بلاش تمثيل .. مـين

عارف .. بكره تغيرى رأيك .. وتمثلى عشرة الفلام ..

رفضت أن تفهمني ، وذهبت إلى سريرها ، وفتحت كتاباً ، وانهمكت فى القراءة .

قلت لها بعد قليل :

ــ ما بتفكريش فى الجواز .. فأغلقت الكتاب ، وحدقت فى الفضاء أمامها ثم قالت :

ــ مافيش فايدة .. الناس كلها عرفانا .. وسمعتنا والحمد لله ماتشرفش .. البركة فى الست ماما .. وفيكى .. أنا باتمنى على الله .. أنى اشتغل فى حتة بعيدة ، فى اسكندرية .. فى أسيوط .. فى أى داهية .. واتجوز واحد مايعرفناش .. موش من البلد دى .. وأعيش معاه على طول ..

ــ وتسيبينا يا إنصاف ..

قالت فى حرقة :

ــ وح قعد معاكم أعمل إيه .. لا انتم عايزنى .. ولا أنا عايزاكم . وانقطع الكلام بيننا ..

لابد أن أسرع بالزواج ، لابد أن أهرب من هذا البيت .. سأطلب من يوسف أن نتزوج فى الحال ..

الفصــل التـــاسع

كانت ليلة شتاء ، والمطر يهطل بغزارة ، وقد فر الناس إلى بيوتهم وتركوا الشوارع مهجورة ، قد انتشرت فيها البرك الصغيرة ، كان الجو مقبضا يثير الشجن فى صدرى فلجأت مع يوسف إلى بيتنا الصغير .. وكان النجار قد أتم صنع الكنبة الأمريكاني والمقعدين ، فوضعتهم فى الحجرة الأولى ، ونقلت السرير المعدني والمرتبة القش إلى الحجرة الثانية فى انتظار انتهاء النجار من غرفة النوم ..

قماش الكنبة لونه أخضر ، ومساندها لونها أسود . اخترت اللون الأسود لأنه وقور ، وكنت مصممة على أن أجعل بيتنا الصغير وقوراً محترماً ، لا أريد أن تكون ألوانه زاهية ، وكأننا فى جرسونيرة .

كنا صامتين ، ولكنه صمت هادىء حنون ، أنا جالسة ويوسف راقد وقد وضع رأسه على حجرى .. وأصابعى تعبث بشعر رأسه .. أنصت إلى رذاذ المطر كان تساقطه الرتيب ينشط خيالى ، كأني أرى فيلماً فى سينما بارادى المجاورة لنا ..

كنت أفكر فى زواجى ، مضت أسابيع وفكرة الزواج تلح على ، تخيلت أنى أفاتح يوسف ، أقول له هيا نتزوج ، فلا يقول شيئاً ، ولكنه ينهض وينظر إلىّ فى حنان ويجذبني من يدى ، ويذهب بى إلى المأذون ونتزوج ، ثم نعود إلى البيت

إلى هذه الكنبة ، ونجلس عليها كما نجلس الآن ، ليس هناك ما هو أبسط من هذا ، لا توجد عقبات ، أي عقبات ، فلماذا لا يحدث هذا ، لماذا لا نتزوج الآن .. الآن .فكرت في أمي ،ولكني رفضت أن أواصل التفكير ، لا يهمني أن تفاجأ بزواجي ..

فكرت قليلا في الشهود ، وتذكرت شوقي ، لماذا لا يناديه يوسف ويكون شاهداً للعقد سيرضيني هذا ، حتى يعود إلى مبروكة ويقول لها إنه كان شاهد زواجي من يوسف ، ويصف لها سعادتنا ..

لماذا أفكر في مبروكة الآن .. لا .. لا داعي لأن نضيع الوقت في البحث عن شوقي ، سأرضى بأي شاهدين يحضرهما لنا المأذون ..

ترى ما الذي يفكر فيه يوسف الآن ..

وتنهدت ..

العقبة الحقيقية ، هي كيف أقول ليوسف إني أريد أن أتزوج الآن .. في الحال .. في هذه اللحظة .. لا أريد أن أعود إلى بيتنا .. لا أريد أن أرى إنصاف .. ولا أمي .. ولا عمي محمود .. لا أريد أن أرى أحداً في هذه الدنيا .. أريد أن أحبس نفسي هنا .. في هذا البيت الصغير .. وأعيش مع حبي .

آه .. كيف أقول له ..

وتنهدت مرة أخرى :

ـ مالك ..

سألني يوسف ، بصوت يغالبه النعاس :

قلت في ضيق :

ـ المطر لسه نازل ..

ـ كنتِ عايزة تخرجي ؟

ـ لا .. بس نفسي مقبوضة .. زي ما يكون في فيلم مخيف في سينما بارادي .. فيلم بتمثله عفاريت ..

ضحك ، وسكت .. تثاءب ..

تمنيت لو كان دار بيننا حوار آخر ، يسألني لماذا أشعر بالانقباض فأجيبه ، لأني لا أريد أن أعود إلى البيت .. بيت أمي .. فيسألني ، لماذا .. فأقول له لأني تشاجرت معهم .. ثم أقول له إني سأبقى هنا ، فهذا هو بيتي فيوافقني ويقول لي ، نعم هذا هو بيتك ، تعالي نتزوج الآن ، وابقي هنا .. في بيتك .. في بيتنا ..

وقفز إلى رأسي خاطر ، إنه لا يعرف شيئاً عن أمي ، لا يعرفها على حقيقتها .. لماذا لم يسألني حتى الآن كيف أعيش معها ، لقد حدثته طويلا عن أبي ، ولم أحدثه عن أمي .. ترى ماذا يقول لو عرفها على حقيقتها .

شعرت بانزعاج ، لأنه لم يسألني عن أمي ولأنه لا يعرف شيئاً عنها .. كدت أقول له ، لماذا لا تسألني عن أمي .. ثم عدلت السؤال فأصبح ، لماذا لا تسألني عن بيتنا .. قبل أن أنطق بالسؤال ، سمعته يقول في بلادة :

ـ أنا جعان ..

كدت أصرخ يائسة ، لو كان يرى وجهي لفاجأته التعبيرات المرتسمة عليه ، ولكنه مضى يقول في كسل :

ـ بس .. مش قادر أخرج .. كسلان ..

همست :

ـ بكره يبقى عندنا مطبخ .. ونعمل الأكل فيه ..

لم يعلق على كلامي بشيء ، لم يكن متحمساً للكلام ، وتثاءب .

إنه متعب ، منذ ترقيته وهو يعمل بجهد مضاعف ، يريد أن يثبت لنفسه أنه جدير بالترقية التي حصل عليها .

أحيانا يعود ويحدثني عن متاعبه .. وأحيانا يعود مرهقاً حتى أنه لا يستطيع أن يحدثني عن أي شيء فيصمت ويتثاءب كما يفعل الآن . إن هذا لا يضايقني لا تعبه ولا صمته يضايقانني ، تكفيني عودته إليّ ، وحصوله على الراحة وهو راقد ورأسه في حجري ، إنه يلوذ بي ويستريح ، تعوّد عليّ ، وهذا يريحني أنا أيضاً ، ويطمئنني إلى حبه ، عندما أحنو عليه وتتسلل أصابعي في شعر رأسه ، أشعر كأنه هو الذي يحنو عليّ ويغمرني بحبه .

في إحدى الليالي التي تكلم فيها عن متاعبه ، قال لي إن شهدي باشا طلبه فذهب إليه فسأله شهدي باشا ، هل هو راض عن عمله الجديد ، وقال له إنه يعتمد عليه ، لأنه يثق فيه وفي موهبته ، فقال لشهدي باشا متعمداً ، إن كل شيء قد تعلمه في الصحافة ، كان بفضل محمد ناجي ، فهو أستاذه ، وتوقع أن يغضب شهدي باشا ، أو يبدو عليه الضيق على الأقل ولكنه على العكس ، ابتهج بإجابته ، وقال له :

– مافيش عندنا في البلد غير محمد ناجي واحد .

ثم ذهب مع شهدي باشا إلى نادي محمد علي ، وتناول معه الغداء وحدهما ، كان يرى حوله ألمع أسماء في البلد ، محمد محمود خليل ، وإسماعيل صدقي ، ولطفي السيد ، قدمه شهدي باشا لهم وجلس يستمع إلى أحاديثهم عن الطاولة والفرق بين جمال الباريسيات والسويديات ، لم يتحدثوا في السياسة ، انتظر طوال الوقت أن يسمع من شهدي باشا أوامر أو توجيهات خاصة بالعمل ، وكان يرتب في رأسه الكلمات التي سيقذف بها في وجه الباشا ، ولكنه لم يسمع منه هو الآخر غير قصص وحكايات مسلية ، حدثه وهما وحدهما على الغداء عن عشيقات الملك ، وعن بارتيتة بوكر لعبها الملك في نادي السيارات ، وضبطوه وهو يغش ، ولكن أحداً من اللاعبين لم يجسر على تحدي الملك ، تركوه يسرقهم وقال شهدي باشا محتجا إنه لو كان مع هؤلاء اللاعبين لواجه الملك ، فهو لا يضرب الأرض لتطرح له النقود ، إنه يكسبها بعرق جبينه ولن يسمح لأحد أن يسرق مليما من أمواله حتى ولو كان هذا السارق هو الملك ..

شعر يوسف ، إنه رجل وطني ، عصامي ، لا يحب الفساد ، وأنه معجب به ..

ثم رفع صوته وقال لي :

– لكن تعرف .. رفضت آخذ منه سيجار زي كل مرة .. أنا موش عايز منه حاجة .. كنت مستني غلطة واحدة منه وأهيج فيه ..

لم أسترح لكلام يوسف ، لشعور غامض في نفسي ، فقلت :

– إذا كان راجل كويس زي ما بتقول .. أمال ليه ساكت على علاقة مراته بمحمد ناجي ..

فأجابني في حرارة :

– أنا متأكد بعدما سمعته بيتكلم عن محمد ناجي .. إن الكلام ده كله شائعات ..

سكت وحاولت أن أقنع نفسي بأن هذه هي الحقيقة .. ثم عدت أسأله :

– طيب ليه اتحدى محمد ناجي وهدده بقفل الجرنال بسببك ..

فأجاب بسرعة وكأنه على يقين مما يقول :

– شهدي باشا راجل عصامي .. عنده مبادىء .. بيحب يشجع الشبان المكافحين الصغيرين .. وبيقف في صفهم .. تلاقيه عمل الهيصة دي كلها .. علشان المبدأ .. علشان ما يقضيش على مستقبل واحد واثق منه ..

أجبرت نفسي على التسليم بإجابته ورغم ذلك ، ظل ذلك الشعور الغامض يلعب في صدري .

وقال لي يوسف مرة أخرى .. والحماس يشتعل في صوته :

– الراجل شهدي باشا ده .. صحفي درجة أولى .. تعرف كل الأخبار السياسية اللي كتبتها النهاردة .. هو اللي قالها لي .. أسرار ماكنتش أحلم أوصل لها ..

ولم يكن حديث يوسف مقصوراً على شهدي باشا وحده ، روى لي ذات ليلة شجاراً حدث بينه وبين شوقي الرسام ، كان نادماً على هذا الشجار ، رواه لي وهو في حالة عصبية ، وعلى فمه ابتسامة متغيرة ، ابتسامة حزينة أحيانا ، معتذرة أحيانا ..

ناداه محمد ناجي ، وأخبره أن تقريراً من المباحث وصله عن نشاط بعض الشيوعيين في الجريدة ، وطلب منه أن ينادي كل من يشتبه فيهم وينذرهم بالطرد وذكر له شوقي بالذات ، وقال له محمد ناجي إنه يعرف أنهم سينكرون ، ولكن مجرد الكلام معهم سيخفيهم ويرهبهم ..

لم يسترح يوسف لهذه المهمة ، إنه لا يريد أن يهدد أحداً ، ولا يريد أن

يهدد شوقي ، ولكنه فكر في انه يستطيع أن يتفاهم معه ، فهذا افضل من أن يناديه محمد ناجي ويخاطبه بلهجة خشنة ، وقد يتهور شوقي فيطرده محمد ناجي في الحال .

●●

نادى شوقي ليتحدث معه وساله ضاحكا ، كأنه لا يعرف هل هو شيوعي ، كان سؤاله يريد أن يشعر شوقي بأنه يتجاهل كل ما يعرفه عنه ، ولم يكن ينتظر إجابة من شوقي ، كان يريد أن يمضي في الكلام فينصحه بأن يكون اكثر حذراً في هذه الأيام ، ويخبره بتقرير المباحث ، ولكنه فوجيء بشوقي يحتد عليه ، ويصيح بأعلى صوته أنه شيوعي ، وأنه سيظل يدعو إلى الشيوعية رغم انف الجميع .

فقد يوسف اعصابه ، وأنذر شوقي بالطرد من المجلة فخرج غاضبا ، وشعر يوسف بندم على اندفاعه وتهديده لشوقي ، خاف أن يظن شوقي انه يتعسف معه ، بسبب حديثي معه ليلة بيت القلعة وبسبب علاقته بمبروكة .. وهذا هو اخر ما يفكر فيه ، كان يريد أن يذهب إلى شوقي ويعتذر له ويوضح له حقيقة الأمر ، وقبل أن ينهض من مقعده ، رأى شوقي يدخل عليه خائفاً مرتعداً ، منكراً أنه شيوعي ، مهاجما الشيوعيين ، معلنا انها وشاية ، وأنه كان على صلة يوما ما بالشيوعيين ، ولكنه تركهم ، واصبح يحتقرهم .

حزن يوسف من أجل شوقي .. كره كذبه .. وكره جبنه .. إنه لا يطيق الكذب ولا يتحمل النفاق .. استمع إلى شوقي في نفور وعامله بجفاء ، ولم يعتذر له ..

أزعج هذا الحادث يوسف بشكل غير عادي ، وفي اليوم التالي قال لي :

- أنا ذهبت لشوقي النهاردة ، واعتذرت له ..

وسكت قليلا ثم قال :

- وعملت حاجة غريبة .. تصوري .. صارحته بكل اللي في نفسي .. قلت له انا خايف تكون فاكر إني هددتك علشان علاقتك بمبروكة .. إذا كنت فاهم كده ، تبقى غلطان ، وانت أول واحد يعرف اني قطعت صلتي بيها ، ونسيتها .. لا انا عايز اذيها .. ولا عايز اكون السبب في اذية اي حد

يعرفها .. عايزها تنساني زي ما انا ناسيها .. تعرفي .. حسيت ان شوقي استريح لكلامي .. لانه رجع لطبيعته بعد مافهم كل حاجة .. وبدأ يتهمني باني اناني .. بورجوازي .. عارفه يعني إيه بورجوازي .. يعني من الطبقة المتوسطة اللي عايزه تغتني .. اللي عايزه تتمسح في أولاد الذوات .. اللي بتنكر اصلها .. ضحكت .. وضحك هوه كمان وقال لي كلمة غريبة .. قال لي مبروكة زيك تمام .. بتفكر بعقلية بورجوازي .. قلت له .. إزاي ما عرفتش تخليها شيوعية .. قال لي .. دي هيه اللي ح تخليني بورجوازي كمان ..

ونظر إلي يوسف مبتسماً كأنه روى نكتة وسألني :

- تعرفي انك كمان بورجوازية ..

قلت ضاحكة :

- طبعا .. وليه ما ابقاش بنت ذوات .. وافكر اني اتغنى .. ليه افكر في الفقر والنكد .

- لكن البورجوازي عايز يغتني بأي ثمن ..

اجبته على الفور

- أي ثمن .. إلا أني أخسر حبك ليه .. انا مستعدة أسيب كل المال اللي في الدنيا علشانك ..

قال ضاحكا :

- تبقي موش بورجوازية

- أمال أبقى إيه ..

- تبقي في نظر الشيوعيين عبيطة .. وفي نظر البورجوازيين عبيطة

قلت ساخرة :

- وفي نظرك أنت

قال وعيناه تضممان المرح

- انا كمان عبيط زيك .. لا حصلت شيوعيين ولا بورجوازيين .. ولا انا عايز ابقى من دول ولا دول .. أنا موش عايز حاجة في الدنيا دي كلها غيرك أنتِ

ويس .

كان هذا موضوع الأحاديث التي تدور بيننا أحيانا عندما يعود من عمله وهو متعب ، كنت أحس ونحن نتكلم كأننا ننبش أعماقنا ، نفتش عن كل شيء في داخلنا ، وكان أكثر ما يشغلنا ويقلقنا هو كيف نعيش وكيف نحتفظ بحبنا ، هو خائف أن يضيع في الصحافة ، وأنا خائفة أن أضيع في السينما ، ولكن كلما جابهتنا مشكلة معقدة ، كنا نسخر منها ، ونجد لها الحل السريع في حبنا ، نحن نعيش ، لأننا نحب نعمل لأننا نحب ، أنا أحبه وهو يحبني فلنترك العالم كله يتشاجر وشوقي يشغل نفسه بالشيوعية ، وشهدي باشا يشغل نفسه بجمع الثروة ، وأنور سامي يشغل نفسه بمغامراته وشهرته ، أما نحن ، فمالنا ومال هذه الهوسة .. لقد اكتشفنا دواء كل المشاكل .. اكتشفنا الحب .

في تلك الليلة الممطرة ، لم أكن أفكر في الحب ، لقد تحول الحب في رأسي إلى زواج ، ولكن لم أستطع أن أبوح له بسري .. أليس هذا عجيباً .. إني أستطيع أن أقول ليوسف كل شيء .. أي شيء .. إلا أن أقول له تزوجني .

ولكن لم أهدأ ، قلت لنفسي ، سأنتظر حتى تأتي حجرة النوم ثم أصارحه .. وربما كان هو أيضاً ينتظر وصول الحجرة ليفاتحني في الزواج .

وجاءت حجرة النوم في يوم خميس ، كان يوسف مشغولا بأزمة وزارية ، وكان يقضي أغلب وقته بين الجريدة ومكتب شهدي باشا ونادي محمد علي ، ولكنه ترك كل شيء ليأتي إلى البيت ويشاهد معي حجرة نومنا .

سرير عريض له أرفف متحركة لنضع عليها صينية الأفطار ، ونحتفظ فيها بالكتب والمجلات ، وراديو صغير .. وتواليت بسيط له مرآة كبيرة .. ودولاب ، الخشب زان ، جديد ، يبرق ، والغرفة شكلها جميل ، حولت البيت إلى قصر .. حولته إلى جنة .

قال يوسف وعيناه مفعمتان بالحنان .

– احنا بقى لنا بيت .

قلت وأنا أقفز من الفرح

– أنا موش عايزه أسيبه .. تعالى نعيش فيه من دلوقت ..

نظرت في عينيه ، فعرفت أنه قد فهمني .. ومضت لحظة كأنها سنوات وعيناي مشدودتان إلى شفتيه ، تنتظران الكلمة التي سينطق بها

قال منفعلا :

– إيه رأيك .

– بأقول لك مستعدة أعيش هنا من الليلة دي ..

– وعندك في البيت ..

– نقول لهم بكرة الصبح ..

قال بلهجة مغايره ، كأنه أفاق من نشوة

– وبعدين يقولوا علينا مجانين

صحت محاولة التشبث بحلمي

– ما احنا مجانين ..

أطرق برأسه وقال :

– موش لازم أكلم ماما الأول

كدت أصيح فيه ، أمي ليس لها شأن بي ؛ ولكني تراجعت ، حقا أني أتمنى لو تزوجنا في هذه اللحظة لقد عشت الشهور الماضية ، وأنا أوهم نفسي أني سأتزوج في نفس اليوم الذي تصل فيه حجرة النوم حتى صدقت هذا الوهم ولكن .. ماذا أقول له .. هل أشرح له شعوري نحو أمي .. لا داعي لهذا .. فلتأت إلينا في البيت ، ويقابلها إنها تستطيع أن تمثل دور الأم ، ولو لبضع دقائق ، وسأضطرها للموافقة على زواجنا في الحال ، لن أطلب منها شيئا .. لا نقود .. ولا مساعدات .. ولا فرح .. ولا حنان .. لن أكلفها مليماً واحداً .. كل ما أرجوه هو أن تتظاهر بأنها أم طيبة ، لبعض الوقت .. ثم أفر منها ومعي يوسف إلى الأبد

– تحب تشوف ماما امتى ؟

قال في حماس :

– بكرة ..

قبلته بشفتين فيهما كل حرارة قلبي .

ما كادت أمي تسمع أن مرتبه مائة وعشرون جنيها حتى وافقت فى الحال ، رغم أنها مطت شفتيها وقالت إنه ليس غنياً ، ورفضت أن تظهر لى أى علامات فرح بزواجى ، حاولت أن تبدو وكأنها وافقت مضطرة ، لأنها يائسة منى .

إنصاف هى التى فرحت من قلبها وقبلتنى ، وأظهرت لى حباً لم أتوقعه منها ، وزادت دهشتى عندما رأيت الدموع فى عينيها .

وصاح عمى محمود ، معلنا أنه سيقيم لنا الفرح ، فقلت له فى قسوة إنى أرفض ، وأنى سأتزوج بلا ضجة ، فسكت وهو يكتم حيرته وألمه ، ولكنى لم أكن على استعداد لأن أسمح له بجمع أصدقائه المقامرين فى ليلة فرحى .

وجاء يوسف .

أتقنت أمى دورها ، وبالغت فيه تحدثت وكأنها من عائلة أرستقراطية عريقة ، وروت قصصا عجيبة كنت أسمعها مع يوسف لأول مرة .. من أين جاءت بكل هذه الحكايات عن عائلتها وجدودها ، وأطيانهم وعبيدهم ، خلطت بين الخيال والحقيقة ، وحولت بعض الأصدقاء إلى أقارب وحولت بعض من قابلتهم مرة أو مرتين فى حياتها إلى أصهار ذكرت أسماء عدد لا بأس به من الباشوات الذين ماتوا ، وقالت إنهم جميعا من أقاربها ، رسمت صورة باهرة لماضيها ، تحدثت عن أيام العز ، أيام كانت تلعب مع بنت رفقى باشا ، وتعيش فى أحضان جلفدان هانم بنت عم السلحدار باشا ، وذكرت قرابة أمها برشدى باشا .. كانت كلما ذكرت اسماً لابد أن يكون لقبه باشا ، أو له صلة بباشا .

بهرت يوسف ، الذى كان ينصت إليها فى خجل وأدب شديدين ، وكان إذا تكلم خرج صوته ضعيفاً مرتجفاً ، نظراته مرتبكة .. وقع المسكين ضحيتها جعلته ينسى أثاث حجرة الصالون التى يجلس فيه ، بكل قذارته وقدمه ، وسحرته بحديثها وكأنه فى سراى عابدين .

وكانت اللحظة الرهيبة عندما بدأت تستجوبه .

- وأنتم منين ..

أجابها

- من مصر ..

سألته فى الحاح

- لكن بلدكم إيه ..

أجاب فى ارتباك

- مصر ..

فنظرت إليه فى ترفع ، وسألته فى وقحة

- يعنى ملكوش عيلة ..

قال بصوت لا يكاد يسمع

- عيلتنا فى مصر ..

- لكن دى بهية قالت لى إنك قريب راتب بك ..

قال وهو ينظر إلىَّ مستنجدا

- أيوه ..

- تقرب لهم إيه ..

- قرايب من بعيد ..

من يسمع هذا الاستجواب ، يكاد يقطع أن أمى ستعلن بعد ذلك رفض زواجنا ، ولعل يوسف توهم هذا فى لحظة ما ، ولكنى كنت أعلم أنها تستعرض مواهبها ، وقلت لنفسى وأنا أضحك فى سرى ، سأعترف ليوسف يوما ما بعد زواجنا بما فعلته به .

وسرعان ما أعلنت أمى موافقتها وقالت فى بساطة .

- اعملوا اللى أنتم عاوزينه .. انتم تفهموا بعض أحسن منى ..

كان تنازلاً عظيماً منها قابله يوسف فى امتنان شديد وهو مصفر الوجه ..

وحددنا موعد كتب الكتاب بعد أسبوع .. يوم الخميس القادم .

بعد انصراف يوسف ، بكت أمى ولست أدرى هل كانت تبكى حسرة على ما تخيلته عن ماضيها أم لأنها تأثرت كأى أم ستتزوج ابنتها وقالت وهى تمسح دموعها :

- الشاب ده باين عليه طيب .. أنا حبيته ..

أزعجتني كلماتها ، اكثر من فرحي بها ، كنت مصممة على ان ابعد بينها وبين يوسف .

أما يوسف ، فقال لى فى نفس الليلة :

- أنا كنت خايف أمك ما تـوافقش .. لكن الحمد لله .. كـانت تبقى مصيبة ..

كان فرحي شديداً بموافقتها لقد خدعته تماما ، وكأنها سحرته .

●●

قبل الزواج بيومين اتصل بى الأستاذ حلمي ، ليخبرني بوصول المخرج الإيطالى « روسانو » .. وقال إنه سيقيم حفلة له يوم الخميس ، اعتذرت له عن الحضور فهتف فى غير فهم .

- إيه .. بتقول لى إيه ..

لم يصدق ما أقول ..

فشرحت له السبب ، وجدتني اندفع فى شجاعة وبغير تفكير قائلة :

- على أى حال أنا موش متأكدة انى ح أمثل بعد الجواز ..

توقعت أن أسمع صوته ثائراً محتجاً ، أو متوسلاً ، ولكنه لم يهتم كثيراً ، واكتفى بأن يقول فى هدوء وهو يهنئني بكلمات تقليدية ..

- على العموم فكرى فى مصلحتك ياسامية ..

ثم ضحك وقال :

- والا اسمك ح يرجع تانى ويبقى بهية ..

غاظتني إجابته ، ولم أجد مفراً من أن أندفع فى تصميمي ، مؤكدة له اعتزالى التمثيل .. وسمعتني أمي وأنا أصيح فى التليفون ، وأقول :

- خلاص موش ح أمثل بعد الجواز ..

فاسرعت إلىّ ، وعيونها ترسل شرراً ، وزعقت .

- إيه يابت الهبل بتاعك ده .. هاتى السماعى خلليني أكلمه ، زادني زعيق أمي عناداً ، فرفضت ان أسمح لها بالكلام مع حلمى ، فشتمتني ،

وقضيت ليلة تعيسة وهي لا تكف عن الصراخ ، تهددني بأن الزواج لا أمان له ، وإني سأندم على ما أفعله ، إذ لا يوجد رجل فى هذه الدنيا يستحق أن اضحى له بمستقبلي .. كانت تصرخ

- لو طلقك .. ح تعملى إيه .. أظن ح تيجى تتلقحى تانى هنا .. أنا ماليش دعوة بيكى .. ابقى روحى اتمرمطى فى الشوارع ..

جريت إلى السرير .. ووضعت الوسائد فوق رأسي حتى أصم أذنى ولا أسمع صراخها ، ولكنى شعرت بالراحة عندما وجدت إنصاف تتدخل لمصلحتي ، وتدافع عن قرارى وتثور فى وجه أمي ، وتتبادل معها الشتائم .. ربما لأول مرة فى حياتهما .

ليلة الخميس ، لم أر يوسف سوى بضع دقائق ، رغم الحاحه فى أن نسهر معا.كنت مشغولة بأشياء كثيرة برزت لى فجأة ، اشياء أريد أن اشتريها ، لى ولبيتنا ، كنت محمومة الهث بين البيت وشارع فؤاد ، والأفكار تمرح فى رأسى بلا ضابط .. افكر فى دعوة بولاندا ثم أعدل عن دعوتها .. افكر فى إقامة فرح ..ثم اتردد ..وارى أن الوقت قد فات ، ألف فكرة ، وألف خاطر ..موعد مع الحلاق فستان .. عند الخياطة .. بيجامة جديدة ليوسف ..

ولم أنم الليل ..

فى الصباح سمعت عمي محمود يصرخ خارج الحجرة ..

.. يوسف سافر .. يوسف سافر .. عملها وسافر ..

لم أفهم ماذا يقول ، اصابني غباء مفاجيء .. وكأني فى كابوس ولكن لم تمض ثوان ، حتى قفزت من السرير لأصطدم بعمي محمود وهو يقتحم على الحجرة مستمراً فى صياحه .

كانت جريدة الأيام فى يده .. ووجهه شاحب مصفر من الانفعال وأصبعه المرتجف يشير إلى صورة يوسف فى الجريدة .. وقد كتب تحتها فى برواز يفقأ العين ..

« سيطير صباح اليوم يوسف عبد الحميد نائب رئيس تحرير الأيام إلى سوريا ، لمتابعة قراء الأيام بأنباء انقلاب حسني الزعيم » .

ولم أكمل القراءة ..

لم أعد أرى .. لم أعد أسمع وتوقف كل شيء ..

لم أعد أحيا ..

طلبت محمد ناجي فى تليفونه الخاص ، ماكاد يعرفنى حتى قال فى صوت بارد ليس فيه أى ترحيب :

ــ ازيك .. أنا مشغول دلوقت .. ممكن تكلمنى بعد شويه ..

صحت فى ألم :

ــ أنت عارف اللى حصل ..

هتف فى ضيق :

ــ بعدين .. بعدين .. أنا عندى اجتماع ..

كان واضحاً أنه يتهرب منى ، وكدت أنهى المكالمة يائسة ، لولا صرخة انطلقت منى :

ــ أنا لازم أشوفك ..

لعله أحس بتصميمى على رؤيته ، لعله خاف من صرختى ، إذ قال مندفعاً :

ــ طيب .. فوتى عليه فى المكتب ..

وذهبت إليه ، لم يرفع عينيه عن ورق أمامه يقرأ فيه ، حتى وصلت إلى حافة مكتبه ، نظر إلىّ فى جمود ، وطلب منى الجلوس على مقعد أمام مكتبه ، وكأنى غريبة عنه ، تتطفل عليه ، وعاد الى أوراقه يتفحصها ..

كانت الحجرة كبيرة تغطى جدرانها مكتبة مكدسة بمئات الكتب .. والستائر مسدلة تحجب ضوء النهار وقد اكتفى بضوء الأباجورة على مكتبه ، ورأيت التليفونات عن يمينه وشماله وخلفه ، أردت أن أعدها ، ولكنى لم أواصل العد ، كنت أشعر بانقباض ورهبة ، أفكارى مشتتة ، وكان هدوء الحجرة غير حقيقى ، هناك أصوات تطن فى رأسى ، وحولى أصوات مبهمة تطاردنى .

ذكرنى وجهه بطبيب عيون ذهبت إليه مع أمى وأنا صغيرة ، كل ما أذكره الظلام فى الحجرة ، ووجه الطبيب وهو يمد يده فى قفاز جلدى الى جفونى ، ثم

صراخى ..

أردت أن أصرخ ، ولكنى عجزت وربما خفت منه .. بعد قليل سألنى وهو يبتسم فى فتور :

ــ خير .. أى خدمة ..

كدت أقول له ، لا أريد منك شيئاً ، وأفر منه ، ولكنى همست :

ــ يوسف سافر ..

قال فى هدوء غريب :

ــ أيوه .. الساعة خمسة الصبح ..

ــ ماقليش ..

ــ غريبة ..

ــ أنت عارف أن احنا ح نتجوز النهاردة .. أطرق برأسه ، كأنه متردد فى الكلام ، ثم قال فى فتور :

ــ أنتِ عايزه نصيحتى ..

نظرت اليه فى جزع ، فاستمر يقول :

ــ أنا ماأحبش أتدخل بينكم .. وأحسن أنك تحتفظى بمشاكلك الخاصة لنفسك .

قلت يائسة :

ــ بس أعمل إيه .. أنا مش متصورة اللى حصل .. امبارح كنت معاه .. وسابنى على أننا حنشوف بعض النهاردة .. كل حاجة جاهزة .. ده كلم ماما ..

ولم أتمالك نفسى فبكيت .. نهض من مقعده ، وتقدم منى وربت على كتفى مردداً بصوت رقيق :

ــ وبعدين ياسامية .. لا لا .. أنا فاكرك أحسن من كده .. العياط ده إيه فايدته .. بالعكس أنتِ لازم تبينى إنك مش سائله .. ومش ضعيفة ..

زادتنى كلماته انهيارا فهمست وأنا أريد أن أصرخ :

ــ لكن أنا باحبه .. وكنت فاكراة بيحبنى ..

فسمعته يقول :

ـ شوف يابنتي .. كل اللي بتقوليه ده صحيح .. لكن أنا ماأحبش أضحك عليكي واخدعك ، ممكن أقولك كلمتين كويسين يهدوكي ويصبروكي لحد مايرجع .. وده في الحقيقة اللي انا كنت عايز أعمله .. كنت عايزك تكتشفي كل شيء بنفسك .. لكن الظاهر إني موش ح اقدر ..

وضحك ثم قال :

ـ أعمل إيه .. المهمة تقيلة لكن أنا مضطر .. حرام أسيبك تعذبي في نفسك بالشكل ده ..

كانت كلماته غامضة ، ولكنها اثارت فضولي ، فكفكفت ، وانصت له .. لم اكن أنظر اليه ، ثبت عيني في حجري ، وكنت أرى قدميه وهو يتحرك امامي يذرع الحجرة جيئة وذهابا ..

ـ أنتِ حبيتي يوسف ، ويوسف حبك .. لكن مافهمتوش بعض .. لو كنتِ فهمتي يوسف كنتِ عرفتي من الأول انه مش ممكن ح يتجوزك ..

رفعت رأسي ، فصاح :

ـ ماتزعليش مني ..

كنت ابحث في وجهه عن شيء يقول لي إنه يكذب ، ولكني عجزت عن رؤية شيء ، فأطرقت من جديد ، بينما ذهب هو إلى التليفون وتكلم فيه ..

ـ ماتحوللیش أي مكالمة ..

ثم قال وهو يتمشى أمامي :

ـ أنت فاكره ليلة ماجيتم عندي في البيت ، وحكيت لكم عن دوق وندسور اللي ساب عرشه علشان بيحب .. انا كنت عايز انبهك في الوقت ده .. يوسف مش أمبراطور .. موش ملك .. موش قاعد على عرش .. أنا متأكد انه كان سابه علشان يتجوزك ..

كان يعملها بمنتهى البساطة .. إنما للأسف ماعندوش .. علشان كده ح يسيب حبه ويدور على العرش .. بنفس البساطة .. ماتفتكريش إنه غلطان ..

ودق بيده على مكتبه .. دقات عنيفة متوالية .. وصاح في انفعال :

ـ يوسف عايز العرش ده .. عايز يقعد هنا .. إن ماكنتيش تعرفي ده تبقي ماتعرفيش يوسف ، هو مستعد يسيبك .. ويسبني .. علشان المكتب ده ..

وسكت برهة ثم قال في حدة :

ـ يوسف في الشهور الأخيرة اتغير بسرعة .. موش هوه يوسف اللي انتِ تعرفيه الأول .. خلاص ، اكتشف نفسه .. شاف المستقبل مفتوح أمامه .. شغل .. مسئوليات .. علاقات اجتماعية على مستوى كبير .. مستوى وزرا وباشوات .. أكتر من كده .. إنه افتكر إنه له دور ممكن يلعبه .. في السياسة .. موش في الحب .. اقنع نفسه إنه عايز يصلح البلد ، يقضي على الفساد .. يرفع مستوى الفلاحين .. يشجع الصناعة الوطنية .. تفتكري سامية سامي إيه مكانها في ده كله خلينا نتكلم بصراحة .. سامية سامي ممثلة ناشئة .. حلوة .. من بتوع السيما .. المنتجين والممثلين وحتى .. حتى وزير الأوقاف طمعان فيها .. أرجوكي يابنتي ماتزعليش من كلامي .. أنا باحترمك .. وعارف إنك ممكن تكوني زوجة كويسة ليوسف .. ويمكن يوسف نفسه عارف كده .. لكن .. لو اتجوزتيه ..

ودق على المكتب بعنف صائحاً :

ـ موش حيقدر يقعد هنا .. لأن كلمته اللي ح يكتبها .. ح تبقى متجرحة .. ح يكتب في السياسة ، يقوم خصومه يقولوا .. بدل ماتحاول تصلح البلد .. روح شوف مراتك بتعمل إيه .. ح يطلعوا عليه شائعات .. ح يبقى متجوز واحدة ارتيست ..

وعدت الى البكاء ، فانحنى عليّ حتى شعرت بأنفاسه ، وهمس :

ـ سامية .. ماتعيطيش يابنتي .. أنا عيطت في يوم من الأيام لنفس السبب .. أنتِ عارفة قد إيه أنا كنت باحب المرحومة دلال .. وكنت باعيط علشان اتجوزها .. كنت مستعد اسيب كل حاجة .. واسمع كل التشنيعات والتهم بس اتجوزها .. لكن تعرفي .. هيه اللي رفضت .. هيه اللي قالت لي الكلام اللي انا باقولهولِك دلوقت .. كانت فاهمة الموقف كويس .. كانت عارفة

هي عايشة فين .. وإيه المجتمع اللي حوالينا .. كانت بتحبني أكتر من حبك ليوسف .. لأنها ضحت .. لأنها فهمت .. ولأنها كان عندها حاجة تانية .. كان عندها صوتها .. وأنتِ والحمد لله عندك التمثيل ..

همست في ذهول :

ـــ أنا سبت التمثيل ..

فصاح :

ـ لا ... تبقى غلطانة .. ليه تسيبي التمثيل .. ده مستقبلك ، ولازم تحصري تفكيرك فيه .. مافيش حاجة تستحق منك أي اهتمام غير التمثيل .. لا حب ولا جواز شوفي يوسف عمل إيه .. أنتِ لازم كمان تعملي زيه .. لازم تكوني قوية زيه ..

ماذا أقول له .

إنه لا يعرف أن يوسف وهبي نصحني بأن أترك التمثيل وأبحث عن عريس ، إنه لا يعرف أني لست ممثلة ولست موهوبة ، إنه لا يعرف أني اكتشفت الكذبة الكبيرة التي صنعتها ، أنا لست مثل دلال ، ولا مثل هدى مراد ، ولا مثل فاتن حمامة ، أنا مجرد فتاة عادية ، بلا موهبة ، أبحث عن الحنان ، أبحث عن الرجل الذي يحميني ويبادلني الحب ، ولقد وجدته ، فتخليت عن كل شيء ، واكتشفت أني كنت أكذب على نفسي ، وأتوهم أني ممثلة .. أنا لست أكثر من فتاة تحب ، لا أريد شيئاً من الدنيا سوى حبي ، مالي والناس وكلامهم ، مالي والشهرة والمجد ، مالي وهذا المكتب الذي يريد أن يجلس عليه يوسف ، فليجلس عليه وعلى عشرة مثله ، ولكن ما الذي يمنعه من الزواج بي .. آه .. ماذا أقول له .. إنه لا يفهمني ، أنا لن أتخلى عن يوسف سأجري وراءه ، سأركع على قدمي وأتوسل إليه ألا يتركني ، سأنتحر لو هجرني ، ليست لي حياة بعده .

ودق جرس التليفون فذهب إليه والتقط السماعة وتكلم ، لم أنتبه إلى كلامه حتى سمعته يقول :

ـ أنا مستني يكلمني بعد الضهر من دمشق ..

غمرني فجأة شعور بالكراهية نحو يوسف ، إنه هناك في دمشق يعمل ، ويكتب ، ويقابل الناس ، ويتكلم في التليفونات ، وكأنه لم يهجرني ، السافل ، سأنتقم منه ، سأجعله هو الذي يركع على قدميه ويتوسل إليّ ، سأجعله هو الذي يجري ويلهث ورائي ، سأجعله هو الذي يبكي ، سأذله ، سأحطمه .

ـ إيه رأيك باه في كلامي .. كان قد فرغ من حديثه في التليفون ، وعيناه تبتسمان محاولاً أن يدعوني للابتسام مثله .

ولدهشتي ، أحسست أن شيئاً ثقيلاً ينزاح من فوق صدري .. ووجدتني أبتسم .. وقلت :

ـ الحمد لله اللي عرفت إنه سافل قبل الجواز ..

فضحك قائلاً :

ـ مقدرش أقول سافل .. السافل ما يتصرفش بالشكل العبيط ده .. ما كانش يورط نفسه للدرجة دي ، وما كانش يخاف يقول لكِ إنه مسافر ، ده تصرف بطريقة صبيانية وهرب .. إنما على أي حال حصل خير .. افرضي إنك اتجوزتيه .. تفتكري كنتم ح تعيشوا كويس كنتِ ح تندمي على إنك ضحيتي بمواهبك .. كنتِ ح تلاقي نفسك ست عادية محبوسة في البيت .. في الوقت اللي هوه فيه بيشتهر واسمه بيلمع .. أوعي تقولي إنك مستعدة تضحي بنفسك .. ده كلام ممكن أسمعه منك النهاردة .. لكن موش بعد سنة وإلا سنتين .. الحب بعد الجواز بيبرد .. والحياة بتبقى روتين .. ومملة .. وكان ح يبقى أغلب الوقت بعيد عنك .. مشغول بعمله وسفرياته ومقابلاته .. تعرفي إيه اللي كان ح يحصل .. كنتِ ح تسيبيه قبل ما هوه يسيبك .

كان لكلامه أثر عكسي في نفسي ، أشعر بحنين جارف إلى الحياة التي يصفها ، ونسيت كرهي ليوسف ، ورغبتي في الانتقام منه .. ووجدتني أقول رغماً عني والدموع تطفر من عيني :

ـ أنا بأحبه ..

فهتف :

ـ أوه .. أنتِ بتتكلمي بعبط كده ليه .. ده لا هوه أول حب ولا آخر حب ..

الحب ياستي على قفا من يشيل .. بكرة تحبي غيره .. وغيره .. وتضحكي على نفسك ، لما تفتكري إنك في يوم من الأيام كنتِ بتعيطي عليه ..

ولم أحتمل كلامه ، فتركته وأنا أشقى مما كنت ، قال لي وهو يودعني عند باب حجرته :

- أبقي كلميني وقت ما تحبي .. ممكن تعتبريني كصديق .. أنا عايزك ترجعي زي ما كنتِ الأول .. البنت المدردحة اللي بتضحك من قلبها ..

ظلت كلماته تتردد في رأسي ، نعم ، لماذا لا أعود كما كنت .. البنت المدردحة ، ولكني شعرت أن هذا مستحيل ، لقد ضاع مني كل شيء ، ولم تبق لي سوى الأحزان .

وعدت إلى البيت ، لتقابلني أمي قائلة في لهجة آمرة :

- كنتِ رايحة الليلة دي حفلة حلمي .. أنا كلمته في التليفون .

ولم أستطع معارضتها ، إنها منذ علمت بسفر يوسف ، وهي لا تكف عن الصراخ وإصدار الأوامر .. أنت لازم لما يرجع تروحي له المكتب وتشيلي الجزمة وتنسليها على راسه .. أنا ح أشوف لك عريس أحسن منه ألف مرة .. ويرجع يلاقيك متجوزة .. أنا ح أكلم واحد محامي يرفع عليه قضية تعويض .. الجرنال ده ما يخششي البيت .. ده اللي بيكتبوه ناس دون ..

وكنت أسمع لها في صمت واستسلام ، حتى ينفد صبرها فتزعق في :

- ما تقولي حاجة .. مالك ساكتة كده ..

فأحس أن ضيقها بي ، أكبر من ضيقها بيوسف .

وذهبت إلى الحفلة ، قابلني حلمي عند الباب ، وعلى وجهه قناع من الحزن والأسى .. وسألني بصوت ملهوف :

- إيه اللي حصل .. إزاي سافر من غير ما يقول لك ، أما دي حاجة غريبة خالص .. ده طلع ولد ساقل صحيح .. ولا يهمك .. اضحكي تعالي لما أقدمك لروسانو ..

كان ينظر إليّ في إنزعاج ، كأنه يتوقع أن يصدر عني شيء شاذ ولابد أن وجهي كان غريباً ، يدعوه إلى الخوف مني .

وتقدمنا إلى حجرة الصالون .. وكان يقف فيها رجال ونساء كثيرون .. كلهم وجوه رأيتها في الأستديو .. المصور ، ومهندس الصوت ، ومساعد المخرج ، وبجوار باب الشرفة كان روسانو يقف مع هدى مراد .

رجل عجوز في الخامسة والخمسين من عمره ، شعره أبيض ، ووجهه الأحمر مليء بالغضون ، عيناه منتفختان ، وله كرش مستدير ، يرتدي بدلة كحلية أنيقة ، ورباط عنق أبيض ، وعيناه تلمعان ببريق ماكر ..

سألني بالفرنسية بمجرد اقترابي منه :

- ما رأيك .. هل تقبلينني زوجاً ..

قلت له في ارتباك :

- نعم ..

فصاح :

- ولكني عجوز .. وأنتِ صغيرة .. كيف تقبلين الزواج من رجل عجوز مثلي .. انظري إلى كرشي .

احترت ماذا أقول له .. وخيل إليّ أنه مجنون ..

وهتف روسانو فجأة بصوت حاد أفزعني :

- قولي أي شيء .. لماذا لا تجيبين على سؤالي ؟

همست في خوف :

- أنت تضحك طبعاً ..

فقال بصوت جاد :

- أبداً .. أنا لا أضحك .. أنا أناقشك مناقشة حاسمة ، يتوقف عليها تعاوننا معاً .. لماذا تقبلين الزواج مني وأنا رجل عجوز ولي كرش ..

زاد ارتباكي ، وتلعثمت .. وأطلقت هدى مراد ضحكة ساخرة وتلفت حولي فرأيت العيون كلها تضحك ساخرة مني ..

وقدم لي الأستاذ حلمي كأساً من الويسكي ، وهمس من بين أسنانه :

- خدي بالك .. الراجل عايز يشوفك ملطحة والا لأ ، اضحكي

ابتسمت على الفور ، ابتسامة وجلة مصطنعة .. وشعرت أن عيون روسانو قد زادتا انتفاخاً وسألني :

— الا تحبين شاباً صغيراً ..

— لا ...

— لماذا ..

كدت أجرى هاربة منه ومن البيت .. كانت صورة يوسف تملأ عينى وصوت كالمطارق يدوى فى رأسى هاتفاً .. يوسف .. يوسف .. يوسف ..

وصاح روسانو :

— هل أنت ممثلة ..

همست :

— نعـم ..

فضحك قائلاً فى سخرية :

— أنت تلميذة فى المدرسة

نظرت إلى حلمى أستنجد به ، فرأيته ينظر إلىّ فى أسى ، وقال بالعربية ..

— ما تتدربحى .. أنتِ مالك يا سامية .. اتكلمى معاه ..

شعرت أنى اختنق .. وأصبح خروج الكلام من فمى شيئاً لا تحققه إلا معجزة . والتفت روسانو إلى حلمى وسأله :

— ماذا تقول لها ؟

قال حلمى بالفرنسية الركيكة :

— أنا أطلب منها أن تتكلم .. فبدأ على روسانو الضيق ، وقال له :

— إنها ليست كما توقعت ..

ثم نظر إلىّ وقال ساخراً :

— ما هذا الذى تحملينه فوق رأسك ..

نظرت إليه فى دهشة وإعياء .. لم أعد قادرة على الصمود أمامه ..

فقال وهو يمثل بيديه :

— أنتِ يا مدموازيل تحملين فوق رأسك أطناناً من الحديد ..

ثم أمسك بيديه كأنهما مقيديان وقال :

— لابد أن تتخلصى من القيود التى تأسرك .. أنت تحبسين روحك داخل

قلعة .. حطمى هذه القيود .

وحرك يديه ، كأنه يكسر قيوداً حديدية .. ثم ضرب بكلتا يديه على فخذيه وسألنى :

— هذا يجب أن يزول .. ما وزنك ؟

— ٥٦ كيلو ..

قال :

— انقصى ستة كيلو .. من هنا .. من هنا فقط ..

لماذا فعل يوسف بى كل هذا . لولاه لما تعرضت لكل هذه السخرية .. لو لم يسافر ، لكنا معاً الآن فى بيتنا . لماذا تركنى وحيدة ، بلا حب ، ولا حنان ، مستحيل أن تبلغ به القسوة إلى هذا الحد .. لو عرف ما يحدث لى الآن ، لترك كل شىء وجاء لينقذنى ..

لم أعد اسمع ما يقوله روسانو كنت افكر فى يوسف ، فى عينيه وفى صوته ، حبى يكتم انفاسى ، عيناى تبحثان بين الحاضرين عن يوسف ، سوف يدخل الآن ، سوف يسأل عنى .. اه .. كيف لم افكر فى هذا .. سيطلبنى فى التليفون من دمشق .

وتركت الجميع ، وخرجت أبحث عن التليفون حتى وجدته ، وسمعت صوت أمى ..

- حد سأل عنى ياماما ..

- لا ..

انقبض صدرى ، وسمعتها تقول :

- بتسألى ليه ..

- يولاندا كانت قالت إنها ح تتكلم ..

- لا ما اتكلمتش .. أنتِ فين .

- عند الأستاذ حلمى ..

- طيب يابنتى فرفشى .. وما تبوزيش ..

- لا ياماما ..

ووقفت حزينة ، ويدى متشنجة على سماعة التليفون ، اتمنى أن يدق ، وارفع السماعة واسمع صوته ..

وارتجف قلبى ، كان جرس الباب هو الذى يدق ، ودخل انور سامى ومعه بنتان لم أراهما من قبل ، وماكاد يرانى حتى هتف وهو يجذب البنتين معه إلى الداخل :

ـ خليكي عندك .. أنا راجع لك ..

وذهب بالبنتين إلى روسانو .. وقدمهما لـه ، سمعت ترحيب روسانو البنتين ، وضحكات روسانو ، وضحكات انور .. وادركت على الفور انهما منافستان لى ، أحضرهما أنور ليعرضهما على روسانو ..

ولم أكترث ، كنت لا احس بشىء ولا أهتم بشىء ، وصورة يوسف مازالت فى عينى ، والمطارق فى رأسى تدوى .. يوسف .. يوسف .. يوسف ..

وسمعت روسانو يصيح .

ـ يجب أن تنقصا وزنكما .. ماذا تاكلين يامدموازيل ..

وصاح أنور :

ـ سامعه .. نومباجتى .. موش كده ياخواجة والا إيه ..

وتعالت الضحكات .. وقبل أن تهدأ الضحكات رأيت أنور خارجاً إلىّ ، وجذبنى من يدى ، وجلسنا على مقعدين متجاورين .. ونظر إلىّ ساخراً ، وهو يهز رأسه ، وسألنى متهكماً :

ـ أنتِ شربتى كام وسكى ..

ـ ده التانى ..

ـ موش كفايه .. أنتِ لكى قزازة لوحدك ..

ورفع كأسه وهتف :

ـ فى صحتك ..

ثم ضحك وقال ..

ـ مايطب الا الشاطرين .. كده برضه تخلى الواد العبيط ده يضحك عليكي .. موش كنتِ تسمعي كلام بابا ..

قلت متوسلة ..

ـ أرجوك أنا موش مستحملة تريقه ..

فصاح :

ـ ومن قال أنا باتريق .

ولمعت عيناه وهو يسألني :

ـ إيه بأه اللى حصل ياجميل ..

ـ خلاص .. سيبك من السيره دى ..

ـ مافيش حاجة اسمها خلاص ، أنا بابا .. ولازم اعرف .. موش كده والا إيه ..

كان المرح يفيض من عينيه .. وايقنت انى لن استطيع الخلاص منه فقلت :

ـ ولا حاجة .. بعد ما اتفقنا على الجواز النهارده .. خد بعضه وسافر .

صاح فى لهجة تمثيلية :

ـ الوغد الزنيم .. سوف اقتله .. ياابراكين الأرض .. يارعد السماء .. ياآلهة الأنتقام .. انزلى غضبك وانتقامك على المجرم اللعين .

ثم ضحك قائلا :

ـ احسن حاجة عملها .. علشان تصدقنى وتطلعى من مخك الصغير ده إن فيه حاجة اسمها حب لو كنتِ قلت لى إنك كسبتى ورقة يانصيب بمليون جنيه كنت صدقتك .. لكن لقيتى واحد بيحب بإخلاص .. هوه .. هوه .. ده كان زمان الحب ده بطل .. فيه ناس بتتسلى مع بعض ويقولوا ده حب .. إنما حب بحق وحقيق .. مافيش كلام فاضى زى ده ابداً ابداً ابداً ..

وسألنى فجأة :

ـ روسانو شافك .

ـ آه .. ومعجبتوش ..

ـ ليه ..

ـ قال إنى تخينة .. وزى تلامذة المدارس .

- ولا يهمك .. انتِ اللي ح تاخدي الدور ..

ونظر إليّ نظرة غريبة ، كأنه يمثل دور عاشق في فيلم غرامي .. ووضع يده الممسكة بالكأس على قلبه ، وقال بلهجة تمثيلية :

- ياحبيبتي ياسامية .. انا عارف إنك الليلة دي عايزه تسكري وتنسي .. وخدي كمان بكرة .. وكمان بعده .. لكن بعد بعده .. لازم تكوني نسيتي كل حاجة .. موش كده ياروحي .. وبعدين نبقى نتقابل .. وأعمل لك امتحان أشوفك نسيتي والا لا ..

فهمت ماذا يرمي إليه ، ووجدتني اقول في استسلام :

- ح تساعدني انسى ..

صاح بصوته الطبيعي :

- وأنا ليه شغلانه غيردي .. أنا من خبراء النسيان .. ما حدش قال لكِ عني ..

وضحك ..

وأسرفت في الشرب ، فكنت أضحك وأبكي ، ولم يتركني ابدا .. كان إذا رآني أضحك بكى .. وإذا رآني ابكي ضحك ، وأصبح منظرنا مسليا للجميع ، حتى أن الاستاذ حلمي هجم عليّ وهمس في اذني :

- برافو ياسامية .. انتِ وأنور بتمثلوا أحسن دور في حياتكم .. الراجل روسانو ح يتهبل عليكي بيقول ما فيش غيرك تمثل الدور استمعت إليه في غير فهم ، وكل ما أذكره بعد ذلك ، خروجي مع أنور في سيارته ، ونحن نغني ، حتى وقفت السيارة داخل جاراج كبير .

وسألت أنور :

- احنا فين ..

قال :

- احنا وصلنا ..

- وصلنا فين ..

- البيت ..

- لا .. ده موش بيتنا ..

- والله العظيم ده موش بيتنا اللي في شارع شريف ..

ولا أدري كيف تنبهت إلى أنه أخذني إلى بيته .. وتذكرت يوسف .. وعادت المطارق تدوي في رأسي يوسف .. يوسف .. يوسف ..

- أنا عايزه أروح بيتنا .

- ما احنا في بيتنا ياحبيبتي .. وفي الصباح استيقظت لأجد نفسي في فراشي بالجيزة .. وأطياف غامضة مما حدث بالأمس تدور في رأسي .. وتذكرت محاولة أنور وتذكرت أني رفضت الصعود معه وابتسمت ..

ثم بكيت .. فقد تذكرت يوسف ..



الفصـــل العـــــاشر

كلما مر يوم زاد شعورى بالصدمة ، فلم أعد أعرف طعم النوم ، ولم أعد أذوق الطعام وأصبحت أكلم نفسى ، وأهذى ، وأبكى ، تراودنى الأفكار السوداء .. الموت .. الانتحار .. ساءت حالى .

حاولت أن أتماسك ، ولكنى فشلت .. فشلت حتى فى أن أبدأ المحاولة ، إذ كيف أقنع نفسي بأن يوسف لم يكن شيئاً فى حياتى ، انه مجرد حلم جميل ، ثم استيقظت منه ، يوسف فى دمى ، فى أنفاسى ، فى عقلى ، كيف أنساه أو أتجاهله ، كيف أصدق أنه كان مجرد حلم ..

أشد ما يعذبني ، إنى لا أجد مخرجاً ، لا أجد طريقاً أهرب فيه من حبى ، ماذا أفعل ، هل أعود كما كنت ، تلك الفتاة التي تتعرف كل يوم على شاب جديد يملك عربة ، أخرج معه فى سهرات سخيفة ، نأكل ونشرب ، ونرقص فى بلاهة ، كالحيوانات ، ثم أعود إلى البيت والقرف يطفح منى .

مستحيل أن أعود إلى هذه الحياة ، لن أجد فيها شيئاً ، لم تعد مسلية لن أجد فيها ما يثيرنى أو يلهينى .

ماذا أستطيع أن أفعل الآن .. لا شيء .. سوى أن أرقب الحقد الذى ينمو فى صدرى نحو يوسف .. آه .. لو استطيع أن أفعل شيئاً يغيظه .. يؤرقه .. يعذبه .. لو أستطيع أن أجعله يبكى ..

ربما لو ذهبت مع أنور سامى لشعر بالغيظ .

أهذا صحيح ، أم أنا أخدع نفسى .

لا لن أذهب مع أنور سامى حتى لا أتيح له الفرصة كى يريح ضميره ، سيقول لنفسه إنه كان على حق إذ رفض أن يتزوجنى سيطمئن عندما يعلم أنى أصبحت عشيقة أنور .. لا .. لا أريد له راحة الضمير ، أريد له العذاب .. ولو بعض عذابى ..

قالت لى أمى :

- ما تروحى تشوفى مدحت .. اسألى عليه ..

وزفرت الهواء ثم استطردت :

- أنا لو منك .. أكون متجوزة مدحت فى أربعة وعشرين ساعة .

سألت نفسى ، لو تزوجت مدحت فهل هذا يغيظ يوسف .. ربما ..

لقد شعرت أكثر من مرة أنه كان يغار منه ، وخطر لى خاطر مفاجىء .. لقد أحبنى يوسف ، لأنه وجد مدحت يحبنى ، ألم يعترف لى أنه كان يحسد مدحت ، ألم يحب سعاد لأنها شقيقة مدحت ..

تذكرت كلمات يوسف وهو يروى لى عن حبه لسعاد « كنت بأقول فى سرى .. ده عنده أم ، وعنده أخت .. وأنا لوحدى ما عنديش حد .. ويمكن علشان كده حبيت سعاد .. استكترتها على مدحت ، قلت آخذها لنفسى »

أضاءت الكلمات فى رأسى ، فرأيت كل شىء بوضوح ، وكلما رددت هذه الكلمات ، زدت يقيناً أن يوسف أحبنى ، لأنه يحسد مدحت ويغار منه ، لقد كرر معى نفس ما فعله عندما أحب سعاد .. أراد أن يأخذنا نحن الاثنين من مدحت .

نعم .. هذه هى الحقيقة ، ولذلك لابد أن أعود إلى مدحت ، لا شىء يغيظ يوسف مثل هذا ، أمى على حق ، لقد نبهتنى إلى ما يجب أن أفعله دون أن تدرى .

وبغير تردد ، اتصلت بمدحت .

سمعته يهتف فى التليفون وقد عرف صوتى :

- ازيك ياسامية .. أهلا أهلا .

- يعنى فاكرنى ..

- وأنا أقدر أنساكى ..

- مابتسألش عنى ليه ..

- خايف أضايقك ..

- خايف والا فيه حاجة تانية .

فتلعثم ، حاول أن يتهرب من الإجابة ، فضحك فى بلاهة .. وانتظرت أن يسألنى أن أراه ، ولكنه لم يفعل ، فاضطررت أن أقول :

- أنا عايزه أشوفك .. صاح فى دهشة :

- تشوفينى ..

ثم أدرك خطأه فسارع يقول فى ارتباك :

- أنا تحت أمرك ..

أحسست أنه لا يرحب برؤيتى ، وتأكدت أنه على علاقة بفتاة أخرى ، ولكنى لم أتراجع ، فمضيت أقول :

- ممكن أشوفك النهاردة ..

جعل يردد فى غباء :

- النهارده .. النهاردة .. ثم صاح فى عصبية :

- امتى ..

- فى أى وقت .. أنا فاضية .

قال فى صوت خفيض كأنه يخشى أن يسمعه أحد :

- طيب ح أفوت عليكى الساعة تلاتة .. بس تنزلى على طول ..

بعد أن فرغت من اتفاقى معه ، فتر حماسى ، وندمت على أنى كلمته .. انتابنى وجوم ثقيل ، ورغبة فى أن أحبس نفسى فى حجرتى ولا أخرج للقائه .. إنه ليس مدحت الذى كنت أعرفه ، وأنا لست الفتاة التى كان يعرفها ، وأنا واثقة أنه يحب فتاة أخرى ، لذلك هو خائف من مقابلتى ، لماذا لا أتركه وشأنه ، ولا أفسد عليه حبه .

لم أستطع المضى فى التفكير ،ولكنى فى الدقائق الاخيرة ارتديت ملابسى على عجل ، دون أن أهتم بزينتى ، وهبطت إليه .

انطلق بعربته فى شارع الهرم ، وذهب بى إلى مطعم صغير مهجور ، لم نتردد عليه من قبل ،كانه يريد أن يختفى عن الانظار ،وكنت حتى وصولنا إلى ذلك المكان ،صامتة فى حالة إعياء ،أستمع إلى ثرثرته دون أن افهم ما يقول ..

بعد أن جلسنا سألنى :

ـ مالك ؟ ..

وبكيت ..

نظر إلىّ فى ذعر ، ثم تلفت حوله خائفاً ، وهمس :

ـ إيه .. فيه إيه ..

كانت خطتى قد تبددت ، لن استطيع ان اتصنع امامه ، لا يمكننى أن أخدعه وأجعله يتزوجنى ،فقدت كل ما كنت اعرفه لإثارة إعجاب الرجال ..

انا مخلوقة ضعيفة منهارة يائسة ..

ـ حصل إيه ..

ووجدتنى أروى له قصتى مع يوسف ، استمع إلىّ وعلى وجهه علامات الم حقيقى ، ثم ضحك فجأة وقال محاولا أن يسرى عنى :

ـ وإيه يعنى .. تلاقى الف واحد أحسن منه ..

قلت فى الم :

ـ لكن انا بأحبه ..

هز رأسه وقال فى لهجة حزينة :

ـ ومين بيتجوز اللى بيحبه ..

والتقت عيوننا ، فحول عينيه بسرعة ، واحمر وجهه وتهدج صوته :

ـ أنتِ عارفه انا ح اتجوز ..

نظرت إليه فى صمت ، ولعله ظن أننى أفهمه ، إذ قال معتذراً :

ـ واحدة ما بأحبهاش .. لكن أبويا وأمى مصممين إنى اتجوزها علشان غنية .

اخرجتنى كلماته من افكارى للحظات قليلة ، وسألته :

ـ ولازم تتجوزها ..

قال فى استسلام غريب :

ـ أعمل إيه ..

شعرت بمرارة فى فمى ، ولم أقل شيئاً .. ومضى هو يقول فى سخرية حزينة :

ـ الظاهر إن الجواز حاجة .. والحب حاجة ثانية .. الواحد يتجوز زى ما أهله عايزين .. علشان يفرحوا بيه .. وبعدين يحب زى ماهوه عايز ..

نفس الكلمات التى كانت ترددها أمى .. لا فرق بين عائلة راتب الغنية المحافظة على التقاليد ، وبين أمى التى خرقت كل التقاليد ..

وتركته ونحن نتمتم بكلمات فارغة لا معنى لها ..

●●

مررت فى الطريق ببائع الجرائد كان يصرخ فى وجهى « الأيام .. الأيام » .. بغير وعى ،مددت له يدى بقرش ،وأخذت منه الجريدة وفتشت عن يوسف ..

رأيت اسمه بارزاً فى الصفحة ،وقرأت : « منذ عودتى من دمشق وأنا .. »

لقد عاد ..

متى عاد ..

واصبت بشلل منعنى من الحركة،بعد قليل استطعت أن أمشى بصعوبة ، اخفيت الجريدة فى حقيبتى .. وذهبت إلى البيت .. وأغلقت على نفسى الحجرة ، وقرأت المقال ، قرأته عدة مرات ، لم أكن ابحث سوى عن شىء واحد ، متى عاد ، الأمس ، منذ يوم ، منذ أسبوع .

اريد أن أعرف كم يوماً استطاع أن يقضيها فى نفس البلد التى اعيش فيها دون أن يحاول الاتصال بى .. وعجزت عن معرفة شىء . فضربت وجهى فى الوسادة ، وبللتها بدموعى ، ومزقتها بأسنانى .

كنت فى قمة الجنون والالم ، عندما سمعت جرس التليفون يدق .. جريت إلى التليفون ورفعت السماعة وقلت بصوت متحشرج .

- الو ..

وسمعت صوته :

صوت يوسف ..

كان يهتف فى حماس .

- اهلاً حبيبتى ..

وكان شيئاً لدغنى فى يدى لدغنى فى قلبى ، فوضعت السماعة مكانها ، ووقفت ذاهلة ، بعد لحظات سمعت رنة خفيفة تدل على إنه وضع سماعته هو الآخر ..

امتلأ قلبى بالحقد ، كدت امسك بالتليفون واحطمه ، كدت أصرخ حتى يسمعنى على بعد آلاف الامتار ، لن اكلمك .. إنى اكرهك .. أنت سافل .. أكرهك .. أكرهك .. .

ظل قلبى يردد كلمات الحقد التى تمنيت لو قلتها له .. حتى وجدتنى رغما عنى أردد كلمات الحب ..

ونظرت إلى التليفون فى لهفة ، يجب أن يتكلم مرة أخرى .. الآن .. الآن .. لابد أن يتكلم .. أنا واثقة انه سيتكلم ..

كان قلبى يأمر جرس التليفون أن يدق ..

ودق جرس التليفون ..

رفعت السماعة وأنا واثقة أنى سأسمع صوته ..

وسمعت صوته ..

- سامية .. أرجوكى ما تقفليش السكة .. اسمعينى الأول وبعدين أعملى اللى أنتِ عايزاه ..

ماكدت أسمع صوته ، حتى أستولى علىّ الحقد . وبكل قوتى ضربت بالسماعة فوق التليفون ..

وجريت مبتعدة ، لا أدرى ماذا بى ، كنت خائفة من نفسى ، لا أطيق نفسى ، أحبه وأكرهه ، أريده ولا أريده ، أكاد أبكى وأكاد أضحك ، كأنى معلقة فى الهواء ، لا أدرى ما إذا كنت أرتفع وأطير ، أو أهوى لأتحطم على

الأرض ..

ودق جرس التليفون ، وسمعت صوته .. يائساً متوسلا .. ملهوفا

- سامية .. أنا باتعذب .. أرجوكى ..

صرخت :

- عايز إيه ..

- عايز أشرح لك كل حاجة .

قاطعته :

- موش عايزه منك شرح مافيش بينى وبينك حاجة ..

- أرجوكى تفهمينى .. انابأحبك ..

صحت فى جنون .

- لكن انا موش بأحبك .. ولا عايزه أسمع صوتك .. من فضلك ما تزعجناش بالتليفون ..

- كده برضه ياسامية ..

- قلت لك .. بلاش إزعاج ..

وأغمدت السماعة فوق التليفون .. اغمدتها فى قلبى .. وكان حقدى قد سيطر علىّ ، وحولنى إلى مخلوقة بلا عقل ، فجريت إلى حجرتى واغلقت الباب ، ووقفت وراءه أنتظر صوت الجرس من جديد .. ولكن الدقائق مضت ، وقد انقطع الرنين ، ومضت الساعات وأنا أنتظر .. ولم تعد تحيا سوى أذنى فى انتظار صوت يوسف ، ولكن كلما دق جرس التليفون كان المتكلم شخصاً آخر سواه ..

فى صباح اليوم التالى ، تكلم يوسف مرة أخرى ، قال بسرعة :

- باحبك ..

وأقفل السكة قبل أن يسمع صوتى ..

وقررت أن أغيظه ، فرفضت أن أرد على التليفون ، وتركت هذه المهمة لأمى ..

قلت لها ..

- يوسف عايز يكلمني .. سألتني غير مصدقة :

- وكلمتيه ..

- لا ..

قالت في تردد :

- موش كنتِ تشوفي عايز يقول إيه ..

همست في إعياء :

- خلاص ياماما .. مابقتش أصدق حاجة يقولها .. ابقى كلميه أنتِ وشوفي عايز إيه ..

وعندما تكلم يوسف ، سألته أمي :

- أنت عايز منها إيه ..

ثم سمعتها تصرخ :

- هيه خرجت .. لو عايز حاجة كلمني أنا ..

وقبل أن أفهم ماذا دار بينهما كانت أمي قد انطلقت في سباب لا آخر له .. سألتها :

- هوه قال لكِ إيه .

فصاحت :

- مصمم إنه يكلمك أنتِ .. عارف انه موش ح يعرف .. يضحك عليّ .. عايز الهابلة اللي يقدر ياكل بمخها حلاوة ..

وأصبح جرس التليفون يدق ، فترفع السماعة .. وما أن تقول « آلو » حتى تنقطع المكالمة في الحال ..

دعاني أنور سامي إلى حفل اقامه في بيته للمخرج روساتو ، وافقت على الذهاب، واخذت موعداً مع الحلاق في العصر .

كان قد مضى اسبوع منذ بدأ يوسف محاولاته للعودة لي ، وكنت قد هدأت قليلا ، ولكني لم اكف عن التفكير فيه لحظة واحدة بالنهار أو الليل .

كنت أشعر أني ساعود إليه إذ لا فائدة من المقاومة ، إني اقاوم واقاوم لاغيظه ، ولاسترد بعض كرامتي ، واطمئن إلى حبه ، ولكني لا اقاوم لاقطع

علاقتي به ، انى اعلم اني لن أعيش بغير حبه ..

كنت خارجة من دكان الحلاق ، عندما رايته واقفاً على الرصيف الآخر ينظر إلي ، حولت عيني بعيداً عنه ، فلم اعد أرى شيئاً امامي ، ومشيت مسرعة في الطريق ، بعد خطوات قليلة كان يمشي إلى جانبي ..

وقفت ، والتفت إليه ..

كان وجهه شاحباً ، مصفراً كأنه لم يأكل ولم ينم منذ سنوات وفي عينيه بكاء متحجر ..

- سامية .. إديني فرصة .. حرام عليكي ..

صحت في غضب :

- ارجوك ماتكلمنيش ..

رفعت صوتي في حماقة ، كأني أريد أن ألفت أنظار الناس ، فخاف وتراجع ..

ومشيت مندفعة إلى وسط الشارع أريد أن أعبره إلى الرصيف المقابل ..

وقبل أن انتبه ، كنت ملقاة على الأرض ، اشعر بلهيب في ركبتي وألم حاد في كتفي ، وصراخ ، وصياح ، والسماء تدور ، ووجوه حولي ، ودراجة ملقاة على الأرض ، وإلى جوارها شاب في ملابس العمال .

كنت بين اليقظة والغيبوبة ، ووجه يوسف يطل عليّ ، ويداه تجذباني ، فاقف ، واتفحص في ذهول فستاني ، انفض عنه التراب ..ثم أكتشف تسلخات في ركبتي ودماً قليلاً ، وصوت يوسف يطمئنني والناس من حولي تتكلم وتتكلم ، ويوسف يتكلم معهم ، ثم يجذبني برفق فأسير معه ، ومن ورائنا الناس ، حتى ندخل صيدلية ..

شعري ..

رأيت شعري في المرآة ، وقد اختلط به التراب ، وقد تغيرت معالم التسريحة ..

لم اكن خائفة ، ولا مذعورة .. كل شيء كأنه لاشيء ، يكفيني أن يوسف معي ، انه يستطيع أن يصلح كل شيء ..

طهر الصيدلي ركبتي ، وأصلحت شعري بسرعة ، وخرجنا من الصيدلية فنادى يوسف تاكسيا ..ركبت الى جواره مستسلمة ،صاغرة ، اشعر ببوادر راحة لم أعرفها منذ زمن بعيد ، كأنى أفيق من كابوس .. كأنى أعود الى الحياة ..

وذهبنا الى بيتنا الصغير ، صعدنا صامتين ، ودخلنا الشقة صامتين ، وذهبت الى الحمام ، أحاول إصلاح ما أفسده الحادث فى شعرى وفستانى .. وعدت الى يوسف ، فاستقبلنى واقفا ، جلست ونظرت إليه فى هدوء واطمئنان ، فتقدم منى ، وانحنى على يدى راكعاً .. وقبلها ومرغ وجهه فى يدى ،ثم انهمرت الدموع من عينيه ..كان يبكى فى حرقة ،ينهنه كأنه لن يكف عن البكاء ،وامتدت يدى الى شعره أمسح بها عليه ، أحاول أن اجعله يهدأ ، فيشتد نحيبه ..

ضممته الىّ ،ودفنت رأسه فى صدرى ،ولم أتمالك نفسى فقبلته فى خده وأنا أهمس :

– خلاص .. خلاص ياحبيبي .. ماأحبش اشوفك بتعيط .. خلاص مافيش حاجة .. احنا رجعنا لبعض أهه ..

قال بصوت مختنق وهو يتشبث بى :

– أنا موش ح اقدر أعيش من غيرك ياسامية .. باحبك .. باحبك لا أريد شيئاً اخر ..

كل ما اريده الآن ، هو أن اغفو .. أنام .. التعب يزول ، الأرق يزول ، الآلام والأحزان تزول ، البكاء يزول ، قامت رغبة فى أن أتثاءب ، كدت أضحك من نفسى ، لأنى أكاد أتثاءب فى هذه اللحظة ..

قال يوسف فجأة وكأنه يحدث نفسه :

– أنا عايز أعترف لك بكل اللى حصل ..

ما فائدة الاعتراف ، يكفينى أنه عاد إلىّ ، وأن المحنة قد انتهت .. همست :

– خلاص أنا نسيت اللى فات .





وابتسمت لا دعوه أن يشاركني النسيان .. لا أريد أن أشوه اللحظة التى نحن فيها .. لا أريد أن أسمعه الآن وهو يتكلم عمّا حدث .. لا أريد أن أتذكر .

ولكنه نظر إليّ بعينين بريئتين فيهما طفولة وقال فى عناد :

- موش ح أستريح إلا لما أقولك .

ثم خفض عينيه وقال فى انفعال :

- أنا عايز نصيحتك .. أنا خايف يا سامية ، موش بس جبان .. شرير .. سافل ..

همست أقاطعه محتجة :

- خلاص أنا سامحتك .. موش عايزه أسمع منك حاجة ..

مضى يقول وكأنه لم يسمعني :

- يوم الأربع .. ليلة ما شفتك .. كنت عارف أني مسافر تاني يوم دمشق .. وكنت عارف الجريمة اللى بأعملها .. محمد ناجي طلب مني أسافر . قال لى إن دى فرصتي علشان أظهر قدام القراء كصحفي سياسي .. ح أكتب عن انقلاب سوريا اللى كل الناس مهتمه بيه .. لقيت نفسي بأقول له .. أنا موافق وباشكره .. قلت له كده وأنا عارف أن إحنا محددين ميعاد جوازنا بكرة .. كنت عايز أقول له أأجل سفرى .. علشان ح أتجوز .. مقدرتش ، وخرجت من عنده وأنا موش شايف اللى قدامى .. كنت خايف .. عمرى ماكنت خايف زى كده . حاولت أعرف إيه اللى خللانى أوافق على السفر .. حسيت أني عايز أهرب .. عايز أهرب من الجواز .. أنا بأقولك الحقيقة .. بوريكي نفسي زي ماهيه . بكل ضعفها .. بكل سفالتها .. إن كنتِ ح تسمى دى سفالة . أنا بأحبك يا سامية ، موش ح أقدر أعيش يوم واحد وانتِ بعيدة عني .. وح أتجوزك .. لكن لازم أعالج نفسي .. وانتِ اللى ح تعالجيني .. تعرفى إيه اللى كان مخوفني من الجواز .. حاجات كثير .. من يوم أمي ما ماتت .. وشفت جوازها بأبويا بينتهي ، من ساعاتها وأنا شاعر بأن فى الدنيا دى حاجة غلط .. اتنين بيحبوا بعض ، متجوزين بعض .. لازم يفضلوا مع بعض على طول .. ما يسيبوش بعض أبداً .. أبداً .. غلط إن واحد منهم يموت ويسيب التانى ..

دي خيانة .. خيانة من اللي مات وسباب الحي .. وخيانة من الحي وسباب الميت .. إزاي ممكن يبقى فيه حب وجواز .. طول مافيه موت .. يفرق الحب والجواز .. أمي لما ماتت أبويا عيط .. وانا عيطت .. ليه أبويا يعيط .. وليه أنا أعيط ، واحس اني يتيم وأعيش تعيس .. من ساعتها وانا خايف من الجواز ، لأني شفت أن وراه تعاسة .. يمكن ماكنتش عارف الكلام اللي باقوله دلوقت .. ماكنتش فاهمه .. لكن كنت حاسس بيه وكان مخوفني .. ولما كبرت شفت سعاد .. حبيتها .. قلت إنها تاخذ مكان أمي .. أحبها وتحبني واعيش معاها وأتجوزها .. بصيت لقيتها بتتجوز واحد تاني .. الجواز خطفها مني ..

وسكت يوسف برهة ، وضحك ضحكة سريعة عصبية مشبعة باليأس

وقال :

– أنا فاكر يوم ما سبت الجامعة الصبح .. ورحت لها البيت بحجة اني آخد منها كتاب كانت مستلفاه .. كنت مصمم أقول لها سيبك من خطيبك .. وتعالى نتجوز .. ووقفت سعاد قدامي .. وبصت لي زي ما تكون بتترجاني .. عايزاني أقولها نفس الكلام اللي أنا جاي مخصوص أقوله .. وسالتني .. أعمل إيه .. سكت .. مقدرتش أقول لها أتجوزك .. خفت .. زعلت مني .. وأنا مشيت في الشوارع أعيط .. كنت بأقول لنفسي .. أنا لسه تلميذ .. ومعنديش فلوس للجواز .. واهلها ح يرفضوا .. حجج باقولها .. إنما في الحقيقة كنت خايف .. اتهيألي اني بأطلب حاجة موش بتاعتي .. إن ربنا خلقني علشان أعيش لوحدي على طول من غير جواز .. هه .. وبعدين أبويا اتجوز مبروكة .. احتقرت الجواز ، بقى ممكن يتجوز أمي .. وبعدين يتجوز خدامة .. قرفت من الجواز ، وخفت منه أكثر وأكثر .. لحد ما حبيتك .. وعرفت اني لازم أتجوزك .. ونسيت كل الخوف اللي كان عندي .. شهدي باشا قاللي بلاش الجوازة دي .. أنت صحفي ووراك مسئوليات كتير .. ولسه ماعملتش حاجة .. لازم تشتغل ليل ونهار علشان تكوّن مستقبلك ، وعلشان تبقى رئيس تحرير .. مسألتش فيه .. وقلت له أنا مصمم على الجواز .. وكنت فرحان من نفسي .. قدرت أتخلص من مخاوفي .. ما يهمنيش مستقبل ولا صحافة

ولا رياسة تحرير .. مستعد أسيب كل حاجة .. بس اتجوزك .. وبعدين جت حكاية السفر .. لقيت نفسي باوافق .. ولقيت نفسي خايف .. وشفتك ليلتها .. بقيت عايز اقولك .. مقدرتش .. كنت ح اتجنن .. كنت عايز أشرح لك حالتي بالضبط .. خفت ماتفهمنيش .. هربت .. زي أي جبان .

ورفع رأسه والدموع في عينيه .

وقال :

– سامية .. تعالى نتجوز دلوقتي ..

هتفت في حدة :

– لا ..

كانت اعترافاته قد هزتني ، وأخرجتني من حبي وحولت صدري إلى بركان من الغضب والثورة .. لم أعد أحس ببراءته التي يضعها في عينيه ، لم أصدق صراحته ، لم أصدق أنه يريد أن يتزوجني الآن .. خفت منه ، ومن تلك الأفكار التي تدور في رأسه .. كنت واثقة انه يخدعني .. كان يستطيع أن يقول ببساطة ، لن اتزوجك لأن شهدي باشا رفض .. كان يستطيع أن يقول نفس ما قاله محمد ناجي .. وهو يدق على مكتبه ويصيح « يوسف عايز العرش ده .. عايز يقعد هنا .. إن ماكنتيش تعرفي ده تبقي ماتعرفيش يوسف .. هو مستعد يسيبك ويسيبني علشان المكتب ده » .

واستعدت وجه محمد ناجي وهو يقول : « خلينا نتكلم بصراحة .. سامية سامي .. ممثلة .. من بتوع السيما .. لو اتجوزتيه موش ح يقدر يقعد هنا .. ح يطلعوا عليه شائعات .. ح يبقى متجوز واحدة أرتست .. »

هذا هو نفس مايقوله لي يوسف الآن .. ولكن بطريقة أخرى .. إنه صادق كاذب ، صريح منافق ، جريء جبان ، إنه حقير .. حقير .. ولكني أحبه .

صاح يوسف :

– لازم نتجوز دلوقت ..

فصرخت :

– أنت موش عايز تتجوزني ..



- أنا باحبك يا سامية ..

صحت كالمجنونة :

- وأنا كمان بأحبك .. لكن بلاش نكذب على بعض ، وتقول إنك عايز تتجوزني ..

هتف متوسلاً :

- ما تسيبينيش يا سامية .. إديني فرصة أثبت لك أني بأحبك وعايز أتجوزك ..

قلت في مرارة :

- الفرصة كانت عندك ..

هتف :

- اديني فرصة علشان احترم نفسي ..

قلت وأنا لا أدري ماذا بي ، وكلماتي تنبض بالسخرية :

- إنت عايز إيه .. موش عايز نكون مع بعض .. خلاص .. أنا بأحبك .. وإنت بتحبني .. بلاش نفكر في الجواز دلوقت .

كانت كلماتي تجرحني ، تهينني ولكني كنت راضية بها ، إنها الكلمات الوحيدة التي تريحني الآن .. أن أحطم نفسي ، ولا اتركه هو يحطمني .. ان أرفض أنا الزواج .. ولا اتركه هو يرفض الزواج .. أن اكذب عليَّ نفسي .. ولا اتركه هو يكذب عليَّ ..

في تلك الليلة ، استسلمت له ، كأني فتاة من الشارع تستسلم لغريب ..

●●

أنا مازلت أحبه ، ولكن أعماقي تغلي ، أنا مازلت أحبه ، ولكن القلق والحيرة واليأس يزاحمون الحب في قلبي ، كانت علاقتنا تبدو هادئة لأيام أو أسابيع ثم يأتي يوم فأسأله :

كنت فين .. سألت عليك في التليفون ..

- عند شهدي باشا ..

أقول ساخرة :



- يافرحتي بيك .. وبشهدي باشا .
- جرى إيه يا حبيبتى ..

أصيح :

- أنا موش عايز أسمع اسمه ..

يجيب مذعنا ..

- طيب ..

ويتجهم وجهه ، فاحتد قائلة :

- أنت مبوز ليه ..
- مافيش حاجة ..

وأجدني مندفعة إلى إثارة شجار حاد ..

- تفتكر يعنى مزاجى إنى أقعد مع واحد مبوز ..

يحتج ...

- عايزانى أعمل بهلوان ..
- ليه .. لأ .. موش لازم تسليني ..
- سامية .. إيه الكلام اللى بتقوليه ده ..
- أنا عايزه أتسلى ..

أنتِ اتغيرتي ياسامية ..

- أهو أنا كده .. عاجبك وإلا موش عاجبك ..
- احنا ح نتخانق ..
- أنت اللى عايز .. قصدك تقول إن أنا اتغيرت ..

ويكتم انفعاله . ويحاول أن يعتذر لى ، ويتقدم مني ليقبلني ، فأدفعه بيدى بعيدا عنى ، فيتراجع حزينا ، وأشعر بسرور خفي .

كنت أسأل نفسي ، هل هو يحبني حقا كما أحبه ، أم هو لا يريد أكثر من جسدى ، وكلما مضى يوم تزايد إحساسي بأنه يعاملني كمجرد جسد ، فأنفر منه ، إذا لمستني يده ارتجفت ، وابتعدت مذعورة منه ، أرفض قبلاته ، لا أسمح له أن يأخذني بين ذراعيه ، حتى يفيض بي حبي فلا أستطيع أن

اقاومه ، ولكنى حتى فى تلك اللحظات القليلة ، كنت أخرج منها وانا مشمئزة من نفسى .. أكره جسدى ..

أحيانا كنت أتعمد أن أجلس أمامه فى أوضاع تثيره ، وأبتسم له فى إغراء ، وتدعوه عيناى لأن يقترب منى ويقبلنى ، ولكنه ما يكاد يقترب ، حتى أصرخ فيه ، وتنتابنى قشعريرة ، وأدفعه بكل قواى .. فيبتعد وهو يتألم ، وفى عينيه يأس ورغبة .

وفى إحدى المرات هجم علىّ ، وقد صمم على أن ينالنى بالقوة ، ودارت بينى وبينه معركة ، وصفعته على وجهه .. فأصيب بذهول ، وصرخت فيه .. لن أراك بعد اليوم وخرجت مسرعة إلى الشارع .. لو كان جرى ورائى ، ولحق بى فى الطريق ، لكنت عدت إليه ، ولكنت أنا التى قبلته .

فأنا مازلت أحبه .

ثم تجىء أيام يصفو فيها حبنا ، أكون قد تعبت ، ويكون هو تعب ، فنستريح معا .. ننسى ما نحن فيه ، ونتبادل الحب فى غباء . ولكن سرعان ما أشعر بالملل ، وتعود الثورة تتأرجح فى صدرى ، ونتشاجر .

كان إذا ارتبط بموعد فى الليل لابد أن أخرج أنا أيضا ، ولذلك وطدت علاقتى ببولاندا من جديد ، وكانت تأخذنى معها فى سهراتها مع شبان تعرفت بهم ، فأشرب وأرقص ثم أعود إلى يوسف لأروى له كل شىء بالتفصيل .. أروى له كيف غازلنى أصدقاء يولاندا فيثور ويغضب ، ويعلن أنه لن يرانى بعد اليوم ، وعندئذ أصالحه . لم أكن أبادله أبدأ ثورة بثورة ، إذا ثار صالحته ، وإذا هدأ ثرت أنا ..

أكنت أريد أن أذله .. أكنت أريد أن أتأكد أكثر وأكثر من حبه .. أكنت أظن أن أسلوبى هذا هو الذى سيضطره إلى الركوع عند قدمى ليطلب منى الزواج .. لست أدرى .. إذ لم أكن أتصرف بناء على خطة ، بل أنا مدفوعة بحيرتى وقلقى إلى أن أفعل ما أفعله ..

ولما سألت نفسى ما هى نهاية كل هذا ، وجدتنى عاجزة عن التفكير ، وتمنيت لو أن أحدأ بجانبى ينصحنى ويرشدنى ، وتذكرت شوقى ، فاتصلت

به .

التقينا فى أمريكين عماد الدين ، جلسنا فى الطابق العلوى ، وكان مرحاً بشوشاً ، لم يسألنى لماذا أردت مقابلته ، وكأنه سعيد برؤيتى ..

- أنا عايزه أسألك سؤال بس تجاوبنى بصراحة .. وما تضحكش عليه ..
- اتفضلى ..
- إيه رأيك فىّ .. أنت شايف أنا إيه ..

ضحك قائلاً :

- بنى آدم .. يعنى ح تكونى إيه .. إنسانة .

سألته فجأة :

- أنت بتحترمنى يا شوقى ..

نظر إلىّ فى ثبات وقال بصوت جاد .

- طبعا .. إزاى تتصورى غير كده ..
- أنا حاسة إنى بنت وحشة .. وأن كل الناس بتقول عنى إنى وحشة ..

قال فى حرارة :

- اللى يقول الكلام ده موش ممكن يكون وحش .. أنت بتفاجئينى باسامية ..

قاطعته وأنا أفكر فى مبروكة ..

- أنت ح تقول الكلام ده لحد ..

قال فى صوت حاسم :

- طبعا لأ ..
- أنا تعبانة ياشوقى .. أنت عارف حكايتى مع يوسف .. احنا ما تجوزناش .. هوه مش عايز يتجوزنى .. لكن بيحبنى .. وأنا بأحبه .. وفى الوقت نفسه بأتصرف تصرفات غريبة .. بأضايقه .. وبأسيبه وأخرج .. زى ما أكون عايزه أغيظه .. ما بأعملش حاجة وحشة .. إنما أنا مابقتش أنا .. أنا خايفة ..

قال فى هدوء شديد ، وعلى وجهه علامات التفكير :

- أنا عارف أنه سافر .. وهرب من الجواز ..

هتفت في ألم :

- عرفت إزاى ..

قال بسرعة ليخفي ارتباكه :

- أهو الحكاية اتعرفت ..

وطغى عليّ شعور بالحقد على يوسف ، وعلى نفسي ، هذا الشعور لن يتركني أبداً ، وسألني :

- لكن أنتم اتفقتم على إيه ... بتتصوروا حياتكم إزاى في المستقبل همست في ضيق :

- هوه بيقول إنه لسه عايز يتجوزني .. بس انا موش مصدقاه ..

قال في حزن :

- خسارة .. أنتِ فقدتي ثقتك بيه ..

- ده صحيح .. فيه حاجة في حبنا اتشرخت .. وموش ممكن ترجع زى ما كانت ..

قال بعد برهة وشفته السفلى ترتعش :

- أنا رأيى ياسامية .. أنك ماتخديش يوسف زى ما هوه .. حاولى انك تصلحيه .. أنتِ بتحبيه .. موش كده .. يبقى بتحبي حسناته وسيئاته .. حاولى انك تصلحى سيئاته .. اعملى يوسف بايديكى .. شكليه زى ما انتِ عايزه .. لو عملتي كده ح تشعرى انه بتاعك وح تتخلصى من أزمتك ..

قلت بصوت ضعيف :

- تفتكر اقدر اعمل كده ..

- طبعا..

وسألته فجأة :

- تفتكر ح تكون نهاية الحب ده إيه ؟ ..

قال بسرعة :

- ما اعرفش .. ده يتوقف عليكم أنتم الاثنين .

شعرت ببعض الأمل .. بعد لقائي بشوقي ، وأسرعت اتصل بيوسف ، لأتأكد من موعدى معه في الليل ، فصدمني باعتذاره ، لأن وراءه عملاً كثيراً .. توسلت إليه كما لم اتوسل منذ زمن طويل ، - حاولت جهدى - وطلبت أن أراه .. ولكنه صمم على اعتذاره .

كيف أصنع يوسف ، كيف أشكل يوسف كما أريد ، إن شوقي يحلم ، أن الذى يصنع يوسف هو جريدة الأيام ، وشهدى باشا ، اين مكانى واين دورى الذى أستطيع أن ألعبه في حياة يوسف .

لقد تغير كل شيء .. كنت أظن أن يوسف هو الذى سيصنعني ، هو الذى سيحولني من فتاة يائسة إلى زوجة وحبيبة ، ولكنه تخلى عني .. حتى لو تزوجته ، فقد تخلى عني .. إن مصيرى محتم .. ليس فيه ومضة نور .. ليس فيه حنان .

عندما قابلت يوسف في اليوم التالى كنت قد صممت على أن أطلب منه الزواج في الحال .. قلت له في حدة :

- احنا لازم نتجوز دلوقت ..

ابتسم وقال :

- طيب يا حبيبتي .. بس موش بالطريقة دى ..

- موش أنت كنت عايز نتجوز .

قاطعني :

- بس موش اليومين دول ..

- ليه ..

قال في هدوء غريب :

- أصل فيه حاجات كتيرة في الشغل .. الدنيا مقلوبة .. ماكنتش بأحكيلك علشان أنتِ ما بقتيش مهتمة تسمعى حاجة عن شغلى .. لكن علشان اديكى فكرة .. محمد ناجى ح يسيب رياسة التحرير .. عايز يسافر أوروبا . بيقول إنه تعب ومحتاج لفترة راحة .. وح يكتفي بأنه يكتب .. وأنا ح أبقى رئيس التحرير .. بمجرد ما تنتهى الدوشة دى .. نتجوز ..

سألته في تحد ..

- وليه مانتجوزش دلوقت .. فتجاهل سؤالي وقال ..
- خليكي عاقلة يا حبيبتي .

صرخت ..

- أنت مكسوف تتجوزني ..

صاح :

- بلاش كلام فارغ .. أنتِ عارفة كويس اني ح اتجوزك ..

قلت في ثورة :

- يا تتجوزني النهاردة .. يادي آخر علاقتي بيك ..

أذهلني أنه لم يتأثر بتهديدي .. وأدهشني أني لم أبك .. بل تماسكت ، وصفقت الباب ورائي .. وأنا واثقة أني لن أعود إليه ..

ولكني عدت ...

عدت بعد ثلاثة شهور وخمسة أيام ، وكان هو قد أصبح رئيس تحرير .. أما أنا ، فكنت مخلوقة أخرى .. ولكني مازلت أحبه ..

●●

خلال فترة قطيعتنا ، حاولت أن أعيش في عالم السينما ، كنت أكبت كل صوت يذكرني بيوسف ، أحقد عليه ، وأحقد على قلبي الذي يحن إليه ، وأحقد على جسدي الذي يشتاق إليه .. كنت أجد لذة في القسوة على نفسي .. تناسيت كل شيء ، كما كنت أتناسى أبي في الماضي .. وعدت أكذب على نفسي ، وأصدق كذبي .. أنا سامية سامي الممثلة ، أنا سامية سامي الفاتنة التي تثير الرجال ، والتي ستصبح نجمة مشهورة .. تعيش في المجد ، وتسلط عليها الأضواء .. اتصلت بالأستاذ حلمي ، وسألته عن الفيلم الإيطالي .. قال في أسى ..

- تعيشي أنتِ ..
- ايه .. حصل ايه ..

ظننت أن روسانو قد مات .. ولكنه قال :

- الاتفاق باظ .. مخرج مجنون فاكر نفسه في هوليوود .. عايز يصرف مائة وخمسين ألف جنيه .. اديني عقلك ..

ولما لاحظ أني حزينة ، حاول أن يطمئنني .

الجايات أكثر من الرايحات .. يعني هو ده آخر فيلم .. اصبري شوية .. أنا طالع بقنبلة جديدة ..

كنت أريد أن أتردد على الاستديو ، وأمثل ، وأتورط في هذا العالم العريض الذي يضم أهل السينما ، ولكن ها هو الأستاذ حلمي يطلب مني أن أنتظر وأصبر .. هل أستطيع ..

تجاهلت كلام الأستاذ حلمي . واتصلت بأنور سامي ..

- أنتِ لسه عايشة ..
- غصب عنك ..
- ما أنتِ بسبع أرواح ..
- أنا باكلمك علشان أسألك عن الفيلم ..
- فيلم إيه ؟
- الطلياني ..
- هوه أنتِ معرفتيش ..
- إيه ..
- ولا حاجة .. تعالي لما أشوفك وأنا أقولك ...
- امتى ..

صاح في غير تصديق :

- امتى إيه ..
- امتى أجي ..

هتف :

- دلوقت ..

ثم صاح مرتبكا :

- هوه احنا امتى .. الساعة كام .. إحنا الضهر .. أشوفك بالليل .

- طيب ..

- طيب ..

قال فى شك :

- أوعى تكونى بتهزرى ..

- لأ .. أنا عايزه أشوفك ..

وفى المساء ، جاء ليأخذنى فى عربته ..

- تحبى نروح فين ؟

- فى شقتك ..

هتف فى دهشة غير عادية ..

- شقتى ..

ضحكت قائلة ..

- أنت خايف ..

هتف والفرح يضج فى عينيه :

- الله .. الله .. إيه اللى جرى ..

ثم ضاقت عيناه وسألنى مستريباً .

- بذمتك بتتكلمى جد ..

- أيوه ..

فمد يده ، وقبض على معصمى . وهتف :

- يا حبيبتى .. اعترف لك بصراحة .. أنت أجمل واعجب وأجن مخلوقة شفتها فى حياتى ..

وذهبت إلى شقته ..

وهنا سكتت سامية سامى عن الكلام .. وبذلك انتهى القسم الثانى من الرجل الذى فقد ظله .



الرجل الذى فقد ظله

الجزء الثانى

القسم الأول يرويه :

ناجي

●●

القسم الثانى يرويه :

يوسف

مكتبة روز اليوسف
يناير ١٩٨٨



هذا الكتاب

حقاً إنها رباعية القاهرة .. ولست أدرى إذا كان فتحي غانم على علم بنظرية لورانس داريل في النسبية أم لا ؟.. ولكن المقارنة بينهما مفيدة .. فما وجده داريل باهراً في إغرائه ، كان أمراً عادياً بالنسبة لفتحي غانم .. وما كان مادية رومانتيكية عند الأول ، كان مادة للحياة اليومية عند الثاني .. وحيث بدت الاسكندرية مبالغاً فيها عند داريل ، كانت القاهرة تكون عادية عند الآخر .. والدوافع الغامضة والملتوية والمريبة والسحرية ، كما رآتها عينا رجل من الشمال ، تحولت إلى مجتمع أقل قدماً كما قدمه فتحي غانم .

.. إن المتسلقين المصريين يبدون وكأنهم أبناء عم للمتسلقين عندنا .

وكل مدلل مغرور ، وكل من يضرب أو يطعن الآخرين في ظهورهم ، يشبه كثيرين ممن أعرفهم بيننا .. وأقترح أن نستورد لانجلترا تعبير « ياصاحب السعادة » .. كأفضل أسلوب لمخاطبة اللوردات هنا .

فردريك رافايل

ناقد الصنداى تايمز - ٦ فبراير ١٩٦٦

مطابع روز اليوسف

الأعمال الكاملة

فتحى غانم



الرجل الذى فقد ظله



الجزء الثانى

ناجى - يوسف

فتحي غانم

الرجل الذى فقد ظله

القسم الأول يرويه :

ناجى

القسم الثانى يرويه :

يوسف

يناير ١٩٨٨

المدير الفني : عدلــى فهيــم
رسوم الغلاف : الفنان جمال كامل
الرسوم الداخلية : للفنانين جمال كامل ● مأمون
التنفيـــذ : مارى ميخائيل ● مشيرة صبرى

الإهداء

... إلـى صـلاح جاهيـن



القسم الثالث يرويه :

ناجى



الفصــــل الأول

انــا نــاجى ..

محمد ناجى .. أكبر وألمع الصحفيين والكتاب فى مصر والشرق العربى ، أو هكذا كنت يوما ما ..

الآن .. تغير كل شىء ، أخذ مكانى ذلك الصعلوك العبقرى فى النفاق .. أستاذ النفاق .. يوسف عبد الحميد السويفى .. شىء مضحك ، يثير الرثاء .. هذا الولد أصبح أهم وأخطر منى .. الدنيا انقلبت رأسا على عقب ، كل شىء فى مصر اليوم مضحك يثير الرثاء ، الحياة لم تعد هى الحياة ، ومصر لم تعد هى مصر ، طردوا فاروق ، وأقصوا الباشوات عن الحكم ، وأصبحت الأمور فى يد حفنة من الضباط الشبان بلا خبرة ولا تجربة ، لا يفهمون شيئا فى السياسة .

إنهم لا يقبلوننى ، وأنا لا أقبلهم .. أكرههم كما أكره العمى ، لا أستطيع أن أتحمل لغتهم الغليظة الخشنة ، وأملى الوحيد هو فى نهايتهم القريبة .

من حسن الحظ أنهم ارتكبوا أكبر خطأ فى حياتهم ، أمموا قناة السويس ، وتحدوا انجلترا وفرنسا .. وهذا معناه ببساطة أنهم انتحروا .

جريدة « الموند » تتحدث عن استعدادات الأسطول الفرنسى فى طولون ، والجميع هنا فى باريس يقولون إن غزو مصر سيتم خلال أسابيع .. هذه هى فرصتى ، ستعود الحياة إلى ما كانت عليه .. ستعود الوجوه التى أعرفها

وتعرفنى ، سيعود العقلاء الذين يتصرفون فى ذوق ولباقة ، وسأعرف كيف أنتقم ، لن أستريح حتى أرى يوسف معلقاً فى حبل المشنقة ..

الشمس ساطعة ، والجو لطيف ، الحرارة ليست مرتفعة مثل الأمس ، لقد بدأ الخريف فى باريس ، وبعد قليل ستهب رياح الشمال .. رياح الشمال تكنس الأوراق الميتة ، هكذا تقول الأغنية التى سمعتها مع سامية فى الليدو منذ ليلتين .

سامية مبهورة بباريس ، إنها تعبدنى لأنى جئت بها إلى هنا ، كلما رأت شيئاً أعجبها ، زاد حبها لى ، كأنى أنا الذى صنعت باريس .

هذا الصباح استمعت إليها وهى تتحدث فى التليفون مع موظف الاستعلامات فى الفندق ، وتطلب منه حجز تذكرتين فى كازينو بارى ، قالت له فى ثقة كبيرة : أنا مدام ناجى ..

قالتها وكأنها زوجتى منذ عشرين سنة ، لقد تغيرت سامية ، ربما هى الوحيدة التى تحس بالسعادة ، ترى إلى متى تدوم سعادتها ، إنها راضية ببقائنا بعيداً عن مصر ، راضية بأنى لم أعد رئيساً لتحرير الأيام ، راضية لأنه لا يوجد فى حياتى ما يشغلنى عنها ، لو تعلم كم أنا تعيس ، إنى لم أكافح طوال حياتى من أجل أن أصبح مجرد زوج لسامية وأب لشريف ..

منظر الشانزليزيه من النافذة رائع .. أثنا عشر صفاً من السيارات .. نصفها يتجه إلى الاتوال والنصف الآخر يتجه إلى الكونكورد .. المدنية والحضارة تتحركان أمامى .. لو زحفت هذه السيارات وحدها على مصر لتم الغزو .. ولانتهت متاعبى ..

ماذا أكتب لمصر .

هذا الخطاب الذى أرسله يوسف يثير غيظى .. أستاذى العزيز .. كيف يجرؤ على أن ينادينى بأستاذه العزيز ، لو كان كتب ضحيتى العزيزة لاحترمته ..

يريد منى مقالا عاجلا عن الموقف هنا ، لو تركت لقلمى حريته لكتبت .. الموقف رائع .. أنا متفائل .. كلها أيام ويغزونا الانجليز والفرنسيون ويحررونا من حكم الغوغاء ..

لكن يوسف لن ينشر حرفا واحدا من هذا ، سيضع مقالى فى مظروف ويرسله إليهم ، ويقطعون عنى النقود .. سامية فى حاجة إلى نقود كثيرة ، إنها لا تكف عن الشراء ، إنها لا تفكر فى شىء ، كأنها بلا ماض ، نسيت أيام السينما ، وأيام حبها ليوسف ، أنا واثق أنها نسيت ، ولكنى لن أكف عن الحيطة والحذر ، وسأظل أمتحنها من وقت لآخر ، لاتأكد أنها لا تفكر فى يوسف .

ما الذى أكتبه ، لو شتمت الفرنسيين فمن يدرى ماذا يكون موقفى بعد انتصارهم .. يجب ألا اتورط فى هذه المعركة ، سأرسل تلغرافا إلى يوسف أعتذر له بمرضى وأطلب نقودا للعلاج .

مازال أمامى ساعتان قبل أن التقى بسامية وشريف عند « فوكيه » .. سنذهب لتناول غذائنا فى مطعم كوك هاردى ، ستفاجأ سامية بحفاوة صاحب المطعم بنا ، سيروى لها مسيو شارل عن زبائنه المشهورين ، وستتفرج على الديوك الخزفية فى البار ، والدولار المعلق داخل برواز ، والذى منحه ايزنهاور بقشيشاً أيام كان القائد الأعلى للحلفاء .. سأطلب لها طبق بط الصيد بالصلصة وقطع البرتقال وسأرقبها وهى تأكل فى دهشة ..

لماذا أفكر على هذا النحو ، أشعر كأنى ممثل يبحث عن جمهور ، وسامية هى جمهورى الوحيد ، أريد أن أقنعها بأنى صانع المعجزات ، أنى أستطيع أن أبهرها وأدهشها فى كل لحظة ، وأن باريس ملك يدى .. أريد أن أجعلها تشعر بالخجل من نفسها كلما تذكرت يوسف ..

أنا محمد ناجى .. الرجل الحقيقى .. كل شىء فىَّ مصنوع بعناية وتفوق .. ملابسى ورباط عنقى .. وأفكارى .. وأسلوبى .. وطعامى .. وتصرفاتى ..

أنا لا أحتمل الشىء الرخيص ، ولا أحتمل الشىء المتوسط .. كل شىء حولى يجب أن يكون أنيقاً رائعاً ممتازاً ..

الأغبياء .. السوقة .. كم أكرههم .. يفضلون يوسف عليّ .. يثقون في يوسف ولا يثقون بي .. يقولون عني ابن ذوات وارستقراطي ورجعي إلى آخر هذا الكلام التافه الفارغ ..

إنهم لا يعلمون ماذا صنعت بنفسي .. لقد عشت طوال حياتي من أجل أن أصل إلى هذا الذي يتهمونني به .. كنت فقيراً فحاربت حتى أصبحت غنيا .. كنت فلاحا فحاربت حتى تحولت إلى ابن ذوات .. أصبحوا يقولون إن الدم الأزرق النبيل يجري في عروقي .. كنت مغمورا فحاربت حتى أصبحت مشهوراً ، اسمي على كل لسان ..

حاربت ..

اتفهمون أيها الأغبياء .. حاربت .. حاربت كل لحظة من عمري ، لأكون ممتازاً متفوقاً ، ونجحت وتفوقت ، ثم تأتون أنتم للقضاء عليّ ، للقضاء على ثروتي وشهرتي وامتيازي .. لن أسكت عليكم ، لكم يوم أعود فيه وحذائي فوق رقاب الجميع .

أتريدون أن أظل كما كنت .. أنتم لا تعلمون ماذا كنت .. لا تعلمون اسمي الكامل .. لا تعلمون أن اسمي محمد ناجي عبد ربه الحنك .. أترضون عني لو أضفت هذه الأسماء الشعبية إلى اسمي الأنيق .. لقد مسحتها من ذاكرتي ، وأخفيتها عن العالم .. مسحت اسم أبي عبد ربه ، ومسحت اسم جدي الحنك ، ووضعت موهبتي وذكائي مكان أصلي ونسبي .. كان أخطر رئيس وزراء يقابلني وهو سعيد بأني أزوره ، ويتملقني ويسعى إلى إرضائي .. كان الباشوات يرتجفون إذا غضبت ويفرحون في بلاهة إذا رضيت .. كان بيتي كعبتهم ..

يجب أن أرسل البرقية ..

- آلو .. الاستقبال .. أريد من فضلك إرسال برقية إلى مصر نعم .. العنوان التلغرافي .. أيام .. القاهرة .. مرضت فجأة .. أرسلوا خمسمائة جنيه للعلاج .. تحياتي .. ناجي .. مرسي ..

سينزعجون ، ولكن المهم هو أن يستطيعوا ارسال النقود في هذه

الظروف .. سيفعل يوسف المستحيل .. من حسن حظي أني تركت له رئاسة التحرير في الوقت المناسب .. إنه يستطيع أن يتفاهم معهم .. لولاه لكانوا وضعوني في السجن .. من كان يصدق أني سأجد نفسي يوما ما في حماية يوسف .. اللهم إنقذني من هذا البلاء .. إن يوم القيامة أفضل من هذه الحياة .. لو كنت محل إيدن أو جي موليه .. لما ترددت ، وضربت القاهرة بالقنابل الذرية .. سيشكر لهما الناس هذا الموت الذي هو أفضل من الحياة ..

اعجبني أكرم بك عندما قابلته في السفارة ، كان رائعا وهو يقول : إنه لا يفهم هذه الأعمال الشيوعية التي يرتكبونها في مصر والتي ستقضي على كل الناس الطيبين أصحاب العائلات الكريمة .. لقد سأل الموجودين واحداً واحداً .. عن معنى الحياد الإيجابي والقومية العربية .. فابتسموا في غباء ، وقال بعضهم إنها كلمات لا معنى لها .. لزمت الصمت ، فمن يدري ربما كان هؤلاء المهاجمون جواسيس يكتبون التقارير .. والتفت إليّ أكرم وسألني ..

- انت ساكت ليه ياناجي بك .. انت أستاذنا .. وما حدش يقدر يفهمنا الحاجات دي غيرك ..

وفي لحظة خيل إليّ أن أكرم نفسه جاسوس ، فادعيت أني أعرف الإجابة ، وانطلقت في كلام طويل أشرح في حماس الحياد الإيجابي والقومية العربية .. لعل أصحاب التقارير يكتبون ما قلت ليرضوا عني .

قبل أن نغادر السفارة ، انتحى بي أكرم وهمس :

- بيني وبينك .. انت مقتنع بالكلام اللي بتقوله ..

همست بدوري :

- ما تسيبني في حالي ..

فنظر إليّ في رثاء وقال :

- قلبي عندك .. شد حيلك .. بكره تفرج ..

ولاحظت سامية أثناء عودتنا لفندق كلاريدج أني مهموم .. فقالت في ضيق :

- احنا موش عايزين نشوف مصريين تاني .. موش ده اتفاقنا ، احنا جايين نتفسح ..

قلت مستسلما :

- حاضر ياحبيبتي ..

إنها لا تشعر بأزمتي .. لا تفكر في السياسة ، ولا يخطر على بالها ما أنا فيه ، ربما هذا هو ما يجعلني أتمسك بها ، إنها لا تعرف شيئاً عن مأساتي ، كل ما تعرفه أنني محمد ناجي العظيم الذي يبهرها .. وهذا يريحني ، ويساعدني على نسيان نفسي أحياناً .

لابد أن أرتدي ملابسي حتى لا أتأخر عليها ، يجب أن أقلل من خروجي في هذه الأيام ، حتى لا تصل الأخبار إلى القاهرة بأنني لست مريضاً .. ولكن ما الذي أقوله لسامية ، لا أريد أن أكشف عن ضعفي وخوفي أمامها ، أم ، سأقنعها بأن شريف مريض ، إنها تصدق أي شيء أقوله لها ..

حبيبتي سامية ..

لو تحبني نصف حبي لها .. إنها صغيرة مازالت في العشرين وأنا على أبواب الستين .. سيأتي اليوم الذي ينتهي فيه الحلم الذي تعيش فيه .. لن أستطيع مواصلة التمثيل أمامها إلى الأبد ، يوما ما ستكتشف ضعفي ، وستسخر مني ، وستتركني .. لابد أن أقاوم .. لابد أن أحارب .. لابد أن تنتصر انجلترا وفرنسا في المعركة القادمة .. وأعود منتصراً .. عندئذ سأكسب سامية إلى الأبد ..

أين مفتاح الباب ، لا أستطيع أن أترك الغرفة قبل أن أغلق الباب ، مجوهرات سامية في الدولاب .. رفضت أن تحتفظ بها في خزانة الفندق .. قالت في غير اكتراث :

- لو ضاعوا نشتري غيرهم ..

وسكت .. لا أستطيع أن أقول لها إن هذا سيكلفني الكثير ، ولكن إلى متى أستسلم لها ، سأحمل المجوهرات معي وأضعها في الخزانة .. سأوبخها لأنها تركت المفتاح في الحمام . كيف حملته إلى هناك .. إنها تتصرف كطفلة

صغيرة في حاجة إلى مربية ، شيء عظيم .. محمد ناجي أصبح مربية أطفال ..

يكفيني شريف .. هذا الطفل يكاد يحولني إلى مخبول .. حبي له جنون .. إنه كل ما بقي لي .. إنه ليس قرّائي .. ولست بحاجة إلى التمثيل أمامه .. إنه أنا .. من أجله أرضى بالذل ، وأبتسم في وجه يوسف ، وأبتسم في وجه شهدي باشا ، حتى أظل محتفظا بنصيبي في الجريدة ، ليرثه شريف .

لولا شريف لما تزوجت ..

- بنچور ..
- بنچور مسيو ..
- هل أستطيع أن أحتفظ بهذه المجوهرات في خزانة الفندق ..
- بكل تأكيد مسيو ..
- إنها ليست كثيرة كما ترى ..
- ولكنها رائعة ياسيدي ..

تفضل الإيصال ياسيدي .. في خدمتك دائما ..

الهواء بارد ، والغيوم بدأت تظهر في السماء ، ربما كان الأفضل أن نؤجل غذاءنا في كوك هاردي .. إلا لو صممت هي .. يجب أن أحافظ على نفسي .. سأستشير طبيبا آخر .. ألا توجد طريقة للاحتفاظ بالشباب هذا الشاب الذي يسير وقد لف ذراعه حول الفتاة ، ذراعه مفتولة ، قامته كعود زان ، الشباب جميل ، لقد مضى شبابي دون أن أتمتع به ، موظف في قسم التشريع بوزارة المالية .. ما أسخف تلك الأيام ، الطربوش على رأسي ، وشاربي منمق وفي نظراتي كبرياء هي أقرب إلى الغباء ، لو رأت سامية صورتي في تلك الأيام لسخرت مني .. لي صورة مع حورية إبراهيم ، كانت أشهر راقصة ، وكانت تخينة ، كيف أحببت كل هذا الشحم واللحم كنت مازلت فلاحاً ، لا أستسيغ الرشاقة والنحافة ، وأعشق الدسم .. أعوذ بالله ..

عندما تمشي سامية إلى جانبي في الشارع ، ترى ماذا يقول الناس ، هل يتصورون أنها زوجتي ، أم يقولون إنها ابنتي .. لا يهمني رأي الناس ، كل ما يهمني هو رأي سامية ..

هل البرد يشتد .. أم أنا متعب ، وعجوز .. المسافة إلى فوكيه قصيرة سأسرع الخطى .. أين أيام ما كنت أتسكع في الشانزلزيه بالساعات .. وأعود إلى الكلاريدج آخر كل ليل وفي ذراعي باريسية حسناء .

في إحدى الليالي عدت وحيداً ، فانزعج البواب ، وسألني في قلق :

- سيدي سيصعد إلى غرفته وحده ..
- نعم ..
- هل سيدي مريض ..
- أبدا ..
- أيريد سيدي أن أحضر له من تؤنس وحدته ..
- أشكر لك اهتمامك .. ولكني متعب وسأنام ..

ولم يصدقني الرجل ، فألح عليّ وكأنه واثق أني حزين أو يائس من الحياة .. وهتف :

- أنت في باريس ياسيدي .. يجب أن تنام مستريحاً ..

ولم يستسلم حتى أكدت له أني سأنام بملابسي من التعب ، وبمجرد دخولي حجرتي ..

كانت أيام .. لو يعيد الله شبابي أسبوعاً واحدا ، لتعرفني سامية كما كنت ..

هاهو فوكيه .. سأجلس بعيدا عن الباب .. إنها لم تأت بعد ..

- واحد دراي مارتيني من فضلك ..

- اعترفت لي سامية أن أول مرة شربت فيها المارتيني كان في بيتي يوم دعوتها مع يوسف .. قالت إنها أحبت المارتيني ، ولكنها لم تحب الحفلة ، كرهت المدعوين ، أحست أنهم يسخرون منها ، وكرهتني لأني كنت أسخر من يوسف ..

وسألتها وأنا أشعر بالغيرة :

- أنتِ حبيتي يوسف صحيح ، قالت وفي عينيها نظرة جادة حزينة :
- طبعا حبيته

- ولسه بتحبيه ..
- طبعا لأ ..
- ليه طبعا .. دى ..

قالت في ضيق :

- زى ما يكون حلم .. باقول لنفسى ده موش حقيقى .. ماحصلش .. وإن كان حصل يبقى من زمان قوى ..

وسألتني في اهتمام :

- موش كده .. موش كان حلم ..

قلت في حسرة :

- انتِ لسه بتحبيه ..

فأجابت في هدوء غريب :

- والله أبدا .. خلاص ..

ثم قالت بصوت شارد :

- أصل هوه ما بقاش هوه ..

قلت مؤمنا على كلامها :

- ده صحيح ..

فأردفت قائلة :

- وأنا كمان ما بقيتش أنا .. أنا اتغيرت خالص ..

وسألتها :

- وعملتي إيه في الغيبة الطويلة دى .. كنتِ فين .. ورحتى فين .. وحبيتى مين ..

قالت في برود :

- لا كنت .. ولا رحت .. ولا حبيت ..

لم أصدقها ، وسألتها في وقاحة :

- وأنور ..

رفعت إليّ عينين خاليتين من أي تعبير ، وهمست :

- ماله ..
- ما كنتيش بتشوفيه ..

قالت بسرعة كأنها تطلق رصاصة :

- لأ ..
- أبدا ..
- أبدا ..
- ولا مرة واحدة ..
- ولا نص مرة ..
- أمال كنتِ بتعملى إيه ..
- قاعدة حاطه ايدى على خدى ..
- وما سألتيش عنى ليه ..
- ح أسأل ليه ..

قلت فى غيظ ..

- طيب سألتى عنى دلوقتى ليه .

أطرقت برأسها وقالت فى وجوم وكأنها تخاطب نفسها :

- فكرت فيك ..
- وإيه المناسبة ؟
- قالت فى لهجة غامضة :
- علشان انت زى بابا ..

أزعجتنى إجابتها وقلت ساخراً :

- متشكر ..

قالت فجأة :

- وعلشان كده بحبك ..

لم افهم ماذا تعنيه بالضبط .. فاقتربت منها ، وقبلتها ، فلم تعترض ..

وظلت تردد فى سذاجة :

- بحبك .. بحبك قوى ..

وبغير مناسبة تقول :

- انت زى بابا ..

حتى بعد أن أصبحت العلاقة بيننا ليست علاقة أب ببنت ..

وسافرت إلى أوروبا عدة مرات ، وكانت تبكى قبل سفرى .. وتبكى من الفرح عند عودتى إليها محملاً بالهدايا ، ولم أكن أفكر فيها أثناء غيابى ، كنت أنساها بمجرد ارتفاع الطائرة فى سماء مطار القاهرة .. ثم أذكرها فى لحظات خاطفة ، وأنا اشترى لها الهدايا .. ولكنى عندما أعود إلى القاهرة ، لا أجد سواها ألجأ إليه .. أحس بالاختناق لا أطيق دخول مبنى الجريدة ورؤية يوسف .. لا أتحمل الأنباء التى أسمعها كل يوم ، تواجهنى عيون الرثاء ، وعيون الشماتة فى كل مكان أذهب إليه .. الجميع ينافقون ويكذبون .. ويتهربون منى إذا سمعوا أنى مغضوب علىّ ، ويبتسمون فى وجهى إذا رأوا أنى مازلت أكتب .. ولكنهم جميعا كانوا يعرفون أن يوسف هو كل شىء .. وأنه هو الذى يحركنى ويحمينى ..

كان إما أن أشرب زجاجة ويسكى كل يوم حتى أسكر وأغيب عن وعى ، أو أدخن الحشيش وأدمن عليه ، أو أعيش مع سامية كل ليلة نتقابل فى شقتى بشارع ماسبيرو ، ونشرب النبيذ المعتق والشمبانيا الفاخرة ، ونتبادل وهم الحب ..

بعد شهور ، فوجئت بأنها حامل ..

قلت لها :

- اتخلصى منه ..

قالت فى برود :

- لأ ..
- ما تبقيش مجنونة ..
- مالكش دعوه .. ده ابنى ..
- ح تقولى جايباه منين ..
- ماتخافش .. موش ح أجيب سيرتك ..

- أهلك ح يدبحوكي ..

قالت هازئة :

- أهلي مين .. مالهمش دعوة بيه ..
- يعني عايزه تفضحي نفسك .

قالت في هدوء قاتل :

- أنا موش ح أموت ابني .. أنا محتاجة لواحد يحبني .. وأحبه .

غضبت منها ، وطردتها ، فذهبت ولم تعد .. بعد أسبوع كنت أبحث عنها .. وسألتها :

- هيه .. اتخلصتي منه ..
- لا ..

كدت أجن .. وكنت قد شعرت خلال غيابها عني ، بوحدتي ، وأدركت أني هربت من إدمان الويسكي والحشيش ، لأدمن سامية ..

وتزوجتها وهي حامل في الشهر الثالث ..

- ميتر .. واحد دراي مارتيني .

هاهي قادمة .. إنها لا تراني .. شريف ينظر حوله في دهشة .. أنا هنا .. انظري إلى هذه الناحية .. آه .. رأتني .. تشير إلى شريف ناحيتي .. الولد يبتسم .. يفتح ذراعيه .. ويجري نحوي .. أهلا حبيبي ..

- اتأخرت ..
- لا ياحبيبتي .. في ميعادك بالظبط .. لكن وحشتيني ..
- شريف عمل فصل في لا فييت .. دخل بين رجلين واحدة ست ، ووقف يضحك .. الست ماتت على روحها من الضحك .. وقالت لي يامدام .. خدي بالك من ابنك .. أنا ماعنديش مانع أبقى عشيقة .
- الولد طالع شقي ..
- زي أبوه ..

إنها جميلة .. ترى هل يأتي اليوم الذي تتخذ فيه عشيقا لها .. وتخونني .. إني خائف .. لو كانت تمرض .. يصيبها شلل في قدميها يعجزها

عن الحركة .. تموت قبل أن يفتر حبها لي .. ما هذا الذي أقوله .. إني أهذي ..

- الولد وشه احمر ليه ..
- مش كتير .
- تعال هنا ياحبيبي .. الولد سخن ..
- ازاي ..

إنها فزعة .. صدقت الكذبة ..

- يالله نرجع اللوكاندة .. نتغدى هناك ..
- نجيب له دكتور ..
- إذا ما تحسنتش صحته .. نشوف الدكتور ..
- لا .. لازم نجيب الدكتور دلوقت ..
- حاضر ياحبيبتي .. حالا نجيب الدكتور ..

أنا أعرف نقطة الضعف عندك .. كلما رأيتك جميلة .. كلما رأيتك مرحة .. تتألقين بالحياة والشباب .. سأضربك في نقطة ضعفك .. سأهددك بابنك .. سامحيني .. اعذريني .. أنا أفعل هذا لأني أحبك .

لست نادما لأني أفزعتها ، لقد اضطررت إلى الزواج منها من أجل شريف .. وأنا مضطر إلى الاحتفاظ بها عن طريق شريف .. هي التي أرشدتني إلى أسلوب معاملتها ..

رغم كل شيء ، ها نحن ندخل كازينو دي باري ، لم نحتمل الجلوس وجها لوجه في جناحنا بالفندق ، عندما نكون وحدنا ، أحس أني في مأزق ، يجب أن أقول شيئا مسليا أو يجب أن أفعل شيئا حارا مثيرا .. كانت تريد البقاء بجوار شريف ، وكان نائما .. ارتدت قميص النوم واستلقت على السرير في ملل .. صممت على المجيء إلى هنا ..

- هو ده تياترو ..
- أيوه ياحبيبتي ..
- غريبة .. كنت فاكره كباريه زي الليدو ..

- هل ذكرها المسرح بالتمثيل .. إنها منذ أن تزوجنا لا تتحدث أبداً عن الممثلين ..
- محمد .. واحد بيندهلك ..
- فين ..
- اهه جاي ناحيتك .. يابن عليه مصرى ..

شكرى محمود ، أطول لسان فى العالم ، ما الذى جاء به إلى هنا فلأتقدم نحوه ، قبل أن يلحق بى ، لا أريد أن أقدم ساميه له ..

- خليكى هنا .. أنا ح أزوغ منه فى دقيقة ..
- أهلا ناجى بيه ..
- بونسوار ياشكرى ..
- والله كنت لسه بأفكر فيك .. كنا فى الكافيه دى لابيه .. مع شلة من إخواننا .. إيه ده يا ناجى بيه .. الأيام باظت .. سايبين يوسف يكتب كلام فارغ .. كله نفاق .. حرام .. والله حرام .

ماذا أقول له .. لا شيء سوى أن أهز رأسى وأبتسم ..

- أنا موش فاهم ساكتين على يوسف إزاى .. أنت عرفت حكاية ريرى ..
- لا ..
- إزاى ياناجى بيه .. دى اشاعة بتطبل فى البلد ..

واحدة من إياهم .. واحد صاحبنا حلف أنه دفع لها فى ليلة جنيه .. سكرت .. وقعدت تحكى له .. أن يوسف يبقى ابن جوزها ..

ريرى .. أهى مبروكة .. ربنا ينتقم من يوسف بطريقته ..

- ياشيخ ما تصدقش الكلام ده .. كل الصنف ده بيخترع حكايات عن أصله وفصله .. اللى بنت باشا .. واللى أخت وزير .. واللى خالها أمير ..
- لكن الحكاية دى صحيح .. أنا متأكد منها ..

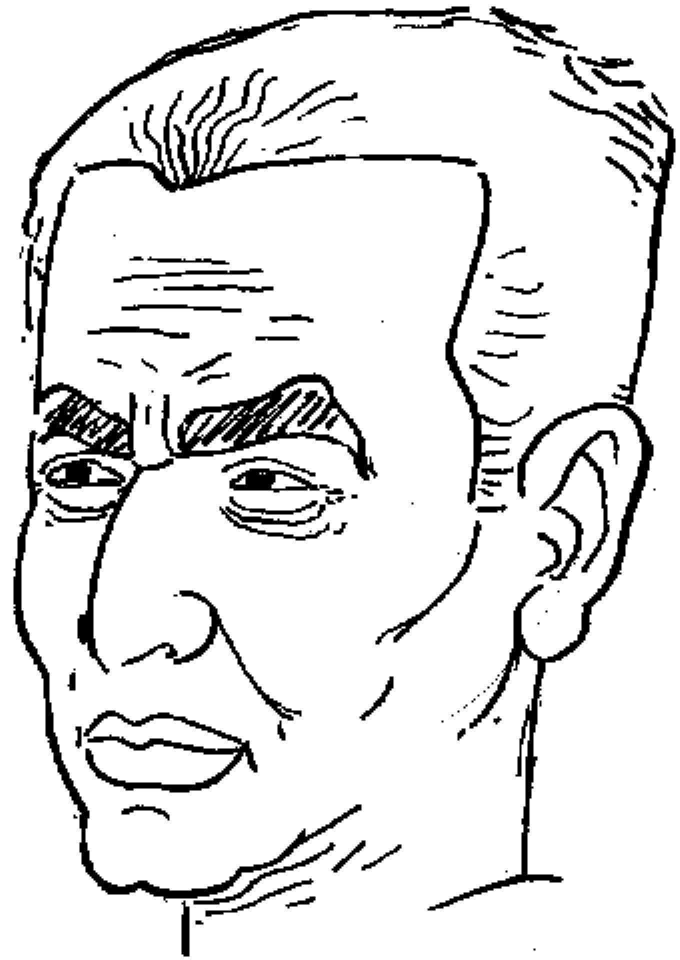
أنا أعرف أحسن منك .. نعم انها حكاية حقيقية ..

- غريبة .. متأكد إزاى ..
- كل الناس عارفه ..

- يمكن ..

إذا كانت الإشاعة انتشرت ، فلماذا لا انتهز الفرصة ..

آه .. هناك أكثر من طريقة لاستغلال مبروكة .. ريرى .. للقضاء على سمعة يوسف ..



الفصـــل الثـــانى

كم الساعة الآن ..

أخشى أن أضيء الحجرة فتستيقظ سامية .. نائمة ملء جفونها .. ملء شبابها .. ستستيقظ فى الصباح نشيطة مرحة ، وسـأكون أنـا مكدوداً محطماً ، الأقراص المنومة لم يعد لها تأثير .

هل أوقظها وأقول لها إني مريض ..

- سامية .

لا تسمعنى ، نومها ثقيل ، نوم بنت فى العشرين ، حيوية وصحة ونوم ورغبة .. وأنا لا شيء .. جفاف .. أرق ..

كم الساعة الآن ، أنا محبوس فى الظلام .. ما هذا ..؟ ما هذه الأصوات التى فى الشارع .. طلقات رصاص .. صوت صراخ بعيد ..

ماذا يحدث فى الشانزليزيه ..

الساعة الثانية والنصف صباحاً ، النور لم يوقظ سامية ، ولا صوت الرصاص والصراخ ، يجب أن أعرف ما حدث ، أهبط إلى تحت ، ولكنى سأصاب ببرد ..

ولكنى صحفى ..

سأكتب أنى شاهدت الحادث بنفسى ، سيكون المقال مثيراً ، رصاص فى الشانزليزيه فى الساعات الأولى من الصباح .. جريمة ..

- ألو .. ألو .. بيير .. ما الذى حدث فى الشارع .. سمعت طلقات رصاص .
- أوه . حادث فظيع ياسيدى .
- ما الذى حدث ..
- لحظة ياسيدى .. إن مادلين مغمى عليها ..
- ماذا .

صوت بيير متهدج ، ترك سماعة التليفون قبل أن يرد علىّ ، لابد أن اهبط ، لست عجوزاً إلى هذا الحد .. لم تنته أيامى بعد ، مازلت أستطيع أن أتابع الحوادث ، أريد أن ترانى سامية وأنا اعمل ، وأنا أحقق جريمة مثيرة فى باريس .. أريد أن أشعرها بشبابى ، وبالمجهود الذى أبذله ، إنها صغيرة ، تبهرها المغامرات .

كدت أفرغ من ارتداء ملابسى وهى لا تتحرك ، سأفتح الدولاب وأغلقه بقوة مرة أخرى ... ها هى تلتفت إلىّ ، تفرك عينيها فى دهشة ..
- إيه يامحمد .
- ماتتخضيش ياحبيبتى .

عيناها مفتوحتان فى غباء ..
- لابس ليه ..
- نازل ..
- هيه الساعة كام دلوقت ..

جلست على السرير .. تنبهت إلى أن النهار لم يأت بعد .. خائفة .. فزعة .. هذا ما كانت أريده .. سأتكلم فى هدوء ، سأبدو وكأنى غير مكترث ..
- ولا حاجة ياحبيبتى .. كان فيه ضرب رصاص فى الشارع من شوية ..
- رصاص .. ونازل ..

إنها تصرخ ..
- لازم أعرف إيه اللى حصل ..

- وأنت مالك ..

سأتجاهلها ..
- محمد ماتنزلش ..

نهضت من السرير تهجم علىّ ..
- يبقى فيه رصاص وتنزل ..
- ماتزعقيش ياحبيبتى .. شريف يصحى ..
- لكن أنت موش نازل .. فاهم ..

لابد أن أتصرف فى حزم .
- اسمعى .. ده شغلى .. وأنا متعود عليه .. أنا شفت أحمد ماهر وهو بيضرب بالرصاص .. كنت واقف جنبه .. كان ممكن رصاصة تيجى فىّ .. لكن شغلتنا كده ..
- أنت مش صحفى صغير ..
- شغلتنا مافيش فيها صغير ولا كبير .. اللى بيعمله ولد عنده عشرين سنة أعمله أنا .. لازم أشوف اللى حصل .. أنا نازل ..
- محمد ..

صوتها فاجع ، وجهها يتعذب ، أنفاسها تائهة ..
- أنا راجع بسرعة ..
- محمد ..

أغلقت الباب فى حدة ، أخشى أن تلحق بى وهى عارية فى قميصها الشفاف .. لا أظن أنها تفعل .. لن تنام بقية الليل .. قلقت .. سيطر عليها الفزع ..

فى الصباح لن تكون نشيطة ولا مرحة ..

البهو مليء بالحسناوات اللاتى يقفن أمام باب كلاريدج طوال الليل .. بيير ، والحسناوات يلتفون حول مادلين ، بدأت تفيق .. ينظرون إلىّ فى وجوم ..
- أوه مسيو ناجى .. لماذا هبطت .. أسف لازعاجك ..

- ماذا حدث يا بيير ..

مادلين ترتجف ، بيير ينقل عينيه بيني وبينها ، لا أحد يريد أن يتكلم ، أنا لا أجرؤ على إلقاء السؤال من جديد ، شيء خطير حدث ..

عينا مادلين تتسعان ، تحرك شفتيها ..

- قتلوه .. قتلوه أمامي .. كان يسير على الرصيف .. واضعاً يديه في جيوبه .. يصفر .. « لاڤ أن روز » .. فجأة جاءوا .. القذرين .. البوليس .. « ميرد » .. سلطوا عليه الأنوار الكاشفة .. فزع .. جرى خطوتين .. أوه .. القذرين .

سكتت مادلين ، والتفتت ناحية شارل ، والتفتنا جميعاً إليه ، كان قادماً من الخارج ، لاهثا ، مسرعا ، ولكنه يقترب منا في بطء شديد .. جرى ناحيتنا في سنوات ، تكلم كأنه يهذي ..

- أخذوا الجثة معهم .. كانوا يظنون أنه جزائري ..
- وهل هو جزائري ..
- لا .. مسيو ناجي .. إنه فرنسي .

خسارة ، كان حادثاً خطيراً فأصبح حادثاً طريفاً ..

شقراء تصرخ في شارل :

- هذه جريمة ..

شارل يجيبها ساخراً :

- هل نبلغ البوليس ..

وجه الشقراء يفيض بالشراسة ، صوتها أجش ، يعوي ، كذئب جائع .. سأقتل أول واحد أراه منهم .. أريد أن أخرج لأرى مكان الحادث ، لعلي أرى بقعة دم على الرصيف ، ولكن معطفي ليس معي ، سأصاب ببرد ، من يدري ، قد يأتي البوليس ويطلق رصاصة أخرى علي .. الحسناوات ينظرن إليّ كثيراً ما تبادلوا النظرات معي وأنا عائد مع سامية بعد السهرة .. ملابسهن أنيقة ، العطر يفوح منهن ، والعرق .. ينظرن إليّ نظرة تأنيب .. نظرة معناها لماذا جئت بزوجتك معك أيها الغريب ، لو كنت وحدك لقضينا

سهرة معا ، ولأخذنا منك بضعة آلاف من الفرنكات .. هل يمكنك أن تتخلص من زوجتك الشرقية ولو ليلة واحدة .. تخلص منها .. ولك خصم عشرة في المائة .

كانت سامية تسألني دول واقفين قدام الباب بيعملوا إيه ..

- يعني مش عارفة .

فتبتسم وتقول :

- أظن لو كنت هنا لوحدك .. كان زمانك طالع كل ليلة مع واحدة ..
- أعوذ بالله .. ملقتيش غير الأشكال دي ..
- مالهم .. شقر .. وعيون زرق .. وآخر شياكة ..
- عمري ما عملتها ..
- محمد ..
- عمري مادفعت لواحدة مليم .. أنتِ عارفة أني ماحبش الحاجات الرخيصة .

إحداهن تتقدم مني وهي تضحك ..

- مسيو .. وحيد الليلة ..
- لا .. زوجتي تنتظرني فوق ..
- عندي سيارة .. نستطيع أن نذهب إلى مكان آخر ..
- ليلة أخرى ..
- عشرة آلاف فرنك ..
- ليلة أخرى ..
- من يدري أن هناك ليلة أخرى .. هذا المكان أصبح خطراً .. الرصاص في الشانزليزيه .. لم يعد هناك مكان للحب ..
- لا تخاف .. أنتِ جميلة .. وستعيشين ألف سنة ..
- ولماذا أعيش ألف سنة .. لأقف كل يوم أمام باب كلاريدج .. أهمس في أذن كل رجل .. مسيو : هل تدعوني للعشاء .. مسيو : هل تريد أن تحبني .. فينظرون إليّ أو لا ينظرون ويبتسمون أو لا يبتسمون .. ويأتي الفجر ولا أحد

يجيء .. أوريفوار ياسيدي .. إذا غيرت رأيك فأنا واقفة عند الباب .. إما أن تأتي .. أو تأتي رصاصة ..

هذه المرأة تذكرني بنفسي .. هل أريد أن أعيش الف سنة ، أنتظر كل يوم مصيبة بعد مصيبة .. إما أن يأتي الرصاص إلى مصر ويقضي على أعدائي .. وإما أن أنتظر .. هي تنتظر عند باب كلاريدج .. وأنا أنتظر في حجرة في كلاريدج ..

الرصاص .. الرصاص ..

- بيير .. هل أزعجك .. وأطلب زجاجة افيان ..
- سأحضرها في الحال ياسيدي .. هنا أم في حجرتك ..
- هنا .. سأجلس هنا ..
- آسف مرة أخرى ياسيدي .. إن هذا لا يحدث في باريس كل يوم ..

إنه ينظر إليّ منتظراً تعقيباً على كلامه .. لن أقول شيئاً

- حسن ياسيدي .. سأذهب وأحضر زجاجة افيان ..

الرصاص .. الرصاص ..

البهو الفرعوني .. البرلمان في القاهرة .. أيام الحرب .. أحمد ماهر يخترق المكان بجسمه المربع ووجهه السمين الصريح وعينيه الذكيتين .. المحامي يتقدم منه شاحب الوجه غريب النظرات .. أحمد ماهر يبتسم ويمد يده مرحباً .. طلقات رصاص .. الجسد يترنح ، اليد الممتدة تنكمش نحو القلب ، الوجه السمين الصريح يتقلص .. الجسد المربع يهوى إلى الأرض ..

سبق صحفي .. رأيت المشهد بعيني .. غداً يرتفع التوزيع .. شهدي باشا تخلص من خصم يطارده ويعطل مناقصاته .. رئيس وزراء جديد .. مناورات سياسية جديدة .. اتصالات جديدة .. لابد أن أعمل بسرعة ..

قبل أن أكتب حرفاً واحداً كنت عند شهدي باشا أروى له ما حدث .

- إيه رأيك ياباشا ..
- رأيي إيه .. وبتاع إيه . البلد بقت فوضى .. ده جنون .. لعب عيال ..

قلت في برود :

موش ده المهم .. نكتب الخبر إزاي .. أنت عمرك ما حبيت أحمد ماهر ..

صاح لدهشتي :

مافيش يامحمد حب ولا كره دلوقت .. إحنا كلنا في خطر .. شوية العيال دول ح يخربوا البلد لو سكتنا لهم .. اقلب الدنيا .. هيج الرأي العام ضد الإرهاب .. طالب بحبس كل ولد عصبجي مشبوه .. بلاش ياأخي تعليم ولا هباب .. إذا كان كل واحد يتعلم ح يطلع في دماغه انه زعيم سياسي ..

كان ثائراً وخائفاً .. إحدى اللحظات القليلة في حياته التي فقد فيها أعصابه .. منظره ممتع وجديد .

- ياباشا أنا عايز رأيك وأنت هادي .. بعد ما نفكر في الموقف من جميع النواحي ..

قال غاضباً :

- أنا عارف كويس اللي بأقوله .. معندناش وقت للمناورات .. دي حاجة أكبر منا كلنا .. ييجي أي واحد الحكم .. صاحبي والا عدوي .. بس يخلصنا من الولاد المجرمين دول .. البلد بقت وسخة .. مليانة واغش .. شيوعية على إخوان مسلمين على اشتراكية .. على وطنية .. على هباب أزرق .. صعاليك فلاحين معندهمش حاجة يخافوا عليها ح يخسروا إيه .. إحنا اللي ح نخسر كل حاجة ..
- زجاجة افيان .. مسيو ..
- مرسي بيير ..

أشرب هذا الإفيان ، وأصعد إليها ، لعلها تبكي الآن .. هذا أفضل من أن تستريح وتنشط وتتخيل نفسها في شهر عسل .. لست شاباً حتى أستطيع أن ألبي رغباتها كل ليلة ..

لو كانت تمرض .. أو يستولى عليها القلق فتصاب ببرود ..

لن أحتمل الفشل معها .. لو فشلت فلن أطيق نفسي .. لو فشلت فلأني عجوز .. حقن البوجوملتز لم تفد .. والبراندرين .. والهرمونات .. وغدد القرود والثيران .. البروفسير جوفيه في زيورخ ..

- ياسيدى .. أنا لا أستطيع أكثر من أن أحتفظ لك بما تملكه الآن .. أما إعادة الشباب ..

وابتسمت عينا البروفسير فى خبث وقال :

- من يدرى .. ربما وصلنا إلى شىء فى السنوات القليلة القادمة .

عندما فشلت مع ثريا ، كان ذلك شيئاً آخر .. كنت وقتها خائفاً من حضور شهدى باشا فى أية لحظة .. فيضبطنا متلبسين ..

كانت ثريا سكرانة ، وكنت سكران .. شربنا ماذا .. زجاجة جن بالكوكاكولا .. المنظر كان ساحراً .. نيران متقدة فى كتل خشبية منصوبة على الرمال ، ألسنة اللهب الحمراء تمزق الليل ، وتعكس ضوءها على رمال الشاطىء ، وعلى أمواج الباسفيك ..

كانت أيام ..

قال لى شهدى باشا :

- ثريا عايزة تستنى فى هوليوود خد بالك منها .. أنا رايح واشنطن يومين ، وبعد كده مينيا بوليس .. وح ابعتلكم يانتقابل فى نيويورك ، يانتقابل فى سانت لويس ..

ونحن نودعه فى المطار ، حدث عطل فى الطائرة أخرها حتى الثامنة مساء ..

أثناء عودتنا قالت ثريا :

- أنا موش مطمئنة للطيارة ..

- بالعكس .. دى كشفوا عليها وصلحوها ..

ضحكت وقالت :

- مرة فى جنيف ودعت الباشا على أنه خلاص مسافر .. وشفت الطيارة بتختفى فى السماء .. رجعت البيت .. بعد شوية لقيته داخل .

بعد قليل كانت تسألنى :

- ح توديني فين الليلة دى ..

- أنا تحت أمرك ..

قالت ضاحكة ..

- رحت فين إمبارح ..

- كنت معزوم فى بيت واحد اتعرفت بيه ..

- واحد والا واحدة .. أنا عايزاك توديني مكان من بتوعك .. اللى عرفته من صاحباتك الأمريكانيات ..

لم يكن هناك مجال لأن أتظاهر أمامها بالتقى والورع ..

قلت :

- حاضر ..

ذهبنا إلى بار « مينونى » على الشاطىء ، وكانت الرمال والنيران والمحيط والموج الأبيض والظلام داخل البار والجن بالكوكاكولا ..

- أنا عايزاك تحكى حكايتك مع دلال ..

كلهن سواء ، يسمعن عن حبنا ، فينتابهن الفضول ، وتسرح كل واحدة مع خيالها ، وتتمنى لو تكون دلال ، حرة مثلها ، مجنونة مثلها .

حكيت لها عن دلال .. أنا أجيد هذه الحكاية .. إنها تبهر أى امرأة تسمعها ، وتشعلها غيرة ، حتى تقول لنفسها ما الذى فى دلال أحسن منى ..

فلأثبت لهذا المجنون بدلال .. أنى أحسن منها .. أجمل منها ..

- لكن إزاى بتحبها وتخونها ..

- عمرى ما خنتها ..

- ياكذاب .. أمال إيه اللى بتعمله هنا ..

- بانساها ..

كنت أتكلم فى غير اكتراث ، معتزاً بنفسى ، سعيداً بمحاولاتها معى ، حتى خرجت من دور الكلام إلى دور استعمال الأيدى .. تضع يدها على يدى .. على كتفى .. على شعرى ..

خرجنا من البار ، وقد جنت النار على الشاطىء ، وكنت أقود السيارة ، فالتصقت بى .. أحطتها بذراعى ،

فقبلتني في خدي .. وفي مصعد الفندق همست :

- ح تيجي عندي ..
- بعد خمس دقائق ..

كانت تنتظرني في السرير ، ما كدت أخطو خطوة واحدة داخل الحجرة ، حتى تذكرت شهدي باشا وعطل الطائرة .. إنها صدفة ولكنها قد تحدث ، هي روت لي بنفسها ، إن هذا حدث مرة .. أليس هذا إنذاراً من الله .. تقدمت نحوها وقبلتها ، والهواجس تتضخم في رأسي .. وحاولت .. وحاولت .. ولكني فشلت .. أي صوت كان يفزعني .. صوت سيارة .. صوت باب .. صوت أتوهم أني أسمعه ..

دفعتني بيدها غاضبة ، حاولت أن أعتذر .. فقالت في حقد بالفرنسية .

- أنت تعودت على الساقطات ..

تركتها وعدت إلى حجرتي ، لم تمض دقائق حتى دق التليفون ..

نمت ..

- لا ..
- أنت كنت خائف .
- أيوه ..
- طيب أنا جاي عندك ..

ثريا الجمال التركي .. الجمال البارد .. امتلأت بالغضون ، ووجهها مكرمش ، ومازلت أغازلها .. لعلها تغازل يوسف الآن .. من يدري .. امرأة في الخمسين .. وشاب رئيس تحرير الأيام في الثلاثين .. لا أظن أن يوسف يقبل .. إن له طريقته الخاصة في الوصول .. أنه أبرع مني بكثير .. أنا الماهر .. الشاطر .. انتهت مدرستي .. لم يعد لها سوق .. يوم أصبحت مدام شهدي باشا عشيقتي .. كنت أظن أني سيد العالم ..

- ثريا أنا عايز الباشا يحضر الحفلة بتاعتي الليلة دي .. ضروري ييجي ..
- حاضر ياحبيبي ..
- ثريا .. الباشا موش مهتم بالجرنال .. كلميه .. عايزك تشتميني .. قوليله

ما فيش حاجة بتقريها .. قوليله عايزة ريبورتاجات من الخارج ..

- ولما يتخانق معاك ..
- أنا عايزه يتخانق .. عايزه يهتم .. ويدفع قرشين ..
- ثريا المطبعة بقت قديمة ..
- ثريا .. الورق موش كويس .

كانت خطة بارعة .. هنأت نفسي عليها ، وفرحت ثريا بها .. كانت تشعر بأهميتها من خلالي .. وتثبت لي ولنفسها قدرتها في التأثير عليّ ..

كيف أثر يوسف على شهدي .. هذا هو ما يحيرني .. أنا أستاذ الوصول .. أستاذ تخطي العقبات .. كيف يغلبني هذا الولد الضعيف ..

- مسيو ناجي .. التليفون ..
- من
- المدام ..
- قل لها إني صاعد حالاً .. صاعد .. صاعد .. أقصى ما أستطيع الصعود إليه هي حجرتي في الطابق الخامس .. لا صعود غير هذا .. أنا هابط .. هابط .. هابط ..

سألتني ثريا :

- انت اتجننت يامحمد .. إزاي تتجوز كومبارس ..
- أعمل إيه ..
- ياه ده محمد ناجي اللي مايعجبوش العجب .. آخرة العمر يبهدل نفسه مع كومبارس ..
- ما هي آخرة العمر .. ما فيش باقي حاجة ..

سأفتح الباب ، لأراها تبكي .. ليتني خرجت إلى تلك المرأة الواقفة عند الباب .. عشرة آلاف فرنك .. لو أعطتني ابتسامة .. لمنحتها عشرين ألف فرنك ..

- إيه يامحمد .. إزاي تسيبني لوحدي مخضوضة عليك ..
- تتخضي ليه بس .. أديني رجعت ..

- أنا قعدت أعيط ..
- وبعدين معاكى ..
- خفت عليك .. نازل بعد نص الليل .. ورصاص فى الشارع .. إيه اللى حصل ..
- البوليس قتل واحد ..
- ليه ..
- افتكروه جزايرى ..
- يقوموا يقتلوه ..
- حبيبتى .. أنا تعبان عايز انام ..

ها هى الحجرة تعود إلى ظلامها .. أنا حبيس هذا الظلام .. لا نوم .. لا شيء .. غداً ساكتب عن الحادث .. لا .. يجب ان اكتب اولاً لحمدى ..

عزيزى حمدى .. هل تذكر المرأة التى كلفتك بالسؤال عنها ، مبروكة زوجة أبو يوسف ، أريد منك أن تبحث عنها وتقابلها ، علمت هنا فى باريس أن اسمها ريرى .. اذهب وأعطها كل النقود التى تطلبها وحرضها على رفع قضية فى المحاكم تطالب بنفقة من يوسف .. أنت فاهم ماذا أعنى ..

هل أطمئن لحمدى .. كان مخلصاً لى ، ينفذ كل طلباتى ، لعله تغير هو الآخر .. هل أجازف وأكتب له .. وأنا متعب .. أريد أن انام ..

عزيزى حمدى .. « عزيزى حمدى » لا .. من الخطر أن اكتب له .. يحسن أن أؤجل التفكير إلى الصباح اريد ان اهدا وانام ..

عزيزى حمدى .. اذهب لمبروكة .. اجعلها تنتقم من يوسف .. هذه هى فرصتها .. وفرصتى .. كيف لم تفكر حتى الآن فى الانتقام .. إنها جاهلة .. ربما خائفة .. فى حاجة إلى تشجيع .. قضية ترفعها على يوسف تفضحه .. البلد كلها تتكلم عن صلتها بيوسف .. القصة مثيرة - ستهدم يوسف .. ستهدمه ..

عزيزى حمدى .. أريد أن انام ..

الفصل الثالث

- أنا رايح اقابل كرم بك ..
- انت موش قلت ح تقعد جنبى .

صدقت أنها مريضة ، وجهها شاحب ، الصداع يدق فى رأسها ، هى وشريف مريضان ، نظرات المرض تمنحنى الصحة والعافية ..

- حاولى تنامى ياحبيبتى ..
- مش قادرة ..
- لازم اقابل أكرم .. مسافر بكرة مصر .. فيه حاجة مهمة ح نتكلم فيها ..
- إيه الحكاية دى .. انت موش قلت عايز تبعد عن المصريين ..
- معلهش ياحبيبتى .. ده شغل ..
- شغل إيه يامحمد ..
- بعدين تعرفى ..

نظراتها يملأها الشك ..

- أنا ح البس وأخرج معاك ..
- انتِ اتجننتى .. والصداع اللى عندك ..
- ح آخذ كمان أسبرينه ..
- لا .. ده يضعف القلب .. ولو جيتى معايا موش ح نعرف نتكلم .

إنها حائرة ..

- أنتم ح تتكلموا فى إيه .. إيه الأسرار اللى بينك وبين اكرم .. لازم تقول لى ..

صوتها ملهوف ، لابد أن أثور ، وافاجئها بشىء خطير ..

- بصراحة ح نتكلم فى السياسة .. احنا ح نفضل ساكتين لامتى .. دى فرصتنا علشان نتخلص من العيشة الهباب اللى احنا فيها .. الأخبار كلها بتأكد أن الإنجليز والفرنساويين ح يحاربوا .. جمعية المنتفعين ح تبعت مركب ووراها حملة عسكرية فى القنال .. تفتكرى ح اقعد واحط ايدى على خدى لحد مايبجوا يسلمونا بلدنا .. لازم نشتغل احنا كمان .. انا لسه مامتش .. انا لسه عايش .. اقدر اضرب .. اقدر اثبت انى موجود .. شوفى الجواب ده .. فيه ناس مستنيين فى مصر .. اكرم ح يسلمهولهم .. انا عملت اتصالاتى .. يوم مايبتدى الغزو ، ح يبقى لنا دور .. انا فى معركة .
- يامحمد لازم تاخد بالك ..

وجهها أصفر .. وجه ميت قتله الفزع ..

- ماتحوليش توقفينى .. ياتقفى جنبى .. ياتسكتى .. انتِ ما اتجوزتيش راجل عادى .. انا غرقان لشوشتى فى سياسة البلد ، وانا فاهم كويس اللى باعمله .. موش ح اقعد اتفسح فى باريس ، وانا شايف المصايب اللى نازله فوق بلدى ..
- انا موش مطمئنة ..
- خلى الكلام ده لنفسك .. تصبحى على خير ..

فى عينيها استسلام وإعجاب وخوف .. آه لو علمت ما فى الخطاب .. محاولة جبانة لإقناع مبروكة برفع قضية على يوسف والقضاء على سمعته .. هذا كل ما استطعت أن أفعله .. لا مؤامرة .. ولا اجتماعات خطيرة .. موعد مع اكرم فى كريزى هورس .. أشهر حانات باريس للعرايا .. سأحارب من كريزى هورس .. سأقود الإنقلاب وأنا أتفرج على الستربتيز .. أنت مضحك يامحمد .. لم تعد محمد ناجى القديم .. لا سياسة ولا مناورات .. لا أحد

يسأل عنك .. لماذا لا تفعل ماتفكر فيه .. لماذا لا تحاول الاتصال بالفرنسيين ..

او اسافر إلى انجلترا .. وأقابل أصدقائى فى مجلس العموم .. لابد أن اتحرك .. اصنع شيئا .

- تاكسى .. كريزى هورس من فضلك ..

لماذا ركبت التاكسى .. إن الحانة على بعد خطوات .. سيظن السائق أنى اجهل باريس .. لن اتركه يخدعنى .. ولكنه يسير فى الطريق الصحيح .

- كريزى هورس مسيو ..

محمد ناجى يقضى لياليه فى حانات باريس ، نهاية مؤسفة ، لو أعود إلى كلاريدج فأجد برقية من القاهرة تقول : « عد فوراً نحن فى حاجة إليك » .. أهبط من الطائرة فأجد عربة تنتظرنى وتسرع بى إلى القصر الجمهورى ..

- احنا محتاجين لمقالاتك يا أستاذ ناجى .. مافيش حد يقدر يرفع الروح المعنوية غيرك .. أنا عايزك تكتب كل يوم مقال .. البلد بتمر بمرحلة حرجة .. وكل كلمة منك ح يكون لها أثرها ..
- حاضر يا افندم .. انا جندى فى خدمتك ..
- بكره عايز اقرالك ..
- إن شاء الله .. بس يا افندم فى حاجة صغيرة .. وضعى ح يكون إيه فى الجورنال ..
- أعمل اللى أنت عايزه ..

سأطرد يوسف ..

لن أسمح له بدخول الجريدة .. كيف أسمح له بالبقاء والشائعات تلوثه .. فى اجتماع المحررين أدافع عن يوسف ..

- والله ياجماعة يوسف ولد طيب .. أنتم عارفين مافيش حد بيحبه زيى .. أنا كنت باعتبره ابنى وتلميذى .. وسبت له مكانى .. إنما الظروف المؤسفة هى اللى اضطرتنا لإبعاده مؤقتا .. البلد بتمر بأزمة خطيرة .. واحنا محتاجين لأقلام يثق فيها الجمهور .. وأنا شخصيا واثق فى يوسف وفى وطنيته .. لكن ما

اقدرش اشرح لكل واحد يشترى الجرنال أن يوسف مظلوم فى الشائعات اللى حواليه ..

ربما ذكرت اسم ريرى .. سيضحكون ، وسألومهم ..

– الضحك اللى باسمعه ده سخيف .. مالوش معنى .. ده موقف نأسف عليه كلنا ..

– إيه يامحمد بك .. أنت موش شايفنى .. عمال أشاورلك من ساعة مادخلت ..

– ازيك ياأكرم .. متأسف ماخدتش بالى ..

– انا حاجز لك ترابيزة قدام .. اتفضل ..

ابتسامته صفراء .. عيناه لزجتان .. يجب أن أتحمله حتى يأخذ معه الخطاب .. المكان مزدحم .. موسيقى صاخبة .. السقف واطى .. كلهم سواح .. أكتاف ألمانية .. شمطاوات أمريكية .. ستار المسرح مازال مسدلا ..

– ح تشوف من هنا كويس .. تشرب إيه يامحمد .. انا باشرب ويسكى ..

– اشرب معاك ..

الحيوان .. ينادينى يامحمد .. كأننا أصدقاء .. لا تكليف بيننا .. أريد أن أبصق فى وجهه ..

– خلاص مسافر بكرة ..

– أيوه .. الطيارة تقوم الضهر .

– ماكنت تستنى لحد الدوشه ماتخلص ..

– فلوسى خلصت .. تفتكر فيه حرب يامحمد ..

– مؤكد ..

– ربنا يستر .. وأنت راجع امتى ..

– انا عندى شغل ..

لو أعود إلى الفندق فأجد تلك البرقية .. أوهام .. لا احد يذكرنى .. الانوار تطفأ .. الموسيقى تعزف لحنا مجنونا .. الستار يرتفع عن ظلام دامس ..

شعاع نور يتسلل إلى المسرح .. شقراء راقدة على سرير .. فى قميص نوم .. جميلة حقا .. أجمل من سامية .. تتلوى .. تتثاءب .. الدنيا حر .. الموسيقى ساخنة .. تخلع القميص .. عندما تشفى سامية سأسهر معها هنا .. لو رأت هذه البنات العاريات لشعرت بالخجل من نفسها .. لن تتباهى بجسدها .. ستغار .. ستعرف معنى الإغراء الحقيقى .. ستتهم نفسها قبل أن تتهمنى .. غدا سأقنعها بأنها شفيت ..

ولكنى مجنون .. لا حدود لجنونى .. إنى أقتل بالجملة .. إنى أقتل شريف .. وأقتل سامية .. لو يعلم أكرم ماذا يدور فى رأسى .. إنه يظن أنه يجلس إلى جانب محمد ناجى الذى كان يعرفه فى القاهرة .. محمد ناجى .. الأنيق .. الارستقراطى .. الذى يتفاخر بالجلوس معه أى إنسان .. الحيوان ينادينى .. يامحمد .. هذه البنت السمراء التى تخلع السوتيان .. إنها أجمل من بقية البنات .. الموسيقى تزأر .. صوت قطار .. العجائز ينظرن فى نهم أكثر من الرجال .. أكرم يتنفس بصوت مسموع .. عندما ينتهى المشهد سأعطيه الخطاب ..

– حلوة دى ياأكرم ..

– آه .. تهوس ..

– تيجى نعزمها ..

– انا تحت أمرك ..

– نروح عندك ..

– أوى ..

– تبقى تكلم المدام .. وتقولها احنا اشتغلنا للصبح ..

ستصدقه سامية .. إنها ساذجة .. ستتصور أننا جلسنا نتآمر وندبر الخطط حتى الصباح ..

– إيه رأيك فى دى يامحمد ..

– موش زى التانية ..

– لكن برضه حلوة .. هه ..

- نجيبها كمان ..
- أنا كل اللى معايا ستين ألف فرنك .. مستعد أشطب عليهم ..
- ماتخافش .. معايا فلوس .
- لأن .. أنا حالف أرجع مصر .. وجيوبى منفضة ..

اسدل الستار ولا احد يصفق .. الجميع ينظرون امامهم فى وجوم .

- موش ملاحظ ياأكرم ماحدش بيسقف ..
- مكسوفين ..
- جرسون .. اتنين ويسكي دوبل .. صودا من فضلك .. أنا معايا جواب عايزك تاخذه معاك ..
- مقالة ..
- لا .. جواب خصوصي من راجل غلبان .. كان بعتلى وبارد عليه .. لكن أرجوك تهتم وترمى الجواب فى البوستة أول ماتوصل .. أنا بأهتم بالرد على الناس دول .. علشان مايفتكروش أنى باتكبر عليهم .

إنه يضع الخطاب فى جيبه .. بعد غد يتسلم حمدى الخطاب .. وسيذهب إلى مبروكة .. لا أحب هذه الاسكتشات الفكاهية ، إنها تضييع للوقت ، لقد جئنا للعرايا .. هذا الممثل البدين ثقيل الدم .. حمدى شاطر .. عندما كلفته بالبحث عن مبروكة عثر عليها فى يومين ..

- إيه أخبارك ياحمدى ..
- الكلام اللى سعادتك قلته طلع صحيح .. وموش صحيح .. يوسف أبوه اتجوز خدامة .. ده صحيح .. واسمها مبروكه .. كانت بتشتغل فى بيتهم فى شارع الفلكى .. وبعدين اتجوزت الراجل العجوز وخلفت منه ولد .. بعد شوية مات .. عزلت على بوابة المتولى .. حاولت تتصل بيوسف .. وجت لحد هنا .. كان يزوغ منها .. حكت لعبد الستار أفندى فى الاستعلامات .. أن الولد اللى معاها أخو يوسف .. نزل وقابلها مرة .. وبعدين كلمه .. وقال له لو رجعت تانى أطردها ..

ومرة تانية طردها عم رشوان .

- وبعدين ..
- تعرف سعادتك هيه عايشة مع مين دلوقت .

كانت عيناه متسعتين لفرحة الانتصار ..

- مع واحد رسام هنا ..
- مين ..
- شوقى محمود ..

هذا منظر بذىء .. أعوذ بالله .. لا يمكننى أن أحضر سامية هنا .. أنا راجل محافظ قبل كل شىء .. الأفضل أن تظل مريضة .. لا داعى للعب بالنار كأنى أريد أن أمهد لها الطريق لتخوننى .. يجب أن تظل مريضة .. سأقتلها بوهم المرض .. سأنتقم من كل لحظة عاشتها مع يوسف .. كانت تحبه .. رغم أنها تعرف قصة مبروكة .. هى التى نبهتنى ..

- موش عرفت حكاية غريبة عن الراجل اللى عندك ..
- راجل مين ..
- اللى موش حرامى ..
- قصدك مين ..
- يوسف ..

كنت أثق فى يوسف .. لا أتصور أن سيسرقنى يوما ما .. سيسرق حياتى .. عندما علمت حكاية مبروكة أشفقت عليه .. وفرحت به .. ظننت أنه ضعيف .. مجروح .. زوجه أبيه عشيقة زميل له .. وهو لا يقوى على فعل شىء .. جبان .. ذليل .. أستطيع أن أفعل به ما أشاء .. يصلح لأن يكون خادما لى .. يمكننى أن أسيطر عليه .. أستغل ضعفه .. كلما فكرت فى مصيبته قلت لنفسى هذا هو الرجل الذى يجعله يكبر دون أن أخشاه .. هذا هو الذى سيظل ذليلاً إلى الأبد .. لن يرفع عينيه .. تبنيته .. لعبة أصنعها وأحركها كما أشاء .. مخلوق حقير يستمد سلطانه منى .. كنت مغفلاً .

- اكلم الجرسون يامحمد ..
- علشان .. إيه ..

- تشوف حكاية البنات دول ..
- أنت عايزهم ..
- ده اقتراحك ..
- والله أنا متردد ..
- خلاص .. بلاش ..

نعم أنا متردد .. هذا هو عيبي فقدت قدرتي على اتخاذ قرار .. لماذا لا أتخلص من هذا العيب ..

يجب أن أفعل شيئا حاسما .. ماذا .. لاشيء ..

عندما قررت أن أصنع يوسف لم أتردد ..

- يوسف .. أنا عايز أعرفك بشهدي باشا .. الجرنال ده بتاعك .. وأنت زي ابني .. أنا باعتبرك واحد من المسئولين .. ولازم صلتك بشهدي باشا تبقى كويسة .

استمع إليّ في خجل .. ولامني شهدي باشا ..

- إيه الولد اللي أنت باعتهولي .
- ده ولد طيب وغلبان ياباشا .
- تفتكر ينفع ..

بكرة تشوف ياباشا ..

بعد نشر الحديث ، قال .

- والله الحديث طلع موش بطال .. كام واحد كلمني عنه .. هوه اسمه إيه الشاب ده ..
- يوسف ..

ظننت اني كسبت عوناً جديدا لي ، أواجه به شهدي باشا ..

- الويسكي تعبني يا اكرم ..
- ده صنف كويس ..
- موش قادر .. أنا قايم ..

- إنه تمرة مدهشة .. رقصة الثعبان ..
- معلهش .. خليك أنت .. أبقى سلملي على مصر .. ماتنساش الجواب ..

أنا مريض .. أنا المريض الحقيقي .. لا يشفيني إلا العودة إلى سامية .. أراها هي وشريف ينظران إليّ بعيون المرض ، فأستعيد صحتي وعافيتي ..

الهواء بارد ، ولكني سأمشي .. لعلي أصاب ببرد وأموت .. لعل سيارة تدهسني .. لا فائدة هذا عذاب مستمر .. لا يهدأ أبدا .. الموت هو راحتي الوحيدة .. صدقت دلال ..

- وبعدين يادلال .. موش تهدى شوية ياحبيبتي ..
- يعني إيه أهدى .. أنا ح اهدى لما أموت .. وح أشبع هدوء .. ح أسيب الدنيا وأنا موش نادمة على شيء ..

أنا سأترك الدنيا يادلال وأنا نادم على كل شيء .. الموت لن يريحني .. قبل أن أموت .. يجب أن أقضي على يوسف .. أنا خائف .. ستعود سامية إليه .. ستتركني وحيداً ستأخذ معها شريف وتعيش معه .. إنها تحبه .. مازالت تحبه .. أنا لا أحبها يادلال .. لم أحب أحدا غيرك ..

- حاجة واحدة بس اللي عايزاك تعملها لي .. تأخد بالك من توني .. لو مت يامحمد ابقى خد بالك من توني ..
- وأنا مين ياخد باله مني ..
- أنت نصاب ..

هه .. نصاب .. نصاب يسير في الشانزليزيه بعد منتصف الليل .. نصف سكران .. نصف ميت .. نصف مجنون .. نصف قاتل .. نصف مغفل ..

لا .. لست مغفلاً .. لقد حاولت منذ البداية .. شعرت أن يوسف سيكون مصدر خطر عليّ ، قبل أن يصبح خطرا .. وشرعت أسلحتي .. واجهته بما أعرفه عن مبروكة لأذله ..

- ياابني فيه حكاية سخيفة عايز أكلمك فيها .. الموظفين بتتكلم .. الست اللي بتيجي الجرنال .. وشايله على كتفها عيل بتقول إنه أخوك .. قاطعني في خجل .. ولكنه خجل غريب .. خجل جريء ..

- أيوه .. دى مراة أبويا .. قلت فى وقاحة ..
- أنا عارف كل حاجة .. عارف أنها مع شوقى ..
- أيوه ..

منظره ضعيف .يكاد يتهاوى .. ولكنه لا يتهاوى .. يرفع عينيه فى عينى ..

- ابويا اتجوزها .. اتخانقت معاه وسبت لهم البيت .. لكن أنا ما بأنكرش صلتها بيه .. وإن ابنها اخويا .. موش مكسوف .. لو تحب أفوت على كل واحد فى الجرنال اقول له مستعد .. فيه باشاوات اتجوزوا خدامين .. أنا ح أعمل إيه .. موش ذنبى ..

يجب أن أوجه إليه الضربة القاضية ..

- لكن علاقتها بشوقى ..
- هيه حرة ..
- أنا موش فاهمك .. إزاى تسكت ..
- أنا مالى ومالها .. هيه فى حالها وأنا فى حالى ..
- اسمع يابنى .. أنا زى والدك وبانصحك .. مايصحش تبقى محرر كبير فى الجرنال والناس حواليك عارفين أن شوقى على علاقة بامرأة ابوك .. أنا ح أرفد شوقى ، أطرق برأسه .. وسكت ..
- وعايزك أنت اللى ترفده .. علشان يشعر كل واحد هنا بمركزك ..
- ما أقدرش ..

قالها وكأنه يطلق رصاصة على نفسه ..

- أنت موش ح تقول له أنا بأرفدك عشان علاقتك بامرأة أبويا .. الولد ده سمعت انه شيوعى .. قول له بتوع المباحث اتكلموا .. ونبهونا لخطورته .. وارفده .

لم اكن اعنى ما يقول .. رفد شوقى أم لم يرفده .. المهم هو أن يعرف أنى أعرف .. رغم ذلك لم يتحطم .. لم يتذلل .. عاش بضعفه .. انتصر بضعفه .. ضعفه إلهى ..

الضعف غلب القوة .. السذاجة غلبت المكر .. ما سر هذا .. لأنه شاب وأنا عجوز .. أهو حكم القدر أن يأخذ الشاب مكان العجائز .. ولكن ليس بهذا الأسلوب .. ليس كما فعل يوسف معى .. إنه شىء خارق .. ملاك .. شيطان .. ساحر .. أسطورة .. لن أهدأ حتى أعرف سر يوسف .. كيف غلبنى .. كيف غلبنى ..

ها هى واقفة أمام باب كلاريدج .

- اوه .. مسيو وحيد هذه الليلة أيضا ..
- لا أحد يسأل عنى ..
- مستحيل .. أنا صديقتك هذه الليلة ..
- هذه الليلة فقط ..
- كل الليالى إذا شئت ..

يجب أن أتخذ قرارا ، أنا لم أمت .. مازلت محمد ناجى .. سأدعوها إلى حساء البصل فى الهال .. سأقضى معها الليل كله .. سامية تعرف انى مشغول فى عمل خطير .. عندما أعود إليها فى الصباح ستكون على يقين انى كنت أعد للانقلاب ..

- مارأيك فى حساء البصل فى الهال ..
- أوه .. بكل سرور مسيو ..

إنها تجذبنى من ذراعى .. لا تصدق إنى رضيت ..

- لحظة واحدة ..
- هل عدل مسيو عن دعوتى
- لا .. ولكن انتظر برقية ..

سأسأل عنها ..

أنا مجنون .. أيه برقية انتظرها .. لو استدعونى فلن أعود .. بمجرد أن أهبط من الطائرة سيقبضون علىّ .. وسأعيش فى سجن تنهال عليه القنابل .. هل أصعد لسامية .. أنا مريض .. ما الذى ورطنى مع هذه المرأة .. إنها رخيصة .. عشرة آلاف فرنك .. محمد ناجى لا يصطاد قطط الرصيف ..

ليست هذه نهاية محمد ناجى ..

- بيير .. ها عندك رسائل لى ..
- لا مسيو ..
- ولا برقيات ..
- لا .. مسيو ..

لا .. لا .. طبعا لا .. الجميع لا يهتمون بى .. حتى سامية .. إنها عشيقة يوسف .. هذه المرأة التى تنتظرنى عند الباب أشرف منها .. زوجتى .. هه مدام ناجى .. الساقطة .. وكم مرة قبلها يوسف .. احتواها بين ذراعيه .. قالت له أحبك .. تركته يعبث بها بغير زواج .. عندما أعود سأدقق فى وجهه .. سأبحث عن ملامح يوسف ..

- مسيو .. وجد البرقية ..
- لا ..
- أكان فيها شيئا هاما ..
- لا أعرف ..
- أوه .. أنت مهموم .. سأجعلك تنسى كل شىء .. تاكسى .. تاكسى ..

الفصـــل الرابـــع

- أعجبك حساء البصل ..
- لذيذ ..
- ولكنك تركت نصفه .. اشربه قبل أن يبرد ..

مسكينه .. إنها جائعة .. سأطلب لها شيئاً آخر تأكله ..

- لا أستطيع .. الويسكي أتعب معدتى .. هل تريدين شيئاً آخر ..
- لا .. مرسى
- ولكن الحساء لا يكفى ..
- أوه .. إنه يكفينى .. أين شربت الويسكى ..
- فى كريزي هورس ..
- أنت ولد شقى .. لم اكن أعرف أنك تحب رؤية الفتيات العاريات ..
- ابتسامتها حلوة ، إنها رقيقة صوتها حنون ، جميلة .. الآن فقط بدأت أشعر بالراحة .. بعيداً عن سامية .. بعيداً عن مصر .. بعيداً عن كل شىء .. الآن فقط أنا فى باريس ..
- أوه .. مسيو يبتسم .. أخيراً رأيتك تبتسم ..
- لأنك معى ..
- تشعر بالسعادة ..
- أنت سعادتى ..
- أنت لطيف .. ماأسمك ..

- ناجى .. وأنت ..
- جابى ..
- جابى .. انت حلوة وصغيرة ..
- اوه .. انت أصغر منى بكثير ..
- لا داعى لهذا الكلام .. لست خجلاً من سنى الكبير ..
- أنا لا أكذب .. قلبك أصغر من قلبى ..
- انت لا تعرفين قلبى ..
- أعرفه .. أعرفه .. القلوب الصغيرة تذهب إلى كريزي هورس .. هل أعترف لك بشىء ..
- ماذا ؟ ..
- لقد تراهنت مع صديقاتى أنك رجل مهم .. الست مهماً .. إنها مسلية .. ترى ماذا رسمت ف خيالها عنى .. ..
- ما رأيك انت ..
- مهراجا .. أو .. باشا .. أليس كذلك ..
- شىء قريب من هذا ..
- الفرح ينتشر ف وجهها ..
- أكبر من باشا
- ف رأيى .. نعم ..
- إذن فأنت أمير ..
- لا ..
- ملك سابق ..
- لا .. أنا كاتب .. أكبر كاتب ف الشرق ..

عيناها تتسعان من الدهشة ، إنهم ف هذا البلد يحترمون الكتاب .. صوتها يرتجف من الانفعال ..

- هذا شرف كبير لى ياسيدى ..
- صدقينى ..أنا الذى تشرفت بك ..

- اوه .. إنى لا أصدق نفسى .. ستحسدنى صديقاتى عندما أروى لهن .. هل ستكتب عنى ..
- ربما ..
- ماذا ستكتب عن جابى ..
- ملكة باريس ..
- لن يصدقك أحد ..
- ما أكتبه يصدقه الجميع ..
- هل تأخذنى معك إلى بلادك .. إنى على استعداد لأن أفعل أي شيء .. فقط .. خذنى معك .. هذه هى فرصتى .. أنا لا أقابل كل يوم رجلاً عظيماً مثلك ..
- سأخذك معى ..
- صحيح ..
- إنها ف قمة سعادتها وانفعالها .. لماذا لا أخذها معى .. سأفعل أى شيء .. سأحبها .. سأتزوجها .. سأصنع منها أعظم مانيكان ف مصر .. أعظم ممثلة .. سأرفعها .. أنا قدار على ذلك ..
- سأفعل لك كل ما تطلبين .. هجمت علىّ تقبلنى ، والدموع ف عينيها ، لابد أن اتمالك نفسى حتى لا تطفر الدموع من عينى .
- ادفع الحساب .. هيا نذهب .
- إلى أين ..
- عندى ياحبيبى .. عندك اقتراح آخر .
- أنا تحت أمرك ..
- ياطفلى الشقى ..

ليكن ما يكون ، سأذهب معها أينما تذهب .. لابد أن أفعل شيئاً وإلا جننت ، أنا لم أفقد القدرة على الحركة ، لست محبوساً ، سأتحرر .. انتهت تلك الأيام التعيسة التى قضيتها ف السجن .. سجن عمرى .. سجن الماضى الذى ذهب .. سأقتحم المستقبل .. ستكون لى أفعال ومغامرات .. لو غضبت

سامية ساطلقها .. لن يقف فى طريقى شىء ..

أين يمضى بنا التاكسى فى هذه الطرقات المريبة ..

- أين نحن ..
- سان ميشيل ..
- بيتك هنا ..
- سنصله بعد قليل ..

جسدها البض يملأنى رغبة ، جمالها ينمو فى عينى ، إنها ليست امرأة عادية ، إنها شىء باهر .. أميرة .. كونتيسه .. لو لم تكن .. فسأجعلها أميرة .. كونتيسه ..

الشارع مهجور ، والبيت عتيق أسود .. السلم معتم .. السلم طويل .. أين انا .. أهذه مصيدة .. كمين .. ما الذى سيأخذونه منى ؟ حياتى ، لو أخذوها فسيعطوننى شيئاً .. انا اقوى رجل فى العالم .. لا أحد يستطيع أن يأخذ منى شيئاً .. ميتة سريعة هنا هى خير نهاية لى ..

- انتظر .. حتى أفتح الباب ..

هذا السرير الكبير فى الحجرة الضيقة ، هذه الرائحة النفاذة .. رائحة خشب عفن .. ما الذى جاء بى إلى هنا ، فى أيام الماضى لم أكن اذهب إلى أحد ، لم أخلع ملابسى فى بيت غريب لا أعرفه ، لم أنم على سرير غريب .. كانوا يأتون إلىّ .. كان بيتى هو مملكتى ، هو مركز سلطانى ، لم أذهب إلى مملكة أحد .. إلى بيت أحد .. كنت أعاملهم كضيوف ، وفى الموعد المحدد ينتهى كل شىء ، ويذهب .. يخرجن متعبات .. النوم فى عيونهن ، الخمر فى رءوسهن يتمايلن ذليلات مرهقات لاأدرى كيف يخرجن .. كيف يعرفن طريقهن .. لم يكن يهمنى هذا .. كنت أرقبهن وأنا أجلس فى بيتى أتمطى وأتثاءب وأستريح ..

- عندى زجاجة بورتو .. سنشربها معاً ..
- ترى ما الذى سيحدث فى اللحظة القادمة ..
- فى بيتى .. أعرف من فى الحجرات الأخرى .. الخدم .. تونى .. أعرف

من قد يدخل علىّ .. أعرف .. أعرف .. الآن .. أنا لا أعرف شيئاً .. البورتو لذيذ ، لا أريد أن أعرف شيئاً ..

- آه .. كل هذا الجمال .. لم أر مثله فى كريزي هورس .. كل هذا الجمال لى .. وحدى .. لا أحد يعلم .. استطعت أخيراً أن أحصل على شىء .. ماهو أمامى .. ملك عينى .. ملك يدى .. ملك أنفاسى ..

جسدها الأبيض يعمينى .. أنفاسى لاهثة .. أين الهواء .. أختنق .. لا .. سأستطيع .. تنتظر إلىّ فى دهشة .. اصبرى .. العرق يتصبب من جسدى .. انا اغرق فى بحار العرق ..

- ماذا بك ياحبيبى ..

- لا شىء ..
- آه .. ياطفلى المسكين .. انتظر ..
- قفزت إلى أين ..
- ما هذا ..
- بيجـــاما ..

- بيجاما حريرية .. كم رجل ارتداها قبل ..
- العرق يتصبب منك .. ارتديها حتى لا تصاب ببرد ..

جسدها الأبيض يملأ الغرفة كالمـارد .. يتحدانى .. إنهـا تقترب .. تلمسنى .. تقبلنى .. لا فائدة .. سأموت .. يارب .. ربى لا تخذلنى .. فى عينيها خيبة أمل ..

- انت متعب ياحبيبى ..

ماذا أقول ..

- نـــم ..
- لا أريد أن أنام ..
- نم .. ساطفىء النور ، سأوقظك فى الصباح ..

- لا اريد أن انام .. لا اريد أن افتح عيني على الصباح ..
- نــم ..

وهل استيقظت حتى انام .. انا متعب .. ايام الماضي كنت اتحمل التعب وكان عندي المكان الذى أستريح فيه .. الآن .. التعب يهاجمني في كل لحظة من حياتي ولا أجد المكان الذى أستريح فيه .. انا مطارد .. في الخارج يبحثون عني ..

- أوه .. لماذا لم تنم

لا تتكلمي .. بادليني القبلات اشعلي النار في هذا الجسد الميت .. لابد أن تشعلي فيه النار .. جسدها الابيض يتلوى .. يتعذب .. ليته يتمزق .. غمامة في عيني .. قلبي يخفق خفقات غير عادية .. خفقات قاتلة .. يدق .. بوم .. بوم .. قلبي ينفجر .. عبد الرءوف مات بنفس هذه الطريقة .. وجدوا جسده العاري في الجرسونيرة .. لابد أن أهدأ .. لا فائدة .. لا فائدة ..

- لا ترهق نفسك ياطفلي .. إني معك إلى الابد .. حاول ان تنام ..

في الماضي كانت قواي لا تخونني .. كنت واثقاً من نفسي .. انظر في عيونهن بكبرياء ، لهجتي ناعمة .. مؤدبة .. آمرة .. أعصاب من حديد .. اعصاب مقامر .. كم خسرت في القمار دون أن يهتز لي رمش .. آه .. كان عقلي كالآلة الحاسبة .. لا عواطف .. لاخيال .. لا ضعف .. كل شيء مرسوم مدروس .. أندفع وأحقق ما اريد .. أشوفك الساعة خامسة .. أشوفك بعد بكرة .. أشوفك الساعة اتنين بالليل .. انا الذى أحدد الموعد والمكان .. عيونهن تنخفض في نشوة .. صوتهن يهمس في نشوة .. أرقبهن في غرور .. كانت لي اسنان وأنفاس وجسد .. كنت اغمرهن بالعواطف .. اغمر كل الناس بالعواطف .ما أكثر العواطف التى اغدقت بها على الناس .. عواطف أخرجها من جيبي .. من محفظتي .. من ثنايا ملابسي .. من بين أصابع يدى كالحاوى .. ولكنى لا أخرج العواطف أبداً من قلبي .. ومع ذلك كانوا يصدقون حبي .. يصدقون انفعالاتي .. انت يامحمد قلبك كبير .. محمد ده راجل شهم .. محمد رقيق وحساس .. محمد عاطفي .. البلهاء الاغبياء ..

يصدقون اي شيء .. لم أحب احداً .. لم أصادق احداً .. خدعتهم جميعاً .. ما اسهل خداعهم .. يوسف .. انت مستقبلك يابني في إيدك موش في ايد حد تاني .. اسمع نصيحتي بكرة .. تبقى راجل عظيم .. انا عايزك ماتفكرش في حاجة غير مستقبلك .. البنت دي موش بتاعت جواز .. أنت اتجننت عايز تتجوز واحدة ماشية مع نص البلد .. ماتعرفش حكايتها مع أنور سامي .. انور حكى لي بالتفصيل .. صرخ

- أنا موش مصدق الكلام ده ..
- ماتبقاش عبيط ..
- أنا بأحبها .. مشيت مع أنور .. مشيت مع البلد كلها بأحبها .. وح أتجوزها ..
- ماقدرش اقول أكتر من كده .. بس أنا محرج .. لازم أقولك إني كنت أعرفها قبلك .. ما حصلش بينا حاجة .. بس موش بسببها .. بسببي أنا .. قلت لها أنا موش عيل صغير قدها .. أنا خايف يايوسف تكون بتجري وراك علشان تغيظني أنا .. دمعت عيناه .. وأطرق رأسه وخرج ..

كنت مصمماً على الحصول عليها .. بأي وسيلة .. بالسفالة .. بالكذب .. بالغش .. سأحصل عليها ..

غيرت سياستي .. رسمت خطة جديدة .. ستكون بيني وبين سامية صلة سرية يجهلها يوسف .. سأتظاهر بأني صديقها .. وأني انصحها من أجل مستقبل يوسف .. سامية .. اقدر أعتمد عليكي .. ارجوكي أولاً تنسي كل اللي فات .. صحيح أنا كنت بأغازلك .. لكن ده موش ذنبي .. دلوقت خلاص .. أنتِ بتحبي يوسف .. ويوسف بيحبك .. وأنا بأكلمك في حاجة لمصلحته .. بس توعديني إنك ماتقوليلوش إني كلمتك .. اسمعي ياسامية .. يوسف بيعرض نفسه لحاجات خطر عليه . لازم تنقذيه بسرعة .. اسمعي .. انا رايي تيجي الشقة أحسن .. ح استناكي الساعة خامسة بعد الضهر ..

لم تأت .. وفي المساء جاء يوسف يتشاجر معي .. الكلب الوفي ينبح في وجهي .. أحد أصابع قدمي يتحداني . كيف أخطأت الحساب .. أكانت هذه

الغلطة التافهة هي بداية النهاية .. تحالف يوسف مع شهدى باشا ضدى ..
إلى أين وصلت .. وصلت إلى هذا السرير الكبير في هذه الحجرة الضيقة ..
أرتدى بيجامة حريرية تغطي صدرى العجوز وبطنى المترهلة .. جسد حائر عاجز .. لا فائدة منه ساقان ضعيفتان .. طريتان .. عقل زائغ مشتت ..

لو لم أكن محمد ناجي ..

لو لم أكن ذلك الرجل العظيم .. فاتن النساء .. معبود القراء .. لو لم أكن ..

منذ خمس سنوات .. خمس سنوات فقط .. كنت أدير الطاحونة الكبيرة .. أطحن الناس .. أسحقهم .. أعجنهم في الحبر والورق .. كنت خباز البشر .. صانعهم .. الخبز الجيد من صنعي .. الخبز المحروق من صنعي .. هيه سقطت من مكاني .. أصبحت مثل بقية الناس .. أرتدى نفس البيجاما التي يرتدونها .. ممدد بلا حراك .. تطحنني الطاحونة .

يوسف هناك يدير الطاحونة .

كنت أقول لنفسي المغفلين وحدهم هم الذين تتناوبهم الهموم .. وكنت أطرد الهموم .. أي هموم .. حتى هموم صبايا « امي » أمي اسمها نفيسة .. هذا الجسد العارى النائم بجوارى اسمه جابى .. نفيسة .. جابى .. باب الشعرية .. باريس .. آه .. ما أعجب هذه الطاحونة التي تدور .. عربات الرش نجرى وراءها وذيل الجلابية في أسناننا .. عم زكى يصطاد القطط والغربان ويأكلهم .. مخزن الكارو في الحوش بجوارنا .. البنت سنية وأنا في الحوش .. العريس والعروسة .. امه ادينى مليم .. لم أنادها في حياتي ماما .. لو سمعت ماما لما فهمت .. لو فهمت لصفعتني على وجهي .. صالح .. ونج شمال .. كنت أخاف منه .. انتهزت فرصة وقوعه على الأرض وضربته بحجر .. مزق حاجبه .. صرخ والدم يسيل على عينيه .. رأيت الدم .. ضربته بالحجر في الجرح .. صرخ .. والدم ينسكب على البلاط .. ضربته في عينه لافقأها .. وجريت .. جاءني في مكتبي بجريدة الأيام .. ذليلاً .. خائفاً ..

يريد مساعدتي لأوظف ابنه .. كنت مازلت أشعر بالكراهية نحوه .. استقبلته لأذله ..

- حاضر ياصالح .. ح أعمل كل جهدى ..
- البركة فيك ياسعادة البيه .حاول عبثاً أن يرانى بعد ذلك .. أين هم الآن .. أمه في القبر .. أبوه في القبر .. سنية راقدة في غرفة مكدسة بالأولاد والأحفاد .. صالح يرتفع شخيره في انتظار الصباح ليذهب إلى المقهى ويقرأ جريدة الأيام .. محمد ناجي ده صاحبي .. أعرفه من زمان .. لا أحد يصدقه .. وأنا هنا على هذا السرير .. في هذه الحجرة الضيقة .. قبر .. قبر من نوع جديد .. عندما أموت سيكتبون الخبر في سطر أو سطرين .. مات الكلب . مات محمد ناجي ..
- خد بالك من نونى يامحمد .. ماذا فعلت بذلك الكلب .. لا أظن أنها صدقت لحظة واحدة أنى سأعتنى به .. إنها دلال .. الوحيدة في هذا العالم التي عرفتني على حقيقتي ..
- بتحبيني يادلال ؟
- احنا ح نضحك على بعض ..
- أنا عمرى ما اهتميت إنى أحب أو اتحب .. لكن انتِ يادلال .. عايز حبك ..

قالت في برود :

- عايز أقول لك باحبك .. طيب .. باحبك ..

نظرت إليها متوسلاً .. فقالت هازئة :

- إيه ياحبيبي .. عايز أقول لك .. بأموت في حبك .. حاضر .. على عيني وراسي .. غالي والطلب رخيص .. بأموت في حبك ..
- دلال ..
- أيوه ياروحي ..
- انت بتعذبيني ليه ..

صرخت :

- أنت اللى بتعذبنى ..

- أنا ..

- عايزنى أكسر قلبى ليه .. علشان واحد زيك .. بذمتك أنت فاكر انك بتحبنى صحيح .. يامحمد عيب .. الكلام ده تقوله لواحدة غيرى .. عيلة صغيرة .. واللا واحدة من الستات المخاليل بتوعك .. أنا دلال يامحمد .. عاجناك وخابزاك .. أنت شخص انانى .. مغرور .. عمرك مافكرت فى غير نفسك .. أنت مدهش يامحمد .. سافل .. لكن معلهش .. أناباحبك بطريقتى .. الحب ده شىء كبير .. الحب الحقيقى موش زى حبنا ..

- وماله حبنا ؟

- يعنى ماانتش عارف .. حبنا حبوب لمنع الحمل .. علشان مانجيبش أولاد .. حبنا ويسكى نبلعه .. زى كده .. أهو ده حبنا .. حبنا سرير منكوش .. هاها .. كل ما افكر فى حبنا .. أفكر فى هدومى معلقة فى الحمام .. والدش مفتوح .. ده أعظم شىء وصل له حبنا ياأكسلانس .. حبنا كلام كدب فى كدب أسمعه واهز راسى .. حبنا أنت نايم وفرقة مزيكة بتلعب فى مناخيرك .. أعوذ بالله .. وأنا نايمه جنبك .. خايفه من نفسى .. عايزة أسيبك وموش قادرة .. عايزة أصلى لربنا وموش قادرة .. مين غيرك يفهمنى .. ومين غيرى يفهمك ..

- انت ...

- محمد .. عيب .. ماتشتمش ..

- طيب ..

- لا .. موش طيب .. انا باقول لك الكلام اللى بتفهمه .. أنا موش موظفة عندك فى الجرنال .. لوكان قلبك أبيض .. لوكان عندك قلب .. لوكنت صحيح راجل كويس وابن ناس .. كنت كلمتك بطريقة تانية .. لكن أنت مين .. أنت أسفل مخلوق عرفته فى حياتى .. وعلشان انا عارفه ده .. أنت بتحبنى ..

أسفل مخلوق .. ولكنى كنت أقوى مخلوق .. الآن .. ذهبت السفالة .. لم أعد أستطيع أن أفعل شيئاً .. لا أستطيع .. لا أستطيع ..

آخر ما فعلت .. كان تونى ..

- ح تعمل إيه فى الكلب يامحمد واحنا مسافرين ؟

- ح أموته ..

- إيه ؟ ..

- ح أموته ..

لم أعد أحتمل وجود ذلك الكلب بعد ، مجىء سامية إلى البيت .. إنه ينظر إلىَّ فينفتح فى رأسى مذياع لا يكف عن الكلام .. يردد كل أغنيات دلال .. وشتائمها .. وجنونها .. وحبها ..

هذا الكلب عرفنى أيام مجدى .. كان يأتى معنا إلى الأسكندرية فى الصيف ، وإلى أسوان فى الشتاء .. كنا نوقظ أحسن أطباء البلد من نومهم لأنه أصيب بوعكة .. كانت أخباره وصوره فى المجلات أهم من أخبار بعض الوزراء .. أنا الذى صنعته .. جاءتنى به دلال بعد ظهر يوم وهى تحمله بين يديها .. كان صغيراً جداً .. أصغر من القطة .. أبيض له عينان حالمتان .. يصوصو .. ويهز ذيله بشراهة .. يلعقه بلسانه ثم يلعق يد دلال .

- نسميه إيه يامحمد ؟

- تونى

- اشمعنى ؟

- اسم ضابط انجليزى صاحبى .. مات فى العلمين ..

- صاحبك مايزعلش ؟

- بالعكس .. كان بيحب الكلاب ..

- أنا كنت عايزة أسميه طرزان ..

- أعوذ بالله .. إيه الاسم السخيف ده ..

- طيب ما تزعلش .. ح اسميه تونى ..

وحملته بين ذراعيها .. وقبلته ..

- تونى .. تنتونى .. تون .. تون ..
- والله عال .. أنا ح أغير من الكلب ..
- ده حبيبى .. هوه اللى ح يفضل لى ..

صدقت .. منذ ماتت وتونى حزين .. أحياناً يرفع عينيه وينظر إلىّ متسائلاً .. وأفهم .. إنه يسألنى .. اين هى .. أين ذهبت .. وأشعر انه الوحيد الذى يفهمنى وافهمه .. أحياناً أتوهم ان روحها تقمصت جسده ..

- ح تموته إزاى يامحمد ؟
- ح اضربه بالرصاص ..
- مين اللى ح يموته ؟
- أنا ..
- اخص عليك .. ما تسيب الحكاية دى للدكتور ..

ولكنها كانت تكتم فرحها .. كانت تتمنى أن اقتل الكلب بيدى .. لانه كلب دلال .. وكنت أريد أن أقتل الكلب بيدى .. لماذا .. لست ادرى .. أريد أن أقضى على هذا الكابوس الذى يطن فى رأسى ..

ما الذى جعل هذا الكلب يعيش بعدها كل هذه السنوات .. لقد مضت أيامه .. الدنيا تغيرت .. البلد ليست هى البلد .. والناس ليسوا هم الناس .. وأنا لست أنا .. ما الذى يبقيه .. اهو شاهد من الماضى على تعاستى .. لا أريد أن أراه ..

سأرحمه .. سأقتله ..

- ح تموته امتى يامحمد ؟
- بكره الصبح ..
- ح يتألم ؟
- طبعاً ..
- شوف بيبص لنا إزاى .. زى مايكون حاسس ..

كان تونى ينصت إلى أسئلة سامية وإجابتى .. كان راقداً على الأرض بجسده الأبيض .. عيناه حالمتان .. الشيخوخة تلهث فى أعضائه ..

- موش ح يعرف انه ح يموت .. إلا ساعة مايموت ..
- محمد .. انا موش قادرة .. حرام ..

لم أتأثر بكلامها .. لم أكن أفكر فى شىء .. كل ماأريده هو أن أمسك بالمسدس .. وأصوب .. وأطلق .. ويخترق الرصاص الجمجمة .. ويصرخ .. ويموت فى الصباح ، قبل الإفطار ، أخرجت المسدس من الدرج براون ست طلقات .. انهم لا يقتلون الكلاب بهذه الطريقة .. ولا بهذا الرصاص .. ولكنى لاأريد استشارة أحد .. لا أريد أن أعرف كيف يقتلون الكلاب .. على الأقل سأقتله كما يقتلون الناس .. وضعت ست رصاصات فى الخزانة .. ووضعت المسدس فى جيبى ..

- ح تموته دلوقت يامحمد ؟
- أيوه ..
- أنا جايه معاك ..

إنها تريد رؤية الدم .. نسيت تأثرها بالأمس .. موش قادرة .. حرام .. نسيت كل هذا .. تريد أن ترانى أقتل .. وأريد أن ترانى أقتل ..

- تونى ..

جاءنى مسرعاً .. يهز ذيله .. ابتعدت عنه .. تحاشيت أن ألمسه .. جسده الأبيض يملأ عينى .. جسده الأبيض كالمارد ينمو أمامى .. لو انتظرت لحظة سأتخاذل ..

- تونى .. تعال هنا ..

جرى ورائى .. إلى الحديقة .. عند باب المطبخ .. وقف منصور الطباخ فاتحاً فمه .. لا يصدق مايراه .. وسليمان كاد يحتج .. عيناه ثائرتان ..

همست :

- الكلب ده .. عيان .. لازم يموت ..

قال سليمان بصوت متحشرج :

- سيبهولى ياسعادة البيه ..
- علشان تبهدله .. يموت فى عزه أحسن ..

رفع توني ساقيه الأماميتين .. ونبح .. ظن أني ألاعبه .. أحس أن هناك شيئاً غير عادي في البيت .. احتفال ما .. قربت فوهة المسدس من رأسه .. فهجم عليه يريد أن يختطفه بفمه .. سحبت يدي مسرعاً .. وصحت :

- توني ..

وقف مستمراً ينظر إليّ في غباء .. كأنه يعتذر لأنه لم يفهم اللعبة ..

هتف منصور :

- عنك ياسعادة البيه .

صحت :

- لا ..

كان جسده الأبيض يملأ عيني .. أكاد أرى شعره الأبيض .. شعرة .. شعرة .. عيناه واسعتان .. حالمتان ، رأسه ترتفع تشق الفضاء ..

صاحت سامية :

- موته بقى ..

ارتجفت يدي .. فزعقت :

- توني ..

انتفض جسده الأبيض .. كأنه بقرة سمينة .. ووقف أمامي بلا حراك .. قربت المسدس .. وأطلقت رصاصة .. دوت الرصاصة .. انفجر ثقب في رأسه .. انبثقت الدماء .. صرخ .. ارتفع في الهواء .. عوى .. وسقط واقفاً .. حاول أن يرفع جسده .. ولكن رأسه انحدرت إلى أسفل .. أطلقت رصاصة .. ارتفع في الهواء .. قفز قفزة صغيرة .. وهوى على الأرض .. سيقانه تتحرك .. يحاول أن ينهض .. إنه لايريد أن يموت .. العجوز .. القذر .. لماذا يقاوم الموت .. لم أقو على اطلاق الرصاص .. هجمت عليه .. أركله بقدمي .. عوى .. فتح عينيه .. عيناه حالمتان .. تتألمان .. تتساءلان في غباء .. ماهي اللعبة التي نلعبها .. ركلت رأسه بحذائي .. سقط على الأرض مازال صدره يعلو ويهبط.. أنفه تزفر الهواء وتستنشقه .. الحياة في جسده تشتد .. تنتفض .. عنقه يتلوى .. ذيله يهتز .. ساقه الأمامية ترتفع .. سيقوم من

جديد .. لو قام سيهجم عليّ .. سيقتلني .. صوبت المسدس ..

- محمد .. كفاية ..

كدت أهجم عليها .. خطر لي أن أطلق الرصاص عليها .. وعلى منصور .. وسليمان .. أطلق الرصاص عليهم جميعاً .. هذا الرصاص لا يقتل .. إنه لعبة .. لا يقتل ..

همست :

- موش راضي يموت ..
- ماخلاص .. عايز إيه أكتر من كده ..
- موش راضي يموت

أصدر أنّة طويلة .. ورفع ساقه الخلفية .. وتلوى .. وكاد يقوم .. ثم سقط من جديد .. إنه لا يموت .. لا يموت .. الدم انتشر على الأرض .. جسده الأبيض يتحول إلى جسد رمادي .. مترب .. جسده المارد ينكمش .. ولكنه يرتعش .. الحياة مازالت تدب فيه .. لو جاءه طبيب فربما شفاه .. يخرج الرصاصتين ويشفيه .. يجب أن يموت ..

- موش راضي يموت ..

سمعت أصواتاً مبهمة ..

- خلاص مات ياسعادة البيه . إنهم يكذبون .. إنه لا يموت .. أرى رعشة خفيفة في جسده .. صدره يعلو .. أذناه تتحركان ..
- مات ؟
- أيوه ياسعادة البيه ..

أهذا هو الموت .. مازلت أراه يرتعش .. ينتفض .. كجسد جابي .. إنها تزفر الهواء وتستنشقه ..

ولكنه مات ..



الفصــــل الخــــامس

- بونچور ..

ما هذا الصوت ، ما هذا الوجه الجميل الذي يطل عليّ ، من هذه المرأة الغريبة ..

أين أنا ..

- بونچور يا صغيري ..

أين سامية ، ما الذي حدث .. هذا السرير .. هذه الحجرة .. آه .. ليلة امس .. لقد جئت إلى هنا .. أي حماقة ارتكبتها .. هذه جابي ، نعم اسمها جابي ، المرأة الرخيصة ، اصطادتني بالأمس وجاءت بي إلى هنا .. يااللبشاعة .. كيف أتخلص من هذه الورطة ..

- بونچور .. كم الساعة الآن ؟

- العاشرة ...

إنها تضحك ، لا شيء على بالها جسمي متعب .. لو يمر هذا اليوم بسلام .. لو يمر هذا اليوم بسلام ..

- تأخـرت ..

- تأخرت على أي شيء يا صغيري

- يجب أن أعود إلى كلاريدج ..

- أوه ....

تأخــرت ..

- أنت خائف منها ..
- نعـــــــم
- آه يا صغيري ، انظر إلى وجهك .. هذا شيء مسل .. وجه طفل لم يذاكر دروسه .. يجب أن تكون شجاعاً .. ماذا ستقول لها ..
- لا أدري ..
- النوم مازال في عينيـك .. لو كنت مكانك لنمت ..
- لا أسـتطيـع ..
- اخترع لها كذبة كبيرة .. ها ... ها ..
- جابـي ..
- ماذا يا صغيري ..
- لا تضحكي ..
- أوه .. أنت خائف حقا ..
- لا تسـخري مني ..
- انا لا أسخر منك .. ولكنك خائف ..
- جابي .. كفى ..
- أضايقك ...
- أنت لا تعلمين لماذا أنا خائف ؟
- لا أصدقك .. كيف يخاف رجل عظيم مثلك ..
- رجل عظيـــم ..
- ألن تأخذني معك إلى بلادك ،
- أنـا ....
- نعم أنت ..
- أقلـت لك هذا ..
- أنسـيت ..
- لا ... لم أنس .. ولكن ..
- ماذا يا حبيبي ..

- كذبت عليـك ..
- كذبـــت ..
- لا أستطيع أن آخذك معي ..
- كنت تسـخر مني ..
- لا .. لم أسخر منك .. فقط .. كذبت ..
- آه .. أنت لا تريدني ...
- جابي .. جابي .. أنت لا تعلمين ..
- أعلم ماذا ..
- ماذا أقول لك .. انا مثلك
- مثلـــي ..
- لا أستطيع أن أعود ..
- إلى زوجتـك ..
- لا أستطيع أن أعود إلى بلادي ..
- كيـف ؟
- وأشك اني أستطيع أن أعود إلى زوجتي ..
- ما السبب .. ؟
- انا مسكين .. رجل مسكين ..
- مسيو ناجي .. اتبكي ..
- نعم أبكـي ..
- لماذا تبكي ..
هذا هو كل ما بقي لي ..
- لأني ســخرت منك .. أنا ..
- لا .. ليس هذا ..
- ارجوك .. لا تبكي يا صغيري .. لا أحتمل رؤيتك تبكي ..
- لم يبق لي شيء .. انا مطرود من بلادي .. من عملي .. لا فائدة مني .. عجوز لا قيمة له ..

- طردوك .. هذا فظيع ..

الدموع تنهمر من عيني .. ماذا جرى .. انى ابكي ، ابكي امامها .. ضاع كل شيء ، تبدد خيالها ذهبت احلامها تجردت امامها من كل شيء .. لم اعد مهراجا ولا باشا .. لست اميراً ولا ملكاً .. لست كاتباً عظيماً .. لست عاشقاً .. لست رجلاً .. فشلت امامها في كل شيء .. بقيت الدموع .. إنها تقبلني ، تمسح بيدها على شعرى ، تدللنى ، تناديني بطفلها الصغير هل أستحق كل هذا ، لماذا لا تتركني انا شيء منفر ، كريه ، عجوز .. الصداع يملأ رأسي ، الضباب الساخن في عيني .. انا مريض ..

- قم يا صغيري .. كفى .. كفى ..

استسلم لها كطفل رضيع تغسل وجهي بماء الكولونيا ، تمشط شعرى .. تخلع البيجاما الحريرية .. اعتذر لك أيتها البيجاما .. هذه اول مرة يرتديك فيها جسد محطم ، خدعتك ، انت تسخرين منى ، تقارنين بين جسدى وأجساد الآخرين ، وأنت أيها السرير .. اعتذر لك لقد شهدت إهانتى .. لا أستطيع أن ارفع عيني وانظر إلى شيء في هذه الحجرة لا أستحق ان أستنشق هواءها ، لا أستحق ان اعيش فيها .. لا فائدة من هذه الملابس التي تساعدني على ارتدائها .. القميص ، رباط العنق ، البنطلون .. هه .. كأنى رجل حقيقي .. انا محموم .. مريض .. كيف أستطيع الخروج من هنا .. ساقاى لا يسعفاننى .. الارض تميد تحت قدمى ..

- جاني ..
- ماذا يا صغيري ..
- انا متعب ..
- لا ..
- سأذهب لاحضار طبيب ..
- مستحيل ..
- ولكنك تشكو ..

- ليس بي شيء .. يجب أن أذهب ..
- واتركك هكذا ..
- الطبيب لن يساعدني ..
- لا تيأس يا صغيري ..

يجب ان أمشي .. أواصل السير بهذا الجسد الذي لا يستطيع الحركة ... احمل جسدى وأذهب .. امضي في طريقي .. إنها طيبة ، لم تعد تسخر مني ، في عينيها شفقة هائلة ، في عينيها حزن صارخ .. ولكن ليس في عينيها حب ..

- اسف لأنى أزعجتك ..
- لا تأسف على شيء يا حبيبي
- اسف لأنى كذبت عليك ..
- لم تكذب عليّ .. أنا التى أخطأت .. ما كان يجب أن اذكرك ..
- لو عرفتنى منذ خمس سنوات .. خمس سنوات فقط ..
- انت حبيبي الآن .. وغداً .. وبعد سنة .. وبعد خمس سنوات ..

- تشفقين عليّ ..
- لا .. احبك ..
- ليتني أصدقك ..
- ليتني أصدق نفسي ..

لابد ان اعطيها نقودها .. اجرها .. عشرة الاف فرنك لا تكفي .. ساعطيها عشرين ايضاً .. لا .. هذا المبلغ لن يعوضها عن تحملها لى .. لن يمحو من ذاكرتها بكائي وذلى ..

- مسيو .. ما هذا ..
- تقبلى هذا المبلغ المتواضع ..
- ثلاثون الف فرنك .. مسيو هذا كثير ..
- هذا قليل جداً ..

- لا .. أنت في حاجة إلى هذه النقود ..
- لابد أن تأخذيها ..
- لن آخذ منك شيئاً ..
- لا تزيدي من تعاستي ..
- ولكني عرفت الآن كل شيء .. أنتِ بعيدة عن بلدك .. في حاجة إلى هذه النقود ..
- أنا في حاجة إلى أن تأخذي مني شيئاً ..
- سآخذ ما اتفقنا عليه .. عشرة آلاف فرنك ..
- جابي .. خذي النقود كلها .
- لا يمكنني أن أفعل هذا .. أنت لا تفهمني .
- وأنتِ لا تفهمينني .. لو كانت هذه هي آخر نقود معي ، فلن يريحني إلا أن أعطيها لك .. .
- مسيو .. كلامك يزعجني ..
- إنه راحتي الوحيدة ..

- أنت تخيفني .. ماذا تريد أن تفعل بنفسك ..
- لماذا تسألين ..
- أخشى أن تكون أفكارك .. أوه .. مستحيل ..
- تخشين أن انتحر ..
- مسيو ..
- لا .. لن أفعل هذا .. خذي النقود ..
- سآخذها .. ولكني سأحتفظ بها .. ربما احتجت لها يوماً ما ..
- هل تسمحين لي أن اقبلك .. لا .. أريد أن اقبل يدك .. أنت .. لا أجد وصفاً لك يا جابي ..
- أنا حزينة من أجلك ..
- هه .. أليس هذا غريباً ..

- ما هو ..
- أنتِ الوحيدة في العالم التي تشعر بالحزن من أجلي .. لا .. لا تنظري إليَّ هكذا .. لن أبكي .. لن أعود إلى البكاء .. أتعرفين .. هذه هي أول مرة أبكي فيها .. أمامك .. أو أمام أي شخص آخر .. أو حتى أمام نفسي .. إنني أعلم الآن ما سأفعله ..
- ماذا ستفعل ..
- هه .. هل قلت لك سأفعل شيئاً ..
- هذا ما تقوله الآن ..
- أخطأت .. لن أفعل شيئاً .. لن أفعل شيئاً على الإطلاق ..
- هل أنت بخير الآن ..
- نعم ... نعم ... أوريفوار ..
- سأذهب معك ..

- لا .. أريد أن أذهب وحدي ..
- واثق أنك تستطيع ..
- جابي .. لا تسيئي الظن بي إلى هذا الحد .. نعم أستطيع أن أعود وحدي ..
- أتعرف ما الذي أفكر فيه ..
- ماذا ..
- سأصلي من أجلك ..
- أنت تصلين ..
- كل يوم أحد ..
- هذا جميل .. أذكريني في صلاتك دائماً ..
- سأفعل ..
- الآن وجدت وصفك الذي كنت أبحث عنه .. أنت قديسة .. قديسة باريس ..

- أوه .. مسيو ..
- صدقيني .. أنت قديستي .. أوريفوار ..
- سأراك أمام باب كلاريدج .. لا تخف لن أزعجك إذا رأيتها معك ..
- جابي ...
- لا تقل شيئاً .. أوريفوار ..
- أوريفوار ..

كيف صعدت هذا السلم بالأمس .. إنني لا أكاد أقوى على الهبوط عليه .. أين شجاعتك يا محمد أين شطارتك ومكرك .. أين ذكاءك يا محمد .. لا تنظر إلى أسفل حتى لا يصيبك الدوار ، تجاهل أنك تهبط ، ارفع رأسك واهبط كأنك صاعد .. شد قامتك ، لا تسأل كم طابق هبطت .. لا تسأل .. صوت بيانو يخرج من هذه الشقة ، أنغام حزينة جنائزية ، البيانو يدق في قلبي يخلعه .. السلم مظلم .. لا .. عيناي مظلمتان .. لا تقف يا محمد .. ألهث .. تأوه .. ولكن حرك قدميك .. هذا الطفل الواقف عند الباب عيناه تشبه عيون القطط .. ينظر إليّ في خبث نظراته خطيرة ، انه يرقب حركاتي ، يسخر مني يعرف أني عجوز .. آه .. ارفع رأسك .. الطفل يسرع ورائي .. يقفز درجات السلم قفزاً .. هبط .. التفت إليّ .. عيناه جادتان ، نعم يابني أنا لا أستطيع أن أهبط مسرعاً مثلك .. أنت أشطر مني ، جرى واختفى .. تشجع يا محمد .. هيا يا بطل .. كلها درجتين وتصل إلى النهاية .. هذا البيانو اللعين ، انه يخنق أنفاسي .. آه ..

هذا عمل مجيد .. هذا عمل مجيد .. استطعت أن أهبط السلم ..

لم يبق أمامي سوى الشارع .. انه ليس شارعاً واحداً .. شوارع كثيرة .. بيني وبين الشانزلزيه عمر طويل ، أجيال ، عندما أصل إلى هناك ، أدخل الكلاريدج ، أدخله في وقار ، لن أخاطب أحد سأركب المصعد وأذهب إلى حجرتي وأرتمي على السرير ، وأمرض .. لن أدع لسامية الفرصة لازعاجي .. لن تجد من يصرخ فيه .. ستجد أمامها كومة محطمة .. جسداً مهشماً .. جثة .. يغازلها الموت .. سأتركها تتكلم وتتكلم وأغمض عيني ، وأصم أذني ..

فلتتكلم كما تشاء .. فلتنشط كما تشاء .. ستعود إليها حيويتها وصحتها .. ستقارن بين شبابها وشيخوختي .. لا يهمني .. لا فائدة من مواصلة هذه اللعبة .. لم أستطع أن أتحداها .. افعل ما تشائين واتركيني أستريح .. فقط أستريح ..

الشارع طول بلا نهاية .. الضوء ساطع يبهر عيني ، الزحام شديد ، الضجة عالية ، ليس هذا عالمي ، إنهم يمرون بي مسرعين ، حركاتي البطيئة تعرقل حركتهم . أكتافهم تضرب كتفي .. عيونهم تنظر إليّ شذرا .. اذهب إلى سريرك ادخل المصحة ، ليس لك مكان هنا بيننا .. لا يمكنني أن أواصل السير .. سأسقط بعد الخطوة القادمة .. الشارع يدور ، والناس يدورون .. تحمل يا محمد .. لا تستسلم هكذا .. لا تسقط على الأرض وسط الناس .. لن تستريح على هذا الأسفلت .. بعد ساعة واحدة ستكون في السرير .. ساعة واحدة .. لقد تحملت كل هذه السنوات .. ما بالك تنهار في الساعة الأخيرة .. سيمر هذا العذاب .. وسنستريح .. سرير مريح في حجرة مريحة ، الستائر مسدلة على النوافذ .. لا شيء يقلقك .. ستحقق أملك .. ستحققه .. ستستريح ..

تحمل يا محمد .. يارب .. يارب لا تخذلني ، أنا لا أضحك عليك يا ربي ، سأذكرك دائماً .. لن أنسى لك جميلك .. ليست هذه ساعة ضيق ألجأ فيها إليك ثم انساك .. أنا عائد إليك .. لا حيلة لي بغيرك .. لا ملجأ لي سواك .. أنا عبدك المسكين .. سأكفر عن ذنوبي . سأمرغ وجهي في تراب عتبتك .. أنت العلي القدير على كل شيء .. أنت الغفور الرحيم .. سأصلي .. سأصوم .. نورك يملأني .. آمنت بك يا إلهي .. آمنت بك ، اعترف أني نسيتك .. أصابني الغرور فلم أعد أذكرك ، يارب لا تقسو عليّ .. هأنذا أذكرك .. لا أطلب منك شيئاً .. لا أريد شيئاً .. كل ما أريده هو الراحة كي أعبدك .. صدقني يارب ..

تاكس .. هذا التاكس أرسلته لي يا ربي .. هذه معجزتك .. لولاه لمت هنا ..
- كلاريدج .. الشانزليزيه من فضلك ..

سأبحث عن مصحف وأضعه تحت وسادتي .. سأصلي وأقرأ القرآن .. وسأقنع سامية بأن تصلي .. آه لو رضيت .. لا ياربي .. لا اريد لها الإيمان من أجلي .. أريد لها الإيمان من اجلك .. ومن أجلها هي .. النشاط يملأ الشوارع .. إنهم لا يدرون أي نعمة هم فيها ، هذا الرجل الذي يمشي مسرعاً وفي يده حقيبة جلدية رجل أعمال ، أيها الأحمق إلى أين أنت ذاهب ، لتعقد صفقة ، لتكسب مليون فرنك .. آه لو تعرف .. لا فائدة لو كنت تعرف لقذفت بحقيبتك بما فيها من أوراق هامة ، ما قيمة الصفقات ، ما قيمة ملايين الفرنكات ، النهاية تنتظرك .. تنتظركم جميعاً أيها الناس .. آه لو عرفتم .. لفررتم من الشوارع ، لعدتم إلى بيوتكم .. لا أمل .. لا أمل .. النهاية تقترب . والموت يدب حثيثاً نحوكم .. كل خطوة نحو الحياة هي الخطوة نحو الموت .. هذا السائق مليء بالحيوية والعافية .. يسابق السيارات ويقتحم الطريق ، ترى كيف قضى ليلة الأمس ، كان يسكر ويعربد ولكنه يفيق في الصباح متفتحاً بالشباب .. سيأتي لك يوم .. راحت أيامي ، يجب أن يتغير كل شيء في حياتي .. الهدوء .. السكينة .. الراحة التامة .. لا انفعالات ، لا أزمات .. بائع الصحف يلوح بصحف الصباح .. هذه الصحف ليست لي يابني .. إنها للمخدوعين .. للذين يعيشون .. للذين تسري الدماء في عروقهم .. للذين يصدقون تلك الكذبة البشعة .. الحياة ..

يوماً ما كنت أصنع الصحف ، كنت صحفياً مشهوراً ، هه . أيام كالحلم .. لا أريد أن أذكر شيئاً .. لا تهمني أخبار الصحف .. فرنسا تغزو مصر .. مصر تغزو فرنسا .. سيان عندي .. لن آخذ معي شيئاً إلى القبر .. أريد السلامة .. كل ما أريده هو السلامة .. رحمة الله .. ألقاه في سلام .. أذهب إليه في سلام .. ارحمني يارب ..

- كلاريدج .. مسيو .

وصلت ..

هاهو الشانزليزيه ، لا أكاد أرى شيئاً .. كأني مغمض العينين . ولكني أعرف كل ما يدور حولي .. اثنا عشر صفاً من السيارات ، نصفها يتجه نحو

الأتوال ، ونصفها يتجه نحو الكونكورد ، حركة لا معنى لها ، فاتنات رائحات غاديات يشترين ويشترين .. حتى يأتي يوم لا يستطعن فيه الشراء ، شبان يغازلون البنات ، يغازلون ويغازلون ، حتى يأتي يوم لا يستطيعون فيه الغزل ، أقدام تدب على الطريق حتى يصيبها التعب ، سيارات تجري حتى يأكلها الصدأ ..

الوداع يا شانزليزيه .. الوداع .. سأدخل الآن كلاريدج .. ولا أدري متى سأخرج لك من جديد ..

- بونجور مسيو ..

- بونجور ..

- المدام تنتظر في البهو .. إنها منزعجة يا سيدي ..

- اصعد بي إلى حجرتي ..

- والمدام يا سيدي ..

- لا تقل لها شيئاً .. انتظر حتى أصعد ..

- حسناً يا سيدي ..

لم تبق إلا لحظات وأستريح .

لحظات .. لحظات ..

هذا الممشى الطويل ليس له نهاية لا أحد يراني وأنا أستند إلى الجدار وأتحسس طريقي إلى حجرتي .. هناك الحجرة .. في آخر الممشى ، من يحملني إليها .. ما هذا الوجه الغريب في المرآة .. أهذا وجهي .. وجه ميت .. ستون عاماً من أجل هذا الوجه .. أهي دعابة ، أعيش ستين عاماً لأصل إلى هذا اللعبة .. اغفر لي يارب .. لم اقصد أن أكفر بنعمتك .. لاشك أن لك حكمتك التي نجهلها .. لا اعتراض .. اللهم لا اعتراض .. أنا راضٍ بمشيئتك ..

افتح هذا الباب وأستريح .. لابد أن أخلع ملابسي أولاً .. أخلع الملابس التي ساعدتني جابي على ارتدائها ، أخلع مظهر الرجولة .. وأكشف عن هذا الجسد المهان .. وأستريح ..

اه .. اه ..

كيف أستريح ..

ها هي تفتح الباب .. وجهها ثائر .. أحمر .. غاضب .. جميل ..

- إيه ده يا محمد .. انت اتجننت ..

لن أجيب ، ساغمض عيني ، واصم اذني .. إنها غير موجودة .

- رد عليه .. كنت فين .

تقترب مني كوحش مفترس .. لا أصلح للافتراس .. أنا جيفة تأنف
الوحوش ..

- ساكت ليه ..

اصرخي ماشئت .. أقلبه الدنيا زلزلى الارض .. لن أجيب ..

والله عال .. أنا لازم أعرف أنت كنت فين .. وقصدك إيه من ده .. انت
ح تتكلم والا لا ..

هجمت عليّ تهزني ..

- سامية ..

- انطق .. قول .. انت فاكرني ح أسكت على كده .. أنا واحدة مستحملاك
على إيه .. مضيعة شبابي معاك ليه .. علشان تسيبني لوحدي في بلد غريبة ؟!

- عيب يا سامية ..

- لا موش عيب .. أنت لازم تفهم كويس إني مستحيل أعيش العيشة
دي .. احنا نرجع مصر دلوقت حالاً .. وترجع معايا وجزمتي على رقبتك ..
يا تسيبني ونتطلق ..

- حرام عليكي يا سامية .. أنا باموت ..

- اشمعنى بتموت دلوقت .. تقدر تقوللي كنت فين حضرتك الليلة اللي
فاتت ..

- كنت مع اكرم ..

- كذاب .. أنا لسه مكلماه في التليفون قبل مايسافر .. قال لي إنك سبته
الساعة واحدة ..

- بعدين يا حبيبتي نتكلم .. أنا تعبان ..

- لا .. نتكلم دلوقت لازم أعرف كنت فين ..

- ارحميني .. أنا موش مستحمل أكتر من كده ..

- اللي بيات برة .. يستحمل كل اللي يجراله ..

- عايزة تموتيني ..

- إيه حكاية الموت اللي بتهددني بيه ده .. ما تموت في ستين داهية ..
والا عايز تموتني معاك .. ..

- الله يسامحك ..

- عامل مسكين .. غلبان .. لازم تعرف نفس على حقيقتك .. أيوه انت
مسكين وغلبان .. ولازم تحمد ربنا إنك لقيت واحدة مغفلة زيي ترضى بيك ..
كنت فين حضرتك الليلة اللي فاتت ..

أنا قلت لك يا سامية ..

- كنت بأقابل ناس في السر ..

ليه .. عايز تعمل مؤامرة .. تفتكر تقدر تعمل حاجة .. انت قادر تشم
نفسك ..

- لك حق .. خلاص مافيش فايدة ..

- احنا مسافرين بكرة ..

- حاضر .. بس اعملي معروف سيبيني أستريح ..

أنا سيبالك الأوضة .. وخارجة ..

- رايحة فين ..

- رايحة مطرح ما أنا رايحه ..



الفصل الســادس

ـ سيداتي سادتي : نحن نطير الآن فوق ميناء الأسكندرية ، ترونها على شمالكم .. الطائرة على ارتفاع ثمانية آلاف قدم ، سنصل مطار القاهرة بعد عشرين دقيقة ، الجو هناك معتدل والسماء صافية .. شكراً ..

- اسكندرية أهي يامحمد ..
- أيوه ..
- موش عايز تبص ..
- شفتها من الطيارة كتير .. صحي شريف ..
- أنا شايفة نور الكورنيش .. ياه .. ده طويل قوي ..
- صحي شريف ..
- ياترى التلغراف بتاعك وصل
- صحي شريف ..
- طيب يامحمد ..

لماذا تسألين عن التلغراف ، لماذا أنتِ قلقة على وصوله ، أنا أعلم ما يدور في رأسك .. أنتِ تسألين عن يوسف ، ترى هل أرسلت له أنتِ أيضاً لينتظرك ، أم أنتِ واثقة انه سيجيء إذا وصله التلغراف الذي أرسلته .. اقرأ ما في قلبك يا سامية ..

أعرف .. أعرف ..

أنتِ مازلت تحبينه ، تاريخ طويل بينكما .. أنا عائدة من أجله ، لقد

اعتذرت لى ألف مرة عن كلامك القاسي .. لن أسامحك .. إني أعرف .. أعرف .. في لحظة واحدة تكشفت لى حقيقتك ، في لحظة واحدة فضحت نفسك ، صارحتني بما تشعرين به نحوى .. عيان .. اتقلق .. أنت ناسي انك عجزت .. متجوزاك على إيه بدى أفهم .. مستحملاك على إيه .. مضيعة شبابي معاك ليه .. احنا ترجع مصر وجزمتى على رقبتك .. نعود إلى مصر لتقابلي يوسف لتخونيني مع يوسف ..

إني أعرف . أعرف ..

يوماً ما سأضبطك معه .. سأراك بين ذراعيه .. إني أعرف .. أعرف .. أعرف .. لقد رأيت هذا المشهد .. مازلت أراه .. عندما دخل شهدى باشا علينا .. كانت ثريا بين ذراعي . ترتدى قميص النوم . كنا في حجرة النوم ، من حسن حظي انى لم اكن قد خلعت ملابسي ، كيف لي ان أتوقع انه سيجيء ، كنا واثقين انه في الاسكندرية .. والخدم الملاعين لم ينبهونا .. تركوا البيت لنا ..

- اخرج بره يا كلب ..

تسمح لى يا سعادة الباشا ..

قلتها في ذلة وذعر .. فقاطعني صارخاً ..

- ولا كلمة .. باقول لك اخرج بره يا كلب .
- حاضر يا افندم ..

خرجت

الدموع في عيني ، كنت افضل أن يصفعني علىَّ وجهى ، يطلق على الرصاص ، ولا يطردني كخادم ، محتقراً لشأني .. انا مجرد كلب غير مرغوب في البيت ..

أيقنت أن كل شيء قد انتهى ، الكلب الذى طرده من البيت ، سيطرده غداً من الأيام ، عندما وصلت إلى الشارع بدأت افكر بسرعة ، أين أجد عملى الجديد أي وزير اتصل به ، أي سياسي أعتمد عليه ، هل اذهب إلى خصومى لابد أن ادبر موقفي بسرعة ..

لم استطع التفكير ، فأفرغت زجاجة ويسكي في جوفي ونمت ، كانت اعصابي تتحمل في تلك الايام ، استيقظت في الصباح والصداع يطن في رأسي ، حاولت أن افكر من جديد ، ففشلت أرجاء التفكير ، ولم اذهب للجريدة وشغلت نفسي بمعالجة الصداع ..

- شهدى باشا على التليفون طالب سعادتك ..

جريت إلى التليفون وأنا أتحسس رأسي .. لا أمل لى ، سيقذفني بالشتائم .. ويعلنني بالطرد ..

- الو ..

صباح الخير يامحمد ..

- صباح الخير يا سعادة الباشا

ماذا وراءك ، لما يخاطبني بهذه اللهجة الناعمة .. تلعثمت .. ارتبكت ، أصبحت غبياً ، فقدت قدرتي على الكلام .

- أنت عيان يا محمد .
- لا يا باشا ..
- طيب ما تروح .. مستني إيه .
- ح أكون هناك في عشر دقائق ..

لم يذكر شيئاً عن الأمس ، كأنه لم يضبطني في حجرة نوم زوجته ، كأنه لم يحدث شيء على الاطلاق ..

أيعاملني حقيقة ككلب ، لا يريد أن يقارن بيني وبينه ، لا يريد أن يشعر بغيرة مني .. أهو مجنون أم ماذا ! ..

ذهبت إلى الأيام وأنا ارتجف .. لا أكاد أصدق اني ذاهب إليها لا أكاد أصدق أن رشوان البواب يفتح لى باب العربة ويرفع يده بالتحية ، لا أكاد أصدق أني صاعد السلم ، اني ادخل حجرتي .. اجلس إلى مكتبي .. أدير العمل .

دق جرس التليفون ، وسمعت صوتها ، ثريا ، شعرت بسخونة في رأسي ..

- أنت فين يا محمد ..

همست مذعوراً

- بتتكلمي منين ..
- من البيت ..

ألجم لساني ، ماذا أقول لها خيل إليّ أن شهدي باشا ينصت إلى حديثنا .. سيضبطنا مرة أخرى ..

- الو .. محمد ..
- أيوه ..
- فيه حد عندك ..
- لا ..
- امال موش عايز تتكلم ليه .
- ح أقول إيه بعد اللى حصل
- موش تسأل عني ..
- كنت ح أسأل ..
- لا .. أنت خفت .. أفرض كان عمل لى حاجة .. ماكنتش ح تسأل عني ..
- أبدا يا حبيبتي . إزاى ..
- اخص عليك ..
- وبعدين يا ثريا .. ح نزعل مع بعض .. موش كفاية اللى احنا فيه ..
- افرض كان موتني
- هوه عمل ايه ..
- افرض كان طلقني .
- إيه اللى حصل ..
- بتسأل بعد ايه ..
- يا حبيبتي انا كنت عايز اتأكد انه خرج من البيت .. كنت مستني ..
- على العموم انا عمرى ما كنت انتظر منك غير كده .
- ماتزعليش يا حبيبتي ..
- أنا موش زعلانة ..

- هوه إيه اللى حصل ..
- ولا حاجة ..
- صحيح إيه اللى حصل ..
- باقول لك و لا حاجة ..
- ما قالش حاجة ..
- ضحك .
- موش معقول ..
- والله ضحك وهو بيكز على اسنانه .. الراجل ده غريب .. أعصابه حديد .. وبعدين ..

وسكتت ... كأنها تذكرت شيئاً ..

- وبعدين ايه ..

كان قلبي يدق بعنف ..

- وبعدين سألني .. الحكاية دى من امتى ..
- هيه ..
- ح أقول ايه .. زعقت فيه .. قلت له حكاية ايه .. محمد ده زي أخويا .. وكنت باشتكي له منك ..
- هيه ..
- هز راسه .. طبعاً مصدقش .. وقال .. بكرة تتفرجي على الكلب ده ..
- قصده ايه ..
- موش عارفة ..

الآن .. أعرف .. أعرف .. أصبحت فرحة .. انتقمت يا شهدى .. وأنا لا أملك إلا أن أعود إليك .. محملاً بالهدايا لك ..

أعرف . أعرف .. انتقمت يا يوسف .. وأنا لا أملك إلا أن أعود لأقدم لك حبيبتك .. لأقدم لك سامية .. زوجتي ..

مهزلة ..

- شريف بيكلمك .. موش تبص له .

- عايز ايه يا حبيبي ..
- في نور .. تحت ..
- ايوه .. يا حبيبي ..
- بتاع ايه النور ده يا بابا ..
- دي بلاد ..
- بلاد إيه ..
- بلاد ناس عايشين فيها
- ومولعين النور
- ايوه ..
- بيعملوا إيه ..
- في بيوتهم ..
- بيبصوا علينا ..
- مين عارف ..
- هم بيبصوا علينا .. وشايفين الطيارة ..
- كده ..
- واحنا موش شايفينهم ..
- لا .. موش شايفينهم ..
- احنا شايفين النور بس ..
- ايوه ..
- الله .. النور مشي . النور راح ..
- بص من الشباك .. دلوقت تشوف نور تاني ..
- فين ..
- دلوقت تشوفه ..
- ما فيش نور ..
- بص .. دلوقت تشوفه .. بس خد بالك ..

يجب أن ترى النور يا بني ، يجب أن تراه النور الذي لن يراه أباك ..

- يوسف يا ابني .. انت باين عليك موش شايف .. موش واخد بالك ..
- من إيه ..
- دي حكاية دقيقة وحساسة موش عارف اشرحها لك إزاي ، أنت عارف أني أنا اللي قدمتك لشهدي باشا .. وأنا اللي اقنعته بيك .. يمكن ما تعرفش . لكن شهدي باشا زعل مني يوم مابعتك تعمل الحديث معاه .. افتكرك ولد صغير .. ما كانش سمع عنك ، ولا قرالك حاجة .. المهم . أهو دلوقت اقتنع بانك كويس .. لكن أنت عارف هوه عايز إيه .. عارف ..
- عايز ايه ..
- عايز يستعملك سلاح ضدي
- مستحيل ..
- كان وجهه أصفر كالليمونة ، خيل إليّ أنه سيجرى من أمامي ، وينطلق إلى شهدي باشا ليقتله .
- لا مستحيل .. ولا حاجة .. أنت لسه صغير .. ومعندكش خبـرة .. الحكاية ببساطة .. أنت موش غريب .. هوه متصور ان فيه علاقة بيني وبين المدام .. ما تستغربش .. ولاد الحرام فهموه كده .. وده اللي مخليه عايز يضايقني بأي طريقة ..
- وأنا إية دوري في الحكاية دي ..
- شهدي باشا راجل واعي .. ممكن يحاول يستدرجك علشان يعرف منك اخباري .. ممكن يحاول انه يسيىء العلاقة بيني وبينك .. علشان يخليك ضدي ، ويخليني ضدك .. ويقدر يسيطر علينا احنا الاتنين .. احنا صحفيين احرار .. بنخدم مهنتنا .. وأظن موش من المصلحة اننا نبقى ضد بعض .. موش كده ..

قال في حماس المؤمن بشيء مقدس ..
- انت ما تعرفش يا استاذ ناجي .. أنا تلميذك .. أنت اللي علمتني .. وأنت صاحب الفضل عليّ .. موش ممكن افكر أني ازعلك في يوم من الأيام .. دي

موش أخلاقي .. أنا أسيب الصحافة .. أموت قبل ما تحصل مني حاجة تزعلك ..

لكنك لم تعتزل الصحافة يايوسف ، لم تمت يايوسف .. اندفعت تتحداني .. خدعتني ابتسامتك الخجولة .. خدعني صوتك الحار البريء خدعني مظهرك الحار البريء .. عرفت سري وانقلبت عليّ .. ورضيت بأن تكون السلاح الذي يشهره عدوي في وجهي ..

- بابا .. النور أهه .. تحت أضاء النور .. اللوحة تعلن .. شد حزامك .. ممنوع التدخين ها هي المضيفة تعلن النبأ ..

- سيداتي وسادتي .. بعد لحظات سنهبط في مطار القاهرة .. ارجو أن تشدوا الحزام ، وأن تمتنعوا عن التدخين حتى تقف محركات الطائرة .. الوقت المحلي في القاهرة الحادية عشرة وسبع دقائق مساء ، ودرجة الحرارة ستة وعشرون سنتيجراد ، والسماء صافية .. أرجو أن تكونوا قد استمتعتم برحلة طيبة ، ونأمل أن نراكم على طائراتنا في رحلاتنا القادمة .. وتقبلوا تحيات كابتن فان دورن وملاحيه .. شكراً .. رحلات قادمة ، هه ، لا أظن أن هناك رحلات قادمة لي .. لا أظن أني سأراكِ أيتها المضيفة مرة أخرى ..

مالي أتتبع كلماتها في غباء ، شيء ثقيل يرتطم بقلبي ..

- مالك يا محمد ..
- ولا حاجة ..
- احنا وصلنا ..
- أيوه يا حبيبتي ..
- يا ترى فيه حد مستنينا ..
- ح نعمل بيهم إيه ..
- أنا خايفة من الجمرك .. معايا حاجات كتير ..
- ما تخافيش ..

الجمرك .. إنها تكذب .. يوسف هو الذي تسأل عنه .. أنا مجنون ، أحمق ، مغفل ، ما الذي جاء بي إلى هنا ، لو استطيع أن أذهب ، أعود من

حيث أتيت ، ما زالت عندي فرصة .. لا أهبط من الطائرة .. نعم .. عندي فرصة .. أموت في الطائرة .. تتحطم أثناء هبوطها .. أختبيء فيها .. ليتني لم أعمل في الصحافة ، ولا أي شيء آخر .. ليتني كنت مثل ابي .. كفاءة الأزهر .. دكان الخردوات .. والقبر .. فات الآوان .. محمد الحنك أصبح محمد ناجي .. لقد ابتلعت لقمة كبيرة من الحياة .. وقفت في حلقي .. كان يجب أن أكون أكثر تواضعاً .

- ياللا يا محمد ..

- بس خدي بالك من شريف .. غطيه كويس ..

من هؤلاء القادمون في الظلام .. الهواء يصفعني ولكنه لا يسعفني لا أكاد أستنشقه ، إنهم يقتربون بسرعة ، يخيل إليّ انهم من الأيام .. النور وراءهم يعمي عيني .. سامية تنظر إليهم ..

- دول جايين لنا يا حبيبتي ..
- باين كده ..
- مين ..
- موش شايفه كويس ..

صوتها يرتجف ، لابد انها رأته .. آه لو كان بينهم ، إنه لن يأتي إلا من أجلها .. أين وجه يوسف في هذا الظلام .. لابد أنه بينهم .. جاء ليأخذها ..

ها هو .. ها هو يوسف عبد الحميد السويفي .. انه يتقدم مني .. لا .. إنه يتقدم نحو سامية .. يتقدم نحو حبه .. أقسم أنه سيبتسم ، اقسم أنها ستبتسم ..

ها هو يبتسم ..

ها هي تبتسم ..

يده في يدها ، عيناه تحدقان في عينيها ، عيناها تحدقان في عينيه ، لا تحول عينيها عن عينيه .. ترى هل ضغط على يدها .. انا مغفل حتى أسأل هذا السؤال .. نعم .. لابد أنه ضغط على يدها .. أحسست بقوته .. أحسست

برغبته .. صدرى بارد .. بارد كالثلج .. قلبى محاط بالثلج .. جبهتى مثلجة .. كأنى فى ثلاجة مشرحة ..

- أهلاً .. ازيك يايوسف .. ليه كلفت خاطرك .. لا .. لا .. تعال لما ابوسك .. أنت واحشنى خالص ..

يداه تحوطان بي ، يعانقنى ، يقبلنى ، صدرى ساخن ، ساخن كجهنم ، قلبى محاط بالنار .. جبهتى ملتهبة .. احترق .. ما هذا الزحام .. كل هؤلاء جاءوا من أجلى .. أم جاؤا من أجل يوسف ..

جاءوا لأنه جاء ..

عندما اموت ستعيش سامية من جديد .. كل هؤلاء كانوا موظفين عندى ، يأتمرون بأمرى ..

- البلد نورت ..
- ازيك يا يوسف ..
- موش عارفين نعمل حاجة من غيرك ..
- البركة فيك ..
- صحيح .. أنا ملخوم قوى ..
- ده أنا اللى محتاج لك ..
- يا خبر .. أنت استاذى .. بس الأمر ..
- عايز اقعد أتكلم معاك ..
- امتى ..
- تيجي تتغدى معانا بكر ..
- حاضر ..
- سامية .. اعملى حسابك يوسف ح يتغدى معانا بكرة ..

هاأنذا ارتب لكما الظروف ، افضل من ان يحدث كل شيء فى الخفاء دون ان اعلم ، لن احتمل البقاء فى الظلام ، هل خانتنى اليوم ، هل تخوننى غدا .. ستقتلنى هذه الأسئلة .. عجلى بالخيانة يا سامية .. عجلى .. الانتظار يعذبنى ..

- يوسف .. أنت ما سلمتش على شريف ..

وجهه يحمر ، عنقه يتلوى ، رأسه تنخفض وترتفع ، كأنى أكيل له الصفعات .. ينظر إلى سامية ، حائراً متردداً ، ينظر إلى شريف ..

- ازيك يا شريف .. سلم علىّ .. الله أنت مكسوف ..
- سلم على اونكل يا شريف ..

سلم على عشيق أمك ، انظر إليه جيداً ، ربما استطعت أنت أن تفعل شيئاً .

وجهها يحمر ، عيناها قلقتان ، صدرها يعلو ويهبط .. شفتاها تتحركان بصعوبة :

- أ أصله كان نايم ..
- عملت إيه فى اوروبا يا شريف
- كان عيان ..
- عيان ازاى ..

الحديث بدأ يدور بينهما ، الآن أحكي له عن مرض شريف ، غدا عن مرضى .. ربما وشيت بي .. عندما تقابلينه وحدك ، تروين له ، ولكن يوسف لن يفعل شيئاً يؤذيني .. انه يريد ان يتظاهر أمامك بأنه قادر على حمايتى ، انه وحده الذي يحميني .. لو قلت له انى أعددت أخطر انقلاب ، لن يفعل شيئاً .. سيصمت من أجلك .. إنى أعرف . لابد أن تعرف هى انى اعرف . لابد أن يعرف هو انى اعرف . سأتركهما ..

- عن اذنكم ..

ينظران إلىّ فى دهشة ..

- بس أروح أسلم على باقى اخواننا .

هاأنذا ابتعد ، ولكن فى ظهرى ألف عين تراهما ، ماذا يقولان عنى الآن .. لا يهم ..

ها هو حمدي .. لماذا لا يتقدم .. أهو خائف من يوسف .. العبيط .. تصرفاته المريبة تفضحه .. ترى ماذا فعلت معه مبروكة ..

- ازيك يا حمدى ..
- حمد لله على السلامة يا سعادة البيه ..
- ما بتجيش تسلم ليه ؟

ابتسامة بلهاء ، فى عينيه حذر .. المجنون .. يبدو أنه يريد أن يتكلم ..

- أنا وصلنى جواب سعادتك .
- بعدين .. موش وقته ..
- اتصل بسعادتك ؟
- بعدين .. بعدين .. سيبنى دلوقت ..

لو سمعوا حديثنا لقضى علىَّ فى الحال ... ترى ماذا فعل مع مبروكة ..

●●

الليل كئيب ، كل شىء فى البيت يحمل رائحة التراب ، يحمل رائحة العدم ، سامية نائمة فى حجرتها ، وشريف نائم فى حجرته .. أنا وحدى الذى ينصت إلى الليل ..

أين تونى ..

هذا البيت من غير تونى لا معنى له ، لو أسمع نباحه .. مستحيل .. لقد قتلته .. صوت الرصاص مازال يدوى فى اذنى ..

ما هذا ؟

جرس التليفون يدق .. ما الذى حدث ، أهو يوسف .. شهدى باشا .. البوليس ..

- ألو .. ألو ..
- سعادة البيه ..
- مين بيتكلم ؟
- أنا حمدى يا سعادة البيه ..
- إيه يا حمدى ؟
- أنا عايز أقول لسعادتك على الجواب ..
- تقوم تكلمنى فى نص الليل .. إيه .. حصل حاجة ..

- أنا قابلتها زي ما سعادتك طلبت ..
- وبعدين ؟
- كلمتها فى الموضوع .. ما رضيتش أبداً .. وشتمتنى .. أنا خايف يا سعادة البيه ..
- خايف من ايه ؟
- تروح تقولله ..
- لا ما تخفش ..

رفضت مبروكة .. شتمته .. لست وحدك الخائف .. أنا خائف أكثر منك ..

اه لو كنت ذكرت لها شيئاً عن خطابى .. الخطاب لا بد أن أستعيد هذا الخطاب ..

- اسمع يا حمدى .. أنت قلتها حاجة عن الجواب ..
- أبداً يا سعادة البيه ..
- طيب اسمع .. أنت لازم تفوت علىَّ الصبح بكرة .. بدرى .. الساعة سابعة بالكتير ..
- حاضر يا سعادة البيه ..
- وهات معاك الجواب ..
- الجواب ..
- ايوه .. لازم تجيبه معاك ..
- موش معايا يا سعادة البيه .
- عملت فيه إيه .. مين خده منك ؟

وقعت الكارثة ..

- قطعته يا سعادة البيه ..
- ما تهولى مقطع ..
- رميته يا سعادة البيه ..

لا فائدة .. لا أستطيع أن أهاجمه .. إنه يملك حياتى فى يده .. السافل ..

أخذ الخطاب ليهددني به .. سيذهب به إلى يوسف .. يريد أن يحمي نفسه .. لا فائدة

- طيب يا حمدى ..
- أنا متأسف يا سعادة البيه ..
- معلهش .. بس فوت علىّ بكرة ..

سواء جاء فى الغد .. أو لم يجىء أصبحت عبداً فى يده .. أينما ذهبت أينما فررت ، مهما حاولت .. أنا عبد كل من أقابله ، كل من أحادثه ، كل من تقع عليه عيني ، وكل من تقع عيناه علىّ ..

الفصل السابع

الساعة السابعة والنصف ، وحمدي لم يأت بعد ، إنه لن يحضر لقد باعني ليوسف ، أعطاه الخطاب الذي يدينني .. اليوم سيحضر يوسف على الغداء ترى هل سيحضر .

لا أظن ، سيعتذر بأية حجة .. سأضطر أنا إلى الذهاب إليه .. سامية لم تستيقظ بعد ، كل شيء من حولي هادىء ومريب ، هذا الهدوء يخفي في طياته الأحداث القادمة .. بعد قليل اتصل بشهدي باشا ، سأحتاج إليه ، سأحتاج إلى نقوده . وربما رضي أن يعينني في مجلس إدارة إحدى شركاته ، سأكون صريحاً معه .. ليس لي أحد غيرك يا باشا ، أنا خادمك ، أنت صاحب الفضل عليّ ، كلهم قد تنكروا لي ..

لا .. لن أقول هذا الكلام الذليل . سيدرك أني انتهيت ، لا فائدة مني ، إنه لا يحب الضعفاء ولا يتحامل معهم ، إنه أسد في غابة ، نحن نعيش في غابة ، القوي يفترس الضعيف .. لابد أن أتظاهر بأني قوي ، أتظاهر بأني مازلت حيا .. مازلت قوياً .. سأذهب لزيارته .. وأخبره أن يوسف مدعو عندي على الغداء ، ربما قلت له إن يوسف دعا نفسه على الغداء عندي ، سأوهمه بأن يوسف يعتمد عليّ ، وأنه أطلعني على أسرار خطيرة ، سأوهمه بأن هناك أشياء خطيرة تحدث ، وأني أعرفها .

الأيام تقول هذا الصباح إن وزير الخارجية سيسافر ليتفاوض مع الانجليز

والفرنسيين .. سأهمس في أذنه : اننا سنستسلم بكل شيء ، سنتراجع ، سنعيد القتال إلى الشركة الفرنسية بطريقة ملتوية .. أظن ان هذا هو ما ستفعله الحكومة ، ليس أمامهم حل آخر ، اننا أضعف من أن نقاوم ، سنستسلم ، سنرضخ ...

- الأستاذ حمدي حضر يا افندم .. بيقول عنده ميعاد مع سعادتك .
- حضر .. دخله الصالون ..

اسمع .. الست صحيت ..

- لسه .. يا افندم .

كيف أحصل على خطابي منه ، الوغد ، لابد أن أعرف حقيقة ما فعل .. لقد ارتكبت خطأ بشعاً بكتابة هذا الخطاب ، كان قلبي يحدثني بأن هذا سوف يحدث .. هذه الورطة لن تخلصني منها إلا سامية .

- صباح الخير يا حمدي .. كويس إنك جيت في الميعاد ..
- ما اقدرش اتأخر على سعادتك ..
- احنا ح نفطر مع بعض ..
- فطرت يا سعادة البيه .. متشكر ..

ما أغباني ، محمد ناجي لايدعو أمثالك إلى مشاركته الطعـام ، انى أتصرف بحماقة ، لقد تعودت ان أصدر أوامري لأمثالك ، لا أن أصدر أوامري لأمثالك ، لا ان انافقهم وأرفع الكلفة بيني وبينهم .

- أنا عايز تقول لي انت عملت ايه مع مبروكة بالضبط .
- رحت لها يا سعادة البيه ..
- فـــين ؟ ..
- في بيتها ..
- كان فيه هناك حد ..

- ده بيت زي ما سعادتك عارف .. افتكروني زبون .. طلعت لي لابسة قميص نوم بمبة .. وبصت لي من فوق لتحت .. زي ما تكون بتسأل نفسها ..

الزبون ده معاه فلوس والا لا .. كانت بتمضغ لبانة .. شاورت لي بطرف صباعها .. ودخلنا أوضة .. نامت على السرير وهي لسة بتمضغ اللبانة . وقفت محتار عايز أكلمها .. ضحكت وقالت : واقف كده ليه .. ما تيجي .. الحقيقة أنا اتلخمت .. القصد .. قلت لها أنا جاي لك في موضوع بس سر بيني وبينك .. استغربت وبان عليها انها موش مصدقاني .. قلت لها : إنتِ موش تعرفي يوسف عبد الحميد السويفي .. الراجل اللي البلد كلها بتتكلم عنه .. غمضت نص عين وقالت : وانت مالك بيه .. قلت لها : انا جاي أكلمك علشان مصلحتك .. يوسف بيه غني وفلوسه كتير .. وتقدري تكسبي منه ألوف .. رمت اللبانة من بقها وقامت من على السرير .. وقالت لي وهية خايفة .. انت مين اللي بعتك .. لازم يوسف .. حلفت لها إنه ميعرفش حاجة عن الموضوع .. مصدقتش .. وشتمتني .. وشتمته .. وقالت كلام وحش .. كلام ما يتقلش يا سعادة البيه .. وزعقت .. انا خفت .. قعدت اترجاها تسكت .. مافيش فايدة .. بصيت لقيت الأوضة اترشقت نسوان .. ومعاهم راجل بجلابية صدره مفتوح ، وشعره منكوش .. إيه ياريري .. حصل إيه يا ريري قالت لهم كل حاجة .. شوفوا اللي باعتهولي ابن الحرام .. عايز يوديني في داهية .. انا ساكتة عليه .. وهو موش ساكت .. والله لانا رايحة له وفضحاه .. أنا وشي أصفر .. كنت خلاص ح اوطي وابوس رجلها .. كنت ح أعيط .. سألوني انت مين .. انا بصراحة واحد جاي برسالة .. واحد كبير في الحكومة ضد يوسف باعتني .. علشان عايزها ترفع قضية عليه ، قضية نفقة .. هيه تكسب لها قرشين .. وهوه يستفيد بانه يطلع يوسف من شغلته .. والقضية احنـا مستعدين ندفع فلوسها وفلوس أكبر محامي في البلد .. هوه معقول ياناس يوسف بيه يرفع قضية على نفسه ..

بدأوا يصدقونني ..

- ومبروكة قالت ايه ..
- ضحكت .. وقالت والكبير ده يبقى مين ..
- قلت لها ايه ..

- طبعا مااقلش حاجة ياسعادة البيه .. هوه انا عبيط .. قلت لها هوه موش
عايز حد يعرفه .. وما اقدرش اقول اسمه .. قالت قول له .. كان غي
اشطر .. يوسف ده إبليس محدش يقدر عليه .. قلت لها لكن الكبير ده يقدر ..
قالت أمال جاي لريري ليه .. وبعدين ضحكت وقالت كلام بايخ ..
- قالت إيه ..
- مالوش لازمة ..
- قالت ايه ..
- قالت .. صاحبك ده باين عليه واقع زيي .. ماتزعليش على بختك يا ريري
أهو كبارات البلد وانتم في الهم سوا .. وبعدين ما رضتيش .. يست
فهميني ، أعمل معروف مفيش فايدة ،، انا مسامحاه .. هو في حاله وانا في
حالي .. موش عايزة منه حاجة ..
- تفتكر ح تقول ليوسف ..
- ده اللي أنا خايف منه يا سعادة البيه ..
- هيه شايفة الجواب ..
- إزاي يا سعادة البيه .. انا قلت لسعادتك هي ما تعرفش حاجة ..
- يعني ما شافتوش ..
- مستحيل يا سعادة البيه ..
- والجواب فين دلوقت ..
- والله العظيم قطعته ..
- أنت مقطعتوش .. انت اديته ليوسف ..
- سعادتك مالكش حق تقول كلام زي ده .. يعني سعادتك موش
مصدقني ..
- أنا عايز الجواب يا حمدي ..
- والله العظيم اتقطع واترمى .. ولا أعرف له مطرح ..
- أنت بتكذب ..
- عيب يا سعادة البيه .. اكذب عليك إزاي .. ده انا خدامك ..

- اسمع .. بلاش كلام كتير .. إذا كنت فاكر إنك تقدر تعمل حاجة بالجواب
ده .. تبقى غلطان .. ح اوديك في داهية .. انا ما انتهتش .. انا اقدر
اذيك ..
- يا سعادة البيه ولازمة الكلام ده إيه .. أنا راجل عبد المأمور ..
- امشي اطلع بره ..
- بس ..
- موش عايز اسمع كلمة واحدة .. اتفضل ..

خرج الوغد .. ليكن ما يكون ، إني ميت ميت .. الكارثة محتمة ، فلأعجل
بوقوعها ، فقد مللت الانتظار ..

●●

- محمـــد ..
- الله .. أنتِ خارجـــة ..
- رايحة للكوافير ..

طبعاً .. لابد أن تستعدي لاستقبال يوسف ، تتزينين له ، ألا تخجلين من
مواجهتي .. ترى هل تقابلين يوسف قبل الكوافير أم بعده .. ستقابلينه بعد
الكوافير .. ستقولين له لا تمس شعري يا يوسف .. ولكنك ستضحكين له في
إغراء ولن يتحمل إغراءك ، سيمد يده إلى شعرك ويعبث به ، ولن تمانعي
ستكونين سعيدة ، مستهترة ، عاشقة ..

- ح ترجعي امتى يا حبيبتي ..
- على طول ..
- بس متتأخريش .. احنا مستنيين يوسف على الغدا ..
- موش ح اتأخر ..

مالها متجهمة الوجه . تمط شفتيها في قرف . هناك شيء محبوس في
صدرها ..

- مبوزة ليه ..
- ولا حاجـــة ..

- لا صحيح .. فيه حاجة مضايقاكي ..
- يعني أنت حاسس إني متضايقة ..
- باين عليكي ..
- موش عارف انا متضايقة ليه ..
- أبدا .. قول لى .
- مافيش حاجة ..
- لازم تقول لى يا حبيبتى ..
- أنت موافق على اللى بتعمله ده ..
- عملت إيه يا حبيبتي ..
- محمد .. انت ذكى .. وفاهم كل حاجة ..
- كلميني بصراحة .
- إزاى تعزم يوسف في بيتنا ..
- أنتِ شوفتيه كتير بعد جوازنا ..
- لكن موش في بيتنا ..
- وفيها إيه ..
- يبقى خلاص .. موش ح أتكلم ..
- إيه اللى مضايقك بس ..
- موش شايف حاجة في إنه ييجى بيتي ..
- ده اللى مضايقك ..
- طبعاً ..
- المفروض أن خلاص .. نسينا الماضى ..
- لكن أنتِ بتحرجيني ..

أى نوع من الحرج تشعرين به يا سامية .. أيحرج رؤية يوسف أم يحرجك رؤيتى مع يوسف ، رؤية عشيقك وزوجك في آن واحد .

هل أصدقك ..

كيف أصدقك ..

أنت تذكرين نصف الحقيقة .. نصف الحقيقة فقط .. علمك يوسف الكذب الصادق .. البراءة المريبة .. أنت تلميذته .. أنت ظله الذي يتبعني ..

- انا متأسف يا سامية .. الحقيقة كنت بافكر في الشغل .. ما جاش على بالى .. فعلاً كان لازم أخد رأيك ..
- إذا كنتم ح تتكلموا في الشغل .. تبقى فرصة .. ما اقعدش معاكم ..
- لا .. ما يصحش ..
- يا محمد انا موش فاهماك ..
- متحرجنيش أنتِ كمان ..

ماذا أقول لك ..

إني لا أحتمل غضب يوسف الآن ، لابد أن ترحبي به ، أعتمد عليك يا سامية .. أنتِ التى تحميني من غضبه ، إن خطابي معه .. سلمه حمدي إليه .. لو غضب علينا لفقدنا كل شيء ، هذه مسألة حياة أو موت .. انا مضطر .. مضطر يا سامية .. لا أملك إلا أن أسلمك له فليفعل معك ما يشاء .. فلتكوني عشيقة .. لابد أن أعيش .. أنا عجوز أعيش محطم .. غير قادر على فعل شيء .. لابد أن أبحث عن حماية .. أنا لا أطلب منك الكثير .. أريد منك وهو يقبلك أن يسمع كلمة طيبة عنى ، توسلى إليه ، استدرى عطفه .. قولى له حرام عليك يا يوسف .. إنه مسكين ضعيف .. امنحه فرصة ليعيش .. أليس من حقى هذا .. اشركيني في علاقتك بعشيقك .. ارحميني .. اسمحى لى أن أستفيد من هذه العلاقة ..

أنتِ شابة وهو شاب ..

أنتِ تحبينه وهو يحبك ..

أليس هناك مكان لرجل عجوز مثلى بينكما .. مكان متواضع لرجل له طلب متواضع .. لا أريد أن أفقد أكثر مما فقدت .. أريد أن أظل أقبض مرتبي أول كل شهر . أريد أن يظل الناس يتوهمون أنى محمد ناجي القديم .. أريد أن

يعاملني الناس باحترام ، إني أتخلى عن كل شيء من أجل هذه المظاهر البسيطة .. هل تضنين بها عليّ ..

- شوفي يا حبيبتي .. انا موش عايز منك اكتر من مقابلة ضيف بيني وبينه شغل .. احنا نسينا اللي فات .. يوسف اللي جاء النهاردة واحد تاني .. رئيس تحرير الايام .. مالوش صلة بيوسف بتاع زمان .. انا نسيت زمان .. وانتِ لازم كمان تثبتي لي انك نسيتيه ..

- انا كنت بافكر ما ارجعش البيت بعد الكوافير .. واروح ازور امي ..

- لا .. خليكي عاقلة .. يا حبيبتي . فكري كويس .. ح يبقى شعوري إيه .. ح اقول لنفسي إيه .. انتِ لسه خايفة من يوسف .. خايفة من تأثيره عليكي .. يوسف ح يفسر غيابك إزاي .. موش قادرة توجهيه .. بتفكري في حبكم القديم .. ح يفسر غيابك الف تفسير .. كلهم موش كويسين .. احسن نوفره ده كله .. روحي يا حبيبتي للكوافير .. خليه يعملك تسريحة حلوة .. شيك .. علشان يوسف لما ييجي .. يشوفك حلو ويعرف أنك سعيدة معايا .. موش من حقي برضة إني اثبت له انكِ سعيدة معايا..

- أنت بتحبني يا محمد ..

نظراتها تفيض بالشك .. صوتها يفيض باليأس ..

- إيه معنى السؤال ده ..

- بعض ساعات بأحس إنك ما بتحبنيش ..

- مستحيل .. امتى بيجيلك الشعور ده ..

- دلوقت ..

- يا حبيبتي ده كلام فارغ .

- طبعاً انا بأحبك ..

- موش قادرة أصدقك ..

- ليــه ..

- انا خايفة ..

- خايفــة ..

- ايوه خايفة .. منك ..

بتبعد عني .. في الأول كنت معايا شاعرة بيك في كل لحظة .. بتهتم بيه .. ومابتسبنيش دقيقة ... حياتي مليانة .. دلوقت شايفك سرحان على طول .. بعيد عني . شوف بيوم مابت برة طول الليل وانا لوحدى في اللوكاندة ..

- ح نرجع تاني ..

- انا موش قادرة افهمك .. أنت اتغيرت .

نعم أنا تغيرت .. أنتِ أيضاً تغيرت .. أنتِ لا تعلمين معنى كلامك ، غريزتك تتكلم بلا وعي منك .. لقد سقطت في عينيك .. لم اعد ذلك الرجل الذي كان يبهر .. لم أعد أبهرك يا سامية .. لم أعد أملأ حياتك .. انتِ التي تبتعدين .. أنتِ التي تتحدين كياني بشبابك .. عندكِ أحلام وليست عندي احلام .. عندك سنوات وسنوات تعيشينها في المستقبل .. وليس عندي سوى أيام .. اليوم أنتِ خائفة .. والغد أنتِ هاربة .. هاربة مع يوسف ..

- أنتِ موش سعيدة يا سامية ..

- لا موش سعيدة ..

- وإيه الحل ..

- موش عارفة ..

- تحبي أعتذر ليوسف ..

- ايــوه ..

- بس ح أقول له إيه ..

- تعرف انا حاسة بايه .. حاسة إنك بتمتحني .. انك عازمه مخصوص علشان تشوفه وتشوفني مع بعض .. وتشوف إيه اللي ح يحصل .. انا ما قبلش ده يا محمد ..

- ده تفكير غريب ..

- لأ .. دي هيه الحقيقة ..

- موش ممكن .. أنتِ بتخرفي لقد ادركت الحقيقة .. عرفت كل شيء .. إنها تهاجمني قبل أن اهاجمها .. الآن فقط أيقنت انها على علاقة بيوسف ..

متى بدأت هذه العلاقة .. متى بدأت .. منذ سنة .. منذ سنتين .. أم ان علاقتها به لم تنقطع أبداً .. تزوجتها كأي مغفل .. لابد أنها تحتقرني .. لا حدود لاحتقارها لي ..

- أنا موش بأعرف ..
- انتِ بتقولي حاجات ما اتصورش انها تخطر على بالي ..
- اعتذر له .. موش عايزاه يدخل بيتي ..
- لا .. يوسف جاي .. وانا أرفض اعتذر علشان سبب سخيف زي ده ..
- وانا كمان ح اتصرف ..
- قصدك ايه ..
- قصدي ح أتصرف ..
- تعملي إيه ..

ما اعرفش ..

- بتهدديني ..
- افهم اللي أنت عايز تفهمه ..
- عيب يا سامية تتكلمي معايا باللهجة دي .. انتِ عايزة تقوليني وبس ..

ماذا جرى .. إنها تبكي ..

لماذا تبكي ..

لا أصدق دموعك .. انت تكذبين بدموعك .. تبكين لانك تعلمين أنى أعرف .. تبكين حسرة لأنك لم تتزوجي منه .. ليتك تبكين حتى نهاية حياتك .. تتألمين كما أتألم .. لن أحاول اسكاتك ..

- انا متأسفة يا محمد ..
- على إيه ..
- قلت لك كلام سخيف ..
- معلهش ..
- سامحني ..
- اتعودت خلاص على مفاجآتك ..

- سامحني ..
- محصلش حاجة أسامحك عليها ..
- بتحبني ..
- ايوه بأحبك ..
- انا كمان بأحبك .. انا ماليش حد غيرك في الدنيا .. لو سبتني ح أعمل ايه .. انا كنت رايحة النهاردة لامي وانا موش عايزة أروح ..
- ما تقوليش الكلام ده يا حبيبتي ..
- اصلك موش قادر تفهمني ..
- صدقيني انا بأحبك .. بأحبك يا للا روقي بأه ..
- ياه انا اتأخرت على ميعاد الكوافير .. اوريفوار يا محمد .. موش ح اتأخر ..
- اوريفوار يا حبيبتي ..
- موش عايز تبوسني ..

تقبلينني في حرارة .. أيتها الكاذبة .. هذه الحرارة تدافع عن خيانتك .. تتظاهرين بحبي بنفس الحماس الذي تجرين به إلى الكوافير .. هذا هو كل حبك لي .. هل تظنين إني أبله .. ساذج .. تخدعه بضع كلمات وبضع دموع .. اذهبي إلى الكوافير .. اذهبي إلى يوسف .. وعودي لتقولي لي إنك مازلت تحبينني .. لست بحاجة إلى هذه الاعترافات الكاذبة .. لن اتركك على اية حال .. لو ضبطك بين ذراعيه .. لن اتركك .. انا في حاجة إليك .. وإليه .. انا في حمايتكما ..

ولكني اكرهك .. واكره اليوم الذي رأيتك فيه .. واكره الدنيا التي دفعتني إليك .. انا لم اتزوجك إلا لأني تحطمت .. ضعفت .. انت الحضيض الذي وصلت إليه ..

ثلاثتنا نجلس إلى مائدة واحدة .. نأكل من طعام واحد .. نأكل في هدوء .. هذا هو الهدوء المريب ..

لو انفتحت صدورنا لما احتملنا ان نجلس معا .. لفر كل واحد منا إلى أقصى مكان على الارض .. انا الضحية بينهما ، انا الهزيمة ، انا الموت ..

كلما فكرت في انى ميت شعرت ببعض القوة ، استطعت ان ابتسم ، ارحب بيوسف ، أمضغ اللقمة ، واقول بضع كلمات .. الآن اعرف ما هى صحوة الموت ..

- انا زرت النهاردة شهدى باشا يا يوسف ..
- اخباره ايـه ؟
- بيني وبينك موش مبسوط ..
- خايف من الحرب ..
- خلينا نتكلم بصراحة .. ده راجل راسمالى .. موش ممكن يقدر يتفاهم مع النظام ده .. انا موش عارف هم ساكتين عليه ليه ..
- قال لك حاجة ..
- ما كنتش احب اقول الكلام اللى سمعته .. لكن انا برضه عندى وطنية .. ومضطر انبهك وانبه المسئولين لخطورة الناس اللى زيه .. احنا لازم ندافع عن الثورة بكل قوتنا .. انا من ثلاثين سنة وانا باكتب في السياسة .. من قبل ما سامية تتولد .. وعندى أمل كبير في ان الازمة دى تعدى .. المهم هو اننا ناخد بالنا من دعاة الهزيمة .. فيه ناس الانهيار في نفوسهم .. ما فيش فايدة انهم يقاوموا .. مستعدين يسلموا البلد للانجليز زى ما حصل ايام عرابي .. انا شفت ناس بالشكل ده .. حتى في باريس .. فاكرة يا سامية .. فاكره ..
- قصدك مين يا محمد ..
- بقى موش فاكرة ليلة ما قابلنا اكرم بك ..
- اه صحيح ..
- سامية تقولك يا يوسف خليها تحكى لك .. الناس اللى بيبعتوهم في السفارات علشان يمثلوا البلد .. موش فاهمين حاجة .. ياريت موش فاهمين وبس .. إنما خونة .. تعرف يا يوسف .. انا بافكر اكتب سلسلة من المقالات الجريئة .. اطالب فيها بتصحيح الاوضاع ..

إنه ينظر إليّ في صمت ، لا يبدو عليه أنه يرحب بالفكرة او يعارضها .. منذ دخل البيت وهو يتكلم بحساب ، يقول كلمات مقتضبة غامضة .. يبتسم في خجل .. لم ينظر إلى سامية نظرة واحدة .. لابد انه يعرف كل شيء عن الخطاب .. لابد انه قابل سامية قبل ان يأتى إلى هنا .. إنها ايضاً صامتة ، تتكلم بحساب .. تسريحة شعرها بسيطة .. من السهل العبث بها .. وإعادتها كما كانت .. أنا لا يضايقنى ما ارتكبتماه .. تكلما .. اضحكا .. انت تخوننى يا يوسف .. ولكن ضميرك مستريح لأن في جيبك الخطاب .. ضميرك مستريح لانك المنتصر وانا المهزوم .. أنت الذي صعد .. وانا الذي سقط .. ولكنى لا اشعر الآن بشيء نحوك .. لا حقد ولا كراهية .. كل ما أريده هو الراحة والهدوء .. صدقنى أنا اشعر هذه اللحظة وكانى ولدت من جديد ، نسيت الماضى .. أريد أن ابدأ من البداية .. اغسل نفسى من ذكرياتي .. لا احزان ولا مرارة .. ساكتب في حماس .. سأشعل الوطنية في القلوب .. سأتحدى كهولتى ..

- موش فكرة كويسة يا يوسف ..
- طبعاً فكرة كويسة ..
- موش باين عليك متحمس ..
- بالعكس .. أنا متحمس جداً .. امتى ح تكتبها ..
- أبدا من بكرة ..
- عظـــــيم ..

لست متحمساً على الإطلاق .. تنطق بالكلمات من شفتيك لا من قلبك .. انت لا تصدقنى .. تستريب في قصدى .. ولكنى اريد أن أكتب المقالات النارية .. اريد أن انفجر القنابل ذات الدوى الضخم .. الناس في المقاهى والشوارع والنوادى .. يصيحون .. هل قرات ما كتبه محمد ناجى اليوم .

- انت مالك ساكت يا يوسف .
- ابداً ...
- دى سامية كان عندها كلام كتير عايزه تقوله .. الموضة في باريس ..

تقاليع باريس .. ممكن تديلك اخبار كتير كويسة .

- أنا لازم أسمع الحاجات دى كلها ..
- هيه ساكتة كمان النهاردة .. موش عارف ليه ..
- الظاهر أنا تعبت يا محمد ..
- بقى الشباب تعبان ، والعواجيز اللى زى حالاتي مليانين نشاط .. سايبنى اتكلم .. واتحمس .. وأستعد لكتابة مقالات ..

نار تلسعني في صدرى .. إبرة حادة تنغرس في لحمي .. ماذا أكلت .. ؟ ! السمك غير طازج .. ماذا يقول يوسف .. إنها تحدثه عن الموضة .. باريس .. باريس ثقب النار يتسنع .. الم غريب .. هل أخبرهما .. لا داعى لازعاجهما .. سأتركهما يتناجيان .. أنا في حاجة إليهما .. غدا اكتب المقالات الوطنية .. شيء مضحك .. لا احد يواصل الصعود .. كل من وصل إلى فوق .. لابد أن يتدحرج إلى تحت .. الألم يشتد .. دائرة اللهب تحرق قلبي .. دوى قطار يسير داخل راسى .. لابد أن أشكو .. لا أراهما .. ضباب فوق عيني .. ولكني مازلت اجلس إلى المائدة .. الطعام في حلقي .. ماذا تقول له .. لا اسمعهما .. كل شيء يذهب .. يبتعد .. يحفت .. أهذا هو الموت .. أمي .. أهذا هو الموت .. يا واد أنت ضربته ليه .. والنبي ما هو أنا يا أمه .. خد بالك من تونى يا محمد .. هوه موش راضي يموت ليه .. مات خلاص يا سعادة البيه .. الرصاص في الشانزليزيه .. القذرين .. قتلوه .. كان يصفر في الشارع .. « لا ف آن روز » .. مد يده ليصافحه .. ضربه بالرصاص .. سقط الجسم المربع .. أنت مهراجا « باشا » أعظم كاتب في الشرق ..

أخرج بره يا كلب .. تونى ..

آه هذا البيانو المزعج .. الانغام تدوى في راسي .. الطفل ينظر إليّ .. يلتفت وراءه .. لا تزاحمونى .. هذا الشارع يلفظنى .. ينظرون إليّ شذراً .. لا مكان لشيخ عجوز .. سامية حبيبتي .. شريف عيان .. بصريا حبيبي .. النور مشى .. النور راح .. دلوقت تشوفه .. بس خد بالك .. شوف الجرنال ..

المطابع .. المانشتات .. ألو .. مين بيتكلم .. آخر خبر .. صفحة اولى .. بقلم محمد ناجي .. بقلم الكاتب الكبير محمد ناجي .. محمد ناجي ..

- سامية ..

مالها تصرخ .. إنها تفزعنى .. تكلمي في هدوء .. انى استريح ..

- اد .. أدد .. أدديني .. اشر ..

وهنا سكت محمد ناجى عن الكلام ، وبذلك انتهى القسم الثالث من الرجل الذي فقد ظله ..



القسم الرابع يرويه :

يوسف



الفصـــل الأول

انا يوسف

يوسف عبد الحميد السويفي ..

عندما اهمس باسمي بيني وبين نفسي يخيل إليَّ انى أردد اسم شخص آخر لا أعرفه ، شخص غريب عني ، لا احبه ولا اكرهه ، ولكنه يزاحمني ويرتبط بي ، ويلازمني لسبب غامض لا افهمه .

من أنا ..

من يكون هذا اليوسف عبد الحميد السويفي ، هل هو ذلك الصحفى المشهور رئيس تحرير جريدة « الايام » إن صوتاً ملحاً يهمس في قلبي ليل نهار ، يسألني ، هل حقيقة أنت يوسف الذي يعرفه الناس ؟ هل حقيقة أنت يوسف الذي يجلس إلى مكتبه ويدق الأجراس ، ويتكلم في التليفونات ، ويكتب المقالات ، ويحضر الحفلات ، ويقولون عنه إنه ناجح وإنه وصل .

إذا لم أكن أنا يوسف الذي يفعل كل هذا ، فمن أكون .

من أكون أيها الصوت الذي يهمس في قلبي بالسؤال ..

هذا الصباح كنا نشيع محمد ناجي ، كان النعش محمولاً على اكتاف عمال المطبعة ، ومن ورائه يسير المئات ، يقطعون رحلة الوداع بين ميدان التحرير وجامع جركس . كنت أسير وراء النعش في نفس الصف الذي يسير فيه مندوب

رئيس الجمهورية ، ووزراء ، وكبار رجال المال ، بينهم شهدى باشا ، كنت امشى منكس الراس ، حزيناً ، وفجأة انطلق ذلك الصوت الذى يهمس فى قلبى ، انهال علىّ باسئلته .. هل انت واثق انك حزين ، هل انت حزين حقا على الرجل الذى ادخلك هذا العالم العريض ، عالم الصحافة واجلسك على مقعده .. انت فى قرارة نفسك لست حزيناً ، انت تفكر فى اشياء لا صلة لها بالحزن انت تفكر فى سامية ، تفكر فى حبك لها .. هل تعود لها .. هل تتزوجها .

حاولت ان افر من هـذه الأسئلة التى تنهشنى ، قلت لنفسى ، عيب يايوسف ، كن مخلصاً فى حزنك ليس هذا هو وقت التفكير فى مثل هذه الأمور ، محمد ناجى يسمع الآن صوتك الخفى وهو فى نعشه ..

امتنعت عن التفكير ، وقطبت جبينى ، كأنى اقسر نفسى على الحزن ولكنى لم استطع ان اقسر نفسى على الحزن ، تشاغلت بمراقبة المشيعين ، بعضهم حزين ، ولكنه حزين على نفسه ، لأنه عجوز يذكره النعش بنهايته القريبة ، بعضهم جاء ليظهر بيننا وقد ارتدى افخر ملابسه كأنه فى إحدى الحفلات الرسمية ، يمشى منتصب الرقبة ، عيناه زائغتان وراء عيون الآخرين كلما التفت ورائى تلتقى عيناى بواحد منهم ، فيبتسم ، ثم يتذكر انه فى جنازة ، فيرسم على وجهه احزانا مضحكة .. كان شهدى يهمس بلا انقطاع فى اذن سيد شحاتة مدير بنك الاقتصاد ، يلوح بيده مؤكدا شيئا يقوله ، ثم ينظر خلسة إلى ساعته .. لا احد حزين ، وسط كل هذه المظاهر الحزينة ، والناس يقفون على الرصيف يشاهدون الموكب وهو يمر ، بعضهم يتفرج علينا ، ويشير إلينا بأصبعه وبعضهم يقرأ الفاتحة دون أن يدرى من الميت .

ولكنها كانت جنازة فخمة ، لا تنقصها إلا الموسيقى العسكرية لتكون مثل الجنازات التى كانت تبهرنى وهى تمر امامى فى الشارع وانا طفل .

هاأنذا اهرب من صوت قلبى .. هل افلحت .. ابدا ..

لقد بكيت وهم يهبطون بالجثمان إلى القبر ، بكيت مخلصاً ، ولكن حتى وانا ابكى ، كان ذلك الصوت العنيد يسألنى ، هل تبكى محمد ناجى ، أم تبكى

الورطة التى انت فيها .. تبكى لانك فشلت فى ان تحزن على الرجل الذى يجب أن تحزن عليه .

أم تبكى لانك تفكر فى سامية .

أم تبكى لانك كنت تظن يوما ما ان محمد ناجى هو مثلك الاعلى ثم احتقرته ، وسقط من عينيك ولم يعد لك مثل أعلى ..

وكلما انفجر فى قلبى سؤال اشتد بكائى ، والناس من حولى ينظرون إلىّ فى ارتياح ، لأنى اقوم بواجبى وابكى فى اللحظة المناسبة .. خيل الىّ انهم يستريبون مثلى فى سبب بكائى ، ولكنهم راضون تماماً عن هذه المظاهرة التى اقوم بها ..

آه .. كيف استطيع إخماد هذا الصوت .. كيف اقنع قلبى بأن يكف عن اسئلته ..

ولكنى لا استطيع ..

لابد لى ان اواجه هذا الصوت ، واحاول الإجابة على كل سؤال لابد ان اواجه نفسى ، كل ما اعرفه عن نفسى هو انها غير راضية ، تباغتنى بالأسئلة ، انا لا اعرف نفسى على حقيقتها ..

احيانا ينتابنى إحساس مرير بانى فقدت كل شىء ، فقدت نفسى ، اضعتها ، ذلك عندما تخرج اسئلة الشك من قلبى ، تتهمنى فى كل ما افعل .. عندئذ تدهمنى وحدة قاسية ، ولا يدهشنى إذا تلفت ورائى فلم أجد ظلى .

وانا صغير ، كنت اخرج إلى الشارع والهو مع ظلى ، ارقبه وهو يتمدد ويطول ساعات الغروب ، عملاقاً على الارض ، فيملأنى الـزهو ، واحلم بالسنوات القادمة عندما اكبر واصبح فى طول ظلى .. فى ساعات الظهيرة ؛ كنت اقف فى فناء المدرسة فوق ظلى .. اراه قزماً صغيراً ، واسخر منه .. واشعر انى اكبر منه ..

الآن ، لا اظن انى سأجد ظلى لا طويلاً ولا قصيراً ، لا يملأنى بالزهو او السخرية .. ما الذى يبقيه معى ، وقد هجرتنى نفسى .

نعم .. أنا الرجل الذى فقد ظله ..

٦ سبتمبر عام ١٩٢٢ ، منذ تلك الليلة حتى اليوم ٩ أكتوبر ١٩٥٦ ما الذى حدث لى .. كيف كبرت وعشت ، وتعلمت واشتهرت واكتسبت أشياء وأشياء ، وفقدت نفسى ..

إننا نبدأ فى الموت منذ أن نبدأ فى الحياة ، تبدأ الخسارة منذ الكسب تشرع فى رحلة الضياع فى نفس اللحظة التى تشرع فى رحلة الوصول ..

فى الساعة الواحدة بعد منتصف تلك الليلة من سبتمبر ولدتنى أمى ، صرخت أم فهمى الداية .

- خسارة .. ده ولد ..

كانت أم فهمى تظن أنى ولدت ميتاً ، لم أكن ميتاً ، ولكنى جئت إلى هذه الدنيا ، لا أبكى ولا أبتسم ، جئت صامتاً محايداً ، ولم يعجب هذا أم فهمى ، ظنت أنى ميت ، لماذا لا أبكى مثل الآخرين ، قلبتنى فى يدها على ظهرى ، وضربتنى ، وظلت تضربنى حتى بكيت ..

عندما بكيت ، أطلقت زغرودة .. علمت أنى حى ..

كان أبى غائباً عن البيت ، فى الأقصر ، يُدَرِّس الجغرافيا فى المدرسة الابتدائية ، ليلتها سهر على غير عادته مع أصحابه ، وتهور على غير عادته ، وشرب كوب بيرة ، وقال لزميله صبرى أفندى مدرس الحساب وهما عائدان فى منتصف الليل :

- أنا حاسس ياصبرى أن مراتى بتولد ..

فى الصباح وصلته البرقية وهو فى الفصل ، وأمر الناظر بتسليمه البرقية فى الحال ، فضها أمام التلاميذ ، وقرأ .. « مبروك بيوسف » .. لم يتمالك نفسه ، فصاح بين التلاميذ .

- أنا جبت ولد

وضج التلاميذ بالتهليل والضحك

كانت أمى تحكى لى قصة ولادتى وفى عينيها لمعة فرح ، وفى صوتها تهدج كأنها تعيش تلك اللحظة من جديد .. شهور الحمل .. ولد أم بنت .. لو كان

ولداً سنسميه يوسف على اسم شقيقى الذى مات .. المخاض .. صراخ أم فهمى .. خسارة .. قطعة اللحم الحمراء وأم فهمى تقلبها فى يدها .. كف أم فهمى وهو ينهال بالضربات .. الصوت الحاد الرفيع الذى انفجر باكياً .. ولد .. ابنى .. يوسف .. يوسف عبد الحميد السويفى .

فيما مضى ، كنت أصدق حكاية أبى ، أنه شعر فى نفس الليلة بأنى قد ولدت ، وأن قوة خفية جعلته يسهر ويشرب البيرة على غير عادته .. ولكنى الآن أشك فى أنه حدد موعد ولادتى وهو بعيد عنا .. أشك فى أنه اخترع هذه القصة لأمى .. ربما ليعتذر لها عن غيابه أو ليثبت لها أنه شاركها بعض قلقها وآلامها .. لماذا أشك .. لا أعرف السبب .. ولكنى أصدقه فى أنه سهر تلك الليلة وشرب البيرة ..

كنا نسكن فى ذلك الوقت فى حارة زكى المتفرعة من شارع السد ، أمامنا مستوصف عرفت بعد سنوات أنه للأمراض السرية ، وأن النساء اللاتى يترددن عليه ، يثرن تعليقات لاذعة من أهل الحى ، وكان تحت بيتنا دكان وحيد ، لعم برعى بائع الطرشى .. إنه مازال يشغل دكانه حتى اليوم ..

كنت أسأل أمى :

- وضربتونى ليه ياماما ..

- علشان نعرف أنت صاحى والا .. لا ..

لم تكن تجسر أن تقول .. صاحى والا ميت .. ولكنى كنت أرددها لنفسى .. صاحى والا ميت .. ثم أحاول إقناع نفسى .. بأن الصاحى لابد أن يبكى .. والميت لا يبكى .. والساكت يضرب حتى يبكى ..

- هوه لازم أعيط ياماما علشان تعرفوا أنى صاحى ..

- أيوه ..

- ليه ياماما ..

كنت أسألها فى غيظ ودهشة ، فكانت تجيبنى وهى تضحك :

- كده ..

- كده ليه ياماما ..

فتحتار ، وتتهرب من اسئلتى اللحوحة ..

ولكنى كنت جادا فى سؤالى .. كلما فكرت فى هذه البداية لحياتى شعرت بأنى استقبلت استقبالا سخيفاً ظالماً وشعرت بالعناد .. ما الذى جنيته حتى اضرب ، لماذا تضطروننى إلى البكاء .. اتركونى لحالى ، لا تلمسونى .. الا توجد حياة بغير بكاء وضرب ..

انا مازلت أحلم بذلك الشعور بالبراءة الذى عرفته وأنا طفل .. البراءة التى لم اكن اعرف انها براءة .. شعور صريح مباشر حلو .. هذه هى الحياة كما يجب ان تكون ، كما يجب ان تظل فينا حتى النهاية ..

ترى ما الذى يفسد هذه البراءة فى نفوسنا .. لقد فقدتها .. كنت ارى امى هناك فى آخر صالة البيت ، فأندفع نحوها فى شوق ، لا يحول بينى وبين شوقى إليها شىء .. افتح ذراعى ، واجرى نحوها واضرب راسى فى جسدها ، حتى تتشبث يداى بساقيها ، وتحتضننى وتقبلنى ، فاشعر انى اضم الحياة ، واشعر انى احيا ..

لا التواء ولا تعقيد .. اجوع فاصرخ باعلى صوتى .. انا عاوز آكل .. يخيل إلىّ انى عطشان ، مجرد وهم بالعطش ، فأصيح فى منتصف الليل .. عايز اشرب .. اسمع ابى يكلم امى فى جفاء ، فازعق فيه .. انت وحش يابابا .. أنا موش باحبك .. لا شىء اكتبه ، لا خاطر اردعه ..

انا هو انا ..

ما اريده .. هو ما أريده ..

لا التواء .. لا تعقيد .. لا خجل .. لا شىء يفصل بينى وبين نفسى ..

عندما كبرت ، اصبحت الرجل الذى يلف ويدور ، عرفت الخجل ، قلبى قال كلاماً لم يسمعه احد ، ولسانى قال كلاما آخر سمعه احد الناس ، براءتنا تذوب ، ونفوسنا تنهزم ، عندما احببت سامية ، قضيت الليالى مؤرقا أتعذب ، لا ادرى هل انا احبها ام لا ، هل هى رغبة ، مجرد رغبة اريد إشباعها ، هل هى شفقة ، هل حبى بلاهة وحماقة ، هل اعترف لها بحبى ، هل اكتم مشاعرى .. لم اعترف لها حتى كادت هى تعترف لى .. لماذا لم اندفع نحوها

مادا ذراعى ، أطوقها واعانقها واقبلها .. وأقول لها بصراحة الطفل : أحبك ، أريدك .. ما الذى يعقد الحياة ، ما الذى يحول براءتنا إلى سذاجة محرمة .. ما الذى يحول الصراحة إلى خجل أو نفاق .. ما الذى يجعل العيب عيبا ..

اريد ان اعرف ، اريد ان اعرف ..

اول شىء أحبه ، اول شىء أذكره فى حياتى ، هو نور قوى لا ادرى من اين يجىء ، مسلط علىّ ، ووجه أمى إلى جانب النور ، وجه ابيض حلو مدور ، وعينان عسليتان حنونتان ، وجسمى عار ، واصابع امى تمتد إلى ظهرى فتضع عليه شيئا لزجا باردا ، صورة خاطفة لا استطيع ان انساها ، لا اذكر ما كان قبلها ، ولا ماذا كان بعدها هذه الصورة ترتبط عندى بالحنان ، لا أشعر بالحنان حتى اليوم ، إلا وتذكرت النور القوى ، ووجه أمى الابيض ، وعينيها ، والشىء البارد تضعه أصابع أمى على ظهرى .. كانت سامية تلاحظ احيانا شرودى ، وتسألنى . ماذا بى ؟ فأقول لها اى شىء ، ولا أذكر لها تلك الصورة التى اتذكرها ..

سألت أمى ذات مرة :

- أنا فاكر ياماما وانا صغير .. كنتِ بتحطى مرهم ساقع على ضهرى ..

سألتها باهتمام ، وكأنى استعيد أخطر ذكرياتى ، ذكريات طفل فى السابعة من عمره ..

وتذكرت أمى فى الحال ، وأظهرت دهشتها ..

- أنت فاكر ده ..
- أيوه ياماما ..
- ده كان عندك أربع سنين إلا .. كنت صغير قوى ..
- وفاكر كان فيه نور ..
- نور ايه ..
- نور جامد قوى .
- يمكن ..
- موش فاكراه ياماما ..

- هوه أنا كنت في ايه والا ايه .. ايامها كان عندك الجديري .. وكنت خايفة خالص عليك ..

وفاجأني ما علمت ..

أهذا الحنان ، كان مرضا .. مرضاً مخيفاً .. لا .. إني أرفض هذا .. أنتم أيها الكبار تسمونه أي شيء ، أما أنا فلا أذكر إلا ما أذكره ، إنها ذكرى جميلة تعلمت فيها الحنان ..

وسألتني أمي وقد فاضت بها الذكريات .

- وفاكر لما كنت بتصحى في نص الليل .. وتصرخ ..
- لأ ..
- ياه .. ده أنت غلبتني .. قعدت اربع ليالي ما اشوفش فيها النوم ..

لقد عذبت أمي ، أرهقتها وأنا لا أدري .. أنا لا أريد أن أعذبها ، ما ذنبي أنا ..

ولكني شعرت بالذنب ..

مثل تلك القصة التي سمعتها من أبي ألف مرة ، يرويها وهو يتعجب ويتندر .. هذه القصة أيضاً أشعرتني بالذنب ..

كان عصر يوم ، وكنت سأدخل بعد شهر المدرسة الابتدائية ، وقال أبي لأمي إنه خارج لمقابلة رجل كبير في وزارة المعارف .. وكرر أبي كلمة « جروبي » ..

- ح اقابله في جروبي ..

جروبي ده حلواني كبير قوي مايدخلوش إلا الذوات « فنجان قهوة بتلاتة صاغ » نص فرنك ثمن القهوة .. وقرش صاغ بقشيش والتفت إليّ أبي يسألني ..

- تحب تيجي معايا جروبي ..
- ايوه يابابا ..

فقال لأمي :

- أنا عايز منصور بيه يشوفه .. ويعرف إن عندي ولد في ابتدائي .. وأنا عايز انتقل علشان اعرف أربيه ..

كان أبي يعمل وقتها في دمنهور ، وقد أوشكت إجازته على الانتهاء . وشعرت وأمي تلبسني القميص والبنطلون القصير ، وتمشط شعري ، أني مقبل على شيء خطير .. سأظهر أمام منصور بيه ، وسيقنعه هذا بأن يبقي أبي معنا ..

لا أذكر بعد ذلك ، إلا جلسة مملة في حديقة مزدحمة ، وأربعة أو خمسة رجال يجلسون بينهم منصور بيه ، الذي كان قصيرا جداً ، يضع على عينيه نظارة ، وأسنانه ذهبية تجعل ابتسامته مخيفة .. خاصة عندما صوب إليّ ابتسامته وأبي يحدثه عني .. وسألني منصور بيه سؤالا .. أذكر فقط ، أني رفضت الإجابة عليه ، وعيناي معلقتان بأسنانه الذهبية .

وأذكر صياح أبي :

- أنت مكسوف ليه ..

لم أكن خاجلاً من شيء ، كنت أفكر كيف يأكل منصور بيه بهذه الأسنان ، وكنت لا أريد أن أقول شيئا ..

وفجأة قال أبي ..

- لأ .. ده أنت طلعت حمار ..

واتسعت ابتسامة منصور بيه ، وضحكوا ، أما أنا فقد خفضت عيني أنظر إلى قميصي الجديد .. وبنطلوني ، وحذائي .. أرفض في عناد أن أقول شيئا .. ثم تشاغلت عنهم بمراقبة طفل على مائدة بجوارنا يأكل الجيلاتي ..

بعد قليل قال أبي :

- يالله بينا نقوم يايوسف .. أنت باين عليك عايز تنام ..

قلت ببساطة :

- لأ .. نستنى شويه ..
- ليه ياسيدي ..
- لما الولد ده يخلص الجيلاتي بتاعه ..

وضجوا بالضحك .. ما الذي يضحكهم .. إني أرقب طفلاً سعيداً .. يأكل الجيلاتي في نهم .. هل ارتكب شيئاً .. ما ذنبي ..

وعاد أبي إلى البيت ليقول لأمي :

- ابنك كسفني وسط الناس .. منصور بيه يكلمه ما يردش عليه .. عامل زى البنت ..

وتقول أمي :

- ليه كده ياحبيبي .. موش عيب .. لما حد يكلمك ترد عليه .

وينفجر أبي ..

- ياريت على كده وبس .. انتِ ما بتوكليش ابنك .. طالع عينه زايغة على حاجة الناس ..

كسفني .. أقول له يالله بينا نروح .. يقول لى .. استنى لما الولد يخلص الجيلاتي بتاعه .. ولد قاعد على الترابيزة اللى جنبى .. فضحنى .. يقولوا ايه ما بتجيبلوش حاجة ..

وتضحك أمي في خجل ، ثم تقول له في تحد :

- وايه يعني .. ماجبتلوش جيلاتي هوه كمان ليه ..
- قلت له .. قال لا عايز كازوزة ..
- كنت هات له جيلاتي كمان .
- مارضيش .. الظاهر انه اتكسف لما ضحكوا عليه ..

لم أخجل .. أنتم لا تفهمونني .. تحولون الأشياء إلى غير معناها .. لم أكن أريد الجيلاتي ..

كل ما حدث ، هو أني أعجبت بمنظر الولد .. شعرت بما يشعر به .. أحسست أني أفهمه .. قريب منه .. يبدو لا فائدة في أن أتفاهم مع الكبار ..

هذا الحادث مازال عالقاً في ذاكرتي أظن أني لن أنساه أبداً .. ما الذي يجعلنا نتذكر أشياء ، وننسى أشياء .. ترى أي أشياء حدثت لى ونسيتها ، لا أشك أنها كثيرة .. كثيرة جداً .. الأشياء التي نذكرها تحركنا في الظاهر ، والأشياء التي ننساها تحركنا في الأعماق ..

هل أنا أتفلسف .. على أية حال هذه فرصتي كي أتخلص من يوسف عبد الحميد الصحفىّ الذي يعيش معي .. أنه يفر من نفسه ليغرق في مشاكل الآخرين ، يلهث وراءهم ، علمته الصحافة أن يهرب من نفسه .. لا أظن أني أتفلسف .. كل ما أريده هو أن أكون مخلصاً مع نفسي ، أن تكون هناك صداقة بيني وبين نفسي ، أقول كل شيء ، أواجه نفسي بكل شيء .. حتى لو جرحتها .. حتى لو أهنتها ..

أريد أن أستعيد الذي فقدته ..

●●

كنت أقطع شارع السد مرتين كل يوم في ذهابي وإيابي من مدرسة خليل أغا الابتدائية ، كنت أسير والذعر يملأني ، عيناى مضطربتان زائغتان ، أنفاسي مخطوفة كل رجل أمر به سيخطفني ، كل امرأة في الملاءة اللف ترقبني من خلف البرقع وتصوب إلىّ عينيها السوداوين لتحسدني ، كل طعام أراه وأشم رائحته مسموم ، براغيث الست مسمومة ، الكشري مسموم ، والكنافة مسمومة والخيار مسموم هكذا قال لى أبي ، وهكذا قالت لى أمي تنفيذا لتعليمات أبي ، كنت أصادف أحيانا الحاوى وهو يأكل النار ويلعب بالثعابين ، أو النقرزان يرقص والصولجان مرتفع على أسنانه ، أو القرداتي وهو يأمر القرد العجوز ليعجن عجين الفلاحة ، وكانت الحركة في الشارع تكاد تقف ، لتشاهد هذه الألعاب ، الذى يهبط من دراجته ليتفرج ، والتي تحمل الصاج وتندس بين الزحام لتتفرج ، والذى يقرض أسنانه ويتفرج ، والذى يشب على أصابع قدميه ليتفرج ، وأنا وحدى لا أستطيع أن أتفرج ، تدوى في أذني نصائح أبي ، هادرة راعدة ، كل هؤلاء الحواة لصوص وقتلة ، والأولاد الفاسدون هم وحدهم الذين يقفون ويتفرجون ، أولاد ليس لهم أهل وتنقصهم التربية ..

كنت أسرع كالمطارد إلى البيت ، وأصعد السلم وأنا ألهث ، لا أدرى كيف

نجوت من كل هذه الأخطار التي تعترضني في الطريق ، ولكنني أطل من النافذة في ساعات العصر ، أرقب الشارع في فضول ونهم ، أرقب بهجت وحودة وأنفش يلعبون الكرة ، ويجرون وراء عربات الرش ، حفاه ، رفعوا جلاليبهم ، فتعرت سيقانهم وأفخاذهم لتستقبل المياه المتدفقة ..

كنت ألعب معهم في مكاني خلف النافذة ، أحاور ، وأركل الكرة بقدمي فتصطدم بالجدار أسفل النافذة ، وأشعر بالماء يغسل ساقي ، والوحل والطين يلوثان أصابع قدمي ، وأسمع السباب والشتيمة ، فتنتابني رجفة خوف ، وأتساءل : هل أستطيع أن أردد مثلهم هذه الألفاظ .. هل أستطيع أن أرددها ولو همسا ..

وتأتي ساعة الغروب .. فأتوه مع خيال غامض ، البيوت تنكمش ، وناموسية شفافة تتسدل على الشارع بمن فيه ، وكأن الضجة تبتعد ، والزحام يتفرق ، والناس تتمهل في مشيتها ، والشارع يلين ، يخوض فيه المارون ، وعندئذ ألمح عفريت الليل قادما من بعيد ، يجري ، يرتدي بدلته الصفراء ، وتغطي رأسه طاقية من الصوف الأبيض حولتها القذارة إلى لون رمادي ، يحمل في يده عصا طويلة جدا ، في رأسها لهب ، وأكتم أنفاسي وأنا أرى في دهشة .. المصابيح تضيء واحدا تلو الآخر .. ويختفي العفريت في صمت وسرعة ، بينما يقاوم أنفش العتمة ، فيواصل اللعب ، ثم يهدأ مع بقية الأولاد عند مصباح غاز ، وتطل من نوافذ المستوصف الممرضات ، واحدة في شباك ، واثنتان في شباك آخر ، اليد على الخد ، والأذن في الفم ، وضحكة عالية تطرقع بين لحظة وأخرى ..

في ذلك الوقت ، قبل أن يشتد الظلام ، ويشتد ضوء المصابيح ، كنت أتمتع بسماع نداء الباعة ، كان بائع الجميز يقترب في بطء شديد ، يدفع عربته ، منشدا ..

« لبن أمك يا »

« على فمك يا »

« جميز »

والخيار والباذنجان المخلل ، وبوريك سخن جبنة وعجمية وتوبي .. كلها سموم ينادي عليها الباعة ، وأسمع النداء ، وأتساءل لماذا لا أذوق السم ..

وفجأة أسمع نداء أمي ، وأنتبه إلى أني مازلت داخل البيت ، خلف النافذة ، فأنسحب إلى الصالة لأجد الرغيف وقطعة الحلاوة الطحينية وقطعة الجبن الرومي والزيتون الأسود ..

- ماما .. أنا نفسي في سمك مقلي ..
- بكره أعمل لك سمك ..
- أنا عايز من السمك اللي في الدكان اللي على الناصية ..
- بابا محرج علينا نشتري سمك من السوق .. اللي بياكلوه بعد الشر عليك بيتسمموا ..
- ريحته حلوه ياماما ..
- بكره أعمل لك أحسن منه ..
- لأ .. أنا عايز من اللي في الدكانة ..
- بكره أعمل لك أحسن منه ..
- ما اقدرش يابني .. يجيلك اسهال .. أبوك يموتني ..

وأكل الحلاوة والجبن ، وأفكر في كل هذه الشرور والسموم التي تحيط بنا وتنتظرنا في الشارع ..

لم أخف من الشارع وحده .. خفت أيضا من المدرسة ، كان أنفش يجلس خلفي في الفصل ، رغم أنه أكبر مني وأطول مني ، له أنف ضخم لم أر له مثيلاً في حياتي ، صوته غليظ ، وكان المدرس يضربه ، فيثور في وجهه ولا يبكي أبدا ، وعندما نخرج إلى الحوش ينتقم أنفش لنفسه ، يتحول إلى غول شرس ، يصب نقمته على كل من يلقاه ، ويصب نقمته عليّ بالذات .

كنت نحيفا قليل الجسم ، لا أشترك في الخناقات ولا أنضم للعصابات ، بل أنزوي في الحوش ، وأجلس على دكة تحت الناقوس ، لأني كنت أحب مراقبة عم بسيوني ، وهو يقف ممسكا بساعته ، ينظر إليها في قلق ويده ممسكة بسلسلة الناقوس ، ثم يتجهم وجهه ، ويضع الساعة في جيب

الصديري ، ويدق الناقوس بكلتا يديه ، فيتحرك اللسان الضخم في داخل الناقوس ، محدثا ذلك الرنين الكبير ذا الصدى العريض .. وكان أنفش يراني أحيانا ، فيعبر بي وهو ينظر إلي شزرا ، ثم يقف ، وكأن نظراته لم تشف غليله ، ويتقدم مني ، وينخزني بأصبعه في صدري ، متهكما ..

ـ ياواد انت قاعد لوحدك ليه ..

فتدور رأسي ، ولا أستطيع الكلام ، ويستأنف أنفش صراخه .

ـ ماترد عليّ .. بتتقنزح ليه ..

أهمس وجلا ..

ـ أنا بتقنزحش ..

ـ لا .. أنت بتتقنزح .. فاكر نفسك مين ..

ويلتفت إلى من معه .. ويقول ساخرا كأنه يشتمني ..

ـ علشان أبوه مدرس ..

ويصيح واحد ..

ـ وأبوه مدرس صحيح .. ؟

يقولها في دهشة وحسرة .. بينما يصيح آخر ..

ـ متصدقوش ..

فيصرخ أنفش ..

ـ ايه يعني مدرس .. المفتش أحسن منه . المفتش يرفد أبوك ياواد ..

ويتحول خوفي إلى غضب ، ولكني لا أجسر على فعل شيء .. أهمس بصوت متحشرج ..

ـ والله لاشتكيك للأفندي ..

ـ تشتكيني ياواد ..

ويركلني في قدمي بحذائه الغليظ ، ويجذب قميصي يريد أن يمزقه ، ويصيح وهو يرتعش من الانفعال .

ـ أنت عايز تتخانق معايا ياشاطر .. هو .. ياروح أمك ..

وأسمع الشتائم الجارحة ، فأكاد أبكي ، ولكني لا أبكي . ويبدو أن

منظري كان يثير الشفقة ، إذ يتدخل الآخرون ، ويحولون بين أنفش وبيني ، فيتركني وهو ينظر إلي في حقد ، ويبتسم ابتسامة من يتشفى .. ومع ذلك أشعر وهو يبتعد ، أنه خائف ..

كنت أتحاشاه ، ولم أشك لأحد .. حتى عندما كان يتمزق حذائي بسبب ركلة قوية صوبها أنفش عامدا .. وأعود إلى البيت ، وأدعي أني كنت ألعب الكرة ، ويوبخني أبي ، ويتهمني بأني لن أفلح ، ويتهم أمي بأنها أفسدتني ، فتحزن ، وأحزن من أجل أمي ..

كان خوفي من أنفش مقصوراً على ملاقاته ، ولكني عندما أعود إلى البيت وأرقبه من النافذة أتحمس له ، وهو يسيطر على الكرة بجسمه الضخم ، وألعابه الخشنة ، وصوته الغليظ وشتائمه التي يطلقها في غل وكأنه فقد عقله .. كنت أشعر بنشوة غريبة .. عندما أشاهده يتشاجر ، ويتمزق جلبابه ، ويسير غير مكترث بشيء ، وقد كشف التمزق عن ظهره أو كتفيه .

ذات يوم تحولت مخاوفي من أنفش إلى صداقة ، كان قد جاءنا مدرس حساب مجنون يدخل الفصل ومعه حقيبة سمسونيت وكنا نقف له كعادتنا ونرفع أيدينا بالتحية ولكنه منذ أول يوم وأول لقاء .. لم يقل لنا « جلوس » بعد التحية بل صوب إلينا نظرات غريبة باسمة وفتح الحقيبة السوداء وأخرج منها مسطرة خشبية مضلعة ، وقال بصوت هادىء :

ـ خليكم واقفين .. انتم شايفين إيه اللي في إيدي .. دي اسمها ست الحاجة ..

وشخط فجأة بصوت رهيب :

ـ كله يفتح أيده ..

قبل أن نفهم ماذا يريد كان قد انطلق يضرب الفصل كله ، واحدا واحدا بغير استثناء ، وإذا صدر من أحدنا صوت ، أو أنين ، هاج وفقد سيطرته على نفسه . وتقوس حاجباه ، وظل يضرب صاحب الصوت ، حتى ينهار ويتكوم على الدرج ، وبعد أن يفرغ من الضرب ، يعود إلى مكانه ويبتسم في هدوء ،

وكأنه لم يفعل شيئاً ، ولكني كنت الاحظ حبات العرق تتقاطر من جبهته ، كما الاحظ تلاحق أنفاسه وشحوب وجهه ..

ذات يوم رفض أنفش أن يمد يده ، فصاح سعفان أفندى ..

- افتح ايدك يامجرم ..

فأجابه أنفش بصوته الغليظ المتحدى ..

- لا موش فاتح .. هوه ايه هوه ده ..

فضربه بالمسطرة على كتفه ضربتين وقبل أن يضرب الثالثة امسك أنفش بالمسطرة وانتزعها منه .. وفجأة تغيرت ملامح وجه سعفان افندى ، ذكرنى بشحاذ يمر أمام بيتنا في الصباح ، وجهه ذليل ويده ترتعش ويقول بصوت ممطوط .. أدونى حتة لقمة غموس لله .. وكانت أمى تضحك وترسل له مع فاطمة الخدامة رغيف عيش وصحن ملوخية أو بامية .. وتقول في عجب ..

- أنا عمرى ماسمعت شحات بينادى على غموس إلا الراجل ده .

ثم تقول كأنها تخاطب نفسها .

- إنما والله معذور .. ح يعمل ايه بالرغيف لوحده ..

وكانت فاطمة تبدى الامتعاض وهى تحمل صحن الطعام وتتمتم ..

- وجع بطنه .. شحات وعايز يطفح ملوخيه ..

وكنت ابتسم ..

تذكرت هذا المنظر ، وسعفان افندى يمد يده متوسلا إلى أنفش .

- هات المسطرة علشان أضربك ياولد .. يامجرم ..

وأنفش يرفض .. في عناد وتصميم ..

ويزداد وجه سعفان افندى ذلة وتوسلا ..

- ياابنى هات المسطرة .. أنا بأدبك ..

وابتسمت ..

وكان ابتسامتي هي المخرج الوحيد لسعفان أفندى من الورطة التى وقع فيها ، إذ ترك المسطرة ، وأنفش ، وانقض علىّ صارخاً في جنون ..

- اطلع عند السبورة يامجرم .

خرجت وأنا أتصور إنى ميت لا محالة ، وكدت أخرج من الفصل وأهرب من المدرسة كلها ، وعاد سعفان افندى إلى أنفش ، وأخذ منه المسطرة ، ثم عاد إلى ووقف يتأملنى عابسا ، وفجأة تهلل وجهه وصاح مشيرا إلى صندوق خشبى يستعمل في إلقاء المهملات ، وأمرنى أن أجلس داخل الصندوق .

وضج الفصل بالضحك ، أما انا فخيل إلىّ انى أحلم ، انى في حياة أخرى غير مفهومة .. ترددت ، ولكنه لوح بالمسطرة في وجهى ، فاقتنعت بضرورة الامتثال للأمر في الحال ، وجلست القرفصاء داخل الصندوق .. كنت أجلس على حافته وقدماى داخله ، وحك سعفان افندى طرف المسطرة في ذقنه ، وعيناه تضيقان وتتسعان وحاجباه يتقلصان ويرتفعان وينخفضان ، ثم استدار ناحية أنفش وصاح فيه .

- أنت يالوح - تعال هنا ..

خرج إليه أنفش ، وهو يتمايل مبرزاً عضلات ساعديه - ووقف امامه واستدار سعفان أفندى إلى بقية الفصل وأشار إلى اثنين آخرين ، خرجا ووقفا بجوار أنفش ، وصاح فيهم ووجهه يفيض بالسعادة ، وعيناه تلمعان بفرح وحشى ..

- شيلوا الزبالة دى .. وحطوها على الشباك ..

نظرت إلى أنفش وزميليه .. فوجدتهم يترددون في تنفيذ الأمر ، عيونهم قلقة بينى وبين النافذة ، ولكن سرعان ما اشرقت البهجة على وجوههم ، وكأنهم اكتشفوا لعبة مسلية ، وحملونى بالصندوق ووضعونى على حافة النافذة .. كنا في الطابق الثانى ....

صاح التلاميذ مهللين ، وتركهم سعفان أفندى يهللون ، وأنا ارتعد وأرتجف مكانى ، أية حركة قد تبدر منى ، ستقذف بى محطما .. لم أخف في حياتى مثل ذلك اليوم ، وكلما خفت تذكرت ذلك اليوم . دوار في رأسى ، قلبى يدق بعنف ، الهواء البارد يضرب ظهرى المبلل بعرق مثلج ، صور محمومة

تعربد فى رأسى . أرى أمى تصرخ ، أبى يقف مستسلما وهو يرانى أسقط من النافذة ، سعفان افندى يهجم على فى أية لحظة ويدفعنى بالصندوق ..

بعد انتهاء الحصة ، جاء أنفش ، وربت على كتفى وقال :

- معلهش ماتزعلش .. روح اشتكى للناظر .. قول لأبوك ييجى يتكلم مع الناظر .. ده يترفد ..

والتفت أنفش للملتفين حولنا وقال ..

- سعفان افندى مايعرفش ان أبو يوسف مدرس ..

ثم عاد يقول لى :

- ده واله ياابنى يقدر يوديه فى داهية .. ولاد المدرسين ماحدش يقدر يعمل لهم حاجة ..

وسألنى احدهم وهو خائف ..

- أنت كنت خايف ..

همست :

- لا ..

فصاح أنفش .

- ده أشجع واحد فيكم ..

وصوب إلى نظرة من يريد أن يتفاهم معى ، ويدعونى إلى صداقته وابتسم ، وابتسمت .. وسرنا معا فى الحوش ، وهو يحاول أن يكون رقيقا مؤدبا فى كلامه ، كان يتحدث بعاطفة ، والدموع تكاد تطفر من عينيه .. وقال :

- أنا ح أقول لخالى كمان .. يكتب شكوى لوزير المعارف .

أطرقت برأسى .. وسكت .. فمضى يقول ..

- أصل أبويا مات .. تعرف يايوسف .. أنا أمى بتقوللى إن احنا كنا ناس أغنيا .. تصدق .. كان عندنا فلوس كتير .. وبعدين أبويا ضمن واحد فى تجارته .. جه الواحد ده .. الله يخرب بيته .. فلس .. وراحت فلوس أبويا .. مات من الحسرة ..

- البقية فى حياتك ..

- خالى موش غنى زى أبويا .. إنما أهو بيقدر يدفع لأمى حاجة .. بيشتغل مفتش فى الترومای .

سألته فى اهتمام .

- بيفتش على الكمسارية ..

قال فى زهو :

- وعلى الركاب .. بالك لو ركبت الترومای .. لو أجدع باشا ركب الترومای ولا دفعش التذكرة .. خالى يعمل محضر للكمسارى .. ويدفع الباشا ثمن التذكرة .

وسرنا بضع خطوات قبل أن يقول أنفش :

- دى وظيفة مهمة يا ابنى .. احسن من مدرس .. حتى اسأل أبوك .. زى الظابط .. بيلبس بدلة فى الصيف صفرة بزراير نحاس ، وفى الشتا بيلبس بدلة زرقه صوف إنجليزى تخن كده .. وزراير أبنوس ..

صدقت كل حرف قاله لى .. وشعرت بشىء من الأسى .. أبى ليس مثل خال انفش ، وعندما عدت إلى البيت ، لم أقل شيئا لأبى عن حادث صندوق المهملات ، وطبعا لم أقل شيئا لأمى ..

وفى اليوم التالى سألنى انفش .

- قلت لأبوك ..

- لا ..

- ليه .. خفت ..

قلت فى حيرة ..

- ما اقدرتش ..

فبدأ عليه الانشغال بالتفكير . ثم هز رأسه وقال ..

- ماتزعلش .. أنا ح أضربهولك فى الشارع وهو راجع من المدرسة ..

فهالتنى الفكرة ، وحاولت أن اجعله يعدل عن قراره .. فسألته .

- وخالك .. موش ح يشتكى لوزير المعارف ..

فضحك في عصبية .. واشتد ضحكه عالياً ، صاخباً ، كأنه يتألم من الضحك .. وقال وعيناه مغرورقتان بدموع الضحك :

- خالي مين يا ابني .. ومن يسأل عنه هو حيلته حاجة ..

سألته جادا .

- هوه .. موش مفتش ..

قال في مرارة :

- ويعني ايه مفتش .. ده عمر ما كان في جيبه نص ريال .. عمال يشعبط في الترومايات .. ويرجع آخر الليل عنده روماتيزم .

وهز رأسه وقال ساخراً :

- انت لسه صغير ..
- يعني انت اللي كبير ..
- أنا عندي تلاتاشر سنة ..

كنت وقتها في التاسعة من عمري في فصل ثالثة ثالث ..

وكنت أشعر انى لا أفهم أشياء كثيرة ، ورغم ذلك أشعر كان احساسا مبهما يقودني ويحركني ، وكان هذا الإحساس يقول لي امنع انفش من ضرب سعفان افندى ، ان هذا عمل خطير ، لا يمكن الاقدام عليه .. ومع ذلك استسلمت لانفش وهو يجذبني من يدى بعد انتهاء اليوم الدراسي قائلاً في اهتمام وعلى وجهه علامات الجد .

- تعال معايا ..
- ح نروح فين ..
- ح نضرب سعفان افندى ..

وسرت مع أنفش ..

●●

تلفت حولي وقد ايقنت اني تائه .. هذه الشوارع لا أعرفها ، إننا نبتعد عن طريق عودتنا إلى البيت نخوض في طرقات لا نهاية لها ، مجهولة . وأنا لست

واثقاً ان انفش يستطيع ان يعود بي إلى شارع السد ، ولكني لا استطيع ان اقول له إني لا أثق به ، رغم كل شيء هو طيب وغلبان ، لا اريد ان افقد صداقته ، وأجعله عدوا لي من جديد .. إنه قوة باطشة بلا عقل ، الفاظ نابية بلا خجل ، ولكنه طيب ، سأتركه يتوه ، وسأتحمل كل ما يحدث ، سأتحمل قلقهم في البيت ، وكلمات التوبيخ التي سيستقبلونني بها ، لو كان ابي في البيت سيضربني ، لو كان في المقهى فستقرصني امي في فخذي ، سأرى علامة زرقاء في فخذي .. قرصاتها تؤلمني ، سأتحمل من اجل انفش .. لست خائفاً منه ، ولكني لا أريد ان اتخلى عنه .. لا استطيع أن اتخلى عنه ..

المشي في الشوارع مع انفش له طعم جديد ، لا يهمني شيء ، لا اكترث بهدير الترام ، ولا أبواق السيارات ، لا أخشى عيون الناس ، أنا مع انفش القوى ، مع صديقي أنفش ، ومع ذلك فإلى أين نحن ذاهبان .. كيف سنعثر على سعفان افندى .. كيف سنضربه .. ما أدراه أن هذا الطريق الذي نسير فيه يؤدى إلى سعفان افندى .. أسئلة تلح عليّ ، ولكن لن أبوح بها ، لا أظن أن انفش سيستريح لو سألته ..

وداخلني شعور بالاطمئنان .. لن نعثر على سعفان أفندى ، لن نذهب إلى أي مكان .. أنفش لا يعرف شيئاً على الاطلاق .. إنه تائه مثلي ولا يريد أن يعترف بأنه تائه ..

سرت وعيناي مصوبتان إلى نهاية الطريق ، لا تريان شيئاً ، ولكنهما تتوقعان شيئاً مفاجئاً يبرز امامهما في اية لحظة .. شيئاً غريباً لا يخطر على بال .

وبلغنا محطة ترام ، وكان ترام رقم خمسة يغادر المحطة ، عندما صاح أنفش فجأة وهو يجرى مندفعاً نحو الترام :

- تعالى نلحقه .

لم ينتظرني ، وقبل أن افكر في إطاعته كان قد قفز إلى سلم الترام ، الذي انطلق مبتعداً ، وهو يلوح لى بيده يستحثني على اللحاق به .. وقفت ذاهلاً بلا

حراك .. وكان الترام قد قطع نصف المسافة إلى المحطة التالية ، عندما اندفعت أجرى وراءه .. الترام يجرى وأنا اجرى وراءه .. وصيحات تحذير تدوى فى أذنى ، وابواق السيارات وشتائم وصرخات تطاردنى .. جريت وجريت حتى شعرت بألم في قلبي ، وأنفاسى تمزق صدرى وساقاى تخزهما إبر ، ولم أعد استطيع مواصلة الجرى ، والترام يبتعد مسرعاً ، ولم اعد قادراً على الوقوف ولا المشى ، قدماى تتدحرجان ، والعرق يتصبب من وجهى ويغطى عيني كالدموع والدنيا من حولى تتسع وتبتعد ، وفي حلقى طعم جرح ينزف دما ... شعرت أني عاجز ، ضعيف ، ضاع منى انفش وهو وحده الذي يعرف طريق عودتى ، قبل أن أفيق من مخاوفى رأيت انفش قادماً يضحك ولكنه زعق غاضباً عندما اقترب منى ..

- ما ركبتش ليه ..
- مالحقتـــش ..
- مالك بلمت .. وأنا عمال أشاور لك .. لحد ما الترومای مشى .. ده انت خيبة قوى ..

اطرقت خجلاً ، وهو يسخر منى إلى أن قلت له فى عناد :

- إحنا رايحين فين ؟
- باب الخلـــق ..
- هو سعفان افندى ساكن هناك ؟
- أيوه ...
- وايه اللى عرفك :
- أنا عارف ... بأشوفه يركب ترومای نمرة خمسة كل يوم ..
- وتعرف بيته منين .
- تسأل عنه .. فيها إيه ..
- عايز تضربه في بيته ..

كنت اتخيل ونحن الاثنان ونقتحم بيت سعفان افندى ونضربه .. كنت اتخيل بيتنا ، وسعفان افندى مكان ابى ، وانتابتنى قشعريرة ..

قال أنفش في ضيق :

- كان زماننا وصلنا ..

قلت مستسلماً :

- نركب الترومای اللی بعده .

قال فى تردد :

- انت ما تعرفش تتشعبط .. ولا تعرف تنط .. انا يا عم ما ادفعش فلوس في الترومای ..

ثم سألنى في لهفة :

- معاك فلوس ..
- معايا نص فرنك ..
- هاتـــه ..

قلت خائفاً وأنا اضع يدي في جيبي لاخرج القرشين :

- وح نرجع البيت إزاى ..

ايقنت أن نقودى ضائعة ، وبعد أن أسلمها له لن أستطيع العودة إلى بيتنا ..

قال وهو يمد لى يده في انتظار النقود :

- أنا ح ارجعك .. ما تخفش . بس هات النص فرنك ..

خطف النقود ، وتفحصها كأنه يراها لأول مرة في حياته ، وضحك وقال في حرارة :

- انت زى أخويا ..

قالها في تأثر شديد .. فصدقته ..

ثم أردف قائلاً :

- إحنا ح نفضل صحاب على طول .. ح نلعب مع بعض .. ونتفسح مع بعض ..

وقطع كلامه ودخل دكان بقالة وقال للبائع وهو يناوله نقودى :

- اديني سيجارتين فيل ..

ونظر إليّ باسما ، ولعله وجد وجهي مصفراً ، إذ قال مشجعاً ..

- دول تلاتة مليم بس ..

لم أقل له إني خائف من شرائه للسجاير ، وتركته يظن أن خوفي على النقود ، وأخذ السيجارتين ، وعد الباقي أكثر من مرة ، وأنا أتوقع أن يعيده إليّ ، ولكنه وضعه في جيبه مع السيجارتين وقال :

- بلاش نضرب سعفان أفندي النهاردة .. تعال نتفسح ..
- فـــين ؟
- تعال نروح نتفرج على القطارات .. عمرك ما شفت قطار ...

هذا مشروع خطير ، القطار هو الذي يسافر فيه أبي عندما يعمل في بلد بعيد .. رأيت القطار مرة واحدة ، كنت أودع أبي إلى المحطة لأن صديقه عباس أفندي كان معنا ، وقال إنه مستعد لإعادتي إلى البيت .. كان مع أبي حقيبة كبيرة أعدتها أمي ، وفي المحطة كان أبي يجري وراء الحمال الذي يحمل الحقيبة ثم تذكر أنه يجب أن يقطع تذكرة السفر فصاح في عباس أفندي أن يجري وراء الحمال ولا يتركه يغيب عن عينيه ، وجريت أنا وراء أبي ولكنه أمرني أن أذهب مع عباس أفندي ، وغضبت بيني وبين نفسي من أبي .. ولكني سامحته عندما دخلت القطار وركبت إلى جانبه ، وقطع أبي حديثه الطويل مع عباس أفندي وسألني :

- هيه .. تيجي معايا دمنهور . قلت مصدقاً :
- أيوه ..

فضحك ولم يقل شيئاً وواصل حديثه مع عباس أفندي ، بينما سرحت ونشوة حارة تملأني ، سأسافر إلى دمنهور مع أبي ، إنها البلد التي يعمل فيها ، سأعيش معه بعيداً عن أمي .. لقد كبرت أنا أيضاً .. دمنهور مليئة بالبيوت والمدارس ، القطار يمرح في شوارعها وتخيلت أني كبرت ، وأني أعمل مع أبي ، لم أتخيل عملاً بالذات ولكني كنت أتصور أني قفزت إلى المستقبل ، وكأن رحلة القطار ستقطع سنوات عديدة من عمري ، وسأصل إلى دمنهور وأنا كبير ..

إلى أن دق جرس القطار .. وإذ بأبي يقول لي :

- يا للا إنزل بأه مع عمك أحسن القطار يقوم بيك ..

قلت له في دهشة :

- هوه أنا موش جاي معاك يا بابا ..

ضحك وقال :

- لا .. أنت ح تقعد هنا مع ماما .. علشان تروح المدرسة ..

لم أصدق أني لن أسافر معه .. ظننت أنه يمزح ..

قلت وأنا واثق إنه لن يرفض

- لأ .. أنا جاي معاك ..

قال في هدوء أعرفه .. هدوء يسبق الغضب :

- انزل بأه يا يوسف .. وخليك عاقل ..
- لا .. موش نازل .. أنا جاي معاك ..

كان السفر بالنسبة لي أمراً مفروغاً منه ، ألم يعدني به ، ألم يسألني بنفسه أن أسافر معه .. لابد أن أسافر إلى دمنهور .. لابد أن أرى كل ما كنت أتخيله من لحظات ..

صـــاح

- انزل .. ما فيش وقت ..

وتدخل عباس أفندي ..

- يالله يا حبيبي ..

قلت لأبي متوسـلاً :

- أنت موش قلت آجي معاك مازلت واثقاً إني مسافر معه ولكنه صاح غاضباً :
- يا ولد انزل .. القطار ح يمشي ..

إذن فلن أسافر ، لماذا يكذب عليّ ، لماذا يغير رأيه ، لماذا يتخلى عني ، لماذا يحرمني من كل ما تخيلته .. لقد صدقته .. لابد أن أذهب معه ، لن أتزحزح من مكاني .

ومد أبي يده ، وجذبني من مقعدي ، ضاع كل أملي في السفر .. ضاع كل أملي في تصديقه ..

وبكيـــت ..

لطمني على وجهي ..

- أما أنت حمار صحيح ..

أنت تكذب .. أنت تكذب .. لا تكذب يا أبي ..

- يا للي امشي انجر ..

تحركت فزعاً والدموع تغسل وجهي ، وعباس افندي يجرني إلى باب العربة ويحملني إلى الرصيف .. وقفت ابكي ، وأبي يطل من النافذة .

وصـــــــاح

- قـــــرب ..

تراجعت خائفـــاً ..

- ياولد قـــرب ..

ارتجفت فزعـــاً ..

- قرب مني ..

حملني عباس افندي إلى النافذة فأخرج أبي منديله ومسح دموعي وهو يردد في صوت غلبه التأثر :

- أنا كنت فاكرك عاقل..

اختلطت مشاعري .. انه يكذب إنه حزين ، إنه يحبني ، ولكنه لطمني على وجهي

- ما تخلنيش ازعل منك . واسافر وانت بتعيط ..

هذا كلام غير مفهوم .. انت السبب في كل هذا .. انت الذي عرضت عليّ السفر .. لماذا تحرمني منه .. أردت أن أكف عن البكاء ، ولكني لم أستطع ..

ودق جرس القطار ، وانطلق صوت صفارته ، وتحرك القطار ، تحرك وانا لست فيه ، القطار ذاهب إلى دمنهور .. إلى ذلك البلد البعيد الذي عمل فيه الكبار ، وانفجرت في البكاء ..

بكيت وانا اسير إلى جانب عباس افندي في الشارع ، بكيت وانا اقف أمام دكان يشتري لي منه شيكولاته .. بكيت عند محطة الترام .. بكيت وانا ارى يد عباس افندي تمزق ورق الشيكولاته ، وتدس قطعة منها في فمي .. بكيت وطعم الشيكولاته الحلو يملأ فمي . لم اكف عن البكاء حتى ركبنا الترام وجاء الكمساري ليقطع التذاكر ، وعباس افندي يشير إليّ ويطلب نصف تذكرة .. لحظتها فكرت في إنني صغير .. ودمنهور لا يذهب إليها الصغار امثالي .. ولكني عدت إلى البكاء وانا ادخل باب بيتنا ..

ظنت امي انني ابكي لانني افضل البقاء مع أبي على البقاء معها ، لم تعلم لماذا بكيت ، لم يعلم احد انني بكيت لأن ابي كذب عليّ ، خدعني .. ولم يعلم احد انني بكيت لأنني لو ركبت القطار وسافرت إلى دمنهور لأصبحت كبيراً ..

ولقد ركبت القطار ، ولكني هبطت منه قبل أن يتحرك .

هل سأستطيع ركوب القطار مع انفش .. هل سيقفز انفش إلى القطار كما قفز إلى سلم الترام .. لو فعل فسأتبعه ، وسنسافر إلى دمنهور أو إلى المنيا ، أو إلى اي بلد من تلك البلاد التي كان يذهب إليها أبي ..

سرت مع انفش وعبرنا شوارع وميادين ، والدنيا تزداد اتساعاً ، وتزداد ارتفاعاً ، وتزداد ضجة ، حتى خيل إليّ انني ابتعدت عن بيتنا سنوات وسنوات ، وضعف تفكيري في قلقهم وانتظارهم لي ، وتراجع خوفي منهم ، واشتد تعلقي بأنفش ، وتضخم إعجابي بتعبي وارهاقي وآلام ساقي وتقطع انفاسي .. سرت اقتحم طريقاً بعد طريق ، ميداناً بعد ميدان .. اعبر الشارع بلا خوف أو تردد ، مندفعاً إلى الأمام تاركاً ورائي يوسف الطفل ، كأني أصبحت يوسف العجوز .. حتى وصلنا إلى ميدان فسيح ، كل شيء فيه صغير بالنسبة لحجمه ، البيوت لعب ، والترام لعبة ، والسيارات لعب ، والناس لعب .. ووسط الميدان تمثال فلاحة وأبي الهول ، تحيط به حديقة واسعة ..

ارتمينا على حشائش الحديقة ، وأخرج انفش سيجارة من جيبه .. لم يدهشني انه سيدخن ، ولم يدهشني انه سألني :

- معاك كبريت ..

قلت في ارتباك وكأني مذنب يعترف بذنبه :

- لا ...

فنهض ، وتركني . تبعته بعيني وهو يلتفت حوله ، وينظر إلى الأرض متفحصاً ، ثم يعترض طريق رجل ويسأله ، ثم يعبر الميدان ويبتعد ، فكرت في أن أقوم وأتبعه لولا خوفي من السيجارة التي معه . وضايقني أني خائف من السيجارة .. لماذا أنا خائف منها .. خائف من النار .. خائف من الدخان .. خائف لأنها للكبار .. ذات يوم اشترى أبي علبة سجائر ليقدمها لضيوفه ، وغضبت أمي ، قالت له : إنه يضيع نقوده في كلام فارغ ، يحرق نقوده بالنار كالمجانين ..

كانت أمي ترتدي فستاناً بالترتر الأسود ، كان الفستان يعجبني لأني كنت أعبث بالترتر بأصبعي ، وأحاول إخراجه من مكانه وكلما نهرتني أمي ضحكت ولم أكف عن العبث بالترتر ، ما مناسبة ارتدائها ذلك الفستان .. لا أذكر .. ليتني أستطيع أن أتذكر ..

أمي كانت واقفة عند باب الحجرة وأبي خارج من عند ضيوفه ، وشمت أمي فمه ثم قالت في نفور وبصوت كالهمس :

- أنت شربت سجاير يا عبد الحميد ..
- نفس واحد ورميتها .
- أعوذ بالله .. ريحتك وحشة ..

ضايقني أن رائحة أبي لا تعجب أمي ، ونظرت إليه في ضيق ، وأبعدت يدي عن الترتر ، لم ينتبها إلى أني أسمعهما ، وأفهم ما يقولان .. لم يشعرا بما أفكر فيه ..

عاد أنفش وفي يده سيجارة مشتعلة ، وقال لي باهتمام :

- خد نفس ..

قلت في جزع :

- لا ..
- خد ما تخفش ..

كان يتكلم في هدوء خطير :

ما اقدرش ..

- لازم تاخد نفس ..
- بلاش ..
- عمرك ما دخنت سجاير ..
- لا ..
- لازم تدخـن ..
- موش عايز ..
- اشمعنى أنـــا ..
- قلت متوسـلاً :
- بلاش .. موش عايز ..
- خايف من إيه ..

كان يتكلم في غيظ :

- لا بلاش ..

فمد يده بالسيجارة بعد يأسه من الكلام ، ودسها في فمي .. أحسست بها ثقيلة عنيفة الرائحة ونفخت الهواء من فمي ..

قال أنفش بصوت جاد :

- اشفط الهوا ما تنفخوش ..
- إزاي ..
- خد نفســك ..

سحبت الهواء إلى فمي فاندفع إليه دخان أرعبني ، فأبعدت السيجارة .. لم يسخر أنفش مني ، ونفث الدخان بوجه جامد وهو يرقبني صامتاً ، وكأنه يقوم بعمل خطير .. لاحظت أن الغروب ينتشر في السماء ، والسيارات تضيء مصابيحها ، والهواء يبرد ، والليل يطبق علينا كعدو لا يرحم ، فانتفضت واقفاً وقلت في جزع :

- ياللا بينا نروح ..

- موش ح نتفرج على القطار ..
- لا .. انا عايز اروح ..

واوشكت على البكاء ..

ما اغرب هذه المحطة .. دائماً لا اصل إلى القطار .. لا اسافر .. دائماً هناك شيء يدس في فمي .. منذ سنوات كان هذا الشيء حلـوا .. قطعة شيكولاته .. اليوم دخان يلسع الحلق ..

دائماً ابكي ..

قال انفش :

- نروح إزاى .. إحنا بعيد قوى ..

كانت كلماته حاسمة في اثارة كل مخاوفي .. ليس هنا مكاني .. انفش ليس صديقي .. لقد تورطت معه .. لا أريد أن اغادر الطريق المرسوم لي .. البيت المدرسة .. المدرسة البيت .. مكاني خلف النافذة .. حيث أرقب واتفرج ..

- انا مالى .. عايز اروح ..

قال في هدوء :

- روح انت .. انا رايح المحطة ..
- ح تعمل ايه هناك ؟
- ح اركب القطار ..
- ح تروح فين ؟.
- ح اسافـــر ..

صدقته .. وحسدته لأنه مسافر ، أما أنا فكنت قد تخاذلت ، الذعر لم يترك لي سوى الرغبة في العودة إلى البيت ..

القيت عليه نظرة يائسة ، ومشيت خطوتين في طريق عودتي ، ولكن .. اين طريق العودة .. إلى أين اتجه ، الميدان واسع واسع .. والشوارع مفتوحة متدفقة في كل ناحية .. كلها تؤدى إلى مجهول .. لابد أن اسأل الناس ، ولكنني اخجل من سؤال الناس ، اخاف الاحتكاك بهم ، لا اجسر على مخاطبة أحد منهم .. وهذا الظلام ..

وبكيـت ..

بكيت وانا أسير على الرصيف .. وبكيت وانا احاول عبور الشارع .. حتى رأيت رجلاً كبيراً مقبلاً نحوى .. فجريت هارباً منه ..

وعدت باكياً إلى انفش ..

قال ساخراً :

- بتعيط ليه يا شاطر ..
- والنبي تروحني ..
- بقولك انا مسافر ..
- بلاش تسافر النهاردة .. علشان خاطرى .

ضحك وقال في شماتة :

- موش عايزني اسافر ..
- أيـــوه ..
- عايزنى اروحك ..
- والنبى ..
- بوس إيدي وانا اروحك ..

وجمت .. مستحيل أن افعل هذا ..

ظل ينتظر أن انحنى واقبل يده .. ثم اصابه الملل فقال في إلحاح :

- بوس ايدي ..

لزمت الصمت ..

فقال .. ومد يده إلى فمي .. وقال وعيناه تلمعان بفرح شرس ..

- بوس ايدي .. وانا اروحك ..

واردف يقول مكرراً :

- باقولك بوس إيدي .. بوس إيدي .. باقولك بوس إيدي ..

كان يردد طلبه .. في عناد وإصرار .. وارتفع صوته ، وازداد حدة وعنفاً ..

- يا واد بوس إيدي .. بوس .. بوس .. لازم تبوس إيدي .. طيب والله العظيم .. والله العظيم تلاتة .

فكرت في تقبيل يده .. ولكني لم أقو على أن أفعل .. وهمست .

- لا .. موش ح أبوس إيدك
- طيب لا تكلمني .. ولا أكلمك

أقبل يده .. لن تعرف أمي ، إنها لن تراني .. ها هي يده .. ظهر كفه الأسمر المخدوش .. لمسة سريعة بشفتي وينتهي الأمر .. ولكن عينيه تلمعان بهذا الفرح الشرس .. لا .. مستحيل .. حتى لو لم أذهب إلى البيت ، حتى لو مت .. لا أريد منه شيئاً ، هذه هي نهاية صداقتي به ، ليكن عدوا لي ، فليضربني ، فليشتمني .. لن أقبل يده .. كانت أمي تخرج أحياناً لتزور الست الكبيرة أم راتب بك .. حاجة .. وجهها .. مضيء كالبلور ، سيدة صالحة لا تفارق سجادة الصلاة ، كلما زارتها أمي طلبت منها الدعوات ، لم تكن أمي تحدثني عنها ، ولكنها كانت تفيض في وصف زيارتها للست الكبيرة مع أبي ، وكان يسمعها باهتمام ، وكنت أنصت لهما ، وكأني أسمع حكاية عجيبة .. وأتخيل وجها كالثلج ، وأخاف ، بعد إحدى الزيارات قالت أمي لأبي إنها رأت أولاد راتب بك .. مدحت وسعاد شقيقته ، صعدا وهي تجلس مع الست الكبيرة ، وقبلا يدها .. مؤدبان ، تربية صالحة .. وتنهدت أمي قائلة :

- أهو يوسف لما يكبر .! أنا نفسي أجوزه سعاد ..

ضحك أبي ساخراً وقال :

- وهم يرضـوا ..

احمر وجهي ، كنت جالساً على الأرض ، كـأني لا أسمع ولا أفهم ، وتخيلت سعاد ، فتاة كبيرة ، كعروسة كبيرة ، شعرها ذهبي ، فستـانها أبيض ، لا تتكلم ولا تبتسم ، خداها متوردان ، وأنا واقف بالقرب منها ، لا أجسر على مخاطبتها ، وحسرة تأكلني ..

قلت لنفسي ، لماذا لا أتزوجها ، سأتزوجها ، إنها لن ترفض مادامت أمي تريد ، أبي هو الذي يرفض ، إنه لا يريدني أن أتزوج ..

وشغلت طوال اليوم بالتفكير في سعاد ، أراها كالعروسة اللعبة ، وهي تصعد إلى الست الكبيرة وتقبل يدها ، وأردد كلمات أمي عن أدبها ، وخيل إليّ

أن أمي لم تفكر في تزواجي بها إلا لأنها رأتها تقبل يد الست الكبيرة .. وخطر لي أني لم أقبل يد أمي ..

لم أفعل هذا أبدا ، وهي لم تطلب مني أن أقبل يدها الآن ، شعرت بالخجل ، ولكني قاومته ، وفي الصباح رأيت أمي خارجة من باب حجرتها ، فاندفعت إليها بغير تفكير .. وهجمت على يدها ، فسحبتها مذعورة ، فتشبثت بيدها وقبلتها .. لم تكد شفتاي تلمسان ظهر يدها حتى انتزعتها صائحة :

- بتعمل كده ليه ؟

انعقد لساني ، ورأيت وهجا أحمر في عيني ..

وسمعتها تقول غاضبة :

- انت راجل .. ما تبوسي إيد حد ..

ثم ضحكت ، وربتت على كتفي ، وجريت لأنزوي بعيداً ، حائراً في تفسير كلامها عن أدب سعاد ومدحت بالأمس ، وتعنيفها لي اليوم .. رغم ذلك استرحت لأني لست مضطراً إلى تقبيل يدها .. إني أخجل من تقبيل يدها .. وكلما تذكرت رأسي وهو ينحني ، ويدي وهي تجذب يدها ، وشفتاي تبحثان عن ظهر كفها .. انتابتني رجفة وضيق .. وندم.

قلت لأنفش بصوت غاضب :

- أنا موش عايز أروح البيت .. مالكش دعوة بيه ..

وتركته مبتعداً ، وقد صممت هذه المرة ألا أعود إليه ـ مشيت دون أن التفت ورائي ، حتى سمعت وقع أقدامه تسرع الخطى خلفي ..

وقال بصوت معتذر :

- انت زعلت ..

صحت :

- بأقولك مالكش دعوة بيه ..
- طيب ما تزعلش .. أنا ح أروحك ..

شعرت أني انتصرت عليه ..

وظل طوال الطريق يؤكد لي أنه صديقي ، وأنه لا يريد أن يلعب مع أحد

غيري ، وكنت أستمع له صامتاً ، وهو يظن أنى موافق على ما يقول ، بينما كنت قد قررت أن ابتعد عن أنفش ، واقطع كل صلة بيننا ..

عدت في الليل ، أفكر في استقبالي ، كأنه العقاب الذي لابد منه .. لا مفر من أن يضربني أبى .

●●

عندما سمعت الهمهمة فى أعلى السلم ، انخلع قلبي ، وأيقنت أنني المقصود بهذه الأصوات .. استطعت أن أميز صوت أبى ، منفعلاً متهدجا ، جعلني أنكمش ، وأتباطأ فى صعودى .. ولكن ما هذا الآخر .. صوت رفيع حاد ، إنى أعرف صاحب هذا الصوت .. الدكتور برعي ..

هل ظن أبى أنى أصبت فى حادث ، فنادى الدكتور برعي ، لقد انزعج أكثر مما كنت أتوقع ، وسيتحول إلى غضب عنيف جامح .. سينتقم منى جزاء كل لحظة قلق سببتها له .. أكاد أحس اللطمات على خدى ، اللكمات فى صدرى ، أكاد أسمع صراخه .. ربما أنقذني الدكتور برعي ، إنه طيب ، وجهه ضاحك ، وهو يحبني وأنا أحبه ، لا شك أنه سيمنع أبى من ضربى ، ولن يتركنا حتى تهدأ ثائرة أبى .. فلأسرع بالصعود ..

كانا مازالا يتحدثان دون أن يلتفتا إليّ ، وجه أبي متهجم ملامحه غريبة ، وجه أزرق ، والدكتور برعي لا يضحك ، منكس الرأس ، وجهه شاحب أصفر كأنه يعتذر عن شيء ..

كل هذا لأنى تأخرت .. لماذا لا يلتفتان إليّ ..

كنت أقف على بعد خطوة واحدة منهما ، دون أن يشعرا بى ، أبى يحدق فيّ ذاهلاً ولا يراني ، والدكتور برعي لا يريد أن يعترف بحضوري .. صمتا .. وجما ..

ما الذى حدث ..

كدت أفتح فمي وأقول شيئاً ينبههما إلى عودتي ، ولكني عدلت .. خفت ..

كلمة واحدة تبدر منى ستفجر صمت أبى إلى عاصفة تقتلعنى .. صمتهما يفزعنى ..

خطوت إلى داخل البيت .. وكأنني أسمع صوت نشيج .. فاطمة تبكى .. وفجأة طعنني صوت أبى ثقيلاً يائساً ..

- رايح فين يايوسف ..

إنه لا يسألني من أين جئت .. يسألني إلى أين ذاهب .. ما هذا الكابوس الغريب ..

وقفت ، واستدرت إليه ، وكأنه اكتفى بوقوفى ، فعاد إلى صمته وذهوله ، بحثت فى وجه الدكتور برعي عن بارقة أمل تساعدنى على فهم ما يحدث .. رفع عينيه خلسة وخفضهما بسرعة ، وقد ازداد وجهه شحوباً واصفراراً ..

أمى .. أين أمى ..

تحولت عنهما متجها إلى غرفتها وكأني أتجه إلى مكان مستحيل الوصول إليه ، فطعنني صوت أبى مرة ثانية ، متهالكا ، مرتعشا ..

- تعال هنا يا ابني ..

يا ابني .. يناديني ابني .. إذن فهو ليس غاضبا مني ، غير قلق لغيابي ، بل إنه لا يدرى أنى غبت ..

أمى .. أين أمى ..

جمعت كل مخاوفى ، وكل شجاعتي ، وسألت ..

- حصل إيه يا بابا ..

كان السؤال الحقيقى فى قلبى .. ما الذى حدث لأمى يا أبى

قال وهو يرفع صوته فى قوة وجهد ، ويهز يده فى حركة عصبية :

- ماما تعبانة ..

وقطع كلامه .. اختنقت أنفاسه .. وبكى .. ارتفعت يده التى تهتز فى حركة عصبية وغطت عينيه واهتز رأسه ، واهتز صدره .. إنه يبكى .

أممكن هذا يادكتور برعي ، إني أستنجد بك ، قل شيئا ، افعل شيئاً ، ولكن ظل منكس الرأس ، كان بكاء أبى شيء عادى وطبيعي

أمي ليست مريضة .. لقد ماتت .. ماتت .. أنا واثق أنها ماتت .. بكاء أبي يقول إنها ماتت .. نشيج فاطمة يقول إنها ماتت .. رأس الدكتور برعي المنكس يقول إنها ماتت .. هذا اليوم الغريب المجنون الذي قضيته مع أنفش يقول لي إنها ماتت ..

ماتت .. ماتت ..

●●

كان الصراخ يمزق الليل ، والوجوه الغريبة تقتحم البيت ، والأبواب تفتح وتصعد نساء تدق الصدور ، ورجال يتمتمون بكلمات وأقدام تصعد متثاقلة ، وأقدام تهبط مسرعة ، وأنا واقف عند باب البيت لا أستطيع الدخول ، لا أفهم ولا أعي ..

جارنا الذي يسكن تحتنا ، الشيخ محمود سليمة ، صعد وتحدث مع أبي بصوت مرتفع ، وكتبا معا أسماء كثيرة في ورقة لينشر النعي في جريدة الأهرام ، كنت أسمعهما ولا أراهما ، حتى خرج الشيخ فرآني ، وصمم على أن يهبط بي إلى الشقة ..

رقدت على حصيرة مع خمسة من أولاده الصبيان ، لم أنم طوال الليل ، كنت أستمع إلى الصراخ ، وإلى فأر يقرض شيئاً في ركن الحجرة ، ولما أوغل الليل ، سمعت طرقات في الشارع ، وصوت أخشاب تتساقط ، وصياح عمال ، وضوء غير عادي قادم من الشارع إلى الغرفة .. كانوا نياما ، فقمت متسللا ونظرت من النافذة .. رأيتهم يقيمون السرداق ..

هذا كذب ، غير صحيح .. أمي ستنهض ، سيعود الدكتور برعي ضاحكا ويدخل عليها ويشفيها .. انهضي ياأمي .. سأغمض عيني وأعد إلى رقم عشرة .. وسأقول .. يارب .. وسأفتح عيني فأراك أمامي .. كل هذا كذب ، الأخشاب التي ترتفع ستسقط ، والوجوه الغريبة ستذهب ، والصراخ سيكف .. وسأصعد إليك ..

لا أدري كيف نمت ..

في الصباح كان معي أولاد الشيخ سليمة الثمانية ، الأولاد والبنات ، وقد تعلقوا بنافذة الحجرة يطلون على السرداق ، يتضاربون ليأخذ كل واحد منهم مكانا يتفرج منه .. والصغار يبكون ، لا يبكون حزنا على أمي ، يبكون لأن أخواتهم الكبار يمنعوهم من الرؤية ، وأنا منزو فوق وسادة على الحصير أسمع كل كلمة يقولونها .. وصلت عربة سوداء كبيرة وهبط منها رجل .. العربة لها سائق يرتدي معطفا أبيض .. الشيخ سليمة أبوهم يدخل السرداق .. عبد الحميد أفندي .. أبي .. يصافح عم برعي بائع الطرشي .. الحاج موسى الجزار يدخل السرداق .. حسنين أفندي مدرس الألعاب .. مَنْ هذا الرجل السمين .. كرشه ضخم .. عامل الكلوبات ينفخ الكلوب ..

كانوا لا يكفون عن التعليق ، وأحيانا يضحكون ، ثم يتذكرون أني معهم في الحجرة ، فينتابهم وجوم مفاجيء ، ويختلسون إليّ النظرات .. ثم ينسونني ويستأنفون تعليقاتهم وضحكاتهم .. لا يعنيني ما يحدث ، لست معكم ، في رأسي صورة ثابتة لأمي وهي راقدة على فراشها .. ممددة بلا حراك ، متصلبة الأطراف ، مغمضة الجفنين ، على شفتيها طيف ابتسامة .. لو تنهض فجأة .. وينفض هذا الجمع السخيف .. لو تنهض ..

كان صوت الصرخات لا ينقطع ، ودبيب الأقدام فوق رءوسنا يهز البيت ، وصوت كالغناء الحزين لا أكاد أتبينه يطرق أذني .. أو يخيل إليّ أني أسمعه .. بين وقت وآخر أسأل نفسي .. لماذا لا أبكي ..

وفجأة .. اشتد الصراخ ، واشتد دبيب الأقدام ، واهتز البيت هزة عنيفة ، واهتز قلبي ، واشتدت رغبتي في البكاء ، ولكنه استعصى عليّ ، وزاد تعلق الأولاد بالنافذة .. وبكى الأطفال الصغار ، فرفعهم الكبار ليروا ما يريدون رؤيته .. وصاح أحدهم :

- النعش أهه ..

وصاح آخر ..

- الجزار بيدبح العجل ..

أمي خارجة من البيت ، إلى اين أنت ذاهبه ياأمي .. السماء تستعد

لاستقبالك ، سيهبطون بك إلى القبر ، وستصعد روحك إلى السماء .. كيف تصعد الروح ، أترتقين سلما لا نراه ، أتطيرين فى الهواء .. ستلبسين ملابس بيضاء وستقفين أمام باب حديقة واسعة .. يحرس الباب رجل عجوز له ذقن بيضاء مدببة ، وسيفتح لك باب الحديقة ، وتدخلين .. وتعيشين هناك ، بين الأشجار ، تشربين اللبن ، وتفكرين فى ..

ترى هل تفكرين ؟!

سمعت صوت بهجت أكبر الأولاد ، وكان أكبر منى ، فهو تلميذ فى الثانوى ..

- موش ح تيجي تشوف ..

لم أقل شيئاً ..

فالتفتوا إلىّ جميعا ، كأنى جزء من المشهد المثير ، يجب ألا تفوتهم رؤيته وتقدم بهجت وجذبنى من زراعى ..

- تعال بص .. دى جنازة أمك نهضت ، فافسحوا لى مكاناً .. السرداق يلفه أفواج الناس .. النعش يهتز فوق أكتاف المشايخ .. أبى يبكى .. رجل إلى جواره يجفف عرقه بمنديل .. رجل أخر يمسك عصا يتوكأ عليها .. النعش يتحرك فى بطء .. يتمايل .. الصراخ يعلو ويعلو .. بعض العيون تتطلع إلينا ..

بكت بنات الشيخ سليمة .. وفجأة بكى بهجت ، فشعرت بحرج وضيق .. ونظر إلىّ بهجت بعينين تغسلهما الدموع وسألنى :

- موش بتعيط ليه ..

ماذا أقول له .. لن أكترث .. لا أستطيع البكاء .. لا أفهم شيئا مما يحدث أمامى .. أرفض كل هذا الجنون ..

بعد المغرب ، صعد الشيخ سليمة ، ووضعوا أمامي صحناً فيه بيضتان مقليتان وتكاثروا حولى وقد صمموا على أن آكل .. كنت جوعان أتمنى لو يتركوننى لألتهم البيض .. ولكنهم لا يتركوننى .. ودس الشيخ سليمة أصابعه بلقمة خبز فى البيض وصمم بصوته الجهير على أن يدسها فى فمى ،

[illegible]

فأمر الشيخ ابنه محمود أن يحمل الصحن ويأكل البيض ..

وطلب منى الشيخ سليمة أن أهبط إلى السرداق ، فلما لاحظ ترددى ، قال فى لهجة آمرة لا تخلو من الغضب :

- أبوك عايزك .. لازم تنزل له ثم أردف مستنكراً :

- أنت ح تقعد فى البيت ليه .. هو أنت بنت .. والا فاكر نفسك لسه صغير .. أنت ح تاخد الابتدائية السنة الجاية .. أنت من النهاردة بقيت راجل كبير .. لازم تعتمد على نفسك .. ولا تتعبش أبوك .. اللى زيك ياخد باله من أبوه ويساعده .. قوم البس هدومك .

هبطت إلى السرداق ، فوجدت أبى يجلس عند مدخل السرداق ، ومد يده وأمسك بكتفى ، وأجلسنى بجواره ، كانت عيناه محمرتين ووجهه محتقناً ، وقال باسما وهو يحدق فى بعينين باكيتين :

- احنا فضلنا لوحدنا .. عملتها فينا وسابتنا ..

شعرت أنه من الضرورى أن أبكى ولكنى لم أستطع .. ومسح بيده على شعرى وقال :

- بكرة انت كمان تكبر وتتجوز وتسيبنى ..

تذكرت سعاد ، وخطر لى أنه كان على حق فى رفض زواجى ، لن أتركك يا أبى .. لن أتزوج أبداً .. لن أفعل شيئا سوى انتظار عودة أمى .. ستعود حتما إليك .. وستعود إلى .. أنا لا أصدق كل هذا يا أبى .

وكان يتركنى ليلبى نداء أحد الرجال ، يقدم الرجل له ورقة ، ويتهامسا ، ويمسك أبى بالورقة يراجعها ويلتفت حوله ، ثم يعود ويراجعها وأخيراً ، يضع يده فى جيبه ويخرج بعض النقود ويعطيها للرجل .. ويعود ليرتمى متهالكا على المقعد بجانبى ، ويردد مخاطبا نفسه :

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله..

ثم قال والبكاء يعاوده :

- ماما سابتني يابني .. انا عايزك تعتمد على نفسك وتبقى راجل .. وتذاكر دروسك كويس .. مين عارف .. يمكن أحصلها ولم أستطع البكاء ..

كان الشيخ يقرأ القرآن ، والناس تنصت إليه ، عندما طغى صوت بوق سيارة تخترق الشارع في بطء إنها نفس السيارة السوداء الكبيرة التي كان أولاد الشيخ سليمة يتحدثون عنها ، وهم يتفرجون على الجنازة .. استدارت كل الرءوس ناحية السيارة ، وهبط السائق ذو المعطف الأبيض ، بينما انتفض أبي واقفاً ، وجذبني من يدي هامسا ..

- تعال سلم على راتب بك .. نظرت إلى السيارة ، وكأني أنظر إلى خيال ، إلى شيء خرافي أسمع عنه في الحكايات ، ها هو راتب بك الذي يعيش مع الست الكبيرة التي كانت تزورها أمي .. أبوسعاد .. العروسة اللعبة .. التي أرادت أمي أن أتزوجها ..

للحظة توهمت أن هذا الرجل قادم ليعيد أمي ، وإنه قادر على أن يفعل ذلك ، كان وجهه مربعا مستريحا وعيناه ضيقتان وفي رأسه صلع خفيف مستدير لاحقته وأنا أمشي وراءه ، حتى بلغنا نهاية السرداق من الداخل ، فجلس وإلى جانبه أبي وجلست إلى جانب أبي .. وجاء الخادم ليقدم له القهوة والسجائر فرفضهما . ولكنه بعد برهة أخرج علبة سجائر ودخن سيجارة لها طرف ذهبي .. إنه يعرف كيف يدخن .. مثل أنفش لو رأى أنفش هذه السيجارة لفرح بها ..

أمي .. هل كنت قلقة عليّ وأنا غائب .. هل قلقك هو الذي جعلك تذهبين .. أريد أن أعرف .. ما الذي حدث .. أهذا هو العقاب .. هل أنا السبب يا أمي ..

اتسعت أذناي وأنا أسمع راتب بك يهمس لأبي ..

- حاجة غريبة .. والله ماكنت مصدق ..
- قسمته .. ح نعمل إية يا سعادة البيه .. ربنا عايز كده ..
- أنا لسه كنت مع الدكتور فهمي باشا .. قاللي إن الذبحة في السن دي نادرة قوي .. لازم كان فيه ضغط وانتم موش عارفين .

همس أبي :

- ح نعرف فين بس .. عمرها ما شكت من حاجة .. كانت ساعات - الله يرحمها - تقول جنبي بيوجعني .. ايديه منملة .. لكن ماكنتش يخطر على بالنا ..

وقطع أبي الكلام .

أكمل ياأبي أريد أن أسمع . أريد أن أعرف .. كيف ماتت .. ما الذي حدث بالضبط .. إني لا أستطيع أن أسألك .. قل .. تكلم ..

وتكلم أبي ..

- أنا رجعت البيت .. لقيتها في المطبخ .. كانت فاكراني يوسف زعقت .. أنت اتأخرت ليه .. قلت لها : ماتأخرتش .. طلعت من المطبخ شافتني .. ضحكت .. وقالت : أنا افتكرتك يوسف .. قلت لها هو لسه ماجاش .. قالت لازم فيه حاجة في المدرسة أخرته .. ماكانتش قلقانة .. كانت بتضحك .. رجعت المطبخ .. بعد شوية سمعت البت الخدامة بتصرخ وبتقول الحق ياسيدي .. لقيتها مركونة على الترابيزة .. ونفسها مكروش .. وديناها الأوضة .. ونزلت أجيب الدكتور برعي .. جه في عشر دقائق .. إنما ..

وتنهد أبي ..

- كان كل شيء انتهى .. لا حقن .. ولا تدليك .. ولا تنفس صناعي .. أجل ..

لم تقلقي لغيابي ياأمي .. هل أصدقه .. أم أخفيت قلقك عن أبي .. ضحكت لتدافعي عني .. حتى لا يضربني .. أمي .. أريد أن أعرف الحقيقة .. أه لو يعلم أبي أين كنت .. لو يعلم أني دخنت سيجارة .. ذهبت مع أنفش لأضرب سعفان أفندي .. كنت أريد أن أركب القطار المسافر إلى دمنهور .. أمي كانت تعلم كل هذا .. وغضبت .. وسافرت .. تركت البيت غاضبة .. أريد أن أموت .. في المرة القادمة ، عندما أذهب إلى المحطة .. سأركب القطار المسافر إلى أمي .. لا أريد شيئاً غير أمي .

انطلق راتب بك في كلام لا ينتهي عن الطب والأطباء .. وأنا أرقبه في اهتمام

باحثاً عن شيء يعلمه ، ويستطيع أن يعيد أمي إلى الحياة .. حتى ضبطني وأنا أحدق في وجهه .. فسأل أبي ..

- موش ده ابنك .
- أيوه .
- في سنة إيه ..

قال لي أبي :

- جاوب سعادة البيه ..

هاهو البكاء يهجم على عيني ، ولكنني أقاومه ، لن أبكي أمام هذا الرجل .

قلت بصوت باك :

- سنة ثالثة

قال محدثاً أبي :

- زي مدحت .. بس اوعى تكون خيبة زيه ..
- قال أبي مدافعاً عني :
- لا .. الحمد لله .. يوسف شاطر .. ومؤدب ..

شاطر .. مؤدب .. كان يدخن سيجارة مع أنفش .. وأمه تموت .. أنت لا تعرف شيئاً يا أبي .. ولكني لن أعود إلى أنفش .. هذه هي نهاية صلتي بكل الناس .. بالشوارع .. بتلك الدنيا التي تهت فيها .. من يدري لو خرجت مرة أخرى ، ماذا سيحدث عندما أعود ..

الطريق إلى قبر أمي يصعد فوق تل من تراب ، على يمينه اصطبلات خيول ، لا أذكر من قال إن الموتى الراقدين في تلال زينهم لا تتعفن أجسادهم .. وإنهم أول من يسمعون النفير يوم القيامة فيستيقظون قبل غيرهم من الموتى .. ربما سمعت هذا من محمود نقلاً عن أبيه الشيخ سليمة ..

باب خشبي في سور من الطوب الأسمر ، يفضي إلى حوش صغير في أحد جوانبه شاهد من الحجارة البيضاء .. بالقرب منه شجرة صبار .. هنا .. تحت هذا الشاهد الحجري تنام أمي ..

المقرىء الأعمى يتلو القرآن ، ورجل يرش الأرض بالماء ، وأبي يقف متمتما بالفاتحة .. ثم يتقدم من القبر وينحني عليه ويجهش بالبكاء ..

أحاول أن أبكي فلا أستطيع .. أهو عقاب أخر نزل بي .. إنني لا أستطيع البكاء .. أمك ماتت يايوسف .. ماتت .. أتفهم هذا .. ابك حتى تحمر عيناك .. حتى تصاب بالعمى مثل هذا المقرىء .. ابك حتى تموت .

ولكني لا أبكي ..

عصر يوم وأنا عائد من المدرسة بعد أسبوع من وفاتها .. تذكرت ما روته أمي عن ولادتي .. عندما ظنوا أنني ميت لأني لا أبكي ، ضربوني واضطروني إلى البكاء لأعيش .. قلت لنفسي .. أنا أرفض البكاء حتى أموت .. واسترحت ..

ولو بكيت على أمي فلن أموت ..



الفصـــل الثـــانى

بيت ليس مثل بيتنا ، حوله حديقة واسعة ، يجلس على بـابه بـواب ، ويستقبلنا خادم ، ونصعد سلما من الرخام الأبيض ، وندخل إلى صالة واسعة وحجرات مفتوحة لاستقبال الضيوف ، حجرات صامتة معتمة فخمة نظيفة ، إن من يسكن هذا البيت لا يطيق مجرد النظر إلى بيتنا .. هذا البيت أحسن من بيتنا بكثير ، لا وجه للمقارنة ..

هذا هو ما اكتشفته وأنا أدخل بيت راتب بك لأول مرة فى حياتى .

اكتشاف هزنى وأربكنى ..

قبل زيارتى لبيت راتب بك ، كنت قد شاهدت مئات القصور والبيوت الفخمة ، شاهدتها من خارج الأسوار طبعا ، ورأيت أناساً يركبون السيارات الخاصة ، حتى راتب بك نفسه كنت قد شاهدته يوم جنازة أمى مقبلاً فى سيارته السوداء ، فأنا أعلم أنه صاحب سيارة ، وأعلم أن أبى يـركب الترام .. كما شاهدت البوابين والخدم الرجال من قبل ، وأعلم أن ليس فى بيتنا بواب ولا خادم ، بل خادمة فاطمة الحافية التى كانت تأمرها أمى أن تغسل رأسها بالجاز وتمشط شعرها بالفلاية لتتخلص من القمل والسبان ..

أعلم كل هذا ، ومع ذلك لم أشعر أبداً أننا أقل من بقية الناس ، وأن الأغنياء وحدهم هم الذين يملكون السيارات الخاصـة وعندهم الخـدم الرجال ، وأن الفقراء يركبون الترام ويستعينون بالخادمات الحافيات ، لم

ادرك أن هناك أغنياء وفقراء ، لم أكن أدرك أننا فقراء .. حتى دخلت بيت راتب بك ، منذ اللحظة الأولى ، دهمنى شعور بالحسرة والدهشة ، صدقت فجأة أن فى الدنيا أغنياء يعيشون حياة غير حياتنا ، واكتشفت أنه شبه مستحيل أن يأتى يوم فنعيش فى مثل هذا البيت ، ليس فى استطاعتنا أن يكون لنا بيت فى هذه الفخامة ، نحن أقل من هذا ، فقراء ، أليس هذا غريباً .. أنا الذى كنت أتباهى بينى وبين نفسى بأنى ابن مدرس ، وزملائى فى المدرسة يحسدوننى ، وبعضهم لا يصدق أن أبى مدرس .. فينتابنى شعور بالراحة والثقة ، أنفش ، خاله مفتش ترام ، بهجت أبوه الشيخ سليمه الذى ينام على حصير مفروش على الأرض ، أنا أحسن من هؤلاء جميعا ، لا أخرج مثلهم حافياً وأجرى وراء عربات الرش ، لا ألعب معهم الكرة الشراب ، لا أتفوه مثلهم بالشتائم فى بيت راتب بك ، إن رأسى يدور .. والرهبة تملأنى ، هنا عالم جديد باهر ، لا صلة لنا به ، هنا نحن فقراء لا حول لنا ولا قوة ..

كنت جالساً مع أبى فى البهو الداخلى ، وقد ران علينا صمت يزهق أنفاسى ، أبى يسعل بين وقت وآخر ، ولا يقول شيئا ، كأنه خائف مثلى ، يمط رقبته مع كل صوت يأتى من بعيد ، وأنا أتساءل لماذا لا يقابلنا أحد ، أين راتب بك ، أين مدحت ..

هل من المحتمل أن أرى سعاد .

إن خيالى كان قاصراً عن أن يتصور مثل هذا المكان ، الستائر مسدلة على النوافذ ، ليس فى بيتنا ستائر ، هذه الصور المعلقة على الجدران ، ليس فى بيتنا صور ، هذه المقاعد ، كلها تلمع ، ليس فيها أثر خدش ، مقاعدنا محطمة الأرجل ، أسلاكها بارزة .. قماشها ممزق .. شىء مخجل ، ترى كيف ينظر إلينا راتب بك ، ألا يشعر بأنه أحسن منا ، فى فمى مرارة .

وجاء الخادم يقدم لنا عصير الليمون ، همس صوت عنيد فى رأسى ، ارفض هذا الليمون ، لا تشربه ، ولكننى لم أجسر على قول شىء ، ومددت يدى إلى الكوب .. وضايقنى أن أبى تجاذب الحديث طويلا مع الخادم ، كأننا جئنا خصيصا للحديث معه ، كانت ضحكات أبى تثيرنى ، وتدفعنى إلى الخجل

منه ، ومن نفسى ، وأخيرا سأله أبى :

– البيه ح يتأخر ياإسماعيل .

– والله لسه نايم ياعبد الحميد أفندى ..

قال أبى فى استسلام :

– سعادة البيه قال أجى الساعة خامسة .. وأنا جيت الساعة خامسة بالدقيقة ..

قال الخادم ضاحكاً فى وقاحة كأنه صديق أبى :

– يعنى ما انتاش عارف ياعبد الحميد أفندى ..

قال أبى وهو يبتسم :

– طبعا ياسيدى .. لسه عُبال ما يصحى ويدخل الحمام .. قدمنا ساعة بالقليل ..

راتب بك .. عبد الحميد أفندى .

بك .. أفندى .. ما الذى جعل راتب بك أحد البكوات ، وجعل أبى أحد الأفندية ، لماذا لا ينادون أبى بلقب بك ..

وفزعت لخاطر خطر لى ، أمى كانت تجىء إلى هنا ، كيف كانوا يستقبلونها ، كيف كانت تتحدث إليهم ، هل كان يضحك معها هذا الخادم مثلما يفعل مع أبى ، إن كل ما بيننا وبين هذا البيت مذلة ..

وابتسم أبى وقال وهو يفرك يديه :

– طيب قول للست ياإسماعيل .. إن أنا جيت ..

وأردف قائلا فى لهفة غير عادية :

– سلم عليها .. وقول لها عبد الحميد أفندى جه فى الميعاد علشان الدرس بتاع البيه الصغير

البك الصغير .. يعنى مدحت .. وما لقبى أنا .. الأفندى الصغير ، كيف يرضى أبى بكل هذا ، لعله لا يفكر فى مقارنة نفسه بهم ..

ذهب الخادم ، وعاد بعد قليل وطلب من أبى أن نتبعه ، فصعدنا وراءه سلماً خشبياً داخل البيت ، كان وقع أقدامى يثير الرعب فى قلبى كأنه يفضح

وجودى ، ويحولنى إلى مجرم يعتدى على الصمت الجاثم على المكان ، صعدنا طابقاً ، وطابقاً آخر حتى بلغنا السطوح ، وانتهينا إلى حجرة صغيرة فيها مكتب قديم ، ودولاب ، ومقاعد خيزران ، استرحت لمنظر الحجرة ، هذه المقاعد عندنا أحسن منها فى بيتنا ، والدولاب الذى فى حجرة نوم أبى أفضل من هذا الدولاب .

وقال الخادم :

- مدحت بيه جاى دلوقت ..

قال أبى فى لهفة :

- طيب وحياتك ياإسماعيل .. أوعى تنسى تقول للبيه إنى جيت .

وتحرك الخادم خارجاً من الحجرة فناداه أبى كالمستغيث ، وقال له فى رجاء حار

- فاكر ياإسماعيل البن اليمنى المعتبر .. المحروق .. أنا نوبة شربته من إيدك وموش قادر أنساه .. اعمل لى فنجان وحياتك ..

قال الخادم متنازلا :

- حاضر .. من عينى ..

وجاء مدحت ، فتذكرت أنفش .. لو كان هذا الولد معنا فى المدرسة ، لضربه أنفش ، وجه أبيض حلو التقاطيع ، شفتاه دقيقتان شعره طويل ناعم ، مفروق من الجانب الأيسر ، قميصه حريرى ، بنطلونه القصير نظيف وجديد .. وجهه جرىء .. واثق من نفسه .. إنه يعرف أنه أحسن منا ..

صافح أبى فى غير تردد أو خجل

- ازيك ياعمى

قابله أبى واقفاً ، مرحباً فى حرارة ، يتكلم بلا انقطاع ، كأنه يتحدث مع رجل كبير ، وسمعت أبى يتكلم عنى ، محاولاً اقناع مدحت بالصداقة التى يجب أن تنشأ بيننا ، لم أفهم ماذا يعنى أبى ، كنت أسقط فى صمتى ، كأنى أسقط فى هوة بلا قرار .

مد مدحت يده وصافحنى ، كنت واقفاً مثل أبى ، لم أنبس بكلمة ..

وسألنى ..

- أنت فى مدرسة إيه ؟

لم أجب ، وقال أبى بسرعة :

- فى مدرسة خليل أغا .. مدرسة على قد حالها .. موش زى مدرستكم .. الناصرية ..

كل لحظة تمر ، كل كلمة يفوه بها أبى ، كل شىء تقع عليه عيناى ، يبعد بينى وبين هذا المكان ، يدفعنى إلى حيرة لا نهاية لها ، من حولى حياة غريبة ، لم أعرفها من قبل ، حياة اكتشفت وجودها منذ لحظات .

وشرع أبى فى الدرس .. وبدأ بالجغرافيا لأن مدحت يخشاها ولا يفهمها ، كان مدحت يعترف بجهله فى ثقة واطمئنان وكأنه يفخر باعترافه ، كانت ثقته بكراهيته للجغرافيا تحرمنى من الشعور بأنى أفضل منه ، حتى فى مذاكرة الدروس .

ولست أدرى أكان فى ذلك اليوم أو فى يوم آخر عندما سألنا أبى ذلك السؤال الذى لن أنساه ، والذى أذكره دائما كلما واجهت فى حياتى مشكلة يجب أن أتخذ فيها قراراً ..

كان أبى يشرح أنواع الرياح ...الهبوب .. الخماسين .. السموم ..وكان يصف لنا رياح الهبوب فى السودان عندما توقف عن الشرح وقال فجأة :

- أنا عايز أسألكم سؤال .. وأعرف تعرفوا تجاوبوا عليه والا لا ..

أثارت كلمات أبى ، انتباهى وحماسى ، توقعت سؤالا يكشف عن ذكاء الإجابة ، ونظرت إلى مدحت ، وأحسست أنه لن يستطيع الإجابة على سؤال يمت إلى الذكاء بصلة ، إنه يبدو وكأن الذكاء يتعبه ، أوكأنه فى غنى عنه ، إنه فوق الذكاء وأقوى منه ..

صاح أبى

- لو جه واحد وقال لكم خدوا ألف فدان تزرعوها وتبقى ملككم .. بس الألف فدان دى فى السودان .. تقبلوا الأرض والا لا ..

ما مناسبة هذا السؤال ، كنت أفكر بسرعة ، محاولاً أن أعرف الإجابة

الصحيحة ، إن أبي كان يحدثنا منذ لحظات عن رياح الهبوب .. إنها تملأ السماء بالغبار حتى يتحول نهار السودان إلى ليل .. آه .. أبي يمتحننا ، يريد أن يعرف هل فهمنا ما قال عن الهبوب .. هذا سؤال سهل ..

قلت بسرعة قبل أن يجيب مدحت :

- لا .. ما اقبلش الأرض ..

قال أبي وعلى شفتيه ابتسامة غير واضحة :

- ليه ؟
- علشان الجو هناك موش كويس .. فيه رياح الهبوب ..

توقعت استحسانه لإجابتي ، ولكنه لم يفعل ، فأسرعت أضيف :

- وعلشان فيه هناك غابات فيها أسود وحيوانات مفترسة .. والنيل فيه تماسيح .. والحياة خطر ..

نظر إليّ في برود والتفت إلى مدحت وسأله :

- وأنت إيه رأيك يامدحت ؟

قال مدحت مترددا :

- آخذ الأرض ..
- ليه ؟
- دي ألف فدان .. تجيب فلوس كتير ..

قال أبي مستريباً :

- والجو الحار .. والحيوانات المفترسة .. والأمطار .. والهبوب

قال مدحت :

- وإيه يعني .. ماأنا أخلي ناس تشتغل في الأرض ..

فصاح أبي محتجا :

- لا .. أنا بأقول أنت اللي تشتغل فيها .. يعني تقعد جنب الأرض وتشرف على زراعتها بنفسك

فرحت باعتراض أبي .. أن مدحت غبي .. لا يفهم ما قاله أبي عن الهبوب المخيفة ..

قال مدحت في غباء :

- ألف فدان .. دي ثروة كبيرة .. أروح برضه وأشرف عليها بنفسي ..

هتف أبي مهللا :

- برافو .. أنت ابن راتب بك .. ربنا يبارك فيك يابني .. ثم أشار إليّ مشمئزاً كأنه ينكر أبوته لي وقال ساخراً :
- موش زي وش الفقر .. فقير ومتعنطز .. موش عايز يشتغل ويرفض الثروة .. يرفض النعمة علشان الحر ..

وحدثنا أبي في حماس ، عن الإنجليز الذين تعودوا على البرد والثلج في بلادهم ، وكيف أنهم يهاجرون إلى خط الاستواء ، ويزرعون الأراضي هناك .. وقال متهكماً :

- يعني ح تكون أحسن من الانجليزي ياسي يوسف ..

كانت صدمة عنيفة لي ، ألهمتني كلمات أبي بسياط الندم واليأس ، أنا فقير ، لا أفهم الغنى والثراء ، ولا أفكر بعقلية الأغنياء ، مدحت الذي يسكن هذا البيت الفخم يفكر بعقلية أخرى ، لأنه ابن راتب بك ، ولأنه سيصبح غنياً مثل والده .. سيعيش حياة باهرة مثل الانجليز .. يسعى وراء الثروة ، ويحصل عليها ، ويتمتع بها ، أما أنا ، فلا فائدة .. سأظل فقيراً كما أنا .. لم يكن أبي يمتحننا في الجغرافيا ، ولا الذكاء .. كان يمتحننا في الفقر والثراء .. وسقطت في الامتحان ..

في اليوم التالي كنت أسأل أنفش في المدرسة نفس السؤال .. حدثته أولا عن الجو الحار في السودان ، وحدثته بخيالي عن الحيوانات المفترسة في الغابات ، ثم قلت وأنا أدفعه إلى أن يقف في صفي ويجيب نفس إجابتي :

- بأه لو يدولك ألف فدان هناك تروح .. وتشتغل فيها ؟

قال أنفش ساخرا :

- والله لو يدوني مليون فدان .. وأنا ح أعمل إيه بالفلوس هناك ..

قلت :

- أنا أروح واشتغل ..

- تبقى مجنون ..
- أحوش الفلوس وبعدين آجي أصرفها ..
- موش ح تلحق .. يابني ده الأسد ياكلك من اول يوم ..

كنت أناقشه ، وانا أشعر بانى اكذب عليه ، إنه يقول نفس ما قلته بالأمس ، إنه فقيرمثلى ، انا وهو غيرمدحت الغنى ،ولكنى اتظاهر الآن أمامه بانى افكر كالأغنياء .. هذا هو كل ما أستطيع أن أفعله ، أن اتظاهر بانى من الأغنياء ..

قلت لأنفش :

- فيه واحد قريبنا عنده ألف فدان فى السودان وغنى جدا .. عنده عربية سودة كبيرة .. وعايش فى سراية

نظر إلىّ فى غير تصديق وقال متحديا :

- ألف فدان فى السودان ما يسووش حاجة ..

قلت:

- وعنده ألف فدان فى مصر ..

قال فى حدة :

- أنت كذاب ..
- طيب والله العظيم فيه واحد قريبنا غنى جدا ..

صرخ غاضبا :

- يابنى هوه انتم حيلتكم حاجة

ولم يرحمنى أنفش ، جمع حولى التلاميذ ، وروى لهم ما أقوله ساخرا ، حتى أحسست انهم سيهجمون علىّ ويضربوننى .. ورغم ذلك كنت أشعر بارتياح غامض لأن لى قريباً غنياً وليس لهم مثل هذا القريب .. وكنت أشعر أيضاً أن الصدق الذى أرويه لهم هو كذب على نفسى ..

كنا قد خرجنا من بيت راتب بك بعد انتهاء الدرس الأول دون أن نقابله ، سأل عنه أبى ، فقال الخادم إنه خرج ، وعاد أبى إلى السؤال منفعلاً :

- موش قلت له ياإسماعيل .. فأجاب معتذراً :

- قلت له .. لكن الظاهر كان مستعجل ..

فاحتقن وجه أبى ، ولم يقل شيئاً ، وجذبنى من يدى وخرجنا وكان مدحت قد فر منا واختفى داخل البيت .. خرجنا كالمطرودين ومشينا فى الشارع ، وأبى يزفر الهواء وأسى ظاهر فى وجهه ، وقلبى ثقيل كأنى أدوسه بقدمى وعند محطة الترام قال لى :

- انا عايزك تصاحب مدحت ..

أما زلت مصرا ياأبى .. أفرض صداقتى على من لا يريدها .. أنا لا ألبس مثله ، ولا أعيش مثله ، ملامح وجهه ليست كملامح وجهى .. لا أعرف كيف اتبادل معه كلمة واحدة .. لماذا تدفعنى إلى هذا الخجل من نفسى .. الاتثور .. الا تغضب .. خير ما تفعله هو أن تنسى وجود هذا البيت ، وأهله ، وكل من فيه .. حتى الخدم .

وسألته :

- هو يقرب لنا ايه يابابا ؟

اعتدل فى وقفته ، ونفش صدره وقال بصوت قوى كأنه يشرح الدرس ..

- يبقى جوز بنت ابن عم خالى

لم أفهم .. حاولت أن أتخيل صلات وعلاقات ، فتشابكت واختلطت ، فعدت إلى السؤال متشككا ؟

- يعنى دول قرايبنا ؟

قال كأنه يدافع عن نفسه :

- أمال إيه .. طبعا قرايبنا .. واللى يقولك غير كده .. تحط صوابعك فى عينيه الاتنين .. قرايبنا ونص .. أنت موش شفت راتب بك جاى بنفسه فى الجنازة ..

كدت أسأله ، وهل يعلمون بقرابتهم لنا ، ولكنى عدلت عن السؤال .. تذكرت جنازة أمى .. وقلت لنفسى : إنها الآن فى مكان أفضل من بيت راتب بك ..

كان إحساسى بالضيق والخجل يتلاشى للحظة قصيرة خاطفة ، عندما يأمرنى أبى بالاستعداد للذهاب معه إلى هناك ، أفرح وأنتعش ، وكأنى مقبل

على مغامرة ساحرة ، وسأعيش فى حدوته .. اذهب بفرحة خائفة ، وأمنية تتطلع إلى تأكيد قرابتنا ، ويأس من فهم معنى هذه القرابة ، ولهفة على الذهاب والعودة ، لأخلو إلى نفسى وأفكر فيما رأيت وسمعت ، ورغبة خبيثة فى أن أروى فى المدرسة عن زيارتنا لقريبنا الغنى .. شىء واحد كان يثير فىَّ شعوراً غامضاً يرتجف له جسمى .. متى أرى سعاد ، وكيف تلقانى ، وما الذى ستفكر فيه عندما ترانى ؟!

كان يوم جمعة ، فذهبت مع أبى فى الصباح ، وانشغلنا بالدرس ، وفجأة سمعنا ضجة فى السطوح ، وأصوات عمال وخدم ، وقبل أن نتبين ماذا يحدث ، فتح الباب ، ورأينا راتب بك .. انتفض أبى واقفاً هاتفاً بصوت مبحوح :

- أهلا سعادة البيه ..

ولم يتمالك نفسه ، فأخرج منديله وجعل يجفف العرق الذى يتصبب من جبينه ، كان جسده يرتعش ، والكلمات تخرج من فمه متقطعة متحشرجة ، أما أنا فقد شعرت وكأنى أحمل أبى فوق كتفى ، ويودى لو أن يختفى راتب بك من أمامى فى الحال حتى أتخلص من هذا الحمل ..

قال راتب بك :

- إيه ياولاد .. عاملين إيه ..

أجاب مدحت ببساطة غريبة

- بنذاكر يابابا ..
- هيه .. وفاهم دروسك ..
- أيوه يابابا ..
- مين أشطر .. أنت .. والا ..

وتردد برهه باحثا عن اسمى ، ثم سألنى ..

- اسمك إيه ياشاطر ..

قلت بصوت خافت :

- يوسف ..

وكان أبى قد استرد بعض أنفاسه .. فانطلق فى الكلام :

- أنا مناى إن سعادتك تمر علينا .. وتسألهم .. وتشوف بنفسك مدحت بيه عامل ايه ..
- يعنى مطمئن ياعبد الحميد أفندى ..
- مطمئن جدا ياسعادة البيه .. واعتمادى على الله وعلى سعادتك ..
- عظيم ..

وضحك راتب بك فجأة .. وقال مخاطبا مدحت :

- تعرف إيه اللى بره ..
- إيه يابابا ..
- أطلع شوف ..

خرج مدحت ، وعاد صارخاً ..

- دى بنج بنج .. بنج بنج يابابا ..
- بس أنا موش عايزك تنسى دروسك .. تلعب شوية وتذاكر شوية .. موش كده ياعبد الحميد افندى ..

قال أبى بسرعة وقد باغته السؤال :

- كده ياسعادة البيه ..

وقال راتب بك :

- والسينما يوم الخميس بس .. صاح مدحت محتجا :
- ويوم الاتنين كمان يابابا .. فالتفت راتب بك إلى أبى وسأله ..
- إيه رأيك ياعبد الحميد افندى ..

قال أبى ضاحكا هو يفرك يديه :

- زى بعضه .. اللى تشوفه سعادتك ..

بنج بنج .. سينما .. مرتين فى الأسبوع .. أبى يوافق مع كل هذا ، وأنا لا أذهب إلى السينما ، شاهدتها مرة واحدة مع أبى وأمى ، يوم ذهبنا إلى سينما رويال وتفرجنا على الوردة البيضاء .. كم مرة ألححت فيها على أبى أن أذهب إلى السينما ، فرفض فى عنف ، وقال مؤكدا : إنها ليست للصغار

امثالي .. المعاملة تختلف ، وعنف أبي يذوب ، إنه يوافق على ذهاب مدحت إلى السينما مرتين في الأسبوع .. لي كلام طويل معك يا أبي .. لابد أن أذهب إلى السينما ..

انفض الدرس ، ودعاني مدحت لألعب معه البنج بنج ، ووقف أبي يتفرج علينا .. كان مرحاً مثلنا ، يجري ويلتقط الكرة ، ويحاول أن يشرح لي اللعبة التي لا يعرفها ، ولا يكف عن القول :

- مدحت أشطر منك .. شوف إزاي بيضرب الكورة ..

كنت رافعاً يدي بالمضرب ، على استعداد لضرب الكرة ، عندما رأيتها تدخل مندفعة لاهثة ، لم تقف حتى اصطدمت بمدحت ، وهي تصيح :

- عايزه ألعب .. عايزه ألعب .. هات المضرب بتاعك ..

لو أعطاها مدحت مضربه ، فستلعب معي .. ولكنني لا أقوى على اللعب ، يداي ترتعشان ، الخجل يأكلني ، المضرب يكاد يسقط من يدي ، ريقي ناشف ، في رأسي طبل يدق ، عيناي لا تريان شيئاً ..

سمعت مدحت :

- خدي مضرب يوسف ..

فالتفتت إليّ ، واقتربت مني من خلال غمامة ، وأخذت المضرب ، وابتعدت بصعوبة ، وكان أبي يقول :

- اتفرج بأه على اللعب .. علشان تتعلم ..

هذه هي عروستي ، زوجتي التي اختارتها أمي لي ، وجهها شاحب مستطيل ، ليست متوردة الخدين ، شعرها منكوش ، صوتها رفيع حاد ، عيناها قويتان جريئتان .. ولكنها حلوة ، أحبها ، أريد أن أتزوجها .. لو ترضى .. لو ننتقل من بيتنا حتى لا تراه .. لن تراه أبداً .. وسأفكر كمدحت ، سأقابل الألف فدان في السودان ، سأعيش تحت وطأة الحر ، وأحارب الأسود والتماسيح ، وأصبح غنياً .. غنياً جداً .. وستقبلني عريساً .. لو كان عندنا سيارة سوداء كبيرة مثل سيارتهم ، من أين النقود ..

أبي واثق أنها سترفضني .. ولكن أمي واثقة أنها ستقبلني .. أنا أصدق أمي .. عيناها تشبه عيني أمي .. وأنفها ..

سقطت الكرة وتدحرجت نحوي ، فانحنيت بلا وعي والتقتها ، ووقفت مكاني ذاهلا .. حتى صرخت فيّ :

- ماتجيب الكورة ..

وزعق أبي :

- ادي الكورة لسعاد هانم .. مالك واقف زي الخيبة ..

كرهت أبي ، ومشيت إليها ماداً يدي بالكرة ، فأخذتها وفي عينيها ضحك ، ثم التفتت إلى مدحت وقد أطلقت سراح ضحكاتها قائلة :

- ليه موش بيرمي الكورة .. وجايبها لحد عندي ..

أسرع أبي قائلاً :

- مؤدب ..

فالتفتت إليّ قائلة في سخرية :

- ابقي ارميها ..

واستأنفت اللعب ، كانت سخريتها واضحة ، إنها لا تحبني ترفضني ، لا أمل لي ..

وسقطت الكرة مرة أخرى .. ونفذت من باب السطوح إلى الداخل وصاحت سعاد وهي تجري وراء الكرة ..

- مبروكة .. يامبروكة ..

وعادت سعاد وفي يدها الكرة ، ومن ورائها خادمة .. صغيرة في مثل سني ..

في هذا البيت خادمات أيضاً ، مثل فاطمة التي عندنا ، ولكن هذه الخادمة أكثر نظافة ، وفي قدميها صندل ،

وقالت مبروكة الخادمة :

- أفندم ياستي ..

- خليكي هنا علشان تجيبلنا الكورة لما تقع ..

قالت الخادمة فى أدب شديد :

- طيب لما أروح أقول لستى الكبيرة ..

وذهبت مبروكة ، وعادت تقف إلى جانبنا أنا وأبى ، تجمع الكور كلما سقطت ، كما كنت أفعل منذ لحظات ، أنا وأبى ..

الفصـــل الثـــالث

ومـاذا بعـد ..

اتمضى فى سرد ذكرياتك ، تلوكها .. أنا أشم رائحة الخطر ، أسمع صوتا قوياً يحذرنى ، يقول لى .. قف يايوسف ، لا تندفع فى غباء لاهثا وراء ذكرياتك .. سينسى ما كنت تبحث عنه .. ستفقد مرة أخرى ما فقدته .. أنت تنبش ، تمزق ، تجرح .. تريد أن تعرف كيف ضاع الذى ضاع .. كيف فسد .. ذلك الحادث التافه .. كأنه تافه .. إنه حادث خطير .. مبروكة تدخل السطوح لتجمع كرات البنج بنج .. أخطر من موت أمى .. أخطر من فقرى .. من يصدق أن هكذا بدأت المطاردة .. وفسد الذى فسد وضاع الذى ضاع .. من يصدق ..

كيف كان لى أن أعرف ، فأستعد وأحذر وأتحصن ، هذا فوق ما يستطيع إنسان ، لكن هذا هو ما يحدث لإنسان .. هى مبروكة وأنا يوسف .. هى خادمة .. خادمة فى بيت غريب .. بيت غير بيتنا .. وأنا ابن مدرس .. هى فلاحة من الريف ، وأنا من المدينة .. هى فى طريق وأنا فى طريق .. لا صلة بيننا .. لا أحد سوى مجنون يتوهم أن شيئاً قد يربط بيننا .. ولكن هذا هو ما حدث .. اللقاء تم ، الصدام وقع ، وحدث مالا يتوهمه مجنون .

كانت تكبر وتنمو ، وكنت أكبر وأنمو ، أفكار تدور فى رأسها وأفكار تدور فى

رأسي ، مشاعر تدب في جسدها ومشاعر تدب في جسدي ، هي تخدم ، تكنس وتمسح ، تلبي النداء ، وتذهب إلى الكواء ، وأنا أتعلم الجغرافيا والهندسة والانجليزية والفرنسية وأدرس القانون ، وفجأة أجدها أمامي كالقدر العنيف ، تقتحم حياتي وأقتحم حياتها ، تطاردني وأطاردها تدفعني وأدفعها ..

كيف أصدق .

كل شيء بدأ في صمت ، بدأ بخادمة تدخل السطوح لتجمع الكرات لا شيء أتفه من هذا ولكنه كان الشيء الحاسم الخطير .. وكلانا لا يدري .

الآن .. في هذه الليلة .. تستلقي مبروكة على فراش ، وتروي لرجل أنها قريبتي .. جسدها عار مكشوف .. الجسد الذي احتضنه أبي .. تزوجه .. استشهد من أجله .. الجسد الذي ولد أخي ابراهيم .. لا شيء يغطي ذلك الجسد .. كل رجل في جيبه نقود يستطيع أن يعرفه .. صوتها يهمس في أذنه بالحكاية .. بالفضيحة .. أتعرف يوسف عبد الحميد السويفي .. تعرفه .. إنه مشهور .. أليس كذلك .. تزوجت أباه .. إنه شقيق ولدي .. لا تصدقني ؟؟.. اسأله .. أقسم لك أن ما أقوله صحيح ..

ما تقولينه صحيح .. ولكن من الذي جعله صحيحاً .. أهي مشيئة الله وليس لنا إلا أن نستسلم .. أستسلم لعيون السخرية الخائفة من سطوتي ، كلمات النفاق المتعلقة لقلمي .. ابتسامات الرياء الساعية وراء نفوذي .. لا شيء يستر جسدها .. لا شيء يسترني .. أنت غارق في الفضيحة حتى أذنيك .. مهما تجاهلت .. مهما ابتعدت .. مهما حاولت النسيان .. مهما فررت ..

أتفهم هذا ..

لقد وقعت على اكتشاف .. التفكير في حياة الإنسان يفضي إلى الجنون ، لا منطق لحياتنا .. أنا الذي أكتب عن الاشتراكية ، أنا الذي أدعو إلى الايمان بالتخطيط والأمل في المستقبل ، أنا الذي أقول لهم إن للحياة منطقاً وخطة مدروسة .. هل كنت أملك منطق حياتي حتى أرسم لهم منطق حياتهم ..

أنت نصاب يايوسف .. كفى ذكريات .. كفى غباء .. كفى حماساً كاذباً ، كل ما في هذه الدنيا غير حقيقي .. الذي سيحدث سوف يحدث .. التفكير خداع متصل ، لو أردت أن تخوض الطريق الوعر ، طريق مراجعة نفسك فاترك المسرح الذي تؤدي فوق خشبته تمثيليتك الزائفة .. ابدأ بكتابة استقالتك .. يوسف عبد الحميد السويفي يستقيل من رئاسة تحرير الأيام ، يترك عمله فجأة .. لن يصدق أحد سبب استقالتي .. سيقولون إني مغضوب عليه ، طردوني من عملي ، لا يهمني هذا ، سأفلس ، أتخلى عن هذا البيت ، لا سيارة ولا تليفون ، ولا قلم .. قد أصاب بالجنون ..

يوسف يشاهد كل يوم وهو يحدث نفسه في الشوارع ، ذقنه نابتة ، بدلته ممزقة ، أظافره ، لا يعرف أحداً .. ستقودني قدماي إلى بيت مبروكة ، دموعي تغسل يديها .. لا .. تغسل قدميها .. ولكنها لن تفهم .. ربما احتقرتني وطردتني ، ما حاجتها إلى مجنون مثلي .. اقبليني يامبروكة خادماً عندك .. سأستقبل زبائنك ، سأفتح لهم الباب ، وأنظم دخولهم وخروجهم ، أتحمل معك العري ، أستحم في الفضيحة معك .. لا شك أن نهايتي ستكون في مستشفى مجاذيب .

ستنهار ثقة الناس في كل كلمة كنت أقولها .. استمر في عملك .. أكتب المقالات ، تحمس ، حتى ولو كنت تكذب على نفسك .. إنهم لا يريدون حقيقتك ، يريدون تمثيلك ، يريدون الصنعة التي تجيدها ، الكلمات التي ترصها .. يريدون أكاذيبك .. كلام فارغ .. إنهم لا يريدون شيئاً على الإطلاق .. ليس هناك صواب ولا خطأ .. لا معنى للاستمرار في شيء .. إننا لا نعرف إلى أين نحن ماضون .. خادمة صغيرة ، نظيفة في قدميها صندل .. مبروكة .. مبروكة .. تلبي النداء .. تظهر قادمة وراء سعاد ، وتقف بيني وبين أبي لتجمع الكرات .. بعد سنوات تكبر مبروكة ، وتتزوج أبي ، مادام هذا يحدث ، فأي شيء قد يحدث .. ما أدراني أن خادمي الذي كان يصب القهوة منذ لحظات سوف يكون سيداً آمراً عليّ بعد سنوات ، بعد أيام .. أتزوج سامية لتكون عشيقة هذا الخادم .. ما أدراني أني قد أتزوج خادمة .. أنجب

ولداً يصبح قاتلا .. أو يصبح زعيماً .. أي شيء قد يحدث .. لا ضمان .. لا منطق .. إننا لا نملك شيئاً .. لا نملك إلا قتل أنفسنا .. مادمنا نعيش في هذه الدنيا ، فعلينا أن نخضع للضربات العمياء .. للقسمة البلهاء .. للمجهول .. للتافه . قلت لأبي لا تتزوجها ثرت وغضبت وتركت البيت ، ولكنه تزوجها .. أنا لم أختر أبي ، لم أختر أمي .. جاءوا بي إلى هذه الدنيا ، وأعطوني اسما ، وأعطوني حياة ، وألقوا بي في المكان الذي ألقيت فيه ، ودفعوني إلى ما حدث .. لست مسئولاً عن شيء ..

أهذا هو ما كنت أريد أن أصل إليه ، أن أقول لنفسي إني لست مسئولاً عن شيء ، ألغي مسئوليتي واستريح .. كأني أدافع عن نفسي .. أنت لا تدافع عن نفسك يايوسف .. أنت تحاول أن تفهم ، تريد أن تعرف حقيقة حياتك .. لا تقفز إلى النتيجة السهلة بهذه البساطة .. تلقي بالعبء كله على القدر .. على مشيئة الله .. على جنون الحياة .. لا تضحك على نفسك .. لا تتعجل .. اطلب فنجان قهوة آخر ، ولا تهرب من عذابك ، لاتجن قبل أن تذوق المرارة كاملة ، لا تخدع نفسك بأن الحياة خداع أمض في ذكرياتك ، انبش وفتش ومزق واجرح ، أجب على ما يجب أن تجيب عليه ، لماذا رفضت زواج أبيك من مبروكة .. ما الذي جعلك تعامل الخادمة على أنها خادمة ، حتى بعد أن لم تعد خادمة .. ما سر عنادك .. ما سر خجلك .. ما سر حياتك ..

لا تترك شيئاً .. اعرف ما الذي صنعك ، وما الذي ورطك .. أنت ما زلت لم تتخذ القرار ..

مازال هناك أمل .

الطريق بينك وبين مبروكة تقطعه في عشر دقائق ، لو اتخذت القرار لو فهمت ما تريد أن تفهمه ، تستطيع أن تذهب إليها في الحال أو لا تذهب ..

تستطيع أن تتزوج سامية ، لو فهمت ما تريد أن تفهمه ، تتزوجها وتسعدها ، ترغمها على السعادة ، وترغم نفسك على السعادة .. أو لا تتزوج .

آه لو فهمت .. في داخلي إحساس نبي ، مسيح يلعق البرص .. مغرور يظن نفسه أقوى من الغرور صادق الصدق الذي لا يصدقه أحد ..

لم يكن دخول مبروكة السطوح هو البداية .. مبروكة لا شأن لها بما حدث ، حياتنا ليست ساذجة إلى هذا الحد ، إنها معقدة أفكاري ، عندما دخلت مبروكة السطوح ، كانت مجرد صبية وكنت مجرد صبي .. هناك أحداث أخرى يجب أن أتذكرها ..

كنا قد كبرنا ، ومنضدة البنج قد تحطمت ، وتحولت إلى أشلاء ، من ألواح الخشب ملقاة في أحد أركان السطوح ، ولم يكن يعنيني في ذلك الوقت سوى أن سعاد قد أصبحت حبيبتي .

حبي تسلل إلى قلبها خلسة ، كان حبي أقوى من أن تتجاهله أو تعبره ، كنت واثقاً أنها ستحبني وتتزوجني ، تلك الليالي الطوال التي قضيتها والكتاب مفتوح أمامي أقرأ صورتها فيه وأحدثها وتحدثني ، وقفاتي الأبدية أمام المرآة أتفرس ملامح وجهي ، أحاول أن أجعله وسيماً ، وكأن في استطاعتي أن أفعل ما أريد ، وأخلق لنفسي شكلاً جديداً ، أزم شفتي لتصبحا رقيقتين ، أسرح شعري وأفرقه وأستعين بالصابون لتصفيفه ، نظراتي الحالمة مقلدا كلارك جيبل ، افتح عيني وأسعتين ، وأضع فيهما فيضا من حرارة قلبي ، أحدق ، ثم أكسر عيني اليمنى ، وأتنهد كم مرة فعلت هذا أمام المرآة ، في غرفة مغلقة عليَّ ، أتدرب وأستعد للحظة لقاء .. تلك الأغنية التي كنت أرددها بصوتي الجديد .. صوتي الخشن الذي اكتسبته فجأة « كان في جزيرة كابري » .

« عندما رأيتها .. » .

الكتب التي قرأتها ، رواية توفيق الحكيم ، « عودة الروح » ، سنية في عودة الروح ، كلما قرأت اسم سنية ، حولته إلى سعادة وبكيت بلا دموع ، دقات قلبي ، الخيالات في رأسي ..

نعم .. لقد بذلت جهداً غير بشري ، كي أصل بحبي إليها ، نسيت أنني فقير ، وأنني أسكن شارع السد ، نسيت أن أبي مدرس خائف من راتب بك ،

اندفعت مع حبي ، فأحببت مدحت وأحببت البيت الذي يسكن فيه ، وأحببت راتب بك ، والست الصغيرة ، والست الكبيرة .. اقنعت نفسي أني واحد منهم ..

كنت في الثانية عشرة من عمري تلميذاً في الخديو إسماعيل الثانوية ومدحت في السعيدية ، وأبي مازال يدرس لنا الانجليزي والجغرافيا والتاريخ ، ويسلمه مدحت أول كل شهر مظروفاً فيه ثلاثة جنيهات ، يأخذ أبي المظروف في صمت ، ويخفيه في جيبه بسرعة ، ثم يقول اي شيء بصوت مرتفع يغلبه الانفعال وعندما نخرج من البيت ، نبعد خطوات من باب الحديقة ، يخرج أبي المظروف ويفتحه ، ويفحص الجنيهات الثلاثة بعناية ، ثم يضعها في حافظة نقوده ، كنت اكره هذا المنظر ، ولكن حبي لسعاد كان يجعلني انساه بسرعة ، ولا أفكر فيه ..لعلي كنت أنسى أن أبي هو أبي من بيت مدحت نعطي ذلك المدرس جنيهاته الثلاثة ثمن دروسه .. هكذا جعلني حبي لسعاد أفكر في أبي ..

إذا حدثني مدحت عن العزبة فهي عزبتي ، سيارته السوداء الكبيرة هي سيارتي ، إذا تعطلت انزعجت مثله وعندما اشتروا سيارة « ناش » جديدة ، فرحت بها اكثر منه ، لم اعد أحلم بأني أبي يشتري سيارة يوما ما ، لم اعد اقارن بيني وبينهم ، لا أحسدهم ، ولا أشعر بمرارة نحوهم .. أحببتهم لأني أحب سعاد .

ذات يوم حضرت مع أبي ، فوجدنا مدحت مريضاً ، وكان من حسن حظ أبي أن راتب بك رضي أن يقابله ويجلس معه في الصالون الكبير ، اما انا فجلست مع مدحت في حجرته ، وكانت سعاد تدخل وتخرج ، فتصيبني حمى اشد من حمى مدحت ، وفجأة فتح الباب ، ودخلت الست الكبيرة ، ما كدت اراها حتى أيقنت أن مدحت قد شفي ، دخلت في ثقة ، على شفتيها ابتسامة حزينة ، وفي نظراتها هدوء مثير ، كانت تتوكأ على كتف مبروكة ، التي تحمل في يدها المنبه الذي لا يفارق سيدتها ..

كانت الست الكبيرة قد تعودت رؤيتي ، وتعرف من أنا ، تحييني في حنان ،

وتدعو لي ، وتقرأ الفاتحة لامي ، ثم تتجاهلني ، كانت احيانا تعطي مدحت وسعاد نقوداً ، قرشاً أو قرشين ، وفي مناسبات نادرة خمسة قروش ، وكنت اقف بجوارهما انظر إلى النقود ، واشعر بدهشة لأنها لا تعطيني مثلهما .

رقت الست الكبيرة مدحت ، وهي تمسح بيدها على شعره ، واغمضت عينيها وتمتمت بكلمات ومسحت وجهها بكلتا يديها ، ثم التفتت إليّ وهي تنهض .. وقالت :

ــ سيبه يا ابني علشان ينام .. تركت الحجرة ، ووقفت حائراً ، لا أدري أين اذهب ، أبي يجلس تحت مع راتب بك في الصالون ، ومدحت مريض في حجرته ، والست الكبيرة تصعد السلم مع مبروكة إلى حجرتها ، هل أخرج من البيت ، أم انتظر أبي واقفاً مكاني خارج حجرة مدحت ، ورأيت سعاد قادمة نحوي تريد الدخول على مدحت

همست مضطرباً :

- نام ..

قالت هامسة وهي تظهر البوم صور في يدها :

- كنت عايزه أوريه صوري .. ظلت رافعة يدها بألبوم الصور فمددت يدي إليه ..

قالت مرحبة :

- عايز تتفرج عليها ..

- أيوه ..

تلفتت حولها قائلة :

النور هنا مش كفاية .. وبدون أن نتكلم ، صعدنا السلم إلى السطوح ، ووقفنا عند السور وبدأت تقلب صفحات الالبوم ..

صورها وهي في ملابس المدرسة وهي في جزيرة الشاي تلقى بفتات الخبز للبجع ، وهي تجلس وقورة على وجهها علامات الجد والتفكير ..كانت تضحك من قلبها مع كل صورة وتثرثر عن ذكرياتها ، وضباب يزحف على عيني ، وأذني لا تعي ما تسمع ، وانفاسي تتلاحق ، ووجهي يلتهب ، وعروق رقبتي

تتصلب أحبها ، يجب أن تعرف أنى أحبها أقول لها الآن ، حركة بسيطة غير ملحوظة والمسها ، لكنى لا أستطيع ، طرف أصبعى يلمس يدها ، وفجأة كنت ملتصقا بها ، خفت ، كل ذرة فى كيانى ترتجف لا ألتفت إليها ، لا أعلق على كلماتها ، أنفاسى حارة ثقيلة ، إنها لا تبتعد مازالت تتكلم ، فى صوتها نبرة غير عادية ، كأنها حزينة ، لعلى أتوهم ، إنها لا تعرف أنى ملتصق بها ، جسدها لين ، ذراعها طرى ، خدها قريب من خدى ، بينى وبينه لا شىء .. أكاد أمسه هذا محال بينى وبينه مخاوف ومتاهات ، يجذبنى إليه ، يبعدنى عنه ، عقلى فى خدى ، يداى فى خدى ، قلبى يدق فى خدى ، حبى فى خدى ، كدت أمسه ، طرواته تشدنى ، مسسته ، نفرت ملسوعا من نعومته ، عدت إليه ، مسسته لمسة .. خدى ملتصق بخدها ..

صمتت ، ولكن أصابعها ظلت تقلب صفحات الألبوم ، إنها تعرف أن خدها ملتصق بخدى ، عيناها شاردتان ، صدرها يعلو ويهبط ، الصمت يحيطنا ، ضجة الطريق آتية من عالم بعيد لا صلة لنا به .. أحبها ، أحبها .. سنظل هكذا إلى الأبد ، لا شىء ينتزعنا من هذا المكان ، حولت شفتى إلى خدها وقبلتها بسرعة .

ظلت صامتة ، أكثر شروداً ، وجهها شاحب ، وفى خدها برودة ولم تعد تقلب صفحات الألبوم ، هكذا وقفنا ، حتى ارتفع صوت من داخل البيت ، فالتفتت خلفها ، وجرت مختفية ، تركتنى وحدى ، والدوار يلعب برأسى .

غربت الشمس ، ولا أحد يسأل عنى ، لا أريد أن أترك مكانى ، ليس لى مكان آخر ، ولكن الظلام هاجمنى ، فتحركت إلى الداخل ، هبطت السلم متلصصاً ، أشعر بالذنب ، أتوقع الأبواب تفتح ، وأمها تلعننى ، وراتب بك يصفعنى ومدحت يقع ميتا .. والست الكبيرة ترسلنى إلى جهنم .. إنهم يعلمون ، قالت لهم : سأنكر ، سأبكى ، سيضربنى أبى ..

وجدت الصالون الكبير مظلماً ، أين ذهب أبى ، خرجت مسرعاً إلى الحديقة وسألت عم عثمان :

- بابا فين ياعم عثمان ؟

- خرج .. أنت كنت فين .. قعد يدور عليك .. قلبنا الدنيا .. أين كنت كنت فى السطوح مع سعاد .. ماذا أقول له ..

وعدت إلى البيت وحدى ، فلم أجد أبى ، خيل إلىّ أنه مازال يبحث عنى تعذبت فى انتظاره ، لا أفكر فى حبى ، بل أتوقع الشر المقبل ، تذكرت يوم خروجى مع أنفش كان العقاب صارماً ، تركتنى أمى ، هذه المرة سيموت أبى ، سيتركنى ولن يعود ، أستغفرك يارب ، لن أعود إلى هذه مرة أخرى ، أغفر لى ذنبى لقد ارتكبت الخطيئة ، كفانى ما أشعر به من ندم ، أنا أضعف من أن ينزل بى عقابك .. أبى يموت الآن .. يلفظ أنفاسه .. الدكتور برعى يراقبه فى وجوم ، ووجهه كالمعتذر ..

عندما عاد أبى ، كنت راقداً فى حجرتى ، مريضاً أهذى ، ولكن وقع أقدامه كان يبدد مخاوفى ، ويبعث فى قلبى الحياة ، فتح الباب وأطل منه ، كنت راقداً مغمض العينين ، أتصنع النوم ، ظل يرقبنى لحظة ، أحسست به كأنى أراه بعين مجهولة ، إنه ليس غاضباً منى ، هكذا شعرت بل إنه يريد أن يحتضننى ويعانقنى .. كأنه أمى ..

وأغلق الباب ، وابتعدت خطواته ومضت الليلة ..

لم يكن من السهل أن أقابل سعاد وحدنا ، بعد زيارات متعددة أيقنت ألا أمل لى ، سوى أن يمرض مدحت من جديد ، أو تحدث معجزة ، لقاؤنا تحت رحمة صدفة ، علىّ أن أنتظر وأنتظر ..

كنت أراها لحظات خاطفة ، كأنها تتعمد أن تبعد عنى ، وكان هذا يعذبنى ويجرح حبى .. تحيينى بكلمة واجمة ، أو تظهر أمامى وتختفى قبل أن تحيينى ، تطل برأسها من خلف باب ، أو تمرق فى طريقها إلى غرفة ، أو ترفع صوتها بنداء مضطرب .. كانت على أية حال ، تشعرنى بوجودها ، فلا أملك غير الألم والانتظار .

ومضت شهور ، وأنا أعيش بذكرى قبلتنا ، أتحرك وأتكلم ، وأصحو وأنام ولا شىء حقيقى ، غير ما حدث ، خدى لم يفارق خدها ، وكأننا مازلنا نتفرج على ألبوم الصور .

لا أدرى كيف تحملت كل هذا العذاب ، ولكنه كان حياتى ، أملى الوحيد هو لحظة لقاء أخرى ، وكلمات أبوح بها ، وقبلة ثانية على خدها ، وأحلام أحدثها عنها .

كل هذا ممكن .. لقد حدث .. قبلتها .. تنهدنا معاً .. فلماذا تضيع الأيام مع الحزن والوحدة ، لماذا أجلس فى بيتنا كالسجين ، أتلفت حولى يائساً ، ليس هذا بيتى ، ليس هذا مكانى .. أنا أحب سعاد ..

كم انتظرت . سنتين ، ثلاث سنوات ، نعم لقد انتظرت طويلاً ، شعرت خلال تلك السنوات ، أنى أحفر هوة عميقة فى داخلى ، تغرق فى داخلها الأحزان ، وأحداث الأيام ، وكل ما أتمناه .. عرفت أين يختبىء السر الدفين الذى لا يعرفه أحد ، إنه يغوص فى بئر لا قرار لها .. بئر فى داخلى ، تحتفظ بما يجهله كل الناس ، عالم عريض واسع ، لا تعيش فيه سوى سعاد ، جسمها النحيل يمتلىء ووجهها الشاحب يتورد ، وجمالها ينمو ، عيناها تزدادان قلقا وحنانا .

كنت فى كل مرة أراها ، أحس بلا دليل أنها مازالت تذكر قبلتنا ، وخدينا الملتصقين ، وألبوم الصور ، لم تنس أبداً ، شىء فى عينيها يقول لى إنها تذكر ..

لم يعد أبى يدرس لنا ، فقد تخطينا معارفه كمدرس ابتدائى وأصبحت أنا ومدحت فى الثقافة ورغم أن أبى قد فقد الجنيهات الثلاثة التى كان يأخذها أول كل شهر ، إلا أنى استرحت ، فقد تحررت من ضعفه الذى يفضحه وجوده فى هذا البيت ، وتحررت أيضاً من الذهاب معه ، والعودة معه ، فرصتى أكبر الآن فى مقابلة سعاد على انفراد ..

كنت أتردد على مدحت لنذاكر ، أو لنتظاهر بأننا نذاكر ، أنا أريد فى الحقيقة رؤية سعاد ، وهو يريد أن يستمع إلى الجرامفون ، ويتعلم الرقص ، التانجو والفوكس تروت والرومبا .. كان يرقص وحده ، ويشرح لى الخطوات ، ولكنه لم يفكر أبدا فى تعليمى ، كان الرقص من شأنه وحده ، وخجلت أن أطلب منه أن يعلمنى ، فكنت أراقبه ، وأحفظ خطواته ، وعندما أعود إلى البيت أحاول تقليده .

قلدت مدحت بشراهة وإسراف ، كان هذه هى وسيلتى الوحيدة كى أصبح مثله ، فتحبنى سعاد ، وترضى به ، أنطق أسماء الممثلين بنفس لهجته ، وأردد الكلمات الانجليزية والفرنسية التى يقولها ، أحفظ كل أغنية يحفظها ، أنصت إليه وهو يشرح لى ميكانيكا السيارات ، وأساعده فى تدبير الخطط لاقناع السائق بأن يعلمه قيادة السيارة خلسة .

وكان يشترى أحيانا علبه سجائر بلايرز ، ويخرج ليستطلع فى السطوح ، ويعود فيقفل الباب هامسا :

- مافيش حد .. غير مبروكة ..
- ح تشوفنا ..
- لا .. ماتخافش ..

وندخن السجائر ، وأتظاهر امامه بأنى خبير فى التدخين ..

ثم بدأ مدحت يحدثنى عن أصحاب له ، عندهم عربات ، وكان يزوغ من المذاكرة ، مدعيا انه يزورنى فى البيت ليذاكر معى ، ويخرج مع أصحابه الذين لا أعرفهم ..

وانتهزت الفرصة ، فكنت أذهب إلى بيته على أمل ألا أجده هناك وأجلس متظاهراً بانتظاره ، ويطول الانتظار ، وأنا أفكر فى سعاد .. ستجىء .. لابد أن تجىء .. أنا وحدى .. هذه هى فرصتنا .. مستحيل أن تفلت هذه الفرصة .. كل ذلك العالم العريض الذى يختبىء فى داخلى ، يضج ويصيح مطالباً بسعاد .. حتى أسمع خطواتها بقلبى ، وأخرج إلى السطوح فأراها ، قادمة كأنها تلبى نداء مجهولاً ..

تلتفت إلىّ ، ووجهها واجم تتجه إلى السور ، أتبعها وأقف إلى جوارها ، ونسرح فى الفضاء العريض .. رغم كل تلك السنوات لم أشعر أنى فى حاجة إلى تذكيرها بشىء ..

بعد صمت طويل .. همست وكأنى أحدث نفسى :

- عايز أقولك حاجة ..

أطرقت برأسها ، وعلا صدرها وهبط .. فتشجعت ..

- عارفة ..
همست ..
- عارفة ..
- من سنين .. وأنا أفكر فيكي ..
قالت في عصبية :
- عايزني أعمل إيه ..
ارتبكت وتوهج شيء كاللهب في عيني ..
سمعتها تهمس بعد قليل :
- اللي كده .. موش بيعملوا حاجة ..
- قصدك إيه ..

بدا على وجهها الغضب ، حتى ظننت أنها ترفض حبي ، أو لا تفهم ما أقوله ..

همست متوسلاً :
- أنا بأحبك ..
قالت بصوت حزين :
- ما أنا عارفة .. لكن قصدك إيه ..

فجأة فهمت كل شيء .. أضاءت رأسي بالنور .. إنها تطلب مني أن أحدثها عن الزواج .. هذا هو ما أريده .. ألا تعلمين ..

- قصدي نتجوز ..
- تفتكر بابا يرضى ..
قلت في حماس :
- ليه ما يرضاش ..

لم أخف من رفضه ، كنت واثقاً أن كل شيء سيتم كما نريد ..

قالت في صوت خافت :
- ح يقول أنا لسة صغيرة ..
- معلهش .. ح نستنى .

قالت بعد برهة :
- وأنت لسة تلميذ ..
- لكن بأحبك ..
- بكرة تكبر .. وتحب واحدة تانية ..
- موش ممكن .. أنا أموت نفسي ..
قالت في أسى :
- الرجالة كلهم خاينين ..

●●

الرجال كلهم خائنون ، قالتها سعاد ، وكأنها تطلق حكماً أبدياً على كل الرجال ، ولكني رفضته لست خائناً ، ولن أكون خائناً ، الخيانة شر ، والشر لا يعيش في نفوسنا ، إنه يحيط بنا ، يحدق بنا ، كموت أمي .. الشر يأتي من مكان بعيد .

اسأليني ياسعاد ، أيامي تقول لكِ ، أنا واثق من نفسي ، ليس عندي ذرة شر ، هل من الممكن أن أتحول ، مستحيل .. من الذي علمك أن الرجال خائنون ، هذا كذب ، انظري إليَّ ، حدقي في عيني ، ألا تسمعين دقات قلبي .. أنا أحبك ..

الأيام مضت في حب ، والأيام مضت رتيبة ، ماذا أفعل سوى أن أحب ، ماذا كنت أستطيع أن أفعل أذهب لأبي وأقول له أريد أن أتزوج سعاد ، هذا فوق قدرتي ، سأتزوجها عندما أكبر ، الشر هو أني لا أكبر بسرعة ، لا أكبر في غمضة عين .

وعلمني الانتظار أن أفكر في مستقبلي .. أكون مثل الدكتور برعي .. لا .. أني أحب أن أتفرج عليه ، أرقبه وهو يفحصني ، منظره مسل ، تعبيرات وجهه غريبة ، ولكني لا أريد أن أكون مثله ، وجهه المعتذر ليلة وفاة أمي ، ينفرني من الطب .. أكون ضابطاً في الجيش ، أحارب وأرتدي البدلة الكاكي وأضع على كتفي النجوم والتيجان ، منظرهم مسل ، أحب أن أتفرج عليهم ،

أرقبهم وهم يمشون فى الشارع ، القامة معتدلة والأكتاف عريضة ، والخيلاء واضحة ولكنى لا أريد أن أكون مثلهم ..

لو أكون .. لو أستطيع أن أكون .. ماذا أكون ..

لا شىء يسحرنى مثل توفيق الحكيم ، أريد أن أكتب رواية كعودة الروح ، أكتب عن سنية ، عن سعاد . أصبح كاتبا عظيما مثله ، أركب عربتى وأسرح مع الخيال ، أعيش فى الفنادق ذاهلا ، كل الناس تعرفنى وأنا لا أعرفهم ، أرقبهم من بعيد .. أتفرج عليهم وهم لا يدرون ،أكتب أشياء باهرة ، وأكتب أشياء غير مفهومة ، عن باخ وموزارت ورفائيل ورمبراندت ، وأكتب عن أشياء مضحكة . أعيش فى فرنسا فى مونمارتر ، لو أغمض عينى وأفتحهما فأصبح توفيق الحكيم ، عودة الروح ، شهر زاد ، أهل الكهف ، يوميات نائب فى الأرياف ، هذه الكتب هى عالمى الذى أحبه ، إنها تلمس أعماقى التى تحب سعاد ، لن أكون مثل توفيق الحكيم تماما ، هو لا يحب وأنا أحب ، هو يعيش بلا امرأة ، وأنا أحيا ومعى حبيبتى زوجتى سعاد .. حدثتها عن توفيق الحكيم كلما وقفنا عند سور السطح وحدثتنى عن ألفريد دى موسيه وقزقزنا اللب ، واختلسنا القبلات كنت أشعر أحيانا بالذنب ، وأحيانا بالخوف ، وأشعر أحيانا بالدهشة عندما أغيب عن سعاد أسبوعين أو ثلاثة ، وأعود إليها والشوق يأكلنى ، فأجدها متباعدة ، لا تسعى إلى لقائى ، ومع ذلك لم أناقش أى احتمال ، سوى أننا ننتظر ، وأنا أحبها وهى تحبنى ، وسنتزوج ، وسوف أكون كاتبا عظيما مثل توفيق الحكيم ، وزوجا عاشقا مثل لا أحد .

مضت سنوات الحب مملة كالأرق سريعة كالأحلام ، السر الذى فى أعماقى ينمو ، والآمال تزداد عرضا واتساعا ، وأنا مازلت طالبا بالسنة الأولى فى كلية الحقوق ..

كانت الحرب قد أعلنت ، وأبى يتحدث فى حماس عن هتلر وجبروت الألمان ، وأنا أميل إلى تصديقه ، ولكن بلا حماس ، كنت أنتظر ، إحساس غامض بالانتظار يسيطر علىّ وأنا أتفرج وأرقب أنباء سقوط فرنسا ، وعناوين الصحف عن المعارك الدامية والجنود الإنجليز الذين انتشروا فى الشوارع ،

والعربات الحربية الصفراء التى تهدر فى الطريق ليل نهار ، وضجيج الطلبة وهم يناقشون ويسخرون ويقلقون ، وتجارب صفارات الانذار ، والخوذات ، وأقنعة الغازات السامة ، والمتطوعون فى معاطفهم الجلدية الصفراء يزارون ساعة الغروب « طفى النور .. طفى النور » والأزرق الداكن الذى طلينا به زجاج النوافذ ، وبطاقات التموين ، والسؤال عن الجاز والسكر ..

كنت أنتظر ، وكأن الحرب ستسفر عن شىء لا أعرفه ، ولكنه سيجعلنى أكبر وأتزوج سعاد .. وأصبحت أكثر جراءة ، فقبلتها فى شفتيها ، وضممتها إلى صدرى ، كان ظلام الشارع يحمينى ، والقلق الذى أشعر به فى العيون من حولى يزيدنى قوة ، هم يضعفون وأنا أقوى ، الست الكبيرة تبتهل إلى الله ، وفى صوتها قلق ساذج ، الست الصغيرة تتحدث فى جزع عن اختفاء اللحم من السوق ، وتفزع من منظر الجنود الإنجليز فى الشوارع ، وراتب يقرأ الصحف باهتمام ، ويبحث عن إطارات جديدة ويكثر من التردد على العزبة رغم جزع الست الصغيرة والحاحها عليه بالا يتركها وحدها ، كانت سعاد تحدثنى عن كل هذا ، فيزداد يقينى بأنهم يضعفون وأنى أقوى ، وأنتظر المجهول الذى ستسفر عنه الحرب ويجعلنى أتزوج سعاد .

لو سقطت القنابل ودمرت بيت راتب بك وسارت الأسرة مشردة فى الطريق ، فسأقف إلى جانبهم وسأعيش مع سعاد فى كوخ ، كانت الخواطر المفزعة تدق رأسى فلا أشعر بفزع ، مجاعة تجتاحنا جميعا ، وأنا وسعاد نلتقط الفضلات ونتبادل القبلات ، جسدها يتشوه ، وأنا مازلت مخلصاً لها أحبها وأحبها وأحبها ، الدنيا تغنى ، وأنا وسعاد وحدنا ، ضائعين حزينين .. متحابين ..

كان يوم خميس ، والمحاضرة الأخيرة فى القانون الدستورى ، أتتبع كلام الأستاذ بشغف كأنى نائب فى البرلمان وسعاد تطل من شرفة القاعة وحول رأسها اليشمك ، كما تظهر الملكة فريدة فى الصور ، كل شىء أسمعه أو أتخيله يرتبط بسعاد بلا مشقة ، فقد تعودت المشقة .. وخرجت من المحاضرة ، ومررت على مدحت فى كلية الهندسة ، سرنا معا فى طريقه إلى بيته ، وفجأة قال مدحت والغيظ يملؤه :

- موش قادر أزوغ النهاردة من البيت .. مع أن فيه رحلة هايله فى المركب للقناطر .. اتناشر بنت .. تصور بقى ..
- مش قادر تزوغ ليه ..
- خطيب سعاد جاى النهاردة ..

ضحكت ، ثم وجمت ، ثم قلت فى محاولة يائسة لإخفاء هذا الشيء غير المفهوم الذى يطبق علىّ :

- هه هيه اتخطبت ..
- واحد دكتور .. عنده عربية شفروليه ..
- مبروك ..

خرجت الكلمة كسكين حاد يمزق فمى ..

عندما بلغنا البيت ، التفت إلىّ مودعا ، قلت وأنا لا أعى ما أقول :

- يعنى ماتقدرش تزوغ ..
- ح احاول ..
- وأنت مالك والخطوبة ..

كان صوتى حاداً مهاجماً ..

- بابا قاللى أكون موجود ..

همست والدموع ترتجف وراء جفونى .

- أنا كنت عايز أجى معاك .

صاح ساخراً :

- أنت ..
- ليه .. لأ ..
- اتهيأ لى .. أنت بتتكسف من البنات ..

صحيح .. أنا أخجل من البنات .. أظن هذا .. فأنا لا أعرفهن .. البنت الوحيدة التى أحببتها هى سعاد ، وهى البنت الوحيدة التى أعرفها .. ولكنى أريد أن أغرق ، ربما غرقت فى النيل ، ربما غرقت فى دموعى .. أنا أحبك ياسعاد ، ماذا جرى الشرايس فى نفسى ؟ ولكن أريد الآن أن ألقى بنفسى فى

أحضانه اتفهمين ، أريد أن أندفع كالأعمى أريد أن أفقد نفسى .. أنا لا أحتمل .. اتفهمين ..

قال مدحت :

- اسمع .. عندى فكرة .. كلمنى فى التليفون الساعة خامسة .. لوقدرت أزوغ .. نخرج سوى ..
- طيب ..

لن أكلمه فى التليفون ، لن أراك بعد الآن ، أنت تذكرنى بسعاد ، سأكتفى بدموعى ..

بكيت فى البيت ، الدموع فى حلقى لها طعم العذاب ، وجاءت ساعة الغروب فسمعت أقدام أبى تتحرك إلى الباب .. خرجت من حجرتى وسألته :

- رايح فين يابابا ؟

أجاب فى عجب :

- رايح القهوة .. فيه حاجة ..
- أجى معاك ..
- ليه ، ماوراكش مذاكرة ..
- متضايق ..

سرنا معا ، فى كل خطوة أكاد أصارحه بحبى لسعاد أذهب إليها يا أبى ، أمنعها من الزواج ، قل لهم إننا أغنياء ، ومعنا نقود كثيرة ، سنشترى عربية شيفروليه ، سأكون رئيساً للوزراة ، صدقنى يا أبى ، أنظر إلى شكلك ، إنه فخم ، مهيب ، سيصدقك راتب بك أتسمعنى يا أبى ..

ولكنى لم أقل له ، وعندما اقتربنا من ميدان العتبة ، خطر لى أن مصيرى هو مصير توفيق الحكيم كاتب مثله بلا امرأة ، حزين مثله ، ذاهل مثله ، أعيش شارداً كارهاً للزواج .. سأكتب قصة ، الرجال ليسوا خائنين ، النساء هن الخائنات ، خائنات بطبعهن .. أكرههن .. أمقتهن .. سأصير عدوا للمرأة مثل توفيق الحكيم .. ولكنى أحب سعاد .

كان أبى يمشى نشيطاً ، يسألنى عن الكلية باهتمام ، فأجيب بكلمات

مقتضبة ، ويحدثنى هو عن مدرسة الحقوق السلطانية .. كان يريد دخولها ولكنه لم يستطع ، المصاريف كانت كثيرة ..كنا فقراء .. كانت عندنا عزبة ، ولكن جدى رفع قضية على الحكومة لتأخذ منه الأرض ، لم يستطع دفع الضرائب ، أتعرف من كان المحامى فى القضية ، سعد زغلول .. أوراق القضية مازالت فى صفيحة ، المذكرة مكتوبة بخط سعد زغلول .. خط يده .. أوراق تاريخية ، تساوى ألف جنيه .. ربما ألفين والله أنا مهمل .. كيف أحفظ هذه الأوراق التى كتبها سعد زغلول بخط يـ.ـه فى صفيحة ، أخشى أن تكون الفيران أكلتها .. ذكرنى يايوسف .. عندما يعود إلى البيت سأخرج الورق وأحتفظ به فى مكان مناسب .. صحيح أنا مهمل .

أنستطيع استعادة الأرض ، وتعود لنا العزبة ، لقد كنا أغنياء .. كنا أغنياء ياسعاد ..

عاد أبى يحدثنى عن ناظر الحقوق .. مستر هولز .. وبدأت أسرح وراء وجه سعاد ، أستعيد كل لحظة قضيتها معها .. كيف ترضين بهذا .. ألا تحبنى .. ألا تتألم .. إنها تحبنى ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئا ، وماذا أستطيع أن أفعل أنا .. سعاد ليست خائنة .. إنه الشر .. الدكتور الذى جاء ليخطبها هو الشرير .. لو يموت .. كيف يعيش معها .. ألا يعلم أنى أحبها .. قبلتها .. عانقتها .. شعرت بجسدها فى صدرى ..

وصلنا إلى مقهى بالشارع الخلفى لدار الأوبرا ، المناضد متراصة فى صف واحد طويل كأنها منضدة واحدة ، منظر لم أره من قبل فى أى مقهى ، وأناس يجلسون على الجانبين يلعبون الشطرنج ..

صاح أبى .

- السلامو عليكم ..

فارتفع أكثر من صوت وكأنهم ينشدون ..

رجال وشبان وكهول ، أعمار مختلفة .. شيخ معمم ، رجل سمين وجهه مليء بالنمش أمامه كأس ، المكان يفوح برائحة الخمر ، ورائحة مرحاض ، شاب بالقميص والبنطلون .. عجوز أصلع يغنى بصوت مسموع قطع العجوز

غناءه وقال بصوت ممطوط يثير الضحك :

- العلماء كالجهلاء ..

ارتفع صوت الجميع مكملاً :

- سواء بسواء ..

دهشت ولكنى ابتسمت ، هذا مكان خرافى وقذر ، نسيت للحظة سعاد .. أهؤلاء هم أصدقاء أبى ..

صفق أبى وزعق بصوته المرتفع :

- يا مخالى ..

وجاء قزم يمشى على مهل .

- أيوه ياسى عبد الحميد .. قهوة سادة ..

صاح أبى :

- بن تقيل .. وواحد سباتس

الكازوزة لى .. نظر إلىّ مخالى بعينين حذرتين .. ثم التفت إلى أبى وقال له كأنه يهدده :

- ياسى عبد الحميد .. أنا ماخدتش حساب امبارح .. اتنين قهوة ..

قاطعه أبى .

- عارف .. بس غور من وشى

قال العجوز الذى يغنى منشدا :

- غور من وشى غور ..

ياسيدى غور .. غور ..

وانطلق صوت الرجل الذى يشرب الخمر .. صوت كالانفجار .

- لماذا تضحكين يابقرة ..

وتجشأ ..

خيل إلىّ أنى أحلم .. فى كابوس .. لم يسأل أحد أبى من أكون ، ولم يقل لهم أبى من أنا .. واسترحت لهذا الخاطر .. ودهشت لأنه جاء بى إلى هنا ..

بعد أن شرب القهوة ، كان قد نسى أني موجود ، وضع رقعة شطرنج بينه وبين الرجل الذى يشرب ويقول الكلام الغريب ..

كان خصم أبى له عينان ضيقتان ساخرتان ، وعلى رأسه طربوش قصير ، رجل فى الخمسين ، يشرب بنهم ، يده ترتعش وهى تحوم فوق رقعة الشطرنج ، ثم تضيق عيناه ، وتنفرج شفتاه عن أسنان متآكلة ، ثم يزار ..

- عووم .. عووووم ..

ويحرك قطعة ..

وكان لا يكف عن إطلاق كلمات لا معنى لها .. صباح القمر ماينسدش .. هاهاها .. أنا جدع .. أنا كارنينا .. بقبق الطليثيين يوماً .. ياسيدى بقبق .. ياروحى بقبق .. اخص عليكى يامعلونة .. اخص على الصرصار اللى فى الملوخية .. ويتجشأ .. وتضيق عيناه ويكز على اسنانه ويزار .. عووم .. عووووم ، ويحرك قطعة ..

وأبى صامت ، كأنه يصلى .. شبك يديه فوق صدره ، واطرق برأسه ، يمده يده فى تردد وخجل .. ويحرك قطعة ..

غرقت فيما أراه .. ولكنى افقت شيئاً فشيئاً من ذهولى .. أبى يجلس مع هؤلاء الناس .. يعرفهم .. يصادقهم .. يلعب معهم .. آه لو رأنا راتب بك .. لو علمت سعاد أن هذا هو المكان الذى يجلس فيه أبى كل ليلة .. مكان فقراء .. أشلاء ناس .. وشعرت بدوار .

فجأة بدأ الرجل الذى يشرب يترنم بصوت جنائزى :

- نعيان جسيم لهرميل الهراملة وناظر النظار وريس الريسة وكبير الوزرا .. المتنيح فى شيخوخة سمعان انتهى ..

انتفض أبى وقد احمر وجهه من الغضب وصرخ :

- لا .. مامتش ..

قال الرجل وشفتاه متدليتان وعيناه تتسعان فى مكر :

- والنبى مات .. المتنيح فى شيخوخة سمعان انتهى .. مع .. وتجشأ .. رائحة الخمر تفوح من فمه نفاذة وقحة .. وصرخ :

- يامخالى الكلب .. ياأذعر .

والتفت الرجل إلىّ فجأة ، فوثب قلبى بين ضلوعى ، وسألنى باسماً وهو يغمز بعينيه :

- بذمتك موش مخالى أذعر ..

هرب الدم من جسمى .. ولم ينقذنى إلا حضور مخالى فزعاً ..

وصاح الرجل مترنما :

- هات واحد كونياك .. يبقوا كام ؟

قال مخالى هامسا :

- ستة ..

صاح :

- يامخالى الكلب .. ياحرامى .

وتدخل العجوز الذى لا يكف عن الغناء .. سأل منشدا :

- موته خلاص .. والا موته ..

قال الرجل السكران :

- ألعبقرى انتصر ..

ثم أكمل وهو يبكى :

- آه .. موته ..

صاح الرجل الذى يغنى :

- لا حول ولا قوة إلا بالله ..

وتنهد ثم أنشد :

- الجهلاء كالعلماء ..

وانطلقت الأصوات جميعا .. الجدران والمقاعد والمناضد وقطع الشطرنج كانت تشترك فى الغناء وتنشد :

- سواء .. بسواء ..

كان وجه أبى أحمر ، الغيظ فى عينيه وأنفاسه ويده ، كان غاضبا ، شفتاه ترتعشان ، ويداه ترتعشان .. ولكنه كان يضع القطع على الرقعة استعدادا.

لمعركة جديدة .. وصاح أبي منفجراً :

- العب دور تاني ..

صاح خصمه :

- الجهل فضلوه على العلم .. ياأبا جهل ..

والتفت إليّ وسألني :

- بذمتك .. موش الأفندي ده ابو جهل ..

نظرت إلى أبي حائرا .. استنجد به ، ولكنه تجاهلني .. وسألني الرجل :

- وحضرتك تبقى تعرفه منين ؟

صاح أبي :

- وأنت مالك ياأخي .. واحد صاحبي .. العب بلاش خوتت دماغنا ..

أيقنت أن أبي يريد أن يبعدني عن هذا المكان ، لا يريد أن تربطني به صلة .. ولكني مازلت أتساءل .. لماذا رضي أن يصحبني إلى هنا ..

ليلتها شعرت باليأس ، إننا لاشيء .. لا عربة ولا ثروة ولا أمل .. أبي ينتمي إلى المقهى المجنون القذر .. وبكيت ..

استيقظت في الصباح مازلت أبكي ، وذهبت إلى الكلية ، واليأس يتضخم في رأسي ، الحزن قاس ..

بعد انتهاء المحاضرة الأولى خرجت من المدرج ووجدت نفسي سائرا نحو بيتها .. مررت بكلية الهندسة ، حدقت في الباب باحثا عن مدحت .. أسرعت الخطوات حتى لايراني ، مشيت في اقدام ، راسي ملتهب ، دمي يفور ، لو رفضت فسأصفعها سأبصق في وجهها .. أحبك ياسعاد .. ستقابلينني فاتحة ذراعيك .. وستبكين على صدري ، وستهربين معي من البيت .. إلى اين .. إلى بيتنا .. إلى المقهى .. نحمل معنا أوراق القضية المكتوبة بخط سعد زغلول .. نبيعها بألف جنيه .. لا أدري .. ولكني ذاهب إليك .. قلبي ينبض .. أنا الرجل الذي لا يخون .. أنا القلب الذي يحب .. سأتزوجك ياسعاد .. لا شيء يقف أمامي .. لاشيء ..

اقتحمت البيت .. فوجدت مبروكة أمامي .. قالت :

- سيدي مدحت لسه ماجاش .

قلت محتدا :

- أنا عايز ستك سعاد .. روحي اندهي لها ..

بعد زمن طويل قضيته في غباء .. رأيتها قادمة .. لو استطيع أن أقبل قدميها .. أبكي أمامها .. أعماقي دوامة .. ولكن الكلام يخرج من فمي غريبا عني – لا صلة له بي .. طلبت منها كتاب عصفور من الشرق ..

- اتفضل اقعد ..

رفضت .. كنت أريد أن أجري هاربا من البيت ، أريد أن أندفع إلى الطريق لأتوسل إليها هناك .. بعيدا عنها .. ورغما عني خرجت الكلمات الغريبة ..

- مبروك ياسعاد ..

لم أسمعها وهي تتمتم بكلمات .. غلبني الغيظ ، ما هذا الكذب أنا لا أريد كتاب .. لا أريد أن أهنئها .. لماذا هي تعيش في هذا البيت .. لماذا يذهب أبي إلى ذلك المقهى .. إنها غنية .. ستعيش في قصر .. من أنا .. حقير فقير .. الرجل الذي ينشد والرجل الذي يسكر يسخران مني ضحكت من الم .

- خلاص ح تتجوزي ..

- أيوه ..

أكرهك .. أنتِ حقيرة .. أنتِ غنية .. أنتِ خائنة .. أنا توفيق الحكيم عدو المرأة .. أحسن منك ..

- مبسوطة ..

قالت هامسة :

- على إيه ..

تكذبين ، نعم أنتِ سعيدة بهذا الزواج .. ربما كانت صادقة .. ربما هي ليست سعيدة .. هناك بارقة أمل .. خرج الصوت من أعماقي ..

- طيب ح تتجوزي ليه ..

قالت في أسى .

- أعمل إيه يعني ..

اتزوجك .. انطق بالكلمة يايوسف .. قل لها كل شيء .. حارب .. أجذبها من يدها وأطفش .. افعل ماتريد .. الكلام الحقيقي لا يخرج من فمي .. أبي غليان .. أوراق القضية في الصفيحة .. أمي ماتت .. هي التي تستطيع أن تقول .. الحرب لم تنته .. المعجزة لم يجيء .. هذا البيت لم يتهدم .. المجاعة لم تحدث .. لا أستطيع .. سكت ..

ذهبت سعاد لتحضر الكتاب .. جنازة أمي كانت مثل هذا .. ناس يولون لي ظهورهم وأنا واقف اتفرج في النافذة .. كل ما في أعماقي يموت ..

عادت ومعها الكتاب ، مدت يدها ، مددت يدي ، التقينا عند الكتاب ، وسحبت يدها وجرت إلى الداخل .. كل ما في أعماقي مات .

ليلة زفافها كنت أحمل قبري بين ضلوعي .. قبر صامت لا يهمس لي بشيء ، حزن مزمن .. ألم ليس كالألم لأنه قديم .. عيوني تتطلع في ضجر . قدماي لا تستقران في مكان ، خرجت إلى الحديقة أرقب الليل .. الظلام يريحني .. ترى ما الذي أنا مقبل عليه ..

●●

عندما جاءت مبروكة إلى بيتنا ذكرتني بالشيء الذي لم أنسه .. ذكرتني بالميت الذي لا يموت .. قال لي أبي والبشر يطفح من وجهه :

- ح نجيب خدامة عظيمة .. مبروكة اللي بتشتغل في بيت راتب بك ..

كان يشعر بالفخر ، أنا أيضا شعرت بالفخر ، ولكني خجلت من قدومها ، كأن سعاد هي التي ستجيء ، أو مدحت .. لن تأتي لتخدمنا ستفضحنا ، سترى عيناها الفارق بين بيتنا وبيتهم ، لاحظ أبي صمتي .. فسألني .

- إيه .. موش مبسوط ..

قلت صادقاً :

- مبسوط ..

وذهب أبي عصر يوم ، وعاد ومعه مبروكة ..

عاد أبي ومعه مبروكة ..

أبي ومبروكة ..

لا .. أنا أتعجل الأحداث ، أقفز فوقها .. أنت يايوسف لا تعني إلا بتذكر ما حدث لك .. الأمر ليس بهذه البساطة يجب أن تتذكر ما حدث لأبيك .. لا تنس أن حياته قد أثرت في حياتك .. أظن هذا .. على أية حال لابد أن أتشبث بالتفاصيل .. كل التفاصيل .. الخطر يكمن في التفاصيل .. في تلك الأيام كنت مشغولاً بنفسي ، فلم أنتبه للتحول الكبير الذي حدث لأبي .. ما أغرب الحياة .. نحن في حاجة إلى قدرة إله لنفهمها .. لنفهم ما يدور في رءوسنا وما يدور في رءوس الآخرين ، لنتنبأ بالصدام .. بالاحتكاك .. بالذي يؤثر .. والذي يتأثر .. الآن .. الآن فقط .. تستطيع أن تفهم يايوسف .. بعد أن فات مافات .. بعد أن فات الأوان .. الله وحده يعرف ماسيحدث .. أما الإنسان .. أقصى مايستطيعه الإنسان .. أن يعرف ماحدث ..

الآن .. كأني أطل من فوق قمة جبل .. على واد فسيح .. أرى أحداث حياتي الماضية .. أرى ما يحدث وهو يحدث .. أرى مايقع وهو يقع .. لا أستطيع أن أمد يدي لأمنع شيئاً من الوقوع .. أنا بعيد ..

لافائدة من أن أرفع صوتي لأحذر .. أصرخ لأنبه .. الله قد صنع ماصنع .. وأنا أتجرع من جديد .. كل القديم .. وأعرف ..

قبل أن يعود أبي ومعه مبروكة كان قد أحيل على المعاش ، لم أهتم كثيراً بذلك ، وكأن شيئاً لم يحدث له ، إنه مازال أبي ، ماالذي يمكن أن يحدث لأبي ، لم أنتبه إلى مايشعر به .. لم أنتبه إلى مايدور في رأسه .. الآن .. أستعيد كل التفاصيل .. وأنتبه إلى مالم أنتبه له .. تصرفاته الغريبة .. ضيقه المفاجيء ببيتنا في شارع السد .. تأففه من دكان الطرشي .. نهاره في البيت كالأسد المحبوس في العرين .. كتب الشطرنج التي اشتراها والقلم الأحمر في يده ، يضع الخطوط الحمراء تحت السطور وكأنه يصحح الكراسات ، يقرأ في الكتاب ويلاعب نفسه بالشطرنج الذي اشتراه .. شجاره مع فاطمة الخادمة .. اكنسي يابت .. امسحي يابت .. الجرنال فين يابت .. اغسلي

الجرجير يابت .. الأكل شاط يابت .. وهربت فاطمة .. وارتفع صوت أبي في السلم غاضباً على أولاد الشيخ سليمة .. وضرب بائع الخيار في الشارع والتف حوله الناس .. كنت لا اكترث .. وعندما يذهب إلى المقهى لا اكترث .. حتى عندما أعلن رغبته المفاجئة في الانتقال ، لم أدرك أنه ضائع وحيد .. ينهار عالمه من أمامه .. تطرده الحياة إلى هامش الحياة .. يصرخ كالمستغيث ، ولا أحد يغيث .. دهشت لأنه يريد أن يتخلى عن البيت الذى عاشت فيه أمي ، ولكن فرحتي بالفرار من ذلك البيت طغت على دهشتي .. أخيراً تخلصنا من حي الفقراء ، وذهبنا لنعيش في شارع الفلكي عند حدود حي الأغنياء .. حيث الهدوء .. حيث لاجيران يختلطون بنا ونختلطبهم .. لا أصوات تزعق وتصرخ وتتشاجر في الطريق .. لاأولاد حفاة في الشـارع .. لا ألم في العيون .. ولابشاعة في الرائحة .. على بعد خطوات تقع سراى محمد باشا محمود رئيس الوزراء السابق .. الأشجار مورقة في الحديقة الواسعة والحراس يقفون عند الباب ، يملأ منظرهم خطواتي بالرهبة والوقار .

سكنا في شقة صغيرة هادئة بشارع الفلكي ، تضم الأثاث القديم وكنت مرتاحاً إليها ، فالشارع هادىء ، والعمارة نظيفة .. تختلف تماماً عن بيتنا في حارة زكي .. رغم أني كنت أشعر أحياناً بالحنين إلى حجرات بيتنا القديم ، الحجرات الواسعة ، والسقوف العالية ، وأشعر بالحنين إلى أمي وهي تتحرك في البيت القديم تملأه بصوتها وأنفاسها ..

كنت جالساً في غرفتي ، بعد عودتي من الكلية ، أكل حلاوة طحينية عندما دخل أبي البيت ، خرجت إلى الصالة ، فرأيتها معه ، لم أرها .. رأيت أهل بيت راتب بك كلهم .. سعاد .. مدحت .. الست الصغيرة .. راتب بك .. إسماعيل الخادم ، عثمان البواب .. ومن وراء الجميع شبح الست الكبيرة ، خرجت من قبرها لترقب هذا الشىء الغريب الذى هو بيتنا .

اقتحموا البيت معها .. وجوههم ساخرة ، شامتة ، مترفعة .. تتهمني بالكذب .. تقول لي ، لقد خدعتنا ، لو كنا نعرف أن هذا هو بيتك ، وهذه هي

حقيقتك ، لما سمحنا لك بزيارتنا والاختلاط بنا .. سعاد تقول : ما أضيع الساعات التي قضيتها معك .. الست الكبيرة تنظر إليّ في شفقة ورثاء .. رأوني وأنا ارتدى البيجاما ..

كان أبي يعامل مبروكة وكأنها واحدة منهم يتقدمها إلى حجرته واقتحم معها حجرتي .. نظراتها تذكرني بهم .. نظرات وقورة مترفعة كنظراتهم .. لم أسمع ماذا يقول لها أبي .. لم أفهم شيئاً على الإطلاق .. حتى سألها أبي أين تريد أن تنام ؟ عندئذ أفقت على صوتها وهي تشير إلى حجرة الأكل قائلة ..

- أنام هنا ..

في تلك اللحظة ، اكتشفت أن الفستان الذى ترتديه ، هو فستان قديم لسعاد .. فوجمت .. فستان سعاد في بيتنا .. سألني أبي عن رأيي ، فوافقت في الحال على اقتراحها ، وأنا أريد أن أهرب من أمامها ..

اختلفت معاملة أبي لمبروكة عن معاملته لفاطمة ، خيل إليّ أنه على استعداد لأن يخدمها هو .. وأن مجرد وجودها في البيت شىء باهر بالنسبة له ، أما أنا فقد تجاهلتها تماماً ، رفضت أن أفكر في مجيئها .. ووجودها معنا في البيت .. لن أعاملها مثل معاملة أبي ، سأتحصن بكبريائي ، سأظل أعاملها وكأنها لا تعرف حقيقتنا ، وكأني مدحت أو أي فرد آخر من بيت راتب بك .. وكنت أسمع صوتها ينطلق ، أو ألاحظ ابتسامة تطوف بوجهها فأهرب بأذني وأهرب بعيني ، وأذهب إلى حجرتي وأغلق على نفسي الباب وفي الصباح أفر من البيت كأنه ليس بيتي ..

ولكني لاحظت تغيراً مفاجئاً في البيت ، أصبح نظيفاً ، وحجرتي مرتبة ، وملاءة السرير بيضاء والبيجاما مطوية بعناية فوق السرير .. وأصبح أبي أكثر هدوءاً ، كنت أراه يشرب الشاى في الصباح وعلى وجهه ابتسامة ورضاء ، يتتبع مبروكة في سعادة وفرحة ، فيخيل إليّ أنه يتوهم نفسه راتب بك ..

كانت صلتي بمدحت قد أصابها الفتور منذ تزوجت سعاد ، نتقابل صدفة في الطريق أمام باب الجامعة فيتهلل وجهانا ، ويرحب بي وأرحب به ، ونتبادل

العتاب لأننا لا نلتقي مثلما كنا نفعل في الماضي ، وأشعر بوخز الألم ، إذ أتذكر سعاد في وجهه ، كنت مازلت أحبها .. ثم يغيب عن مدحت ، ولا أراه ، حتى نتقابل بعد صدفة أخرى ، بعد أسابيع أو شهور ، لم أعد أتردد على بيته ، ولم يعد هو يسألني أن أزوره ، وكنت واثقاً أنه وجد أصدقاءه الحقيقيين ، من نفس طبقته .. أغنياء مثله ، يملكون العربات ويلعبون بالنقود ، ويعرفون البنات ..

أحد الأيام التقيت بمدحت وأنا في طريقي إلى ميدان الجيزة ، جذبني من يدي في حماس ، وفي عينيه بريق غير عادي ، كأنه يتفحصني ، أو يبحث عن شيء ما في داخلي ، ثم سألني في لهفة :

- عامل إيه مع مبروكة ؟

لم أفهم مغزى سؤاله ، وخجلت فتلعثمت ..

صاح وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة :

- اطلع من دول .. ماتخبيش عني حاجة ..

قلت في خوف :

- أخبي إيه ؟

قال ضاحكاً في وقاحة :

- بقى بذمتك ماعملتش معها حاجة ؟

- حاجة إيه ؟

هتف :

- ده أنت خيبه قوي ..

ثم عاد يلح وعيناه تتفحصني في غير تصديق :

- عايز تقول إن ماحصلش بينكم حاجة لحد دلوقت ؟

قلت في حدة :

- قصدك إيه ؟

فمضى يروي لي مغامراته مع مبروكة ، استمعت إليه وأنا أكتم دهشتي ،

وقد خالجني شعور غريب بالسرور ، لأن مجيء مبروكة عندنا يثير حسده وغيرته ، ويشعره بأن عندي شيئاً يفتقده هو .. كان يكلمني وكأني عندي كنز محروم هو منه ..

وقال في لهفة :

- بنت هايلة ياابني .. بقى ماخدتش بالك من جسمها .. لهلوبة .. والله أحسن من كل البنات اللي بنخرج معاهم .. مافكرتش أبداً تبوسها .. جرب .. اسمع كلامي ماتبقاش عبيط .. دي فرصة .. أنت وهيه لوحدكم في البيت .. عمي ما بيخرجش .. أمال أنا أقول إيه .. البيت عندنا مليان .. تعرف يوم ماما ماظبطتنا .. أنا قلت خلاص .. ح يمنعوا عني المصروف وح يطردوها .. الله يرحمها ستي هيه اللي خليتها تقعد .. ماحدش قدر يقولها حاجة ..

وحدق في وجهي وقال مشجعاً :

- هه .. ح تجرب النهاردة ؟

فلما لاحظ ارتباكي ، صرخ في حماس :

- بشرفي .. البت ماعندهاش مانع .. دي فلاحة .. بس أنت ماتتكسفش .. اسمع .. أنا أقولك إزاي .. استنى لحد ما عمي يخرج من البيت .. وانده لها .. اشخط فيها .. وقولها قلعيني الهدوم .. ح تسمع كلامك على طول .. وامسكها .. وامسكها .. موش ح تقول لك حاجة .. ماترتبكش .

وشرح لي في اهتمام ، كيف أثيرها وأجعلها تستسلم لي ، كان يشرح وكأنه يتخيل كل شيء .. كأنه يتمنى أن يكون مكاني .. ولم يتركني حتى وعدته بأن أنفذ خطته .

وعدت إلى البيت ، وفي رأسي أفكار جامحة ..

كأني كنت أنتظر تصريح مدحت لي حتى أغازلها وأفكر فيها كامرأة .. مادام مدحت قد فعل هذا ، فلاحرج عليّ ، لن ينقص من قدري أن أمد يدي إليها وأقربها ، أولاد الأغنياء يفعلون هذا ، مدحت بالذات قد فعل هذا .. نعم .. هذه هي فرصتي .. سأفعل مثله .

منذ أن كنت في مدرسة الخديوى إسماعيل وأنا أسمع عن مغامرات التلاميذ مع الخادمات ، وأسمع النكات الجنسية ، والقصص المثيرة يروونها بلذة وشغف ، يتهامس بها التلاميذ الصغار ، ويجأر بها التلاميذ الكبار ويضحكون ، وفي نبرات صوتهم ثقة واعتداد ووقاحة ، كنت أسأل نفسي لماذا لا أفعل مثلهم ، لماذا لا أحاول مع فاطمة .. كنت أراها راقدة في المطبخ تعرى فخذيها ، فأسمع طنيناً في رأسي وتتجمد نظراتي فوق جسدها كأنها تتحسسه وتتقطع أنفاسي ، ولكن رغبتي تختلط بمخاوف تحاصرني ، أتوهم أن عيوناً ترقبني ، وترصد حركاتي ، أرى وجه أمي حزيناً محتراً ، أرى أبي كأنه يهددني ويأمرني بالابتعاد عنها ، وأقاوم رغبة مسعورة في الانحناء ولمس فخذها أو صدرها ، يداى ترتعشان باردتان ، ورأسي يضج وفي أمعائي مغص ، ويشتد بي الألم والخجل ، فأفر من أمامها وأعود إلى غرفتي مؤرقاً ، رغبتي قاسية .. وأحلم أحلام اليقظة ..

عندما أحببت سعاد ، كنت أحلم بها ، ولكن الآمي هدأت ، لم تكن رغبتي قاسية ، وكان الحب في قلبي أعنف من المغص في أمعائي ، وشوقي إلى رؤيتها ولمس يدها ، أهم عندي من أحلام اليقظة التي تهدأ كلما فكرت في أننا سنتزوج يوماً ما .

علمني حبي لسعاد أن أترفع عن مشاركة الطلبة في الكلية في أحاديثهم التي لا تنقطع عن الجنس يتندرون بحكايات عن الخادمات وحكايات عن بنات يقضين الليل في بيوتهم ، كنت أسمعهم من بعيد فأفكر في سعاد وينتابني الفزع ، إنها ليست واحدة من أولئك البنات الشريرات ، سأحميها حتى من خواطري ، لن تسقط في خيالي ، ستظل دائماً الملاك الطاهر العفيف ومع ذلك لم يكن الأمر هيناً ، أعود إلى البيت وأرى فاطمة فتتحرك رغباتي ، ويتكلم عقلي .. قاوم ، لا تمس هذه الخادمة القذرة الحافية ، التراب في شعرها ، الرائحة الكريهة تفوح من جسدها ، الشقوق في جلدها ، احفظ لجسدك نظافته وطهارته .. من أجل سعاد ، ولكن الكلمات تذوب ، والعقل ينهار ،

والرغبة تشتد ، ولا يمنعني في النهاية من المحاولة ، سوى هذا الوحي المحير ، بأني خائف ، وبأن أمي وأبي معي ، يرقباني وينصتان إلى خلجات نفسي .

بعد أن تزوجت سعاد أصبحت كالمريض ، أفكر في رغبتي كالعاجز الضعيف ، كأن سدوداً هائلة بيني وبين أية امرأة ، قوة طاغية تدفعني بعيداً ، أرغب وفي يقيني أني لن أحقق أبداً ما أرغب فيه .. وقرأت باهتمام وصف توفيق الحكيم لنفسه بأنه راهب فكر .. أنا راهب فوق الجسد ، سأضعف وأضمر ، سأصبح نحيلاً شفافا كالفكرة .. كالخيال .. سأصبح فناناً عظيماً وأكتب القصص .. وأمسكت بكتب توفيق الحكيم ، والتهمتها من جديد ، وتأملت وجهي في المرآة ، أبحث عن الشرود في عيني ، ورحبت بالشجن الغامض وسمحت له بأن يجتاح صدرى ، وسخرت من المرآة وقلت لزملائي في الكلية .. أنا فنان .. وكلما رأيت طالبة شعرت بجسدى يتصلب ، ورفعت عيني فوقها ، أعبدها وكلي إحساس غامر بأنها تعرف أني اتجاهلها ، ولا أكترث بأنوثتها ، بل أحتقرها وأترفع عنها .

ولكني اليوم عائد إلى البيت والأمل الخائف يعاودني من جديد سأحاول مع مبروكة ، لست راهباً تماماً ، لست فناناً كتوفيق الحكيم ، لماذا أدفع بنفسي في طريق العذاب ، سأعيش كما يعيش الآخرون ، سأصبح وكيلاً للنيابة وقاضياً ومستشاراً ، ربما أصبحت وزيراً .. الدنيا كلها تحت أقدامي . سأجتاح هذا البلد بنفوذي سأطرد الانجليز وأصبح رئيساً للوزارة ، المال يتكدس في خزائني ، القصور تحت أمرى ، سأتزوج إحدى الأميرات ..

بعد ساعة واحدة ستكون مبروكة ملكي ..

لو صرخت .. القانون .. جريمة هتك العرض .. إنها في مثل سني .. لقد بلغت العشرين .. رضاؤها يعفيني من العقاب .. لن أستعمل القوة .. لو ادعت أني اعتديت عليها .. لو .. مدحت يقول إنها فلاحة .. أبي يصفعها فتسكت .. ولكن موقفي سيكون سيئاً .. فضيحة .. لايهم .. سيضيع مستقبلي .. لايهم .. سيحزن أبي .. لايهم .. سأفسد .. مثل الطلبة الذين

يتندرون بمغامراتهم .. سأتعاطى الحشيش مثلهم .. سأصبح مثل أنفش .. وطني ورئيس وزراء ويرتكب هذا .. وكيل نيابة يحقق مع المجرمين وهو مجرم .. لايهم .. لايهمني شيء ..

كان أبي في المقهى ، ومبروكة كثيرة الحركة في البيت ، قلت لنفسي إنها تدعوني إلى نفسها ،لم أجرؤ على النظر إليها ،كنت أنظر إلى الصور المتدافعة في خيالي ،جسدها العاري ..كلمات مدحت ..كل شيء أراه يحدث أمامي أين يحدث .. في غرفتي .. أغلق الباب علينا .. أناديها الآن قبل فوات الأوان .. ارتفعت الأصوات في رأسي صارخة فائرة حتى لم أعد أتحمل .. ذهبت إلى حجرة الطعام وفتحت الراديو .. امتلأ البيت بألحان تشايكوفسكي .. الدكتور جريس في كلية الآداب ..نذهب إليه ظهر كل أربعاء ونسمع الموسيقى الكلاسيك في أحد الفصول .. نظاراته السميكة فوق عينيه الضيقتين .. جسمه النحيل الرشيق ..صوته المفعم وفمه المليء باللعاب ..كان يحدثنا عن سمو الفن .. التحليق في عالم الجمال .. انتم بشر .. انتم تختلفون عن الحيوانات ، كان تشايكوفسكي معذبا .. مصابا بالشذوذ الجنسي .. كان يتألم ويقاوم .. كان يصرخ .. انفعالاته أقوى من أفكاره .. عواطفه الحادة أوضح من عقله .. إنه فنان عظيم ولكن ينقصه شيء .. الموسيقى ودمائي الفائرة شيء واحد ..

فجأة رأيتها أمامي .. لا أذكر ماذا قالت .. لم أسمعها جيداً .. ولكنها تعترض على الموسيقى الكلاسيك .. تريد سماع شيء آخر من محطة مصر .. وثرت ..

تحولت رغبتي الجامحة إلى حقد محموم .. اندفعت الثورة من فمي أدافع عن نفسي .. أدفع الخوف عني .. أهاجم الفضيحة التي تحدق بي .. الفضيحة المستقرة في رأسي .. ربما لأنها هي التي جاءت تأمرني .. لو كانت انتظرت قليلا .. ربما كان قد تغير كل شيء .. كنت ناديتها .. هي التي جاءت .. تتكلم كسيدة .. تعاملني كصاحبة بيت .. صاحبة مزاج .. تقول لي إنها ليست خادمة في هذا البيت .. لست مدحت ..

- أنت فاكره نفسك إيه .. خدامة ..

طردتها من الحجرة .. وذهبت إلى حجرتي .. ولكن الرغبة اجتاحتني عنيفة مدمرة ، خرجت إليها فوجدتها في الحمام .. الماء يسيل في الداخل .. يغسل جسدها .. الجسد الأسمر .. يفوح برائحة اللحم .. أكاد أشمها .. الماء يسيل .. صوت الماء يثيرني .. جسدها يتحرك تحت الماء .. يداها تتحسان جسدها .. تحسسان جسدي .. أطرق الباب .. أناديها الآن .. اقتحم الباب .. سكت صوت الماء ـ وساد صمت غريب .. عدت متسللا إلى حجرتي ، أخشى سماع صوت خطواتي . أخجل من أن تعرف انى وقفت بالقرب من الباب .. كأني شحاذ ..

لم أستقر في حجرتي . فتحت الباب .. فسمعت صوتها .. تغني .. مرحة قوية مسيطرة .. حيوان غبي .. حيوان شعره طويل .. يغني .. صوتها يتحداني ..يستفزني ..يصرخ في أذني ..صوتها المرتفع في البيت يقول لي ، أنت لاشيء ، أنت فقير ، ليس هذا مكاني .. كنت أعيش في بيت أحسن من هذا .. لن أعاملك كسيد .. لا أعترف بمحاولاتك لأن تكون سيداً .. لا قيمة لثقافتك .. إني أسخر من الموسيقى الغربية التي تسمعها .. اترك كل هذا .. انسه .. تعال هنا .. واركع أمامي .. واعترف لي .. انا وأنت شيء واحد .. لا تتكبر .. لا تترفع .. لا تفكر فيما ليس لك .. إني أهزأ بك .. تعال ... تعال ..

ذهبت إلى الحمام فوجدت الباب مواربا ، الرغبة في عيني ،وعيناي تنظران إلى الأرض .. الرغبة في يدي ويداي متشنجتان خلف ظهري .. الرغبة في صدري وصدري لا يزفر الهواء ولا يستنشقه ، كأن حياتي توقفت ..خرج الصوت الكاذب من فمي يأمرها بألا تغني .. الحيوان الغبي .. قابلت صراخي ببلادة .. وضحكت .. لو لم تضحك .. لو تكف عن اهانتي .. لو تجعلني اشعر بأني أحسن من هذا .. لو تتركني احلم بأني مدحت ..

عدت إلى حجرتي مرهقا ، صداع في رأسي ، وتعب يلذع مفاصلي ،لم أعد افكر في شيء .. أمامي منضدة عليها أوراق ، انا جسد يجلس على مقعد ، هذه

حجرة لها جدران ونافذة .. صوت الموقد في المطبخ .. أسمع وأرى ، وكأن لا صلة لي بالأشياء .. لا علاقة بيني وبين جسدي .. وجاءت مبروكة تحمل الشاي ، وضعته أمامي .. الشاي لونه أحمر .. هذا هو كل شيء .. الشاي لونه أحمر .. مبروكة بجانبي .. قالت كلمة أو كلمتين .. وخرجت ..

ظهر اليوم التالي ، جاءني مدحت عامداً ، والبريق في عينيه ، وابتسامته الماكرة مازالت هناك على شفتيه ، عرفت أنه يريد أن يسمع ..

- هيه .. عملت إيه امبارح .. اطرقت برأسي ، وابتسمت ، كنت ابتسم من الحيرة .. من اليأس . ولكنه قال في انفعال :
- ما تتكلم .. عملت اللي قلتلك عليه ..

وحدق في وجهي مستريبا وسأل .
- انبسطت ؟

اتسعت ابتسامتي ، ماذا أقول له ..

وللحظة تجهم وجهه وقال :
- أوعى تكون ماعملتش حاجة . لن أقول لك الحقيقة ، لو أستطيع أن أقولها لك .. لقلتها .. ولكني لا أفهم ماذا حدث لي ، أشياء كثيرة تضاربت في أعماقي شيء محير ، لو أفهم .. لو كان ما حدث واضحا لاعترفت لك بكل شيء ... ولكني لن أستطيع أن أكذب .. كل ما أستطيعه هو أن أبتسم ..
- ايه الابتسامة الخبيثة اللي على وشك دي .. ما تتكلم يا أخي .. لازم سويت الهوايل يا ابن الإيه .

ابتسامتي تخدعه ، تكذب عليه ، لابد أن أقول شيئا .. همست :
- ما عملتش حاجة .
- لا يا شيخ ..

لم يصدقني .. وشعرت براحة كبيرة لأنه لم يصدقني .. ولجأت إلى ابتسامتي الكاذبة من جديد ..
- بقى بتخبى علىّ .. موش أنا باقولك كل حاجة ..
- ح أخبى إيه ..

ضحك مشجعاً وقال :
- باين عليك مكسوف من اللي عملته .. تعال اتغدي معايا ..

إنه يعاملني كبطل ، يدعوني إلى الغداء بعد كل هذه القطيعة عن بيته ، مهتم بأمري كأني صديق حقيقي له ، يريد أن يسمع مني ، ويقول لي ، كل هذا لأني كذبت ، لأني ابتسمت ، آه لو يعرف الحقيقة .. الحقيقة التي لا أعرفها .. لو قلت له إني استمعت إلى تشايكوفسكي .. فكرت في أني لا أستطيع أن أكون مثله ، وأن مبروكة ليست خادمة في بيتنا كما كانت خادمة في بيتهم ، لو حدثته عن القانون والفضيحة .. لو حدثته عن رغبتي .. الماء يسيل في الحمام .. خطواتي المتسللة .. لون الشاي الأحمر .. سيفتح فمه من الدهشة وينظر إلىّ كغريب ، كان لا يدعوني إلى الغداء .. الصدق الذي في أعماقي غريب ، متشابك ، معقد ، كيف وصلت إلى هذا .. أين رغبتي في أن أحتضن أمي .. أين طفولتي .. أين بساطة نفسي .. اختلطت الأمور .. أريد أن أخرج .. أنا لست أنا .. كم تظن يا مدحت ، أسئلتك ترهقني ، نظراتك وحكاياتك ، تعذبني .. الوقت يضيع معك .. الساعات تتبدد بلا معنى .

ولكن بيت مدحت أراحني .. جالت عيناي في كل مكان ، حيث كنت أرى سعاد ، ونظرت إلى بداية السلم الذي يصعد إلى السطوح ، من هنا صعدنا إلى فوق ، وتهامسنا بكلمات الحب ، وقبلتها ، وضحكنا ولعبنا البنج بنج .. إني مستريح لأني لم ألمس مبروكة بالأمس ، جئت إليك يا سعاد نظيفا ، مازلت أدنيك ، مازلت أحبك .. مازلت أضحي بأيامي من أجل ذكرياتي معك ..

في هذا البيت ، مبروكة خادمة .. وسأظل كما أنا ، الرجل المترفع ، الذي لا يفسد .. مكانك يا مبروكة هناك في السطوح .. أما أنا فمشغول عنك بهذا الذي في أعماقي .. الفن .. الجمال .. الثقافة .. براءة نفسي .. احترامي لنفسي ..

همس مدحت :
- تيجي معانا الليلة ..

- فين ...

ضحك ساخراً وقال :

- ماهو دلوقت الواحد يقدر يقولك تعال .. فقدت عذريتك ..

وابتسمت ..

قال مدحت :

- ح نروح بيت سوزى .. معاك فلوس ..
- كام .
- تدفع لها جنيه ..

لاحظ التردد على وجهى ، فأسرع قائلاً :

- ما تخفش .. ادفع لك انا ..

وابتسمت .. هذه هى فرصتك يا يوسف ، اذهب معه وحاول ، تخلص من كل هذا الضجيج الأبلة فى راسك .. استعد للقاء مبروكة إنها مازالت هناك فى البيت .. تنتظرك .. لن تستريح حتى تحول ابتسامتك الكاذبة إلى حقيقة ، وتروى لمدحت ما فعلته مع مبروكة .

كنا خمسة فى سيارة أحد زملاء مدحت فى كلية الهندسة ، قدمنى لهم مدحت وهو يقول فى اهتمام لا يخلو من سخرية :

- الساهى ده وراه دواهى .. ده خطير ..

وقفت العربة أمام عمارة فى شارع جانبى متفرع من شارع الانتيكخانة ، وصعدنا إلى الطابق الرابع ، وضغط واحد منهم جرس شقة عليها لوحة نحاسية باسم أحد المحامين .. فتح الباب ، رجل أسمر شعره لامع ، يرتدى الروب دى شامبر .. نظر إلينا فى وجوم ، ثم تهلل وجهه وقد عرف بعض الوجوه ، ورحب بنا ، وتقدمنا إلى صالون فاخر ، كأنى فى بيت راتب بك ..

واختفى الرجل وهو يهمس :

- سوزى جاية حالا ..

لم نجلس على المقاعد ، كانوا يتهامسون ، وبعضهم يصفر فى انفعال ، والضحكات متحشرجة مكتومة ، والرءوس سريعة التلفت والعيون تلمع ،

والشفاه مفتوحة ، يتبادلون كلمات حادة ساخرة ، ويقفزون من موضوع إلى موضوع كأن شيئا يطارد أفكارهم .. وأنا أرقبهم فى دهشة وصمت ، وإحساس قوي بنفسي يتزايد ويتضخم ..

أطلت سوزى من الباب ، وقالت فى وقار لم اتوقعه !

- بونسوار يا بهوات .. موش قاعدين ليه ..

هجموا عليها وأحاطوا بها ، ووقفت بعيداً ، ذاهلا ، ولكنى منتبه إلى كل خلجة فى وجهها ، كل حركة فى شفتيها ، عيناى لاتفارقانها ، حتى التقت عينانا ، فضحكت .. ضحكة جريئة .. وسألتنى ..

- أنت واقف بعيد كده ليه

تكلمت فلم يخرج الكلام من فمى ..

وسألتهم ...

- هوه ماله ..

صاح مدحت :

- هو كده .. لكن خطير .. خدى بالك منه ..

صوبت إلىّ عينين فاحصتين وقالت بسرعة :

- ده باين عليه لسه صغير ..

تحركت نحوها ، كأنى أتحدى كلماتها ، حتى انضممت إليهم .. وصحت بصوت غريب .. ربما حاولت تقليد مدحت فى لهجته ..

- آه .. لسه صغير ..

وابتسمت .. لعلى أخدعها بابتسامتى ..

تقدمت منى ، ومدت يدها إلى ذقنى وداعبتها بأناملها ، وانفعال ضخم فى صدرى .. كأنى انتفخ بهواء ملتهب .. وقالت ضاحكة :

- دلوقت نشوف ...

وعلمت أنى لن أفعل شيئا ، حتى المحاولة لن أحاولها ..

سألتنى سوزى ..

- أنت الأول ..

صاح أحد أصدقاء مدحت ..

– لا .. أنا ..

فغضب مدحت وقال :

– يوسف الأول ..

قلت في حده :

– لا .. أنا موش عايز ...

سألتني سوزي في دهشة واستهزاء ..

– ليه .. هوه أنت من الإخوان المسلمين ..

وسمعت مدحت يهمس في أذني ..

– إيه .. مالك .. في حاجة زعلتك .

قلت في ضيق :

– لا .. موش عايز ..

مضت أيام وأسابيع بعد تلك الليلة .. وأنا أهمس لنفسي بصوت مسموع .. لا موش عايز .. لا موش عايز .. فأشعر بالأمان .. وأشعر بالعذاب لأني لست مثل الآخرين ...

الفصل الرابع

سعد عبد الجواد .. نعم سعد عبد الجواد .. من غيره أذكره الآن ، كان لابد أن تقفز يا سعد من مكانك الذي تختبيء فيه بين ذكرياتي وتظهر ..

لا أحد يعلم عنك شيئا .. انت أحد أسراري التي لم أبح بها لأحد .. وجهك الأبيض المستطيل وعيناك الواسعتان العميقتان ، وذقنك المستدير .. الجميع كانوا يعرفونك في الكلية .. أول دفعتنا .. ولكن أحد لم يعرفك مثلي .. وأنت أيضا عرفتني كما لا يعرفني أحد .

كنت أرقبك من بعيد وأقول لنفسي ماسر تفوق هذا الطالب علينا ، وأشعر بالغيظ .. ربما كنت أشعر بالحسد أيضا ، رغم فقرك ، رغم بدلتك الرمادية التي لا تغيرها أبدا كأنها جزء من جسمك ، كأنها جلدك ..

كان سعد يتحرك بيننا مرحاً ضاحكاً ، لا يبدو عليه أنه يذاكر دروسه ، لم يكن يفعل كالطلبة الأوائل الذين يحفظون ما في الكتب والمذكرات عن ظهر قلب ، وينزوون بعيداً عن بقية الطلبة ، أنوفهم مدسوسة في الكتب ، وجوههم شاحبة ، ونظراتهم مستكينة جبانة ، بالعكس .. كان سعد يجلس في المدرج يرقب الأستاذ والطلبة كأنه يشاهد مسرحية مسلية ، الجميع يكتبون كل حرف ينطق به الأستاذ ، وهو لا يكتب كالطلبة اليائسين من النجاح ، وأحيانا يغيب أسبوعا أو أسبوعين ، وتفوته محاضرات كثيرة ، ثم يعود إلى الكلية ، وليس

على وجهه أية علامة جزع ، ويقف مع الأساتذة بعد المحاضرات يناقشهم فيستمعون إليه فى اهتمام وكأنهم يناقشون زميلاً لهم .

أدهشنى من سعد ، اشتراكه فى المظاهرات ، وحماسه للمناقشة فى السياسة ، كان يكره الألمان ويقول عنهم إنهم نازيون ، وينطق بالكلمة كأنها سباب ، برغم أن كلمة نازى كان لها تأثير سحرى فى نفوس الطلبة .. حتى فى نفسى .. وكان يكره الانجليز والفرنسيين والأمريكيين ولا يحب إلا الروس ..

كنت أقترب منه أحيانا عندما يقف مع أحد الأساتذة ويناقشه فى السياسة فيجتمع حولهما حلقة من الطلبة أنضم لها .. وسمعت مدرس القانون المدنى الدكتور عبد الوهاب وهو يقول له ذات مرة :

- انت باين عليك شيوعى ..

وكانت كلمة شيوعى لها وقع غريب فى نفوسنا ، وقع غامض له صلة بالإباحية .. وفساد الأخلاق واستباحة الأعراض .. وضحكنا ، ولكن سعد قال فى حماس وعناد ..

- موش أحسن ما أكون فاشيستى والا نازى ..

ودارت مناقشة اشترك فيها بعض الطلبة ، لم أفهم منهم شيئا ، إذا سرحت وتذكرت حماس أبى للألمان وتأكيده أنهم سينتصرون فى الحرب ..

وكان سعد لا تفوته مظاهرة ، وكان دائما يهتف مع أنصار الوفد ، رغم انه لا يبدو عليه انه وفدى ، إذا كان فى مناسبات كثيرة يطلق النكات على الوفديين ، ولم يكن يجتمع معهم ، وذات يوم حاصر رجال الشرطة الجامعة ، ووقفوا فى طوابير على رءوسهم الخوذات وفى أيديهم الهراوات ، ويصول ويجول أمامهم ضباط يركبون الخيل ، ونسى الطلبة خلافاتهم ، كانوا يهتفون هتافات مختلفة للوفد .. لا زعيم إلا النحاس .. وللألمان .. إلى الأمام ياروميل . وللملك .. يعيش جلالة الملك .. ولله .. الله أكبر ولله الحمد .. ثم هبطت حمى الهتافات ، وارتفعت حمى مقاومة حصار الشرطة .. وبدأوا يكسرون حجارة سور الجامعة ويجمعون الزلط المعد للاستعمال فى بناء جديد ، ويقذفون رجال الشرطة .. ورأيت سعد وهو يجذب فى يده أحد خراطيم الحريق

ليصوب المياه على الحصار المضروب .. وخفت .. فجريت إلى داخل الكلية ناجياً بنفسى ، ورأيت فى المدرج الكبير طالبين يلعبان الشطرنج ، فجلست بالقرب منهما أتفرج وأنصت فى وجل إلى الصياح القادم من بعيد .

وأتوهم وقوع معركة دامية يسقط فيها قتلى وجرحى ، فأزداد انكماشاً ، وأفكر فى الاختباء تحت المقاعد إذا ما هاجم الشرطة الكلية واقتحموها ليقبضوا علينا .

وفجأة لمحت سعد يدخل المدرج ، ونظر إلينا فى دهشة وسأل .

- هوه كان فيه محاضرات ؟.

لم يلتفت إليه أحد سواى .. وقلت له :

- لا ..

فابتسم قائلاً :

- أمال قاعدين هنا بتعملوا إيه ؟.

قلت :

- مستنيين الدوشة اللى بره لما تخلص ..

فنظر إلىّ طويلا ، ثم قال فى هدوء لا يخلو من المرح :

- يعنى احنا نموت نفسنا بره .. وأنتم قاعدين زى البهوات .. هيه دى موش بلدكم ..

لم يصرخ ، ولم يحتد ، كان يتكلم وكأنه يخاطب نفسه ، وشجعنى على أن أجيب .

- يعنى ح نعمل إيه ..

فقال باسما :

- ولا حاجة .

وتقدم منا ، ووقف يرقب معركة الشطرنج ، كان متربا ، ووجهه محمر ينضح بالعرق ، ولكنه باسم ، وعيناه العميقتان تشعان ببريق ذكى ، ولم يطق السكوت فتدخل بين اللاعبين ، ينصح كل واحد منهما بأن يلعب نقلة معينة ، فإذا حاول اللاعب أن ينقل قطعة أخرى مد يده إلى الرقعة وصمم على تنفيذ

اقتراحه .. وساد من حولنا صمت كبير ، كأننا فى مكان مهجور ، وكانت ساعة المدرج تقترب من الثالثة ، والجوع يقرصنى ، ولكنى مستسلم إلى ما أنا فيه ، لا أريد مغادرة مكانى .. ثم خطر لى أن سر الصمت ، هو أن سعد قد كف عن التدخل بنصائحه للاعبين ، وأنه قد أمسك بمذاكرتى يقرؤها ..

لم أقل له شيئاً ، جلست أرقبه ، وأنا فى دهشة من قدرته على المذاكرة فى مثل هذا الوقت ، حتى التفت إلىّ وسألنى ووجهه متجهم .

- الكلام ده قاله الأستاذ امتى ..
- فى المحاضرة ..
- أنت متأكد ..

قلت فى عناد ، وقد خيل إلىّ أنه سيتهمنى بأنى لم أفهم المحاضرة :

- يعنى ح أجيبه منين ..

شرد قليلاً .. ثم قال فى ضيق .

- تصور .. أهى النقطدى كانت ح تفوتنى .. برضه أحسن الواحد يحضر محاضرات المرافعات ..

كان هذا الحديث هو بداية صداقتى له .. يومها طلب منى أن أذهب معه إلى بيته لينقل بعض المحاضرات من كراستى ، ولم أتردد فى موافقته ، إذ شعرت بالفخر لأنى سأساعد أول الدفعة ، وكان عندى فضول شديد لمعرفة المزيد عن حياته .. كيف يذاكر ، وكيف يتفوق علينا جميعاً .

كان يسكن فى المنيل ، فى بيت مهدم يطل على أرض خراب مليئة بالأكواخ والعشش والقاذورات ومن بعدها النيل ، وكان فى البيت أمه قزمة تلبس السواد حدادا على أبيه الذى توفى منذ سنوات ، وأخوه سيد الذى قال لى متباهيا إنه بقال ، وأخوته البنات ، وكان يذاكر وينام فى حجرة تطل على النيل ، فيها سرير واحد له ولأخيه سيد ، الذى كان ينام على حصير فى الصالة إذا ماتأخر فى المذاكرة ، وصمم على أن أقضى الليلة معه .

كانت طريقته فى المذاكرة غريبة ، علمت منه أنه قرأ كل الكتب المقررة علينا قبل أن يبدأ العام الدارسى ، وقد حصل على الكتب من أحد مدرسى الكلية ، إذ

زاره فى بيته ، وقال له إنه فقير ولن يستطيع شراء الكتب ، فأعطاها له .. وفى أثناء الدراسة يقرأ المراجع الأجنبية التى يستعيرها من المكتبة ، وكان يفضل القراءة بصوت عال ، مقلداً كل أستاذ فى المادة التى يذاكرها ، ويقطع القراءة ليشرح لى ، وكأنه يروى حكاية مسلية ويلقى بالنكات ، ويحدثنى طويلاً عن كل أستاذ وحياته الخاصة ، زوجته وأولاده ، هذا تعلم شرب النبيذ فى فرنسا ، وهذا طلق زوجته بعد أن ضبطها مع أحد تلاميذه لذلك فهو يحقد على الطلبة وهذا له بنت جميلة ، وهذا شرب فى بيته الشاى وأكل الجاتوه .. فإذا ما انتهينا من المذاكرة انطلق يحدثنى فى السياسة .

- تعرف يايوسف .. أنا مافيش حد باكرهه زى الدكتور بيومى بتاع الاقتصاد والسياسة .. راجل صمام .. موش فاهم حاجة من اللى بيقوله .. ثم يقلده قائلاً فى صوت مضحك رتيب :

- وهذه النظرية توجه إليها جميع العيوب التى توجه إلى النظريات الاشتراكية .. وهذه العيوب ، هى إلغاء الباعث الشخصى والحافز الفردى على الإنتاج والقضاء على الملكية الفردية ..

ويصيح منفعلاً :

- هوه إيه ده يادكتور .. بقى بذمتك فهمت حاجة .. موش يشرح لنا الأول إيه هيه الاشتراكية .. أنا قرأتها .. كلام عظيم .. وهوه اللى حمار ..

كان سعد عبد الجواد هو أول من شرح لى الاشتراكية .. وحدثنى عن كارل ماركس ولينين وسوريل وانجلز واوين .. وعرفت منه الفرق بين النازية والاشتراكية والشيوعية والفاشيستية .. وكنت أخلط بينهما ، وأظن أحيانا كثيرة ، أن كل هذه المذاهب شىء واحد .

ووجدتنى فى حاجة إلى أن أتظاهر أمامه بأنى أعرف شيئا ، حتى لا أبدو أمامه كتلميذ يتعلم على يديه .. فحدثته عن توفيق الحكيم ، وقلت له فى إصرار إنى فنان لا أفهم فى السياسة ولا أشغل نفسى بها .. أنا راهب فكر .. أعيش للفن والجمال .. وأحتقر أى شىء آخر .. واحتدمت بيننا المناقشة ذات مرة ، وفوجئت به يصرخ فى وجهى :

- انت ولا فاهم حاجة .. واد مدلع .. وح تفضل لحد ماتكبر وفى بقك بزازة .

قلت فى غباء :

- يعنى انت اللى فاهم كل حاجة ..

فصاح متفعلاً :

- ايوه .. انا عرفت الدنيا كويس .. انت عارف لما بـاغيب عن الكلية بالاسبوعين باكون فين .. ماحدش فيكم يعرف .. انا بأروح اقف مكان اخويا فى الدكان .. وأبيع بقرش زتون وبقرش جبنة رومى وبقرش سبرتو .. بالبس الجلابية والقبقاب .. علشان اجيب فلـوس آخر النهـار أوكل بيهم أمى واخواتى البنات .. كلهم مجوعين نفسهم علشان اتعلم .. انا لازم أطلع الأول والا أموت نفسى عشان آخذ المجانية .. انا موش غنى زيك ..

لطمتنى صراحته ، وكدت انهار باكيا امامه ، واقول إننى لست غنيا كما يظن ، انا فقير مثله ، ربما كنت احسن حالاً منه ، ولكنى فقير وأبى يعانى من دفع مصروفات الكلية .. ولكنى لم أقل شيئا ، اكتفيت بوجومى ، وبالدموع التى تكاد تطفر من عينى ، وبفرح مخجل لانه يتوهم أنى من الاغنياء ..

ولم تفقد صداقتنا ، بل توثقت وشعرت مع الأيام أنى أنسى أحلامى القديمة عن مدحت ، وأتمنى أن أكون مثل سعد ، فقيرا مثله .. متفوقا مثله ولجأت إلى التظاهر امامه بأنى فنان حتى اقنعه بأنى جدير بصداقته ، وكنت أحبس نفسى فى البيت وأكتب القصص القصيرة وأذهب إليه واقرأها عليه فينصت فى صبر واهتمام غير عادى ، ويناقشنى فى القصة وتطول المناقشة وسواء رضى أو لم يرض عن القصة أشعر أنى كاتب وفنان وحقيقى .

قرأت له قصة اسمها « الحب الأول » .. كانت عن حبى لسعاد ، لا اشك أنها كانت قصة ساذجة ، ملأتها بكلمات وتعبيرات مأخوذة من توفيق الحكيم .. وقال لى سعد :

- إن إسلوبك حلو .. لكن انا موش عارف انت عايز تقول إيه ..

قلت :

- عايز اقول إن الحب غلط .. وإن احسن حاجة فى الدنيا ان الواحد يعيش بعيدا عن الستات .

ضحك قائلاً :

- انا ياعم رايح أتجوز . وبكرة انت كمان ح تتجوز .

قلت محتدا :

- مستحيل .. انا اموت نفسى ولا اتجوزش .

فسخر منى قائلاً :

- اهو كلام .

ووجدتنى أروى له حبى لسعاد ، رويت له كل شىء إلا أنها غنية ، وإنى فقير ، لم اعترف له بالحقيقة المرة .. فاستمع إلىّ ثم تمتم فى حيرة :

تفتكر ده حب حقيقى ..

هتفت :

- طبعا .

هز رأسه وقال :

- على العموم أنا متهيأ لى اننا موش ح نحب إلا بعدين .. احنا دلوقت مابيحركناش الا غرايزنا . عايزين واحدة .. اى واحدة والسلام .

ثم ضحك قائلاً :

- انا شخصيا كده ..

سألته :

- وبتعمل إيه ؟

قال فى اقتضاب :

- باتصرف .

وأدركت انه لا يريد ان يحدثنى عن مغامراته ، لعله كان لا يعطيها اهمية كبيرة ، وكنت من ناحيتى اخجل من الإلحاح فى السؤال .. ولكن خمنت اكثر من مرة انه ذاهب فى إحدى مغامراته ، عندما كان يقول لى إنه لن ينتظرنى فى

البيت ، لأنه ذاهب عند صديق له في الفنون الجميلة اسمه شوقي يسكن في إمبابة ..

وكان شوقي يزور سعد أحيانا بالمنيل ، وأكون هناك ، فيتركني سعد ويخرج مع شوقي ويغيب بعض الوقت ثم يعود ولا يقول لي شيئا عما كان يفعله ..

إلى أن جاء يوم وكنا في الليسانس ذهبت إلى سعد فقابلني وفي يده مجلة لم أسمع عنها من قبل ، اسمها الفجر ، فتحها ورفعها أمام عيني وهو يقول في انفعال :

- شايف ..

رأيت مقالاً بعنوان « الديمقراطية في الدستور السوفيتي بقلم سعد عبد الجواد » دهشت ، ودققت النظر في الاسم المطبوع وكأني أشاهد معجزة . كيف فعلها .. وقرأت المقال ودارت رأسي بكلمات العمال والفلاحين واصطلاحات لا أفهمها .. ولكني شعرت بأن سعد قد ارتكب عملاً خطيرا .. قلت له خائفا :

- ولما يقولوا عليك إنك شيوعي ويقبضوا عليك ..

قال في غير مبالاة :

- مايقدروش .. روسيا بتحارب مع انجلترا .. والمجلة دي بتطلع والرقابة بتشوفها .. ماحدش قال حاجة ..

برغم ذلك شعرت بالجزع ، وفكرت في الابتعاد عنه ، لكني لم يفعل ظللت أتردد على بيته ، وأذاكر معه وأسمع كلامه عن الشيوعية ، والكتاب الذين يكتبون في الفجر ، والفرق بين تروتسكي وستالين .. وكنت أسمع هذا الكلام ثم أنساه بسرعة بمجرد مغادرتي لبيته ، ولكني أشعر في نفس الوقت أنه يجاهد في محاولة يائسة من أجل أمه وأخوته البنات ، وأنه يشعر بأنه فقير ومظلوم في هذه الدنيا ولا يرضى بالفقر والظلم .

وكنت أقول لنفسي أحيانا إن أبي فقير لماذا لا أعمل شيئا من أجله ، مثل سعد ، ثم أشعر بضيق بهذا التفكير ، وأرفض بيني وبين نفسي التفكير في

الفقر وأقنع نفسي بأني فنان ، والفنان لا يهتم بالمادة ، ويعيش مضحيا بنفسه وبأمواله ، من أجل خياله الجميل .. كنت أتخلص من الفقر بتجاهله ، وبالتظاهر بأني لست فقيرا ، وكان يشجعني على هذا ، اعتقاد سعد وغيره من زملائي في الكلية إني لست فقيرا ، وأني أتحدث كالأغنياء وأتصرف مثلهم ..

وكان يشجعني أن مدحت لا يعاملني كفقير ، رغم أني فقير .

منذ راودتني الأفكار عن مبروكة ، وبدأت الرغبة تصطرع في جسدي كنت أذهب إلى سعد وقد اعتزمت أن أستشيره ، وأصارحه بارتباكي ومخاوفي الغامضة والواضحة ، ولكني لا أجرؤ ..

حتى تلك الليلة التي قضيتها مع مدحت وأصحابه في بيت سوزي لم أجسر على أن أروي له عنها .. خفت أن يسخر مني ، ويقتنع بأني لست الفنان الراهب كما صورت نفسي له .

كنت أحيانا أحدثه عن خادمتنا مبروكة ، أقول أي كلام بدون مناسبة ، لمجرد أن أذكر اسمها ، كأن أناقشه قائلاً إن أبي يحب النازي ولكنه يعامل خادمتنا مبروكة معاملة ديمقراطية ، يسمح لها بالجلوس معه ، ويجاذبها الحديث ، ويضحك معها .. فليس من الضروري إذن أن تكون الشيوعية وحدها هي التي تعترف بالمساواة بين جميع الناس وتلغي الطبقات ..

فيثور سعد ويقول محتدا :

- يعني قصدك بيعطف عليها ..

العطف ده حقيقته قسوة .. يعني إيه لما يعاملها كويس وبعدين يطردها من البيت .. وتلاقي نفسها موش لاقية تاكل .. أبوك ده أناني .. كل اللي بيعملوا الخير وبيحسنوا على الفقراء أنانيين .. عايزين الناس تفضل زي ماهيه .. فقرا وغلبانين علشان يتمتعوا هما بالشفقة والإحسان عليهم .. احنا مش عايزين شفقة من حد .. مبروكة دي لها حقوقها .. لازم تاخدها .. وتعيش زيي وزيك ..

وتستمر المناقشة ، لا يعنيني منها شيء ، إلا أن اسم مبروكة يتردد على لساننا ، والرغبة التي تعذبني ترسم لي صورا وخيالات عنها ..

وقابلت سعد عصر يوم عند محطة أتوبيس الجيزة وكان معه شوقى .. سألته فى دهشة ، إذ كان من عادته أن يمشى حتى بيته .

- رايح على فين ..

فكر برهة ، ثم صاح وكأن خاطراً طاف برأسه :

- إيه رأيك تيجى معانا .. ؟
- على فين ؟ ..
- بس تعال .. أنا نفسى تتفرج وتشوف بنفسك ..
- أشوف إيه ؟

قال باسماً :

- حفلة .
- حفلة إيه ؟ ..

التفت إلى شوقى . وتبادلا نظرات لم أفهم مرادها .. وسأل سعد زميله :

- إيه رأيك أقوله ؟ ..

فابتسم شوقى ولم يجب ..

استبد بى الفضول ، فهتف :

- إيه الحكاية ..

قال سعد :

- خايف أقولك ماتجيش ..
- بس قول لى ..

قال فجأة بصوت سريع :

- رايحين اجتماع سياسى ..

اصفر وجهى . لابد أنه أصفر . إذ شعرت ببرودة مفاجئة تلسعنى ،

قلت :

- لا ياعم .. أنا ماليش دعوة بالحاجات دى ..

ولكن سعد ألح ..

- انت ح تفضل لامتى بالشكل ده .. تعالى اتفرج .. إن ماعجبكش أبقى

انزل ..

وانتابنى شعور بالغيظ .. لماذا أنا جبان هكذا .. إلى متى سأظل أفكر فى نفسى .. كأن الدنيا كلها فى داخلى .. لابد أن أتخلص من هذا الخجل الذى يطوينى .. قلت فى انفعال :

- طيب ..

وفى الطريق سمعتهما يسخران من إسماعيل باشا يونس صاحب الدعوة إلى الاجتماع السياسى الذى نقصد إليه ، رجل ماكر له ميول مع المحور ، يريد أن تنتصر ألمانيا ليتولى الحكم ، إنه من أنصار الملك الأقوياء ، يخدع الشعب بالدعاية التى تحيط به عن ذكائه وحكمته ويحتقر الناس فى قرارة نفسه ، يؤمن بأن النبلاء وحدهم هم الذين يحكمون .

وقبل أن نصعد إلى مقر الاجتماع فى إحدى عمارات شارع سليمان باشا خطر لى أن سعد وشوقى لهما غرض خفى ، ربما أرادا إفساد الاجتماع والتظاهر داخله ضد إسماعيل باشا ، ولكن لحساب من يفعلان هذا ، وشعرت بالقلق توقعت معركة وتدخل رجال الشرطة وفكرت فى الانسحاب .

دخلنا شقة واسعة فخمة ، حجراتها مضاءة بأنوار قوية ، وعشرات من العمال والطلبة يجلسون على المقاعد الوثيرة ، يدخنون السجائر التى يوزعها عليهم رجل أنيق رشيق يرتدى بدلة كحلية فاخرة ، شعره لامع وبشرته ناعمة ، ويتكلم برقة مبالغ فيها .. أحسست بالنفور منه ، وكان يردد بين لحظة وأخرى .

- الباشا جاى حالاً .. أنا سعيد يا افندم بحضوركم ..

لم أطق البقاء فى ذلك المكان ، فانتفضت واقفا ، وصاح سعد :

- رايح فين ؟.
- ماشى ..
- ياجدع انت استنى ..

لوحت بيدى ، وأنا أسرع خارجا من المكان ، واندفعت هابطا على السلم ، حتى اصطدمت برجل قصير وجهه مستدير وله شارب مربع .. حاولت أن أعبر

الرجل ، ولكنى فوجئت به يعترض طريقى ويمسك ذراعى بقبضة قوية ، ويسألنى باسما .

- رايح فين يا أستاذ .

لم أفهم ماذا يعنى .. قلت فى دهشة :

- مروح ..

قال بصوت هادىء مريب :

- تسمح تتفضل معايا .

وتأبط ذراعى ، من يكون هذا الرجل ، ماصلته بى .. همست .

- عايز منى إيه .

قال وهو يتفحصنى فى حدة :

- ما معاكش حاجة ..

أدركت فجأة أنى أمام شرطى سرى ، وأنه قد قبض علىّ ..

وضحكت ..

شعرت فجأة بكل مخاوفى تزول ، وبأنى قوى .. لست أدرى كيف حدث هذا ، ولكنى أحسست وكأن شخصيتى تتغير فى ثوان .. وأنى اكتشفت فى نفسى أشياء جديدة لا أعرفها ..

- قصدك إيه ..

قال الشرطى :

- حاجة كده .. والا كده .. قلت فى استهتار أدهشنى :

- قصدك حشيش ؟!

قال الرجل وقد ضاقت عيناه :

- لا .. لا سمح الله .. منشورات يعنى ..

- لا .. أنا معايا حشيش ..

أنا أقول هذا الكلام ، إنى أتعمد السخرية بالرجل ، وهو يعلم أنى أسخر منه ، لماذا أفعل هذا .. ولكنى مندفع فى تحديه ، فى عناده .. فليفعل بى ما يشاء وسأظل يوسف القوى الذى لا يأبه بشىء ..

سرنا فى الشارع ، وهو يتأبط ذراعى ويشدنى إليه بقوة .. وأنا أسرع الخطى حتى يجرى لاهثا بجانبى ، لعله يفكر فى أنى سأهرب منه ، أو سأضربه .. أستطيع أن أضربه .. يوما ما سأكون شيئا هاما فى هذا البلد ، وسأنادى هذا الرجل وأذله .. إنى أحقد عليه .. إنه حقير .. حقير ..

وصلنا إلى قسم الشرطة ، ودخلنا عند ضابط يجلس أمام منضدة صغيرة فى حجرة ضيقة .. وهمس الرجل الذى جاء بى بكلمات فى أذن الضابط .. فالتفت إلىّ وسألنى ..

- كنت بتعمل إيه هناك ..

- باتفرج ..

- معاك منشورات ..

لا ..

أشار للرجل ، فاقترب منى وفتش جيوبى .. كان معى سبعة قروش ومفتاح البيت ومنديل قذر ولا شىء آخر ..

وسألنى الضابط عن اسمى وعنوانى ولما عرف أنى طالب فى كلية الحقوق سألنى عن بطاقتى الجامعية .. ولم تكن معى .. تردد برهة .. ثم نادى أحد العساكر وأمره بأن يذهب معى إلى البيت لإحضار البطاقة ..

وفكرت فى أبى .. ماذا سيفعل .. وفكرت فى راتب بك .. لابد أن أبى سيلجأ إليه ، إنه يستطيع أن يفعل شيئا ليخرجنى من السجن إذا قبضوا علىّ .. ولكن لا شىء يمس أعماقى .. كان كل ما أفكر فيه شيئا سطحيا لا معنى له .. كل ما فى داخلى رغبة جارفة تعلن تحديها وكبرياءها .. متى سأقابل سعد لأروى له ما حدث ، ليعرف عن مغامرتى لعله سيضحك ويسخر .. ولكنى أشعر بأنى فعلت شيئا هاما ، وأنى تغيرت ..

فتحت باب البيت ، ودخلت مسرعا إلى حجرتى باحثا عن البطاقة لمحت أبى يجلس مع مبروكة فى حجرة الطعام ، ولكنى لم أتوجه إليه ، خيل إلىّ أنى أستطيع أن أحضر البطاقة وأعود مع الشرطى دون أن يشعر بشىء .. كأنى لست فى حاجة إليه ، ولا إلى راتب بك .. ربما كان خجلى هو الذى دفعنى إلى

هذا التصرف ، ربما كان خوفي منه وخوفي عليه هو السبب .. وأنا أبحث عن البطاقة سمعت صياحه ، وأيقنت أنه قد عرف .

بعد لحظات كان يقتحم الحجرة ،ووجهه يرتعش وعيناه زائغتان ومن خلفه مبروكة شاحبة الوجه ، وسألني بصوت منهار .

- إيه اللى حصل ..

أجبت متظاهراً بعدم الاكتراث .

- ولا حاجة يابابا .. عايزين بطاقة الجامعة ..
- أنت عملت إيه ؟.

صحت في تحدٍ .. كنت أشعر بالتحدي لكل الناس .. حتى نفسي :

- بأقولك ماعملتش حاجة ..

وجاء أبي معي ،لم يطق المشي ، فركبنا تاكسي .. وهو لا يكف عن الكلام ، وأنا أكرر بغير وعي :

- ما حصلش حاجة يابابا .. يعني ح يعملوا إيه ..

وقف أبي ذليلاً أمام الضابط .. العرق يتصبب من جبينه ، أنفاسه لاهثة ، يداه مضطربتان .. يتلعثم ويتوسل ، والضابط غير سائل عنه .. اكتفى بالنظر في البطاقة ، وتدوين بياناتها في ورقة صغيرة بيضاء .. ثم أعاد البطاقة إليّ قائلاً :

- ابعد أحسن لك عن الحاجات دي ..

هتف أبي في حرقة :

- ابني عمره مايعمل كده ..

وأقسم ، وطفرت الدموع من عينيه .. وخرجنا من القسم . وعندي شعور غريب ، كأن لم يحدث شيء .. وأبي يترنح في مشيته ، ويتكيء على كتفي حتى لا يقع على الأرض ..

●●

قال سعد بعد ان استمع إلى قصتي : إن الورقة البيضاء الصغيرة التي

كتب فيها الضابط اسمي ، سيرسلها إلى القسم المخصوص حيث يدونون اسمي في القائمة السوداء ، ثم يراقبونني ، ويتتبعون نشاطي .. ويفتشون بيتي ويقبضون عليّ كلما وقع حادث سياسي .. وضحك قائلا :

- يعني بقيت مشبوه ..

قلت في جزع :

- وأنا مالي .
- طول عمرهم كده .. يشتبهوا في اي واحد حتي ولو كان بريئا .. ويفضلوا وراه لحد ما يخلوه ضدهم ..

سألته :

- وانت اسمك موش عندهم ..

قال ساخراً :

- لا .. لسه ما يعرفوش عني حاجة ..
- ولا شوقي ..
- ولا شوقي ..

خفت .. إني مظلوم ومطارد .. وثارت في رأسي كل المبادىء والنظريات التي درسناها في الكلية .. المتهم بريء حتى تثبت إدانتـه .. ادرءوا الحدود بالشبهات .. بطلان التفتيش .. حقوق الإنسان .. الدستـور .. مبادىء قانونية تعلمناها وقالوا لنا إنها مقدسة وإنها دليل على احترام الانسان .. احترام آدميته .. ولكننا نعيش في أيام لا يحترم فيها شيء .. أنا لست ضد إسماعيل باشا .. لست شيوعياً .. لست ضد الملك .. لست ضد الوفد .. لست ضد أحد .. ولست مع أحد ، فلماذا يهاجمونني ، لماذا يهجم عليّ الخوف ، وتحاصرني الشبهات .. لماذا أشعر ان الغباء والقوة الحمقاء .. يتربصان بي .

وانكمشت في البيت ، ودفنت رأسي بين الكتب ، إذ كان امتحان الليسانس قد اقترب ، فتصارعت في داخلي مخاوف السقوط وآمال النجاح .. والحيرة

امام مستقبل واليأس من ان اطمئن إلى شيء .. كنت ارى في صفحات الكتاب إيدي الشرطة وهي تشدني ، وبنادقهم وهي مصوبة إلى صدري ثم ينفتح باب الزنزانة وادخل مكاناً ضيقاً مظلماً فيه دلو ماء ودلو لقضاء الحاجة ، وانا جالس القرفصاء في الركن المعتم ، افكر في لا شيء ، افيق من هذا الكابوس واحاول ان اذاكر ، ولكن الكلمات المدونة في كتب القانون قد تحولت إلى شيء لا معنى له .. اقرأ اكاذيب .. لماذا نضيع وقتنا في قانون لا يطبق .. من الذي صنع هذه الاكاذيب الكبيرة .. وما الذي يضطرني إلى قضاء الليل ساهراً في مذاكرتها .. وانا اعلم انها اكاذيب .. والجميع يعلمون انها اكاذيب ..

اليس هذا شيئاً مضحكاً .. انا الذي لا احب الكذب .. وتعلمت من امي وابي ان الاخلاق الحسنة شيء ضروري .. أيجهل ابي أن الكذب يحاصرنا ويعيش من حولنا ويتحكم في مصائرنا .. أكان ابي يكذب علي .. وهو ينصحني بالا اكذب ..

ما هو المهرب ..

الفن .. كتابة القصص .. لقد فتش ابي حجرتي ليلة عودتنا من قسم الشرطة ورأى القصص ، وروايات توفيق الحكيم ، وغضب ، واتهمني بالفساد .. وهددني بالطرد من البيت ، وهاج وثار .. كل ما يريده هو ان انجح في الامتحان واحصل على ترتيب ممتاز ليوظفني في النيابة .. وهأنذا احاول ان اقرأ .. واحفظ ما في الكتب ، ولكني لا استطيع . السطور بلهاء .. الكلمات تتزلق هاربة من راسي .. عيناي ترفضان القراءة لاني لا اصدق شيئاً .. لاني اعلم ان اسمي في قائمة سوداء .. وجهاز الشرطة يدبر طريقة اتهامي .. وسعاد في بيت زوجها .. ومدحت ولد غنياً ، وسوزي ترفع اناملها إلى ذقني وتقول انى مازلت صغيراً ، وأمي في القبر .. أكنت تعلمين يا أمي أن الدنيا هكذا .. اتعلمين ان ابي يجلس مع مبروكة ويضحك معها كأنه لم يعرفك ابداً .. كأنك لست في القبر .. الدنيا غريبة .. كيف يتفوق سعد عبد الجواد ، كيف يحارب الحكومة دون أن تدرى به .. ويفلت اسمه من القائمة السوداء .. كيف تغني مبروكة وتتحرك في البيت دون ان تشعر انها خادمة ..

كأني أحمل الدنيا فوق راسي .. أحملها وحدي ..

كان سعد عبد الجواد قد اعتصم بالبيت .. فذهبت إليه لعلي استطيع المذاكرة معه ، فوجدته قد حلق رأسه بالموسى . عيناه غائرتان ، وشعر ذقنه طويل ، وقال لي في وقاحة اني سأعوق مذاكرته ، لأنه يتقدمني بمراحل كثيرة ، وتركته وعدت إلى البيت ودموع الغيظ تحرقني ..

ومضت الايام ، وانا اذهب في الصباح إلى الكلية ، وفي المساء احتمي بالبيت ، واعد الخطط للانتهاء من مذاكرة المقرر قبل الامتحان ، وافشل ساعة بعد ساعة في ان اذاكر شيئاً ، واخرج من حجرتي فالاحظ الصمت في البيت ، وابحث عن مبروكة في الصالة وفي حجرة الطعام وفي المطبخ وفي الحمام .. فلا اجدها .. واعرف انها تقضي الليل في حجرة ابي . وافزع من التفكير ..

أممكن هذا .. مستحيل .. ولكنه حقيقة .. إنها هناك في حجرته ، والظلام يسود الحجرة .. وتبتسم شفتاي ، ولكني أعلم انى اخدع نفسي بهذه الابتسامة ، ابي يرتكب شيئاً مخجلاً ، لم ارتكبه انا .. ابي حقير .. ولكنه احسن مني ، أكبر مني ، يستطيع ان يفعل ما لا أستطيعه انا .. واعود إلى حجرتي وأنظر في الكتاب .. الحر يشتد .. القانون .. لابد أن انجح في الامتحان .. سأتفوق على سعد عبد الجواد .. لست اقل منه عقلاً .. سأقرأ مائة صفحة قبل أن أنام وسأفهم كل ما أقرؤه .. وارى نور الفجر فإذا بي مازلت أفكر في مبروكة ، جسدها ، حركاتها ، صوتها ، إنها لا تفعل شيئاً مع ابي ، إنه عجوز مخرف ، يسمح لها بالنوم في حجرته لأنه خائف من العفاريت ، لأنه خائف أن يموت وهو في الحجرة وحده . مبروكة ليست لأبي .. إنها لي .. واطوى الكتاب وانام ،

حتي جاء الامتحان فابتلعتني دوامته ، وبعد أن فرغت منه ، عدت إلى سعد عبد الجواد ، كنا نقضي الليالي تحت فوانيس النور ومعنا شوقي الذي يحدثنا عن عمله الجديد في جريدة الأيام ..

كنت أستمع لشوقي وانا اقول لنفسي ، يوماً ما ستنشر جريدة الأيام

قصصي .. الحب الأول بقلم يوسف عبد الحميد السويفي .. ويغلبني شعور غريب بالاطمئنان إلى أن هذا سيحدث فعلاً ..

وكنا نتحدث طويلاً عن محمد ناجي رئيس تحرير الأيام .. وكان شوقي يدعونا أحيانا إلى محل ميخالوفتش في ميدان الإسماعيلية لنشرب القهوة وندخن سجائره الهوليود ونتفرج على الرسوم الصغيرة التي يرسمها في جريدة الأيام ، وسرعان ما ينتهي الحديث إلى محمد ناجي ويكرر سعد رأيه في أنه كاتب نصاب لا مبدأ له ، على استعداد لأن يقبض الثمن فيناصر أي حزب ، وكان شوقي يوافقه ، وأنا أنصت لهما دون أن أعلق بكلمة ، كأني لو شاركتهما في سب محمد ناجي سأرتكب إثماً ، إذ كيف أسب الرجل الذي سينشر لي قصصي .. وكنت أعجب بيني وبين نفسي كيف يهاجم شوقي محمد ناجي وهو يعمل معه ، وأرى أن هذا الهجوم لا يتفق مع الأخلاق الحسنة ..

واقترح سعد ذات مرة على شوقي أن يأخذنا معه إلى جريدة الأيام لنتفرج عليها ، فوافق متردداً ، ومضت أسابيع وهو يعدنا دون أن يفي بوعده ، ولعل لهفتي على زيارة جريدة الأيام ، هي التي جعلتني أظن أن شوقي لا يريد ذهابنا معه لأمر ما يخفيه عنا ..

ونجحت في الامتحان ، فرحت لبضع دقائق ، ثم استبد بي القلق إذ حصلت على درجة مقبول وهي لا تعني سوى أن مصيري هو المحاماة ، ولكن أبي فرح أياماً ، كان خلالها يزور راتب بك في الصباح والمساء حتى استطاع مقابلته ، وطلب منه أن يسعى لتعييني في النيابة ، فسخر منه راتب بك وقال له إن درجتي لا تساعدني ، وأن الأفضل لي أن أبحث عن وظيفة معاون إدارة في وزارة الداخلية ، وأن الوزير صديقه ، وقبل أبي على مضض ، أما أنا فلم أكن أشعر بأدنى اهتمام .. كأني مازلت طالباً في الكلية ، والوظائف التي يتحدث عنها أبي ، شيء غريب لا صلة لي به ..

وكنا نجلس في محل « ميخالوفتش » وسعد يتصفح جريدة الأيام التي لا تفارق شوقي ، عندما صاح سعد ثائراً :

– بأه ده كلام ... والله العظيم ده ظلم .. يعني أروح ارتكب جناية ..

كان سعد قد قرأ في الجريدة نبأ تعيين زميل لنا اسمه مصطفى إسماعيل بهنس في مكتب النائب العام رغم أن درجته مقبول .

وصرخ سعد :

– يبقى ترتيبي ممتاز ودرجاتي أحسن درجات .. ويسيبوني .. ويعينوا مصطفى بهنس الولد الخيبان الصايع علشان أبوه بهنس باشا .. ويتعين لوحده قبل الدفعة كلها ..

وليلتها علمنا أن سعد قد قدم طلباً ليعمل في النيابة .. وسأله شوقي في دهشة :

– ازاي ح تشتغل في النيابة يا سعد ؟

– وفيها إيه ؟

– ولما يطلبوا منك القبض على الشيوعيين ح تعمل ايه ؟

صاح :

– أرفض ..

قال شوقي ساخراً :

– يبقى موش ح يوظفوك ...

وعدت إلى البيت ورويت لأبي أن زميلاً لي حصل على درجة مقبول قد عُين في النيابة ، وذهب أبي غاضباً إلى راتب بك ، وعاد وقد تضاعف غضبه .. قال متفجراً :

– أبوك موش باشا .. راتب بك شايف إنه عيب لو ما اتعينش ابن بهنس باشا في النيابة ، إنما ابن عبد الحميد السويفي المدرس الغلبان .. هه .. مين يسأل عنه ..

وبعد لحظات كان أبي منهمكاً في الحديث مع مبروكة وقد نسيني تماماً .. وأردت أن أهرب إلى الشارع .. ولم يكن معي مليم واحد فذهبت إلى أبي وقلت له :

– أنا عايز جنيه يا بابا ..

فتجهم وجهه بعد أن كان يضحك وهتف غاضباً :

أنا خلاص .. عملت اللى عليه .. دور بنفسك على شغلة .. أنا ما اقدرش أصرف عليك طول عمرى .. عايز تقعد معايا فى البيت تاكل وتشرب وتنام أهلا وسهلاً .. لكن فلوس ما عنديش ..

وضايقنى أن مبروكة سمعت هذا الكلام ، فتركت البيت وخرجت وسرت فى الشوارع ، وتذكرت أنفش وميدان المحطة .. وفكرت فى البحث عن سعد .. ثم وجدتنى قريباً من جريدة الأيام .. فاندفعت نحوها لأزور شوقى ..

قابلنى رجل عند مدخل الجريدة وسألنى عما أريد .. قلت له فى اضطراب إنى قادم لزيارة شوقى الرسام ، فاتصل بالتليفون ثم طلب منى أن أصعد إلى الطابق الأول .

كان شوقى يجلس فى حجرة ضيقة مع شاب صغير يتحدث فى التليفون ، ورحب بى شوقى على غير ما كنت أتوقع ، وجلسنا نتحدث ، وأنا أنصت إلى الخواطر التى تملأ رأسي ، وتؤكد لى أنى سأعمل يوماً ما فى هذا المكان ، وسأنشر قصصي ، وسأصبح رجلاً مشهوراً .. وكان شوقى يرسم بالحبر وجه امرأة وكان الرسم سينشر فى الجريدة مع قصة قصيرة كنت أرقب يده وأنا أتخيله يرسم قصتى وفجأة انتفض الشاب الذى معنا فى الحجرة ووقف محدثاً ضجة بمقعده وانتفض شوقى بدوره واقفاً وكان بالباب رجل لم أشك لحظة واحدة فى انه محمد ناجى ومعه رجلان يسيران فى ركابه ..

محمد ناجى جاء إلى هذه الحجرة ليقابلنى ، لأراه ويرانى ، قلت هذا لنفسي وكأنه حقيقة ، أومأ لنا برأسه وتحدث مع الرجلين ، وكنت مازلت أفكر ، هل أقف مثلهم أم أظل جالساً ، ومرت لحظات وكأن جسمى يتوهج بسخونة تجتاحه ولم أقف .

لم يعرنا محمد ناجى أي انتباه كان ينظر إلى الجدران ، ويأمر بإزالة الحائط وراء شوقى ليضم الحجرة إلى صالة المحررين ، واستمر فى حديثه ، ثم حانت منه التفاتة إلى وجه المرأة الذى يرسمه شوقى فتأمله ، ومد يده وأمسك بالورقة وسأل :

- إيه ده ..

اجاب شوقى هامساً :

- رسم القصة ..

قمط شفته فى امتعاض ، وقال فى عصبية :

- والقارىء يفهم إيه من الرسم ده .. ما فيهش حاجة تلفت النظر .

قبل أن يجيب شوقى ، وجدتنى اندفع بقوة مشتركاً فى الحديث لا ادرى كيف تغلبت على خجلى . كنت أحس بنفس الشعور الذى عرفته وأنا أسير مع الشرطى فى طريقنا إلى القسم .. كل مخاوفى تزول ، وكأن شخصيتى تتغير فى ثوان ، واكتشف فى نفسي أشياء جديدة لا أعرفها .. كأنى ند لمحمد ناجى .. قلت فى جرأة :

- أحسن كان يرسم حادثة بتحصل فى القصة ..

فالتفت إلىّ محمد ناجى ، وكأنه يعرفنى ، وقال :

- موش كده برضه ..

ثم صاح فى شوقى :

- سامع صاحبك بيقول إيه ..

قال شوقى بصوت خافت :

- مساحة الرسم صغيرة ..

فقاطعه محمد ناجى :

- أنا ما افهمش الكلام ده .. قلت ميت مرة .. الرسم والصورة أهم من الكلام .. اللى موش ح ينبسط من الرسم موش ح يقرا القصة .. ولو كان كاتبها توفيق الحكيم .. مين اللى كاتب القصة .

- محمود لطفى .

زعق محمد ناجى :

- اختصرها ..

ومرة أخرى تدخلت فى الحديث وأنا أبتسم فى اطمئنان .. قلت :

- أحسن ..

فالتفت إلىّ وفى عينيه قلق وسألنى :

- ما يعجبكش ..

قلت في ثقة :

- لا ..
- مين اللي يعجبك
- توفيق الحكيم ..

قال في وجوم :

- وفيه عندنا كام واحد زيه ..

كدت أقول له إني أكتب مثله ولكني لم أجرؤ على هذه المبالغة وقلت في غير اكتراث :

- على العموم أنا ما بيعجبنيش حد ..

فابتسم ابتسامة خفيفة .. وتوقعت أن يقول شيئاً ، لولا أن دخل رجل يحمل صحيفة مطبوعة ، مبللة بالماء وقدمها لمحمد ناجي ، فتجاهلني وشغل بمراجعة الصحيفة ، وشطب سطوراً ، ووضع علامات استفهام وعيناي لا تفارقانه ، ورغبتي في مواصلة الكلام معه تتزايد ، أريد أن يحدثني حتى يعرف إني أكتب مثل توفيق الحكيم ، وإنني قصاص وإني حصلت على الليسانس وإني قريب راتب بك ، لابد أنه يعرفه .

وأعطى محمد ناجي الصحيفة للرجل الذي جاء به ، ثم قال لشوقي بلهجة آمرة :

- ارسم رسم تاني .. وخليني أشوفه ..

قال شوقي مذعناً :

- حاضر ..

وأدار لنا ظهره وخرج من الحجرة .. تبعته بعيني ، وقلبي يخفق ، لعله يلتفت إليّ مرة أخرى ، يقول لي أي شيء ، ولكنه اختفى .. وشعرت باليأس ..

صاح شوقي :

- أنت اتجننت .. عايز ترفدني .

فارتبكت .. لم يخطر ببالي أني أريد الإساءة إليه .. لم أتصور أن محمد ناجي قد يطرده من العمل بعد ملاحظة أبديتها على رسمه .. هل أخطأت .. أكان يجب أن أسكت .. أكان يجب أن أقف لمحمد ناجي عند دخوله .. ماذا فعلت .. ما الذي انتابني ؟

- متأسف يا شوقي .. حقيقي أنا موش قصدي ..

فقاطعني باسماً :

- أنت طول عمرك مدب ..

ولازمت شوقي وهو يعيد الرسم .. رسم راقصة عارية في يدها كأس ، وهو يردد ساخراً :

- أنا عارف أن الحاجات دي هيه اللي بتعجبه ..

وتركني وذهب بالرسم إلى محمد ناجي ، وعاد بعد قليل وتأملني برهة ثم هز رأسه قائلاً :

- موش قلت لك أنت عايز ترفدني ..

هتفت :

- حصل إيه ؟

وعجبت لنفسي ، لم يكن يعنيني إنه قد تعرض للطرد .. كنت في لهفة على سماع أي شيء يؤكد لي أن محمد ناجي مازال يذكرني ..

قال شوقي :

- سألني عنك .. افتكرك رسام .. وقاللي إنك بتفهم أحسن مني !
- وقلت له إيه ؟

قال شوقي هازئاً :

- قلت له إن عمرك ما رسمت خط ..

وحنقت على شوقي .. كأنه هو الذي يطردني من عملي .. وسألته :

- هيه .. وبعدين ؟
- ولا حاجة .. طبعاً عجبته الرقاصة ..

- وقالك إيه‌تاني ؟

ماذا قال عني محمد ناجي .. أريد أن أسمع كل كلمة قالها .. أريد أن أسمع شوقي يكرر ما قاله الآن مائة مرة .. ألف مرة ..

قال شوقي :

- ح يقول إيه تاني ..

وخرجت من مبنى الجريدة ، انتزع نفسي كأن لحم جسدي قد التصق بجدرانها .. سوف أعود .. سوف أقابل محمد ناجي .. سوف أنشر قصصي .. ليست هذه هي نهايتي مع محمد ناجي ..

كان أبي قد خرج من البيت ، ومبروكة تستمع إلى الراديو .. هل أحدثها عن محمد ناجي .. ولكني أريد مراجعة قصصي .. أريد كتابة قصة جديدة .. دخلت حجرتي وجمعت أوراقي ، وقرأت وكأني أقرأ لمحمد ناجي ، وفتح الباب ودخلت مبروكة ، كان في يدها جنيه تلوح به ، كأنها تتباهى به ، كأنه الكأس في يد الراقصة التي رسمها شوقي .. كأنها تدفع بالجنيه في عيني وتفقؤها .. قال في حنان يجرحني :

- أنا جايبالك الجنيه اللي أنت عايزه ..

في صوتها رنة تآمر ، صوتها يقول لي خذ مني ما رفض أبوك أن يعطيه لك ، أنا أعرف كيف أسوس أباك ، إنه تحت سيطرتي ، وأنت أيضا تحت سيطرتي ، أنا التي تملك مصيرك ، أنا التي معها نقودك ..

رفضت .. لا أذكر كيف رفضت .. كل ما أذكره هو الغمامة السوداء في عيني .. الجنيه يفقأ عيني ، ووضعت مبروكة الجنيه على المنضدة وقالت :

- اقرأ لي الحكاية اللي كتبتها ..
- عايزاني أقرأها ليه ؟
- اسمها عاجبني .. الحب الأول .

إنها تعرف قصصي .. كيف عرفتها .

قلت بسرعة :

- ده كلام فارغ ..

أخاطبها وكأنها سيدة مثقفة من مستواي ، كأنها سعد عبد الجواد ، كأنها أبي .. لابد أن أثور . ولكن كيف أثور . إن وجودها في هذه الحجرة خطأ .. الجنيه الذي جاءت به خطأ .. علاقتها بأبي خطأ .. كلامها معي عن القصص خطأ .. هذا لا يحدث بين الخادمات وأسيادهن ..

- والنبي تقولي ..
- لا ..
- يا سلام عليك كده ..

يجب أن أدفعها بيدي .. أطردها ، ولكني عاجز تماماً أمامها ، لم أخف من الشرطة ، ولم أخف من محمد ناجي ، ولكني حائر خائف من مبروكة ..

- موش ح تقولي الحكاية ..
- أنا مشغول دلوقت ..
- مشغول في إيه ..

رددت كالمحموم .

- عندي شغل ..

الحت ..

- ما أنت فاضي أهه ..

قلت معتذراً :

- سيبيني دلوقت ..

شمخت بأنفها في الهواء .. وقالت في كبرياء :

- على كيفك ..

وخرجت من الحجرة ..

بعد أيام كنت عائداً إلى البيت ، واقتربت من باب الشقة فسمعت صراخ مبروكة وصوت أبي .. إنهما يتشاجران ، فتحت الباب ودخلت فرأيتهما يقفان في الصالة صامتين .. هذا الشجار مريب .. مضيت إلى حجرتي .. وأنا أشعر بانقباض يعتصر قلبي .. لهذا الحد وصل الأمر بين أبي ومبروكة .. تصرخ في وجهه .. ما الذي يخفيانه عني . إني أعلم كل شيء ..

وفي صباح اليوم التالي ، جاءتني مبروكة ، وقالت لي وهي تحدق في عيني ..

- بابا عايزك ..

وتذكرت ما حدث بالأمس ، فعاودني الشعور بالانقباض ، ومشيت إلى غرفة أبي ومبروكة ورائي ، خطواتها تطاردني ، التفت إليها ، كانت عيناها مسمرتين في وجهي ، وأبي راقد في فراشه .. وصاح أبي :

- سيبينا لوحدنا يا مبروكة ..

أبي يريدني وحدي ، إنه يطردها من الحجرة ، الانقباض الجاثم في صدري يتزاح عنه .. ونظر أبي إلى الباب ، فالتفت ورائي ، كانت واقفة عند الباب متحفزة لشيء ما .. أيفكر أبي في طردها .. لابد أنه سيروي لي عن شجار الأمس ، ويطلب مني مساعدته .. أبي يعود إلى رشده .. أغلقت الباب ، وذهبت إلى السرير وابتسمت في وجهه مشجعاً ..

خفض أبي عينيه ، وامتدت يده تحت الوسادة ، واستقرت مكانها .. ثم أخرج يده ، كان قابضاً على خمسة جنيهات .. وابتسم ابتسامة ضعيفة .. وقال وهو يمد يده بالنقود :

- عايز فلوس ..

لم أصدق إنه سيعطيني كل هذا المبلغ .. همست :

- إذا كان معاك ..

فسحب يده ، وتنهد .. وقال ورأسه منحن على صدره :

- أنا عايز أكلمك يا ابني .. أنت كبير وعاقل وتقدر تفهم ..

ورفع يده إلى عينيه ومسح دموعه ..

- حصل إيه يا بابا ..

قال وهو يبكي :

- اعمل إيه .. هيه اللي سابتني .. موش كنت أموت وأستريح زيها .. سابتني أتعذب .. لكن الحمد لله .. أنا ربيتك وعلمتك .. ما حدش يقدر يقول إني قصرت في حاجة معاك .. أنت بقيت راجل تقدر تعتمد على نفسك ..

ما الذي يريد أن يقوله .. ما الذي حدث .. السرير يتأرجح أمامي .. وأبي

يتأرجح فوق السرير .. لا أفهم شيئاً .. الانقباض يعاودني قاسياً يكاد يخنق أنفاسي ..

ومضى أبي قائلاً :

- أنا راجل عيان .. كلها أيام وأموت ..

- بعد الشر عليك يا بابا ..

- أنا عايز أستريح ..

وبكى بحرقة ..

- فيه حاجة تعباك يا بابا ..

توقعت أن يروي لي أنه سيطرد مبروكة .. هي التي تضايقه .. هي مصدر متاعبه .. ولكنه رفع صوته محاولاً التغلب على ضعفه وقال وهو ينظر إلي :

- أنا ح أتجوز يا ابني ..

ابتسمت . لم أجد شيئاً أعبر به عن إحساسي بالضياع سوى هذه الابتسامة ، ولم أقل شيئاً لم أكن أشعر بشيء ..

وأشار بيده ناحية الباب .. وهمس :

- ح أتجوزها ..

ارتفعت الدماء إلى رأسي .. وتشاجرت مشاعر غاضبة محتدمة في صدري .. ونظرت إليه في حقد .. هذا العجوز المخرف الأبلة .. سأقتله .. سأطبق على عنقه وأخنقه .. وارتعشت يداي .. وصرخت :

- مستحيل يا بابا .. أنت بتخرف .. أنا أموتك .. أوديك في داهية ..

وهجمت عليه ، وقبضت يدي على عنقه .. لحمه ساخن ينتفض .. جسده يرتجف .. تكوم مستسلماً على السرير ، أنفاسه تعلو وتهبط .. وأنا أصرخ .. وأهزه .. وهو يتأوه .. سيموت .. ستتحطم رقبته .. وفجأة تخاذلت يداي .. ووقفت لحظة أرقبه .. ثم اندفعت خارجاً من الحجرة .. ارتطمت بها .. فصرخت .. كانت تلطم وجهها .. وتمزق شعرها .. وعويلها يملأ الدنيا .. وجريت إلى الباب .. واندفعت إلى الشارع ..



الفصـــل الخــــامس

مشيت فى الشوارع ، وكأنى لا أمشى فى الشوارع ، الدنيا كلها بعيدة عنى ، أنا لست من هذه الدنيا .. الناس لا يشعرون بى لا يعنيهم أمرى ، سواء عشت أو مت ..

كل شىء من حولى وكأنه .. هنـاك .. وأنا وحـدى .. هنا .. معلق فى الفضاء ..

أبى هناك مع مبروكة .. وسعد عبد الجواد هناك مع الشيوعيين ، وشوقى هناك يرسم فى جريدة الأيام ، وسعاد هناك مع زوجها لا تذكرنى .

آه لو عرف مدحت أن أبى تزوج مبروكة ، الجسد الذى كان يعبث به ، الجسد الذى كان يدعونى إليه .. سيضحك مدحت من قلبه ، ما أحقرنا نحن الفقراء ، نأكل فضلات الأغنياء ، نتزوج فضلات الأغنياء .. لن أستطيع اللجوء إلى راتب بك ، هو أيضاً سيحتقرنا ، قد يقابلنى ، وقد يرفض مقابلتى سيعاملنى كمتسول ، يخرج من جيبه جنيها ويعطيه لى ، ثم يشتمنى ويشتم أبى ..

ما الذى أوقعنى فى هذا الضياع .

أريد أن أنجو بنفسى من الفضيحة ولكن كيف أنجو .. لا فائدة ، لابد أن أفيق من حياتى الماضية ، كان كل شىء خطأ .. أنا الذى تمسك بخرافة ساذجة ، ظننت أن البراءة تدوم ، توهمت أنى أستطيع أن أحيا بغير ذنب .. أن أعيش بغير خطأ ، أعوض فقرى بطيبة قلبى ، ولكنى الآن لا أملك سوى

الفضيحة ، تلاحقني دون أن ارتكبها ، الدنيا لا ترحم امثالي ، إنها تريد البهلوان .. الكاذب .. المزيف .. تريد الذي يضحك على الذقون .. تريد الشرير .. تريد المقاتل ..

الجميع يقاتلون ..

أبي يقتلني من اجل مبروكة .

وسعد يقتلني .. لن أنسى يوم رفض المذاكرة معي بحجة أن الامتحان قد قرب ، وانى أعطله عن المذاكرة ..

مبروكة تقتلني ، ومدحت يقتلني .

لا تخدع نفسك .. أنت أيضاً قاتل .. قاتل غشيم ، الم تحاول قتل شوقي امام محمد ناجي ، انتقدت رسمه لتفوز باعجاب محمد ناجي .. ولكنك راجعت نفسك وندمت .. كأي قاتل مبتدىء .

اهجم على هذه المدينة الكبيرة ، قاتل فيها ، عامل الناس وكأنك انفش .. اقفز إلى الترام ولا تدفع ثمن التذكرة ، أبحث عن صديق تخدمه وتحصل على نقوده .. اصرخ .. اشتم ، اضرب ، لا تقف مكتوف اليدين .. إلى متى تشغل نفسك بتلك الرغبة الحمقاء في أن تكون صادقا مع نفسك .. انس نفسك .. انس أنك موجود .. لا تفكر في الصدق والكذب .. وفكر في الخطأ والصواب .. الخطأ الذي هو ضد مصلحتك .. والصواب الذي يتفق مع مصلحتك .. كن شاطراً مخادعاً ..

آه .. لو أستطيع ..

وصلت إلى ميدان الاسماعيلية ، الناس يجلسون في مقهى ميخالوفتش .. يشربون القهوة ويقرءون الأيام .. ليس في جيبي مليم .. ليس لي أب .. ليست لي أم .. ليس لي أمل ..

أجلس وأطلب فنجان قهوة وسندويتش فول ، وأهرب .. لست شاطراً إلى هذا الحد ، سيجرى ورائي الجرسون ويقبض عليّ ويسلمني إلى الشرطة .. وسأبيت ليلتي في السجن ..

ربما كان هذا هو الحل السعيد .. أتعلم السرقة في السجن ، وأصبح

مجرماً خطيراً يدوخ الشرطة .. يسرق البنك الأهلي ، يقتل الناس بالرصاص ، يرهب المدينة .. ويموت ..

هل أنتحر ؟ ..

الترام يسير فوق جسدي ، ودمي يلون أسفلت الطريق .. بقعة حمراء داكنة .. كان يوسف ، ثم أصبح بقعة حمراء داكنة ، ونثيراً من اللحم ، وعظاما مهشمة ..

أواصل السير .. إلى أين ؟

لو يموت أبي .. وارثه .. ماذا ارث منه .. إنه فقير لا يملك شيئا .. أوراق القضية التي رفعها سعد زغلول مازالت في الصفيحة ، كان مهتما بإخراجها من الصفيحة .. ولكنه نسي .. تزوج مبروكة .. إنه مفلس .. آخر مرة زارنا فيها ابن عمه خليل أفندي ، تشاجرا على نقود ، خليل يسكن في شبرا .. في جزيرة بدران .. إنه يكرهنا .. لو ذهبت إليه فسيتشفى في أبي .. اقارب امي في فاقوس ، لا أعرفهم ، لا اعلم عنهم شيئا ، فلاحون فقراء .. كيف عاشت أسرتنا بلا أقارب .. قتلنا أقاربنا .. لم نحافظ إلا على راتب بك ، لأنه غني .. ولأنه يحتقرنا ..

كلهم بعيدون .. لا يدرون شيئا عما حدث .. يعيشون في الدنيا البعيدة التي لا نعرفها .. السيارات تعبر الطريق امامي ، فيها وجوه متجهمة ، ووجوه ضاحكة ، ووجوه تقتحمني في برود .. لا احد يهتم بك .. لا أحد يعرف .. سأمشي إلى بيت سعد ..

أنا مفلس ياسعد .. سأجوع .. أنا خائف .. أخطأت في فهم كل شيء .. كنت طفلا وكنت سخيفا .. نعم أنا الولد المدلل .. ولكني سأبدأ من جديد .. سأكف عن محاولاتي الصبيانية .. لن أتظاهر بأني غني ، لن اخشى الفقر ، لن أحلم بسعاد .. ماذا أفعل ياسعد .. ليست معي نقود .. ليس عندي مكان أنام فيه .. هل أبكي .. هل اثور .. اضرب ذلك الرجل البدين الذي يسير أمامي .. أصفع هذه المرأة التي تسير في دلال ..

أيقبلني سعد في بيته .. أيرضى أن أشاركه طعامه .. وأخوه سيد العتال ..

أيرضى أن أعمل معه في دكانه .. وإلى متى .. لابد أن أبحث عن عمل .

فتحت الباب أم سعد ، وسألتها عنه ، فقالت إنه خرج ، خيل إليّ أنها تعرف كل شيء .. وقفت مترددا ، لا أريد أن تقفل الباب ، وأهبط السلم ، وينتهي كل شيء ..

- ما تعرفيش راح فين ؟
- لا .. ياابني .. أهو خرج .
- أنا كنت عايزه .. ما تعرفيش ح ييجي امتى ؟ ..
- هوه .. ليه مواعيد ..

هل تقبلينني في بيتك .. اقبل يدك .. يبدو أنك طيبة رغم قصرك الشديد .. ابتسمت في وجهها ، ولكنها أغلقت الباب ، وهبطت السلم .

سأذهب إلى شوقي ، سأمشي حتى تتقطع أنفاسي ، ولكني لابد أن أصل إلى شوقي ، سأسأله أن يأخذني معه إلى بيته ، سأسأله أن يبحث لي عن وظيفة .. خادم في جريدة الأيام .. أكنس وامسح السلالم .. سأفعل أي شيء .. أنا في ورطة ياشوقي .. لقد أخطأت يوم انتقدت رسمك أمام محمد ناجي .. سأقول لمحمد ناجي إن رسمك هو أعظم رسم في الدنيا .. أترضى مساعدتي ياشوقي ؟

جلست على سور النيل أستريح .. التراب يلتصق ببدلتي ، ليس عندي غيرها .. يوما ما ، سأفقد هذه البدلة ، وسأسير عاريا كالمتسولين ، وسينتهي مصيري إلى باب مسجد السيدة ، والملاليم توضع في كفي المرتعشة ، وآكل رغيفا ، وأنام مكاني ، ولن يعرفني أحد ، وسيبحث عني أبي ، وسيتعذب عندما يراني مريضاً ، قذراً ، متسولاً ، ويتوسل إليّ أن أعود معه ، وأرفض ، أصر على الرفض ، وأظل مكاني ، شحاذا .. ويتعذب أبي ..

لم أصدق الرجل وهو يقول لي إن شوقي ينتظرني في حجرته ، صعدت السلالم كأني صاعد إلى السماء ..

وسألني شوقي :

- إيه اللي جابك دلوقت ؟

- مصيبة ..
- موش باين عليك ..
- أنا سبت البيت ..
- بيتكم ؟
- أيوه ..
- إيه اللي حصل ؟
- أبويا اتجنن ..

تجهم وجهه ، محاولاً فهم ما أقوله

قلت وكأني لا أقول :

- ح يتجوز الخدامة اللي بتشتغل عندنا ..

ضحك في دهشة ..

- لا ياشيخ ..
- سبت لهم البيت .. ومشيت
- لكن ده برضه أبوك ..
- ح أقعد إزاي ..
- حاول تفهم ظروفه ..
- ده راجل عجوز .. بيخرف .. على المعاش .. يتجوز خدامة صغيرة ..
- وفيها إيه ..

للحظة خاطفة ، خيل إليّ أني مخطيء في حق أبي ، مخطيء في اعترافي لشوقي ، لماذا لا يتزوج أبي من يشاء ، حتى ولو كانت مبروكة .. ما الذي يثيرني لماذا كل هذه الثورة .. أنا أحقد .. هجمت عليه لأخنقه .. إنه أبي رغم كل شيء .. لماذا أخجل منه .. لماذا أغضب عليه .. إني تافه .. أريد أن أتظاهر بأني غني ، وأني عظيم .. ولكني معذور ..

قفز مدحت إلى مخيلتي ، ابتسامته تملأ عيني ، وهو يروي لي عن مغامراته مع مبروكة ..

- دي بنت لهلوبة ..

لا أستطيع أن أقول لك ياشوقي كل ما أعرفه ، انت لا تعرف مدحت لا تعرف أفكاري ورغباتي نحو مبروكة .. هذا شيء فظيع ..

صمت منفعلاً ..

- بكره تغير رأيك ..
- أنا موش راجع البيت ..

يجب أن يكذب .. قلت والدموع في عيني ، كأني أصدق ما أقول

- هو اللى طردني من البيت ..
- موش معقول ..
- باقولك .. اتجنن .. هيه اللى خلته طردني ..

همس مستسلما ..

- بكرة تفرج ..
- وأنا أعمل إيه دلوقت ..
- خليك معايا ..

ثم فكر برهة وقال ..

- أسمع .. تعال ندور على سعد ..

ودق جرس التليفون ، رفع السماعة ، فتهلل وجهه ، كان المتكلم هو سعد .. وشعرت ببارقة أمل .

التقينا في ميخالوفتش ، وتبادل شوقي وسعد كلمات مبهمة ، ثم التفت سعد إليّ وقال :

- عن إذنك يايوسف ..

ونهض هو وشوقي ، وجلسا على منضدة أخرى ، وأنا أنتظر .. أيفكران في الذهاب إلى أبي ليقنعاه بالعدول عن زواجه .. أيسخران مني .. أهما ضائقان بي .. مرت لحظات قاسية ، وفكرت في أن أتركهما وأذهب .. ولكن إلى أين .. ليس لي مخرج غيرهما .. أنا ذليل .. أنا عاجز تماما عن فعل شيء ..

وعادا يبتسمان وقال سعد :

- خلاص احنا اتفقنا .. أنت ح تبات معايا ..

وقال شوقي معتذرا :

- أصل أنا باعزل في بوابة المتولى .. وفيه جماعة قرايبنا بيباتو معايا ..

كنت واثقا أنه يكذب ، وأنه لا يريد أن يأخذني إلى بيته لسبب آخر ، لعله يتصل بالشيوعيين ..

وقلت في أسف ..

- بس موش ح أضايقك ياسعد

هتف في حرارة

- يعني ح تبات فين .. إلا إذا كنت عايز ترجع بيتكم ..

كان واضحا أنه يفضل لو لم أذهب معه ، ولكني تجاهلت ما أفهمه ..

وقلت في لهجة يائسة

- أرجع إزاى إذا كانوا طردوني وأكلت في الغداء رغيف عيش وطبق فول ..

كنت أمسك بقطعة الخبز ، أتحسسها ، كأني ألمسها لأول مرة ، في حياتي ، وأتأملها بنقوشها البنية ، وأتركها تذوب في فمي على مهل ، وأشعر بها تستقر في بطني ، إني آكل نقود شوقي ، وهو يعرف أني آكل نقوده .. آكل خجلي .. آكل كبريائي .. آكل ما بقي في نفسي من سذاجة .. إني محتاج إلى هذا الرغيف .. محتاج إليه حتى أموت .. كيف أحصل على هذا الرغيف ، كيف أجد النقود التي أضعها في جيبي وأشتري مثل هذا الرغيف ..

- تاكل مهلبية

سألني شوقي ..

رفضت ، وأنا أفكر في أنه هو الذي سيدفع الثمن ، فألح عليّ ، وصممت على الرفض ، وفرحت لأنه أصر على الرفض ، وفرحت لأنه أصر على أن نأكل المهلبية .. التهمتها كمجنون ..

في المساء ، وأنا راقد إلى جوار سعد ، كان لا هم لي سوى الجنيهات الخمسة التي لوح أبي في وجهي .. الورقة الخضراء هي كل خيالي .. أريد هذه الورقة .. غدا سأذهب إلى المقهى ، وأطلبها منه .. سأذهب متصنعاً الشجاعة ، ومتظاهراً بعدم الاهتمام .. سأذهب إليه وقوراً .. جاداً حزيناً ..

واطلب منه الورقة الخضراء .. وآكل الخبز وآكل الفول .. وآكل المهلبية

سيسألني أبي أن أعود إليه .. أعود إلى الخبز الذى فى بيته ، أعود .. لن أقبل كل الذل .. يكفيني بعض الذل .. بعض الاستسلام .. وبعض الكبرياء .. وبعض التحدى ..

بعض البراءة .. وبعض الشر .. هكذا سأعامل الجميع ، أبدو أمامهم الضعيف الخجول ، ولكني فى قرارة نفسي سأندفع لأحصل على كل شيء بلا ضعف أو خجل .. سأحتفظ بالمظهر الذى كنت أحلم به .. الصادق الطيب القلب .. الساذج المنطوى على نفسه .. ولكني سأكون الكاذب القاسي القلب .. الماكر المقتحم ..

هل جننت ..

الدنيا هي هذا الخليط العجيب من كل شيء .. ولابد أن أعيش فى هذه الدنيا .. شوقى يكره محمد ناجى ويعمل معه .. سعد شيوعي ويريد أن يعمل وكيلا للنيابة ليقبض على الشيوعيين .. أبي يمشي منفوخا كالديك ويتباهى بأنه قريب لراتب بك ويتزوج خادمة راتب بك .. سأقلدكم جميعا .. وسأكون مثلكم .. وأحسن منكم ..

فى الصباح ذهبت إلى مقهى الشطرنج ، كانت الوجوه التى عرفتها ، تشغل أماكنها ، الجميع مواظبون ، يؤدون واجبهم المقدس . ما عدا أبي .. لم أجده .

وقفت خارج المقهى ، كنت قلقا يضايقني أن يأتى أبي فيرانى أنتظره ويعلم أنى فى حاجة إليه ، انتقلت إلى الرصيف المقابل ، حيث الباب الخلفى لدار الأوبرا ، وفجأة رأيت مجموعة كبيرة من البنات والشبان يخرجون مهرولين إلى الشارع ، وعلا صياحهم وصراخهم .. اقتربت منهم ، كانوا يتحدثون عن حريق فى داخل الأوبرا ، بعد لحظات جاءت عربتان للحريق ، أجراسهما تصلصل ، ورأيت بين الواقفين الممثلة المشهورة سعاد رسمي وهي ترتدى قميص نوم شفاف ، وإلى جوارها الممثل العجوز رءوف المانسترلى يتلفت حوله شاردا ، والبنات الصغيرات يضحكن ثم يطلقن صيحات فزع ..

شغلت بعض الوقت بمراقبة رجال المطافىء ، ثم تذكرت أبي فعبرت الشارع إلى المقهى ، فرأيته جالساً بين اللاعبين يتفرج عليهم ، تقدمت منه ، حتى وقفت بجواره ، رفع رأسه ورآني ، فانتفض واقفاً وصاح فى انفعال :

- أهلاً .. إزيك يا ابني .. أهلاً وسهلاً ..

رحب بي فى احترام مبالغ فيه ، كأني رجل غريب ، وكان يتحاشى النظر إلىّ .. وصاح منادياً مخالى . فلما جاء قال له :

- شوف الأستاذ يشرب إيه

صمت الا أطلب شيئاً ..

فهمس مذعناً :

- طيب يا مخالى .. مغلهش ..

وتلفت حوله ، فرأى منضدة وحيدة بعيدة ، فسألني فى صوت خائف :

- تحب تقعد هناك ..

أومأت برأسي موافقاً ، كنت أعامله أنا أيضاً وكأنه غريب .. وجلسنا عند المنضدة البعيدة .

وهمس :

- إزيك

- الحمد لله ..

قال فى ارتباك :

- موش عايز كازوزه .. والا شاى ..

قلت فى جفاء :

- لأ ..

ومضت فترة ونحن صامتان ، حتى قال ورأسه منحن :

- قسمته .. ربنا عايز كده .. وتنهد ..

لم أقل شيئاً .. وأردف بصوت غير مسموع :

- أنا اتجوزتها امبارح ..

رفعت رأسي ، أريد أن أبتسم فى وجهه متحدياً .. أعلنه أنى لم أعد أكترث

بثى ، والتقت عيوننا ، فأسرع يخفض عينيه وقال بصعوبة :

– كانت ورطة .. واللى كان كان .. أنت يا ابنى ماتعرفش ظروفى .. لو كنت تعرف كنت رحمتنى .. أنا موش زعلان منك .. لك حق فى كل اللى حصل .. وأكتر كمان .. لكن أعمل إيه ؟!

كفى يا أبى .. لا تحدثنى وكأنى أنا أبوك .. لقد أخطأت .. إنى نادم على مافعلت .. سامحنى يا أبى ..

ثم مضى قائلاً :

– أنا غلطت .. كنت طايش .. لكن دى حامل منى .. واللى زيى لما يغلط ما يقدرش يتصرف .. أنا راجل عجوز .. ودى بنت صغيرة تقدر تبهدلنى .. وتشتكينى للبوليس ..

لطمنى النبأ .. إذن فهى حامل .. وستلد .. هذا مستحيل .. أقتلها يا أبى .. عاودنى الحقد عليه وقلت فجأة .. كأنى لم أسمع كلامه :

– أنا عايز الخمسة جنيه ..

امتدت يده بسرعة إلى جيبه .كأنى أصدرت أمراً لا يقبل المناقشة ..كأنه خائف منى ، وأخرج الورقة وأعطاها لى .. أخذتها .. وفكرت فى القيام فى الحال .. ولكنى لزمت مكانى ، صامتا ..

قال ببطء :

– ح ترجع البيت نتغدى سوا .

قلت فى حدة :

– لا ..

قال فى أسى :

– ح نسيب لك الأكل فى أوضتك .. تتعشى لما ترجع ..

– أنا موش راجع البيت ..

– ح تبات فين يا ابنى ؟

– عند واحد صاحبى ..

قال بصوت ضعيف متهالك :

– موش بيتك أولى بيك ..

قاطعته فى إصرار :

– أنا عايز أعيش لوحدى .. وارتفع صوت أحد اللاعبين :

– انت سايبنا وقاعد بعيد يا عبد الحميد أفندى .. ماتيجى تشوف الزبون اللى اتغلب ..

ضحك أبى فى عصبية ، وصاح :

– جاى حالاً ..

قمت ، فابتسم لى ، ومد يده إلى كتفى وربت عليها .. شعرت أنه ينافقنى ، إنى أرثى له ، وانفر منه ، وقال ضاحكا :

– أنا برضه أبوك .. يمكن باخرف .. فخليك أنت أبويا .. واقعد جنبى ..

قلت فى ألم :

– ما أقدرش ..

وهمست من قلبى :

– سعيدة يابابا ..

وخرجت من المقهى ..

تسكعت فى الشوارع ، وقفت أمام واجهات المحلات ، أتفرج على كل شىء ، الملابس والأحذية وعلب الشيكولاته والتورتة ، وأراجع الأسعار ، وتراودنى رغبة فى الشراء .. فأتحسس النقود فى جيبى ، لن أفرط فيها ، إنها أثمن من أى شىء أشتريه ، وأردع الرغبة ، وأواصل السير ..

وتذكرت حريق الأوبرا .. وخطر لى أن أذهب إلى شوقى فى جريدة الأيام ، وأقول له إنى شاهدت الحريق ، لو كانوا لا يعلمون بالخبر .. فسيهتمون به ، ربما قابلت محمد ناجى ..

وجريت إلى الأيام ، وسألت عن شوقى فلم أجده ، صحت فى الموظف :

– أنا عايز أقابل ناجى بيه .. قال فى برود :

– عندك ميعاد معاه ؟

هتفت بلهجة آمرة وقد غلبنى الانفعال :

- قولله يوسف عبد الحميد المحامى .. عايزه علشان الحريقة اللى فى الأوبرا دلوقت .

وجم الرجل ، وتكلم فى التليفون .. وقال هامسا حتى لا اسمعه :

- فيه واحد هنا .. اسمه الأستاذ يوسف عبد الحميد المحامى .. بيقول إن فيه حريقة فى الأوبرا وعايز يقابل ناجى بيه ..

بعد لحظات كنت أطرق بابا . وسكرتيرة تفتح لى بابا آخر فأدخل حجرة واسعة فخمة ، وأرى محمد ناجى بقامته الطويلة ووجهه الهادىء ، وسيجارته فى فمه ، يقف فى منتصف الحجرة ..

ابتسم ابتسامة شاحبة وقال فى برود :

- حريقة إيه يا أستاذ ؟
- الأوبرا بتتحرق ..
- دلوقت ؟
- أنا لسه جاى من هناك ..

كان ينظر إلىّ فى حذر ، كأنه لم يرنى من قبل ، فأسرعت أقول :

- أنا كنت جاى أقول لشوقى .. حضرتك شوفتنى مرة معاه فى مكتبه بالقيتوش .. فقلت أتصل بحضرتك ..

حدق فى وجهى ، وابتسم .. تذكرنى ..

وسألنى وهو يولينى ظهره ويدق أحد الأجراس على مكتبه ..

- إيه اللى شفته ..
- الممثلات والممثلين طالعين يصرخوا من الباب الخلفى .. وسعاد رسمى واقفة بقميص النوم فى الشارع ، وجنبها رءوف المانسترلى فى حالة ذهول .. والبنات الكومبارس بيعيطوا .. وجه وابورين مطافى علشان يطفوا الحريقة ..

كانت ابتسامته تزداد اتساعاً ، وعيناه تلمعان ببريق ذكى .. وقال فى حرارة :

- اتفضل ..

وقدم لى سيجارة ، وأشعلها لى .

- وطفوا الحريقة ؟
- سبتهم بيطفوا فيها .. وجيت هنا ..

قال باسما :

- احنا نشكرك يا أستاذ ..

انت غاوى صحافة ؟

قلت تدفعنى رغبة حادة فى التظاهر بالكبرياء :

- لأ ..

قال وهو يدق الجرس مرة ثانية

- ليه ؟..
- علشان ما احبش السياسة .. بتجيب متاعب ..

كنت أفكر بسرعة ، يجب أن أبدوا أمامه وكأنى شخص مهم ، سأروى له حادث القبض علىّ .. سيظن أنى رجل خطير .

- انت من أنصار أى حزب ؟
- ولا حزب .. كلهم نصابين .. آخر مرة رحت أحضر اجتماع عامله إسماعيل باشا يونس .. البوليس قبض علىّ ..

تجهم وجهه ، وعادت إلى عينيه نظرات الحذر .. وسأل فى قلق ..

- قبض عليك ليه ..
- معجبنيش الاجتماع .. فخرجت بدرى .. فالبوليس افتكر أنى خارج علشان أعمل حاجة .. مقعدتش خمس دقائق فى القسم .. عمى راتب بك كلم وزير الداخلية فى التليفون وخرجنى ..
- حسن بك راتب ..
- أيوه ..

ودخل شاب ملء ، له قوام رياضى ، فقال له محمد ناجى بلهجة ساخرة :

- ياعبد الفتاح .. بدل ما انت قاعد نايم .. روح شوف الحريقة اللى فى دار الأوبرا ..

فتح الشاب فمه .. وصاح

- حريقة ..

فزعق محمد ناجى ..

- أيوه حريقة .. انت لسه واقف .. خد معاك مصور .. خد سعيد ..

وانطلق الشاب كالقذيفة خارجا من الحجرة ..

والتفت إلىّ يتأملنى وسأل :

- بتشتغل محامى ..

- أيوه ..

- ما فكرتش تشتغل بالصحافة ليه ..

قلت فى تحد .. كنت على يقين انى لو تحديته سيزداد تعلقا بى ..

- ما جربتش ..

ودق جرس التليفون .. فأمسك بالسماعة ، وبدأ يتكلم ، ثم قطع حديثه والتفت إلىّ قائلا ..

- طيب يا استاذ يوسف .. سلملى على راتب بك .. وأبقى خلينا نشوفك .. أنا متشكر قوى .. مين عارف .. يمكن حظنا يبقى كويس وتشتغل معانا ..

خرجت من الحجرة ، وقد استولى علىّ ذهول .. كيف حدث ما حدث .. كيف استطعت أن أفعل ما فعلته ..

الفصل السادس

صدر القرار بتعيين سعد عبد الجواد معاوناً للنيابة ، وكنت مازلت مفلساً عاطلاً ، فشعرت أن كل الناس تتحرك وتعيش ، وتفتح أمامها الأبواب ، أما أنا فمحكوم علىّ بالفشل ، وأن أبقى كما أنا ، وسرعان مالاحظت التحول الكبير يطرأ على سعد ، رأيته فى الليل يفتش جميع أوراقه القديمة ويحرقها ، حتى المقال الذى كان يفخر به عن الدستور السوفيتى الذى نشره فى مجلة الفجر ، أحرقه .

ورفض سعد أن يجلس معنا فى ميخالوفتش بحجة أن المكان مشبوه ، ويتردد عليه الشبان الشيوعيون ، ورغم ذلك ظل مصراً على أنه لم يغير مبادئه ، كان يتكلم فى عصبية ، ويدافع عن نفسه أمام شوقى ، ويتحدث عن أمانة المهنة والواجب الذى يؤديه ، ويؤكد أن ضميره مستريح ، فيسخر شوقى وهو يتألم ، ويرتبك سعد وتزداد عصبيته ، ويحدثنى قلبى أن سعد يبتعد عنا ، فأخاف ، من يدرى ، قد يغضب سعد فى إحدى المناقشات ويقطع علاقته بنا ، ويطردنى من بيته .

وكنت إذا انفردت بشوقى نتحدث عن طموح سعد وذكائه ، ويصر شوقى على أن سعد مجرد وصولى ، سار مع الشيوعيين لأنه فقير ، فلما انفتح المجال أمامه ليصبح غنيا ، هجر الشيوعية ولم يفكر إلا فى نفسه ، كنت أستمع لشوقى ولا أجرؤ على مناقشته حتى لا يغضب منى ، وكنت استمع لسعد

ولا أجرؤ على مناقشته حتى لا يغضب منى ، وأحاول إقناع نفسى ، بأنى لست مضطرا للاختيار ، وأنى صديق الاثنين .

وذات ليلة انتظرنا سعد فى جروبى حتى أغلق أبوابه ، ولم يحضر سعد ، وسألنى شوقى فى ضيق :

- ح تعمل إيه ..

قلت حائراً :

- ح استناه فى الشارع ..
- قال ساخرا :
- تعال بات معايا احسن ..

وذهبت مع شوقى إلى بيته فى بوابة المتولى ، مكان مظلم مريب ، كأنه وكر مجرم ، بيت عتيق ، داخل فناء قذر ، وباب خشبى ضخم له صرير ، وأشباح تتحرك ، وكأن عيون الشرطة تراقبنا من كل مكان ، وقضينا الليل نتحدث عن سعد وعن الشيوعية ، وسألنى شوقى لماذا لا أكون شيوعيا ، وحاول أن يقنعنى بأن هذا هو طريق المثقفين..

قلت متردداً :

موش قادر اقتنع بيها ..

سألنى مهاجما ..

- ليه .. عاجبك الحال اللى أنت فيها ؟
- لا ..
- لو كنت فى مجتمع شيوعى كان زمانك بتشتغل .. وعارف تعيش ..

وانطلق شوقى فى الكلام ، كنت أشعر فى قرارة نفسى أن كلامه معقول ، ولكنى خائف ، خائف من صوته ، ومن الحجرة التى نجلس فيها ، ومن الآذان التى تتصت إلينا ، كان خوفى قوياً ولكنى لم أجسر على الاعتراف به ، لا أريد أن أعيش معرضا للقبض علىّ ، لا أريد أن أعيش مطاردا ، لماذا كل هذا العناء ، ثم أن هناك أملاً كبيراً يراودنى فى أن أعمل فى جريدة الأيام .. أنا أحسد سعد وأتمنى أن أكون مثله . إن شوقى يطالبنى بأن أفكر فى الناس

جميعا ، ولكنى غير قادر على هذا ، الناس ليسوا فى حاجة إلىّ ، مبروكة الخادمة ليست فى حاجة إلىّ ، لقد استطاعت أن تتزوج أبى ، استولت عليه ، لا أحد يفكر فىّ ، فلماذا أفكر أنا فى الناس ..

وفى الصباح ذهبت إلى النيابة لأزور سعد ، قابلنى بحماس . واعتذر لى بأنه كان مشغولا بحضور تحقيق استمر حتى منتصف الليل ، إذ هاجم الشرطة بيتا للدعارة ، وقبضوا على البنات وبعض الزبائن من الشخصيات المعروفة وسألنى ..

- بت فين امبارح .
- عند شوقى ..
- أنا قلت كده ..

قلت وأنا ابتسم فى ارتباك :

- عايز يخلينى شيوعى ..
- فتلفت حوله وهمس :
- بلاش تورط نفسك .. ح .. تندم ..

ثم أردف قائلا ..

- البلد موش عايزة شيوعية .. دى مرحلة لسه ح تيجى بعدين .. البلد عايزه ناس عندها ضمير .. شعرت أنه نصاب ، يحاول أن يخدعنى ويخدع نفسه ، إنه لا يفكر إلا فى وظيفته ولكنى تظاهرت بتصديقه ، وكأنه رجل له مبادىء .

وحدثنى سعد عن التحقيق بنفس الحماس الذى كان يحدثنى به فيما مضى عن الشيوعية ، كان يتكلم وكأنه بطل ، وقال وعيناه تلمعان : إن الشرطة قبضوا على سيد الوهابى تاجر الحديد ، وعصام رأفت ابن رأفت باشا وزير الزراعة السابق ، واندفع يلقى خطبة حماسية عن انحلال الأغنياء وفسادهم ..

تركته بعد أن وعدته بأن أعود إلى بيته حتى لا أتورط مع شوقى ، وذهبت إلى جريدة الأيام لأقابل شوقى .

كنت قد تعرفت على المحررين ، وتظاهرت امامهم بأنى شخصية هامة ، حدثتهم أكثر من مرة عن حادث حريق الأوبرا ، وكيف أبلغته لمحمد ناجى ، وجعلتهم يشعرون بأنى صديق له ، وحدثتهم عن قرابتى لراتب بك وصداقته لوزير الداخلية ، وكنت أقابل محمد ناجى أحيانا وأنا فى طريقى إلى شوقى ، فيقف ونتبادل التحية ، ويبتسم فى وجهى ويقول كلمة أو كلمتين ، وتلمحنى عيون المحررين ، فيزداد احترامهم لى ، وترحيبهم بى ، ويتحدثون أمامى كأنهم واثقون أن كل كلمة أسمعها سأنقلها إلى محمد ناجى .

جلست إلى جوار شوقى ، وامسكت بسماعة التليفون وقلت للعامل فى هدوء :

- ادينى ناجى بك ..

نظر إلىّ شوقى فى دهشة .

قلت فى برود :

- عندى أخبار ح أقولها له ..
- أخبار إيه ..

قلت فى غموض :

- أخبار ..

وصعدت إلى محمد ناجى ، ورويت له حادث القبض على سيد الوهابى وعصام رافت ، أثناء روايتى تذكرت كلاما كثيرا سمعته من سعد .. النائب العام مغضوب عليه وسيخرج من منصبه . المرشح الجديد هو عميد كلية الحقوق .. وكلما تذكرت شيئا ، رويته لمحمد ناجى فى ثقة ، وكأنى صديق للنائب العام ، وكأنى صديق لعميد الكلية .. استمع إلىّ فى اهتمام ثم قال بصوت جاد :

- أنا عايزك تشتغل معانا .. موش عايز منك أكثر من الأخبار دى .. وح اديلك تلاتين جنيه ..

أطرقت برأسى وكأنى متردد .. ثم همست :

- بس أنا ..

- أنت إيه ..
- أنا فنان ..

ضحك ساخرا وقال :

- اسمح لى يا أستاذ .. عايز تبقى فنان .. يعنى عايز تبقى تنبل .. ما تعملش حاجة .. أنت عندك اتصالات كويسه .. وتعرف تجيب أخبار .. والصحافة مستقبلها واسع .. الفن مايوصلكش لحاجة .. أنت لازم تتخلص من الوهم اللى فى راسك .. خلاص أنا باعتبرك بتشتغل معايا من النهاردة ..

وقبلت ..

ولما عرف شوقى النبأ ، هجم علىّ يقبلنى ، ولازمنى طوال النهار ، ولكنى كنت أفكر فى اللحظة التى أتخلص فيها منه ، لأذهب إلى سعد ، إن سعد هو الذى يستطيع مساعدتى بنصائحه وأخباره ، أما شوقى فسيعرضنى للخطر .

وذهبت إلى أبى فى المقهى ، كنت أتردد عليه بين وقت وآخر ، وأطلب منه نقودا ، فيعطينى نصف ريال أو خمسين قرشا .. وقلت له انى وجدت عملا فى جريدة الأيام فظهر الأسى على وجهه ، وقال فى حسرة :

- بقى تأخذ الليسانس علشان تشتغل جرنالجى ..

وأردف وهو يتنهد :

- بكره تتعدل وتلاقى شغلة أحسن ..

ضحكت فى سرى ، وقلت وأنا أرقب انفعالات وجهه .

- ح يدونى تلاتين جنيه .. لم يفهم ما أقوله ، وسأل .

كام ؟!

- تلاتين جنيه فى الشهر .. اتسعت عيناه وبدا أنه لا يصدقنى .. ثم ضحك فجأة ، وهتف :
- مبروك يا ابنى .. ألف مبروك ..

قلت بسرعة :

- بس أنا عايز فلوس دلوقت ..

نظر إلىّ في ريبة ، وكأنه يلومنى ، ظن أنى أكذب عليه لأحصل على النقود ..

همست :

ـ سلف .. لحد ما أقبض ..

سألنى في انفعال .

ـ اتعينت خلاص ؟

ـ أيوه ..

ـ انت متأكد ..

ـ أيوه ..

ـ ح تعمل بالفلوس إيه ..

ـ عايز اسكن في بنسيون ..

ـ عايز فلوس كتير ..

عشرة جنيه ..

فالتفت إلى الرجل السكير الذى كان يلعب معه الشطرنج ليلة جئت المقهى لأول مرة ..

ـ وقال له :

ـ أنا عايزك يازكى بك في كلمة :

قام الرجل ، وانتحى بأبى في ركن المقهى ، ورأيته يخرج نقودا من محفظته ، وأعطانى أبى الجنيهات العشرة ، كان يتمتم بصوت مرتعش :

ـ أنا سالف الفلوس دى ولازم أرجعها .. ده مبلغ كبير ما اقدرش عليه .. إنه مازال يستريب في أمرى .

قلت في ثقة :

ـ ما تخافش يا بابا ..

ـ ووجدت غرفة في بنسيون مدام روز في عمارة كبيرة بالقرب من ميدان الإسماعيلية .. غرفة تطل على حارة ضيقة ، فيها سرير خشبى صغير ، ودولاب قديم ، وستائر زرقاء أشعرتنى بأن الغرفة فخمة ..

الآن ، أنا أندفع بكل قواى في حياة جديدة ، خلفت ورائى كل شىء ، لا اكترث بالماضى ، ولا أفكر إلا في أحلامى المقبلة ، ومحمد ناجى .

كنت أفكر كثيراً في محمد ناجى وشعرت بإعجاب كبير نحوه ، خيل إلىّ أنه ليس في هذا العالم من هو أعظم وأذكى منه ، ولاحظت أنه يذهب إلى مكتبه كل صباح في ساعة مبكرة ، فتعمدت أن أسبقه وأنتظره ، حتى أعلم بوصوله ، فأطرق بابه وأدخل عليه ، فأراه يتصفح الجرائد ويدخن سيجارة ، فأجلس أمامه واضع ساقا على ساق ، وأروى له ما سمعته من أخبار ، وكأنى أعرف كل شىء .

آه لو علم محمد ناجى كيف كنت أحصل على أخبارى ، إنى لا أعرف أحداً في هذه الدنيا سوى أبى والمقهى الذى يجلس فيه ، وسعد وشوقى ، ومع ذلك استطعت من خلال هذه الدائرة المحدودة أن أوهم محمد ناجى أن صلاتى ضخمة لا حدود لها .. كنت أذهب إلى أبى في المقهى وأسمع أى كلام من أحد اللاعبين ، فأحوله إلى خبر خطير ، كان لاعبو الشطرنج خليطا عجيبا من الناس ، موظف في الجمرك وسائق قطار في السكة الحديد ووكيل وزارة التجارة ، ومفتش في التعليم الثانوى وسمسار يهودى .. أستمع إليهم ، لأقول لمحمد ناجى في صباح اليوم التالى إنهم ضبطوا زوجة أحد الباشوات وهى تهرب الحشيش في حقيبتها في الجمرك ، وأن الأمير يكن سافر إلى استنبول ومعه كلابه الخمسة ، وأن القطارات الجديدة التى اشتروها اكتشفوا أنها لا تصلح للسير على القضبان الحديدية الحالية ، وأن وكيل وزارة التجارة قال إن السماد سيظل مختفيا من الأسواق طوال الشهرين القادمين ، ويستمع إلىّ محمد ناجى وهو يقدم لى السجائر ويطلب لى القهوة ، وفي رأسه صورة غريبة عنى ، كأنى أعرف كل الناس ، وكأنى أعمل ليل نهار من أجله .

وذهبت لزيارة سعد ذات مرة فوجدته سيخرج مع وكيل النيابة ليتمرن على التحقيق في قضية قتل ، ذهبت معهم إلى بيت متهالك في بولاق ، وصعدنا سلما خشبياً ، ودخلنا حجرة مفروشة بحصير ، فيها سرير نحاس فوقه جثة رجل

عجوز نزفت دماؤها من جرح غائر في عنقه .. حضرت التحقيق ، وتحدثت مع سعد عن الجريمة ، ثم عدت إلى الجريدة وكتبت وصفا للحادث احتوى تعليقات سعد وآراءه .. القاتل الحقيقي هو الظروف المحيطة بالقتيل .. كان مدمنا على الأفيون ، يسرق نقود أولاده ، الاتهام موجه إلى زوجته الجديدة الصغيرة التي ارتكبت الجريمة بمساعدة عشيق لها ..

وقرأ محمد ناجي ما كتبته ولم يضف سوى جملة واحدة في أول الموضوع ..

« كتب يوسف السويفي المحرر الجنائي للأيام » ..

وقال ضاحكا :

- لازم ننشر اسمك باه علشان القراء يعرفوك .

همست فرحا ..

- أنا اسمي يوسف عبد الحميد السويفي .

قال ساخرا :

- ده موش اسم .. ده مقالة .. لازم يكون اسمك مختصر علشان الناس تتعود عليه ..

وقرأ سعد التحقيق وقال متهكما :

- ياتديني الفلوس اللي بتأخذها .. يا الواحد ما يتكلمش قدامك .. ياه تنقل كلامي بالحرف ولا تذكرش اسمي ؟!

وناداني محمد ناجي ذات مساء ، فوجدت في مكتبه الممثل أنور سامي ، قدمني إليه محمد ناجي قائلاً :

- أهو يوسف أقدر اطمئن له .. ابن ناس طيبين .. وموش ح يعمل معاك فصول من إياها ..

صرخ أنور سامي في لهجة تمثيلية :

- أنا أبوس ايدك يا ناجي بيه .. خلاص .. طلع ديني من ولاد الحرام اللي بتبعتوهم ورانا الاستوديوهات .. والله أنا بتكسف .. جعانين .. صحافة إيه دى .. يتمسحوا في الواحد .. واللي يقولك معاك شلن .. واللي يقولك معاك

سيجارة .. وإن ما اديتوش .. ينشروا الخبر هباب .. كذب في كذب .. دول إرهابيين .. أنا بأحلم بيهم بالليل .. والله لومت ذنبي في رقبتك يا ناجي بيه ..

والتفت أنور إليّ وقال متوددا :

- الأستاذ باين عليه صحيح ابن ناس .. اتشرفنا يا أستاذ يوسف ..

ثم صاح مخاطبا محمد ناجي :

لكن ده موش باين عليه صحفي ..

ليه ..

- مكسوف ..

وهتف أنور في وجهي ..

- ادردح يا أستاذ ..

قال محمد ناجي :

- والله أنا خايف عليه منكم .. ما انتم العن من الصحفيين ..

كان أنور سامي هو أول من عرفته من الفنانين ، أخذني ليلتها في عربته إلى استوديو مصر ، وعرفني بالممثلة هدى مراد والمخرج حلمي كامل ثم أصر على أن أذهب معه إلى بيته ، وهناك جلس يحدثني عن محمد ناجي ، كان معجباً به ، إنه أبرع كاتب عرفه وقرأ له ، يخشاه القصر ، ويخشاه الوزراء ، وتسعى إلى كسب رضاه كل الأحزاب يعيش كملك ، ارستقراطي ، ينفق عن بذخ ، ولكنه فقير ، لا يملك سوى مرتبه ، وضحك أنور قائلاً :

- كفاية عليه أنه عرف يطوي شهدي باشا .. تعرف كل الملايين اللي يملكها شهدي .. تحت تصرف محمد ناجي - آه ياناري .. لو كنت أعرف أوصل لشهدي باشا زي محمد ناجي .. كان زماني ملك السينما كان زماني سيسيل دي ميل ..

ومط شفتيه وقال متأففا :

- بس كله كوم .. وإني أحب ثريا هانم كوم .. دي أم قويق يا أستاذ .. موش ممكن أعمل زي محمد .. أنا أجمل منه .. وبرضه اسمي ممثل سينما ، والف واحدة تتمنى إنها تعرفني .. بس ما أقدرش . أم قويق .. في ستين

داهية الفلوس .. بلاش ابقى سيسيل دى ميل .. ده أنا لما باشوفها واتخيل أنى ح أبوسها .. تقم علىَّ نفسى .. محمد ده نفسه مفتوحة قوى .. أعصابه حديد ..

كان أنور يحدثنى وكأنى أعرف كل هذه الحقائق ، فتماسكت أمامه متظاهرا بأنى أعرفها فعلا ، ولكنى كنت أخفى ما أشعر به من دوار ، عيناى على شفا هوة عميقة ، أرى فيها أشياء تذهلنى .. ونهض أنور فجأة واختفى ثم عاد وفى يده رباط عنق أحمر وقدمه لى هدية منه .. رفضت رغم إلحاحه ، وتظاهره بأنه مستاء منى .

لم يمر يوم واحد ، حتى كان محمد ناجى يقول لى ضاحكا :

أنا مبسوط منك يا يوسف علشان رفضت تأخذ الكرافتة من أنور ..

صحت فى دهشة :

- هوه قالك ..

قال :

- وهوه كمان مبسوط .. قاللى إنك صحيح ابن ناس .

شعرت بالغيظ ، الجميع يتظاهرون يكذبون ، وقلت فى حدة :

- بس الراجل ده موش كويس ..
- أنور .. ليه ؟
- موش عاجبنى ..

قال متهكما فى لهجة أبوية وكأنه ينصحنى :

- شوف .. هما بيعرفونا ليه .. علشان ننشر أخبارهم ويتشهروا .. بيتظاهروا بأنهم أصدقاء .. وأنهم بيحبونا .. وينافقوا .. ومستعدين يقدموا هدايا .. ويعملوا أى شىء .. علشان الناس تقرأ اسمهم .. وعلشان مانكتبش عنهم كلمة وحشة .. بيدوروا على عيشهم .. لكن أوعى تصدق أن واحداً منهم ح يبقى صاحبك بحق وحقيق .. لو طال يموتك علشان يشتهر أكتر .. كان موتك .

قلت فجأة :

- ده بيشنع عليك ..

قال فى وجوم ..

- قال إيه ..

اندفعت معترفا بكل ما سمعته من أنور عن شهدى باشا وعلاقة زوجته بمحمد ناجى .

هز رأسه مبتسما ، وقال فى بطء :

- أنت لسه صغير .. وغشيم على جو الصحافة .. لسه ولد برىء ونضيف .. وأنا عايزك تفضل كده على طول .. وما تصدقش اللى بتسمعه .. أنا لسه باقولك .. إنهم بياكلوا فى بعض .. صحيح شهدى باشا بيمول الجريدة .. لكن إحنا كمان بنشتغل .. أمال ح نجيب الفلوس منين .. أنت فاكر الجرنال لما يتوزع كله ح يغطى مصاريفه .. أبداً .. إحنا محتاجين للإعلانات .. وشركات شهدى باشا هى اللى بتدفع فلوس الاعلانات .. وهيه اللى بتشترى لنا المطابع .. والبلد دى عايشة على الشائعات .. ماحدش عايز يصدق أن فيه شغل شريف .. إحنا بنشتغل مع شهدى باشا يبقى لازم محمد ناجى بيعرف مراته .. رئيس الوزارة بيعتمد على وزير المالية .. لأن وزير المالية على علاقة بزوجة رئيس الوزراء .. الملك أمر برفد فلان .. علشان زوجة فلان رفضت تقابل الملك فى الشاليه بتاعه فى الهرم .. نصيحتى لك يا يوسف .. إنك تبعد عن الشائعات دى .. وخليك نضيف - أنا باعتمد عليك .. ونادر لما ألاقى واحد زيك أثق فيه .. وماتخلنيش أحس أنى غلطت فى حقك .. يوم ما اقنعتك بالشغل فى الجو القذر ده ..

صدقته ، وكادت الدموع تطفر إلى عينى ، ولاحظ تأثرى ، فتقدم منى وربت على كتفى وقال متهكما :

- بكره تكبر .. وما تتخضش من الحاجات اللى بتسمعها .. أنت بتفكرنى بنفس أيام زمان .. بس أنا كنت أجرأ منك .. لما حد يقوللى حاجة غلط .. أضرب بالبوكس فى وشه ..

وخرجت من مكتبه ، وأنا أتوهم أن المجتمع الحقير بنفوسه الحقيرة يحاصر جريدة الأيام ، وأن محمد ناجي بطل نبيل يقف في قلعته يتلقى الضربات ، ويجب أن أقف معه ، أحارب وأناضل وأدافع عنه .

كان الوقت ظهرا ، وأنا جالس إلى مكتبي في الجريدة ، عندما دق جرس التليفون ، وسمعت صوتا غريبا يهتف :

– الأستاذ يوسف ..

– أيوه يا افندم .

– أنا زكي ..

– زكي مين يا افندم ..

– أنا صديق الوالد .. اللي باقعد معاه في القهوة .. أنا باكلمك من هناك ..

خفق قلبي .. إنه يطالبني بالنقود التي أقرضها لأبي ..

– اتشجع يابني .. مصيبة وحصلت .. الوالد تعيش أنت .. يا أستاذ .. أنت سامعني ..

وأنا خارج سمعت صوتا يناديني :

– ناجي بيه عايزك .

وقفت مكاني ساهما ، ثم صعدت إليه ، ما كاد يراني حتى سألني .

– مالك ..

– ولا حاجة ..

– فيه حاجة مضايقاك ..

– لا ...

– أنا كنت عايزك تشوف أخبار الفن بنفسك .. موش عايز هجوم على أم كلثوم .. ولا عبد الوهاب .

ومضى يتحدث ، وأنا في ذهول ، لن أقول له إن أبي مات ، لن أقول له إنه مات في المقهى الحقير ربما كتب الخبر ، سيسأل من هو أبي لو انتشر الخبر فسيأتي معي المحررون ، وسيرون أصدقاء أبي وسيعرف محمد ناجي أني فقير ، قد

يصمم على المشي في الجنازة ، سيعرف حقيقتي ، سيكتشف أمري .. سيدرك أني خدعته . سيعلم كل شيء عن مبروكة ..

وجريت إلى المقهى كالمطارد ، أبي مات ، إني أحبك يا أبي ، لو كنت أعلم لما تركتك .. كنت تطلب مني أن أرعاك ، أن أصبح أباك ، تخليت عنك .. قتلتك يا أبي .. ولكن موتك فضيحة .

جسد أبي ممدد على مناضد المقهى يثير فزعي .

مات أبي ..

ها هو لحمي على المناضد ، انفصل عني ، أمام كل هذه العيون ، هذا فوق طاقتي ، لو كنت أستطيع الفرار ، لو كنت غائباً عن القاهرة لا أعلم بما يحدث ، اتركوني لحالي لست أريد منكم شيئاً ، ما الذي جاء بي إلى هذه الدنيا ليورطني في هذه المصائب ، لا تلتفوا حولي ، ألا ترون أن المقهى يتداعى فوق رأسي ، وأن جسد أبي ثقيل يرهقني الزموا الصمت ، وانصرفوا ، دعوني وحدي معه ، حتى ينتهي كل شيء في هدوء .. في السر .. لابد أن ينتهي كل شيء في السر .. ولكن كيف .. أصوات مختلطة تطرق أذني ، أيد تشدني ، عيون تفتش في عيوني .. الأسعاف .. الحانوتي .. البوليس .. عربة نقل الموتى .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. البقية في حياتك .. قهوة يا مخالي .. سجاير سجاير .. أبواق سيارات .. هدير ترام .. ضوء النهار شديد ..

ليس معي نقود ، لعل في جيبه نقوداً ، أمد يدي إلى جيبه ، أفتشه إنه أبي ، لن أجرؤ ، من أين تأتي النقود .. اذهب إلى محمد ناجي واقترض منه .. مستحيل .. أتصل بسعد .. لابد أن أتحرك .. أفعل شيئاً سريعاً .. سأتصل براتب بك ..

سمعت صوته في التليفون مظهراً الحزن ، مظهراً الاهتمام ، قال إنه سيصدر أوامره ..

– اسمع يابني .. أنت تيجي هنا على طول .. وح أكون عملت الترتيبات .. وإلا أقولك خليك أحسن عندك ما يصحش تسيبه لوحده .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. ما تعولش هم .. أنا ح أشوف كل حاجة .. وح أدفع كل شيء ..

كل شيء بالنسبة له سهل ميسور حتى الحزن على أبي ودفع نفقات دفنه .. أمر سهل ميسور ..

– أنا ح اقوم بالواجب يا ابني .. اطمئن ..

وجاء مبروكة إلى المقهى ، الفضيحة خرجت إلى العراء ، كانت تحمل طفلاً ، ابنها ، انهارت جدران بيتنا وانكشف المستور ، أصبحنا في الشارع ، والناس يرون كل شيء ، أبي يضحك مع مبروكة ، تضمهما غرفة النوم ، تلد له ولدا ، شجارى معه ، لقد تعريت ..

لا أملك سوى الاستسلام ، الاذعان التظاهر بالغباء ، خطوت خطوتين مبتعداً ، فانفرج حصار الناس يفسحون لى الطريق ، ورأتنى مبروكة فهجمت علىّ ، وقالت صراخاً نكست رأسى وابتعدت ..

يومها سمعت الدنيا صراخ مبروكة الفضيحة تجلجل بلا داع ، المشيعون يتلفتون نحوها ، لعلهم يتهامسون بقصتها مع أبي ، لعلهم يشيرون إلى ابنها ويقولون إنه أخى .. لن اكترث .. أنا نعامة تدفن رأسها في التراب .. هه .. ما الذي يذكرنى بالنعام الآن .. أهذا وقت التشبيهات .. كأنى اكتب مقالاً .. أنا لا اكتب مقالاً .. يجب أن أفهم هذا .. أنا ادفن أبي ..

يحملون أبي إلى القبر ، يهبطون به ويغيبون تحت الأرض ، ربما كان هذا أفضل حل .. منذ هذه اللحظة ستضيع مبروكة ، ستضيع إلى الأبد .. الدنيا واسعة ، تتوه هي في مكان ، وأتوه أنا في مكان وكأن شيئاً لم يكن .. غداً ستقدم لى مدام روز الشاى في الصباح ، وستحدثنى عن فيلم السينما الذى ستراه الليلة ، لن تعرف أن أبي مات ، ربما ابتسمت في وجهها لأنها لا تعرف .. ولأخفى حزنى .

يغطون فوهة القبر بالحجارة ، ويهيلون فوقها التراب ، ويرشونه بالماء ، الشمس تغيب ، أذان المغرب يرتفع ، كل ما سأفعله ابتداء من هذه اللحظة سيخفى حزنى ، سأصبح كاتباً كبيراً لأخفى حزنى ، سأشتهر وأحصل على المال لأخفى حزنى .. سأصعد إلى أعلا قمة في الدنيا وأسخر من الجميع لأخفى حزنى .. لن يعلم أحد غير هؤلاء المشيعين أن أبي مات .. وأني حزين ..

ولكنى حزين يا أبي ، كيف تركتنى وهبطت إلى القبر ، ترقد بجوارها ، أمي .. أتعرفين ما يحدث الآن .. أتحسين به .. لا تسمعي صراخ مبروكة .. إنها ليست موجودة معنا .. لم تكن هناك مبروكة في حياتنا .. ابتسمى في وجهه يا أمي فأنا لا أستطيع .

أوراق القضية مازالت في الصفيحة ، كنت تريد إخراجها ، أوراق تاريخية ، لقد ورثت هذه الثروة ، ولكن مبروكة تشاركنى الميراث ومعها ذلك الطفل الذى تحمله .. لا أريد هذه الأوراق ، فلتبق في الصفيحة ، إنها لا تساوى شيئاً الآن ، مات سعد زغلول ، ومت يا أبي ، وماتت الأوراق .. هه .. يوم كنت تحدثنى عن مستر هولمز ناظر مدرسة الحقوق السلطانية ، معارفك دخلوا المدرسة وأصبحوا مستشارين وبكوات وباشوات .. أتذكر يوم دخولى كلية الحقوق صممت على المجيء معى ..

– أنت مالك ياسيدى أنا عايز أشوف الكلية .. افرض إنى واحد غريب وعايز يتفرج عليها ..

اوصلتنى حتى باب المدرج ، كنت مستاء منك ، خيل إلىّ أنك تعاملنى كطفل ، وكنت تتلفت حولك مزهوا ، تنظر إلى الطلبة وعلى شفتيك ابتسامة وفي وجهك حنان وأسى ..

لم أدرك يومها ما كنت تشعر به الآن عرفت .. إنى واثق أنك جئت معى إلى الكلية لترى المكان الذى أردت أن تبدأ منه حياتك ، وعجزت عن دخوله لأنك فقير ، أردت أن ترى شبابك وأحلامك التى لم تتحقق كنت فرحا رغم الحنان والأسى المرتسمين على وجهك ، رغم تجهمى واستيائى لأنك معى ، هاهى الفرصة تتاح لك من جديد في شخصى .. أما أنت .. أما أنت ..

آه يا أبي .. إنى أذكر الآن أشياء كثيرة ، أدركها لأول مرة .. صوتك المرتعش وأنت تودعنا قبل السفر إلى مقر عملك ، يدك المرتعشة وهو تمتد لتأخذ المظروف الذى يحتوى الجنيهات الثلاثة أجر دروسك لمدحت ، نفاقك لراتب بك .. أبي .. لقد كنت يائسا من نفسك .. تضحى بكل شيء من أجلى ..

لم يبق لنفسك شيء ، سوى الساعات الطوال الضائعة فى المقهى أمام رقعة الشطرنج .. ومبروكة .

سأحقق لك كل ما تريده ، لن أضحى ، صدقنى يأبى ، سأفعل ما لم تفعله أنت ، سأطرد الخادمة كما كان يجب أن تفعل ، سأعيش لأصبح يوسف بك .. يوسف باشا .. وسأكون أكبر من كل هؤلاء المحيطين بى ، سأرتفع فوق الفضيحة التي رأوها ، سأمحو فقرنا وسأمحو قصة مبروكة من ذاكرتهم .. بقدر ما هبطت أنت سأرتفع أنا ، وبقدر ما تحسرت أنت سأقوى أنا ، وبقدر ما مت أنت سأعيش أنا ..

كانت مبروكة لا تزال تصرخ ، ويدى تحتك بعشرات الأيدى ، حتى دفعنى مدحت إلى العربة الكبيرة ، ركبت بجوار راتب بك ، طلبا منى أن أذهب معهما ، ولكنى صممت على العودة إلى الجريدة .

وصعد مدحت معى ، إنه يريد أن يقوم بالواجب ، رحبت بمجيئه ، لم أفكر فيه كصديق قديم ، كنت أقول لنفسى ، هاهو ابن راتب بك يجلس معى ، تعالوا لتتأكدوا من صلتى به .. أنا لا أكذب .. الآن أستطيع أن أعلن نبأ وفاة أبى وأنا مطمئن .. هاهو أحد المعزين ، لقد جاء معى فى عربة فخمة كبيرة ، انظروا إلى وسامته ، تأملوا ملابسه الأنيقة ، اسمعوا كيف يتكلم .. هاهو نوع أقاربى ..

استأذنت من مدحت ، وذهبت إلى محمد ناجى ، وأنا أرسم على وجهى كل الحزن الذى فى الدنيا ، الآن ستتحول فضيحة الموت ، إلى شىء مشرف ..

سألنى :

– كنت فين ..

أطرقت رأسى وقلت بصوت خفيض :

– والدى توفى ..

فزع ، ونظر إلىّ فى دهشة ، دخلنى شعور غريب ، أنى حزين ولكنى أتظاهر بالحزن

– امتى ..

– النهاردة الصبح ..

صرخ ..

– وماقولتليش ليه .. أنا سألتك ..

– ما حبتش أزعجك ..

– انت مجنون .. حد يعمل كده ..

– خلاص .. الجنازة كانت العصر .. وعمى راتب بك وصلنى هنا ..

قال فى عجب :

– أنا مش فاهم ازاى ماتتكلمش .. أنت غريب يايوسف .. دى حاجة ماتحملش أبداً ..

همست ..

– اتفقت مع عمى راتب بك .. إننا نكتفى بالجنازة ..

– بس ماتقولوش .. لا .. لا .. أنا واخد على خطرى منك ..

– مدحت ابن راتب بك .. مستنينى فى أوضتى ..

راتب بك .. راتب بك .. أريد أن أكرر هذا الاسم مائة مرة .. ألف مرة ..

قال محمد ناجى :

– طيب انشر النعى .. كتبته ؟

ارتبكت ، أى نعى ، ماذا أكتب فى النعى ، أسماء أقارب مجهولين فقراء .. مستحيل ..

قلت :

– حاضر ..

– أكتبه دلوقت ونزله المطبعة ..

– حاضر ..

وغادرت الحجرة ، ووقفت مع مدحت عند باب الجريدة ، ننتظر مجىء السائق بعربته الستروين .. ولم أكتب النعى .

بعد يومين تذكر محمد ناجى أنه لم يقرأ النعى ..

قلت له :

- مامقدرتش أكتبه .. مسكت القلم .. الدموع جت فى عينيه .. وقلت إيه الفايدة ..

تمتم فى دهشة ..

- صحيح أنت شخص غريب ..

نعم .. أنا شخص غريب ..

وفى اجتماع المحررين ، قال محمد ناجي فى تأثر شديد ..

- إذا كنتم عايزين تعرفوا الصحفي الحقيقي .. شوفوا اللى عمله يوسف .. المرحوم والده توفى الصبح . ماقلش لحد .. وراح شيع الجنازة ، وكان قاعد بيشتغل معانا بالليل ..

وحدق فى وجوههم .. ثم ثبت عينيه علىَّ وقال :

- أؤكد لكم .. إنه ح يبقي لى مستقبل كبير معانا ..

أطرقت برأسى فى خجل ، وعلى وجهى قناع الحزن الزائف .. الذى يستر أحزاني الصادقة .

ودعانى إلى تناول الغداء معه .. خرجنا من الدار أمام نظرات المحررين ، واعترض طريقي شوقي وهمس .

- رايح فين ؟

قلت وأنا أتابع السير خلف محمد ناجي :

- بعدين أقولك ..

بدا على وجهه الضيق ، إن علاقتي به تفتر ، بالأمس قضينا الليلة معا وكان معنا سعد ، حاولا مواساتى ولكنهما فى نهاية الليلة انطلقا يسبان محمد ناجي واكتفيت بالتفكير فى الابتعاد عنهما .. على أن أختار إما صحبة شوقي ومشاركته فى عداوة محمد ناجي وإما صحبة محمد ناجي والابتعاد عن شوقي ..

وركبت بجوار محمد ناجي ، انطلقت بنا السيارة إلى بيته فى الزمالك .

قصر يحيط به حديقة ، وكلب ضخم نبح ووثب وجرى مبتعداً ثم أقبل مقترباً ولف ودار حولنا ثم تمرغ فى أرض الحديقة ..

ونحن جالسان على المائدة ، روى لى محمد ناجي قصة كلبه تونى كان كلب صديقته المطربة دلال .

وسألنى فجأة ..

- أنت بتحب ..

- لأ ..

ضحك قائلاً :

- وماله بتشخط كده .. هو الحب وحش ..

أجبت فى خجل ..

- أبداً ..

- ما عرفتش بنات ..

- لأ ..

- أنت ساكن فين ..

- فى بنسيون ..

سألنى ..

- تقدر تعزم واحدة صاحبتك هناك ..

- ما أظنش ..

قال بصوت جاد :

- تعرف أنا باسمي اللى زيك إيه ..

نظرت إليه متسائلاً ..

- اللى ما يعرفش بنات .. أمى .. جاهل .. عمره ما ح يعرف الحياة زى واحد ما يعرفش يقرأ ولا يكتب ..

ابتسمت مرتبكاً .. فاستأنف كلامه ..

- لكن أنا ح أساعدك ..

ح أديلك مفتاح الشقة بتاعتي فى شارع ماسبيرو .. اعتبرها شقتك بعد لحظة صمت ، كان يسألنى ..

- أنت مكسوف ؟

قلت فى خجل :

- أبداً ..

فضحك ، ونهض من مقعده قائلاً :

- فكرنى أديلك المفتاح قبل ما تمشى ..

صدق أنور سامى ، إنه يعيش كملك ، خادم يرتدى السموكنج قدم لنا الطعام . سمك موسى ومعه نبيذ أبيض ، وطبق لحم بيكاتا بالشمبنيون ومعه نبيذ أحمر ، والفواكه بالكريم شانتى ، والقهوة فيها حبهان .

بعد الغداء جلسنا على مقعدين وثيرين ، وقدم لى سيجاراً .. بارتجاس ..

كل هذه الأسماء تعلمتها منه ، كان يشرح لى كل طبق ، وسر صناعته ، ويحدثنى عن تاريخ الطهاه الذين عملوا فى مطبخه ، وأنا أنصت بشغف ، وأتظاهر أحياناً بأنى أعرف ما يقول ، واندفعت فجأة فى الحديث عن الطاهى فى بيتنا ومشاكله .. ورويت له كل ما أتذكره عن حوادث الطاهى فى بيت راتب بك .

وغادرت بيته ومعى مفتاح شقة ماسبيرو ، وتمنياته لى بأن أجد بسرعة الفتاة التى تعلمنى الحياة ، وتجعل منى رجلاً ناجحاً يتخلص من خجله وانطوائه على نفسه ..

أطبقت أصابعى على المفتاح فى جيبى ، وأنا أسير على غير هدى . أتوقع فى أية لحظة ظهور تلك الفتاة المجهولة ، وخطر لى أن أذهب لزيارة مدحت ، لابد أن أوطد علاقتى به وبراتب بك ، أن أخبارهما وقود ضرورى أدفع به إلى أذان محمد ناجى ليثق فى انتمائى إلى طبقة الأغنياء ..

قابلنى راتب بك ، كان جالساً فى الصالة والشيخ دسوقى يقف أمامه يحدثه عن أخبار العزبة ، وفجأة التفت الشيخ دسوقى إلىّ وقال بصوت جرىء :

- بقى ياأستاذ موش حرام عليك تسيب الولية الغلبانة فى البيت .. موش لاقية اللى يسأل عنها ..

صعدت الدماء إلى رأسى . ولزمت الصمت ، وتدخل راتب بك قائلاً فى سخرية :

- وعايزه يعملها إيه يا شيخ دسوقى ..

- يجبر بخاطرها ياسعادة البيك .. يشوف الواد اللى بتجرى عليه .. هوه برضه موش أخوه ..

لم أقل شيئاً ، كأنى لم أسمع شيئاً ، ولست أدرى لماذا مددت يدى إلى جيبى وتحسست المفتاح ، كأنى خائف من ضياعه ..

وقال راتب بك :

- وهوه يعمل إيه .. ما تخليها تسافر البلد وتعيش هناك .. أحسن لها ..

فتراجع الشيخ دسوقى وقال بسرعة :

- صح ياسعادة البيه :

وابتسم فى مذلة وقال :

- تشوفولها المعاش بتاعها فى الحكومة ..

صاح راتب بك .

- معاش إيه ياراجل انت .. المرحوم كان فوق الخمسة وستين .. اسمع كلامى .. هيه تروح البلد غصب عنها .. ابنها ح يأخذ تلاتة أربعة جنيه تقدر تعيش بيهم هناك .. وتشوفولها أى واحد تتجوزه .. إنما قعاد لها هنا .. مافيش منه فايدة ..

قال الشيخ دسوقى ساهماً :

- يعنى مالهاش معاش هيه كمان .. دا بيقولوا لها معاش تلاتاشر جنيه ..

أجاب راتب بك فى حدة :

- لا .. مين قال الكلام الفارغ ده ..

وانصرف الشيخ دسوقى ، وتحدثت مع راتب بك عن محمد ناجى .. استمع إلىّ فى اهتمام ، وضاقت عيناه من الدهشة عندما عرف أنى كنت أتناول الغداء معه .. وقلت له كل ما أعرفه من أخبار السياسة ، فرحت وأنا أرقب الانفعالات على وجهه ، لقد استطعت أن أجذب انتباهه .. وقطع حديثنا مدحت ، هبط متأنقا وجذبنى من يدى لنخرج فى الحال ..

قال راتب بك :

- أنا كنت عايزه .. نسمع أخباره ..

قال مدحت :

- مرة تانية يابابا أنا مستعجل وخرجت مع مدحت ، أوصلنى إلى الأيام ، معتذراً بأنه لن يستطيع قضاء الليلة معى ..

- عندى ميعاد مع واحدة زى القمر .. ح أبقى أفوت عليك قريب .. يمكن أخليك تشوفها ..

شعرت أنى وحيد ، لا صلة لى بأحد فى هذه الدنيا ، سوى هذا البناء ، ومحمد ناجى ، وتلك الفتاة التى لا أعرفها وأنتظرها وافتح لها الباب بالمفتاح ..

عدت مبكراً إلى البنسيون ، وحاولت القراءة ، ولكن الحزن طغى علىّ ، وفى الصباح زرت قبر أبى وبكيت ..

والتقيت بمبروكة فى المحكمة ، كانت مع الشيخ دسوقى جالسة على دكة خشبية ، لم أكن أتوقع رؤيتها ، ووقفت بعيداً عنها أتشاغل بالحديث مع الشيخ دسوقى ، فجأة كانت واقفة بيننا وابنها فوق كتفها ..

- كتر خيرك ياسى يوسف .. برضه عملت اللى عليك .. وسألت عنى وعن أخوك ..

وحملت الطفل بين يديها وهزته فى وجهى .

- هو ده موش ابن عبد الحميد .. موش لحمك ودمك ..

الفضيحة مازالت تجلجل ، صرخت فى حدة ..

- أنت عايزه منى إيه .. لو تمادت فسأصفعها على وجهها وأخرج ..

- عيب تقول الكلام ده .. خلى ابوك يستريح فى نومته ..

- ماليكش دعوة بأبويا .. عايزه إيه أكتر من كده ..

تراجعت قائلة :

- الله يسامحك ..

لن أضيع حياتى من أجلك ، ابعدى أيتها الخادمة ، لا تعترضى حياتى ، أنا لا أريد منك شيئاً .. أتريدين قتلى بعد أبى ..

قضيت النهار كله مضطرباً .. اتصلت بمدحت فوعدنى بأن يمر علىّ فى المساء ..

وجاء المساء ، وهبطت إليه ، كانت تركب معه فتاة حلوة .. قبل أن اركب العربة ، كان خاطرا مجنونا يقول لى ، هذه هى الفتاة المجهولة التى ينتظرها المفتاح ..



الفصـــل الســـابـع

مسكينة سامية ..

كان اسمها فى ذلك الوقت ، بهية ، مجرد بنت خلوة تجلس بجوار مدحت فى عربته ، لا يخطر ببالها شىء ، ولا تتوقع أى شىء ، ثم جئت أنا .. الغريب الذى هبط من جريدة الأيام ، لا أكاد أجسر على النظر إليها ، يمنعنى خجلى من أن أوجه إليها التحية ، وأجلس خلفها ، لا أعرفها ولا تعرفنى ، ومع ذلك تراودنى بالنسبة لها أغرب الأفكار .

الشىء المخجل حقا ، الرائع حقا أن كل ما فكرت فيه قد تحقق فعلا .

ماذا أقول ..

أليس هذا دليلا على أننا نعيش فى دنيا مخجلة رائعة .

كان لقاؤنا سخيفا ، مرهقا ، كنت مرتبكا ، وظنت هى أنى من النوع المغرور ، المتكبر ، وبدا أنها تضيق بى ، أما أنا ، فكنت أقول لنفسى ، مثل هذه البنت هى التى تصلح لأن تذهب معى إلى شقة محمد ناجى .. كيف أحصل عليها هل استطيع أن أقنعها بالتخلى عن مدحت والالتفات إلىّ ، أترضى بى ، أو لعل مدحت يرضى بأن أشاركه فيها ..

وكان يحيرنى أنى لا أعرف كيف أشرع فى تنفيذ ما أفكر فيه ، وأشعر بعجز كامل عن التصرف .

قلت لنفسى مشجعاً ، لقد تغيرت الآن ، لم أعد الشاب البرىء الساذج أنا

مغامر جديد ، خرج إلى الدنيا حديثا ، خرج إلى ميدان الحرب ، ليحارب ويصبح قويا وغنيا ، ولقد نصحني محمد ناجي بأن أبحث عن امرأة تعلمني الحياة ، وأنا لا أجد هذه المرأة ، ولا أعرف كيف أعثر عليها ، قضيت حياتي بلا نساء لم أعرف سوى أمي وقد ماتت ، وسعاد وقد تزوجت غيري ، ومبروكة وقد صرعت أبي وتريد أن تصرعني .

عرفت سوزي أيضاً ، ولكنها مبتذلة ، رخيصة ، إنها ليست امرأة ، جسد ميت لا يعطي ولن يعلمني .. لن يعلمني على الأقل الانتصار .

تجربتي الوحيدة هي حب ساذج لشقيقة مدحت ، حب صدمني وجعلني أنطوي على نفسي وأنكمش كنت أتوهم أن الحب هو الزواج هو أن اكبر وأصبح أبا مثل أبي وتصبح سعاد أما مثل أمي ، أحلام طفل ، وخيالات مراهق عبيط كان أملا لا حبا ، صورة أرسمها للمستقبل ، لا حياة أعيشها بلحمي ودمي .. وأنا الآن وراء تجربة من نوع آخر ، أريد أن اقتحم الجسد ، لأتعلم كيف اقتحم الحياة أتحدى خوفي من الجسد ، لأتحدى خوفي من الحياة ، أتعلم كيف انتصر على المرأة ، أعاملها بلا زواج ، بلا هدف ، سوى أن أشعر بأنانيتي ، وبقدرتي على أن أبهرها وأسيطر عليها ، وأجعلها تلهث ورائي وتستسلم لانتصاري ..

سألتني بصوت بارد ..

ـ الأستاذ يحب يروح فين .. نذهب إلى أي مكان .. لا .. تذهبين معي إلى الشقة ، حيث أخدعك ، وأظهر أمامك كعاشق ليس مثله عاشق ، أسحرك ، أجعلك تنظرين إليّ فاغرة فمك في بلاهة وغباء ، تترقبين مني الكلمة والإشارة ، تتمرغين عند قدمي في لذة وألم وخضوع ..

هل أنا سافل .. ربما .. على أية حال ، لا وقت عندي للإجابة على مثل هذا السؤال ، لا يفزعني أن اكون سافلاً ، أو حيوانا ، اللص الذي سيسرقك من مدحت كامن في عقلي ، المغامر الذي سيستغلك يتحفز في داخلي ، سأقضي عليك ، سأمتص كل حلاوتك ، سأمضغك .. قد أكون سافلا .. قد أكون

يائسا ، ولكني أريد أن أعيش .. لابد أن أعيش مثل الآخرين .. لقد مضى شبابي دون أن أقرب امرأة ، وهذا يعني أني شاذ ، وخامل ، وأن الهزيمة قد لحقت بي قبل أن أخوض المعركة .. محمد ناجي على حق .. كيف أنتصر على الحياة إذا لم أنتصر على امرأة .

ولكن هذه البنت ليست لي ، إنها فتاة مدحت ، لقد تعديت حدود السفالة إلى حدود الجنون ، ما الذي يضطر مثلها إلى التفكير في ، مدحت أفضل مني في كل شيء .. العربة التي يقودها .. النقود التي تملأ جيبه .. خبرته وتجاربه .. أنا لم أرقص في حياتي مرة واحدة .. ولو انفردت بها فستكشف جهلي في لحظات .. ستفضحني ..

ـ الأستاذ بيكتب في الجرنال ..

ـ لسه بخبط .. ساعة أكتب جريمة .. ساعة أكتب أخبار فن

أعني أني لم أشتهر بعد ، مازلت مغمورا .. لا ... لست مثل محمد ناجي الذي تقرأين له .. أتسخرين مني .. أرى السخرية في عينيك ، أسمع التهكم في نبرات صوتك .. من أنت ..

ـ أنا عايزك تكتب عن بهية ..

ما الذي أكتبه يا مدحت .. أهي ممثلة حقا .. هذا خبر مدهش ..

همست والراحة تغمرني والدهشة في صوتي ..

ـ كده ...

غضبت لأني لم أصدق أنها ممثلة .. ولكني استرحت الآن .. لقد ازداد أملي في استيلائي عليك ، أنا الذي يكتب عن الممثلات . أستطيع أن أرفعك .. أنشر اسمك وأجعلك تشتهرين .. أستطيع أن أقدم لك كل ما تتمنينه .. مدحت لن يساعدك في هذا .. إني مجرم .. خواطري حقيرة .. تنحدر بي إلى الحضيض .. أهذه هي المهارة المطلوبة مني .. ألا يوجد حل شريف آخر .. يجعلني أعيش شريفا وناجحا في نفس الوقت ..

كانت العربة منطلقة بنا في طريق الهرم ، والحديث بيننا غريب وأفكاري المحمومة لا صلة لها بمظهري الجامد المؤدب ، والعربة تصعد المرتفع في

نهاية الطريق ، فأشعر بالاختناق ، عيبي الكبير أني أعي بالجريمة ، إني مازلت أشعر بالحنين إلى أيام البلاهة .. أجمل أيام حياتي هي تلك التي قضيتها مع أمي ، لا أريد أن ألوث هذا الطفل الذي كان ، أأتنازل عن كل شيء ، أذهب لمحمد ناجي وأعترف له بحقيقتي ، أقول له إني لن أستطيع المضي ، وإني لا أريد شيئا منه ، ولا من أحد غيره ، كانت العربة قد وقفت ، ففتحت بابها وانطلقت هاربا من نفسي ، ومشيت في الظلام .

أنا وحيد ..

ترى ما الذي تهمس به في أذن مدحت الآن ، أتسخر مني .. انسيتني .. أتقول لمدحت أني سخيف ، وإني أفسد ليلتها .. فلأمش مبتعدا .. لعله يقبلها الآن .. أين أنت أيتها الفتاة التي سأقابلها لتعلمني الحياة .. أتخرجين لي من جوف الظلام ، من جوف الهرم .. الطريق موحش .. كالوحشة في قلبي .. ما الذي يعجب المرأة في الرجل .. سيارته .. سرعة بديهته ونكاته الضاحكة .. نقوده .. خبرته .. لا أملك شيئا من هذا كله .. ولكني سأحصل على كل شيء .. لابد أن أحصل على كل شيء .. أو ابتعد عن الناس .. اختفي بين هذه الصخور وأغيب عنهم إلى الأبد ، يفترسني ذئب ، او يقرصني ثعبان . أو ادفن نفسي في قبر ..

سأجن ..

لابد أن أعود فالظلام رهيب .. فوجئت أنها قلقة عليَّ .. صاحت .

– رحت فين .. موش خايف من العفاريت ..

أنا خائف منك أنتِ ، وخائف من نفسي .. ولكني أعتذر لك عن كل الأفكار السوداء الخبيثة التي دارت في رأسي .. لن أمسك بسوء .. لا شأن لي بك ، فأنت بنت طيبة ، لأنك تقلقين عليَّ .. ما أغرب هذا الكلام ، من الذي أخدعه بهذا الكلام ..

أقول إني لن أمسها بسوء ، كأني قادر على أن أمسها بسوء . إني لا أستطيع ، غير قادر على شيء ... إني لن أمسها بسوء لأني عاجز ، لأنها

ليست لي ، ولا تفكر في .. لا تدع الطيبة يا يوسف .. لا تتحول إلى شخص مثالي لأنك فشلت في أن تكون شخصا سافلا .. آه .. مصيبتي أني أفكر .. اني أعي .. اني أراقب نفسي ، صوتها مرح ، تضحك من قلبها .. قالت فجأة إنها حامل وتنتظر طفلتها بعد سبعة أشهر ، صعقتني جرأتها وفرحت لأن مدحت أصابه ما أصابني ، كم أنا مغفل ، أتهم نفسي بكل الشرور ، والناس تضحك متباهية بشرورها ، إنها تفخر بالجنين الذي في بطنها ، وتعترف بأنها لا تدري من يكون أبوه .. منير .. مدحت .. يوسف ..

هذا مستحيل .. إنها تقول في جرأة متناهية إنها قد تسمي بنتها يوسفية يوسف .. كان هناك احتمالا في أن تكون بيننا علاقة . إنها لا تمانع ..

مستحيل .. لا يمكن أن تصل بها الجرأة إلى هذا الحد .. مستحيل .. إنها تعبث بنا .. ولكنه عبث فاضح .. عبث فتاة بلا حياء .. إنها تتكلم في وقاحة الرجال ، وأنا أنصت إليها في ذعر العذارى .. لا .. إنها تعني شيئا آخر .. آه .. إنها لا تبحث عن اسم لجنينها .. انها تبحث عن اسم سينمائي جديد لها ..

صمت .

– أنتِ بتدوري على اسم جديد للسينما ..

صاحت مهللة ، وقالت لمدحت إني أذكى منه ، ووجدتني انظر إليها في إعجاب ..

ليلتها أصرت على الذهاب إلى الاستوديو ، لأنها وعدت المخرج حلمي كامل بالمرور عليه ، وكانت فرصتي لأتظاهر أمامها بأني صحفي مهم ، دخلت معها البلاتوه ، فهجم عليَّ أنور سامي يقبلني ، ووقفت عامداً مع هدى مراد أضحك معها على غير عادتي ، كنت مرحا ، مزهوا بنفسي ، أريد أن أثبت لها في كل لحظة ، أني لست الشخص المغمور ، وأن كل هؤلاء الفنانين الكبار يعرفونني ويرحبون بي ، وإنها كما لا تعرفني ، فأنا أيضا لا أعرفها .. لإنها مازالت مغمورة ، مجرد كومبارس تافه .

ونجحت في تحقيق هدفي ، إذ وقفت هي بعيداً عنا ، لا تجسر على الاقتراب منا ، حتى رثيت لها وخطر لي انها قد تكون كاذبة ، لا تعرف احداً في البلاتوه ، وتملكتني رغبة خبيثة في كشف أمرها ، فناديتها ، تقدمت منا مضطربة خجلة ، ولكنها كانت صادقة ، كان حلمي كامل يبحث لها فعلا عن اسم جديد .

واختار لها أنور سامي اسم سامية سامي ، قال في غرور إنه سيتبناها ويمنحها اسمه ، حتى يساعدها وتشتهر ، كان واضحا أن أنور قد أعجب بجمالها ، وغاظني قدرته الخاطفة على استغلال الموقف ، إنه يفعل في بساطة معجزة ، وفي لحظات سريعة ، كل ما عجزت أنا عن الوصول إليه ، استطاع أن يرتبط بها ، ولاشك في أنه غداً سيأخذها معه إلى بيته كان الجميع يدركون هذه الحقيقة ، هدى مراد تبتسم في اشمئزاز من شراهة أنور ، وحلمي كامل يقول ساخرا لأنور :

- دى موش قدك ..

وأنا الوحيد الذي كتم غيظه ، وتظاهر بأنه لا يفهم شيئا ، بل إنني صحت في مرح كاذب معلنا أني سأنشر الخبر .

عندما يبلغ العجز مداه ، لا يستطيع العاجز الا أن يهلل لانتصارات غيره ، نعم سأنشر الخبر .. أنور سامي يتبنى سامية سامي الممثلة الناشئة ، النجمة الجديدة ، سأسجل انتصارك يا أنور ، سأساعدك في الوصول إليها ، سأفعل هذا لأنه يؤلمني ، لأنه يعاقبني على ضعفي ، لأنه يفضح تعففي الكاذب ، وأدبي العبيط ..

وتركت بهية التي أصبحت سامية مع أنور وحلمي ، وقضيت ليلتي أهذي وأرثي لحالي ..

مضى يومان ، ويوسف البريء هو الذي يحتل جسدي ، لن أنشر حرفا واحدا عن هذه الفتاة ، سأثبت لها أن أنور لن يساعدها في شيء ، ستفتح جريدة الايام يوما بعد يوم ، تبحث عن اسمها فلا تجده ، وستشعر بخيبة أمل ، وستشكو لمدحت ، فاعترف له بأني احميها ، أنور سامي سمعته سيئة

ولو ارتبط اسمها به ، فلذلك تفسير واحد في أذهان الجميع ، إنها أصبحت عشيقته ، وسأقترح عليها اسما آخر ، منى منير ، كما كانت تقول هي ، أوليلى فاضل ..

لولا مدحت لاخترت لها اسم سعاد راتب .

سألت محمد ناجي ، وكنت منفردا به كعادتي كل صباح .

- إيه رأيك في اسم منى منير للسينما .
- لمعت عيناه في خبث وسألني .
- إيه .. عرفت واحدة ..
- اطرقت في خجل ،
- فصاح مبروك .. هيه .. وخدتها الشقة ..
- لا ..
- أمال إيه حكاية الاسم ..
- الحقيقة أنا في ورطة ..
- عظيم .. قولي ..
- الحكاية موش زى ما أنت فاهم قال منزعجا :
- أمال إيه ..

قلت في ضيق :

- أنور سامي بيعاكس بنت كومبارس عايزين يكبروها .. اسمها بهية .. وأنور عايز يخلي اسمها سامية سامي .. على اسمه .. وأنا عارف أن الخبر كويس ومثير .. كل الناس ح تضحك لما تقرأه . وتقول أدى واحدة جديدة أنور اصطادها ..

قال في وجوم :

- وبعدين ..

قلت في عصبية :

- أنا موش عايز أنشر الخبر . حاسس زى ما أكون بأساعد أنور على ..

وقطعت كلامي ، كان الغيظ قد ملأ فمي ..

صاح ساخراً :

ـ أنت موش ح تبطل مشيخة .. الخبر ده عندك من امتى ..

ـ من أول امبارح ..

اصفر وجهه وقال محتدا :

ـ يعني كويس لما تنشره الجرايد التانية .. إحنا بتهزر .. لو كان تفكيرك بالشكل ده .. روح اشتغل مع شيخ الأزهر .. دى غلطة فظيعة اللى عملتها ..

كانت أول مرة يحتد فيها علىّ فخفت ، ودفعني خوفي إلى جرأة مجنونة ..

قلت بصوت قوى :

ـ أنا موش شيخ ولا حاجة ..

ـ طيب مانشرتش الخبر ليه ..

ـ علشان متغاظ ..

ـ من إيه ..

ـ البنت دى أنا باحبها .. وأنا اللى معرفها بيه ..

باغته اعتراف ، تراجع بظهره إلى الوراء ، ثم انحنى إلى الأمام وضحك ثم قطع ضحكته ، ونهض من مقعده وجاء وجلس بجوارى .. وقال محاولا ان يحتفظ بمظهر هادىء :

ـ بتحبها .. يعنى إيه ..

ـ بأحبها ..

ـ أيوه .. لكن أنا بأسأل .. فيه عندك مشروعات أكثر من الحب .

ـ زى إيه ..

ـ عايز تتجوزها مثلا ..

ـ لا ..

ضحك قائلا :

ـ أمال إيه اللى مزعلك .. عايزها لواحدك .. أنت صعب قوى .. أنا لو منك أفرح لما واحدة زى دى تلاقى واحد تانى وقالت .. يشيل عنك شوية من مصاريفها .. ويريحك منها .. تعرف .. مافيش أرذل من الست المخلصة ..

كل شوية تسأل عنك فى التليفون .. ورحت فين .. وجيت منين .. وأسئلة واستجوابات وتحقيقات .. دوشة .. إيه اللى يخليك تجيبها فوق راسك ..

ـ بس ...

ـ لا بس ولا حاجة .. أنا سألتك سؤال محدد صريح .. عايز تتجوزها .. قلتلى لا ... يبقى خلاص .. انشر الخبر .

وربت على كتفى وقال :

ـ أنا متأسف .. أعتذر لك .. كان لك حق تتردد فى نشر الخبر .. لو كنت مكانك .. كنت اترددت .. كده مفهوم .. موش تمتنع عن نشر الخبر علشان فوق راسك عمة التقى والورع .. كانت تبقى مصيبة ..

ونشرت الخبر .. وكان أنور سامى أول من اتصل بى فى الصباح ليشكر لى ..

قلت له وأنا أتحول إلى يوسف الشرير :

ـ عايزين اخبار تانية عنك وسامية ..

ـ أنا تحت أمرك ..

قلت وفى فمى مرارة :

ـ خبر مثير .. والا فضيحة .. صاح ..

ـ يانهار أسود .. يعنى أموتها ..

ثم همس ..

ـ أنا ح أكلمها دلوقت .. وح أعزمها الليلة .. وح أبات طول الليل أدعى لك ..

ضحكت فى بلاهة .. ومضى هو قائلا :

ـ بنت لذيذة .. موش كده .

ـ فعلا .. إنما إيه رأيك فيها كممثلة ..

ـ ممثلة مين ياعم .. ده كله تمثيل .

كدت احطم فنجان القهوة ، تعلم ياغبى . انظر كيف يتصرفون ، ها هو أنور النجم العظيم اللامع المشهور ، يلقنك درسا فى الحياة .. اكتف أنت بالجلوس

في مقاعد المتفرجين ، الا تعرف إلى اى مدى بلغ فشلك .. إنت تدعى الآن أمام محمد ناجى أنك تحبها ، تدعى أنك على علاقة بها ، تكذب لتنفى عنك تهمة البراءة ، تتظاهر بأنك خبيث تفكر في سفالتك وانت بعيد عن السفالة .. أزمتك الحقيقية انك مازالت رجلا شريفا .. مازلت طفلا لكن الخديعة لن تدوم ، سينكشف كل شيء .. سيفضح كذبك وسيعلمون أنك صادق .. ستظهر براءتك .. ويطردك . محمد ناجى لتعمل في مشيخة الأزهر .. لو أردت أن تستمر فلابد أن تذهب بسامية إلى شقة محمد ناجى .. هى أو أى واحدة غيرها .. تصرف بسرعة .. قبل فوات الأوان ..

سألنى محمد ناجى ..

كلمتك ؟

- أنور كلمنى ..
- تعرف انى متغاظ زيك .. أنا عايز أعمل فيه فصل ..
- على إيه ..
- يعنى أنت موش متضايق ..
- لا ..
- بلاش كذب .. أنت باين عليك بتحبها أكتر ما كنت فاكر .. اسمع .. خدها النهاردة الشقة .
- أنور عازمها بالليل ..

صاح غاضبا :

- خدها الضهر .. العصر .. إنما لازم تأخذها .. كرامتنا متوقفة عليك ..

وضحك ...

لم اكن اتوقع ان محمد ناجى سيهتم كل هذا الاهتمام بقصتى التى اخترعتها .. لقد أصبحت معرضا للخطر .. إذا لم أواصل الكذب عليه .. فسيتدخل أكثر وأكثر .. وربما فاتح انور سامى .. وربما اتصل بسامية .. إنى في مأزق ..

حاولت أن أقنع نفسى بالاتصال بسامية ، إنها سترحب بى ، فقد نشرت

اسمها وصورتها .. ولكنى أشعر بالتقزز .. كأنى سأضع في فمى طعاما مضغة غيرى .. سأبتلع بصقات أنور سامى ..

وأنا غارق في حيرتى ، دق جرس التليفون ، وسمعت صوت موظف الاستعلامات يقول لى : إن مبروكة هنا .. تنتظر في البهو بمدخل البناء .. المصائب لا تأتى فرادى .. كدت انكر وجودى ، او أطلب منه أن يطردها ، ولكن شيئا غامضا دفعنى إلى مقابلتها .. انتابنى شعور مفاجيء بالشفقة عليها ..

لم أصدق انى ابتسم في وجهها وأمد يدى لها بالنقود ، وأعدها بزيارتها في البيت لأذهب معها إلى إدارة المعاشات .. ودققت النظر في وجه إبراهيم أخى .. فيه الكثير من ملامح أبى ، واسترحت لوجهه ، وكدت أمد أصبعى والمس خده ، كانت مبروكة ترقبنى في ارتياب ، ولكنى كلمتها في حرارة .. لماذا لا اساعدها ، وأخلصها من ورطتها .. ومن يدرى ، قد يكون لها معاش ، إن الدنيا كريهة ، والناس تتقاتل كالحيوانات المسعورة وهى في حاجة إلى قرش ولقمة عيش .. لا تخافى يا مبروكة .. سأساعدك .. سأخلصك من ورطتك .. فقط أريد أن تبتعدى ، وأن تخرجى من هنا بسرعة قبل أن يرانا أحد .. فأنا ايضا في ورطة .. إنى أعيش هنا بالأكاذيب .. وهى حياة ليست سهلة .. كل يوم اتورط في كذب جديد .. إن مهمتى الآن ، هى أن أقنع نفسى بأن أكاذيبى هى الحقيقة .. وهذا شيء مرهق .. ربما كان الأفضل أن أعترف بك يا مبروكة .. ليتنى أستطيع ان افعل هذا .. ولكن الثمن ضخم .. سأتخلى عن كل شيء .. ولن أفيدك .. ربما كنت عبئاً عليك وعلى ابنك .. لن أفيدك يا أخى .. لو تخليت عن حياتى هنا فسأشاركك قروشك القليلة التى ستعيش بها .. بل ربما اضطررت إلى خطفها منك .. لا فائدة .. يجب أن نبتعد .. فكلانا يحارب .. ولو اجتمعنا فسنجمع بين ضعفنا وعجزنا .. أملنا الوحيد أن نفترق .. ليتفرق ضعفنا .. ولنستطيع أن نكذب بجرأة .. وبصوت جهير .. بعيداً عن الشهود الذين يعلمون اننا نكذب ..

لم ينتبه احد إلى حضور مبروكة وخروجها ، ولم اكترث كثيراً بمجيئها ، إذ

كنت أستطيع أن أكذب وأقول إنها خادمتى ، ما أسهل الكذب الآن .. إنه لا يكلفنى إلا المزيد من الكذب .

وصعدت إلى حجرتى لأجد التليفون يدق فى إصرار .. كان المتكلم مدحت .. قال إنه ذاهب مع سامية إلى حمام النادى الأهلى .. ودعانى للحاق بهما .. قبلت فى الحال ...

وجريت إلى محمد ناجى ..

- عن إذنك .. أنا خارج ...
- على فين ...
- رايح أقابلها ...
- برافو .. اسمع أنا فكرت .. إيه رأيك لو أضرب تليفون .. لكام واحدة من اللى يعرفهم أنور .. وأقوللهم يروحوله البيت .. وسامية عنده ..

نظرت إليه فى فزع .. فقال :

- موش موافق ..
- أنا خايف عليها ..

تنهد قائلاً ..

- طيب بلاش .. أنا خايف عليك أنت .. حبك باين عليه بيتطور ..

وتركته مسرعا إلى النادى الأهلى .. وأنا أعجب من غباء محمد ناجى .. بدأ يخشى من تطور حبى لسامية .. وحبى لم يبدأ بعد ...

●●

ألقى مدحت بنفسه فى حوض السباحة وتركنى وحدى مع سامية ، كانت ترتدى المايوه ، جسدها العارى يواجهنى ، يتحدانى ، إنه قوة خارقة قاهرة . كيف يتعامل الرجل مع مثل هذا الجسد .. لا أعرف .. إنه يثير خيالى الجامح ، ولكنه يخيفنى ويملأنى رهبة ..

كانت تضحك ، وتتحدث فى بساطة وثقة المرأة صاحبة الجسد الجميل ،

سألتنى فجأة عن الحب ، فكرت بسرعة ، أهى تغازلنى ، أتمهد لى الطريق ، الشقاوة فى عينيها تؤكد لى هذا ، الفتنة فى جسدها تسألنى أن أرتفع إلى مستواها ، لابد أن أبحث عن نكتة .. كلمة ساخرة تضحكها ، أنظر فى عينيها وأقول لها باحبك .. أقولها كمجرد دعابة .. اعترافا بجسدها .. بمعجزتها .. ولكنى لا أستطيع .

أنا هو أنا ..

مهما فكرت ، مهما حاولت أن أغير نفسى ..

الشىء الوحيد الذى أجيده هو أن أعبر لها عن الحب الساذج الذى عرفته يوما ما ، كل ما أقوله الآن يجب أن يكون جيدا متقنا حتى ولو كان يفضح سذاجتى ..

حدثتها عن سعاد .. عن الفتاة التى أحببتها وتزوجت غيرى ، وفوجئت بأن كلامى قد خدعها ، جعلها تتوهم أنى دون جوان خطير يحب المتزوجات ، وغاظنى دهشتها وأنها مترددة فى تصديقى .. ولكنى الححت وتكلمت بحرارة وإخلاص .. كنت واثقا من نفسى .. لأنى أقول الصدق ولأنى أعرف أن كلامى يخدعها ..

فجأة ، سألتنى بصوت شارد عن الحنان .. نفذ السؤال إلى قلبى .. أهى ساذجة مثلى .. ضعيفة مثلى .. ما الذى يضطر هذا الجسد إلى السؤال عن الحنان .. إنه جسد الحب العنيف ، جسد الرغبات الجامحة جسد اللذة النهمة .. ماله ومال الحنان .. أكل هذه الفتنة والشقاوة مجرد مظهر كاذب لقلب مسكين يبحث عن الحنان ..

أتخدعنى كما أخدعها .. إن أنور سامى سيعبث بهذا الجسد الليلة .

لن أتراجع ، أنا لا أملك الآن سوى أن أرسم لها صورة مثالية عنى .. صورة الشاب الذى لا يفكر فى مغازلتها .. الذى ينشر أخبارها وصورها ولا يتقاضى الثمن .. الشاب الذى يتكلم فى حرارة وصدق ويحب واحدة غيرها ويتعذب فى حبه ولا يفكر فى خيانته .. الشاب الجاد الذى لا يضحك ولا يسخر وإنما يقول كلاماً جاداً ..

كنت أستطيع أن أكذب وأقول إنها خادمتى ، ما أسهل الكذب الآن .. إنه لا يكلفنى إلا المزيد من الكذب .

وصعدت إلى حجرتي لأجد التليفون يدق في إصرار .. كان المتكلم مدحت .. قال إنه ذاهب مع سامية إلى حمام النادى الأهلى .. ودعانى للحاق بهما .. قبلت في الحال ...

وجريت إلى محمد ناجي ..

- عن إذنك .. أنا خارج ...
- على فين ...
- رايح أقابلها ...
- برافو .. اسمع أنا فكرت .. إيه رأيك لو أضرب تليفون .. لكام واحدة من اللى يعرفهم أنور .. وأقوللهم يروحوله البيت .. وسامية عنده ..

نظرت إليه في فزع .. فقال :

- موش موافق ..
- أنا خايف عليها ..

تنهد قائلاً ..

- طيب بلاش .. أنا خايف عليك أنت .. حبك باين عليه بيتطور ..

وتركته مسرعا إلى النادى الأهلى .. وأنا أعجب من غباء محمد ناجي .. بدأ يخشى من تطور حبي لسامية .. وحبي لم يبدأ بعد ...

●●

ألقى مدحت بنفسه في حوض السباحة وتركني وحدي مع سامية ، كانت ترتدى المايوه ، جسدها العارى يواجهنى ، يتحدانى ، إنه قوة خارقة قاهرة . كيف يتعامل الرجل مع مثل هذا الجسد .. لا أعرف .. إنه يثير خيالى الجامح ، ولكنه يخيفنى ويملأنى رهبة ..

كانت تضحك ، وتتحدث في بساطة وثقة المرأة صاحبة الجسد الجميل ،

سألتنى فجأة عن الحب . فكرت بسرعة ، أهى تغازلنى ، أتمهد لى الطريق ، الشقاوة في عينيها تؤكد لى هذا ، الفتنة في جسدها تسألنى أن أرتفع إلى مستواها ، لابد أن أبحث عن نكتة .. كلمة ساخرة تضحكها ، أنظر في عينيها وأقول لها باحبك .. أقولها كمجرد دعابة .. اعترافا بجسدها .. بمعجزتها .. ولكنى لا أستطيع .

أنا هو أنا ..

مهما فكرت ، مهما حاولت أن أغير نفسى ..

الشيء الوحيد الذى أجيده هو أن أعبر لها عن الحب الساذج الذى عرفته يوما ما ، كل ما أقوله الآن يجب أن يكون جيداً متقنا حتى ولو كان يفضح سذاجتى ..

حدثتها عن سعاد .. عن الفتاة التي أحببتها وتزوجت غيرى ، وفوجئت بأن كلامي قد خدعها ، جعلها تتوهم أني دون جوان خطير يحب المتزوجات ، وغاظنى دهشتها وأنها مترددة في تصديقي .. ولكني الححت وتكلمت بحرارة وإخلاص .. كنت واثقا من نفسي .. لأنى أقول الصدق ولأني أعرف أن كلامي يخدعها ..

فجأة ، سألتني بصوت شارد عن الحنان .. نفذ السؤال إلى قلبي .. أهى ساذجة مثلى .. ضعيفة مثلى .. ما الذى يضطر هذا الجسد إلى السؤال عن الحنان .. إنه جسد الحب العنيف ، جسد الرغبات الجامحة جسد اللذة النهمة .. ماله ومال الحنان .. أكل هذه الفتنة والشقاوة مجرد مظهر كاذب لقلب مسكين يبحث عن الحنان ..

أتخدعنى كما أخدعها .. إن أنور سامى سيعبث بهذا الجسد الليلة .

لن أتراجع ، أنا لا أملك الآن سوى أن أرسم لها صورة مثالية عنى .. صورة الشاب الذى لا يفكر في مغازلتها .. الذى ينشر أخبارها وصورها ولا يتقاضى الثمن .. الشاب الذى يتكلم في حرارة وصدق ويحب واحدة غيرها ويتعذب في حبه ولا يفكر في خيانته .. الشاب الجاد الذى لا يضحك ولا يسخر وإنما يقول كلاماً جادا ..

لم اقل له انى قررت ألا اراها .. تخليت عنها لانى لست قادراً على ذلك الجسد القهار ..

ولكنى قادر على أن أخترع له المزيد من القصص الوهمية عن سامية فى اليوم التالى .. قلت له :

ـ أنا رايح الشقة النهاردة ..

صاح مهللا :

ـ أخيراً .. امتى ح تروح ..

ـ بعد الظهر ..

ـ شد حيلك ..

وربت على كتفى ، وقضى وقتا طويلاً ، وهو يشرح لى تفاصيل شقته .. الكلمات تملأ فمه كطعام لذيذ سأجد زجاجات البيرة فى الثلاجة والويسكى فى البـار ، والمناشف فى دولاب بـالحمام .. ونصحنى بـألا أكثر من شرب الويسكى .. يكفينى كإنسان .. كان قلقاً ، كأنه هو الذى سيذهب لأول مرة ، ضحكت فى سرى ، وقال وأنا أودعه والحسرة فى عينيه ..

ـ أنا عملت أكتر من كده بكتير وتنهد ثم قال فى عصبية :

ـ روح .. بلاش الخرك لما ترجع ابقى أحكى لك ..

فتحت الباب ، فقابلنى بيت معتم أثاثه ضخم وقور ، ستائره وجدرانه خضراء .. ذهبت إلى الثلاجة وأخرجت زجاجة بيرة ، وفتحت البار وأخرجت زجاجة الويسكى .. وأعددت كأسين وملأت أحدهمـا بالبـيرة ، وصببت الويسكى فى الآخر ، وذهبت إلى حجرة النوم ، ونزعت الغطاء عن السرير ورقدت عليه وتمرغت ، كنت أشعر أنى فقدت عقلى ، ما هذا الذى أفعله أنا لا أصدق نفسى ، هل حدث هذا لأحد فى الدنيا غيرى ، هذه هى أول مرة فى التاريخ يذهب فيها شاب إلى جرسونيرة ليتظاهر بأنه قضى وقتا مثيراً مع فتاة ..

إنى شاذ ..

شاذ إلى درجة أن احداً لم يصدق شذوذى ..

لا أقل من أن أجعلها تحترمنى ، وتشعر برهبة نحوى ، مثل ما أشعر به من رهبة نحو جسدها ..

ماذا قلت لها ؟

لا أذكر .. كل ما أذكره أن تياراً دافئاً من الكلمات خرج من قلبى ، حدثتها عن الوحدة ، وعن حاجتى إلى الحنان ، وعن ضياعى وحيرتى فى هذه الدنيا .. قلت لها كلاما غريبا والدموع توشك أن تترقرق فى عينى ، وأنفاسى صاعدة هابطة حارقة .. كنت أتكلم وكأنى وحدى ، كنت بارعاً فى تمثيل أتظاهر بأنى وحدى ، مع أن كل ذرة فى جسدى تشعرنى بأنها قريبة منى ..

يومها حققت ما أريد ، أرهبتها كلماتى ، لفحتها حرارتى فضاعت الشقاوة من عينيها ، وتحول صوتها المرح إلى صوت هامس حائر وكأنها كبرت أعواماً خلال اللحظات التى قضيناها معا .. ورضيت عن نفسى وتركتها مع مدحت وقد قررت الا اتصل بها مرة أخرى .. لست واثقا أنى أستطيع تمثيل الدور بنجاح مرتين .

وجريت إلى محمد ناجى ، لأفرغ كل ما عندى من كبت ، اخترعت له ماتمنيت أن يكون بينى وبين سامية ، الحب الذى جرفنا فى النادى الأهلى القبلات الخاطفة التى تبادلناها ، العيون التى راقبتنا فى جزع وغضب .. الفضيحة التى ملأت النادى .. كنت أتكلم وعلى وجهى قناع البراءة وكان محمد ناجى سعيداً وهو ينصت إلىّ ، وعلى شفتيه سخرية حنونة ..

سألنى ..

ـ وبعدين ..

ـ وبعدين إيه ؟.

ـ رحت معاها الشقة ..

ـ لا ..

فأبدى امتعاضه ..

ـ ده كلام فارغ .. يعنى تشعللها وتسيبها لأنور .. الحب على طريقة قيس وليلى بطلوه ياأستاذ ..

عندى الشقة والمفتاح وعندى الفتاة التى استطيع أن أغازلها وادعوها .. وعندى الرغبة .. ثم لا أصنع سوى هذا الجنون .. ماهو ذلك الشيء الغريب الذى يسيطر علىّ ولا أفهمه .. لماذا أدعو سامية إلى هنا .. لماذا لا أدعو أية فتاة أخرى .. ترقد إلى جوارى على هذا السرير .. أعاملها كما يعامل الرجال النساء .. لو تجيء سامية .. لو كنت أنا محمد ناجى ..

لا .. لن أبدو ضعيفا أمام سامية .. سأظل ذلك الرجل المترفع المثالى .. لن أدعوها .. وليكن ما يكون ..

أفرغت نصف البيرة فى جوفى ، ونصفها فى البالوعة .. وتركت بقية من الويسكى فى الكأس .. وبللت منشفة ، وخرجت من الشقة سعيدا بالمغامرة التى ارتكبتها ولم ارتكبها ..

فكرت فى الذهاب إلى محمد ناجى لأروى له خيالى ، ولكني شعرت بالإرهاق فذهبت إلى البنسيون .. كانت مدام روز تستقبل بعض صديقاتها ، وارادت أن تقدم لى كأسا من النبيذ ، ولكنى فزعت ، ذكرنى النبيذ ، بالخمر التى سكبتها فى البالوعة ، أريد الانزواء فى حجرتى ، هاربا من كل شيء .

أغلقت باب حجرتى ، وبحثت عن كتاب أقراه ، كل الكتب سخيفة بلا طعم ، حتى روايات توفيق الحكيم .

عثرت على كتاب فلسفة ، فتحته وعذبت نفسي بمحاولة قراءة سطوره الغامضة .

لا أدرى ما الذى جعلنى أتذكر مبروكة ، لقد وعدتها أن أقابلها هذا الصباح ، ونسيت ، أأرتدى ملابسى وأذهب إليها الآن ، ترى ما الذى تقوله عنى ، هربت منها .. تكبرت عليها .. هه .. ليس فى هذا جديد .. ربما كان هذا أفضل ، كفانى ما أنا فيه ..

فى الصباح قال لى عامل التليفون إن مبروكة سألت عني أكثر من مرة ، فغضبت ، إنها لحوحة دنيئة ، صحت فيه أني لا أريد الاتصال بها ، ثم خطر لى أنها قد تكرر زيارتها للأيام ، فاتصلت بعبد الستار افندى موظف الاستعلامات ، وطلبت منه أن يطردها إذا جاءت ..

على الرغم من مشاكلى النفسية كنت ابذل جهدا مضاعفا فى عملى فلا يمر الصباح حتى اتصل بكل الفنانين والفنانات ، كل واحد أو واحدة يروى لى فضائح الآخرين .. وفى هذا الصباح بالذات كنت وراء أخبار أنور وسامية ..

ماذا تم بينهما بالأمس ..

سألت المخرج حلمى كامل :

- أنور كان فين امبارح ياحلمىّ ؟
- ليه .. أنت سمعت حاجة ..
- بيقولوا إنه واقع فى بت كومبارس ..

هتف ..

- أنت ح تلعب علىّ .. ماكان على إيدك الكلام ده ..
- سمعت أنه امبارح كان معاها .
- يمكن ..
- ماقالكش حاجة ؟
- لا .. ماشفتوش ..

ثم سألنى فى قلق :

- أنت عايز تعمل إيه ؟
- خايف لا يتجوزها ويفوتنى الخبر ..

ضحك ضحكة عريضة وصاح ساخرا :

- إيه .. يتجوزها .. هوه ده معقول .. أنور موش عبيط ..
- والبنت موش عبيطة ..
- أبدا والله .. دى غلبانة .. وصعبان علىّ حالها ..

استرحت لكلام حلمى ، ليتنى أستطيع أن أصدقه .. ليتنى أستطيع أن أصدق سامية وهى تتحدث عن حاجتها إلى الحنان ..

لو كانت غلبانة كما يقول حلمى .. فهى فى خطر ، بل هى كانت بالأمس فى خطر ، لقد سألتنى عن الحنان لأنها فى حاجة بائسة إليه ، كانت تبحث يائسة عنه قبل أن تقابل أنور .. لعلها ظنت أنى أستطيع مساعدتها ..

إني غبي ..

لم أفكر إلا في نفسي ، لم أقل لها شيئاً يساعدها على الصمود ، لو كنت أعلم ..

ماذا جرى لي .. إني أفكر .. كما لو كنت احبها .. يجب أن أعرف ما حدث لها بالأمس ..

واتصلت بأنور ..

- هيه .. عملت إيه مع سامية ..
- قصدك إيه ؟
- أنت موش قلت لي إنك ح تسهر معاها ليلة امبارح ..

قال في غير اكتراث :

- ياشيخ أنا كنت باهزر ..
- بذمتك ؟ ..

قال في استنكار :

- إيه اللي بذمتي .. ودي مين كمان علشان أجري وراها .. بنت جربوعة .. ماتسواش نكله ..
- غريبه !!
- إيه اللي غريب ياأستاذ .. دي بنت نعمات .. فاضي أنا للحاجات دي ..
- نعمات مين ؟
- ماتعرفهاش .. واحدة فاتحة بيتها للقمار .. حلمي كامل يحكي لك عنها .. ناس غلابة .. وشبلحين .. والله أنا باتندم اللي ربطت اسمي بيها .. حاجة تكسف .. إنما أعمل إيه .. الظاهر أن قلبي طيب أكتر من اللازم .. على العموم أنا سايب لكم البلد وماشي .
- رايح فين .
- بيروت .. أكتب الخبر وماتنساش الصورة والنبي ..

ضحك قلبي ، فرحت لأن شيئاً لم يحدث لسامية ..

بقي مدحت ..

ماعلاقته بها .. ايحبها .. أيفكر في الزواج منها .. ولماذا لا يتزوجها إذا كان يحبها فعلاً .

إن أفكارك غريبة يايوسف ، تقول لنفسك إنك لن ترى سامية ، ثم تفكر فيها والغيرة تأكلك .. تفكر فيها بإصرار وإلحاح .. كن صريحاً مع نفسك .. ماالذي تريده بالضبط منها ..

لا أدري .. لا أدري ..

واتصلت بمدحت ، وأعلنته بأني سأزوره في بيته ..

سألته كالمحموم :

- إيه حكايتك مع سامية ؟

ضحك في بلاهة وقال :

- إيه رأيك انت موش بت لذيذة .
- بتحبها ؟
- يعني ..
- حرام عليك دي غلبانة ..

كان صوتي يحمل أكثر من القلق .. كان مفعماً بالاتهام ..

نظر إليّ في دهشة وسأل :

- عايزني أعمل إيه ..
- لو كنت بتحبها اتجوزها ..

ضاقت عيناه في خبث وهمس :

- هيه اللي قالتلك كده ؟!
- لا ..
- أنا شايفها بتكلمك في النادي .
- ما جبناش سيرتك ..

لم يصدقني ، وسألني :

- تتجوزها أنت ..
- لو باحبها اتجوزها ..

صاح :

ـ إزاى تقول لى كلام زى كده .. أنت عارف دى بنت مين .. دول جيراننا وامها سمعتها فى الحتة زى الزفت .. اسأل إسماعيل .. اسأل عم عثمان .. أنا صايدها من الشارع ..

قلت فى ضيق :

ـ خلاص .. سيبك فى الموضوع ده ..

قال فى إصرار :

ـ لا .. أنا متأكد انها كلمتك .. ودى حاجة خطيرة .. دول ناس غجر ونصابين .. مين عارف .. يمكن دى خطة من أمها .. وبكرة تيجى تكلم ماما .. والا بابا ..

ثم قال بصوت خطير :

ـ أنا ح اقطع صلتى بيها ..

وفرحت ..

لم يعنني ، سوى أن صلاتها تنقطع بكل من تعرفهم ..

وصاح مدحت فى غيظ .. وهو يلاحظ ابتسامة هادئة على وجهى :

ـ ترضى إنك تتجوز ..

وقطع كلامه ، وظهر الارتباك عليه ..

أدركت ماطاف برأسه ، فجعله يعدل عن السؤال ، لقد تذكر أبى الذى تزوج مبروكة .. فقطع سؤاله حتى لا يجرحنى ..

وارتبكت أنا أيضاً ..

وأمضيت بقية اليوم ، والأفكار تراودنى ، إنى مندفع إلى حب سامية .. رغم كل ماسمعته عنها وعن أمها ، اندفع إلى حبها غير مكترث بشىء ، لا يعنينى سوى أنها تطلب الحنان .. وأنا أطلب الحنان .. هى وحيدة ضعيفة تتظاهر بجمالها القوى ، وأنا وحيد ضعيف أتظاهر بأنى صحفى كبير .. هى تخجل من أمها ، وأنا أخجل من أبى .. كلانا متشابهان .. لو كنت عاقلاً

لفررت منها كما فررت من مبروكة ..

سامية ومبروكة وأنا ..

لو اجتمعنا لبكينا على أنفسنا .. إننا ضائعون فى هذه الدنيا .. كل واحد منا يتظاهر ويتألم .. لا .. سأتركك ياسامية .. لن أتصل بك .. رغم أنى يريد أن أحبك .. رغم أنى أعلم أنك لن تحصلى على الحنان الذى تطلبينه إلا من شخص مثلى يفتقد الحنان ويشعر بأهميته ..

ولكن .. لا وقت للحنان .. إنه سيضيعنا .. سيذللنا ويخمد حماسنا .. فنتكاسل ونظل فقراء تعساء .. لابد أن نخمد الرغبات .. ولا نسمح لها بأن تضعفنا ..

اقتحم شوقى مكتبى صباح يوم وفى عينيه ثورة .. وهمس فى أذنى :

ـ مبروكة تحت عايزة تشوفك .

ـ مين قالك ؟

ـ هيه .. كلمتها ..

اغمضت عينى فزعاً .. هذا فوق احتمالى .. وقلت فى عناد :

ـ أنا مش عايز أشوفها ..

ـ عيب يايوسف ..

صحت ، محاولا أن أبدو كطفل حائر :

ـ موش عايز اشوفها ياأخى .. حد شريكى ..

خيل إلىّ أن شوقى يتلذذ من رؤيتى فى هذه الحال ، وينتقم من تجاهلى له فى الأسابيع الأخيرة .. لقد رآنى أنفصل عنه وأقترب من محمد ناجى .. وهاهو ذا يجذبنى يريد أن ينحدر بى إلى مبروكة ، قال فى الحاح مرهق :

لازم تساعدها ..

ـ باقولك لا ..

كنت أصرخ كالمجنون ..

ـ ولما تعمل لك فضيحة ..

ـ تعمل ..

ولكني تراجعت خائفاً مما قد يحدث .. فقلت متوسلاً :

– افهمني ياشوقي .. هيه فاكرة إن لها فى الحكومة معاش ونصحناها ميت مرة تروح البلد .. موش عايزه .. وبتدور على المعاش .. وفى الحقيقة مفيش معاش .. نقول لها كده .. مابتصدقش .. أعمل إيه بس .. مابتفهمش ..

صوب إلىَّ نظرة قاسية .. وقال من بين أسنانه فى حقد غريب :

– أنت واطى ..

همست فى ألم :

– الله يسامحك ..

وتركنى وخرجَ .. وتوقعت أن اسمع عن مبروكة .. أسمع صراخها يدوى فى البناء ، وأراها تقتحم الحجرة ، وخفت ، فنهضت لاطل عليها من النافذة .. رأيتها تتحدث مع شوقى وتسير معه فى الطريق .

قبل أن تختفي كنت أرى سامية مكانها ، كأنها هى التى تسير هناك فى نهاية الطريق ..

إلى أين تذهب سامية .. ما مصيرها ..

إلى أين تذهب مبروكة .. ما مصيرها ..

لن أثقل رأسى بالتفكير .. كل ما أعلمه أنى صامد هنا .. مصيرى هنا ..

فى المساء ، جاء شوقى يعتذر .

– أنا أسف يايوسف ..

أطرقت برأسى ولم أقل شيئاً .. ليته لا يصالحنى .. هذه هي فرصتى لأتخلص منه ..

ضحك قائلاً :

– حقك علىَّ .. أنا غلطت ..

تقابلت عيوننا ، فاضطررت إلى الابتسام .. هذه البسمة اللعينة تفلت بالرغم منى .. تذكرنى بأنى طيب .. ساذج ..

قلت :

– معلهش .

– على العموم أنا ح أريحها لك .. أنا عارف ظروفك ..

سألت فى قلق .

– قصدك إيه ؟!

قال مترددا :

– يعني فلوسك على قدك ..

أهذه حقيقة ما تعرفه عنى .. أم أنت تتغابى .. ظروفى أنى أخجل منها ، إنى لا أريد أن يعرف محمد ناجى شيئاً منها .. إنها تلوث صورتى .. تلطخ أحلامى .. هى وأنت وكل من عرف حياتى الماضية يجب أن يذهب .. يبتعد .. ليفسح لى المجال .. إنى أرسم صورة يوسف العظيم .. وأنتم تشوهون الصورة ..

سمعته يقول ..

– يمكن الاقى لها شقة على قدها فى بوابة المتولى ..

– عندك ..

– أيوه .. إيه رأيك ..

لا رأى لى .. إنها لا شيء ..

– ما عنديش رأى ..

– يعنى موافق ..

– تعمل اللى هيه عايزاه ..

حاول أن يتكلم بحرارة .. يريد أن يعيد الذى فقدناه ..

– أنت ح تسهر فين الليلة دى .

– هنا ..

– ماتيجى معايا الاستوديو ..

– مشغول ..

– أنا عايز أصالحك ..

– خلاص اتصالحنا ..

نظر إليّ في برود مفاجىء .. وقال :

ـ طيب أنا ماشي .. سعيدة ..

ـ سعيدة ..

أحسست وهو خارج من الحجرة بنفس الشعور الذي انتابني وأنا خارج من بيتنا غاضباً .. بلا عودة .. صباح ذلك اليوم الذي تزوج فيه أبي من مبروكة ..

الفصـــل الثـــامـن

وشهدي باشا ..

حان الوقت الذي أذكرك فيه يا باشا ، فأنت نقطة التحول في حياتي ، أنت الفاصل الحاسم بين طفولتي وسذاجتي ، ومكري البسيط وبين هذه الحياة التي أعرفها الآن بكل ما فيها من قسوة وعنف وجرأة وطغيان ومكر معقد ..

نعم .. شهدي باشا كان مدرستي الحقيقية التي جعلت مني ما أنا عليه الآن .. ولكن لا أنكر أني دخلت المدرسة وأنا مستعد ، فتقبلت تعاليمها بلا دهشة .. بلا خوف .. بل تقبلتها متحدياً مصمماً على التفوق ..

ما أعجب تلك الأيام ، كنت أكثر شباباً وأكثر حيوية ، وكنت قد اقنعت نفسي بأني قد اكتشفت طريق النجاح ، وإن كنت لا أعرف بعد كيف أخوض فيه ، وأشك في قدرتي ، وينتابني التردد أحياناً ، والجزع أحياناً .. الجزع من الفشل ..

كانت ثقة محمد ناجي بي ، تزداد يوماً بعد يوم ، فتزداد مسئولياتي ، ويطلعني أكثر فأكثر على أسرار عمله ، وكان أهم هذه الأسرار تنفيذ أوامر شهدي باشا ونشر الأخبار التي يرضى عنها ، ومنع الأخبار التي تغضبه ..

وكلفني محمد ناجي بأن أتولى بنفسي مراجعة الجريدة ، وإطلاعه في الحال على كل خبر يمس شهدي باشا من قريب أو بعيد ، ليراجعه قبل نشره .. حتى صور الباشا ، كان يراجعها محمد ناجي بنفسه ولا ينشر إلا الصورة الوقورة ، ويمنع أي صورة للباشا وهو مع سيدة إلا إذا كانت في مرتبة زوجة

سفير أو في مرتبة أرقى من ذلك وكان يسمح أحياناً بنشر صور الباشا مع حصانه الفائز في السباق أو وهو يتفرج على مباراة لكرة القدم في نادي الرياضة الذي يرأسه لأن هذه الصور شعبية ، وتقرب الباشا من قلوب القراء ..

وكان محمد ناجي يقول لي بين يوم وآخر :

- أنا عايز أعرفك بشهدي باشا .. أنا باعتبرك واحد من المسئولين في الجرنال .. ولازم صلتك بالباشا تبقى كويسة ..

وكنت أفرح .. وأسأله في بلاهة :

- امتـــى ؟

فينظر إليّ نظرة غريبة .. ويقول في وجوم مفاجيء :

- الفرص جاية كتير ..

وأنتظر اليوم الذي ستحين فيه الفرصة لأقابل شهدي باشا ، المليونير المسيطر علينا .. وتمر الأيام ، ولا تجيء الفرصة ، وينسى محمد ناجي ما قاله .. حتى خيل إليّ أنه لا يعني حقيقة ما يقول ..

وفي خلال شهور ، اكتشفت أن أغلب ما تنشره جريدة الأيام له صلة بشهدي باشا ، فلا تمر ساعة إلا وصوت محمد ناجي يهتف في التليفون ..

- يا يوسف خد بالك من أخبار البورصة ..

- يا يوسف خد بالك من أخبار وزير المالية .. أنت عارف أنه زعلان مع الباشا ..

حتى التلغرافات الخارجية ..

الباشا بيعمل صفقة مع أمريكا .. انشر أخبار واشنطن في الصفحة الأولى ..

حتى أخبار كرة القدم .. كنا نشجع نادي الرياضة لنرضي الباشا فإذا فاز النادي نشرنا نبأ الفوز بعناوين بارزة في الصفحة الأولى .. وإذا أصيب النادي بالهزيمة دفنا الخبر في الصفحة السابعة ..

حتى أخبار المجتمع ..

حفلات بهنس باشا وزير الأشغال نبرزها ونحيطها بدعاية ضخمة ..

- بهنس باشا صديق الباشا .. كل مقاولات وزارة الأشغال عنده ..

أيقنت أن شهدي باشا أخطبوط يمتد نفوذه إلى كل مكان .. وألح عليّ التفكير في لقائي به .. وكيف يكون .. كيف أجذب أنظاره إليّ .. كيف أكسب ثقته .. كيف أبهره ..

وأشعر بالحيرة ..

لا أظن أنه سيهتم كثيراً بأني قريب راتب بك ، ولا أظن أنه سيهتم بمظهري المؤدب .. إنه قد لا يلتفت إليّ على الإطلاق .. من أنا بالنسبة له .. ربما ينفر مني لو رآني .. فتكون نهايتي .. الأفضل أن أبتعد عنه ، وأكتفي بصلتي بمحمد ناجي ..

وحدث ذات ليلة ، وكنت راقداً على سريري في البنسيون ، أن امتدت يدي إلى مسرحية .. ماجور بربارا لبرنارد شو .. قلبت صفحاتها وأنا أتثاءب .. حتى وقعت عيناي على حوار غريب ، قرأته فطار النوم من عيني ..

الحوار بين شاب لقيط ومليونير من تجار الحروب ، صاحب مصانع أسلحة حربية .. وكان الشاب اللقيط يساوم المليونير على تولي إدارة مصانعه ، ويثبت له أنه الوحيد القادر على هذه المهمة ، لأنه سافل ..

كان الحوار لذيذاً ، شاذاً ، والاثنان يتصارحان ويرفعان كل قناع ، ويكشفان عن حقيقة نفسيهما .. يسخران من الإنسانية .. من الشهامة والمروءة .. من الخير .. من العطف على الفقراء ..

وينتهي الحوار باقتناع المليونير أن هذا الشاب الفقير اللقيط الذي لا خلق له ، هو الوحيد الذي يصلح لإدارة أعماله ، فمنحه الإدارة فعلاً وحرم ابنه الشرعي منها ، لأنه شاب مثقف .. تعلم الأخلاق الفاضلة التي لا تصلح لإدارة الأعمال الكبيرة ..

ليلتها جعلت أحلم ، مفتوح العينين ، بحوار بيني وبين شهدي باشا .. عندما أقابله وأختلي به .. سأقول له إني سافل وكاذب سأصارحه بأني بلا أخلاق ، وأني رجل أناني طموح ، لا أبحث إلا عن مصالحي الخاص ..

وتخيلت شهدي باشا ، وهو يبتسم ، ينفث دخان سيجارة في وجهي ،

وعيناه تتألقان بالسعادة .. ثم يمد يده ليصافحني ، ويهنئني بحرارة قائلاً لي : أنت الرجل الذي أبحث عنه .. أنت الرجل الذي أستطيع أن أعتمد عليه .. لا أحد قادر على حماية مصالحي إلا شاب أناني بلا ضمير .. مثلك .. وأعقد معه اتفاقاً ، كأي اتفاق بين لصين شريفين ..

وضحكـــت ..

ما هذا الخيال الأحمق ، إنه خيال روائي ، خيال ساذج .. ولكنه خيال لذيذ ..

وظل الحوار الذي تخيلته عالقاً برأسي ، يراودني ملحاً ، حتى شعرت وكأني أدبر جريمة ..

وظهر أثر ذلك عليَّ ، عندما عاد محمد ناجي يكرر نغمته في تقديمي لشهدي باشا يوماً ما ..

أجبته مندفعاً ..

- ح أعرفه ليه ..

قال في دهشة :

- ضروري تعرفه .. والا أنت بتتكسف زي البنات ..

قلت متصنعاً عدم الاكتراث :

- أبداً .. لكن أنا مالي وماله .. ده راجل مليونير .. الواحد يخاف يتكلم معاه ..

ضحك وبدأ عليه الارتياح وقال بصوت فيه اطمئنان :

- بالعكس .. ده راجل لطيف خالص .. وابن بلد .. ويعرف يقول النكتة ..

قلت في إصرار :

- برضه .. ماليش دعوة بيه

قلتها عامداً ، وإحساس غامض يراودني ، بأني كلما تمنعت ، دفعت محمد ناجي إلى تقديمي لشهدي باشا ..

ما الذي أريده من شهدي باشا

لا أدري ...

ليس لي عنده طلب خاص ، ولكني أريد مواجهته .. أريد أن أرى هذا العملاق وأعرفه عن قرب لأقارن بينه وبيني .. وأرى الشوط الكبير الذي يجب عليَّ أن أقطعه ..

وجاءت الفرصة ..

ونشرنا تصريحاً لوزير المالية لصالح صغار تجار القطن ، وفاتني وفات محمد ناجي أن في هذا التصريح هجوماً غير مباشر على شهدي باشا بصفته من كبار المصدرين ..

وهاج شهدي باشا .. فهاج محمد ناجي .. ورغم أن الخطأ كان خطأنا ، فقد أمر بعقاب إبراهيم متولي المحرر الذي جاء بالتصريح وخصم من مرتبه خمسة أيام ..

وناداني محمد ناجي وهو في قمة غضبه ، وأمرني بأن أذهب فوراً إلى شهدي باشا وأعتذر له ، وأطلعه على خطاب بعقاب إبراهيم متولي لإهماله في عمله ، دون ذكر نوع هذا الإهمال ..

وهمس محمد ناجي وهو يضغط على أسنانه :

- لو الكلب ده سالك أنا عاقبته ليه .. قولـه أي حاجـة إلا السبب الحقيقي .. ده ولد مجرم .. يروح يبلغ الوزير ويعملنا دوشة ..

همست بدوري :

حاضـــــر ...

- وتروح حالاً للباشا .. وتعمل معاه حديث .. خد المعلومات .. وبعدين هاتها نكتبها سوا ..

شعرت بالقرف من محمد ناجي أنه كذاب ، وشرير ، ولكني لم أشعر بالقرف من نفسي لأني أنفذ أوامر الكذاب الشرير .. أقنعت نفسي أني أتفرج على الدنيا ، أشاهد أشياء مسلية ، أنا فوق كل هذا ، أنا يوسف الذي يطل من خلف النافذة على شارع السد ، أتفرج على أنفش وأصحابه وهم يطلقون الشتائم البذيئة ويلعبون الكرة ، ثم أنا مشغول بهذا الحدث الضخم .. مقابلة

شهدي باشا ، لن أفكر لحظة واحدة في إبراهيم متولي ، وأنا ذاهب اللقاء مليونير ..

انتظرت في مكتب السكرتير أكثر من ساعة ، أرقب أجانب وسيدات أنيقات يدخلون مكتب الباشا ويخرجون منه ، ودخل علينا حلاق يحمل حقيبة جلدية فيها أدواته ، وفتح له السكرتير الباب في الحال فصعد الدم إلى رأسي ، وقررت أن أحتج .. ولكن صوتي خرج ضعيفاً متردداً :

- الباشا عرف أني مستنيه ..

قال السكرتير في وقاحة :

- أيوه يا أستاذ ..

ولزمت الصمت ، لم أقو على مواصلة الاحتجاج ..

ودخلت ، بعد خروج الحلاق .. كان جالساً على مقعد وثير بجوار مكتب ، بالقرب منه مدفأة ، وحوله أوراق متناثرة على الأرض ، وفي قدميه خفان من الصوف ، ووجهه متورد ، ورائحة الكولونيا تفوح منه ، وفي عينيه ابتسامة جريئة .

قال وهو يضع يده على تليفون بالقرب منه :

- اتفضل يا أستاذ .. اقعد ..

كان واضحاً أنه لا يفكر في مصلحتي ، فجلست على مقعد خشبي يبعد حوالى المترين من مقعده الوثير ..

إزى محمد ؟

- كويس يا سعادة الباشا ..
- ايه اللى في إيدك ؟
- ده الجواب اللى بعتناه للمحرر اللى نشر الخبر ..
- وريني ..

مد يده في لهفة ، وأخذ الخطاب وقرأه بعناية ، والابتسامة الجريئة لا تغادر عينيه ..

كان عقلي يفكر بسرعة في لا شيء ونسيت سبب مجيئي ، حتى خيل إلىّ أن مهمتي انتهت بتسليم الخطاب ..

قال وهو يعيد إلىّ الخطاب :

- أنت بتشتغل مع محمد ؟
- أيـــوه ..

وبلعت ريقي ثم استدركت قائلاً :

- يا سعادة الباشا ..
- باين عليك لسه صغير ..

قالها في ضيق ، فانتابني خوف مفاجيء ، وقلت فجأة وسخونة تجتاح رأسي :

- موش قوى ..

أدهشني صوتي .. كان ساخراً .. متحدياً ..

رفع رأسه ، وأطال النظر إلىّ وأشار بيده إلى مكتبه .. وقال شيئاً لم أتبينه ..

نظرت إلى المكتب حائراً .. فرفع صوته في حدة :

- الصندوق عندك .. أهه ..

رأيت صندوق سيجار ، فهجمت عليه ، وقدمته له ، أخذ سيجاراً ، وأعطاني الصندوق لأعيده مكانه ،

لم يقدم لي سيجاراً ، أيحتقرني .. أم هذه هي عادته .. أشعر بالتحفز لمواجهته .. لن أنهار أمامه .. سأدافع عن نفسي ، وليكن ما يكون :

- أنت عايز حديث ؟
- ايـــوه ..
- ح تعرف تكتبه ..
- أظن كـــده ..

لم تعجبه إجابتي ، فإنشغل بإشعال السيجار ، وهو يرقبني من خلف الدخان ، كلما التقت عيوننا .. رفضت في إصرار أن أحول بصري عنه ..

- اشتغلت هناك إزاى ؟

قلت ضاحكاً في جرأة المنتحر :

- ضحكت على ناجي بك ..

ابتسم في برود قاتل ..

أتصدق مسرحية برنارد شو .. ايعجب بى لو كاشفته بسفالتي ..

أيتحقق ما في الكتب .. إنها معجزة .. ولكني لا أريد منه شيئاً .. كل ما يهمني الآن ، هو ألا أبدو ذليلاً أمامه .. أن أعامله بمهارة وذكاء ، أن أفاجئه وأبهره ولا أتركه يقتحمني ويفاجئني ويبهرني ..

أنا في معركـة ..

- ضحكت عليه إزاى ..

سأواجهه بجنون ، سأصارحه بحقيقتي .. سأكشف له عن نفسي بلا خجل ..

- فهمته أني غني .. وليه اتصالات اجتماعية واسعة .. فصـدقني .. وشغلني .. وبعدين اثبت له اني باشتغل كويس ..

وضحكت ساخراً :

- لكن .. لحد دلوقت ما يعرفش الحقيقة ..

انفرجت شفتاه عن ابتسامة واسعة ، وبدا عليه الابتهاج ، وتوقعت أن يتخلى عن وقاره ويضحك من قلبه .. ولكنه قاوم بصعوبة ليحتفظ بوقاره ..

- فهمته إيه ؟ ..

- أنا المرحوم والدى كان مدرس غلبان على قد حاله .. وله قرايب من بعيد .. حسن بك راتب .. فأدعيت أنه عمي .. وأني باجيب أخبارى منه .. لأنه زى ما سعادتك عارف .. يبقى صاحب وزير الداخلية ..

صـــــاح :

- يعني نصبت على محمد ؟

رفعت صوتي :

- موش في الشغل ..

- اتعلمت فين ؟

- في الحقوق ..

نظر إلىَّ متشككاً ، فهتفت ضاحكاً :

- ماباكذبـش ..

قال فجأة :

- محمد ده أصله مغفل ..

كدت أقول له إن محمد ناجي يحبه ، لولا أن تذكرت ما رواه لي أنور سامي عن العلاقة التي بين ناجي وزوجة شهدى باشا .. فعدلت عن ذكر الحب .. وهمست :

- على العموم أنا مدين له بكل شيء اتعلمته في الصحافة .. أستاذنا كلنا من غير شك ..

- وانت عايز تبقى ايه ؟

- عايز حديث من سعادتك ..

- لا .. أنا بسأل عن طموحك ..

- برضه عايز حديث من سعادتك ..

- ما عندكش طموح ..

- موش عايز أعمل غير اللي أنا باعمله دلوقت .. وبعد كده اللي يحصل يحصل ..

قال ، وقد دبت الحرارة في صوته لأول مرة :

- انت ولد ذكي .. ح يبقى لك مستقبل ..

- متشـــكر ..

وسألني فجأة :

- عايزني أقول لك إيه في الحديث

- قلت بسرعة :

- إن جيت للحق يا سعادة الباشا .. أنا شايف إنك تؤيد تصريح الوزير .. وتفوته ..

سأل في برود :

ـ ليه ؟

ـ علشان دوشة التجار بتوع الأرياف .. عددهم كبير .. ويقدروا يعملوا ضجة .. مالهاش لزوم في الجرايد التانية ..

قال بلا تردد :

ـ طيب اكتب حديث بالمعنى ده .. وخلى محمد يقراهولى في التليفون ..

ووافقني على رأيي بسرعة ، ثم دق الجرس منادياً السكرتير ، وأمسك بأوراق وانشغل بها وكأنني لم أعد موجوداً في الحجرة .

تراجعت في صمت ، وقبل أن أغادر الحجرة . سمعت صوته ساخراً :

ـ اسمك ايه ؟

ـ يوسف عبد الحميد ..

قال ضاحكاً ..

ـ أنا ح أقول لمحمد على النصبة اللى عملتها فيه ..

ثم أردف قائلاً وهو يطلق ضحكة عريضة كانت محبوسة في صدره :

ـ لو رفدك ابق قوللى ..

وغادرت مكتب الإخطبوط ..

قابلني عبد الستار أفندي موظف الاستعلامات عند الباب الخارجي للجريدة .. كان مضطرباً ..

ـ يا أستاذ يوسف .. مكتب شهدى باشا عايزك ترجع له تاني ..

قلت في دهشة :

ـ أنا لسه جاى من هناك ..

ـ أيوه .. وعايزينك ضروري .

عدت مسرعاً ، وليس عندي أدنى فكرة عن سر استدعائي ، وقابلني السكرتير لينتحى بي هامساً :

ـ الباشا بيقول لك .. ما تجيبش سيرة لحد .. ولا لناجي بك .. عن الكلام اللى دار بينكم ..

ـ كلام ايه ؟

ـ والله ما اعرفش .. هوه قاللى كده وبس ..

كان الرجل يخاطبني بلهجة مهذبة تختلف تماماً عن اللهجة الوقحة التى قابلني بها أول مرة ..

شعرت انى قد أحرزت انتصاراً عندى شهدى باشا .. انتصار بلا خطة ، وبلا هدف .. أيقصد شهدى باشا ذلك الاعتراف بأني خدعت محمد ناجي .. أيريد أن يحتفظ به سراً بيني وبينه ..

لماذا ..

●●

حاولت عبثا أن أجدد اتصالي بشهدى باشا .. تلقيت إجابات مختلفة .. الباشا غير موجود يا أستاذ يوسف .. الباشا سافر اسكندرية .. الباشا في اجتماع .. إجابات مختلفة ، والنتيجة واحدة .. لقد فقدت اتصالي بشهدى باشا حتى بعد نشر الحديث ، ذهبت إلى مكتبه وقد اعتزمت أن أرقد بجوار بابه حتى يجيء .. ولكنه كان قد سافر إلى بيروت في رحلة مفاجئة تستغرق يومين ..

وأصبحت قلقاً ، أنسيني شهدى باشا ؟ أقال شيئا لمحمد ناجي ؟ وزاد من قلقى أني عرفت من محمد ناجي انه اتصل به أكثر من مرة ، هو الذي أخبرني أن الباشا قرا الحديث وأبدى ارتياحه له ، وهنأه عليه ..

سألت في ضيق وأكثر من خاطر يقلقني :

ـ قالك إيه عنى ؟!

ابتسم محمد ناجي وأجاب ..

ـ ولا حاجة ...

أيخفى عنى شيئا ، أيدبر لى أمراً ، لا فائدة من هذه الأسئلة إنها تزيدني حيرة وقلقاً ، استولى على شعور بالذنب .. اى حماقة دفعتنى إلى السخرية من محمد ناجي أمام شهدى باشا .. لقد أسأت إلى نفسي دون أن أظفر بشيء ، وها هو شهدى باشا يتخلى عنى .. آه .. لو يكف رأسي عن التفكير ..

كانت سامية فى تلك الأيام تتصل بى كل صباح ، وكانت تثرثر معى فى كل شىء .. تعودت انتظار صوتها ، وقد أعددت حواراً طويلا درسته بعناية ، ينتهى بأن أدعوها إلى الخروج ، ثم أذهب بها إلى شقة محمد ناجى .. إن قلبى يحدثنى أن هذا سوف يحدث ، لابد أن يحدث ..

ويدق جرس التليفون ، واسمع صوت سامية ، فتتغير كل خططى ويضيع من رأسى الحوار الذى أعددته يستولى علىّ إحساس مفاجىء بأنها لا تفكر فىّ ، وأنها تتكلم معى لمجرد أن أكتب عنها خبراً أو أنشر لها صورة ، وأضحك فى عصبية ، وتصك أذنى كلماتها الرقيقة ، فأجيبها فى غباء ، وأحول الحديث إلى أخبار الاستوديو ، وأخبار الأفلام التى ستتعاقد فيها مع حلمى كامل وأنور سامى .. وينتهى الحديث ، ويختفى صوتها ، وأرى أمامى التليفون الأسود ، يتحدانى ويتهمنى بالعجز ..

إلى أن جاء يوم ، وطلبت منى سامية أن أقابلها ، سألتها فى غباء أن تزورنى فى الجريدة ، ولكنها رفضت واتفقنا على أن أقابلها بعد ساعة فى حديقة جروبى ..

جلست أنتظرها والأفكار تتصارع فى رأسى .. كيف أتصرف .. هذه هى فرصتى لأدعوها إلى الشقة .. هل أستطيع .. إنى لم أعرف جسد المرأة حتى اليوم .. ماذا لو ارتبكت .. ماذا لو فشلت .. ليس من السهل على أن أفضح نفسى أمام سامية .. ولكنى يجب أن أخوض الامتحان .. لن أقضى بقية حياتى بغير امرأة .. لقد تغيرت ، ولم أعد ذلك الشاب المنطوى على نفسه ، الذى يخجل ويتراجع ، لو تراجعت أمام سامية فسأتراجع أمام محمد ناجى ، وأمام شهدى باشا .. سأتراجع أمام الحياة كلها .. سأهبط الدرجات القليلة التى صعدتها .. سأحكم على نفسى بأن أظل ذلك الشاب الساذج الشاذ ..

وجاءت سامية ، وفى لحظات تبخرت جميع أحلامى ، كنت قد تذكرت مدحت ، وعلاقتها به ، وأفلت من لسانى سؤال عن مدحت فإذا بها تهاجمنى وتصيح فى وجهى :

- انت متهيألك أنى بابصبص لك ..

- انت فهمتينى غلط ..
- لا .. أنا فاهماك وعارفة اللى بتفكر فيه .. انت فاكرنى واحدة بتلعب تخرج مع أى واحد ..

طعنتنى كلماتها .. نفذت إلى أعماقى ، التهمة حقيقية .. عرتنى .. جردتنى من كل قناع ، أنكرت وحاولت أن أبدو متماسكاً ، وفجأة انهارت هى أمامى ، واعترفت لى اعترافا غريباً .. أنور سامى يغازلها ويضيق عليها الخناق ..

أدركت فى الحال أنها صادقة ، كلامها يفسر لى غضب أنور عليها هذه البنت شريفة ، أشرف مما كنت أتصور ، شعرت بالراحة لأنى لم أكشف لها عن شىء مما كنت أفكر فيه ، ولكنى شعرت أيضا بخيبة أمل ، لقد تأجل الامتحان ، وعلىّ أن أبحث عن فتاة غيرها ، قلت لسامية : إن أنور سامى لن يستطيع أن يمسها ، كنت أتكلم فى حماس ، كأنى أريد أن أقنع نفسى بما أقول ..

بعد أن تركتنى ، اكتشفت أنى مازلت أفكر فيها ، ومضت الأيام وصورتها تلاحقنى ، وفى صدرى عاطفة قوية نحوها .. سألت نفسى هل أنا أوشك على الوقوع فى حب سامية ، ولم أجسر على التفكير فى الإجابة على هذا السؤال ..

وفاجأنى محمد ناجى ذات يوم قائلا وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة ماكرة ..

- انت عامل إيه مع سامية دلوقت .
- ولا حاجة ..

انتشر الفرح فى وجهه وصوته .

- انت عارف أصلاً اللى حصل بينها وبين أنور ..
- أيوه ..

صوبت عينيه فى وجهى يتفرسه .

- عرف أنها جات معاه البيت وجمت .. وأدرك فى الحال أنى لا أعرف ..
- ما عرفتش ..

قلت غاضباً :

- لا ...

ضحك وهو يتلذذ بمراقبتي وقال في ثقة :

- أنا عندي التفاصيل ..

كف عن الكلام وانتظر أن أسأله عن هذه التفاصيل ، ولكني صممت على السكوت ، كان الألم يعتصرني ، فمضى يروى لى بصوت هادىء ، كيف ذهبت سامية مع أنور ، وكيف حاول الاعتداء عليها .. كانت كل كلمة تنغرس في لحمي ..

- أنور هوه اللي قالك ..
- لا ...
- أمال عرفت من مين ..
- منها .. من سامية .. لابد أن شيئا بشعا ظهر على وجهي .. علامات يأس ، أو ألم حاد .. لأنه ظل يرقبني وفي عينيه قلق ثم همس ..
- سامية كلمتني في التليفون .
- كلمتك ..

قال في غرور :

- كانت بتشكيلي من أنور .. على العموم .. اسمع .. ما تقولهاش إني قلت لك ..

قلت في حدة :

- ح أقولها ليه ..
- أنت زعلت ؟
- لا ....

ضحك وقال :

- باين عليك زعلان .. هي ما عملتش حاجة غلط .. مسكينة .. كانت خايفة .. وشايفة أني أقدر أساعدها ..

وارتفع صوته ..

- طبعا أنا أقدر أساعدها أكثر منك .. يمكن ده يجرح شعورك .. أنت عايز تبقى الفارس الوحيد اللي بيدافع عن حبيبته ..

صحت ..

- هيه موش حبيبتي .. دي مجرد واحدة .. زي أي واحدة غيرها ..
- شوف أنت منفعل إزاي .. ما تنساش اني زي أخوكم الكبير .. وأنا كان ممكن أخبي عنك ..

ثم سألني بصوت جاد :

- إيه وجه اعتراضك انها كلمتني .. خايف مني ؟

شعرت أنه يذلني ، وشعرت أني ضعيف أمامه .. تراجعت ..

- لا ...

ابتسم وقال في برود :

- أظن لازم تكون واثق مني .
- طبعا ..
- على أية حال أنت لازم تفرح .. اعترفت لي أنها بتحبك ..

كنت واثقا أنه يكذب ، أنه يعرف الحقيقة ويخفيها عني ، قالت له سامية كل شيء ، ليس بيننا حب ، ولم تذهب معي إلى شقته إنه يعرف أني خدعته ، ترى ما الذي يقوله عني الآن ، ولد مراهق ، ملىء بالعقد ، يدعى أنه يعرف النساء .. لماذا لا يصارحني بما يعرفه .. لماذا لا يواجهني برأيه في ؟!

قلت في محاولة يائسة لانقاذ أكاذيبي :

- أنا مقلتش أن الشقة بتاعتك .

هيه عارفة ..

اصفر وجهي ، واستمر يقول :

- أنا متأسف .. ما كانش قصدي أحرجك .. سألتها عن الشقة ورأيها فيها ..

قالت لي إنها انبسطت منها ..

- أنا واثق أنك تكذب ، سامية لم تذهب إلى الشقة ، أنت تخترع قصة ، أنت

تعلب عجوز ، أخبث منى ، ما الذى تريده الآن ، لست قادراً على فهم شىء ، ما أنا إلا مبتدىء غشيم تورط فى عالم الثعالب ، يجب أن أدبر خطة انسحابى قبل أن يفترسنى محمد ناجى ..

عشت فى هوان ،، العار يفقأ عينى ، الخجل والارتباك يلطخان حياتى ..

لن ينقذنى سوى أن أستجمع شجاعتى ، وأصمم على دعوة سامية إلى الشقة ، أتحايل عليها ، أمكر بها ، أهددها ، أخطفها ، أغتصبها .. أفعل المستحيل ، لأثبت أنى قادر عليها .. ولكن .. كيف .. كيف ..

اتصلت بسامية وواعدتها على اللقاء فى جروبى فى موعد الغداء .. وجعلت أفكر كالمحموم .. حتى دق جرس التليفون ، وسمعت محمد عامل التليفون يهتف منفعلا :

– مكتب سعادة شهدى باشا طالب حضرتك ..

ارتجفت ..

– الأستاذ يوسف ؟!

– أيوه يا أفندم ..

– سعادة الباشا عايز يشوفك النهارده .. الساعة أتناشر الضهر .

– حاضر .. أنا جاى حالاً .. وموعد سامية .. موعد كرامتى .. لا يهم .. إن الرجل القوى يطلبنى .. الرجل الذى سخرت معه من محمد ناجى .. لابد أن أذهب إليه حتى ولو غضبت سامية .. حتى ولو ماتت سامية ..

قابلنى ضاحكا .. السيجار متألق فى فمه ، والمرح يشع من عينيه .

– أنت سألت عنى يا أستاذ ..

– أيوه يا سعادة الباشا ..

– خير ..

– كنت عايز أعرف رأى سعادتك فى الحديث ..

لم يصدقنى .. لقد مضى زمن طويل على الحديث ، قال فى وقاحة :

– أنا كلمت محمد ..

ماذا أقول له ، لقد انتهى الحديث ما الذى أريده ، يجب أن أتكلم ولكنى عاجز عن الكلام .

ضحك ، وقدم لى صندوق السيجار ..

– خد سيجار ..

مددت يدى وأخذت سيجارا ، وهاتفا يقول لى إن الأزمة قد عبرت ، إنه هو الذى يريد منى شيئا ..

– هيه . مبسوط فى الشغل .

– الحمد لله ..

– وعامل إيه مع محمد ..

– كويس ..

– لسه ماعرفش إنك نصاب .. كان يبتسم ، فبادلته الابتسام .

– سعادتك أمرتنى ما أقولش حاجة ..

تجاهل كلامى ، وقال بصوت ملىء بالحيوية :

– محمد ده صديقى .. أنا أعرفه من زمان .. يمكن قبل ما أنت تتولد .. البلد مافيش فيها اتنين زيه ..

قلمه لاذع وتحليله بيعجبنى بيشرح ويجرح .. وإلا إيه رأيك .

– مظبوط ..

صاح بشراسة ..

– اتكلم بصراحة ..

– رأيى أنه أستاذى .. بس .

– بس إيه ؟

ونظر إلىّ مشجعا ، فتغلبت على ترددى وقلت :

– بس ثقافته ناقصة ..

هز رأسه فى اهتمام :

– هيه .. اتكلم ..

– فيه تيارات سياسية كتيرة هوه ما عندوش فكرة واضحة عنها ..

سألنى منفعلاً :

– زى إيه ؟

– زى الشيوعية مثلا .. دق بيده على المكتب وهتف .

– أهو ده اللى أنا عايز أسمعه منك .. أنا قريت فى الفترة اللى فاتت كل كلمة كتبتها .. قريت تحليلك للجرايم .. بتتكلم عن الظروف الاجتماعية .. عن الفقر .. بتتكلم زى واحد شيوعى .. زى الكلام اللى باقراه فى منشورات الشيوعيين وجرايدهم ..

– لكن أنا موش شيوعى ..

– طبعا .. وإلا ماكنتش شفتك .

قلت باسما :

– وكان زمانى فى السجن .. حدق فى وجهى ، ثم قال :

– أنت موش شيوعى لأنك طموح .. ولأنك ذكى .. عايز تكبر .. وتوصل لحاجة ..

– باحاول ..

صاح فى حماس :

– وح توصل .. أنت ممكن تبقى رئيس تحرير الأيام ..

بدا على وجهى الذعر .. ولكنه مضى مندفعا فى كلامه :

– إحنا عايزين دم جديد .. وأنا راجل مغامر .. بالعب قمار بطريقتى .. ممكن أخلى شاب زيك يتولى إدارة أكبر شركة عندى .. لو وثقت فيه .. محمد ناجى يقدر يحارب الوفد .. يحارب السعديين .. يقدر يكتب فضايح .. يقدر يشاكس القصر .. لكن البلد موش دول بس .. البلد فيها دلوقت شيوعيين .. واشتراكيين .. وإخوان مسلمين .. وعفاريت زرق .. ماكناش بنسمع عنهم قبل الحرب .. ولو سبنا محمد ناجى لوحده .. ح يخسر المعركة ، منطقهم بيقنع الولاد اللى فى الجامعة .. أنا عايز واحد زيك يعرف يتكلم بلغتهم ..

وسكت برهة ثم قال بصوت هادىء كأنه وصل إلى قرار :

– أنا عايزك تكتب فى السياسة قلت بسرعة :

– موش ضرورى السياسة .. أى خبر أو تحقيق صحفى ممكن يبقى له اتجاه ضد الشيوعية .. لما أكتب عن شاب كان فقير وبعدين غامر ونجح وبقى مليونير .. ماهو ده ضد الشيوعية ..

لمعت عيناه ، وكأنه فهم شيئا أعجبه وقال :

– فعلا .. لك حق .. لكن برضه مرن نفسك على الكتابة فى السياسة ..

– وإذا اعترض الأستاذ ناجى ؟ فتح فمه ليقول شيئا ، ثم سكت وسألنى :

– تفتكر ح يعترض ؟

– أظن كده ..

– على أى حال .. الكلام ده بينى وبينك .. وسيبنى أنا أكلم محمد ناجى .. من غير ما تجرح شعوره

وسألنى فجأة .

– أنت تعرف شيوعيين ؟

– أيوه ..

– أصحابك ؟

– كانوا أصحابى ..

– وبعدين ..

– واحد منهم بقى وكيل نيابة .. ونسى الشيوعية ..

صرخ :

– أنت بتصدق أنه نسى ..

– أظن كده ..

اسمه إيه ؟

– سعد عبد الجواد ..

– فى نيابة إيه ؟

– الدرب الأحمر ..

قال فى هياج :

– وسايبينه فى مصر كمان .. البلد ح تروح فى داهية .. دا لعب عيال .

وكتب اسمه .. وهو يتمتم :

ـ ده لازم يترفد .. وإلا يتنقل على الأقل ..

كدت أهمس بأن سعد مسكين ، ولكنى خفت أن يشك فى نواياى .. لزمت الصمت وفى قلبى حزن وخوف وبهجة انتصار ..

وتذكرت شوق فكتمت أنفاسى .. لن أبوح له بشىء .. باب عريض ينفتح أمامى .. إنى أقوى ، أتخلص من ركودى ، أتخلص من سذاجتى .. أى مفاجأة تنتظرك يا ناجى .. أيها الثعلب العجوز .. إنك تتوهم أنى أبله . تتلذذ بضعفى .. تذلنى بأكاذيبى التى كشفتها .. ولكنى أعد لك المفاجآت ..

تأخرت على موعد سامية ولكنها كانت تنتظرنى ، ذهبت بها إلى مطعم ، وأنا أشعر أنى قادر على أن أحصل منها على كل ما أريد .

كنا نتحدث عندما بدرت منها عثرة لسان . كنت أقول لها إن شهدى باشا أعطانى السيجار الذى أدخنه .. عندما سألتنى فجأة :

ـ هوه شهدى باشا لسه زعلان من الخبر اللى نشرتوه ..

كيف عرفت هذا ؟!

سألتها :

ـ أنتِ قريتى الخبر ..

ارتبكت ، وقالت فى كذب مفضوح إنها سمعت من بعض الناس إن شهدى باشا غاضب .. ثم قالت إنها قرأت الخبر .. إنها لا تدرى أن الخبر لا صلة به بشهدى باشا ..

أيقنت أنها على علاقة بمحمد ناجى إنها عشيقته ، أنا المغفل الذى تضحك عليه ، أنا المغفل الذى يضحك عليه محمد ناجى .. إنهما أسفل منى .. عالم قذر ، كل من فيه ملوثون بالقذارة ..

هل أمضى فيما أفكر فيه ، وأذهب معها إلى شقة محمد ناجى ، نفس الشقة التى تعرفها وأستغل سذاجتى ، استغل وهمها بأنى مازلت ساذجاً ..

سألتنى ونحن خارجان من المطعم .. إلى أين نذهب ، ترددت ، إنه ليس

نفس ترددى القديم ، إن ما يشغلنى الآن .. هو هل الوث نفسى بقذارتها .. أم ابتعد ..

دعوتها إلى الشقة .. فجاءت .

راقبتها ونحن خارجان من المصعد .. تركتها تتقدمنى ، فانحرفت إلى اليسار ، دون أن تسألنى ، ورفعت عينيها إلى رقم الشقة ، ولحت على شفتيها طيف ابتسامة .

كانت تظن نفسها ماكرة ، ذكية .. تتسلى بأبلة مثلى .. سألتها فى غيظ :

ـ بتضحكى على إيه ؟

قالت فجأة :

ـ علشان أنت بتكذب عليه .. اتعترف .. أتقول لى إنها تخدعنى ..

ـ الشقة دى موش بتاعتك ..

ـ أيوه موش بتاعتى ..

ـ بتاعة مين بأه ؟

كأنها لا تعرف ...

ـ واحد صاحبى .. قالت فى وقاحة امرأة فاجرة :

ـ انت خايف تقوللى اسمه أحسن أجى معاه ، بدالك ..

استولى علىَّ النفور ، ووددت لو أخنقها وعاملتها ببرود حتى ضاقت بى وخرجت ، وودعتها وكأننا غريبان .

ولكن خيالى لم يتخلص من سامية ، مازلت أفكر فيها ، إنها فرصتى الوحيدة لأعرف الحياة ، لأثبت رجولتى ، لأنتصر على نفسى كان الليل قد تأخر ، وأنا وحدى فى حجرتى ، أحاول كتابة أول مقال سياسى فى حياتى ، وفتح الباب ، ورأيت محمد ناجى واقفاً بقامته المديدة ينظر إلىَّ نظرات طويلة شاردة ..

بغير وعى ، قلبت الأوراق ، ووقفت مرتبكا :

ـ بتعمل إيه ؟

كان مازال واقفاً عند الباب ..

- ولا حاجة ..

أغلق الباب وتقدم خطوة ، وسألنى فى هدوء مريب :

- أنت شفت شهدى باشا ؟

- أيوه ...

- فيه حاجة ؟

- أبدا .. قدم لى سيجاراً ..

كان شيئاً ما يدور فى رأسه ، ضحك فجأة وقال بصوت ناعم :

- أنا عايز توطد علاقتك بيه .

قلت فى غير اكتراث :

- هوه فاضى ..

قال فى حدة مفاجئة :

- أسمع كلامى .. أنت قدامك فرصة كبيرة ..

كان قد وصل إلى مكتبى ، ومد يده وأمسك بالأوراق ، وقرأ بعض السطور ، ثم وضع الأوراق ، واطرق برأسه .. وقال فى ارتباك :

- يا ابنى فيه حكاية سخيفة عايز أكلمك فيها .. الموظفين بتتكلم .. الست اللى بتيجى الجرنال وشايله على كتفها عيل بتقول إنه أخوك ..

كان شىء ساخن يحرقنى ، فهتفت فى ألم :

- أيوه .. دى مراة أبويا ..

رفع رأسه فى كبرياء ، كأنه سيد يخاطب خادمه ..

- أنا عارف كل حاجة .. عارف أنها مع شوقى ..

لا أذكر ماذا قلت ، ولكنى أدركت أنه أعلن الحرب علىّ ، يريد أن يفضحنى ، يريد أن يقضى علىّ .

سمعته يقول :

- ارفد شوقى .

- ما أقدرش ..

- الولد ده شيوعى ..

- آه .. لقد وشيت بسعد عبد الجواد ، ولكنى مضطر إلى أن أشى بشوقى .. إنه يهددنى ، سيقول لشهدى باشا إنى صديق شوقى الشيوعى .. سيرتاب شهدى باشا لأنى أخفيت عنه اسم شوقى .

ابتسم محمد ناجى وقال فى حنان الثعلب :

- ما تيجى معايا .. كفاية سهر عليك ..

- متشكر .. أنا تعبان ..

- طيب تعال أوصلك ..

يريد أن يتأكد أنى لن أواصل كتابة المقال ..

ركبت معه ، وعدت إلى البنسيون وجدت ورقة تنتظرنى فى حجرتى .

عزيزى يوسف ..

جئت لأزورك فلم أجدك .. سأسافر غدا صباحا إلى سوهاج أمر النائب العام بنقلى فجأة ، لا أدرى السبب ، حاول الاتصال بأى شخص تعرفه لأفهم ما حدث .. سأرسل لك خطاباً مطولاً .. قبلاتى .. والله وحشتنى يا يوسف ..

أخوك

سعد عبد الجواد



الفصـــل التـــاسع

قررت الف مرة أن أترك سامية لحالها ، ولكنى كنت أعود لها ، مدفوعا بأسباب متضاربة ، كنت أقنع نفسى أحيانا بأنه يكفى أن تكون بيننا صداقة .. صداقة بريئة تختلف عن صداقاتها بالآخرين .. لماذا لا أكون أنا الرجل المحترم المهذب فى حياتها ، إننى أستطيع أن ألعب هذا الدور بمهارة واتقان ، وقلبى يحدثنى انى أستطيع أن أصل بعد ذلك إليها .. ولكنى أفقد صبرى ، واتعجل العلاقة بيننا ، إذ تتسرب إلىّ تلك الرغبة المحمومة التى أكبتها .. الرغبة فى المرأة سواء كانت سامية أو غيرها .. وأنسى أفكارى عن الصداقة والاحترام والتصرفات المهذبة ، واتهم نفسى بالغباء ، وأندفع فى التفكير فى سامية كجسد ، أتخيل كل تفاصيله وأعبث به فى خيالى وألوم نفسى لأنى أضيع وقتا كبيرا وأنا أتردد فيما يجب ألا أتردد فيه ..

كانت تصرفاتى عجيبة ، ومشاعرى مضطربة ، أقابل سامية كل يوم تقريباً ، ونذهب معاً إلى السينما ونتردد على المطاعم ، ونمشى فى الشوارع ، ونتكلم ونثرثر .. ولا تمر لحظة ، إلا وأنا أعانى من التقلب العنيف الذى يحدث فى داخلى .. رغبة فى جسدها ، ثم محاولة ليهرب من هذه الرغبة والتفكير فى استمرار الصداقة البريئة بيننا .

كنا نسير فى الشارع ، فوقفت أمام فترينة للأحذية .

ـ أنا عايزه أشترى لك جزمة غير اللى أنت لابسها ..

ما هي دي كويسة ..

صاحت محتجة :

- أعوذ بالله .. أنا ما أحبش الناس المبهدلين .

قلت مذعنا :

- حاضر أجيب الجزمة ..
- معاك فلوس دلوقت ..
- لا ..

فنظرت إلى حذائي من جديد . وهمست وهي تمط شفتيها :

- على العموم الجزمة بتاعتك موش وحشة قوي .. تقدر تستنى لأول الشهر .. أحسست أننا أصدقاء ، كزميلين في الجامعة لا تربطنا إلا حريتنا ، ورغبتنا في التسكع معا في الشوارع ، ومشاهدة الأفلام معا ، وقدرتنا على أن نتبادل الحديث ، ونحتد ، ونحتج ، وتنتقد هي ملابسي ، وأدافع عن نفسي ، وأهاجمها .. كأي صديق .. مجرد صديقين ..

وتركنا فترينة الأحذية ، وتقدمنا خطوتين ، والتفت إليّ وعيناها ضاحكتان ..

- شايف البنت اللي لابسة طرطور أحمر ..

شعرت أن عينيها تنفذان إلى قلبي ، وتحركان الرغبة المكبوتة في أحشائي .. إنها جميلة ، فاتنة لو أضمها إلى صدري ، لو أتعرف على جسدها ..

- سامية .. ما تيجي نروح الشقة ..
- ح نعمل إيه هناك .
- نقعد نتكلم .. ونستريح شوية ..

هزت رأسها في دلال وقالت :

- لا .. أنا أحب أمشي في الشوارع .. أحب أشوف الناس .. والناس تشوفني ..
- عايز أقولك حاجة مهمة :

- ما تقوليها هنا ...
- خايفة تيجي ..
- قال ضاحكة :

ح أخاف من إيه .. ما إحنا روحنا قبل كده ..

كنت قد توسلت إليها أكثر من مرة أن تذهب إلى الشقة ، وكانت ترفض ، وكان رفضها يدفعني إلى اليأس ، وإلى التشبث بالطلب . إنها ترفض لأنها تخشى ما قد يحدث .. لأنها تعرف أننا لو ذهبنا إلى الشقة فسيحدث ما يجب أن يحدث ..

- طيب يا للا نروح ..

ووافقت ..

في الطريق إلى الشقة ، تنازعتني المشاعر ، لم أعد أدري هل أنا أحبها أم أحتقرها، سأصمم على الحصول عليها ، أم سأعاملها في برود ، كنت ذاهباً إلى الشقة ، لأكتشف حقيقة ما في داخلي ، لأعرف بالضبط ، نهاية هذا الاضطراب الذي أعاني منه ..

جلسنا على مقعدين متقابلين ، وجاهدت حتى خرجت الكلمات من فمي ، اعترفت لها بحبي ، تدفقت الكلمات ، وأنا أعجب من نفسي ، من أين جاءت هذه الكلمات ، إنها تخرج حارة مرتعشة ، أهي كلمات صادقة ، هل أحبها حقا ، أم أنا أصنع الوهم الذي يقنعها ويقنعني لترضى بأن تكون لي .

ها هي تنصت إلى ساهمة شاحبة الوجه ، ونحن في شقة مغلقة علينا ، وجسدها على امتداد ذراعي ، وستأتي اللحظة التي أكف فيها عن الكلام ، فما الذي أصنعه بعد ذلك ، كيف أقدم على الخطوة الأولى ، أنهض وأقترب منها ، وأقبلها ، أترضى ، ألا تدفعني بيديها ، ألا تصرخ ، أتستسلم .. ولو استسلمت ، لو تركتني أضمها إليّ وأقبلها ، كيف يتصرف العاشق في مثل هذا الموقف ، أفك أزرار فستانها ، أخلع ملابسي كل هذا غريب بالنسبة لي ، شيء عسير .. أشعر باضطراب في بطني ، أمعائي تتلوى ، وحلقي يجف .. ليس أمامي سوى أن أستمر في الكلام ، أندفع أكثر وأكثر في الاعتراف بحبي ..

آه .. لو أكف عن الكلام .. وأبدأ الفعل ..

تحركت في فهلع قلبي ، تقدمت من الراديو ، وعبثت بمفاتيحه ، تبحث عن محطة ، أدركت أنها قلقة ، كنت واثقاً أن اعترافي لم يفاجئها ، ولكنه وضعها في موقف جديد محير ..

ليتني لم أطلب منها المجيء إلى هنا .. إن الأحلام اللذيذة قد ضاعت ، ولم تبق إلا هذه اللحظات الطويلة القاسية .. كل لحظة تمر كأنها عذاب لا نهاية له ..

رفعت إليّ عينين طاغيتين ، فيهما دلع ، جمالهما قاهر ، يشع منهما نهم جريء .

- وح تعمل إيه دلوقت ؟

صمت .. لم أفهم ما الذي تعنيه ..

سألتني فجأة :

- موش عايز تبوسني ؟

اكتشفت أني واهم ، كل مخاوفي لا تعني إلا أني أبله ، إنها ليست في موقف جديد ، ولا موقف محير ، إنها تعلم جيداً ما يجب أن يحدث في هذه المناسبات ، وتتعجلني .

استجمعت كل ما في رأسي من مشاهد السينما ، والحكايات التي سمعتها من الطلبة في المدرسة والجامعة .. استجمعت كل الصور التي طافت بخيالي عن الحب ، وطردت مخاوفي ، واندفعت نحوها أقبلها ارتطم وجهي بوجهها ، وبحثت شفتاي عن شفتيها ، شعرت بملمس جديد ، دخلت أنفاسها في أنفاسي .. شممت رائحة عطرها ممزوجة برائحة بشرتها .. انتعشت شفتاي .. وابتهج جسدي ، سرت فيه النشوة ، تختلف تماما عن كل ما تخيلته طوال سني ومراهقتي .. تختلف تماما عما شعرت به وأنا أختلس القبلات مع سعاد ..

دفعتني بيدها ، وظهرت على وجهها مسحة وقار ، أهذا هو كل شيء .. أم هي تتمنع لأنها يجب أن تفعل هذا ، إنه الدلال الذي سمعت عنه ، يتمنعن

وهن الراغبات .. لابد أن أواصل ما بدأته .. ولكنها فتحت فمها وسألتني بصوت جاد ألزمني مكاني :

- فيه حد يعرف أننا بنحب بعض ؟

إنها خائفة من محمد ناجي ، لا تريد أن يعرف ما تفعله معي ، هذه هي تصرفات كل مثيلاتها لا مانع عندها أن تعرف عشرة رجال ، عشرين رجلا ، ولكنها تحاول أن تؤكد لكل واحد منهم أنها له وحده ، لا تريد مني أن أبوح بالسر للآخرين .. تريد أن تظل شريفة بريئة معنا جميعا .. ليكن .. لا يهمني هذا الآن .. كل ما أريده هو أنت .. جسدك .. وسأتصرف بذكاء .. لن أجعلك تشعرين بأن هذه هي أولى تجاربي .. سأوهمك بأن ترددي ، هو عدم اندفاع .. هو اتزان الرجل الذي يعرف الكثير ..

قلت هامسا :

- مافيش حد يعرف ..

إذا كنت قلت لحد .. قوللي ..

مسكينة ، أهي خائفة إلى هذا الحد ، لن أقول لأحد ، الثمن بسيط .. مادمت سأحصل على كل شيء .

سألتني فجأة :

- محمد ناجي يعرف ؟

- الغبية ، كانت تستطيع أن توفر على نفسها هذا السؤال ، لا داعي لأن تستمر في خداعي ، وأستمر في خداعها ، فلنتجاهل كل شيء ، ولنمض في قبلاتنا ..

أجبتها في ضيق ، وقد استفزني غباؤها :

- بيشك ..
- أرجوك ماتقولهلوش ..
- حاضر ..
- حتى الشقة دي بلاش ..

إنها تضع شروطها قبل أن تخلع ملابسها ، سأقبل كل الشروط ، لقد فقدت

ذكاءها .ليست ذكية على الإطلاق ، إنها جسد جميل غبى ،جسد لذيذ ، إنى أفهم مايدور فى رأسك . سأرضيك . لن أثير لك المشاكل ..

قلت ساخراً :

- حاضر ..

وهممت بها فدفعتنى مرة أخرى ،لتضع شرطا آخر ،طلبت منى أن أبحث لها عن شقة جديدة .. فوعدتها فى الحال ، وأنا أكذب لن أضيع وقتى فى جدل عقيم ، ولكنى لن أضيع نقودى عليها ، أبلغت بها الحماقة أن تطلب منى تأثيث شقة كاملة لها .. لها وحدها ، أتظن أنى سأتزوجها ، أم هى تطلب لمجرد الطلب ، لمجرد أن ترانى أبعثر نقودى فى الهواء بلا حساب ،ومن أجل مزاجها الخاص . سأراوغها ، حتى أحصل على ما أريد .. هنا .. فى هذه الشقة ..

أردت أن أقبلها ، ولكنها تمنعت :

- روح اقعد مكانك .. خليك عاقل ..

أيقنت أنها تلعب بى ، وبدأ الغضب ينمو فى صدرى ، وسألتنى عن حبى القديم :

- الحكاية دى خلصت ..

قالت فجأة :

- إن ماكنتش تقوللى .. مش ح أقول لك أنا كمان ..

وضحكت فى غير اكتراث .. كأنها تتحدانى .. وقالت إنها أحبت رجلا غيرى ..

من الذى تعنيه .. محمد ناجى .. أنور سامى ..

قلت متغابيا :

قصدك مدحت

- لا ... واحد تانى ..

شعرت بنفور كبير نحوها ، ورحبت بهذا النفور ، إنه ينقذنى من المضى فى المهمة العسيرة التى لا أعرف كيف أمضى فيها ..

- إن ماقلتيش ح أضربك ..

بدأ عليها الذعر ، صرخت . وانفجر الكلام الغاضب يملأ أذنى ويملأ الشقة ،خيل إلىّ أن كل شيء قد فسد ،فتراجعت واعتذرت ،فقامت ، وجاءت تقبلنى .. ثم أسرعت إلى الباب ، وخرجنا من الشقة ..

كنت واثقا أن محمد ناجى لن يعرف شيئا مما حدث بيننا فلما سألنى عنها ، ادعيت أننا قد تشاجرنا ، وأبدى أسفه ،ولكن السرور كان يفضحه فى صوته وعينيه .. وبعد أيام . دعانى محمد ناجى مع سامية لحضور حفل ساهر فى بيته ، وقال إنه أقام هذا الحفل من أجلنا ،لم أصدقه ولكن لم يكن هناك مفر من الحضور ، قابلنا محمد ناجى فى بيته وهو فى قمة تألقه ، كنا مبكرين ،فدعانا إلى البار وقدم لنا المارتينى ثم بدأ يهاجمنى ،قال لسامية إنى نصاب ، أعجبنى وصفه لى ..

- يوسف ده إنسان موش حقيقى .. مؤدب زيادة عن اللزوم صريح زيادة عن اللزوم .. عاطفى زيادة عن اللزوم .. موش ممكن واحد فى الدنيا يبقى كده ..

كان واضحا أنه يشك فى أمرى وأنه قلق ، ولم تدرك سامية حقيقة ما فى نفس محمد ناجى ، ولكنها دافعت عنى ..

بعد قليل ،وجدنا البيت قد امتلأ بالمدعوين ،كنت أراقب سامية من بعيد ، فلاحظت أنها غير مستريحة ، لا تشعر بأنها فى مكانها الطبيعى ، ولما دخل علينا أنور سامى شحب وجهها ، وتبادلت معى النظرات ، حاولت ألا أفرض نفسى عليها ، أو أشعرها بالحرج ، فتشاغلت عنها ، وبالرغم من ذلك كنت أبحث عنها بعينى بين لحظة وأخرى ، فتلتقى عينانا ، أهى تبحث عنى هى الأخرى ، أم تريد أن تتأكد أنى لا أراقبها .. ووددت لو أترك الحفل ، وأخرج وحدى ، لعل هذا يريحها ، ولكنى أخرت خروجى حتى أرى شهدى باشا ..

وجاء الباشا ، فوقف الجميع رجالا ونساء ، وأحاطوا به ، تبادل معهم التحيات بسرعة ، ثم انتحى بى جانبا ..

وسألنى دون أن ينظر إلى سامية ..

- دى حبيبتك ..
- الظاهر إن الإشاعة ملت البلد .
- موش صحيح ..

همست ضاحكا :

- والله ما انا عارف .. لسه ما فيش بيننا حاجة ..
- ومحمد رأيه إيه ..
- أنا متأكد أن فيه بينهم حاجة ضحك عالياً وقال بصوت خفت أن يسمعه الجميع :
- يعنى بتأخذها منه ..
- موش عارف يا باشا .. والله ما انا عارف ..

ربت بيده على كتفي قائلا :

- لا .. شد حيلك .. عايزين نفرح بالشباب ..

وجاء محمد ناجى يطلب من شهدى باشا افتتاح البوفيه ، وتقدم المدعوون ، ووجدتنى وحدى مع سامية ..

- أنا ماشى ..

قالت :

- وأنا كمان ..
- ما تخليكي إنتِ ..

قالت فى حزم :

- تعال نخرج ..

مشينا فى شوارع الزمالك ، وأنا أسأل نفسى ، عن سر خروجها معى ، ما الذى يدعوها لأن تتخلى عن كل عشاقها ، اتهتم بى حقا وقالت :

- محمد ناجى موش بيحبك زى ما انت فاكر .. شفت كان بيهاجمك ازاى .. ياساتر على عينيه ساعة ما كنت قاعد مع شهدى باشا .. كان يبيص بشكل غريب ..

اتستدرجنى ، لتعرف سرى ، ثم تذهب إلى محمد ناجى وتقول له كل شىء ، ايستخدمها محمد ناجى جاسوسة علىّ ، أم هى أوهام فى راسى .. تظاهرت بأنى أدافع عن محمد ناجى .. فصاحت :

- انت موش عاجبنى .. مستسلم .. زى ما تكون لعبة فى ايديهم .. دول بيعاملوك زى ما تكون أهبل ..

لسعتنى الكلمة ، فشعرت بالغضب ، وشعرت بالضعف ، وشعرت برغبة فى أن ألوى عنقها أو أحملها إلى الشقة وأخضعها لرجولتى ..

وذهبنا إلى الشقة ، لم تترك لى فرصة للتردد ، قبلتنى فى جبينى كأنها تعتذر لى ، وقالت :

- أنا عايزاك تبقى أحسن منهم كلهم ..

كانت عاطفتها مشبوبة ، ربما كئوس المارتينى هى السبب ، واندلعت الرغبة فى جسدى فحطمت خجلى وقضيت على مخاوفى نسيت كل شىء .. وأخمدت كل صوت فى راسى ، امتدت يدى تنزع ثيابها ، وامتدت شفتى تنتزع منها القبلات ، كنت أرى لأول مرة ما هو الجسد ، أصل إلى المجهول المختفى أهتك السر الذى عذبتنى معرفته أعرف فى نفسى اشياء جديدة أتحرك بجسدى كما لم أتحرك من قبل ، كلى حيوية ، واندفاع ، الحيوية تتفتح ، والنشاط والانفعال يدبان فىّ ، كأنى انتزع الحب من جوفى ، كأنى اعتصر اللذة منى .. إنه شىء فوق الحياة ، فوق هذه الدنيا كلها ، لا أستطيع أن اقارن به اى شىء وقع لى فى أيامى الماضية .. الآن .. انا أعرف .. افهم .. أحس .. أعيش ...

رأيتها تبتسم ، فامتلأت ثقة بنفسى ، كنت سعيداً ، كأنى حصلت على كل ما أتمناه ، لا أريد اكثر من هذا ، لايهمنى سوى ابتسامتها .

همست وعيناها مسبلتان :

- بتحبنى ..

قلت صادقا :

- باحبك .. باحبك ..

الدموع فى عينى سامية هى الحقيقة ، هى الشىء غير الزائف ، الجسد

الجميل الذى يؤوينى ، الذى يتجرد من كل قناع .. من أجلى .. ماذا يهم أن هذا الجسد قد عرف آخرين ، إنهم لا يعرفون قيمته ، لا يقدرون معناه ، أنا وحدى الذى أعرف قيمة ما أخذت ، حبى لها هو الذى سيرفعها فوق ماضيها سيجعل منها سيدتى التى أموت من أجلها .

إنى أتشبث بك يا سامية ، كنت على وشك الغرق ، كنت وحيداً فى عالم الثعالب ، لا أحد يقف معى ، كنت القاتل والفزع يطاردنى ناجى .. شهدى باشا .. سعد عبد الجواد .. أبى .. مبروكة .. ما هذا الجنون .. حياة معقدة تافهة ورطتنى فى شراكها .. أنت وحدك التى رضيت بأن تكونى لى ، لن أفرط فى حبى لك .. حبك قادر على أن ينقذنى ، قبل أن أصل إلى القاع ..

نسيت أننا على سرير محمد ناجى ، طردت من خاطرى أنها قد نامت على نفس هذا السرير من قبل ، وثرثرنا حتى الصباح ..

روت لى كل شيء عن حياتها ، أبوها الذى طلق أمها ثم انتحر فى طنطا .. عشت معها حياتها من جديد ، ندمت على كل لحظة فاتت من حياتها وهى بعيدة عنى ، وروت لى قصتها مع ناجى :

- أنا كنت باكلمه على أنى واحدة متجوزة .. ما كانش يعرف أنا مين ..

كنت محتارة .. يمكن فكرت فى أنى أعمل علاقة معاه .. لكن كنت مترددة .. خفت .. واللى خوفنى أكثر أنور سامى .. حسيت أنى باضيع .. وكنت شفتك .. وحبيتك .. تعرف .. أنا رحت مع أنور فى شقته .. حاول معايا .. ما اقدرش .. كنت ح أموت .. ومن ساعتها وهو بيكرهنى .. شافنى مرة فى الاستوديو بهدلنى وشتمنى ولم الناس علىّ .. كنت عايزة أقولك .. انكسفت .. كلمت محمد ناجى وقلت له اللى حصل ..

وكفت عن الكلام ، وارتفع صوت تنهيدة عميقة ، فقلت فى ألم :

- موش ضرورى تحكى الكلام ده ..

قالت ببساطة محيرة :

- لا .. أنا عايزة أقولك كل حاجة .. لسه فيه حاجات كتير .. وضحكت قائلة :

- كويس ان الأوضة ضلمة .. لو كانت نور ماكنتش ح أعرف أتكلم ..

وعانقتنى وقالت فى إصرار حنون :

- أنا باحبك .. حقيقى أنا باحبك ..

ثم همست :

- بس أنا ظلمتك ..

ابتسمت ..

قال فى بطء :

- أنا عارفة مين اللى كنت بتحبها .. اسمها مبروكة .. موش كده ..

دارت رأسى .. فتحت فمى لأنكر فسدته بيدها ..

- اسمعنى الأول .. دى واحدة كانت بتشتغل عندكم وأنت حبتها واتجوزت والدك وفضلت تحبها .. قلت بصوت المذنب :

- مين اللى قالك الكلام ده ؟!

- أهو سمعته وخلاص ..

- مين .. لازم أعرف ..

- موش ضرورى .. بس هو صحيح ..

كان النفى على طرف لسانى ، لولا خاطر غريب طاف برأسى ، لو قلت لها انى لم أعرف مبروكة ، فكأنى اعترف لها بأنى بلا خبرة مع النساء ، أنا فى حاجة إلى أن أؤكد لها أنى عرفت النساء ، هذا هو ما أشعر به الآن ، لن أستطيع أن أخبرها بالحقيقة ، إنها ستهدم ثقتها بى ، الأفضل أن أكذب عليها ..

- أيوه دى المصيبة اللى فى حياتى .. مبروكة دى كانت خدامة عندنا .. وانتِ عارفة .. كنت ولد مراهق .. وخدامة حلوة .. وبعدين لقيت أبويا مهتم بيها .. وعايز يتجوزها .. كنت ح اتجنن .. خفت أقوله يصمم على أنه يتجوزها برضه .. راجل عجوز فوق الستين .. ماحدش يعرف إيه اللى بيدور فى رأسه .. نهايته .. اتجوزها وسبت البيت ..

- وشفتها بعد كده ؟!
- أبداً ..
- صحيح والا بتكذب ؟!
- بشرفى ما شفتهاش ..

ضحكت قائلة :

أنا مصدقاك ..

كانت ضحكاتها مريبة ..

فسألتها ..

- طيب ومصدقانى إزاى ..
- علشان نوبة سألت عليك فى التليفون .. محمد التليفونست قالى أنت موش موجود .. وبعدين لما كلمته تانى وقلت له أنا سامية .. وصلنى بيك .. عرفت أنك موش عايز تكلم مبروكة .
- ده صحيح ..
- شفت بأه أنا شاطرة إزاى .. بس أنا ظلمتك ..
- لا ظلمتينى ولا حاجة ..
- لا .. أنا ظلمتك .. أنا قلت لمحمد ناجى حكايتك ..
- أنتِ اللى قلتيله ..

قالت فى خوف :

- ماتزعلش منى .. قبلتها ..
- مستحيل ازعل منك ..

فتنهدت قائلة :

- اهو أنا دلوقت استريحت .. خلاص مافيش حاجة مخبياها عنك ..

صدقتها ، وشعرت مثلها بالراحة ، وبالخجل من نفسى ، نعم إنها أشرف مما كنت أتصور . أنا واثق من صدقها .. لم تكذب فى كلمة واحدة مما قالته ..

ليتنى استطيع أن أبادلها الصدق .. ليتنى استطيع أن أكاشفها بحقيقة نفسى .. ربما فعلت ذلك يوما ما .. ولكنى الآن ، أضعف من أن اعترف لها بضعفى .. لا يمكننى أن أواجهها بسذاجتى .. بأنها أول امرأة عرفتها .. بأنى أكذب وأرسم لحياتى صورة بشعة ، من أجل أن تصدقنى .. من أجل أن تثق بى ..

●●

عثرت سامية على شقة صغيرة من حجرتين ، كان لها شرفة تطل على سينما بارادى ، استأجرت الشقة فى الحال ، كنت خائفا من وكيل صاحب العمارة وأنا أوقع العقد ، سألنى هل سأسكن وحدى ، قلت له ضاحكا إنى استعد للزواج ، خدعته ضحكتى ، فلم يشك فى نواياى ، وتمنى لى زواجا سعيدا .

أخذت سامية كل ما معى من نقود ، واشترت سريراً معدنياً ومرتبة ، وكنا نقضى ليالينا جالسين على المرتبة فى الشرفة نتفرج على الأفلام ، ونأكل الساندويتشات ، ونتوه فى الحب .

كانت الشقة سرا لا يعرفه أحد . كأنها مخبأ يخفينا عن الدنيا لنحلم ، ثم نفيق من أحلامنا ، فتذهب هى إلى دنياها ، بيتها والاستديو ، وأعود أنا إلى دنياى ، البنسيون وجريدة الأيام .

كانت سامية تفكر فى تأثيث الشقة بسرعة .

- لازم تسيب البنسيون وتعيش هنا .
- حاضر ياحبيبتى ..
- أنا موش عاجبنى الشقة تبقى فاضية .. دى بيتنا .

كانت تقف فى الشقة الخالية ، وتشير بأصبعها .

هنا كنبة ستوديو وهنا منضدة فوقها راديو وبيك آب .. علشان نرقص .

وترقص مغمضة العينين ، وتفتح عينيها ، فترانى واقفا أتاملها فتفتح ذراعيها ، وتطوقنى ووجهها يفيض بالبشر .

وتهلل :

- باحبك

أعطيتها أول الشهر كل مرتبي . أمسكت بالنقود ، وعدتها ، ثلاثة وستين جنيها . وسألتني وهي تضعها في حقيبتها :

- الباقي فين ؟
- دفعت حساب البوفيه
- أنا رايحه أشوف النجار .. ح أخليه يعمل أوضة النوم الأول .

وضحكت قائلة :

- لما نتجوز ح تبقى كده ؟

ولوحت بالحقيبة التي وضعت فيها النقود ..

أجبتها بدون تفكير :

- طبعا ياحبيبتي

دقت فكرة الزواج من سامية في راسي ، ولم أجدها غريبة عني ، إنها ليست أغرب من استئجاري للشقة ، ليست أغرب من حبي لها وعلاقتي بها ، من كان يصدق أن هذا سوف يحدث لي ، لقد تغيرت ولم أعد أخاف من شيء ، نعم سأتزوجها ، وسأرفع راسي في مواجهة كل الذين عرفتهم قبلي ، لقد تغيرت ولم أعد أخاف من شيء ، نعم سأتزوجها ، وسأرفع رأسي في مواجهة كل الذين عرفتهم قبلي ، لقد تغيرت سامية ، لم تعد سامية التي عرفوها ، سأتحدى الجميع ، سأصرخ بملء فمي وسط ميدان الإسماعيلية ، هذه هي سامية حبيبتي .. زوجتي .

كانت علاقتي بمحمد ناجي تتطور في ذلك الوقت إلى شيء غامض ، علاقة لزجة مريبة .

لم يعترض على ما أكتبه في السياسة ، ولم يحتك بي في عملي ، ولكني كنت أشعر بفتوره ، وأنه يتربص بي ، أما أنا فمضيت في تمثيل دوري ، أتظاهر بالبراءة والسذاجة ، وأتلقى نظراته التي تعلن أنه لم يعد يصدق براءتي ولا سذاجتي .

فكرت في الاعتراف له بأني سأتزوج سامية ، كان لي أكثر من دافع إلى هذا الاعتراف ، لعلي كنت أريد إقناعه بأني مازلت ساذجاً حتى أقدم على مثل هذا الزواج ، لعلي كنت أريد أن أتحداه ، لعلي أريد أن أستمع إلى نصائحه . لست أدري لماذا فكرت في الاعتراف له ، ولكني ذهبت إليه واعترفت .

فاجأه كلامي ، فارتبك ، وظهرت الحيرة عليه .

- يوسف .. مستقبلك يابني .. أنا عايزك ما تفكرش في حاجة غير مستقبلك .
- باحبها .
- البنت دي موش بتاعة جواز .. أنا أكبر منك ومريت بتجارب كتير .
- لازم أتجوزها ..
- ليه ؟ مافيش حاجة اسمها لازم .
- علشان أحترم نفسي .

سألني في قلق :

- حصل حاجة ؟ ما تخافش .. أنا أعرف دكتور صاحبي .

وابتسم ..

- ما حصلش غير إني باحبها ..

رفع صوته .

- أنت اتجننت .. مادام مافيش حاجة يبقى تتجوزها ليه .. دي ماشية مع نص البلد .. عارف حكايتها مع أنور ؟

قلت منفعلا :

- أنا موش مصدق الكلام ده .

ابتسم ابتسامة حزينة

- ماتبقاش عبيط .
- أنا باحبها .. مشيت مع أنور .. مشيت مع البلد كلها .. باحبها وح اتجوزها .. كل اللي يهمني أنها بتحبني .. ماضيها ماليش دعوه بيه .

تغير صوته ، ضاع منه الأسى وتحول إلى صوت جاد آمر :

- أنا محرج .. لكن لازم أصارحك . البنت دى أنا عرفتها قبلك .. صحيح ماحصلش بيننا حاجة . بس موش بسببها .. بسببي أنا . أنا اللى رفضت . قلت لها أنا موش عيل صغير .

لم أصدق حرفاً واحداً مما يقول ، ولكنه فسر صمتي بأني تراجعت ..

- أنا خايف تكون بتجرى وراك علشان تغيظنى أنا .

الحقير . المغرور . صعد الدم إلى رأسي . وتجمعت الشتائم عند طرف لساني . كدت ابكى من الغيظ فخرجت من حجرته قبل أن افتح فمي .

كرهته . وكرهت نفسي . وكرهت سامية .

فى المساء كنت أسعى إلى لقائها

وسألنى شهدى باشا :

- انت ح تتجوز ؟

أجبت ساخرا :

- وده معقول ياباشا ؟

كيف لم اجسر على الاعتراف بما أفكر فيه . هل أنا خائف منه ، أم خائف من نفسي ؟!

قال راضيا :

- افتكرتك ح تعملها !
- لا ياباشا .

هز رأسه فى اطمئنان وقال :

- محمد بيشنع عليك .

وحدق فى وجهي ثم قال :

- الظاهر إنك خدتها فعلا منه .
- هوه زعلان ؟

سألته وأنا أعجب لحالي . أكلمه وكأنني شخص آخر . لا صلة له بيوسف الذى يحب سامية ..

- موش بيقول إنه زعلان من الفصل ده .. إنما مقالاتك موش عاجباه .
- له حق .

قال بصوت قاطع لا يقبل المناقشة :

- بس موش معنى كده أنك تبطل .. أنا عايزك تكتب فى السياسة كل يوم .

ولاحظ دهشتي فقال وعيناه تحدقان فى فضاء الحجرة :

- ح ييجى وقت قريب وأعوزك .

بعد يومين طلبنى شهدى باشا .

وقال بصوت حزين :

- أنا ح أعتمد عليك .

ولزم الصمت كأنه يراجع نفسه للمرة الأخيرة ، قبل أن يقول ما يريد أن يقوله ، كانت أعصابي مشدودة ، ودقات قلبي عالية ، والهدوء فى الحجرة يسد أذنى .

- شوف .. أنا عايز أفهمك اللى ح تعمله .. لكن أنا متردد فى نفس الوقت .. إيه رأيك ؟
- الرأى رأيك ياسعادة الباشا .

رفع صوته فى عصبية :

- كان ممكن أقول لك اعمل كيت .. وكيت .. وتنفذ من غير أى شرح أو تفسير منى .. لكن دى موش طريقتى .. أنا أحب اللى يعمل حاجة .. يعملها وهو فاهمها .. علشان يعرف يعملها كويس .

حاولت ان أقول شيئاً . وقفت الكلمات فى حلقي .

- بصراحة أنا موش واثق فى محمد ناجى .

وضحك ضحكة قصيرة ، ومضى يقول :

- موش ضرورى الواحد يثق فى اللى بيشتغل معاهم .. الدنيا كده .. محمد ناجى راجل كبير .. ومشهور .. ومهم .. وله أطماعه .. ومصالحه الخاصة بيه .. يمكن يقدر يستفيد من غيرى زى ما بيستفيد منى .

ورفع اصبعه وصوبه إلى كأنه يطلق كلماته من مسدس :

- وأنت كمان لما تكبر تبقى زى محمد ناجى .

فتحت فمى لأعترض .. ولكنه سبقنى مقاطعا فى حدة :

- ما تقولش لأ .. أنا واثق أنك ح تقف معايا .. وح تخلص لى .. لكن علشان ده فى مصلحتك .. علشان ح تستفيد .. علشان أنا أقدر أعملك نائب رئيس تحرير .. ورئيس تحرير .

ابتسم ، وقلب كفيه :

- وبعد كده .. يمكن الوضع يتغير .. تبقى تدور على مصالحك عند حد تانى غيرى ..

وخبط بقبضة يده على ركبته وقال :

- المهم .. أنت عارف أن إحنا بنأيد السعديين .. من أسبوع أنا كلمت محمد ناجى وقلت له يستعد للهجوم عليهم .. واديته حاجات ضد سعيد .. وزير الأشغال .

سكت ، وجعل يتأملنى ، باحثا فى وجهى عن تأثير كلماته ، ثم قال كأنه يخاطب نفسه :

- بكره الصبح ح تقرأ مقال لمحمد ناجى ضد سعيد باشا .. تراجعت بظهرى إلى الوراء . كانت دهشتى شديدة .

فهمت :

- موش معقول .

صاح شهدى باشا :

- اللى موش معقول إن سعيد باشا عارف أن فيه مقالات ضده بكرة .. وعارف إنى وراها .. محمد ناجى راح وقاله .. واعتذر له .. وخد موافقة كمان .. قاله إنه معذور ما يقدرش يخالف أوامرى .. محمد فاكر نفسه نبيه .. عايز يكسب الجميع .. يكسب السعديين .. ويكسب الوفديين .. ويكسب البلاوى الزرق .. ويكسبنى أنا كمان .

الشراسة فى عينيه وحول شفتيه ، والافتراس فى أسنانه وصوته .

رفع رأسه وقال فى لهجة آمرة سريعة :

- أنا عايزك تتخانق مع محمد .

- أتخانق !

زأر :

- اتخانق .. اشتمه .. خلى كل واحد فى الجرنال يعرف أنك شتمته .

خيل إلىّ أنه فقد عقله ، خفت أن أناقشه ، فهمست مذعنا :

- حاضر .

- أنا ح أعتمد عليك .. وح تكون مسئول أمامى عن الجرنال .

- حاضر .

قال بلهجته السريعة الآمرة :

- وموش عايزك تتأثر بأصحابك اللى معاك .

- صحابى ..

- الولد الشيوعى .. الرسام .

- ده موش صاحبى ..

صاح :

- أنا عارف كل حاجة .. إذا ما كنتش عايز ترفده .. اعتبر نفسك مسئول عنه .

قلت فى ذعر :

- موش عايز أرفده ليه ؟

قال فى قحة :

- علشان قريبتك .

قلت بصوت مختنق :

- ماليش دعوه بيهم .

قال فى ضيق بإجابتى :

- طيب .. طيب .

وغادرت مكتبه ذاهلا .

ما أسهل الوصول . ما أغرب الوصول . كل ما هو مطلوب منى هو أن اقتحم مكتب محمد ناجى وأشتمه بأعلى صوتى ،وأدوسه بقدمى . أظهر أمام المحررين بأنى شجاع وجرىء ، وصاحب نفوذ . أهذا ممكن ؟ مستحيل . لا فرق بينى وبين أى قاتل محترف يستأجرونه للقتل .

ما الذى يعده شهدى باشا لمحمد ناجى ؟ يريد أن يزله .. يريد أن ينتقم منه وأنا السلاح .. أنا مخلب القط .

هل أجرا ؟!

هل أستطيع أن أتخلى عن هذه المهمة ؟ سيفتك بى شهدى باشا . لا مفر . لابد أن أفعلها . لا مفر .

ستفرح سامية عندما تعلم أنى وصلت إلى منصب كبير ، النقود ستملأ جيبى . سأتزوجها ونقضى شهر العسل فى أوروبا سأنتصر أمامها على محمد ناجى . سأبدو أمامها بطلاً كبيراً .

أنا مازلت صغير السن لم أبلغ الثلاثين بعد ، أستطيع الانتظار ، أستطيع أن أبحث عن عمل آخر وأبدأ حياتى من جديد .

لن أفعلها . سأفقد احترامى لنفسى . سأفقده إلى الأبد . سأعيش فى أكذوبة . هذا ليس انتصارا . إنه هزيمة . صفقة أبيع فيها نفسى حتى يرفسنى شهدى باشا يوما ما مثلما يفعل الآن مع محمد ناجى .

لا . لست حقيراً إلى هذا الحد . أقتل ناجى ؟ أقتل شوقى ؟ أقتل نفسى ؟ لا . مستحيل .

لن أذهب إلى الجريدة . سأقدم استقالتى وأبحث عن عمل آخر .

كان رأسى يغلى ، النقاش لا يهدأ فى داخلى ،حتى حسمت سامية ترددى :

- محمد ناجى كلمنى فى التليفون .
- عايز إيه ؟
- عايز يشوفنى .
- يشوفك ؟

- إدانى ميعاد فى شارع ماسبيرو .
- امتى ؟
- دلوقت .. دلوقت هوه مستنينى هناك .
- الراجل ده اتجنن .
- أنت مخبى عنى حاجة ؟

صرخت كالمجنون :

- بلاش كلام فاضى .. ده شخص مراهق متسأليش فيه .
- أمال بيقول إن مستقبلك فى خطر ليه .
- متصدقيش .. متصدقيش .. بيعاكسك .. مافيش أكتر من كده .

كنت أفكر بسرعة مخيفة . سأذهب إليه وأشتمه . لن أتردد . قد أكون ذاهبا لأنى اذعنت لأوامر شهدى باشا . لأنى سافل . لأنى سأقبض الثمن . قد أكون ذاهبا لأدافع عن حبى . لأنه اتصل بسامية وأراد مقابلتها فى شقة ماسبيرو . ولكن ، ما هو الشىء الخطير الذى يتهدد مستقبلى . أيعرف محمد ناجى شيئا مما دار بينى وبين شهدى باشا ؟ سأستدرجه قبل أن أهاجمه .

قابلنى فى مكتبه باسما متهللا . الوغد . لم أتمالك أعصابى والتهبت رأسى :

- كنت فين الساعة خامسة ياأستاذ ناجى ؟

وضحكت كأنى أتأوه من الألم .

- كنت فى البيت .

قلت منفعلا :

- تقدر تقوللى إيه الشىء الخطير اللى بيهدد مستقبلى ؟

قال فى برود ، ووجهه يشحب :

- موش فاهم حاجة .

قلت وأنا أرتجف :

- أنت كلمت سامية فى التليفون ؟

اجفلت عيناه ، وقال بصوت خفيض :

- أيوه ..

صرخت :

- وقلت لها تيجى تقابلك ؟

ابتسم ابتسامة حقيرة ، وشد قامته ، وبذل مجهودا كبيرا ليحتفظ بهدوء وجهه :

- هيه قالت لك حاجة ؟
- قالت لى كل حاجة .

قال فى استخفاف :

- الظاهر حصل سوء تفاهم .

هتف :

- اللى حصل إنى عرفتك على حقيقتك .

قال فى برود :

- تسمح تهدى نفسك ؟

قلت وأنا أضغط على أسنانى :

- أنت حقير .

رفع حاجبيه واختلج وجهه :

رفعت صوتى :

- حقير .. حقير .

أنت جرى فى عقلك إيه ؟؟

- اسمع .. أنا عايز أقولك فى وشك رأيى بصراحة .. أنت جبان .. وسافل ..

انتفض فجأة من ذهوله ، نهض بقامته المديدة وقد أصفر وجهه وخرج من فمه صوت كالفحيح :

- اطلع بره .
- أنت اللى تطلع بره .
- اتفضل استقيل .

- أنت اللى تستقيل يامجرم .

صرخ :

- أنت مطرود .

هجمت على مكتبه ، أدق عليه بكلتا يدى

- أنا اللى ح أطردك .. ياكلب .

كان يلهث ، جسده يهتز ، امتدت يده المرتعشة إلى الأجراس تضغط عليها . دخل الساعى ، ودخل معه آخرون لم أتبين وجوههم . وجذبتنى الأيدى . وارتفع الصياح ، وأنا أردد محموما :

- يامجرم .. يامجرم ..

بعد نصف ساعة ، كان يطرق بابى ، ويطل بوجهه ، ثم يتقدم ذليلا ، محنى الرأس ، ويجلس على مقعد أمامى ، ويضع رأسه بين كفيه ، ثم يرفع رأسه ويبتسم ، وقال فى هدوء :

- أنا غلطان يا ابنى .. باعتذر لك .. شهدى باشا أمرنى أعينك نائب رئيس تحرير .. وأنا وافقته .. ورفعنا مرتبك لمائة وعشرين جنيهاً .



الفصـــل العـــــاشر

أصبحت المسيطر الآمر فى جريدة الأيام ، والتف المحررون من حولى ينافقوننى ، وكان محمد ناجى هو أول المنافقين ، يلقانى بابتسامة واسعة تزعجنى ، ويمتدحنى ، ويستشيرنى فى كل تصرفاته ، ويطلب منى مراجعة مقالاته ، حتى أيقنت أنه يرسم خطة بعيدة المدى للقضاء علىّ ، ويترقب فى صبر وأناة الفرصة التى يثب فيها ، بعد أن يخدرنى بنعومته واستسلامه ويلدغنى ..

كان شوقى هو الوحيد الذى رفض أن يرضخ لى ، إنه لم ينس أبداً أنه كان السبب فى دخولى جريدة الأيام ، فظل يعاملنى وكأنى مازلت يوسف الضعيف الذى لا حول له ولا قوة ..

كان يلقانى أحيانا فى أحد ممرات البناء ، فيتعمد أن يصيح بصوت مسموع وقح ..

- إزيك يايوسف ..

فأبتسم متوددا ، وأمضى فى طريقى ، فيصرخ ..

- ياأخى ما تقف وتكلمنى ..

- بس أنا مشغول ياشوقى .. عندى اجتماع ..

فيهتف ساخراً :

- أوعى تكون صدقت أنك بقيت راجل مهم ..

- أبدا ..

- أنت غلبان .. وصعبان عليّ .. ياشيخ سيبك من القنزحة دى فأتظاهر بالابتسام ، وأفر مبتعدا ..

وكانت أخبار شوقى تصلنى ، فتزيدنى قلقا ، إنه يشتم شهدى باشا ، ويتشدق بكلمات شيوعية .

المجنون ، إنه يهيء لمحمد ناجى الفرصة التى ينتظره لينقض عليّ .

ودعانى المحررون إلى حفل أقاموه فى بيت أحد الفنانين بالقلعة ، فقبلت ، أردت أن أقابل شوقى فى الحفل ، وأتحدث معه على انفراد ليأخذ حذره ، ويريحنى ..

وعلمت سامية أنى ساقضى ليلتى بعيدا عنها ، فصممت على المجىء معى ، ولم أستطع رفض طلبها ، وذهبنا معا إلى القلعة ، فانقض عليها شوقى وجذبها من يدها إلى سطح البيت ، ترددت كثيراً قبل أن أصعد وراءهما ، وفوجئت بأن شوقى لم يتخل عن وقاحته أمامها فشتمنى ، وقال لها إنى بعت نفسى لشهدى باشا ..

، صبرت بضعة أيام ، ثم ناديت شوقى فى مكتبى ، وحاولت أن أشرح له خطورة موقفه ، فثار وغضب ، واحترت ، هل أدافع عن نفسى وأشى به عند شهدى باشا قبل أن يشى بنا محمد ناجى ، ربما كان هذا هو أفضل حل ، ما أسهل أن أرفع سماعة التليفون ، وبعد دقائق يقتحم الشرطة مكتب شوقى ويقبضون عليه ، لو ترددت فسيشك شهدى باشا فى أمرى ، إنه على استعداد للقضاء عليّ حتى ولو كنت ابنه ، لو ارتاب فى أنى أحمى أحد الشيوعيين ..

مضت بى لحظات قاسية ، وأنا أفكر فيما سببته لسعد عبد الجواد وفى المصير الذى انتهيت إليه ، إنى أحطم أصدقائى واحداً بعد الآخر،أتحول إلى إنسان مفترس لا يكترث بشىء . ولكن شوقى يعول مبروكة ويعول أخى إبراهيم ، ترى ماذا يحدث لهما لو قبض الشرطة على شوقى ، ستلجأ مبروكة إلىّ وتضايقنى من جديد ..

قبل أن أنتهى إلى قرار ، فوجئت بشوقى يقتحم مكتبى ، ويعتذر لى عن

ثورته ، ويعلن فى ذلة أنه سيتخلى عن الشيوعية .. فرحت بتراجعه ، ولكنى شعرت فى نفس الوقت إنى قتلته ، ما أبشع منظر الضحية أمام قاتلها ، كم كنت أتمنى لو يبقى شوقى كما كان ، ذلك العنيد الذى لا يتراجع ولا يفقد شجاعته ، كم كنت أتمنى الا ينتقل الشر الذى فى نفسى إلى شوقى ، ويفسد هو كما أفسد أنا ولكن هاهو يتذلل ، وهأنذا أتخلص من ورطتى ، ولكنى غير مستريح ..

فى تلك الأيام ، كان حبى لسامية يتحول إلى عادة مريحة ، كانت أيامى مستقرة منتظمة ، أعمل وأحب ولا أفكر فى الأيام المقبلة ، لأنى مشغول بأيامى الحاضرة ، حتى كانت ليلة ممطرة ، وأنا وسامية فى الشقة ، كنت مجهداً ، أتثاءب ، أقاوم النوم ، وأحس بالجوع ، ورأسى فوق حجرها ، والمطر يتساقط فى الخارج ، فأشعر بالطمأنينة والدفء ، وسامية تثرثر فأستمع إليها فى كسل ، حتى وجدتنى أتحدث معها فجأة عن الزواج ، وبكلمات سريعة وصلنا إلى الحديث عن الخطوات العملية التى يجب أن نتخذها ، وانتبهت أثناء الحديث إلى أنى اندفعت فى شىء خطير ، ولكنى لم أخف ، بل على العكس رحبت باندفاعى ، كأنى وجدت شيئا مثيراً مسلياً ، يخرجنى من كسلى ومللى ، ولاحظت لدهشتى أنى أتمادى فى الحديث عن الزواج حتى أنى طلبت منها أن تحدد لى موعداً لزيارة أمها ..

صدقتنى سامية ، وكانت منفعلة ، لماذا لا تصدقنى ، ولماذا لا أتزوجها .. ما الذى أخشاه الآن ، إن معى النقود ، ومستقبلى مفتوح ، وسامية تريد الزواج منى ، فلأقدم لها نفسى ، سأمنحها حبى ، وسأجعلها تعيش حياة باهرة ، سأرى فى عينيها نظرات الامتنان والحب ، فأنسى ما أراه فى داخلى من بشاعة طارئة ، سأغسل الشر الجديد الذى اكتسبته ، بأن أكون زوجاً مثالياً لسامية ..

وزرت بيت سامية ، قابلتنى أمها ، سيدة غريبة .. أصابعها مصفرة من تدخين السجائر ، صوتها مبحوح وعيناها جريئتان ، تتظاهر بالعظمة فى بيت فقير ، كانت تتحدث كممثلة وتتكلم عن باشوات ماتوا ، وتروى قصصاً عن

عائلات قديمة ،تريد أن تخدعني بانتسابها إلى أصل عريق ،لم استرح لها ، وسخرت منها بيني وبين نفسي ، وعندما سألتني في غباء عن عائلتي ، كنت اتحداها واسألها عن عائلتها هي ، ولكني عدلت عن مهاجمتها ، وفضلت أن أمثل دور الشاب الخجول الطيب ، لم أشأ ازعاج سامية ، إني اعلم انها لا تطيق الحياة في هذا البيت وسأقبل راضيا أن أقوم بدور الفارس النبيل الذي يخلص حبيبته من المكان الذي تتعذب فيه ..

بعد انتهاء الزيارة ، سألتني عن شعوري ، فواصلت تمثيل دور الساذج الطيب ، وقلت لها إني كنت خائفاً من رفض أمها ، بدا أنها مستريحة لكلامي ، كانت المسكينة تخشى أن أقول كلاما سيئاً عن أمها .

وحددنا موعد الزواج يوم الخميس المقبل ،وانشغلت سامية بالاعداد لهذا اليوم ،ونسيت الحب ،والعواطف التي نتبادلها ،ولم تعد تتكلم إلا عن البيت والفساتين ، وترسم خططا للمستقبل ، ولا تقضي معي أكثر من دقائق ، ثم تنظر في ساعتها ، وتجري لاهثة إلى الشارع لتشتري شيئا من دكان ..

كنت أستمع إليها ،وكأنها تتحدث عن زواجها من شخص اخر واعجب من انهماكها وانفعالاتها ، ثم أتركها وأنغمس في عملي ،وقد أتذكر أثناء عملي إني سأصبح زوجا بعد أيام ،فأدهش ،وتقفز إلى رأسي صورة شهدي باشا ،ترى ماذا يكون رأيه لو علم بما أن مقبل عليه ،ثم أدع التفكير وأعود إلى عملي ..

ولكن تفكيري في رأى شهدي باشا ألح عليّ ،فلم أجد مفراً من الاتصال به ، وذهبت إليه في مكتبه .

قلت وأنا ابتسم محاولاً ان أصور له الامر على انه شيء عادي :

- الظاهر ياباشا إني ح أعملها واتجوز بكرة ..

فتجهم وسألني بصوت حاد :

- إيه الكلام ده ..
- معلهش ياباشا ..
- وح تتجوز مين ..
- سامية ..

صاح منفجراً ..

- أهو ده اللي كنت عامل حسابه .
- أنا باحبها ..
- هز رأسه بعنف ، وقال غاضباً ..
- مافيش فايدة .. كل ما أدور على واحد فيه أمل .. يطلع فيه عيب ..
- سعادتك زعلان من إيه ..

قال في لهجة يائسة :

- موش زعلان ولا حاجة .. روح اتجوزها ..

ثم رفع صوته متحدياً :

- بس أعرف كويس إن ده ح يكون له تأثير كبير على مستقبلك ..

انقبض قلبي وقلت واجفاً :

- تأثير إيه ..

قال مؤكداً :

- خطير .. خطير جداً ..
- وإيه دخل سامية بعملي ..

صاح :

- السمعة .. المركز الأدبي .. كل حاجة ..

قلت محتجاً :

- أنا باتجوز .. يعني بأعمل حاجة صح ..

هتف ..

- لا يابني .. أنت غلطان .. ده موش صح .. الصح انك تعرفها من غير جواز .. تبقى شاطر .. إنما تتجوزها وتبقى مراتك وأم اولادك قدام الناس وتاخد اسمك .. ده اللي موش صح .. ده اسمه عبط .. اسمح لي .. أنا زي والدك .. ولازم أصارحك ..

ترى ما الذي كان يقوله والدي لو كان حيا ، لا أظن أنه كان يعترض بعد زواجه من مبروكة ، هجمت الكلمات على لساني .. أريد أن أقول له إن أبي كان

يوافق على هذا الزواج ، ولكني لم أجسر ، أبي تزوج خادمة ، وأنا أتزوج ممثلة مبتدئة ، فتاة سيئة السمعة ..

وأمسك شهدي باشا بسماعة التليفون .. وفاجأني بأن طلب محمد ناجي ..

- ح تقوله إيه ياباشا ..

قال في ضيق :

- ح أقوله يحاول يمنعك من ارتكاب غلطة العمر ..

ضحكت بالرغم مني ..

- موش كنت تكلمه من ورايا ..

قال هادئاً :

- ح كلمه من وراك ليه .. أنا اتعودت العب معاك على المكشوف ..

ودق جرس التليفون ، فرفع السماعة ، وانطلق هادراً ..

- يامحمد .. الولد يوسف اتجنن .. عايز يتجوز الكومبارس .. أيوه أنا هددته .. قلت له إنه لو عمل حاجة زي كده ح يضيع مستقبله .. وح تبقى غلطة العمر .. فكر معايا .. لا .. أنا عايزك تشوف طريقة نحوش بيها المصيبة دي .. تفتكر ما فيش فايدة من التهديد .. خسارة .. على العموم .. أنا قلت له يفوت عليك .. فكر لحد ما يجيلك .. وابقى قولي عملت معاه إيه .

ثم صاح ضاحكاً :

- لا يامحمد .. بلاش دي ..

ووضع السماعة . وهو يقهقه سألته ..

- إيه اللي بلاش ..

استمر يضحك ثم قال :

عايز يروح يكلم سامية ..

الوغد ..

اندفع الدم إلى رأسي وصحت متحدياً :

- لو عمل كده .. ح اتجوزها وأستقيل ..

قال بصوت كالفحيح :

- شفت .. أول ما فكرت في الجواز .. بديت تفكر في الاستقالة .. أنا عايز أوفر عليك تجربة مرة في حياتك .. لسه مصمم ..

قلت في إصرار ..

- أيوه ..

وغادرت مكتبه وجسدي يرتجف ورأسي يضج بأصوات محمومة .. تزوج سامية ، لا ، لا تكن مجنوناً .. شهدي باشا على حق ، أنت ترتكب غلطة العمر ، الحب لا يدوم لا تضيع مستقبلك ، أنت تكرر نفس غلطة أبيك ، آه ياأبي لقد أسأت إليك ، كنت فظاً معك ، سأتزوج سامية مثلما تزوجت مبروكة ، إني ابنك ، وسارتكب نفس خطاك ، وأواجه الناس ، كما واجهتني ، عندئذ سأكفر عن قسوتي معك ..

انتفض محمد ناجي واقفا ، ودار حول مكتبه ، وأسرع يقابلني في منتصف حجرته .. كان قلقا ، وجلس إلى جواري ، وسألني في أسى ..

- إيه اللي سمعته ده ..

- قصدك كلام شهدي باشا ..

- أنت نويت خلاص ..

- أيوه نويت ..

أطرق برأسه ، ثم قال وهو يحدق أمامه ، كالمخاطب نفسه

- طبعا أنت عارف رأي الباشا .. وعارف أنه كلمني علشان أحاول معاك ..

همست :

- كنت معاه وهو بيكلمك ..

ابتسم ..

- كده .. طيب انتهت معاه على إيه ..

- على أني مصمم ..

رفع يده إلى ذقنه وحكها ، وفتح فمه ليتكلم ، ثم عدل عن الكلام ، ونهض

يبحث عن علبة سجائره ، قدم لى سيجارة .. أشعلها بصعوبة ، كانت يده ترتجف رجفة قوية ، ولاحظت أن وجهه يشحب . وسألنى بصوت شارد :

- تفتكر فيه حد ح يدخل علينا ؟

لم أفهم ماذا يعنيه ، وقام وفتح الباب الذى يفضى إلى حجرة سكرتيرته ، وطلب منها ألا تدخل أحدا ، ثم عاد إلى مكتبه وطلب من عامل التليفون أن يقطع كل مكالماته لأنه فى اجتماع هام .. ووقف ذاهلاً ، خيل إلىّ أنه قد جن ، وأخيراً عاد وجلس بجوارى وقال كالخائف :

- أنا موقفى غريب .. ومافيش أحسن من انى أكلمك بصراحة .. طبعاً انت عارف الوضع اللى بيننا احنا الاثنين .. انت عايز نقعد وتبقى رئيس التحرير .. وشهدى باشا وراك .. عايز يعملك رئيس تحرير ..

كدت اعترض ، ولكن ما قيمة الاعتراض ، إنه يقول الحقيقة ، نعم ، شهدى باشا يدفعنى لأطرده من مكانه ، إن صراحته ليست فى حاجة إلى تعليق ، لزمت الصمت ، ومضى وهو يقول :

- وطبعاً انا من ناحيتى عايز أفضل مكانى .. بادافع عن نفسى ويمكن لو فكرت .. أقول لنفسى إن مافيش عندى فرصة أحسن من الفرصة دى .. انك تتجوز سامية سامى .. بعد جوازك ح أقدر أطعنك .. أطعنك من ألف ناحية .. يمكن حتى موش ح احتاج أعمل أى شىء .. شهدى باشا من نفسه ح يتخلى عنك .. ح يشوف إن الورقة اللى فى ايده اتحرقت .. وفين لحد مايلاقى حد غيرك يضربنى بيه ..

كانت صراحته مفجعة ، أذهلتنى وشلت تفكيرى .. فسألته فى بلاهة :

- هو عايز يضربك ليه ؟

انفرجت أساريره .. كأنه سمع كاملاً مضحكاً وقال :

- لسه موش عارف ..

قلت صادقاً :

- لا ..

- أنت بتتغابى يايوسف ..

- كل اللى سمعته شائعات ..

قال فى ثقة :

- الشائعات اللى سمعتها صحيحة .. أيوه أنا على علاقة بثريا .. موش بس كده .. شهدى نفسه عارف .. دخل علينا فى أوضة النوم .. وشافنا .. إحنا كنا سفلة .. لدرجة أن مبقاش فينا حد محتاج لأنه يخبى سفالته .. كلنا بنلعب على المكشوف ..

لقد قال شهدى باشا نفس هذا الكلام ، إنه يلعب على المكشوف ..

قلت بلا وعى :

- ده صحيح ..

فهتف :

- لكن مافيش حد ح ينتصر غير شهدى باشا .. هوه اللى ح يوصل للى عايزه .. أنا ورقة لعب بيها واتحرقت .. لكن بأعزى نفسى .. انتقمت ضربته فى شرفه .. لما ييجى النهاردة ويحاربنى باقول خالصين .

وحدق فى وجهى وقال :

- أنت إيه اللى يخليك تدخل فى لعبة قذرة بالشكل ده ..

همست :

- أنا مادخلتش أنا لقيت نفسى فيها ..

هتف :

- أبعد .. فكر فى اللى بتعمله .. افرض إنك نجحت .. افرض إنك قعدت على مكتبى .. وبعدين ، ح يبقى معاك فلوس أكتر .. طيب كويس خالص .. وبعدين .. ح يبقى لك نفوذ .. طيب .. وبعدين .. ولا حاجة .. ح تفتح عينيك فى يوم وتلاقى انك بقيت عبد .. عبد ذليل لشهدى باشا .. خدام .. شعورك ح يبقى نفس شعور السفرجى اللى فى بيت شهدى باشا .. يمكن السفرجى حالته أحسن .. لأن دى شغلته .. إنما انت بتتظاهر قدام الناس بأنك موش خدام .. ح تشعر باحتقار فظيع لنفسك .

- أنا باحس بالاحتقار ده دلوقت ..

قال فى أسى :

- شوف .. أنا من مصلحتى أنك تبعد .. من مصلحتى إنك تتجوز سامية علشان شهدى باشا يسيبك . علشان أحتفظ بشغلتى .. المرمطون الأول عند سعادة المليونير الكبير .. لكن تعرف انا باقولك بكل إخلاص .. إن مصلحتك الشخصية تعرف إيه ؟..
- إيه ؟! ..

قلتها فى لهفة وأنا على استعداد تام لتصديقه ..

- إنك تتجوز سامية ..
- أتجوزها ..
- أيوه .. إذا كنت بتحبها .. دى فرصة عمرك .. أنا ماكنش فيه حاجة حقيقية فى حياتى غير حبى للمرحومة دلال .. لوكانت رضيت تتجوزنى .. كنت سبت كل ده . كان زمانى فقير يمكن .. موش مشهور يمكن .. موش ناجح يمكن .. لكن كنت ابقى اسعد إنسان فى الدنيا .

نعم .. إنه يقول الصدق .

وقال بصوت حنون فيه شجن

- يايوسف .. اللى بيحب .. مايفكرش كتير .. الحب مافيهش كرامة .. مافيهش اهتمام برأى الناس .. الحب هو أنك تحب وبس .

بلعت دموعى .. وأنا اذكر لقائى بسامية عند حوض السباحة بالنادى الأهلى . سألتنى عن الحب ، فقلت لها نفس هذا الكلام ، لقد تغيرت .. كيف نسيت كلامى نسيت مشاعرى ، أين ذهبت تلك الأيام . انقطعت صلتى بها .. لم أعد كما كنت ، انقطعت صلتى بنفسى .

- انا ح أتجوز سامية ..

نظر إلىّ متفحصاً ثم قال :

- أنت متأكد ..
- أيوه متأكد ..

- يعنى أبلغ القرار ده لشهدى باشا ..
- أيوه .. بلغه ..

قال فى حزن :

- انا باحسدك .. أنا باتمنى لو كنت مكانك .. ولسه عندى فرصة زى فرصتك .. ماكنتش وصلت لى أنا فيه دلوقت ..

وجريت إلى التليفون وكلمت سامية ..

قلت لها ملهوفاً :

- لازم أشوفك ياحبيبتى ..

صاحت كطفلة :

- انا مشغولة .. وورايا ستين حاجة ..
- لازم أشوفك ..
- ماإحنا ح نشوف بعض بكرة .
- موش قادر استنى لبكرة ..

لم يخطر ببالها ما أعانيه .. ربما ظنت انى اتدلل فى الوقت غير المناسب ، ولكنى كنت خائفاً من نفسى ، اود لو اتزوجها فى الحال .. حتى أتخلص من مخاوف . وتواعدنا على اللقاء فى المساء . فى ساعات العصر . بدأت الأنباء تصل من سوريا .. عن انقلاب عسكرى قام به ضابط فى الجيش السورى اسمه حسنى الزعيم .. كنت مجتمعاً بمحررى قسم الأخبار لنتتبع أحداث الانقلاب ولأوزع عليهم العمل قبل ذهابى للقاء سامية ..

عندما اقتحم علينا الحجرة محمد ناجى . وانتحى به جانباً وهمس :

- أنا كلمت شهدى باشا وقلت له على قرارك .. بس رجع وكلمنى دلوقت .

وسكت ، وكأنه يجد صعوبة فى مواصلة الكلام .. توقعت من منظره أن شهدى باشا أمره بفصلى .. فذعرت وسألته :

- كلمك يقول ايه ..

قال ببطء ، عيناه مشدودتان إلى شفتى :

- عايزك تسافر سوريا ..

- أمتى ..

- دلوقت حالاً ..

شعرت براحة مفاجئة ، إنه لم يفصلني .. بل هو يحاول محاولة أخيرة لمنع زواجي ..

وهمس محمد ناجي :

- طبعاً موش ح تسافر ..

ترددت وفكرت في السفر .. وفي الهرب من الزواج ، وأدرك محمد ناجي ما أفكر فيه ، فظهر القلق في عينيه . ونظر إليّ متوسلاً ..

لو سافرت فمعنى ذلك أني سأمضي في تنفيذ خطة شهدى باشا لن أتزوج وسأطرده لأحتل مكانه . قلت في هدوء غريب :

- أنا بافكر أسافر ..

قال بصوت أجش وفي أدب شديد :

- حاضر .. أنا ح أعمل كل الترتيبات علشان تسافر في الحال .

وتذكرت موعدي مع سامية .. فقلت في برود القاتل المحترف :

- ح أسافر بكرة الصبح ..

لم يرد عليّ ، استدار وانسحب وواصلت اجتماعي . وأعلنت المحررين بسفرى ، وانفض الاجتماع وذهبت إلى الشقة أنتظر سامية ، ليس في رأسي أفكار ، ولا قلق ، ولا أي شيء . جاءت سامية تثرثر . إنها حائرة تريد دعوة صديقاتها ، تندم لأنها لم تستعد لفرح كبير .. ثم تعود وتقول إنها مرتاحة لأن كل شيء سيتم في هدوء ، استمعت بلا خجل ، ولا تأنيب ضمير .. إنها تتحدث عن زواجها من شخص آخر ، أنا لست يوسف الذى أحبها ، أنا يوسف آخر ، أنا رئيس تحرير الأيام .. أنا صديق شهدى باشا .. أنا المسافر وراء أحداث سوريا ، دورى في الحياة أخطر بكثير من هذا العبث الذى تتحدث عنه ..

- بتحبني ..

- أيوه ياحبيبتي ..

- ح تديني الحنان اللي أنا عايزاه ..

- أنا معنديش غير حنان ..

- تعرف أنا حبيتك ليه ..

- علشان أنا باحبك ..

قالت في مرح :

- علشان أنا متأكدة أنك ح تديني حنان .. وعلشان يوم ما قلت لي إن الحب والحنان حاجة واحدة ..

لم أهتز لاعترافها ، إنها مازالت تتحدث عن يوسف آخر غيرى ..

وافترقنا .. وأنا لا أشعر أني أخدعها أو أكذب عليها .. غداً سيقابلها يوسف الآخر ، ويتزوجها ويمنحها الحنان الذى تريده .. أما أنا فسأمضي في طريقي .. سأركب الطائرة إلى دمشق ..



الفصـــل الحــادى عشــر

تجاهلت همومي الخاصة وأنا أعمل في دمشق ، قابلت حسني الزعيم ، كان معجباً بنابليون ، مزهواً ببدلة الماريشال المزركشة ، والنياشين الكثيرة التي تزين صدره كان يتحدث وهو يرقص كطفل كبير ما أسهل أن يصبح الإنسان حاكماً وما أسهل أن ينجح ويصل إلى القمة ، قارنت بيني وبينه ، أنا أيضاً سأزهو في يوم قريب بجلوسي على مكتب محمد ناجي ، ستحمل الأيام اسمي ، وسأصبح أبرز أعلام الصحافة في مصر ، رغم ذلك أحس أن هناك خطأ ما ..

ها هو حسني الزعيم أمامي ، يتحدث معي ، وأسجل كلماته ، إنه الحاكم ، من المؤكد انه الحاكم . ولكني اشعر انه حاكم غير حقيقي .. كأنه حاكم في قصة أو حلم .

أيحدث لي نفس الشيء ..

أجلس في حجرة محمد ناجي ، ومن حولي التليفونات والأزرار ، وأتحسس خشب المكتب بيدي ، ثم يظل كل هذا وكأنه حلم ، هذا هو ما أخشاه ، نعم هناك خطأ ما ولكني لن اتراجع ، سأمضي في المغامرة حتى نهايتها ..

عدت من دمشق ومعي حديث مثير أدلى به حسني الزعيم ، ومعي أخبار وتحقيقات صحفية ، هنأني محمد ناجي ، وهنأني شهدي باشا ، وكان المحررون يلتفون حولي يستمعون إلى حكاياتي ، مبهورين كأني الساحر الذي

حقق المعجزات ، ومع ذلك فأنا لا أشعر بأني حققت أي نجاح ، النجاح ليس في قلبي وليس في رأسي ، هناك خطأ ما .

كنت أقلب صفحات الأيام ، ثم أعود إلى مقالي واسمي المنشور بخط أسود عريض ، فرأيت وجه سامية يطل عليّ ويحتل مكاناً اسمي .

كيف نسيتها طوال هذه الأيام ، لا أظن أني نسيتها ، بل كنت أتذكرها في كل لحظة مرت بي ، إني واثق من هذا ، إنها ذلك الخطأ الذي شعرت به ولم أدرك ما هو أنها المرض الذي يكمن في جسدي ويلوث طعم حياتي ، ويشعرني بأن كل شيء ناقص ، كل شيء مجرد حلم ..

ليس هناك خطأ في هذه الدنيا كلها سوى أني تركت سامية ..

النجاح سهل ، والوصول سهل ، أن أكون مثل حسني الزعيم أمر سهل ، الشيء الصعب هو أن أسلم نفسي للحب ، أحترم حبي ، لا أتخاذل وأفر منه .. الدنيا غريبة ..

ما كنت أظنه صعباً مستحيلاً ، لا يمكن تحقيقه ، اكتشفت أنه سهل رخيص ، لقد شققت طريقي بسرعة مذهلة إلى كل ما كنت أتخيله بعيد المنال ، أما ما كنت أظنه .. سهلاً بسيطاً ، فقد اكتشفت أنه صعب كأنه مستحيل ..

أحافظ على حبي ، أدافع عن حبي ، أتحدى شهدي باشا ، وأتخلى عن معركتي مع محمد ناجي ، واكتشفت عن حبي ، هذا صعب ، طموح كبير ..

أتزوج سامية ، ونعيش معاً في الشقة خلف سينما بارادي ، ولا أفكر في رئاسة التحرير ..

أهذا ممكن ..

إنه يحتاج مني إلى قوة هائلة ، يحتاج إلى جرأة حسني الزعيم ، يحتاج إلى بطولة أخطر من بطولة نابليون وهو يغزو أوروبا ..

عندما اتخذت قراري بالسفر إلى دمشق ، اتخذت القرار السهل ، يجب أن أعترف بهذا ، عندما تخليت عن سامية ، أصبحت رجلاً عادياً ، انضممت إلى ملايين اللصوص والكاذبين والطماعين ..

لو كان لي طفل من سامية ..

لو أستطيع أن أعلن بصوت جريء ، إن سامية حبيبتي ، لو تم هذا أيوجد في الدنيا شيء أجمل منه ، الدنيا تستمر ، والآباء يتزوجون الأمهات ، ويلدون الأطفال في حب ، آه ، لو تم هذا ، كنت أفنى حياتي من أجل أن يضحك طفل لحظة ، كنت أحيط سامية بذراعي فتشعر بالأمان معي ، وتسند رأسها على كتفي وتستريح ، وأشعر بالأمان معها وأسند رأسي على حجرها وأستريح ..

لم أعد أشعر بالأمان مع أحد ، لو خرجت الآن من مكتبي ، ومشيت في الأرض إلى نهايتها ، لو طفت بكل بلد في العالم لما وجدت مخلوقاً واحداً يمنحني الأمان والراحة ..

ما أشد غبائي ..

أضحي بنفسي من أجل مكتب أجلس عليه ، واسم أراه منشوراً بخط بارز عريض في صفحة جريدة ، ما قيمة القراء المعجبين ؟ وحماس شهدي باشا ، وصياح ناجي ، والنقود التي تملأ جيبي ، والعيون التي ترمقني ؟ لا شيء من هذا يعوضني عما فقدته ..

لو تعود سامية لي ، هذا هو الشيء الوحيد الذي لا خطأ فيه ، أبوح لها بسري ، وتتعانق عيوننا وشفاهنا ، ويتعانق جسدانا ، وأحيا ..

امتدت يدي إلى التليفون ، وأدرت القرص ، سمعت صوتها ، فنسيت جريمتي ، غفر لي صوتها كل ذنوبي ، كلمتها كما يخاطب المريض طبيبه ليعلنه وهو مبتهج بأنه قد شفي من مرضه ..

- أهلا حبيبتي ..

أغلقت السماعة ، انطبقت السماعة على رقبتي تفصلها ، تمنع عني الحياة ، تمنع عني الحب ، تمنع عني نفسي ..

أدرت القرص من جديد ، ملهوفاً فزعاً ، غريقاً يبحث عن النجاة في صوت يسمعه :

- سامية أرجوكي ما تقفليش السكة .. أنا يوسف ..

أنا يوسف الذي يحبك ، أنا يوسف عبد الحميد السويفي ، أمي ماتت

ونحن نسكن في شارع السد .. أبي كان عجوزاً فتزوج خادمة اسمها مبروكة ، رجل لا يخشى شيئاً ، يفرض نفسه على الحياة ، ينجب طفلاً بعد الستين ، يعشق بعد أن فات سن العشق ، يحيا ، يبتهج ، لا يرتكب الشر ، أريد أن أكون مثلهم ، مثل أبي وأمي ، مثل الناس الطيبين الذين يملأون البيوت ، الدموع في عيني ، صدقيني ، أصابعي ترتجف ، إني أكره كل ما يحيط بي ، تعالي وانقذيني ..

كانت قد أغلقت السماعة بعنف بمجرد سماعها لصوتي ، قالت قبل أن تنفذ حكم الإعدام :

- ما فيش حاجة بيني وبينك .. أنا موش باحبك .. بلاش تزعجني وهبطت السماعة كالمقصلة .. يارب ارحمني ، أية حماقة ارتكبتها ، محمد ناجي على حق ، نصحني بالابتعاد عن اللعبة القذرة ..

قال إن حبي لسامية هو فرصة عمري ، وإن حبه لدلال كان الشيء الحقيقي الوحيد في حياته .. أينتهي كل شيء حقيقي في حياتي ، أياتي اليوم الذي أعيش فيه بالكذب ، ويتبلد إحساسي ، وتخمد هذه الأصوات التي تعذبني وأفرح بما وصلت إليه .. كل الظروف من حولي تؤكد أن هذا هو ما سيحدث لي ، حياة الخنازير المنعمة ، حياة القتل البارد وجرائم الباردة ..

لا تزعجني .. لا تزعجني .. أنا لا أحبك .

أوصل الأمر إلى هذا الحد ، أصبحت شريراً تنفر مني ، كيف تسرب الشر إليّ ، من أين يجيء الشر ، وكيف يتسلل إلى النفوس ويجعل سامية تصرخ ..

لا تزعجني .

هذا غريب ..

هانذا أتذكر حياتي بالتفصيل ، أنبش كل لحظة ، أجذب خيوط حياتي ، يوماً بعد يوم ، ووجها بعد وجه ، بدأت من البداية منذ ولادتي ، منذ سذاجتي وبراءتي ، منذ كنت طفلاً خجولاً ، يندفع إلى حضن أمه ، وفجأة كان الشر ينبثق من أطراف ويسري في دمي فجأة ، أصبحت كبيراً ، أصدر الأوامر ،

واشتبك في مؤامرات ، وأسافر إلى دمشق ، وأحب وأتخلى عن الحب ، وأحتار وأقلق ، وأريد وأطمع ، وأنفر من نفسي وأعي بالضياع ..

ما السر ، أين تلك اللحظة التي تحولت فيها ، أريد أن أمسك بها وألغيها من حياتي ..

لو اكتشفت تلك اللحظة .. لو اكتشفها وأدفع حياتي ثمناً لهذا الاكتشاف .. أعرفها وأنا ألفظ أنفاسي ، وأنا أغمض عيني إلى الأبد .. أعرف اللحظة التي قتلت فيها ، أليس من حقي أن أعرف قاتلي ؟ .. ولماذا قتلني ؟ .. ومتى ؟ ..

لا فائدة ..

محكوم عليّ أن أمضي مع ذكرياتي إننا لا نعرف ، ولكننا نتذكر ، لا ندرى شيئاً عن الأسباب التي تحركنا وتصنعنا ، ولكننا نعي أننا نتحرك ونتغير وأن هناك من يصنعنا .

وبعد أن أغلقت السماعة في وجهي .. ماذا صنعت ؟ .. لا أذكر .. لا .. بل أذكر .. آه .. يومها خرجت إلى الشوارع ومشيت ، لا أريد أن أعود إلى الجريدة ، كان ورائي عمل كثير ، ومقال جديد أكتبه ، ولقاء مع شهدي باشا ، فرفضت كل هذا ، وألقيت بنفسي في غمار الناس ، حتى وصلت إلى ميدان العتبة ، والشارع الخلفي لدار الأوبرا ، ومقهى الشطرنج ..

بحثت عن أبي ..

لعلي كنت أبحث عن المعجزة التي تعيد إليّ سامية ، إنها قد تعيد إليّ أبي وأمي ، وتعيد إليّ حياة جديدة غير التي أحياها ..

رأيتهم يجلسون على مقاعدهم يلعبون الشطرنج ، مضى وقت طويل ، قبل أن يرفعوا رءوسهم واحداً بعد الآخر ، بعضهم نسيني وبعضهم عرفني ، فابتسم يحييني ثم أطرق برأسه فوق الرقعة ..

هنا ، سمعت أبي يقول :

- أنا اتجوزتها امبارح .. أنا غلطت .. لكن دي حامل مني ..

وهنا قلت له :

- أنا عايز الخمسة جنيه ..

وهنا ربت أبى على كتفى وقال :

- أنا برضه أبوك .. يمكن باخرف .. فخليك أنت ابويا .. واقعد جنبي .. بكيت ..

كانت الدموع تتساقط من عيني بغزارة ، أمامهم جميعاً ، رفع الرجل العجوز الأصلع عينيه ، كان يغني فلم يقطع غناءه ، ولكنه خفض عينيه بسرعة ، حتى يتيح لي الفرصة للبكاء ..

وانتفضت على لمسة لكتفى ، أعاد أبى ؟ .. أهو الذي يلمس كتفى ، نظرت خلفى فوجدت مخالى يقدم لي فنجان قهوة ..

وصرخ زكى بك من طرف المناضد في نهاية المقهى :

- اشرب القهوة يا أستاذ .. مخالى عاملها مخصوص .. وحاطط فيها مرصار سمين ..

وضحك كالمجنون ، وضحكت والدموع تبلل شفتى ، شربت القهوة وخرجت ، وبعد دقائق كنت أجلس في مكتبي أعمل والحزن يكتم انفاس ..

ليلتها بحثت عن شوقى ، فكرت في قضاء الليلة معه ، وفكرت في أن أحدثه ليذهب إلى سامية ليتشفع لي ، وفكرت في أن التقى عنده بمبروكة واعتذر لها ، وأسألها ان تصفح عنى ، وأرى أخى إبراهيم .

- شوقى راح فين يا محمد ؟

- ما اعرفش..

زعقت يائساً :

- راح فين ؟

- ما جاش النهاردة يا سعادة البيه ..

ترى ماذا كان يحدث لو انى وجدت شوقى في تلك الليلة ، لن اعرف ابداً .

كان لابد أن أمر بامتحان طويل ، لأعرف من أنا ، هل أنا على استعداد حقيقي للتمسك بحبي وبنفسي ، أم أنا أمر بنكسة مؤقتة ، قبل أن أوصد أبواب الماضى ، وأنطلق في حاضرى بكل ما فيه من كذب وشرور ومجد ونجاح ..

في الصباح بدأت أخوض الامتحان ، كلمت سامية ، همست :

- أنا أحبك ..

ووضعت السماعة ، قبل أن تغلقها في وجهى ..

سأثبت لها انى أحبها حتى ولو رفضتنى ، سأظل أحبها مهما فعلت ، حتى ولو كرهتنى ، حتى ولو تزوجت رجلاً آخر ، سأتعذب بحبي حتى أموت يائساً ..

ولكن سامية لم تعد ترد على التليفون ، وتولت أمها المهمة :

- عايز سامية ليه ؟

- ارجوكي تخليني اكلمها .. فتسب وتشتم ، واتحمل الإهانة راضياً ، يكفيني ان تعلم سامية أن أمها سبتنى وشتمتنى ، من حقها أن تؤلمنى ، أن تتأكد من إصرارى على حبها ..

وواصلت محاولاتى ، وواصلت الأم اطلاق قذائفها ..

عصر يوم كنت اسير في شارع قصر النيل ، فرأيتها على الرصيف المقابل ، سأذهب إليها ، واركع عند قدميها أمام الناس ، سأقبل الأرض تحت حذائها ، قفى يا سامية ، أنا قادم إليك ، امنحينى فرصة التذلل لك ..

رأتنى ، فتجهم وجهها ، وتحركت في عصبية ، قفزت من الرصيف إلى الشارع تريد أن تعبره ، جريت نحوها ، التفتت إلىّ والقسوة تشع من عينيها ، لم اتوقع ان تبلغ كراهيتها لى هذا الحد :

- سامية .. اديني فرصة ..

- ارجوك ما تكلمنيش ..

كان صوتها صارماً ، وقسوتها والكراهية في عينيها تطردانى ، فتراجعت ، لا أستطيع مواجهتها ، فتراجعت ، لا أستطيع مواجهتها ، إنها أقوى مما كنت أتصور ..

اخترقت سامية الشارع ، وأنا واقف مكاني لا أدرى ماذا حل بي ، فجأة ، رأيتها تسقط على الأرض ، ودراجة تتأرجح براكبها ثم يسقط الراكب والدراجة بجوار سامية ، مشيت نحوها خائفاً متردداً ، مازلت اتوقع أن

تصرخ في وجهي ، والتف الناس حولنا ، مددت يدي وساعدتها على الوقوف ، لمستها ، فارتجف جسدى ، ها هي سامية ، ألمس ذراعها ، ألمس فستانها ، إنها لم تضع مني ، وأنا لم أضع ، مادامت هي في الدنيا ، مادمت استطيع أن ألمسها ، فما زال عندى أمل ..

انتعشت ، وكلمت الناس بحيوية وثقة ، ووجهت إلى راكب الدراجة كلمات جارحة ، ولكنى قلتها بصوت طيب مبتهج ، لن أنسى أنه السبب في وصولى إلى سامية ..

ذهبت بها إلى صيدلية ، لتعالج خدشاً في ركبتها ، وخرجنا ، من الصيدلية ، نمشي متجاورين ، بيننا ألفة بغير كلام ، وناديت تاكسى ، ركبناه ، وذهبنا إلى الشقة ..

استقرت على مقعد ، شعرت برغبة في تقبيلها ، لكنى تراجعت ، كان عقلى ينصحنى بأن أتمهل ، وأن أنفذ كل ما كنت أتخيله عندما ألقاها ، أبكى ، وأركع أمامها ، نعم ، لابد أن أفعل هذا ..

وبكيت ..

كان بكائى تمثيلاً أول الأمر ، كنت راكعاً أمرغ وجهى في يديها ، أقبلهما ، وأجهد نفسى كي تنهمر الدموع من عيني ، لتبلل يديها وتغسلهما ، فتتأكد أنى أبكي حقاً :

- أنا موش قادر أعيش من غيرك يا سامية ..

وانهمرت الدموع حارة صادقة ، أصبح بكائى حقيقياً ودموعى حقيقية

- أنا جبان .. سافل .. شرير ..
- خلاص أنا سامحتك ..

واندفعت أروى لها كيف سافرت إلى دمشق وهربت من الزواج ، كان اعترافى تجربة غريبة ، لم أكن أعرف ماذا سأقول لها ، قبل أن تخرج الكلمات من فمي وأسمعها كما تسمعها هي ..

كلما تذكرت شيئاً قلته ، تذكرت أبى ، فرويت لها زواجه بأمى ، فقدت

الثقة بالزواج بعد أن ماتت أمي وتزوج أبى خادمة ، وتذكرت سعاد ، فرويت لها كيف تركتنى وتزوجت طبيباً لا تحبه وفقدت ثقتى مرة أخرى بالزواج ، ثم قلت لها بكلمات متلعثمة إن شهدي باشا رفض زواجى ، ولكنى تحديته ، أكدت كلماتى ، وارتفع صوتى ، قلت لنفسي إنى لا أكذب ، فهذه هى الحقيقة ، ما أغرب هذه الحقيقة ، لقد تحديت شهدي باشا فعلاً ، وصممت على الزواج ، فلماذا لم أتزوج .. لماذا ؟

قلت وأنا غير مقتنع بما أقول :

- وبعدين جات حكاية السفر .. وافقت ... كنت ح اتجنن .. هربت زى أى جبان ..

لا .. هذا كلام سخيف .. صحت غاضباً من نفسى :

- سامية .. تعالى نتجوز دلوقت ..
- لا ....

هتفت متوسلاً :

- لازم نتجوز دلوقت ..

فصاحت وقد عادت إليها قسوتها :

- أنت موش عايز تتجوزنى ..
- أنا بحبك يا سامية .. ما تسيبينيش ..

قالت ساخرة :

- احنا موش بنحب بعض .. خلاص .. بلاش جواز دلوقت ..

غمرتني راحة غامضة ، كنت مرهقاً ، لا أدرى ما الذي أفعله ، وها هى ترضى بتأجيل كل شيء ..

تأجيل كل شيء إلا الحب ، وتبادلنا الحب ..

وعطلت عقلى ، وتبادلنا الحب .

مع مرور الأيام هدأت نفسى ، وشغلت بعملى ، وكنت أذكر أزمتى النفسية التى مرت بي فأعجب . الآن أستطيع التفكير بهدوء ، بغير قرارات حاسمة ..

ما الذى يمنعنى من الجمع بين رئاسة التحرير والزواج ، سأنتهز فرصة تأجيل زواجنا ، وأحصل على رئاسة التحرير ، وعندئذ أتزوج سامية ولا يستطيع أحد أن يعترض ..

كيف أصل إلى رئاسة التحرير في الوقت المناسب ، قبل أن ينفد صبر سامية ، لابد أن أعمل بسرعة ، هل أنا شرير إذ أفكر على هذا النحو .. لا .. لست شريراً . محمد ناجي لا يصلح لعمله ، إنه عقلية قديمة ، وأخلاق قديمة .. انتهت أيامه ، وضرره أكبر من نفعه .. من مصلحة العمل أن أتقدم وأحتل مكانه ، ليس في هذا شر ، إنه سنة الحياة ، ولكن كيف أصل إلى ما أريد ..

فكرت في مصارحة شهدي باشا ثم ترددت .. لم أتعود أن أطلب شيئاً من أحد ، عندي إحساس قوي بأن الذي يطلب لا يأخذ ما يطلبه ، لقد تعودت أن أتظاهر بأنى لا أريد ، فأحصل على ما أريد .. هكذا وصلت إلى مركزى الحالى ..

عجزت عن التفكير في خطة سريعة لطرد محمد ناجي .. لم أسترح للتفكير في مؤامرة وخفت أن أحاول فأفشل ، لست ماهراً في هذه الأمور ، ومن السهل على رجل مثل محمد ناجي أن يكتشف ما أدبره له ، أفضل شيء هو ألا أدبر خطة ، وأتمسك بأسلوبي القديم ، أعمل وأعمل ، وأترك محمد ناجي ينهار وحده .. إنه لن يحتمل وجودى ..

صدق ظنى .. لم تمض شهور قليلة حتى نادانى شهدي باشا في مكتبه .. كانت عيناه تفيضان بسرور طاغ ، وكأنه في يوم عيد .. وضع يده على كتفى وهزنى برفق وسألنى :

– أنت مستعد تبقى رئيس تحرير ؟

– أيوه يا باشا ..

– خلاص مبروك ..

سألته وقلبى يخفق قلقاً :

– ومحمد ناجى ..

– ح يسافر أوروبا .. ويكتب مقالات من هناك ..

قلت خائفاً :

– أظن مش ح يرضى ..

صاح متهللاً

– دى فكرته ..

– غريبة .. إزاى ما قالليش .

قال ساخراً :

– مافيش داعي إنه ييجى يقولك إنك انتصرت عليه ..

صحت مستنكراً :

– أنا ما انتصرتش .. ما كانش فيه بيننا معركة .. بالعكس احنا كنا هاديين خالص في الأيام اللى فاتت ..

ضاقت عيناه وقال بخبث تعمد أن يظهره :

– عارف .. عارف .. أنت برىء من كل اللى حصل .. أنا السبب .. وقهقه كشيطان .

أسرعت إلى الأيام ، واقتحمت مكتب محمد ناجى ..

– إزاى ح تسيبنا ..

قال وهو يبتسم :

– البركة فيك ..

– لكن أنا موش ح أعرف أشتغل وأنت بعيد عنا ..

رفع صوته :

– لا تقدر .. وأنت عارف كويس أنك تقدر ..

– ح تنقصنا خبرتك ..

بدا عليه التردد ، كأنما يراجع كلماته ، ثم قال :

– شوف يا يوسف .. تأكد إنى موش ح أضايقك .. خلاص . أنا عايز أستريح ..

وابتسم ثم قال بصوت شارد :

ـ اوعى تفكر إني باعمل كده بسببك .. بالعكس .. يمكن ح تعرف في يوم من الأيام إن رئاسة التحرير اللي كنت بتحلم بيها دي أكبر مقلب شربته في حياتك ..

وجمت .. كان حالي غريباً .. فرح كبير في قلبي ، وحزن كبير في عقلي .. لم أطق البقاء في الحجرة .. فهمست :

ـ موش عايز مني حاجة ؟

قال في أدب شديد :

ـ لا .. متشكر ..

وقبل أن أغادر مكتبه ، قال باسماً :

ـ على أي حال احنا لسه قدامنا شهرين قبل ما أسافر .. طبعاً ده سر ..

ـ طبعاً ..

أهكذا تم كل شيء ، حققت أحلامي ، ووصلت إلى القمة .. لا أصدق .. هناك خطأ ما .. الذي يفزعني أن سامية تحبني .. وسأتزوجها ، إنها ليست الخطأ الذي أشعر به .. إنه خطأ ضخم ، بشع ، ولكني لا أعرف ما هو ..

لم أبح لسامية بالسر ، حتى لا يحدث أي خطأ من جانبي يؤدي إلى عرقلة خروج محمد ناجي من رئاسة التحرير .. وكنت أقابل سامية فأحاول أن أستعيد معها أفراحنا القديمة ، ولكنها منذ رجوعها إليَّ وهي تعاني من اضطراب أعصابها ، أحياناً تضحك وتمرح وتسعدني ، وأحياناً تغضب لأتفه سبب ..

ـ أنت كنت فين ..

ـ عندي شهدي باشا يا حبيبتي .

ـ يا فرحتي بشهدي باشا بتاعك ..

وتستفزني حتى نتشاجر ، لم أعد أفهمها ، وأصبح لقاؤنا مرهقاً .. تهجم عليَّ تقبلني ، ثم تدفعني بيدها ولا ترضى أن أمسها .. أسألها أن نسهر الليلة فترفض ، وتصمم على زيارة صديقتها يولاندا وتعود إليَّ لتغيظني بأنها

رقصت مع شبان لا تعرفهم ، فأثور وأغضب وينتابني الشك في صواب زواجنا .. ثم تضحك فجأة ، وتقول ببساطة :

ـ أنا باغيظك ..

ـ يا سامية دي موش طريقة ، احنا ح نتجوز ..

تقول بغير اكتراث :

ـ أنا موش بتاعة جواز ..

وتنظر إليَّ في إغراء ، أتقدم منها ، محاولاً مصالحتها ، والحب يتفجر في قلبي ، فتصرخ :

ـ ابعد عني ..

ـ إزاي تكلميني بالشكل ده .

ـ عاجبك ، عاجبك .. موش عاجبك نسيب بعض ..

أكتم غضبي ، لن أتراجع فيما اعتزمته .. لن أتركها أبداً ، إنها لا تثق بي ، وهي على حق ، لابد أن أتحمل اضطرابها وعنادها حتى أستعيد ثقتها ..

قبل أن ينتهي الشهران بأسبوع واحد طلبت مني فجأة أن أتزوجها في الحال ..

ـ طيب يا حبيبتي .. بس بعد شوية ..

ـ ليه ؟ ! ..

ـ الدنيا مقلوبة في الجرنال .. علشان أديكي فكرة .. محمد ناجي ح يسيب رياسة التحرير ، وأنا ح ابقى مكانه ..

لم تكترث بالنبأ ، كأنه لا يعنيها ..

وقالت في عناد :

ـ لازم نتجوز دلوقت ..

ـ خليكي عاقلة يا سامية ..

فثارت قائلة :

ـ دي آخر علاقتي بيك .. راقبتها في ذهول ، وهي تندفع نحو الباب ، وتصفقه وراءها ..

كدت أجن ، أهذا هو الحب الذى من أجله أوشكت ان أضحى بعملي ومستقبلي .. فلتذهب إلى حيث تريد ، ولكنى أعرف الآن جيداً أنها لا تستحق أن أحطم حياتى من أجلها .

وانشغلت عن سامية بأحداث سريعة ، إذ فوجئت بشهدي باشا يمهد لرئاستي التحرير ، بإجراءات حاسمة ، كان أبشعها القبض على شوقى .. قال في هدوء شديد :

- الواد الشيوعى اللي عندكم .. أنا ريحتك منه ..

وحدق في وجهى .. كانت أطرافي مثلجة ، وهمست :

- أمرك يا باشا ..

- انا عارف انك ح تتضايق ، لكن ده أحسن .

قلت بصوت مخنوق :

- انا خايف يكون مظلوم .

صاح محتداً :

- ماتبقاش اهبل .. أنت داخل على شغلانة كبيرة .. رئيس التحرير ده قائد جيش بيحارب . ما يقدرش يخلى في صفوفه خونة ..

قلت يائساً :

- أنا موش مستعد اتناقش في الموضوع ده ..

أطرقت وقد امتلأ رأسي بوجه محمد ناجي يبتسم ساخراً ويصيح في شماتة :

- ح تبقى عبد ذليل ..

بعد يوم أو يومين كنت أجلس على مكتب محمد ناجي ، أستقبل التهانى من المحررين والزائرين ، والتليفونات تدق ، والبروفات تتكوم على مكتبي ، وأنا واثق أن هذا غير حقيقي ، مجرد حلم ..

وغادرت المكتب ، ومن خلفى حاشية كبيرة ، وهبطت إلى الباب الخارجي ، ووقفت أنتظر عربتي الشيفروليه الجديدة ، التى اهداها لى شهدى باشا ..



اقبلت العربة ، وفجأة مرق أمامها طفل صغير ، كانت تدهسه .. انخلع قلبي ، وقبل أن أفيق هجم الطفل عليّ وفي يده ورقة ..

حاول بعض من حولي أن يطردوا الطفل ، ولكن شيئاً في عينيه شدني إليه ، عيناه تنفذان في عيني ، وتحركان حنيناً غامضاً نحوه ، وخوفاً منه ..

مددت يدي وأخذت الورقة منه وهو يرفع رأسه الصغير إليّ ، وعيناه ما زالتا خطيرتين نافذتين .

وقرأت ..

سيدي المحترم سعادة يوسف بك ادام الله عزة أمين ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

.. أما بعد مقدمه إبراهيم عبد الحميد السويفي ..

أخي إبراهيم ...

●●

هربت من وجه إبراهيم إلى الورقة التي في يدي ..

شقيقكم المخلص الوفي الأمين .. عطفكم وكرمكم .. فقير يتيم .. ليس عنده طعام ..

كذب ..

هذا الطفل ليس أخي .. مجرد متسول جاء يبتز نقودي ، يلوث عربتي الجديدة . يهدم الاسم الكبير الذي صنعته ، يؤذي أحلامي ، لن أصدق حرفاً واحداً في هذه الورقة ولكني محاصر ، كيف أرفع وجهي عن الكلام المكتوب وأواجه عينيه ؟ كيف أقول له ما في نفسي ؟

وسمعت صوتها ، صوت مبروكة

جاءت الخادمة ..

ابتسمت .. لا أملك سوى أن أكون لبقاً ، مراوغا ، أزمة قصيرة ثم أركب عربتي وأهرب ..

ـ ازيك يامبروكة ..

أخفيت الورقة في جيبي ، ومددت يدي أصافحها ، سيقولون إنني رجل متواضع ، أمد يدي للفقراء إنها تقبل يدي ، حسنا فعلت ، لن يدرك أحد أنها زوجة أبي ، سأرد لها المجاملة ..

مددت يدي وتحسست رأس إبراهيم ..

قالت :

ـ شفت كبر إزاي ؟

ـ ماشاء الله .. بأه راجل أهه

كأني راتب بك ، أو شهدي باشا ، لم يبق إلا أن أتخلص منها ، أخرجت جنيها ، خذيه واذهبي ، إني ادفع الثمن ، اشترى لحظة الخلاص ..

صرخت ..

ـ أنا موش عايزة فلوس ..

ما الذي يقوله شهدي باشا في هذا الموقف ..

ـ أمال عايزه إيه ..

ـ ح تدينى فلوس وتسيبنى

صوتها مجروح ، جرحي أعمق يامبروكة ، ابعدي ، لا ، لن أضعف ، لم يعد هناك مجال للتخاذل ..

ـ أنا مستعجل دلوقت ..

ـ رايح فين ..

ليس من حقك أن تسألي ، ذاهب إلى نادي محمد علي ، سأقابل شهدي ، سأشرب الويسكي بالصودا ، ذاهب بعيدا عنك ، مكتبي نظيف ، نادي محمد علي نظيف ، لا تراب ، ولا فقر ، ولا تسول ..

هجموا عليها يبعدونها عني ، دخلت عربتي ، كانت تصرخ ، تولول ، تريد إيقاف العربة ، ولكن السائق اقتحم طريقه ، ابتعدت .

يوسف يارخيص ، ياسهل ، ياضعيف ، تفر من الخادمة من الطفل ، إلى أين تمضي ، لن يخلصك منها إلا سماع نبأ مصرعهما ، لن تتخلص منهما أبداً ، ستذكرها ، القلب ينبض ألما وحزنا ، الأنفاس تصعد وتهبط محرقة ..

السيارة تبتعد ، مبروكة تختفي مازالت تصرخ ، اقالت شيئا ، لن يصدقها أحد ، السيارة لا تبتعد مبروكة هنا ، في راسي ، في يدي التي تحسست رأس الطفل ، في يدي التي اخرجت الجنيه ..

هربت من أبي ثم عدت إليه وطلبت منه النقود . خمسة جنيهات ..

إنها ترفض النقود ، إنها لا تهرب لا تهرب ، تقتحم ، وتهاجم ، لا تهرب ، وترفض النقود ..

أنا برضه أبوك .. يمكن باخرف .. فخليك أنت أبويا .

ح تديني فلوس وتسيبني ..

سامية أرجوكي ما تقفليش السكة .. أنا يوسف ..

إحنا موش بنحب بعض .. خلاص .. بلاش جواز دلوقت ..

غلطة العمر .. غلطة العمر ..

أنت مستعد تبقى رئيس تحرير .. ما تبقاش أهبل .. انت داخل على شغلانه كبيرة .. أنا ريحتك من شوقي ..

سعد عبد الجواد في سوهاج .. اخي يوسف ..

لا .. لن أستمر في تذكر هذه الحقارة . انتهت المهزلة ، ماذا أريد أن أعرف أكثر مما عرفت ، لا شيء أقدح مما حدث ، ارتفعت إلى رئاسة التحرير ، وجلست على مكتب محمد ناجي ، وركبت العربة الجديدة ، وجاء شقيقي الطفل يمد لي يده بورقة كشحاذ ، يقول إنه جائع يتيم فقير ..

كفى ..

- ما تضربش كلاكس ياعثمان
- السكة زحمة ياسعادة البيه ..
- امشى على مهلك .. موش عايز اسمع صوت الكلاكس ..

على مهل ، على مهل .. لا تهرب من القذارة ، املأ بها فمك ، اجترها .. تجرعها ببطء ، تلكأ وأنت تتجرع ، تمهل وأنت تبتلع القيء .

أنا يوسف ..

يوسف عبد الحميد السويفي ، أكبر وألمع الصحفيين والكتاب في مصر

والشرق العربي . أنا الذي يدعو إلى الاشتراكية ، أنا الذي يضرب فيقتل ، أنا الذي يرضى فيرفع ، أنا الذي يسخط فيهدم .

حياتي بلا خطأ ، قاومت الضعف والغباء ، انتصرت على الرخيص التافه ، لا ادخن إلا السجائر ، ملابس أنيقة ، العطر الغالي يفوح من شعري ، الأيام تملأني حيوية وشباباً ، وجهي يزداد براءة وطفولة .. أنا المخلص الأمين الذي يثقون فيه ..

الثورة قامت وخلعت الملك ، انهار محمد ناجي ، وتزوج عشيقتي .. الطيور على أشكالها تقع ، النفوس الرخيصة تتجمع ، وأنا أبتعد وأترفع ، لا أتصل إلا برجال الثورة ، شهدي باشا ينتفض أمامي .. يتوسل إليّ في المساء أن أفهم نظرياته الاقتصادية لأبلغها للمسئولين ، أهز رأسي ، وأنفث الدخان في وجهه ، وأضحك .. وأطمئنه ، وأنا أعلم بقرار تأميم شركته . إنه كلب ، لا أكثر من كلب ، أراد أن يستغلني ، أراد أن يحولني إلى أداة لبسط نفوذه وارتكاب جرائمه . كان يظن أني محمد ناجي آخر ، عبد ذليل يرضخ له . هو الآن العبد الذليل الذي يرضخ لي ، هؤلاء الرأسماليون يجب القضاء عليهم واحدا بعد واحد ..

ذات يوم ، اتصل بي ضابط في المخابرات ، وجاء يزورني في مكتبي .. قال في ارتباك إن امرأة ساقطة اسمها ريري ، تتحدث عني بكلام غريب ، تقول إنها زوجة أبي ..

قلت في هدوء :

- ايوه ده صحيح ..

أنا شهيد ، خرجت من الفقر ، تلطخت بالعار ، أنا ابن هذا الشعب ، الذي قاسى وعانى الذل .

نظر إليّ الضابط في احترام شديد وقال :

- سيادتك راجل عظيم ..

قلت وأنا أتنهد ساخراً :

- سيادتي راجل بيتعذب ..

- إحنا بنفخر بيك ..

تدفقت الكلمات من فمي :

- أنا مع الثورة بقلبي موش بعقلي بس .. لأني شفت القرف اللي إحنا عايشين فيه ، شفت واحدة زي مبروكة بتبقى ريري علشان تعرف تعيش ..

وتنهدت مرة أخرى وهمست في أسى :

- تسمح لي أنده لحمدي ..

نظر إليّ في غير فهم ، ولكني رفعت السماعة ، وطلبت حضور حمدي على الفور ..

- حمدي راجل أمين .. وبيشتغل من زمان هنا .. في الإدارة ..

وجاء حمدي ، قلت له :

- أنا عايزك ياحمدي تقول للبيه .. اللي إحنا عملناه مع مبروكة ..

- فاجأه طلبي ، فتلعثم ، ثم بدأ يروي للضابط ..

- يوسف بيه بعتني .. أعرض عليها نفقة .. مارضيتش .. وشتمتني .. بعتني تاني وقلت له إحنا مستعدين ندفع لك خمسين جنيه في الشهر ، بس تبعدي .. يعني ما تعملشْ اللي بتعمله .. برضه شتمتني ومارضيتش ..

همس الضابط بعد خروج حمدي :

- أنت عملت اللي عليك ..

هتف محتدا ..

- أنا بأكتب عن الاشتراكية بدمي .. بأكتب علشان مبروكة

قال في احترام كبير :

- أظن ده مفهوم عند المسئولين .. وأنا جاي هنا علشان نشوف طريقة ندافع بيها عنك ..

صحت :

- موش عايز دفاع .. موش محتاج له .. لو حبيت أني ألف وسط ميدان التحرير وأعترف للناس إن ريري هي مرأة أبويا .. أنا مستعد .. دي موش



فضيحة .. ده شرف .. أنا متحور متهان .. لكن بأحارب علشان أسترد شرف .. مبروكة ما تهمش دلوقت .. المهم .. إن مافيش غيرها يتبهدل زيها .. إحنا بنعمل علشان مجتمع أفضل ..

وأغرورقت عيناى ..

وأغرورقت عينا ضابط المخابرات خرج مبهورا ، يؤمن بأني شهيد .. يقسم بأني نبي ، العق الأبرص ، ارتفع فوق آلامي من أجل وطني ، من أجل الناس ..

نقل الضابط ما دار بيني وبينه إلى رجال الثورة ، رأيت الشفقة في عيونهم ، ورأيت الاحترام والثقة ، ورأيت مستقبلي يتفتح إلى مجد أكبر ..

كذبت ببراءة ، حلمت أحلاما كبيرة وأنا أصنع الشيء الرخيص ، تمرغت في القذارة ثم أعلنت في غباء أنها شرف ، نبضات قلبي تنفث الشر والخير ..

وكانت معجزتي ..

صدقوا براءتي ولم يصدقوا كذبي ، وثقوا بأحلامي الكبيرة ولم يروا أفعالي الرخيصة ، رفعوا عني القذارة وأسبغوا عليّ الشرف ، سمعوا دقات الخير في قلبي ولم يسمعوا دقات الشر ..

دخلت بثينة سكرتيرتي وقدمت لي بطاقة ..

- بيقول إنه صاحبك من زمان .. وعايز تحدد له ميعاد ..

قرأت اسم سعد عبد الجواد .. فقفزت من المكتب ، غير مكترث بدهشة بثينة ، وفتحت الباب ..

تعانقنا ..

السنون دهست وجهه ، الشيب في رأسه ، عيناه ذابلتان ، ظهره مقوس ، على شفتيه ابتسامة شاحبة ذليلة ..

ضحيتي ، إحدى الجثث التي قتلتها ، ما الذي جعلني أندفع إلى لقائه ..

لقد تورطت ..

- إزيك ياسعد ..

قال بارتباك ..

- ارجو ما أكونش بازعجك ..
- أبداً .. أبداً .. بالعكس أنا فرحان اللي شفتك .. فينك .. بتعمل إيه ..
- زى ما أنا ..
- وكيل نيابة ؟
- قاضي ..
- يعني بقيت حاجة مهمة .. الواحد يخاف منك ..

ما أسخف هذا الكلام ، إنه يعلم جيدا إني أحسن منه ألف مرة ، ما أغرب منظره ..

- أنا في المنصورة .. باجي مصر كل خميس وجمعة .. وكل مرة أفكر أفوت عليك .. وبعدين أقول لنفسي لازم مشغول .. وإلا زمانه نسيك ..

وابتسم في قلق ..

قدمت له علبة السيجار .

- اتفضل سيجار ..

نظر إلى العلبة ، وقال مترددا

خسارة فيّ ..

قلت في حماس :

- موش خسارة .. إيه الكلام ده ياسعد .

والله لا تأخذ العلبة كلها .. وألححت عليه ، حتى أصبحت العلبة بين يديه ..

وزاد ارتباكه ، واتجهت عيناه إلى الباب إنه يفكر في الخروج ..

- متجوز ياسعد ..
- وعندي تلاتة .. ولدين وبنت ..

المغفل ، يضيع وقته في أنجاب الأرانب ، يوما ما كان هذا المخلوق هو أنبغ طلبة الكلية ، إنهم لا يعرفون الحياة ، ضائعون عاديون ، لا أشك أنه سيتباهى أمام معارفه بأنه زارني ، سيزداد احترامهم له ، يجب أن أحتاط ،

ما يدريني أنه شخص نظيف ،لقد كان شيوعيا ، أيكون هناك سر وراء زيارته لى ..

- ولسه برضه عندك أفكارك إياها ..

البلاهة تطل من عينيه ، إما أنه ممثل ماهر ، أو قد نسى كل شيء

- أفكار إيه ..
- الشيوعية

ضحك فى أسى ..

- ده كان زمان ..
- بتشوف شوقى ..
- لأ ..
- أنا سمعت لحد ما طلع .. بيشتغل دلوقت هنا ..

قال بصوت ميت :

- هنا .. يعنى بتشوفه ..
- من وقت للتانى .. موش كتير ..

همس :

- طبعا أنت مشغول .. على أى حال هو .. فى حمايتك ..

لم يعد هناك ما نقوله ، انقطع الحديث ، وانتابنى ملل شديد ، رفعت رأسى وحدقت فى فضاء الغرفة ، وشردت أفكارى بعيدا عنه حتى سمعته يستأذن للانصراف .

مددت يدى مصافحا ، وقلت بصوت شارد ..

- مع السلامة ..

وخرج ، مطرق الرأس ، مقوس الظهر ، حطام ..

شوقى صاحب المبدأ فى حمايتى .. سعد الذى تخلى عن مبادئه فى حمايتى ، شهدى صاحب المال فى حمايتى ، محمد ناجى الذى انهار فى حمايتى ، إنتم جميعا فى حمايتى .

مبروكة ليست فى حمايتى ، إنها تتحدانى ، البغى ، الخادمة .

لو تموت .

إنى استغلها ، أعترف بقصتها لأستثير الشفقة ، لأدلل على دافعى الخاص للإيمان بالثورة ، الثورة من أجل مبروكة وأمثالنا الفقراء ..

آه لو يعلمون ..

لو يعلمون أنى فى حماية مبروكة ..

كم استفدت من مبروكة ؟

رفعنى سقوطها ، طهرتنى دعارتها .

لن أنسى أحداث الشهر الماضى ، البلد ثائرة ، المشاعر خصبة فياضة ، أممنا القنال ، الانجليز والفرنسيون يهددون بالقتال ، مقالاتى ترتفع إلى مستوى المعركة التاريخية .

وأطل حمدى برأسه من فرجة الباب ..

- أنا عايز أكلم سيادتك .

وجهه مريب ، صوته فحيح ، دخل كاللص ، وأخرج من جيبه خطابا ..

- الجواب ده باعته محمد ناجى من باريس .
- مقاله ..

قال بصوت مكتوم :

- أحسن سيادتك تقرأه ..

وقرأت .

الثعلب القديم مازال يراوغ ، يطلب من حمدى الاتصال بمبروكة لتثير فضيحة ، وترفع صدى قضية نفقة .

ابتسمت .. كان حمدى مضطرباً ، وجهه أصفر ..

قلت هازئا

- مالك ياحمدى .. قلقان ليه ..
- موش عارف اتصرف إزاى ..

.. ده راجل مجنون .. سيبلى الجواب ..

- وأقول له إيه ..
- ولا حاجة ..
- ولما يرجع ..
- قوله إنك رحت لها ورفضت ..

كان خطاب ناجي نصرا جديدا لى ، أطلعتهم عليه . محمد ناجي يتآمر ، يريد أن يحطمنى ، واقتنعوا بكلامى ، وقرروا القضاء عليه .

ستذهب ياناجى إلى السجن ، كما ذهب شوقي ، وستأتى سامية إلىّ ، كما أنت مبروكة .

أنت فى السجن ، وسامية فى فراشى .

الحياة بهيجة ، القوة نشوة ، النفوذ لذيذ ، المبادىء حلوة .. كالسيجار الفاخر .. ما أروع أن يكون الإنسان قوياً ، ما أروع أن يمشى الإنسان القادر فوق أشلاء ضحاياه .

يايوسف ، يارخيص .

ليس من أجل هذا ، أنت تتذكر حياتك ، لا تنس تلك الليلة التى زارك فيها شهدى باشا وأنت تتبع برقيات وكالات الأنباء .

- الظاهر أنهم ح يعملوها يايوسف ..
- تفتكر ياباشا

قال بصوت قاطع :

- أكيد .
- ما افتكرش ..
- أنا عارف الانجليز كويس .. والفرنساويين ألعن منهم .. موش ح يسكتوا .. مستحيل ..

انتابتنى قشعريرة ، خفت ، ماذا يحدث لى لو جاءوا ، أنت ياشهدى ستكون أول المنتقمين ، وناجى ، سيعلقنى بيديه فى حبل المشنقة . سينشرون قصتى فى حلقات يومية فى جريدة الأيام . سيرفعون شعار الأخلاق ، سيقولون

إنى قريب العاهرة . سيحولون الشهيد إلى فاجر . سينبشون الشر وسيجدون أنهم الخبراء فى اكتشاف الشر ..

لو أستطيع أن أكسب شهدى باشا إلى صفى ؟

- ياباشا .. أنا متفائل ..
- وأنا متشائم ..
- تبقى كارثة ..
- طبعا ..

صوته يرحب بالكارثة ، قلبه ينتظر الكارثة .. لابد أن أدافع عن نفسى ، السبيل الوحيد هو أن أستمر فى تمثيل دورى ، أتمسك بشرفى بكل ما فى قلبى من أطماع ، أقاتل ببسالة لأحتفظ بالمجد الشرير ، أرفع رأسى فى نبل ، لأظل واقفا فوق أشلاء الضحايا ..

- إحنا ح نحارب ياباشا ..
- تفتكر نقدر ؟!
- ح نموت بشرف ..
- ح نموت برصاصة تمنها مليم
- دى بلدنا .. دى مبادئنا ..

ابتسامة تمرح فى داخله ، ألمح طيفها فى عينيه ، ولكنه لا يفصح عن فرحته ، يقول شامتا :

- ربنا يقويك ..

مد لى يداً دافئة طرية ، وذهب .

وجلست إلى مكتبى أكتب مقالا ألعن فيه الانجليز والفرنسيين .

هذه الكلمات التى كتبتها ، ستكون يوما ما رصاصاً يخترق صدرى ، حبالاً تلتف حول عنقى . أليس هذا جنون . الشر يفضى إلى الشرف ، الجبن يفجر الشجاعة ، الأفعال الرخيصة تلتف بالأحلام العظيمة ، الأحلام العظيمة تصحو على الأفعال الرخيصة ..

جنون ، أم حياة ، لا أدرى . ليتنى أستطيع أن أفهم



الفصـــل الثـــانى عشـــر

ذهبنا لاستقبال محمد ناجى فى المطار ، كانت مظاهرة ضخمة .. أستاذنا الغائب يعود .. الليل مهيب ، السماء صافية ، والنجوم زرقاء ، حلوه بعيدة ..

ترى ماشكل محمد ناجى الآن ؟

وابنه شريف ؟ ..

الطفل الذى لم أنجبه ؟ الطفل الذى ضاع منى ؟ ..

كنت يوماً ما طفلاً مثله ؟ ..

يوما ما ..

كان هناك طفل اسمه يوسف .

يوسف عبد الحميد السويفى ..

الوداع يايوسف ، الوداع لآخر مرة ، فقدتك ، لن تعيدك إلىّ دموع ، ولا ذكريات ، ولا طائرات تهبط من السماء ..

ياطفلى ، ياحبيبى ، لو ألمسك مرة ، أتحسس خدك ، أسمع صوتك، أنظر فى عينيك ، أغرق فيهما .. لو تضحك معا ، يدى فى يدك .. ياطفلى ..

كم أنت حلو ..

برىء ..

بعيد ..

لم تمت ياطفلى ، يوسف عبد الحميد مازال يعيش ، يرتدى بنطلونه

القصير ، يمشي خائفا في الشارع ، يرقب أنفش من النافذة يهرب معه إلى ميدان المحطة ، يتمنى لو يأكل السمك المقلي من الدكان عند الناصية ..

يوسف يحب سعاد ، يوسف يخجل من البنات ، يوسف لايريد شيئا من الحياة ..

آه ..

الليل مهيب والسماء صافية ، والنجوم زرقاء ، حلوه ، بعيده ..

السماء تحاصرني ، الصحراء تحاصرني ، الدنيا ضيقة ، الفضاء أكذوبة ، البصر يرتد طعنه في القلب ، الخيال يرتطم بجدران الرأس الأنفاس تعود ترتد إلى الصدر ..

- يوسف بيه .. يوسف بيه .. من هذا الهاتف اللاهث ، إنه حمدي ..
- الطيارة وصلت يأسعادة البيه .
- فين ؟ ..
- ح تظهر حالا فوق المطار ..

فوق المطار ، في السماء ، كنجم ليل ، الأب والأم والابن ، هابطون يطعنون القلب ، يرتدون إلى الصدر .

- سعادتك تأمر بحاجة ..
- لا .. ياحمدي ..
- كل شيء جاهز .. الجمرك .. الجوازات ..
- طيب .. طيب ..

لو يتركني ، لا فائدة ، هاهم قادمون يلتفون حولي ، العيون تدور في السماء ، العبيد يتظاهرون بأنهم مازلوا عبيدا ، السيد القديم عائد-أنتم عبيدي أنا ، بأمري تأتمرون تبتسمون حين أبتسم ، تتجهمون حين أتجهم ، كلمة مني تحرككم ، إشارة من يدي تفرقكم ، تشيع فيكم الاضطراب ..

لو لم أكن هنا لما استقبلك أحد ياناجي ..

المطار فسيح ، الناس كالنمل ، الأنوار الحمراء والزرقاء تمتد حتى نهاية الأفق ..

كل ما أراه يعود إلى صدري .. يطعنني ..

- الطيارة أهي ياسعادة البيه .
- وصلت في الميعاد ..
- سعادتك تتفضل ؟ ..

هذه الأنوار الكاشفة لا تفعل شيئا ، تدور حول نفسها في بلاهة ، النور يعمي البصر ..

مرحبا بك ياضجيج ، ارتفعي ياأصوات ، صيحات وهتاف في الميكروفون ، وأزيز محركات ..

طنين يخمد الهمسات ..

لو تخمد الهمسات ..

- الطيارة على الأرض .. اتفضل يايوسف بيه ح ندخل عند الطيارة ..

هيا نمش كأننا في نزهة .. ابتسموا ياأولاد ، الطائرة هبطت ، المعجزة تمت ، الجريمة تعود إلى فاعلها ، هيا نمش ، سراعا ، خفافا نصفر لحن أغنية ، بعد خطوات سنلتقي بأحبابنا ..

كان لنا يوما أحباب ..

انظروا كم هذا الفضاء خدعة ، نمشي ولا نتقدم ، الجهد في القدم والمسافة لا تقصر ، الهواء يلفح وجوهنا ، والصدر يبحث لاهثا عن هواء ..

لو كان هذا حلما ..

أحلم إني في مطار .. أستقبل محمد ناجي ، وسامية ، وشريف ، ويهبطون من الطائرة ، يهبطون من هذه الطائرة الرابضة أمامنا .

ونلتقي ..

ولكن ليس حلما ..

إنه الحقيقة ..

مطار ، وطائرة يهبط منها محمد ناجي ، وسامية ، وشريف ، وتشتبك أيدينا ، وتختلط كلماتنا ولا نلتقي ..

أنا لا استقبلك ياناجى ، لا أنت ولا سامية ولا شريف ، لا استقبلكم أتفهمون ؟ ..

جئت لأعبركم ، لأتحاشاكم ..

– فتحوا باب الطيارة ياسعادة البيه ..

الليل مهيب .. يعلن الحداد على موت لقاء ..

– ناجى بيه اهه .. على السلم .. المدام وراه .

سامية ، الحب مات ياسامية تحول القلب إلى قبر ، تحول الرأس إلى حجر تتكدس فيه الذكريات ، لا شيء أستطيع أن أضيفه إلى الذكريات المكدسة

أيمكن أن أحب من جديد ؟ ..

أين المرأة التى أحبها ؟ أين المرأة التى أدفنها فى المقبرة ؟ لو أتخلص من حبك ياسامية ، لو أتخلص منك ياناجى ..

لو أنتحر يعيش يوسف ..

ياقلبى افرح .. ياوجهى تهلل ياخطوى أسرع ، يايدى امتدى ، أيتها الأشياء المركبة فىَّ ، تحركوا العبوا دوركم ، أنا سيدكم ، وأنتم عبيدى ، اطعمكم ، اكسوكم ، أنفق عليكم المال ، لا تخذلونى ، لا تخافوا ..

هاهو الأستاذ ، اتجهى ياأقدامى نحوه ، افترى ياشفتاى ابتسامة ، اتسعى ياعيناى ..

لا ..

ها هى سامية .. سامية أولا .

تمت الابتسامة ..

امتدت اليد ..

اتسعت العينان ..

خاننى صوتى ..

– أهلا .. إزيك يايوسف .. ليه كلفت خاطرك .. تعال لما أبوسك .. أنت واحشنى خالص .

أهذا صوتك ياناجى .. مازلت قادرا على الكلام ؟ الموتى يتكلمـون ؟ يعانقون ..

لابد أن أقول شيئا ، تكلم يافمى ، آه .. هذا النور الكاشف الأبله ..

– البلد نورت ..

– إزيك يايوسف ..

– موش عارفين نعمل حاجة من غيرك ..

– البركة فيك ..

– أنا ملخوم قوى ..

– ده أنا اللى محتاج لك ..

– أنت أستاذى .. آامر ..

– عايز أقعد أتكلم معاك ..

– امتى ؟..

– تيجى تتغدى معانا بكره ؟

– حاضر ..

– سامية اعملى حسابك يوسف ح يتغدى معانا بكرة ..

تكلمت ، اندفق الكلام ، كنت أظن أن الكلام محال ..

– يوسف .. أنت ماسلمتش على شريف ؟ ..

أهذا سؤال برىء يا ناجى ؟ ، تريد أن تواجهنى بطفل ، نحن نلعب لعبة الموت ، مالنا ولعبة الولاده ؟ أخى إبراهيم لم يعد طفلاً ، يقتات من مال الدعارة .. دعارة أمه تغذى جسده ، وتغذى روحى ، الويل لى من الأطفال ، الخطر فى عيونهم ..

– إزيك ياشريف .. سلم .. الله أنت مكسوف ؟ ..

لا .. أنت تفهم من أنا ..

أنا الغول ..

ياحبيبى ، دع الغول يتأملك ، اسمح له أن ينعم بوجهك ، أتعرف مكان يوسف ؟ إنه طفل مثلك ، أرأيته فى باريس ؟ ..

ـ عملت إيه فى أوروبا ياشريف ؟ .

لايجيب ، سامية تحتضنه .. تخاطبنى نيابة عنه ، أنت أم هذا الطفل ياسامية ؟ ..

حبيبتى سامية ، أتعرفين مكان ، يوسف الذى أحبك ، لو قابلك لا ترفضى حبه ، إنه يحبك ، وسيظل يحبك ..

يحبك وهو يرقب السحاب ، كان يوسف يرقب السحاب .

يحبك وهو يسمع النغم ، كان يوسف يسمع النغم ..

يحبك فى الليل ، يحبك ويطبق عليك جفون عينيه ، كان يوسف ينام .

يحبك وهو ضائع ، يحبك وهو فخور ، يحبك وهو ناجح ، كان يوسف ضائعا فخورا ناجحا ..

أوصيك به ، إنه يحبك .. سيظل يحبك ، حتى ولو اختفى كل السحاب من كل سماء ، حتى ولو لم يعد هناك ضياع ولا فخر ولانجاح أحبك ياسامية ، لا تتركينى ..

ـ عن أذنك ياأستاذ .. محمد مشى ..

ـ اتفضلى يافندم .. كدنا نلتقى ..

●●

جريدة الأيام توزع يوميا مائة وخمسين ألف نسخة ، يقرؤها أكثر من نصف مليون قارىء ، تنقل أخبارها وكالات الأنباء ، يتلو المذيع كل صباح فقرات من مقالاتى ، التليفونات تدق يهنئوننى يسألوننى عن تفاصيل الأخبار .. يريدون مقابلتى ، المحررون واقفون بالباب ، على مكتبى برقيات من لندن وواشنطن وباريس ونيويورك .. الأسطول الفرنسى يتحرك من طولون ، فرقة الشياطين تتجمع فى قبرص الجيش المصرى فى حالة تعبئة ..

أحداث ضخمة ، ولكنها لا تنفذ إلى القلب ، ترتطم بسطح جلدى وترتد ..

بعد ساعة ، سأذهب إلى بيت محمد ناجى ، وأقابل سامية ، لا شىء أهم من هذا فى العالم كله .

أريد أن أبعث يوسف القديم ، العفيف . أدخل بين سامية نظيفا لا الوثه





فأفكارى ، أبدأ حياتى من جديد ، ما فات مات .. منذ هذه اللحظة سأتنفس الصدق ..

ياناس ، يا أهل مصر ، يامن تحتشدون لمحاربة العدو ، يامن تدافعون عن قنال السويس ، هل أنتم قادرون على الدفاع عن لحظة ذكرى تمر بى ؟ .. لحظة ندم ؟ ..

هل أنتم قادرون على أن تبينوا لى ، ما هو الصدق ؟ وما هو الصواب ؟ .. أنا أعلم ..

الصدق فى نفس كذب ، الصدق انحطاط يرتفع فيه النبل ، براءة ترتكب الإثم ، طفولة تشيخ ، جسد يأمرنى وآمره ، عقل يحكمنى وأحكمه ، قلب يفيض بالحب ليفيض بالكراهية ..

الصدق تافه عظيم ، غال رخيص الصدق هو حياة يوسف ..

الصواب نصف الصدق ، الخير نصف الصدق ، الحب نصف الصدق ، العظمة نصف الصدق ..

الصدق صواب وخطأ ..

آه لو تعلمون ..

آه لو تتحملون الصدق ، آه لو تواجهون الصدق ..

أنتم تدافعون عن بلدكم بالشرف والنذالة ، تكبرون بالتضحية والجشع تحيون بالمبدأ والثمن ..

الشرف الوحيد الذى نملكه ، هو أن نعى الصدق ، أن نواجهه ، ونعيش فى تعاسة عظيمة ..

لو أكتب هذا المقال ..

لست خائفا ، الخوف ضاع ، والمعرفة أقبلت ..

لايبهرنى الشرف ، ولا يخيفنى الشر ، الكشف تم ..

من الذى علمنى هذا ؟ ..

الليل المهيب فى المطار ؟ ..

وجه شريف ؟ ..

كل الشرور التى ارتكبتها ؟ ..
إلهام مفاجىء ؟ ..
أحداث العالم ؟ ..
مازال ينقصنى شىء ..
من الذى علمنى هذا ؟ ..

●●

جلسنا إلى المائدة نثرثر ، الكلام تافه والجروح غائرة ..
سألنى ناجى ..
أنت مالك ساكت يايوسف ؟
- أبداً ..
- دى سامية عندها كلام كتير عن الموضة فى باريس ..

سامية عندها كلام كتير ؟ فهمتك ياناجى ، ما أعظمك ، ما أصدقك ، كيف ارتفعت وسموت إلى هذا الحد ؟

أنت لا تقصد الكلام عن الموضة إنى أعرف جيدا ماذا تعنى ..

تريد أن تواصل الكلام الذى انقطع منذ أمد بعيد . نواصله امامك ..

ليس هذا يأسا ولا انهيارا ياناجى ، هذا وعى من نوع غريب ، وعى رجل عظيم كأنك قابض على الحياة بين يديك ، أنت تعلم أن كل شىء قد انتهى بالنسبة لك ، ومع ذلك لا تريد أن يفوتك ما بعد النهاية ، تريد أن ترى بعينيك ماسوف يحدث بعد موتك ..

ماسوف يحدث بعد أن تترك سامية وتغيب أنت وتتركها لى .

ما أعظم تعاستك يا ناجى ..
- سامية ساكتة كمان النهاردة .. مش عارف ليه ..

أجابت سامية فى غباء ..
- الظاهر أنا تعبت يامحمد ..

افهمى مايرمى إليه زوجك ، إنه فى صحوة الموت ، تتكشف له الأسرار ، يرى ما سوف يحدث ، عودتى لك وعودتك لى ، اهناك شك فى هذا ، لو كنت

لا تريدين العودة لى ، لما رضيت بالزواج من عجوز ميت ، لو كنت لا أريد العودة لك لما حولت قلبى إلى قبر لحبك ..

سيموت ناجى ويبعث حبنا من جديد ..

يموت ناجى ؟ ها هو يصرخ فى حيوية ..

- بقى الشباب تعبان والعواجيز اللى زى حالاتى مليانين نشاط .. سايبنى اتكلم .. واتحمس .. وأستعد لكتابة مقالات ..

كأنه لم يموت ..

مت ياناجى ، نحن فى انتظار موتك ..

مت ياناجى ، إنى أقتلك ، بكل ما فى نبضى من صدق ، أقتلك ..

مت ياناجى .. آمرك أن تموت ، وجهه ملىء بالحياة .. الدم ينتشر فوارا فى عروقه ..

لا مكان لعظيمين فى هذا البيت ، أنت عظيم ، وأنا عظيم ، أنت صادق وأنا صادق ..

لا يمكننى أن أخونك ، الصديق لا يخون ، إنه يقتل ، لن ترضى سامية أن تكون عشيقتى وأنت زوجها ، أنت أقوى من الخيانة ، وأنا أقوى من الحياة ..

لو خانت سامية ، فسيكون مع شخص آخر غيرنا ، شخص غير عظيم ، غير صادق ..

اصطدمنا ياناجى ، أنت تعرف مايحدث وما قد يحدث ، أنت تعرف كل شىء ، لابد أن تموت ، الذين يصلون إلى كل هذه المعرفة لا يواصلون الحياة ، أنهم يرتفعون فوقها ..

مت ياناجى ؟ ..

ها هو يصمت ، يبتسم ، الحياة تدب فى عروقه ، كأنه يسمع همس أفكارى ..

إنى معجب بك ياناجى ، أكاد أصفق لك ، أنت تطربنى تدعونى إلى بيتك لترسم المستقبل كأنك إله لابد أن تموت يا ناجى ، الآلهة لا تجلس إلى الموائد وتأكل السمك ما أروع هذا الحديث الصامت بيننا أسمعك تقول إنى المنتصر ،

وتعترف بأنك المنهزم ، أنا الذى صعد ، وأنت الذى سقط .. أسمعك تقول إنك لا تكرهنى ، تشعر وكأنك ولدت من جديد ..

أحقا ولدت من جديد يا ناجى ؟

أنا أيضا ولدت من جديد ..

ولكن العالم لن يتسع لكلينا .. واحد منا يجب أن يذهب ، لو لم تمت أنت فى الحال ، سوف أموت أنا .

مازال صامتا ، وجهه يشحب .. هل اقتنعت بكلامى ياناجى ، أقررت أن تموت ..

صرخ محمد ناجى ..

ـ سامية ..

وجهه أزرق ، يفتح فمه بلا كلام ، صرخت سامية ، لوح بيده وقال كلاما بصوت مسموع ، صوته المسموع لا يسمعه أحد .

أطرق برأسه ، انقطع حديثه الصامت ، الدنيا تضيء بنور ساطع قلبى يرتعش ، الحب الميت ينتفض يبعث حيا ، صوتك الصارخ ياسامية يشجينى انت أنثى شهية ، جسدك البض يملأ عينى ، كأننا فى شقة سينما بارداى ، انتهى الكابوس ..

الموت مات ..

●●

دفنا الميت ، والأنثى تنتظر فى البيت ..

أذهب إليها ؟ ..

أم أذهب إلى مبروكة ؟ ..

أستطيع أن أفعل ما أريد .. أنا قادر قوى ، أمرت محمد ناجى أن يموت فمات ..

لا أستطيع أن أقتل مبروكة ؟ ..

هى التى صنعت منى الشهيد .. عذبتنى فعرفتنى على الصدق ، إنها الدنس الذى يكمل صدقى ، الخطأ الذى يصحح صوابى ..

افكر كمجنون ، كلماتى محيرة ، كلماتى تشح ، تغمض ، كأنى طفل ياويلى .. يافرحتى ..

أنا طفل ، كلماتى كلمات طفل عرفت .. عرفت ..

الذى علمنى ، هو الطفل ..

إنه باق معى ، لم يذهب ، لم يبعد ، حبيبى الطفل يوسف عبد الحميد ، أنت مختبىء ياشقى فى داخلى ..

وهنا سكت يوسف عن الكلام ..

وبذلك ينتهى القسم الرابع ، والأخير من الرجل الذى فقد ظله ..

روز اليوسف

يناير ١٩٨٨



هذا الكتاب

إنها قصة شاب مصري : يوسف عبد الحميد السويفي ، الذي باع روحه ليرتفع على حساب أصدقائه اليساريين القدامى وعلى حساب رئيسه الطيب .

وتروى القصة من ثلاث وجهات نظر : أولاها ماتروية مبروكة الفلاحة التي تزوجت والد يوسف المدرس ، ثم قصة سامية الممثلة القاهرية ، التي اضطر يوسف إلى أن يتركها كحقيبة زائدة عن الوزن في رحلته إلى الشهرة . إن الصورة التي قدمها فتحي غانم للشخصية الاقطاعية السابقة على الثورة ، خصبة في ألوانها ، كذلك كان وصفه لطفولة يوسف ومبروكة .

ولكن خيالات يوسف عن الرأسمالية لم تكن مقنعة بالنسبة لرجل يستطيع تدبير الأمور

نيويورك تايمز - ١٧ يوليو ١٩٦٦

مطابع روز اليوسف